



المشروع القومى للترجمة

الجدلية الاجتماعية

أنور عبد الملك

ترجمة
سامية الجندى
عبد العظيم حماد

916

يعود كتاب "الجدلية الاجتماعية" بعد نحو ثلث قرن إلى قاعدته التى منها بدأت المسيرة الفكرية، يدا فى يد مع المسيرة الطويلة التى انطلقت فى الأربعينيات من القرن الماضى من التحرر الوطنى والاستقلال والسيادة الشعبية تجاه الثورة الوطنية والاجتماعية التقدمية صوب ما كنا نصبو إليه من نهضة حضارية. والدراسات التى يتكون منها هذا المجلد الأول من "الجدلية الاجتماعية" تعبر عن موقف المثقف العضوى الذى يقيم عمله فى التنقيب والبحث والاجتهاد للارتقاء إلى مرحلة أكثر تقدما من الفكر فى قلب الدوائر المجتمعية، الذى يعيش فى رحاب الوطن - الأمة، الدائرة الثقافية، الإطار الحضارى - فى المرحلة التاريخية التى تحيط به، وذلك بمفهوم واضح لرسالته الإنسانية بالمعنى الأعم، ألا وهى خدمة تحرك الإطار الذى ينطلق منه ويخدمه إلى مستوى أكثر تحررا ورقيا وتقدما يصبو إلى النهضة.

الغلاف إهداء / عماد أبو غازى

المشروع القومى للترجمة

الجدلية الاجتماعية

تأليف: أنــور عبــد المــلك

ترجمة: ساميــة الجنــــدى

وعبد العظيم حمـــاد



٢٠٠٥

المجلس الأعلى للثقافة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ٩١٦
- الجدلية الاجتماعية
- أنور عبد الملك
- عبد العظيم حماد
- سامية الجندى

هذه ترجمة كتاب
La Dialectique Sociale
De: Anouar Abdel – Malek

تمت الترجمة عن الطبعة الإنجليزية للكتاب التى ترجمها عن الفرنسية مايك جونزاليس (Mike Gonzalez)، وقد تولى المؤلف مراجعة الترجمة العربية على الأصل الفرنسى.

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤
El Gabalaya St Opera House, El Gwzira, Cairo
9Tel: 7352396 Fax: 7358084

الفهرس

الجزء الخامس: الشرق فى قلب جدلية الحضارات

الجزء السادس: التوجه الحضارى فى صياغة العالم الجديد

تحية إلى رسالة

صون تزو(الصين، القرن الخامس ق. م.)
أنطونيو جرامشى (إيطاليا، ١٨٩١ - ١٩٣٧)

الذكاء الكبير يحتوى
الذكاء الصغير يفرق
الكلام الكبير يتألق
الكلام الصغير فضفاض

تشوانج تزو

الزمان هو حقل النمو الإنسانى

كارل ماركس

الجدلية فى الواقع منهج تفكير، أو بالأحرى تسلسل
متماسك من المناهج المتناسقة،
يساعد على تذويب بعض المفاهيم الجامدة
ويستحضر البعد العملى إلى ساحة الأيديولوجيات المسيطرة.

برتولد بريخت

مدخل

يعود كتاب << الجدلية الاجتماعية >> بعد نحو ثلث قرن إلى قاعدته التى منها بدأت المسيرة الفكرية، يدا فى يد مع المسيرة الطويلة التى انطلقت فى الأربعينيات من القرن الماضى من التحرر الوطنى والاستقلال والسيادة الشعبية تجاه الثورة الوطنية والاجتماعية التقدمية صوب ما كنا نصبو إليه من نهضة حضارية.

يعود هذا العمل بعد نحو ثلث قرن اهتزت فيه أركان المعمورة، و تبدل فيها النظام العالمى والأنظمة الإقليمية وأحوال مصر الوطن الأمة فى قلب دوائر الأمة العربية والحضارة الإسلامية الأوسع، وعالم الجنوب على امتداد القارات الثلاث فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

يعود هذا الكتاب الأول بفضل ما بذله الزميلان السيدة الفاضلة الكاتبة الراحلة العزيزة سامية الجندى، والكاتب الصحفى عبد العظيم حماد، فى ترجمة معظم الأصل إلى اللغة العربية، ثم من تطوع بتضبيط الأصول والترجمة، إلى أن رحب الأستاذ الدكتور/ جابر عصفور، الأمين العام لـ المجلس الأعلى للثقافة - بناتج هذا العمل - ولهم منا صادق العرفان والامتنان.

لماذا هذا المشروع الفكرى؟

انطلقت الحركة الوطنية المصرية، وفى قلبها النواة التقدمية، منذ الحرب العالمية الثانية تسعى إلى فتح الطريق. الطريق المتاح كان يتمثل فى أصداء إنجازات موجة واسعة من حركات التحرر الوطنى فى مرحلة ضعفت فيها قبضة الدول الإمبريالية التقليدية. ولكن هذه التجارب والوثبات، والإنجازات، وكذا التأزم وأحيانا الانكسار، تعبر عن واقع مجتمعات وقوميات وأمم، وكذا ثقافات شديدة

التنوع والمغايرة. كان لا بد أن تسعى طلائع حركات التحرر الوطنى والثورات الوطنية والديموقراطية والاجتماعية إلى مفاتيح، أى إلى مفاهيم تتشكل فى عدد من الكواكب تكون بمثابة أرضية لصياغة النظريات السياسية والأيديولوچية، بل والفلسفة السياسية والاجتماعية العامة. كانت هذه احتياجات طبيعية لا مفر منها. لكنها سرعان ما اصطدمت بأبواب موصدة لم تنجح المفاتيح المتاحة آنذاك فى فك طلاسمها، دعنا من اقتحامها.

عالم المفاهيم والنظريات القائمة آنذاك، أى حول الحرب العالمية الثانية فى منتصف القرن العشرين، كان يعبر عن ثمار تاريخ المجتمعات المتحضرة، كما كانوا يقولون آنذاك، أى مجتمعات الغرب فى أوروبا وأمريكا الشمالية، أى فى دائرة النظام العالمى المتمركز حول الغرب، والذى تفرع فى ١٩٤٥، ١٩٩١ إلى نظام القطبية الثنائية التى كانت قطبية ثنائية غربية يواجه فيها المعسكر الغربى الأطلنطى بقيادة الولايات المتحدة ما أطلق عليه تسمية المعسكر الشرقى الاشتراكى حول الاتحاد السوفيتى آنذاك، وهو أيضا وقد أراد لنفسه أن يكون جزأ لا يتجزأ من الغرب الحضارى.

الترسانة الفكرية، أى النظرية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كانت تتدرج فى مجموعتين: الفكر الليبرالى بعد انتصاره على الأنظمة الفاشية وهو فكر رأسمالى يعبر عن ديمقراطية الأقلية المالكة الحاكمة، ويبرر استمرار الإمبريالية، بل والهيمنة الغربية على العالم المحيط باسم الحضارة والحداثة والتقدم. وفى مقابل ذلك تبدت منظومة الفكر الاشتراكى حول نواتها الماركسية القادمة من الغرب آنذاك بدأ التعامل مع الترسانتين. فبينما سعت الرأسمالية المحلية التى أطلقوا عليها "البرجوازية الوطنية" آنذاك إلى تقليد ليبرالية الديمقراطيات الرأسمالية الغربية، اتجهت الحركات التحريرية الشعبية الثورية إلى استيعاب مفاهيم الماركسية للإفادة من تجارب المجموعة الاشتراكية فى الغرب.

الطلائع التى تولت الربط بين الفكر والعمل، بين النظرية والتحرك فى الأمم الرئيسة لعالم الجنوب، وخاصة دائرة الشرق الحضارى – فى مصر والصين، فى

الهند وفيتنام والشام، فى أندونيسيا والعراق والجزائر، كانت تتبع فى الأساس مـن الطبقات الوسطى المتمكنة من ثقافة عالمية ووطنية ذات مستوى رفيع بفضل مكانة أنظمة التعليم العالى، والتفاعل المتصل الحاد والمثمر مع الحركات الفكريـة فـى الدول الإمبريالية على الضفة الأخرى من النهر. وإذا بهذه الطلائع تستشعر قـدرا غير قليل من الغرابة بل والغيرية، وكأنها تتحدث عـن مظـاهر أو تحركـات أو مؤسسات أو تيارات لا يجمع بينها وبين مثيلاتها فى الغرب المتقـدم المهـيمن إلا مفاهيم وعبارات، بل وحروف مشتركة.

الغرب يقول مثلا إن المجتمع القومى، أى الأمة، بدأ فـى قلبـه منـذ القـرن الحادى عشر الميلادى. ولكن مفهوم الأمة وهو المفهوم المشترك على ساحة الفكر الغربى كله من فلاسفة التنوير فى إنجلترا وفرنسا وخاصة ألمانيا حتى سـتالين، لا يختلف فى الجوهر عما تبدى فى عدد غير قليل من المجتمعات فى عالم الجنـوب، وخاصة فى دائرة الشرق الحضارى. إن كانت الأمة لم تبدأ إلا فى القرن الحـادى عشر فى أوروبا، فماذا مثلا عن مصر والصين وإيران الفارسية وفيتنام وأثيوبيـا واليمن، ثم اليابان والمغرب؟ مجرد مجتمعات سكانية مرحلية فاقـدة الاسـتمرارية والخصوصية؟ أجاب منظرو الغرب بـأن هـذه الأشـكال المماثلـة فـى العـالم اللاغربى إنما هى أشكال من الاستثنائية لا تمت إلى مفهـوم الأمـة بحـال مـن الأحوال. وإن كانت استثنائية، فما هى؟ وما علاقة هذه الأشكال الاستثنائية بالمفهوم العالمى الذى لا يمكن أن تتم صياغته إلا بدءا من أرضـية مجمـوع التكوينـات المجتمعية على ساحة العالم أجمع؟ ثم اتسع الأمر، واستمر يتسع حتى شمل سـاحة المفاهيم المعمول بها فى ساحة دراسة المجتمعات، مع التركيز على المفاهيم التـى تبدت بشكل ساطع فى المجتمعات اللاغربية، ومن بينها: الحكم الـديمقراطى، دور الجيش فى الأمة، الثقافة الوطنية، الجبهة، وخاصة الجبهة الوطنيـة المتحـدة فـى مقابل الحصرى الصراع الطبقى الثنائى/ التقليدى، الحياة الروحية بوجه عام، وفى قلبها الدين والفكر الحضارى، الدولة والسلطة المجتمعية. والقائمة تطول، وترتفـع تسمية ما تتصف به حياة المجتمعات فى الشرق الحضارى بالمغايرة والاسـتثنائية

بل والشذوذ – وكأن الشرق على موعد مع التغييب، لا مكان له فى عـالم الفكـر المتحضر، أى الغربى حتى هذه الآونة، اللهم إلا إذا قبل مفكرو الشرق أن يتنكروا لخصوصيات مجتمعاتهم وإنجازاتها، وعقدوا العزم على العدول عن هذه المظـاهر الشاذة، إن جاز التعبير، الخارجة عن أصول النظرية العامة، وكذا فـرض نتـائج وأنماط التجارب وأفكار الغرب على مجتمعات الشرق الحضارى باسـم الحداثـة والتنمية والحضارة.

كانت هذه هى اللحظة التاريخية التى حددت واجـب إعـادة صـياغة الفكـر الاجتماعى: المفاهيم الرئيسية أولا، ثم منظومات المفاهيم والتصورات القطاعيـة، حتى الوصول إلى منظومات النظرية الاجتماعية فى مختلـف المجـالات. سـاحة واسعة انفتحت بعد الحرب العالمية الثانية أمام المشتغلين فى مجالات البحث العلمى والفكر الاجتماعى – ومن هنا كان مشروعنا الفكرى الذى يمثل كتـاب "**الجدليـة الاجتماعية**" أول ثماره. إذ يقدم محاولات البحث والتنقيب والتجديد التى تم إنجازها بين ١٩٦٢، ١٩٧٢، وهى المرحلة التى امتدت بين حرب السويس وعبور أكتوبر، وقد أرادت "**الجدلية الاجتماعية**" أن تواكبهما.

لماذا اتجه مشروعنا الفكرى إلى ساحة ومنهج الجدلية؟

الجو الفكرى السائد، أو الأيديولوجية السائدة فى مرحلة الحرب البـاردة بـين ١٩٤٥، و١٩٩١ كانت فى الأساس تمثل المرحلة الثانية من الفلسـفة الوضـعية. كانت المرحلة الأولى من الفلسفة الوضعية هى التى أقامتها طلائع الغرب الفكريـة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر لمواجهة نشأة انتشار الفكر الاشـتراكى. ذلك أن الفكر الاشتراكى على تنوع فصائله، وفى قلبه الفكر الماركسى، كان يصبو إلى التغيير، إلى الحركة فى مواجهة الجمود – وهو التوجه الذى نمـى بـه إلـى المنهج الجدلى، خاصة بعد أن ارتفع هذا المنهج إلى قمة مدوية على أيدى هيجـل، الوريث التاريخى للفلسفة الجدلية المثالية فى تراث الغرب التى أسسها أفلاطـون. اشتدت المعارك السياسية، وارتفع تحدى التغيير إلى مستوى الثـورة فـى مجـالى الحركات الوطنية التحريرية فى دائرة المجتمعات والبلدان التابعة. بينمـا سـادت

نوعية الثورات الاجتماعية فى اتجاه إحلال الطبقات الكادحة مكانة الطبقات الحاكمة الرأسمالية فى النواة المركزية للدول الرأسمالية الاستعمارية والإمبريالية، ومن هنا تشكلت الموجه الثانية من الفلسفة الوضعية على صورة الوضعية الجديدة، وراحت تؤكد أن إمعان النظر لتحليل التركيب الداخلى للظواهر والمؤسسات القائمـة هـو الأساس. وذلك بدلا من التركيز على إدراك التناقضات داخل ما هو قائم – فى كافة المجالات، من الاقتصاد إلـى الأنظمـة الفكريـة، مـرورا بـالنظم الإجتماعيـة والمؤسسات السياسية – وهو التوجه – المنهج الذى يكشف آليات الصـراع بـين المتناقضات ومستوياتها، أى، فى كلمة، التوجه – المنهج الجدلى (الديالكتيكى) فـى مواجهة مختلف أشكال المنهج الوضعى.

هكذا نشأت كبرى المدارس – أى الفلسفة البنيوية – الفلسفية والفكريـة فـى دائرة الفلسفة الوضعية الجديدة، وأهم تجلياتها فلسفة الظاهريات الوجوديـة وهـى التى اتخذت شكل المنهج الوظيفى أو الوظيفية على الساحة التطبيقية التى اتسـعت إلى عموم العلوم الاجتماعية والإنسانية الوطنية الجديدة تهدف إلى تثبيـت أركـان النظام العالمى والنظم الاجتماعية القائمة، دون تغيير دعنا من الثورة. كانت هـذه هى الأيديولوجية السائدة فى عصر الحرب البـاردة بـين النظـامين الرأسـمالى الإمبريالى والاشتراكى الغربى الذى فرض توجهاته علـى معظـم أنـواع الفكـر المعاصر فى هذه المرحلة: الفكر السائد بطبيعة الأمر يتدفق، يحاصـر اجتهـادات الباحثين عن الجذور التاريخية لصياغة الظواهر والمؤسسات والأفكار القائمـة أو (التاريخانية)، بحيث يضطر الباحثون إلى الاكتفاء بتفنيط ما هو قائم، والإمعان فى تحليل أدق مكوناته كما تتبدى آنيا، على اعتبار أن السعى إلى دراسـة الصـياغة التاريخية لما هو قائم بدءا من عمق المجال التاريخى، لا تختلف عما يطلقون عليه اليوم بسخاء أنه الفكر التآمرى، أى الفكر الذى يبحث عن الجذور التكوينية عميقـة الظواهر والأحداث والأفكار، وأسباب تشكلها عبر الزمان فى قوالب خصوصياتها، مما يتيح فهم الصور التى تتخذها هذه الظواهر آنيا، وهو الفهم الذى يتيح بالتـالى القدرة على التعامل معها وتشكيلها وإعادة صياغتها إلى حد التحكم فيها لـو لـزم الأمر. هكذا تتحقق رسالة الفلسفة الوضعية، ألا وهـى تجميـد الواقـع وتحنيطـه

والتنكر والتصدى لمجرد إمكانية التفكير فى تحرير الجمود وتغيير الأمور القائمة. أمر طبيعى من جانب أصحاب الهيمنة الرافضين للتجديد والتغيير حفاظا على مكانتهم ومصالحهم وامتيازاتهم بواسطة حركات القمع والحروب العدوانية.

ولكن الأمر امتد كذلك إلى قطاع واسع من الفكر الجدلى، وخاصة الفكر النابع من القطاعات التقدمية فى دول الغرب الرأسمالية إلى حد أنها انضمت إلى التنديد بما أسمته "الاشتراكية الحقيقية"، خاصة فى الاتحاد السوفيتى الأسبق، باسم منظومات الفكر الاشتراكى النقى الذى انتهى إلى دروب العجز والفشل رغم النبرات العالية، وراح يندد بالأنظمة النابعة من الحركات الوطنية التحررية على تنوعها من الشيوعية الوطنية إلى منظومات اقتصاد الدولة ومشاركة الجيوش الوطنية – أى منظومة للشرق الحضارى بأسره، وامتدادها إلى القارات الثلاث.

كانت هذه أجواء اللحظة التاريخية التى تمت منها صياغة مشروعنا الفكرى، وقد أردنا أن تكون الجدلية عنوان خطوته الأولى التى قدمناها عام ١٩٧٢، وهى اليوم بين يدى القارئ العربى بدءا من أرضنا المحروسة.

الدراسات التى منها يتكون هذا المجلد الأول من "**الجدلية الاجتماعية**" تعبر عن موقف المثقف العضوى الذى يقيم عمله فى التنقيب والبحث والاجتهاد للارتقاء إلى مرحلة أكثر تقدما من الفكر فى قلب الدوائر المجتمعية التى يعيش فى رحاب الوطن – الأمة، الدائرة الثقافية، الإطار الحضارى – فى المرحلة التاريخية التى تحيط به، وذلك بمفهوم واضح لرسالته الإنسانية بالمعنى الأعم، ألا وهى خدمة تحرك الإطار الذى ينطلق منه ويخدمه إلى مستوى أكثر تحررا ورقيا وتقدما يصبو إلى النهضة.

الفصل الأول فى كل صفحة وكل سطر يعود إلى شعبنا المصرى صاحب أمر الوطن. منه تعلمنا، ومن أجله كافحنا، وفى سبيله نحيا.

١ – لا مجال فى عملية صياغة عالم جديد للجمود الفكرى أو التخاذل والتنحى باسم ثقافة "الواقعية" المزعومة. لا مكان لتطوير النظرية، وخاصة الفكر الاجتماعى، فى دائرة مغلقة لعالم فكرى متباعد أو متعال، ما دام أن الفكر

هو التعبير المركب عن تحديات وتساؤلات وفروض وإمكانات العمل. وهو التوجه الذى أجمعت عليه كبرى انطلاقات الفكر، من الآية الكريمة ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ﴾ إلى رسالة ماركس بعد أكثر من ألف عام عن فيلسوف الأدباء فويرباخ: "لقد أكثر الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم. وقد آن الأوان لتغييره."

٢ - تعنى دراسة الجدلية الاجتماعية المعاصرة بالجمع بين دراسة دائرتين: الدائرة الذاتية أولا، أى الفئات والطبقات المجتمعية؛ ثم الدائرة الخارجية، أى الأمم والثقافات والحضارات التى منها تتكون حركة العالم فى عصرنا الذى دخل فى مرحله العولمة. إن التفاعل بين هاتين الدائرتين يتمحور حول مفهوم الخصوصية، الذى حددناه فى السبعينيات من القرن الماضى السلطة أو الهيمنة داخل المجتمعات وذلك فى الإطار الدولى الأعم - أى استمرارية وامتداد وانتقال مركز ثقل السلطة أو الهيمنة فى هذه المجموعة الواسعة.

٣ - النواة المركزية لهذه الجدلية الاجتماعية إنما هى نواة جدالية الحضارات التى تجمع بين تفاعل كبرى حركات التحرر والثورات الوطنية والاجتماعية، وبين الثورة العلمية والتكنولوجية التركيز هنا على التوجه الحضارى ما دام "أن الإنسان لا يعيش بالخبز وحده". وأن المجتمعات تتفاعل وتتصارع وتتكامل فى ساحة تتصاعد فيها فاعلية العامل الفكرى والقيمى والفلسفى والدينى - أى عامل الحضارات - بشكل متصل فى عالمنا المعاصر رغم ضجيج الهيمنة الحربية وظلمات الفكر العدمى.

٤ - إن ارتفاع نسبة فاعلية العامل الحضارى فى عالمنا المعاصر تتمثل فى توكيد مختلف أنواع ومعانى الإيجابية الفكرية ورفض الفكر السالب the negative mind ، أى الفكر العدمى الذى اتخذ منذ نصف قرن طابع الوضعية الجديدة والوظيفية حتى أشكال منمقة أطلقت على نفسها تسميات ما بعد الحداثة والتفكيكية. والفكر الحضارى يؤكد أولوية القيم الإنسانية على تنوع أنماطها التفسيرية، أى أنه يرفض كافة مناهج التنكر للعقلانية

والموضوعية والفكر العلمى وكذا الإيمانية. وفى كلمة، فإن الفكر الحضارى الذى تندرج "الجدلية الاجتماعية" فى إطاره التجديدى يؤكد إيجابية عمل الإنسان والشعوب لصياغة مختلف أنواع المستقبلات الممكنة.

ماذا بعد "الجدلية الاجتماعية"؟

كان المخطط يذهب إلى محطتين. محطة ثانية تركز على موضوع السلطة فى الدائرتين الداخلية والخارجية. وقد رأينا أن نجمع الكتابات المعنية بهذه الساحة فى كتابنا الموازى "ريح الشرق" الذى صدر عن دار المستقبل العربى عام ١٩٨٣، ثم فى طبعة ثانية فى سلسلة "الكتاب الذهبى" بمؤسسة روز اليوسف هذا العام.

ثم يأتى مقام الجزء الثالث المعنى بالتوجه الحضارى من الفكر المعاصر، وهو فى طريقه إلى النور قريبا إن شاء الله" أولا فى كتاب "من أجل إستراتيجية حضارية"، فى كتاب الرسائل الجامعة بعد حين وكلاهما فى الطريق إلى النور.

محطة أولى تكوينية فى صياغة فكر التوجه الحضارى إسهاما فى صياغة عالمنا الجديد. والله ولى التوفيق.

أنور عبد الملك

الجزء الأول

الأركان: مواقف

(١)

اللحظة التاريخية للعمل النظرى

يتعين النظر إلى كل طور أو دورة أو مرحلة فى سياق التطور التاريخى للمجتمعات الإنسانية على أن كل منها لا يعدو أن يكون فترة انتقالية. ولذا فليس هناك سوى قليل من الفائدة يرجى من الإشارة إلى المقتضيات الحتمية للدورة الانتقالية الرهيبة التى نحياها مثل التناقض والغموض وانعدام التماسك المنطقى أو التماسك المنطقى المفترض سلفا والجديد الذى يصاغ مقدما.. ذلك أن إشارة كهذه لا تفسر ولا تبرر وحدها أشكال واتجاهات العمل النظرى فى الميادين المختلفة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كما أنها لا تفسر ولا تبرر العقبات التى تعترض طريق ذلك العمل أو "المناظير" التى يجب رؤيته من خلالها .

أما إذا افترضنا شيئا آخر فإن ذلك سيفضى بنا إلى اختيار رؤية مثالية للتطور التاريخى تقبع فى طياتها النزعة الإيمانية الجديدة، وسائر الآراء القطعية الأخرى .

غير أنه لا يوجد من حيث المبدأ ما يمنعنا من قبول إطار العمل النظرى الأيديولوجى.. ذلك الإطار الذى يتسم بأنه مريح. فما لم نتمكن من إعادة تشكيل العالم تحت العدسة فى مصفوفات مزروعة من النوع الذى كثيرا ما يستهوى الباحثين حيث تغفل أعينهم تماما عن النظر إلى التناقضات والتحديات، فإننا لا نستطيع التمسك بذلك الاتجاه الوعظى المتغطرس المغرور، ومع ذلك فهذا بالضبط هو اتجاه غالبية المثقفين الغربيين.

إذن كيف نفسر الهوة التى تزداد عمقا فيما بين التفسيرات النظرية المختلفة للظاهرة المجتمعية؟ وكيف نشرح التعقيد المستمر والمتزايد لنسيج الاختلافات والتناقضات، من خلال الأيديولوجية التى تتضمن النظرية (وتقيدها) فى الوقت نفسه؟

إن الأيديولوجية بلا شك مفيدة على مستوى من المستويات ولكنها ليست كافية بحد ذاتها، ولذا فإننا يجب أيضا أن نفسر أوجه الاختلاف الداخلية فيما بين

التفسيرات النظرية التى تنتمى بوضوح "لعالم" أيديولوجى واحد، كذلك فإنه يتعين علينا أن نشرح تطور الاتجاهات النظرية لخط واحد أو متطابق داخل التفسيرات النظرية الأيديولوجية الكبرى، فهل يكمن التفسير فى النمط أو فى وزن الأيديولوجية السائدة؟

ربما.. ولكن حتى فى هذه الحالة يتبقى شئ؛ وهذا الشئ مهم. إذ كيف نفسر ذلك التباين الذى اعترف به مؤخرا، والذى يصدر عن تأثير أطر العمل المتباينة التى يتم فى وعائها التركيب الأصلى للنظريات، والمقصود بهذه الأطر هنا هو أطر العمل النابعة من الثقافة القوية التى هى بدورها جزء من محيطات حضارية كبرى.

إننا على أية حال سوف نعود إلى هذه الأسئلة الكبيرة والتى أثيرت هنا كمدخل، وفى الوقت نفسه يفترض أن مشكلة العمل النظرى يجب أن توضع فى إطار من واقع بعينه وهذا الواقع المحدد يعد بدوره مرحلة من مراحل التطور التاريخى فى الحاضر وفى المستقبل المنظور.

١ - نهاية "الإنسانية" العالمية الكلاسيكية:

لا شك أنه شئ يبعث على الضجر أن نجد أنفسنا مضطرين لقبول "الزمنية" أى لقبول فكرة السمة المحدودة فى الزمن، وبعبارة أخرى لقبول فكرة وجود حدود للزمان والمكان والأفكار (ومن باب أولى الكائنات).

فنحن نركز إيماننا فى هذه الأبعاد الثلاثة، وهى التى تبنى حياتنا، كما أنها فى النهاية هى دفاعنا ضد الموت.. ذلك الشئ الكريه، ولقد رأينا كم أنها مشكلة هائلة تلك اللحظة التى نسعى فيها لوضع الأسئلة على مستوى التعميم (العمومية) أى من خلال الرؤية العمومية العالمية الإنسانية السخية أو من خلال الرؤية القائمة على الوساطة الموسوعية العلمية، إذ كيف يتقبل المرء نزعة عالمية هى نفسها مشروطة، أى غير مطلقة وتتصف بالحتمية التاريخية كما أنها قد تحددت تاريخيا بوصفها وجهة نظر عالمية، وما الذى سوف نفعله إذا ثبت أن النزعة الإنسانية - لحظة أن تحلل وتتصدر السياق - هى ظاهرة من نفس النوع أكثر من كونها خاصية أخلاقية لا زمنية.

إنه لا يوجد بالقطع شئ من الراحة فى النموذج الذى تقدمه ظاهرة العقلانية ومطلب التمسك التنظيمى من حيث تحليل وتفسير الظواهر من كافة الأنواع التى تعبر عنها ظاهرة العقلانية، ولكن العقلانية التى نظر إليها ذات يوم بوصفها عملية مفردة أحادية البعد يعترف الآن وبعد هرقليطس وهيجل وماركس بأنها عملية تنطوى على مستويين:-

الأول صورى.. والثانى جدلى.

فإن أمكن تمييز عملية تركيب المفاهيم الواقعة فى مكان القلب من كل "فكر" على هذا النحو، وإذا ما أمكن إخضاع الطابع المفرد أحادى البعد للعقلانية الصورية والتعبير المنهجى عنها المعروف بالمنطق الصورى للنسبية فسوف يكون من الممكن حينئذ معالجة النزعة العالمية والنزعة الإنسانية بالطريقة نفسها.

ولكن غير ممكن على الإطلاق، فالنزعة العالمية والنزعة الإنسانية تشكلان نظرة عالمية ينبغى أن تفسر تبادل التأثير فيما بين المجتمعات فى عالم حقيقى، كما تفسر صراع هذه المجتمعات من أجل الهيمنة والتبعية والتقدم والتقهقر والثورة والرجعية، وأخيرا من أجل الحرب والسلام، ومن ثم فإن ما يتعين تحليله بالأساس هو دور العنف فى ميزان القوى، سواء بين سائر التكوينات القومية ذات الأساس الاجتماعى الاقتصادى أو فيما بين الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة داخل كل تكوين من هذه التكوينات، والواقع إن الحاجة إلى منطق جدلى محدد والحاجة إلى الجدلية الاجتماعية فى عالم حقيقى تمنع المنطق الصورى العادى من أداء وظيفته كما ينبغى أن تكون من عدة وجوه.

وعلى الرغم من أوستريتش[1] وهيروشيما وڤيتنام فإن النزعة الإنسانية لا تزال آخذة فى الازدهار، إذ تستمر مراكز الهيمنة فى الغرب فى التمسك بها وفى الرفض الإرهابى لثورات الصراعات الاجتماعية والقومية الهائلة أو بوصفها بالضبط مجرد انحرافات عن مقتضيات النزعة الإنسانية، بل إن بعض قطاعات

---

[1] اسم لأحد معسكرات الاعتقال النازية فى الحرب العالمية الثانية.

الحركة الاشتراكية الغربية تقدم من جانبها محاولتها للتجديد على أنها نضال لاستعادة مصداقية النزعة الإنسانية.

وهكذا فإننا نتعامل مع دفاع عميق الجذور عن النزعة الإنسانية في جميع أنحاء الروح العامة فى الغرب.. ولكن ما هو مصدرها؟

إن هذا السؤال يفرض مشكلة اللحظة التاريخية التى ظهرت فيها النزعة الإنسانية أولا فى أوروبا ثم فى الغرب ككل فيما بعد، ولقد كانت تلك اللحظة التاريخية هى زمن التوسع الأوروبى الذى أفضى إلى الهيمنة الغربية، أى إنها كانت تقع بين القرن السادس عشر والقرن العشرين.. إنه عصر الكشوف البحرية الكبرى، والمحاولات الأولى للإدماج من خلال الهيمنة على الشرق، وعصر الثورات العلمية الإقليمية السابقة على الثورة الصناعية، ثم الثورة الصناعية نفسها وثورات البرجوازية المنتصرة ضد الإقطاع ثم ظهور الرؤية الاشتراكية فى حركات العمال، وأخيرا الإمبريالية الاستعمارية والمهيمنة، وقد كان كل شئ حتى تلك اللحظة وبالرغم من الروح المسيحية نفسها مقسما بالإقليمية والطائفية، ففى عالم ذلك الزمان الذى كانت أوروبا. باستثناء الأطراف الشرقية والغربية فيما وراء موسكو وستوكهولم – كان الإيمان يفرض على غير المسيحيين بالحديد والنار بالمعنى الحرفى للكلمتين وذلك من خلال هيئات التفتيش والجيتو والمذابح، ومن ثم فلم يوجد شئ فى ذلك المناخ العميق المقيد فى أوروبا العصور الوسطى المتدهورة يدفع أحدا إلى النظر فيما وراء عالمه الخاص.

وسوف يأتى ذلك فقط بعد نشوء المجموعات الاجتماعية من الطبقات الجديدة المعاصرة، أى برجوازية التجار والبنوك البحرية، ثم بورجوازية أصحاب المصانع.. أولئك الذين أخذوا على عاتقهم وبإصرار – وفقا لقاعدة إن المزيد من العمل النشيط هو أمر أخلاقى كما تفهمها البروتستانتية – مهمة "عقلنة" عالم الاقتصاد وعالم الأفكار، ولأن ذلك العمل الأخلاقى يتطابق مع الأمانى الضمنية لهذه المجموعات الاجتماعية الجديدة وتلك الطبقات الصاعدة.

لقد أصبح جاليليو ممكنا أخيرا.. كما أصبحت ثورات النهضة والاستنارة والمعرفة الموسوعية ممكنة بدورها.

وكان من الضرورى فتح الدول الأخرى - أى العالم - لمبادرات أوروبا السياسية والاقتصادية، وفى الوقت نفسه فقد رؤى أنه من الممكن إدماج هذه الدول فى الإطار الأوروبى الذى قدم لها، ومن ثم فإن التكافؤ المسلم به بين الوحدات المختلفة من شعوب وطبقات وأجناس وأمم وثقافات وأقاليم - قد توحد داخل "جوهر" واحد هو الإنسانية العالمية، لأن أوروبا قد غضت من شأن أمريكا الوسطى والجنوبية فإنها أعادت تأسيس نفسها فى أمريكا الشمالية.

وهكذا أصبحت الرؤية الخاصة بعالم واحد إمكانية واقعية، وعليه فقد رؤى بشكل طبيعى تماما أن الجوهر أو اللب ومحور القوة والموضوع الحضارى لتلك الوحدة القوية هو الغرب.

ولكن فى سنة ١٩٤٩ كان أقل من قرنين من الزمان هما اللذان يفصلان بين الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ والمسيرة الطويلة (فى الصين) ١٩٤٩، وفى سياق هذين القرنين أدى الجمع بين التقدم العلمى والفنى والقوة العسكرية والسياسية التى أوصت بفرض نموذجها على الروح، كما أدت إرادة الآخرين وحماسهم إلى جعل مشروع العالمية ممكن التحقيق عمليا وبإيقاع سريع فى أجزاء واسعة من العالم، لقد أصبح فى المقدور فرض النزعة الإنسانية، - لأنه ولأول مرة فى تاريخ العالم - تأتى لمركز مهيمن واحد من حيث القوة والثقافة أن يسود الشطر الأعظم من العالم. أى أن العالم إذا نظر إليه من الغرب الآن يمكن أن يقدم بوصفة "المشهد العالمى".

فعلى الأقل لا يوجد ما يمنع على مستوى الافتراض من فهم مقولة إن الإنسان يجب أن يثبت أن الحقيقة هى الواقع والقوة The this – Sidedness of his thinking in practice

على أن التطبيق العملى لعالم الواقع فى الحقبتين الحديثة والمعاصرة التى يقع فيهما عملنا النظرى يكشف عن سياق من الأزمات من وجهة نظر الدولة فى الغرب المهيمن.

فمن داخل ذلك الغرب المهيمن نفسه اتخذت الجدلية الاجتماعية شكل صـراع الطبقات فى كل دولة من دوله، كما اتخذت شكل الحروب بين الدول، وفى الفتـرة من ١٩٣٩ إلى ١٩٤٥ اتخذت شكل الحرب التى كانت لأول مرة حربـا عالميـة أصيلة، حيث أشعلت كل الشعوب وكل الدول فى سياق تلك الحرب حرب التمـرد الوطنى ضد استعمار الفاشية، فى الوقت نفسه وفى نقطـة الالتقـاء بـين الفتـرة الكلاسيكية والفترة بين ١٩٣٩ – ١٩٤٥ اتخذت دولة أوروبية – هـى روسـيا – مسارا منفردا وأنشأت سلطة اشتراكية استطاعت فـى غمـار الحـرب أن تنشـئ بدورها كوكبة من الدول الاشتراكية فى أوروبا الوسطى والشرقية، وهكذا تلاشـت فترة توزيع النفوذ التى سادت فيما بين معاهدتى ڤينا وڤرساى، حقا استمر الغرب – يقينا – مهيمنا ولكن مركز القوة قد ارتحل إلى الولايـات المتحـدة مخلفـا وراءه أوروبا مستضعفة ومقسمة إلى كتلتين، ومحرومة فى السنوات الأخيرة من معظـم مستعمراتها وأتباعها فى العالم.

كانت تلك هى الدائرة الداخلية، أما الدائرة الخارجية – أى العالم التابع – فقـد مر بتطور أكثر جدارة بالالتفات إليه، فنحن نتحدث بطيب خـاطر عـن تصـفية الاستعمار.. وهو تعبير غربى محض، ومع ذلك فالعملية التى تحدث منذ بـدايات الاختراق الغربى تشكل فى الحقيقة عملية تحضر توجه فيها نشـاطات الحركـات الوطنية ضد الاستعمار أولا، ثم ضد الإمبريالية إلى اسـتهداف تحقيـق التحـرر الوطنى، لأن ذلك التحرر شرط مسبق لا غنى عنه للنهضة أو بناء الأمة طبقا لمـا كانت الدول المنغمسة فى هذه العملية دولا قومية قديمة أو تكوينات لـدول قوميـة جديدة.

وتوجد فى هذا الشأن مرحلتان كبيرتان.. الأولـى هـى مرحلـة الاسـتقلال الصورى أو الشكلى، حيث تبدو الثورة الوطنية كافية لمواجهة اسـتعمار محـدود المدى والاختراق، والمرحلة الثانية هى مرحلة الجمـع بـين الثـورة الوطنيـة أو التحرر الوطنى – إذا شئت هذا الاسم – والثـورة الاجتماعيـة والاشـتراكية. إن الوجود المتزامن فى مرحلتنا لطورين تاريخيين متداخلين من عدة وجـوه حسـب

المنطقة التي يحدث فيها ذلك.. والتطور التاريخي المحسوس.. والعلاقات الفعلية بين القوى (مع الأخذ في الحسبان إنه في داخل كل طور من هذين الطورين واحد من اختيارين كبيرين هما الوطنية الراديكالية والثورية الوطنية.. التي كانت بالأمس "مجالا" تابعا، وأصبحت الآن الساحة الرئيسية لحركات التحرر والحركات الثورية).

والعنصر الرئيسي في هذه الحركة على النطاق العالمي هو انبعاث الشرق – آسيا وأفريقيا – من جديد، وقد أسهم أثر هذا الانبعاث في تنمية الديناميات القارية في أمريكا اللاتينية، كما أسهم في تطوير حركات اجتماعية وسياسية من طراز جديد في الغرب ذاته. ويكفي أن نقارن بين حالة الشرق فيما بين عامي ١٨٥٠ و ١٨٧٠ وبين ما هو عليه الآن، فصين تجارة الأفيون قد أصبحت في أعقاب أكبر ثورة شيوعية وطنية في التاريخ واحدا من ثلاثة مراكز للنفوذ في العالم، ويابان الميجي الشريك ذو الامتيازات للغرب غدت أكبر قوة صناعية في العالم، والعالمين العربي والإسلامي بالرغم من المتناقضات التي تثقل حركتهما باتا قادرين على استعادة الدولة وثقافتها، كما أصبحا قادرين على التصنيع، بل أن أفريقيا السوداء وبالرغم من التخلف تشهد تجارب مثيرة للتنمية الشعبية في عدة أماكن منها، وفي فيتنام وكوريا فيما قبل، عرفت الإمبريالية المهيمنة طعم الهزيمة وفقدان المصداقية، وقد عبرت الحركات الأفرو آسيوية (حركات تضامن من القارات الثلاث فيما بعد) عن واقع وطموحات هذا النشاط الهائل، وفي السنوات الأخيرة خرجت من الصين نفسها نداءات مهمة تقول: العالم واحد.. فالثورة اخترقت القارات الخمس ورفعتها إلى النشاط.

لقد جاء الوقت الذي تغلبت فيه ريح الشرق على ريح الغرب.. وقد بدأ الشرق يأخذ زمام المبادرة التاريخية. ولكن هذه المبادرة ذاتها عملية جدلية تتفاعل مع الجدلية الاجتماعية للغرب، الذي قد يكون في حالة انحسار أو في أزمة، ولكنه أبدا ليس في حالة انحطاط، وإنه لأمر مهم – ودعنا نتذكر – أن نأخذ زمام المبادرة لا أن نعمل كبديل، فالوقت قد حان عندما أصبح من غير الممكن لميزان القوى الذي

تأسس لآخر مرة من قبل الغرب فى يالتا أن يتوطد بدون الشرق. وهكذا فإننا ندخل مرحلة تاريخية صعبة تعى بها الإنسانية جمعاء بطريقة مضطربة، فالمنظور المستقبلى لم يوضح بعد بصورة واضحة من جانب الشركاء الرئيسيين أنفسهم، ولكنه أصبح واضحا تماما أن المبادرة تكمن الآن فى آسيا أكثر من كونها تكمن فى الشرق بصفة عامة.

إلا أن أى شعور داخلى بالرضا عن الذات لا يستطيع إخفاء عمق الدراما الآسيوية أو دراما شبه القارة الهندية، كما إنه لا يستطيع إخفاء دراما البعث العربى أو تغير القوى فى أفريقيا.. وسوف نعود إلى هذه المسألة فيما بعد.

وثمة شهادة كاشفة عن هذه الحركة المزدوجة.. أزمة الغرب وانبعاث الشرق.. أزمة الهيمنة الإمبريالية وظهور حركات التحرر والحركات الثورية، ألا وهى الاتجاهات القلقة والمضطربة لدى الشباب فى دول الغرب.. والتى تعبر عن نفسها باليأس والنزعة اليوتوبية والارتحال المستمر.

فالجيل الذى أنشأ الجبهات الشعبية فى الغرب، والذى احتفظ بالثورة على المقاومة ودفع قدما سياسة تصفية الاستعمار، ووقف صامدا فى ستالينجراد وخرج من محنة النازية حيا.. هذا الجيل الذى قبل نتائج يالتا، وجدد صيغتها فى أثر ظهور فكرة التعايش السلمى، واستوعب اقتصاديات الماركسية "وعلم أمراض النفس".. هذا الجيل الذى كان شاهد عيان قلق ومتشكك لظهور الصين.. هذا الجيل هو الذى يدير الأعمال اليوم، وهو الذى يمثل المناصب الرئيسية فى الجهاز الثقافى، والذى عليه أن يقيس ثمن بقائه ويتولى مهمة وضع الحدود التى يفرضها هو نفسه.

وقد جاء الآن جيل جديد لا تعنى يالتا بالنسبة له أكثر من موقع على الخريطة، وهذا الجيل الجديد يكشف عالما جدليته محتواه فى شبكة من علاقات القوى بين الدول – القومية والكتل العالمية، ويشعر شبان ذلك الجيل متفقين فى ذلك معا وفى اللحظة نفسها بأنهم أكثر قوة ولكنهم أكثر تقييدا، وتنبع قوة ذلك الجيل من مزيج من

سياسات ضبط النسل منذ الحرب العالمية الثانية، والتقدم المادى فى الحياة اليومية بفعل المعونة الأمريكية (الإنشاءات – الإسكان – الطعام – الصحة – الضمان الاجتماعى – هوايات أوقات الفراغ)، كما تتبع من التوسع فى الحريات العامة والخاصة (الجنس – حرية العقيدة الدينية – الأيديولوچيات السياسية).. إن كل شئ يبدو (أمام ذلك الجيل) ممكنا إذا أمكن فقط إزالة العقبات، ولكن ما هو الهدف؟.. لا شئ فى الخفاء..

لأنه يوجد قدر كبير من العلانية وظمأ شديد للابتكار.. وهنا تصطبغ اليوتوبية بالفوضوية فى ظل النفوذ المباشر لتلك الأجهزة السياسية المكرسة لهدم أسلوب الاقتراب المحدد من الواقعية السياسية.

ذلك الأسلوب الذى يرى الجدلية الاجتماعية مكشوفة فى إطار العالم الحقيقى... عالم الطبقات والتكوينات القوية المتنوعة خلف إطار الدولة.

وهذا الجيل يستهجن – وله مبرراته غالبا – موقف الإذعان الذى يتسم به تاريخ جيل نقطة التحول الكبرى.. ذلك الجيل الذى لم يعامل بعدالة.

والمناخ العام لحركات الشباب فى الغرب هو كما وصفناه، وقد وضع عنف الشباب (الانتقادى) ضد الجيل الأكبر على مستوى أنه ظاهرة، ولكنه نادرا ما يبحث عن سبب كل تلك العقبات والسدود التى يستنكرها عن حق، إنه فى هذا الميدان كل الأشياء تحدث معا، فالشباب فى الغرب – بعد أن يتجاوزوا عقبتهم – يطرحون أسئلة جوهرية تتعلق بالضبط بالأزمة الكبرى التى أشرنا إليها، أى تتعلق بالحركة المزدوجة التى يجد الغرب صعوبة بالغة بطبيعة الحال فى التفكير فيها – بل قبولها – ببساطة.

لماذا كان سفك الدماء والموت فى فيتنام فى الوقت الذى يمكن أن تقبل الذئاب فيه التعايش السلمى؟ لماذا نشوه كوكبنا الأرضى فى وقت تبدو فيه وسائلنا قادرة على جعله مكانا إنسانيا صالحا للعيش فيه؟ لماذا نجد أنفسنا تحت وطأة نظام محافظ فى وقت من اليسير فيه للغاية الإيمان بنظام جديد للقيم الجدلية التى تضئ

المستقبل؟ ولماذا تنفى المعرفة هكذا بعيدة عن العالم الواقعى فى وقت يبحث فيه العالم بإلحاح عن مسالك تقوده إلى مستقبل من العدالة والإخاء؟ ولماذا نرفض تعلم دروس تلك الحضارة الأخرى – الشرق – الذى يتعين علينا أن نفاوضه، وأن نصل معه إلى اتفاق؟ ولماذا الإصرار على التلويح بالإنسانية العالمية بينما نحن مستمرون فى بناء المقابر الجماعية فى اللحظة نفسها التى نتكلم فيها عن الآخرين؟

لقد بدأنا بفحص الأثر الحالى والمستقبلى لـفيتنام على ضمير العالم، ففى بحار دم إخواننا إنفضحت كل صور الرياء والجرائم ومصادرة المستقبل. لقد هزت هذه القفزة الكبرى للأمام فى الوعى الغربى و النابعة من الجذور.. من الشباب والعمال.. هزت الشجرة بعنف، وغالبا ما تحقق العمل المشترك بين الشباب والعمال، وبالرغم من الأقنعة السامة التى ترتديها بعض الأجنحة، فإنه يمكن إعادة اكتشاف طريق العمل الجماهيرى. وذلك لأنه لا يزال صحيحا أن الشباب، ولا سيما العمال والطلبة، هم الذين طرحوا تلك الأسئلة الجوهرية فى عالم لم يتم تفسيره بعد. ولكن ذلك لا يعنى أن الشباب لا يزال يوحده الإيمان بثورة أكتوبر ١٩١٧ أو بالمسيرة الكبرى. إذ أنه توجد مشكلات متعددة وتناقضات ومزالق وحقائق واقعية كثيرة، ولنضع المسألة بطريقة أخرى.. فقد اتسعت جبهة الشباب بدرجة كبيرة وملحوظة، بينما أصبح محيط إيمانهم أكثر تحديدا (وتقييدا).

إذن فاللحظة مناسبة لظهور حركة قوية تمضى للبحث عن أفكار جديدة.. لقد ولدت نزعة إيمانية جديدة لا تزال بحثا أكثر من كونها مشروعا محددا، فالإيمان القديم والمشروع القديم قد ماتا وشبعا موتا فى أعين الشباب، ومن هنا جاء الطابع الجماهيرى لبحثهم، ومن هنا ينبع الرفض الذى يواجهونه، فحتى هذه اللحظة لا يزال الشئ البارز هو الأيديولوجية البسيطة، ونهاية النزعة الإنسانية.. ورفض العالمية، وباسم شعوب العالم وثقافاته وحضاراته يسعى غالبية الشباب والعمال (جانسين خلال تلك الحضارات بطريقة لا تزال مضطربة لاكتشاف أنفسهم عن طريق اليوتوبية والأفكار المجلوبة والانفتاح على الآخرين).

٢ – تكوين أيديولوچية معاصرة سائدة:

يتكشف تاريخ التغيرات التى حدثت فى الأيديولوچية السائدة خلال الفترات الحديثة فى المجتمع الطبقى ذى التكوينات الرأسمالية (اقتصادية – اجتماعية) داخل إطار أشمل من الحركات القومية وسياسات الهيمنة عن خلفية من الفلسفة المثالية والنظرية السياسية الليبرالية التى يعتقد فى كل منهما فى إطار قواعد العقلانية والمنطق الصورى.

وكان انتقاد تلك المفاهيم – بعد هيجل – واحدا من أهم إسهامات الماركسية فى الفكر الحديث والمعاصر. سواء على مستوى المنهج أو الرؤية العالمية (النظرة العالمية) ويصدر معظم ما سوف نبحثه فيما يلى عن هذه المدرسة من الفكر، بل إن تصميم الأيديولوچية السائدة نفسها يصدر عن هذه المدرسة أيضا.

وعلى أساس من ذلك التاريخ يمكننا أن نقترح الخواص التالية للأيديولوچية السائدة:

فالأيديولوچية السائدة تشكل الإطار البنيوى الفوقى.. الأفكار.. النظريات الأساطير.. العقائد.. الذى يوفر – سواء على مستوى البنية الضمنية أو الصريحة – المبرر للنظام السياسى الاجتماعى ذلك النظام الذى يقدم طريقة "الصيانة المجتمعية" التى تطورها واحدة أو مجموعة من التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية فى مرحلة معينة من تطورها التاريخى. وعلى هذا الأساس فالأيديولوچية السائدة هى عنصر واحد من بنية مزدوجة، والعنصر الآخر هو الجهاز الفعلى المختص بالعنف العقلانى (أى الدولة).

ولكن هل من الممكن تحت هذه الشروط أن نتحدث عن أيديولوچية سائدة فى الفترة المعاصرة.. هل من الممكن التحدث عن شئ مثل هذا مع وجود هذه الكثرة من الحركات المتناقضة وهذا الطوفان الذى يغرق كل الحدود؟

إن انهيار الميزان البنيوى الفوقى الكلاسيكى وتصدع النزعة الإنسانية العالمية تحت وطأة العالم الواقعى يشير ضمنا إلى أن إيجاد تركيب فكرى موحد لم يعد ممكنا على الأقل فى المرحلة الحالية.

فهل نستطيع إذن الاستمرار فى الحديث عن أيديولوچية سائدة؟ أليس الأكثر صوابا أن نتحدث عن أيديولوچيات مختلفة تقود ولاء الناس؟

لا شك أنه يوجد هنا إغراء كبير فى اختيار الحكمة الصارمة، وذلك يعنى فى المقابل أن نعطى المصداقية للبرجماتية التى يصدق عليها كل لحظة صخب الصراع الأيديولوچى،.. إن نهاية الأيديولوچية هى أمر موقع نظر، بل ومناسب إلى حد ما.

ومع ذلك فهذا الاختيار يشيع الاضطراب فى الهدف من واحد من أشكال الأيدلوجية بصفة عامة ولا سيما الأيديولوچية السائدة.. ذلك الهدف الذى يتمثل فى أن العالم مقيد بمعدل محدود نسبيا من التغير، مع الانتقال من ذلك الشكل الأيديولوچى إلى شكل آخر.. شكل معاصر. وفى واقع الأمر فإن تعدد "المقدسات" المعاصرة يمكن أن ينظر إليه على انهيار للكون الفوق - بنيوى وتناثره إلى عدة أجزاء.. وسوف يتضح أن هذه المرايا الكثيرة يمكن النظر إليها وتفسيرها بوضعها عدسات متعددة تكوين البناء الأيديولوچى الفوقى بصفة عامة والأيديولوچية السائدة على وجه الخصوص. وهذه على أيه حال هى المشكلة الكلاسيكية لقضية التغيير فى التاريخ.

ودعنا نتخذ من هذه الافتراضات نقطة انطلاق، واثقين من أنها سوف تمحص فى سياق هذا الفصل.

فأين يتعين اكتشاف الأيديولوچية السائدة؟ ولو أنها أنجزت الدور الذى تقترحه فإنه إذن، وفى مجال الجدلية الاجتماعية للعالم الواقعى يتعين علينا أن نبحث عن العناصر المكونة لإشكالية الأيديولوچية السائدة، ما لم نكن راغبين بالطبع فى التمسك بأن عالم الأفكار ينمو من خلال التوالد الذاتى أو التلقائى.

والواقع أن الجدلية الاجتماعية فى العالم الواقعى فى الحقيقة المعاصرة تشكل بصفة رئيسية تغيرا سريعا وراديكاليا على عدة مستويات وداخل عدد من الدوائر وعلى هذا النحو فإن إشكالية الأيديولوچية السائدة سوف تبرز من خلال دراسة

الخواص المحددة للعالم الواقعي في وقتنا الحالي، وهذا يمكن أن يأخذ عديدا من الأشكال على الرغم من أن كل واحد من تلك الأشكال سوف يدور حول اختيارين مركزيين.. المحافظة والتغيير..

ويشكل اختيار المحافظة العنصر المركزي للأيديولوچية السائدة.. كل الأيديولوچيات السائدة، مع التسليم بأن كل أيديولوچية سائدة تفترض سبل الاحتفاظ بها، فالقضية هنا إذن هي أي نوع من الإجابة يجب أن يقدم للأسئلة الكبرى لحقبة الأزمات هذه.. حقبة الحركة المزدوجة للتاريخ من أجل ضمان المحافظة على الأمر الواقع على النحو الذي و صفناها به، وعلى أيه حال فتلك هي قضية كل عصر.. وعلى أية حال كذلك فقد صنف عصرنا وعرف بوصفه حقبة الاندماج العالمي وحقبة التحولات العظمى على كل المستويات وفي كل ميادين حياة الإنسان في المجتمع، وبالتالي فإن مطلب التمسك بالأمر الواقع إذا ما اختاره المرء سوف يدفع إلى نهاية الشوط، وفي تلك المرحلة فإن اللعبة لا تعترف بأية قواعد غير قابلة للتغير، ويحدد ذلك البعد الأول لتلك النظرة.. أي ثباتها في مواجهة عالم يسير في كل الاتجاهات.

ولكن ما هو الموقف الواجب من المرء تجاه هذه الحركة إذا نظرنا إليها من وجهة النظر الأخرى؟ سوف يكون من الواضح أنه لن يكون ممكنا تثبيت أي شئ بالمعنى الصارم الجامد للكلمة، ومن ثم تتجسد المشكلة في التغير المتكامل، بينما يضمن بعناية أن هذا التغير لن تكون له تعقيدات بنيوية على الحركة الملموسة للعالم الواقعي، ويستطيع المرء دائما أن يقفل راجعا إلى الفلسفة المثالية للتاريخ ولا سيما في شكلها المخالف (الديالتيكي أو الجدلي) بطبيعة الحال، ولكن قرن "الانتقادات" - الماركسية قد قوض بعنف مصداقية تلك الفلسفة في تفسير الحركة بالرغم من إبقائه على مفهوم الحركة التقدمية للتاريخ في شكل المادية الجدلية، والأكثر من ذلك أن إيقاع التاريخ قد ازداد قوة وتكثيفا إلى الحد الذي جعل الحركة والتغير يأخذان وجها متسارعا بشكل ظاهرة.

إذن ينبغي الاقتراب من هذه الحركة بقصد معالجتها بطريقة إيجابية بمعنى أنها مشروع للأمام، أو ما يمكن أن يسمى التنقيب المستقبلي التفسيري، لكن التماس

الطرق إلى المستقبل ليس أمرا سهلا، فإن أية دراسة واعية لحركة المجتمعات سوف تكشف بوضوح كم أنه أصبح صعبا إقامة علاقة مستمرة بين المثل سواء أكانت واقعية أم يوتوبية وبين تحقيق تلك المثل فى العالم المعاصر، فهناك الكثير من أوجه عدم الاتساق.. فهناك أثر حربين عالميتين، وهناك نهضة الشرق، وهناك التغير العلمى والتكنولوچى، وأخيرا هناك تصلب الأشكال القومية والسياسية للدولة..

إن جنة عدن ليست فى متناول أيدينا.. والمجتمعات الجديدة التى خرجت إلى الوجود من رحم الصراعات الكبرى شديدة التعقيد التى تحدث على كل المستويات وفى كل مكان لم يعترف بها بوصفها تجسيدا للأمانى العميقة، وهكذا يصبح هدف فض الاشتباك فى كل هذه الظروف ممكنا، فالتغييرات المرغوب فيها يمكن أن تتحقق الآن عن طريق الإرادة الذاتية لأولئك الذين اختاروا الترويج إليها أكثر من تحقيقها كنتيجة للأعمال التى يتعهد بها من خلال التطبيقات العلمية فى العالم الواقعى فى إطار من التوازن العالمى بين القوى.

وباختصار فإن المشكلة هى ما يلى: كيف يمكن "إنتاج" تغيير مثالى؟ الإجابة هى أنه على قاعدة "إنتاج" النظرية وعلى قاعدة إنتاج التغييرات والثورات نظريا.. تلك التى لا تحقق من خلال التطبيقات العملية. إن سلاح "النزعة النقدية" هنا هو القاعدة الأصلية، على ألا يكون بديلا لنقد السلاح نفسه أو الأداة نفسها.

وهكذا يمكن تجنب الكتلة المتعثرة للواقع، ويمكن استبعاد أى تحليل دقيق للعالم الواقعى بوصفه فلسفة وضعية أو تجريبية أو برجماتية، ويصبح كل شئ ممكنا على أساس من الإرادة الواعية.

إن علم المعرفة "الإبستمولوچيا" يمكن أن يحل هنا محل التطبيقات الثورية ونظريتها، على أن تولى وجهها شطر التاريخ والتأريخية النقدية المهتمتين بالفشل فى الاستجابة للحاجة إليها فى الوقت المناسب وبالطريقة المطلوبة، وعلى أن ترفض الحياة السياسية وحاجتها إلى عقلانية جدلية محددة يمكن أن تفضى بسهولة إلى الانتهازية والإصلاحية أو اليأس بصورها المتعددة.

والإسهام الذى تقدمه هذه الرؤية فى إشكالية التغيير هو إدخال الوظيفية فى الخطوة المنطقية التى تأخذ التاريخ من نطاق المشروع إلى نطاق العمل..

فالأسطورة والأنساق وسلالم الأنماط بوصفها معرفة دوجمائية (قطعية) تعنى أن كل شئ يمكن، ويجب أن يتنبأ به ويحسب ويوضع ويبرمج فى برامج.. إنه يتعين أن يكون ممكنا إنتاج أى شئ، ويستطيع المرء أن يرى كم أصبح حيويا أن يخلق درعا من الإمكانيات بالمعنى النظرى. وهنا تحل الجاذبية العلمية فى الاهتمام المعطى للجوانب العملية والأداء الوظيفى السليم نظريا "للعمليات" الاجتماعية التى تنتج على ذلك النحو.

ويأتى ذلك إلى النقطة التى يلتقى عندها أسلوبا الاقتراب (عن طريق المحافظة وعن طريق التغيير) وذلك لأن كلاهما يعملان فى إطار محاولات التعامل مع التناقض المركزى فى إشكالية الأيديولوجية السائدة المعاصرة والسؤال هو إلى أى مدى يتصارع هذان الأسلوبان؟ أو هل هما – ولنتكلم بموضوعية – فى علاقة (تعارض مطلق) أم أنهما غير متعارضين تعارض خصومة؟

دعنا نعود إلى أولئك الذين يدافعون عن المحافظة. إن الدفاع عن الأمر الواقع يقود مباشرة – كما سبق إن أشرنا – إلى "الثبات"، ولكن هذا الثبات لم يعد يتصور بالطريقة غير الطولية للنموذج الذى قدمه القديس توما الإكوينى.

لقد أصبح الثبات يتصور وبطبيعة الحال على قاعدة السير إلى الأمام فى العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية وبمعنى الإيمان بالشمولية، تكافلية كانت أم جدلية.. تلك التى توفر لنا عملية إعادة تركيب سلسلة من العناصر المرتبطة عضويا بقلب الظاهرة المفردة، ففى عصرنا الحالى يقدم الثبات نفسه بوصفة عملية بنائية بالأساس، وميزته الخاصة هى أنه يغطى تحدى التاريخ والتاريخية والمجتمعات الإنسانية التى سوف تظهر إلى الوجود كنتيجة للتطبيق العملى. إنه يقدم مفهوما معقدا للواقع لا هو غير طولى ولا مبسط، كما أن إيمانه بالشمولية والبنائية ومعطياته غير الملموسة حول صيرورة عالم الظواهر تسمح بالتعددية ولكن داخل نزعة توحيدية ثابتة هى فى آن واحد تاريخية ومناهضة للتاريخية وديناميكية ومعادية للديناميكية وثورية ومعادية للثورية.

إنها إذا شئنا أن نكون مدققين الوضعية الجديدة لعصرنا.. أى للأزمة العامة للهيمنة الإمبريالية وبصفة رئيسية فى الغرب - كنتيجة لظهور حركات التحرير والحركات الثورية فى العالم وفى الشرق بصفة رئيسية.

إنه من الجلى للغاية أن هذين الأسلوبين يصبحان عضويا فى نفس الاتجاه.. فإذا كانت البنائية تشكل إطار العمل الأصلى للأيديولوچية السائدة المعاصرة، فإنه بالرغم من ذلك يتعين عليها أن تسعى للتكيف مع الحركة التى بمجرد تحققها يمكن أن تدمج فى إطارها العام.

وهذا التكيف يكمن فى خلق إجراء يسمح بإمكانية التغير النظرية دون ربط مثل هذا التغير من الجذور فى الحركة الديناميكية للعالم الواقعى، لأن ذلك هو هدف البرنامج الوظيفى.. أى برنامج وظيفى.. فإذا ما رؤيت الوظيفية بهذه الطريقة فإنها تكمل الفلسفة الوضعية الجديدة الثابتة للمدرسة البنائية بإضافة عنصر اختيارى أو إرادى يتمثل فى نزعة إيمانية جديدة قادرة على كسب القلوب من العمليات التى تفصل نفسها عنها بازدراء أو تبقى بينها وبين تلك العمليات مسافة لا يتأتى اجتيازها.

ولهذا فإن التناقض الشكلى ليس تناقضا فى الأساس التكوينى.. أى أن جناحى الأيديولوچية السائدة المعاصرة يكمل كل منهما الآخر على نحو جدير بالإعجاب.

وهذا الميل للالتقاء يصبح واضحا إذا نظر المرء إلى المسرح الثقافى عن قرب وخاصة فى أوروبا، فهناك الـ epigones للبنائية الماركسية المندرجة تماما فى الخطوط العامة للأيديولوچية السائدة، وهى محاصرة بالمعنى الحرفى بمجموعات من السدنة مؤلفة - على سبيل المثال لا الحصر - من مثقفى الجناح اليسارى التقليديين وغير العضويين، ويتيح الإحساس بالأمان فى الإعلان الماركسى "للزنبقة" البنائية بأن يعاد إضفاء الرونق عليها، وهذه البنائية ومع التسليم بالحق فى وضع قوانين لمكونات الثورة - ترس فى آخر المطاف من خلال الأدبيات والإنتاج النظرى مصفوفة من الشروط الأساسية الصلبة للحياة السياسية والقوى المنغمسة فيها، وأخيرا للخطوط التى يجب اتباعها فى الميدان غير

اليوتوبى. فالطبقة السياسية المسيطرة فى الدول ذات النظام الرأسمالى أو الإمبريالى المهيمن ليست مضللة بأى معنى من المعانى، لكنها تفتح الأبواب على مصراعيها للمعرفة الانفعالية وللشهرة أو الذيوع، وتوفر "البرنامج" السياسى وتعرف هذه الـ epigones بوصفها سلطاه، وهذه الاستنتاجات sons تساعد تلك الطبقة مساعدة هائلة فى لحظة الأزمة الحضارية التى ترزح تحت وطأتها المراكز المهيمنة القديمة.

ويمكن لهذا التحول أن يحدث باسم الماركسية وسوف يأخذ الـ boffins على عاتقهم مسئولية إلقاء الجدلية الاجتماعية تحت أقدامهم ووطأها بقوة باسم اليوتوبيا المفبركة سلفا، والتى ترفع إلى مستوى المعرفة العلمية على قاعدة من "الإنتاج" الإبستمولوچى"..

وهنا يأتى الشكل الدارج فيضيف ثقله كما أنه سيتم استهجان أنصار العقلانية النقدية التى تعتبر الماركسية أحد مكوناتها المهمة بوصفهم محافظين تنحصر نظرتهم فى الماضى تماما وتثبت عليه كما يشعر الوضعيون بالقلق إزاء النشاط البراجماتى أو مثلما تحيى الحفريات القديمة التاريخية ولكن فى الاتجاه العكسى، ويوجد فى كل ميدان من ميادين الثقافة وعلى كل المستويات العلمية دليل على هذا الميل إلى الانتقاء فى قلب الهجوم المضاد العام من جانب الغرب المهيمن الذى يعيش الأزمة. والشئ المدهش هو أن جامعى "المنتخبات" يمسونها بشق الأنفس حتى الآن، على الرغم من أنها حقيقة أن واضعى شروع تلك النظرية يقودوننا للتطلع إلى المستقبل البعيد.

من هذا التحليل للإيديولوچية السائدة المعاصرة يستطيع المرء أن يستخلص سمة عامة هى الفكرة السلبية القائمة برفض الاعتراف بالواقع والتطبيق العملى وبجدلية "المادى". وتجعل النزعة الإيمانية البنائية الجديدة بتقسيماتها الوظيفية تعزيز تماسك ما هو - فى مواجهة الحركة - خصوصيتها وشروطها أمرا ممكنا، وهذه الفكرة السلبية تقدم بوصفها الإطار الفوق بنائى الأكثر عمومية للعالم (الذى يساندها ويقررها والذى تطورت فيه).

وهكذا عدنا للعالمية وجها لوجه مرة أخرى، فما دام هذا العالم – الغرب – قد أعتقد ويستمر فى الاعتقاد بأنه – هو العالم ومركزه، فإنه قد فـرض إيديولوجيتـه السائدة فى مراحل زمنية مختلفة بوضعها أيديولوچية كـل المجتمعـات الممكـن حدوثها، وعلى هذا النحو تقع أزمة الغرب فى قلب الأيديولوچية المعاصرة السائدة، أى الفكرة السلبية الخاصة بالنزعة الإيمانية البنائية – الوظيفية الجديـدة. ويترتـب على ذلك أن الأيديولوچية السائدة لم يعد لها طابع عالمى أو طابع يمكـن إضـفاء الطابع العالمى عليه، وإذا أخذنا فى الاعتبار سمات وصـراعات الثـورة الثقافيـة الصينية وهبة القوة اليابانية وعالمية الإسلام واليهودية فإننا نقتبس أبـرز الأمثلـة وضوحا فحسب، ففى كل مكان فى العالم يكون ما يعتقد فيه مختلف، سـواء علـى أساس ما هو كائن أو على أساس ما الذى يفعل أو على أسـاس اتخـاذ الحاضـر تاريخيا، وقد أخفت الظلال ما كان فى الماضى القريب نهضة وتنويرا أو يوتوبيـة ثورية. ففى مصادر الشرق "المنبعث والمصادر الثورية الأخرى يشتغل بالموروث عن الأسلاف وبالجديد معا، وتتحدث الأبحاث" والنصوص الأخرى عـن البهجـة والبساطة والسلفية والقسوة والتسامح والانتقام والتضافر وبالطبع عن صين وفيتنام حملتا الآخرين معهما وأينعتا فكرهم، كما تكونت مثل جديدة مختلفة خارج مثل هذه المادة والمصادر الأخرى الأقل ليونة، وفى قلب هذه المثل تظهر طريقـة التفكيـر الإيجابية الجدلية النشطة المتسمة بالتفاؤل والأخوة.

إذن فالأيديولوچية المعاصرة السائدة هى أيديولوچية قطاع واحد من العـالم لا يزال مهيمنا.. وهذه حقيقة، ولكن العصر الذى يبدأ الآن سوف يجلب معه تغيـرات هائلة فى تاريخ العالم. ذلك لأن الفكرة السلبية هى فكرة إقليمية.

إن التراث الأصيل للفكر الغربى يوجد فى كل مكان.. فى خاصـية العقلانيـة النقدية للروح العلمية الحديثة.. وفى مثل الثورات وهذه هى نقطة الاتصـال بـين الحضارتين وهنا يكمن الوعد بعلاقة جدلية أصيلة بين هاتين الحضارتين.

٣ – المشروع النظرى:

٣ – ١ – الحقل الإشكالى:

بعد أن بدأنا تحليل اللحظة التاريخية للأيديولوجية المعاصرة السائدة، فإننا نستطيع الآن أن ننتقل إلى المرحلة النقدية ونقترح بعض عناصر المشروع النظرى الذى هو الآن فى طور التكوين.

ويجب أن نبدأ بوضع "الصورة" مرتبة بادئين بمسألة اللحظة التاريخية للعمل النظرى منظورا إليها فى ضوء إيجابى ومستقبلى، أولا: يجب تعريف الحركة المزدوجة التى ترمز إلى انهيار توازن القوى العالمى ومغزاها بدقة.

ونحن هنا لا نتحدث عن قوة محسوسة مقومة بالميجاتون وإنتاج الكيماويات أو بعدد براءات الاختراع الممنوحة الخ.. ولكننا نتحدث عن فعالية القوة نفسها بمعنى قدرتها على قيادة زمام الحركة العامة لتاريخ المجتمعات الإنسانية خلال المرحلة المعاصرة من التاريخ وصوب المستقبل المنظور.

ويتعين أن تعول فعالية القوة فى المقام الأول على القدرة على وضع وسائل وأدوات القوة المادية والذهنية فى حالة الحركة وفى الإطار الذى تحتاجه لكى تبدأ عملياتها.. وذلك لأنها سوف تنجح فى تشكيل المستقبل فحسب إلى المدى الذى تكون قادرة فيه على تطوير قواها الكامنة الذاتية فى مناخ من أقوى إجماع ممكن بين جماهير الشعب المعنية، بمعنى آخر فالقوة ليست هى القوة فى "العمل" ولكنها فقط حالة تلك القوة، فالانتقال من قوة كامنة إلى قوة نشطة لا يتحقق أبدا بطريقة أوتوماتيكية ميكانيكية. إذ توجد بين "الكمون" والتحقق مرحلة أو خطوة – أو إذا شئت – مستوى الوعى، أى مرحلة أو خطوة الانتقال من الوعى التحليلى إلى النظرية. وقد كانت تلك – فى التاريخ هى طريقة أولئك الذين أرادو حل التوازن الصعب لضخامة المشروع وتكييف الوسائل، وهذه المسألة ليست أكثر وضوحا فى أى مكان من وضوحها فى فكر صن تزو الذى أصدر كتابه (فن الحرب) قبل خمسة قرون من الحقبة المسيحية، ذلك أن أحدا فى العالم لم يطرح المشكلة بطريقة

أكثر وضوحا وكما وأن أحدا لم يهاجمهما بطريقة أفضل من طريقته، والدليل هناك في كل ميدان من الحرب إلى التصوف وفى ميدان الاختراع من الاكتشافات إلى علم الجمال.

والآن دعنا نعود على الحركة المزدوجة للحقبة المعاصرة. فأزمة الغرب المهيمن لا تعنى انحطاطه أو اضمحلاله، فالغرب، وليس أوروبا فقط قادر وسيكون قادرا لفترة طويلة على أن يأتى إلى نقطة تتجمع وتتراكم فيها وسائل وأدوات الهيمنة على كل المستويات من الطاقة الثورية إلى الأيديولوجية.

ومع ذلك فالتصدعات تغدو أعمق فأعمق، كما تغدو إمكانيات ممارسة الهيمنة فى المجالات التابعة والمستقلة أقل نسبيا، لأن تلك المجالات أصبحت مجالات الحركات التحررية والثورية. وهذه الشبكة المعقدة من العوامل هى التى تشرح انهيار المشروع العالمى الإنسانى (الهيومانى) الحضارى الذى كان جوهر الثقافة الغربية منذ العصور القديمة (العصور الأوروبية القديمة إذا شئنا أن نكون واضحين) مرورا بالهيمنة الإمبريالية والثورة الاشتراكية الأولى حتى العصر الثورى، وهذا هو جوهر الأزمة، ومع ذلك فالأشياء يمكن أن تستمر فى مسارها المعتاد.. ومن ثم فإبقاء النظام ليس محل تساؤل.. والاضمحلال لا يمكن قياسه بالإشارة إلى الأعراض المرضية بالغة الخطورة لانحسار الهيمنة الغربية أو آثارها على الشعوب التى هى الآن فى طور صعودها.

إنه فى هذه النقطة تتمركز مشكلة المشروع الحضارى. فإذا ما نحن درسنا فترة الصعود الأوروبى وفترة الصعود الغربى فيما بعد فسيكون واضحا أن الغرب كان قادرا على تكوين صورة للإنسان الذى يقف فى نقطة المركز من فلسفة الثقافة التى هى بدورها ليست ذات مراحل مختلفة فقط، ولكن أيضا التى تواجدت داخل إطار حضارى اسمه ومظهره الإنسانية العقلانية العالمية. وخلال تلك المرحلة المعقدة، فالشرق لم يكن فقط مستمر الوجود، ولكنه أيضا واصل القيام بدور طليعى فى الحركة حتى القرن الرابع عشر فى العالمين العربى والإسلامى وحتى القرن السادس عشر فى الصين من خلال الحضارتين العربية الإسلامية والصينية

وعلومهما على التوالى، ومع ذلك فقد كان الغرب وحده هو الذى استطاع تحقيق المحصلة التركيبية من الجمع بين تقدم البنية الفوقية الاقتصادية والتكنولوجية وبين المشروع الثقافى موضوعا فى قلب المشروع الحضارى مجسدا فى صورة العالم فى ذلك الوقت، وبعبارة أخرى فقط: اختص الغرب بالمبادرة التاريخية عن وجه حق وليس فقط – وكما تقول النظرية الماثوية المبسطة – بسبب قدرته على التلاعب أو قوة النيران التى استطاع تركيزها فى يديه، بل وليس حتى نتيجة للصدفة (أو للفرصة).

وهذا المزيج المعقد من العوامل يبدو الآن مركزا فى الشرق المعاصر، وبصفة رئيسية فى الصين واليابان، وعلى اتساع آسيا التى تسكنها ثلث البشرية والتى يتعين العثور على شعوبها ومواردها، إنه من السهل إدراك الاندفاع الاقتصادى لليابان التى أصبحت فى السنوات القليلة الماضية ثالث أكبر قوة صناعية فى العالم، كما أنه من الواضح وبالدرجة بنفسها أن هذا التقدم هو نتيجة لمحصلة تركيبية جمعت معا نموذجا للصيانة المجتمعية مرتكزا على جماعية أوتوقراطية ذات بناء هيراركى قوى من ناحية وتكامل منضبط بدرجة عالية بين العلم والتكنولوچيا الحديثة من الناحية الأخرى. وقد تطور ذلك فى اليابان على أساس من رؤية لاقتصاد الطاقات الكامنة والوسائل التى تسمح بالتقدم على جبهة عريضة – أعرض ما يمكن.. ويثير الموقف من الصين صورا أخرى للمقاومة تنشأ من شعور الكراهية للشيوعية فى أية صورة، وهذا فى المقابل يحيى الذكريات الحديثة للصراع ضد الخطر الأصفر، وهذه هى نقطة التوقف لأولئك الذين جعلوا نقطة انطلاقهم هى المركزية الغربية والرفض العنيد لرؤية ما الذى كانت تواجهه الثورة الثقافية ببسالة، وهو كيف تطرح مشكلة العلاقة بين الحضارة والثورة ؟ وكيف نأخذ المبادأة فى نشاط نقدى نظرى وعملى فى آن واحد ضد دولة وجهاز حزبى آخذين فى التعاظم؟ وكيف تحل بسرعة ولكن بطريقة مستمرة مشكلات الانتقال من مجتمع تآكل من جراء الأشكال البالية؟ ومن اقتصاد الجوع إلى تغير اقتصادى واجتماعى ذى كيفية استثنائية، مع ملاحظة أن ذلك يحدث فى مجتمع

يضم نصف البشرية؟. كيف تجبر الإمبريالية المهيمنة على التوقف وتراجع مسارها العام وتتفاوض مع الشرق الثورى الصاعد الذى كان حتى عام ١٩٧١ هدفا لازدراء عام؟ وإلى جانب هذين الجوادين ينبغى إضافة كوريا وكوبا.. وفيتنام قبل الجميع.. لأن حرب الإبادة التى شنتها الإمبريالية على الإطار الصغير لتلك الدولة على كل المستويات قد زودت المأساة الفيتنامية "بوضع" يحتذى به بالنسبة للعالم برمته إلى أبعد ما يمكن أن تصل إليه المحصلة التركيبية للجمع بين العقل والشجاعة والإرادة فى عصرنا.

هذه هى نقاط الانطلاق لمقولتنا بأن الشرق الثورى الصاعد قد أخذ زمام المبادرة فى العالم الذى بدأ يظهر الآن للوجود. ولقد قطعنا شوطا بعيدا عن حسابات الوضعيين. لأن التاريخ بعد كل شئ ليس مجرد تراكم للقوى، ولكنه بالأحرى انتشار للقوى.

إن انهيار توازن القوى العالمى مهما كان من الصعب قبوله هو عملية بالغة الفخامة وجليلة يغلف عمقها ومداها وتعقيدها بقناعه غالبا عملية ثانية فى طور العمل الآن فى العالم المعاصر لها التأثير القوى نفسه.

والتغيرات العلمية والتكنولوجية التى تحدث فى النصف الثانى من القرن العشرين مؤثرة وبالغة الفخامة، والوعد الذى تقدمه والأخطار التى تنطوى عليه آخذه فى الظهور بالفعل، وانفجار كوكبنا الأرضى - ذلك الزورق الذى أورثنا تيهنا الألفى فى الفضاء - هذه النقطة الضائعة نقطة اللانهاية فى تمدد الكون لم تعد مجرد رؤية فى العقل، ولقد بدأت اليوتوبية التقدمية التطورية تدرك الفرضية القائلة بأن كل شئ له حدود معرفة. وأن الشئ نفسه ينطبق على كوكبنا. والانفجار السكانى وموارد الطاقة والطعام وتخريب البيئة وتحرير مصادر الطاقة المدمرة التى يصعب بصورة متزايدة احتواؤها داخل حدود آمنة.. كل ذلك أضيف إلى الآثار "الناحتة" التى تعتدى على الشخصية. فى مواجهة هذا الخطر يظهر التغير العلمى والتكنولوجى بوصفة فجر الخلاص الموعود. فكل شئ يبدو ممكنا، ومع ذلك فهذه الإمكانية نفسها هى جزئيا مصدر الخطر، وهذا بدوره مصدر ثان

للتطورات العميقة والمستمرة التى تتزاوج مع المصدر الأول، والإيقاع الحثيث للتحول (الذى أخذ جيلين بالكاد) يباريه الانهيار السريع لتوازن القوى العالمى، والنتيجة هى أن الإطار الذهنى الذى كان لا يزال منذ أقل من قرنين له ادعاءات عالمية قد أصبح الآن – وبالتزامن – شيئا باليا، ومن ثم فقد أصبح ممكنا التفكير فى عملية إعادة تشكيل عميق للعالم لا يمكن التنبؤ بها مسبقا.

إن العلاقة الداخلية بين هاتين العمليتين هى عنصر أساس بالمعنى الحرفى للكلمة فى العالم المعاصر، وإنه لتقليد دارج أن نقول إن تحولات العلم والتكنولوچيا هى فى صالح نصف الكرة الشمالى الغربى فقط، أى المجال المهيمن، فماذا عن بقية العالم؟ ولكن وكما رأينا فإن هذه البقية ليست "العالم الثالث" طالما أن قدرة القوة المهيمنة والدول الصاعدة على الإبقاء على الهامش بينهما هو أمر محل اهتمام وقلق، ولأن هذه القوى غير قادرة على التحكم فى إنجاز نتائج هذا التحول العلمى والتكنولوچى.

ففى الفترة الوسيطة ولمرحلة جيل أو جيلين، ومن الآن وحتى عام ٢٠٠٠ سوف يستمر الغرب فى تركيز القدرة الابتكارية الجوهرية فى يديه، وكذلك القدرة على تحقيق هذه الابتكارات. ولكن هذه ستكون فى أفضل الأحوال فترة انتقال من هذا الخلل الحالى فى الهيمنة إلى توازن جديد، فالثورة العلمية والتكنولوچية ليست شأنا يخص الغرب وحده (وفى الواقع.. ليست أمرا يخص أجزاء معينة هى الغرب فحسب) ولكنها موضوع يخص العالم كله.

وهكذا فإن بناء وإشكالية المشروع النظرى المعاصر تتحدد على أساس اللحظة التاريخية لحقبتنا. وهذا هو السبب فى أن هذا الأسلوب فى الاقتراب من العمل النظرى يقودنا إلى التأريخية النقدية فى مجال الإجابة على غطرسة وتحكم النظرة للوراء التى تطرحها الفكرة السلبية.

إذن فإن إشكالية المشروع النظرى المعاصر يمكن أن تتحدد على وجه الدقة كما يلى: فلكى نعرف بموضوعية عملية التداخل فى العمل عند قلب الجدلية الاجتماعية لزماننا، والتى قلنا إن عنصريها الأساسيين هما انهيار وتحول توازن

القوى منظورا إليه من وجهة نظر المبادرة التاريخية والثورة العالمية التكنولوچية فمن الضرورى والممكن أن ندرس الجدلية الاجتماعية للفترة الكلاسيكية (الصراع الطبقى – التطورية الإنسانية) بمصطلحات جديدة وعلى أرفع مستوى داخل إطار التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية.. الأمم والمجالات الثقافية مندرجة فى الإطار العام للحضارات.

وفى الوقت نفسه فإنها لقضية مهمة على أساس ذلك الوعى الجديد والمتزايد عمقا أن نضمن كفاءة إدخال هذا العمل النظرى فى جدلية الحضارات التى بدأت تتكشف الآن فقط والتى مع ذلك تقود إلى المستقبل، ويمكن تحقيق ذلك بتحويل المثقفين التقليديين إلى مثقفين عضويين يخدمون الناس ومستقبلهم.

٣ – ٢ الجدلية الاجتماعية:

يوضح موقع مشكلة الجدلية الاجتماعية ذاتها قضية تحقيقها التى هى المشروع النظرى.. وبالتزامن (أى معا فى وقت واحد) فإن تحقيق المشروع النظرى سيضمن وحدة أننا قمنا ببناء جدلية اجتماعية فى الحقبة المعاصرة من تاريخ العالم.

وبعبارة أخرى فالمشروع النظرى لا يتضمن ولا يعطى فى مانيفستو خاص به يحصل المرء بعده وعلى أساس تحليل الموقع على "إبستمولوچية" جوهر المشروع النظرى. أما ما يمكن وما يجب طرحه فى هذه المرحلة من العمل النظرى هو الرؤية العامة للعمل التى يتعهد بها، وعلى هذا النحو أيضا الرؤية العامة للمنهج الذى أثبت أنه مستمر للغاية، وأخيرا فالمرء يجب أن يكون قادرا على الإشارة إلى تلك المجموعات العنقودية من الإمكانيات التى تبدو معقدة غاية التعقيد وثرية فى قوتها الكامنة الخلاقة.

ويغطى العمل النظرى عملية تحدث بالفعل (وقد بدأت هذه العملية فى نظرنا عام ١٩٦٠) وسوف تستمر خلال عدد من المراحل بنفس حجمها الحالى عند نقطة البداية، وأيا كان النقد الذى سوف يستثيره هذا العمل فإنه يجب أن يطرح بوصفه جزءا من هذه المسيرة الطويلة أكثر من كونه نقدا لنص مفرد لا بد وأن يظهر خارج مجال الحركة بالضرورة كنص جزئى أو طائفى.

ولقد شرحنا لتونا لماذا نرى الجدلية الاجتماعية عنصرا مكملا للتأريخية النقدية فى تعبيراتها المعاصرة ورؤيتها الأصيلة الجديرة بالثقة، وهذا يثير بالضرورة علاقتها بالماركسية.

طبقا للمفهوم الذى طرحناه بالفعل فى عدة مناسبات – وخاصة فى مؤتمر اليونسكو حول ماركس بباريس ١٩٦٨ – فالماركسية تمثل أكثر صور التعبير تقدما فى التاريخية النقدية فى حقبة الثورات الصناعية والثورات البورجوازية الديموقراطية فى أوروبا وأمريكا، لكن ذلك يبقى داخل إطار الحضارة الغربية، ومن الطبيعى تماما أن التشديد منصب على الجدليات الاجتماعية الباطنة.. على صراع الطبقات والمجموعات الاجتماعية داخل الأمم التى وثقت من وجودها الطويل كأمم، والتى هى نفسها متجمعة داخل الإطار الحضارى العام والذى كان فى ذلك الوقت يمكن أن يعتبر العالم بالرغم من غارات هيجل ثم ماركس وإنجلز فيما بعد على جزء من الشرق، وبمجئ لينين وستالين أصبحت هذه الماركسية واعية بالظواهر الخارجية.. الإمبريالية والمسألة القومية وميزان القوى العالمى. وكان ذلك هو الموقف الموضوعى للدولة الاشتراكية الأولى فى ذلك الوقت – فى أعقاب حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ – والتى وقفت وجها لوجه مع نفسها ومع العالم سواء كان خصما أو صديقا أو حليفا لها..

وإذ ذاك أيضا بدأت إيطاليا الموحدة حديثا تجنى مشاكل التكامل السياسى والتجانس الاجتماعى والتوحد الثقافى، وإذ ذاك وجد أيضا فكر ماركس بدأت جذوره فى النمو، وامتد ذلك الإسهام الخاص بالماركسية الطينية الخصبية فى وعدها أكثر من كونها عقيدة دوجماتية وطور فى تطبيقها على الخصوصية القومية الإيطالية – فماركسية جرامشى، ثم بالميروتوليات فى أعقابه ومقتفيا خطاه تشكل توجيها خلاقا خاصا ومثمرا للماركسية الثورية صوب التكوينات القومية الاقتصادية الاجتماعية فى أوروبا والحضارة الغربية.

إن هذا هو البديل للتجديد المزيف للإلهام اليمينى والإصلاحى، كما أنه بديل للحديث الهوائى الذى إما أن يكون عالمية خادعة أو عبادة للآخرين.

وعلى الجانب الآخر من النهر يواصل تاريخ الحركات الثورية سيره، إذ يستمر خط مهيب بدأ من سلطان جاليف وتان مالاكا وم . ن . رونى إلى ماوتسى تونج وهوشى منه وأيضا وبصفة خاصة فى تعبيراته الهندية والإندونيسية والفلبينية واليابانية والمصرية والسودانية على الرغم من أن القليل منها هو الذى يعرف أو يفهم فى صياغة الماركسية داخل حركات التحرر الوطنى والثورات الاجتماعية فى دول الشرق. ففى هذه الأرض التى لم تأخذها الاشتراكيات الأوروبية فى حسبانها تحددت الإشكالية: ففيما بعد أصبحت هذه الدول المنطقة المفضلة للثورات والاشتراكية، وقد ألهمت الماركسية هذه النهضة القومية بالتوجه الاشتراكى وهذا هو فى الحقيقة الإلهام الأساسى للـ epigones للماركسية فى البلاد الشرقية، لقد اضطر العالم إلى الاعتراف بماو كزعيم لصين شعبية، ولكن هناك محاولة للتقليل شأن الماركسية الفيتنامية إلى مبادئ شعبية أخلاقية، أى بشارة جديدة للفقراء.. أما الآخرون فقد استمروا مجهولين أو أنه أسئ دراستهم أو شوهت سمعتهم.

والعنصر الأول فى العمل النظرى الذى يعد هذه المقالة مثل كتابنا السابق عن مصر ونطاق حركتها وانبعاثها وأزمتها ومستقبلها يجب أن يعتبر جزءا من ذلك الخط الالتقائى الذى يفهم الماركسية كرؤية للعالم ومنهج لتحليل جدليات العالم الحقيقى، أى الماركسية التى صاغها جرامش وماو بصفة خاصة.. وكجزء من ذلك الخط ينبغى عدم تكرار الدوجما أو النصوص، ولا حتى كتأويلات، ذلك لأنه توجد مؤثرات أخرى داخل هذه الإلهام الأصولى والمركزى.. صن تزو. ابن خلدون – هيجل – ليفبيفر – ونيدهام.. الذى سوف يكشف تأثيره خلال تلك الصفحات.

ومع ذلك فالماركسية فى تجلياتها الجديدة هى حقا الملهم الرئيسى على مستوى النظرية، ومجرد اختيار مصطلح الجدلية الاجتماعية لتنظيم كلا من منهج العمل النظرى، والمقدمة الأولية لذلك العمل تشير بوضوح إلى تلك الاستمرارية على المستوى النظرى.

هذا هو مثلها الأعلى. الانتماء النظرى والأيديولوجى، لأن الجدلية الاجتماعية ليست "منتجا" للنظرية من خلال التأويلات الإبستمولوجية، فهناك المصادر الأخرى التى تعمل أيضا وبعمق.

وقد كان المصدر الأول وسيظل هو دراسة نقدية من الـــداخل participant . للحركات فى العالم وهذه الدراسة تشارك فى الجدلية الاجتماعية من خلال المساحة الشاملة للتعبير المحدد عنها ومميزاتها الخاصة المتداخلة العلاقات فيما بينها.

وحتى عهد قريب للغاية كان الموقف من الواقع مستمرا فى الإمداد بأساسيات صرح نظرى مهيب، أى بأساسيات رؤية موسوعية ومستقبلية للعالم .. وهذا هـــو الكون "العقلى" أو الذهنى الذى لازلنا نضرب فيه تائهين.. والذى لا تزال مكوناتـــه أو عناصره تمدنا بالمواد التى تمكننا من الاستمرار فى المضى إلى الأمام.

ومع ذلك فيتعين علينا أن نكرر بدأب أن هذا العالم قد تفككت أوصاله، ومـــن ثم فإن الدراسة العضوية النقدية للحركات فى العالم وللجدليـــة الاجتماعيـــة لعـــالم الواقع هى الوسيلة الوحيدة التى لا تزال تملكها فى الوقت الحـــالى (وأيضـــا فـــى المستقبل المنظور) لإعادة تشكيل تماسك المثل الأعلى فى أعقاب الانفجـــار. وإذن فعلى أساس الدراسة النقدية المقارنة للواقع فى حركتـــه الجدليـــة فإننـــا نســـتطيع استخلاص محصلات تركيبية جديدة بتدقيق، وهذه المحصلات التركيبيـــة ســـوف تكون إطار العمل بالنسبة لنظريات المستقبل.

ولن يكون هناك مطلقا أى تساؤل حول الانسحاب (التراجع) من أجـــل فهـــم الأشياء بطريقة أفضل، ولكن الأفضل هو تمييز وترتيب عناصر الواقـــع المحـــدد: على الرغم من أن تلك هى الكيفية التى "يراكم" بها الحكماء "الإحالات"، ومـــن ثـــم يصبحوا وضعيين أصلاء..

إنها فى الجوهر مسألة التوصل إلى معرفة بعمق الواحد.. والإمكانيات المهمة والعقبات الموجودة فى العالم الواقعى، والأفضل هـــو ضـــمان اســـتمرار العمليـــة الديناميكية فى المستقبل. ونحن نعرف أنه لا التأويلات ولا الإنتاج الإبســـتمولوجى يمكن أن يسود على ميزان القوى الذى يعمل فى العـــالم الـــواقعى، أن "عـــتلات" التغيير ستعمل وتوجد فى كل مكان، كما أنها توجد فى التنمية التى اقترحناها.

إن عالم الواقع فى الحقبة المعاصرة كما يفصح عن نفسه فى مسار الأحـــداث الجارية من خلال المعرفة العلمية والتطبيق لم يعد عالم العنصر الجدلى الاجتماعى

الباطنى المفرد على النحو الذى حدد منذ قرن مضى، ففى حومة وغـى وصـخب الصراعات المحتدمة فى قلب الغرب فإن العنصر الذى افترض أنه تـرك خلـف الأظهر - وهو حقيقة الأمة (ظاهرة الاتجاه إلى القومية والقوميات) قد فرض نفسه بوصفه "الرحم" الذى منه تنمو أردنا أو لم نرد - الجدليـة الاجتماعيـة الباطنـة، وبعبارة أخرى فهذا هو الصراع من أجل "السلطة" بـين الطبقـات والمجموعـات الاجتماعية، لقد فرض ظهور المحيط التابع - أى القارات الثلاث المنسية والشرق فى آسيا وأفريقيا بالدرجة الأولى - الحاجة إلى فهم الحقائق التى ظلت صامتة منـذ عصر التوسع الغربى، وأدرجت التكوينات القومية الاجتماعيـة الاقتصـادية - أى الأمم - فى الإطار الأوسع للمحيطات الثقافية الإقليمية.. أوروبا - العالم العربى - أمريكا اللاتينية - العالم الأنجلوساكسونى - شبه القارة الهندية. وهـذه المحيطـات الثقافية الإقليمية ذاتها يصل مداها إلى قلب الحضارات العظمى التى أكثرها أهميـة حضارتين هما الهند وأوربية والصينية.. أما المحيطات الثقافية الوسيطة التى تقـع بين هاتين الحضارتين فهى تقدم الدليل على صعوبات وعلـى اسـتمرارية جدليـة الحضارات.

وهناك أربع دوائر للجدلية الاجتماعية بدلا من دائرة مفردة للجدلية الاجتماعية الباطنة أو المستترة.. فالعالم المانوى المبسط لم يعد له وجود على الرغم من أنـه كان مناسبا ذات مرة لانتقالية الدول التى أسست على مبدأ الملكيه وعلى الرغم من أنه أعطانا التمييز بين السماء والجحيم خلال الفترة القصيرة من الهدوء الذى سـاد منذ معاهدة فينا إلى ثورة أكتوبر ويالتا وتأسيس الصين الشيوعية.

أربع دوائر.. بنيانها المحدد، وتركيبها المتداخل وتفاعلها التبـادلى وكثافتهـا النسبية وخصوصيتها تستحق اهتمام الباحثين، أربع دوائر يمكـن تقسـيمها إلـى مجموعتين: أو دائرتين كبيرتين إذا شئت، دائرة الجدلية الاجتماعية الباطنة: صراع الطبقات والمجموعات الاجتماعية داخل تكوين قومى اجتماعى اقتصـادى مفـرد، ودائرة الجدلية الاجتماعية الطائرة إذ كان للمرء أن يستخدم هذا الوصف - الأمم - المحيطات الثقافية الحضارات، ومضمون الجدلية الاجتماعية داخل كل دائرة منهما

متطابق: إنه مسألة ممارسة الهيمنة لتأكيد استمرار وضع المجموعة المعينة وتصور استمراريته فى المستقبل.

دائرتان كبيرتان.. هنا يمكن للمرء أن يضع افتراضا أول: فالدائرة الباطنة والدائرة الظاهرة للجدلية الاجتماعية تشكلان قطبى diad التى تبنى الجدلية الاجتماعية فى الحقبة المعاصرة وسوف تستمر كذلك فى المستقبل المنظور.

هذه الجدلية الاجتماعية نفسها أكثر خصبا وتعقيدا إلى مالا نهاية مما كان عليه تصورها منذ قرن مضى عندما حصرت فى الصراع الطبقى وحده، وهى تسمح لنا بتصور مدى أكثر اتساعا من الأعمال الممكنة سواء كانت من النوع التكنيكى أى محدودة المكان والزمان بسبب حقيقة أنها نتاج لتداخل عدد محدود من العوامل أو كانت من النوع الإستراتيجى الذى يمارس تأثيره فى المجرى العام للتطور التاريخى لأنها نتيجة نشاط شبكة من العلاقات الجدلية الفاعلة بين العناصر المكونة للدائرتين العظيميين.

على هذا الأساس يستطيع المرء أن يتقدم ويضع ثانى افتراض تابع مباشرة من الافتراض الأول وهو "التلاقى" أو التقاطع بين الوجود الفعال فى أقصى درجاته لكل من هاتين الدائرتين العظميين – الطبقات – المجموعات الاجتماعية – الأمم – الثقافات الحضارات – فى دولة بعينها .. إنه التلاقى أو التقاطع أو مجموعة من الدول بعينها خلال فترة من التطور التاريخى القادر على إنتاج التحولات الضخمة فى المسار العام لتطور المجتمعات الإنسانية.

وعلى الناحية الأخرى فإن الفشل فى التلاقى لا يفعل سوى أن يضعف الاندفاع إلى الأمام ويقلل من فعاليته، وهنا تأتى الانتقائية وأزمة المشروع الحضارى واليأس والفكرة السلبية.

بعد أن بينا المشروع النظرى فى قلب الجدلية الاجتماعية التى يستطيع المثقفون العضويون عن طريقها القيام بدورهم الكامل بالتزويد بالخلفية وبالتفسير وبالرؤية المستقبلية، فإننا الآن نستطيع التمييز بين مستويين للعمل النظرى فى الحاضر وفى المستقبل.

وتسمح الجدلية الاجتماعية أيضا ببناء منظور طيفى ونظرى واسع على قاعدة من المدى الشامل للعناصر التكوينية للدائرتين العظميين على مستوى عـــالمى.. أى على مستوى عالم متكامل فى نهاية المطاف فى العصور المتأخرة نتيجة لتطبيـــق اكتشافات الثورة العلمية والتكنولوچية على كوكبنا الأرضى ككل وكنتيجة للتحولات الهائلة فى علاقات القوى على النطاق العالمى.

إن الوعى بالعالم الواقعى والعقلية المنهجية التى قدمناها إلى هذا العالم تـــزود العمل النظرى بميدان هائل للعمل مقياسه العالم كله، إنه ميدان للنشاط البناء حيـــث أن الطبيعة المجردة لفئات المثقفين قد تحولت الآن تحت وطـــأة نفـــوذ وضـــغوط التطبيقات فى المجتمعات المعاصرة.

والمرحلة الثانية هى إعادة تأسيس إطار التماسك النظرى بمعنى بناء الجهـــاز المفاهيمى ككل، وقد شرعنا فيما يجب أن تكون عليه هذه العمليـــة عـــام ١٩٧٠، وهذه العملية وحدها هى القادرة على إرساء أساس مستقبل النظريـــة الاجتماعيـــة وهى تنطوى على ثلاث مراحل: النقد، التمييز، وبناء سلم الأنماط، ثم عملية إعادة البناء نفسها وفى هذه المرحلة تأتى الفروض العلميـــة الجديـــدة والآراء والمفـــاهيم الجديدة.. وكذلك النظريات المسبقة، ثم يمكن إذ ذاك صياغة وفحـــص النظريـــات ذات الطبيعة الشاملة.. وكل واحد من هذه سيكون عنصرا مكونا ومؤسسا فى رؤية جديدة للعالم أو فى النظرة الغائبة للمستقبل.

(٢)

مستقبل النظرية الاجتماعية

١ – الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية

يبدأ السياق – الذى سوف نقدم خطوطه العريضة فيما يلى – من حقيقة أن النظرية الاجتماعية غير كافية، عدم كفاية الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية. وتنبع عدم الكفاية تلك بدورها وفى شكلها المقابل من حقيقة التباين، أى التباين فيما بين مجتمعات الغرب التى أسست المواد التحليلية الجوهرية للشروح المدققة للمفاهيم ولموقع النظم النظرية فى مختلف فروع المعرفة وبين المجتمعات غير الغربية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، على أنه لم يحدث أن اعترف بهذا التباين إلا فى سياق عمل الجيل الأخير فحسب، فمن الواضح أنه لم يعد ممكنا نفى وجود ذلك التباين بازدراء كمسألة مبدأ، ولكن التاريخ الملموس لمجتمعات العالم الحقيقى فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين قد أثار اعتراضا على ذلك ليس من الممكن تذليله، ويبدو أيضا أن الوقت لم يحن بعد لكى تكون نتائج هذا الواقع – واقع الحقيقة المزدوجة – مقبولة على المستوى الذهنى، وبهذا المعنى فلا زال هناك طريق طويل يتعين قطعه.

إن المرحلة الحالية هى مجرد مرحلة أو نقطة تحول، ومع ذلك فليس من الواضح مطلقا أنه بإدماج ذلك الواقع فى جسد الفكر الاجتماعى والنظرى الشائع سيكون هناك ثمة تحول آلى إلى مفهوم دقيق يلتزم به للعمل كنتيجة لهذا الإدماج أو مقدمة له كذلك فليس من الواضح أنه سيكون هناك التزام بتحريك الوسائل اللازمة لتحقيق سياق العمل على النحو الذى حددناه توا، فهناك عقبتان كبيرتان، فمن ناحية هناك تركز الأدوات العلمية والثقافية الكبرى فى الغرب.. أى تركز ثمار الإمبراطورية والثورة العلمية والتكنولوجية التى تشدد بدرجة ملحوظة من آثار ذلك التركز، ومن الناحية الأخرى هناك الضعف النسبى لتلك الأدوات فى الدول الواقعة

فى محيط القارات الثلاث، وهذا الضعف يسرع أيضا باستنزاف العقول من تلك الدول، وهكذا ينبثق عن الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية تركيب من العقبات الأخرى.

ولكن ينبغى علينا - على أية حال - أن نمضى قدما فى الطريق النقدى الذى بدأناه عام ١٩٦٠، وقد كان من نتيجة هذا العمل أننا عزلنا سلسلة من العناصر التى يبدو لنا الآن أن صلاحيتها قد استقرت.. ويعد هذا الفصل جزءا من صلب هذا العمل.

٢ - من العالمية إلى النزعة الحصرية.

إن عالمية الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية هى الآن محل تساؤل، فقد فرضت الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية نفسها عن طريق إقحام عالم حقيقى يفرض حدوده الخاصة.

والعالمية بالمعنى الأخير، أى كصفة للجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية، لا كعملية لإدماج العالم - هى نقطة التقاء لخاصيتين ضمنيين كبريين، وتنبثق أولى هاتين الخاصيتين من حالة واقعية هى هيمنة أوروبا، ومن ثم هيمنة الغرب اقتصاديا وسياسيا وثقافيا وعلميا وتكنولوجيا وعسكريا، ليس فقط من خلال أزمة نظم الدولة الاشتراكية وحركات التحرر والنهضة فى القارات الثلاث والشرق الثورى، بل وأيضا من خلال تحجر الولايات المتحدة كقوة كبرى ومن خلال العقبات التى تعترض طريقها. من هنا فإن الحاجة إلى النظر إلى رؤية مستقبل المجتمعات الإنسانية بشروط تديم - إذا شئنا استخدام هذا التعبير الحلم الإنسانى لعصر التنوير بعالم موحد، عالم تلقى به العواصف والأعاصير فى هذا الطريق أو ذاك - لم تتخل رغم ما تقدم عن توكيداتها بوجود أحادية مزعومة، أما الخاصية الحتمية الثانية فهى عنصر تكوينى لكل أنواع التفكير العلمى وكل النظريات، وهى تقول بأن خواص المفهوم هى طابعه المجرد والعام فى وقت واحد.

وباختصار فإذا كان المرء يرغب فى تعزيز قول يكون منطقيا وواقعيا فى الوقت نفسه فعليه أن يعترف بعلاقات القوى وأن يفهم لغة المنطق معا، أى التقليد

وطبيعة الأشياء، إنه عند هذه النقطة يصبح ممكنا الاعتراف بحدود الجهاز المفاهيمى المرتكز حول الغرب وتعزيز مطلب العالمية كعملية إدماج للعالم، وإذا تجاوزنا هذه النقطة فسوف يكون من الممكن تحرير الحكم بعدم كفاية الطابع العالمى للجهاز المفاهيمى الذى يعد الآن فى أزمة، وذلك على أساس من العالمية وباسمها.

٢ – ١

يعكس علم المصطلحات غموضا يفضى إلى محاولة إقامة تركيبية من شأنها استعادة التماسك بدون إهمال التنوع فى الحركة، وهذا هو ما أشرنا إليه بوصفه البحث عن عقلانية ذات أشكال مختلفة متعددة.

وينبغى فى المقام الأول قبول حقيقة التباين أو الاختلاف، ولسوف تنعكس هذه المرونة الجديدة وهذا التوسيع للمنظور أول ما ينعكسا فى مستوى التحليل، أى فى مستوى توصيف الظاهرة الاجتماعية، ومن ثم فى إدخال هذه التحليلات فى النظريات التى يمكن أن تفسر هذه التحليلات، ويبين اختبار هذه العملية من القرب أن تضمين ما هو مختلف – أى تضمين التباين – فى صلب النظريات الحالية يواجه مقاومة قوية، ويمكن التغلب على هذه المقاومة فى معظم الحالات من خلال القياس المتزايد الدقة والشمول، والذى يتجه لتغطية العالم كله وذلك عن طريق التحديد الدقيق لسلامة الأنماط (انظر جزء ٣ – ٢ فيما يلى)، إذ أنه يوجد رفض عميق الجذور للتصدى للمشكلة النقدية المتمثلة فى إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى (العالمى) نفسه، ونتيجة لذلك تبقى الأفكار والمفاهيم بوصفها "حكما" أو "قاعدة" خارج الحقل النقدى، لأن النشاط النقدى يجب أن ييمم شطر هذه الأفكار والمفاهيم بعيدا عن الاحتياجات المنهجية بدلا من أن يتجه إليها على أساس من برنامج محدد للعمل النظرى.

إن فكرة التباينات (الاختلافات) والمتغيرات هى ذاتها التى تستبعد بطريقة غير حكيمة – فى سياق هذا العمل – رونق العالمية الذاخر إلى مستوى ثانوى، أفلا يجب علينا أذن أن نقرر أن نقبل ذلك؟ إن الإجابة سوف يقدمها حقل المجتمعات

المختلفة ذاته، لأن جذور قيام الحركات التحريرية والثورية وقيام الثورات القومية والاجتماعية لا توجد فى التحليل الماركسى بدرجة أساسية، وفى هذه الحالة ألا يمكننا استبقاء دور البنية الاقتصادية التحققية بالنظر إلى أنه حتى التحرر الوطنى والصراعات الطبقية تحيل إليها فى تمسكها بمهاجمة دائرة المحيط الخارجى والحقائق الباطنة، فإذا ما اختارت المجتمعات غير الغربية طريق العمل الراديكالى (طريق عمل التحولات الجذرية) لإنهاء انمطاطها وهامشيتها، فهل يمكن ألا تفسر هذه العملية بالشروط الاقتصادية؟ وفى هذه الحالة فإن ما سيكون محل عبث هو حق الحصول على النظام الاجتماعى المعتاد والمعاصر للمجتمعات الصناعية، ولكن ألا يضع الثوريون تأكيدهم فى غالبية الحالات على الإمبريالية بالشروط الاقتصادية والمالية، وألا ينظرون إلى الإمبريالية بوضعها مسئولة عن منع التقدم الاجتماعى والاقتصادى للدول الخاضعة لهيمنتها؟ إن الأمر يبدو كما لو كان من الممكن تفسير مطلب الاستقلال والحرية فى كل مكان وفى كل الحالات بوصفه غضب الأشخاص والمجتمعات الممنوعين من التصنيع والمضطرين للتخلى عن أرض المستهلك الموعودة وعن مجتمع الرفاهية.

إن مثل هذا التفسير يسمح للعالمية بأن تخضع للواقع المعاصر، وبأن ينمو لها جلد جديد، وسوف تكون العقلانية هى المفهوم الرئيسى الذى يجعل من الممكن ضم النمط المثالى للعقلانية الاجتماعية من وجهة النظر العالمية للرأسمالية الصناعية إلى ذلك النمط المثالى فى وقت ما هو نفس الوقت الذى سوف تضم فيه آلية مسيرة المجتمعات المظلومة المتخلفة الطريدة. وهذا التفسير يسير دون القول على هذا المستوى بأنه توجد متغيرات متعددة، ولكن هذه الحالة الواقعية ينظر إليها فى اللحظة التى يعترف فيها بها – بوصفها تضليل وعقلانية غير مرغوب فيها وهامشية تتألم الأطراف المعنية الأطراف المعنية نفسها من محاولة التغلب عليها. وتفسر الصراعات من أجل تحويل المجتمعات بوصفها صراعات كثيرة من أجل تحقيق العقلانية، وبطبيعة الحال فإن تلك هى طبيعة الصراعات بالمعنى التاريخى طويل الأجل، وكذلك من وجهة النظر الفلسفية، ومع ذلك فقد اختزل مضمون هذه العقلانية – وهذا هو مصدر التشويه الذى سبق أن وصفناه – حتى صار هو أبعاد

التكوين الاجتماعى الاقتصادى المهيمن كما هو اليوم، إذ أن هذا التكوين يوصف صراحة بأنه أكثر التكوينات التى يمكن أن يتصورها الناس فعالية وإتقانا، ومن المفهوم أنه قادر على إصلاح وإعادة تشكيل نفسه فى الأزمة بعدة وسائل.

إن ما هو واقعى عقلانى، وهذا الواقع العقلانى هو واقع المركز المهيمن ويقوم ذلك على قاعدة الحاجة إلى العقلانية التى تقع فى واقع الأمر فى قلب كل أنشطة الصيانة المجتمعية وفى قلب كل المشروعات الاجتماعية التاريخية، وهكذا فإن المجتمعات غير الغربية مدعوة إلى النمو داخل القالب الغربى، وهكذا تدور العجلة دورة كاملة من العالمية إلى النزعة الحصرية.

٢ – ٢

نستطيع الآن أن نحدد موقع المستوى الثانى.. أى مستوى التطبيق العملى ويتحقق ذلك من خلال تمثل المشاكل، المشاكل لا المواقف، لأنه حقيقة التباين يعترف بها – كما لاحظنا – منذ الوهلة الأولى، وباختصار فإنها مسألة إعادة اكتشاف للتماثل أو الوحدة ومن ثم العالمية (العمومية) على مستوى المضمون بالرغم من الحقيقة المزدوجة للتباين، وعدم الكفاية التى سوف ينظر إليها بوصفها افتراض علمى ولا شئ أكثر من ذلك.

إن التماثل هو عالمية المضامين والإشكالية، وهنا سيدخل بعد التاريخ متصورا بطبيعة الحال بمعنى غير طولى، حتى يكون تطور مجموعة المشاكل – وليس مضمونها المحدد diachronic ببساطة وفضلا عن ذلك فإنه سيصبح ممكنا بإدخال بعد التاريخ تقديم تمثل المشاكل كعملية للتقدم على جميع مستويات الوجود الاجتماعى.

إن ذلك هو الإلهام الكامن وراء الأفكار الأساسية التى طورت فى كل الميادين الكبرى "الأمم الجديدة، والإنشاء القوى" على المستوى السياسى، "والتنمية" فى الميدان الاقتصادى، "والثقافى" فى حلبة الثقافة، لقد أصبح واضحا بين أشياء أخرى أن بعض ما يسمى بالأمم الجديدة (على تحرر الولايات المتحدة التى هى الأمة الجديدة الوحيدة فى العالم الغربى إذا تكلمنا حرفيا) هى أمم العالم القديمة ذات

التاريخ الذى يمتد إلى الوراء قرونا وقرونا، والذى قد يمتد فى بعض الأحيان إلى آلاف السنين، وهنا فالتنمية موضع البحث تشير غالبا إلى نمو بدون تنمية.. تنمية للتخلف، كما أن الاقتحامات الثقافية ومحاكاة الغرب تكون مختلفة تماما عن صياغة ثقافية وطنية، ناهيك عن عملية النهضة.

ويظهر سجل القوات الأخيرة بوضوح بدءا بتجمعات المثقفين ومرورا بالجمعيات العلمية والسياسية إلى وسائل الاتصال الجماهيرى كم أن الفوضى عارمة، وغالبا ما تكون الفوضى عن إرادة، وكيف يؤدى نمو أحد الأطراف المقرون بدمار الآخرين إلى تقييم فهمنا للحركة الحقيقية للمجتمعات المعاصرة.

ومع ذلك فكل شئ موجود إذا قدم علم الاجتماع أو إذا قدمت النظرية الاجتماعية – بعبارة أكثر عمومية – الدليل على رغبتها فى أن تقحم نفسها وأن تصبح أكثر فاعلية فى النقطة التى تنشأ عندها الأزمة والتى يحدث عندها التفجر.. أى فى أن تكون فى توافق مع الأحداث.

وهكذا يتأسس ديالكتيك سيكون قطباه هما الخصوصية والعالمية، ويجد المرء هذا الديالكتيك فى التحليل السابق فى شكل العقلانية ذات المتغيرات المتعددة وفى تمثل المشاكل الذى يستطيع أن يزودنا بالمهم نحو المنهج النقدى التاريخى فى تناول مشاكل أزمة النظرية الاجتماعية ومستقبلها.

٣ – اللحظات الثلاث للعملية التاريخية:

إننا نشير مرارا وتكرارا إلى الأزمة لملء خلفية الصورة بما يسمح لنا بالتشديد على عمق وخطورة تلك الأزمة، إلا إنه يتعين البحث عن المسائل الجوهرية فى كل مكان، داخل العملية النقدية ذاتها، وهى العملية التى تحدث الآن فى البلدان المختلفة، إنها عملية مترددة وغير رسمية ومضطربة فى بعض الأحيان، ولكنها رغم ذلك ترتبط مباشرة بالطلب المزدوج على التماسك الاجتماعى والنظرى المحدد، ويمكن النظر إلى هذه العملية على إنه بينما نظفت الأرض نسبيا وفى المجمل إلى حد كبير، فإن الجناح الثانى للعملية النقدية – أى البادئة إلى التجديد النظرى – لا تزال متململة بسبب انعدام اليقين.

إن هذا هو السبب الذى يجعلنا نؤمن بأن من الضرورى أن نركز أفكارنا فى الميدان الأخير، فكيف يمكننا على أساس من الحقيقة المزدوجة للتباين وعدم الكفاية أن نحقق إعادة تركيب هيكل الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية.

إن المنهج العام القادر – من وجهة نظرنا – على تحقيق المشروع النظرى يبين بوصفه "تطورا" من ثلاث لحظات: النقد، الرفض، ثم سبل إعادة تركيب الهيكل أو البنية".

٤ – التقويم النقدى للجهاز المفاهيمى:

التقويم النقدى بوصفه دراسة لاحتمالات الظاهرة المدروسة (وهى فى حالتنا الجهاز المفاهيمى: الآراء – الأفكار – المفاهيم وانتظامها داخل النظريات الموجودة) ليس رفضا، وسوف يسمح لنا ذلك بصياغة عرض للمرحلتين الكبريين للتطور التاريخى للجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية، وأولى هاتين المرحلتين وهى العالمية، عالمية المحيط المهيمن لم تخل بعد مكانها للمرحلة الثانية.

وفى المقدور تطوير هذا العرض بدوره على مرحلتين:

أ – يجب وضع تمييز أولى بين كل من الجهاز المفاهيمى العلمى والجهاز المفاهيمى الإجرائى، ودعنا نقول على الفور إنه من وجهة نظرنا فإن كلا من هذين الجهازين له جذور وامتدادات فى الآخر كأداة كل منهما يتناول المجتمعات الإنسانية والجدلية الاجتماعية وأساليب الصيانة الاجتماعية فى كل الجماعات الإنسانية عبر التاريخ.

وكما أوضحنا فإنه من الممكن رغم ذلك تمييز كل فئة بإبراز السمة المهيمنة فى كل حالة على حدة، ولنأخذ بعض الأمثلة، فالدولة "والبرجوازية" هما بالقطع مفهومان علميان يحظيان بتعريف عام مقبول عالميا، كما إنهما معا لجان لكل الحالات التى ترتبط بكل فئة من الظاهرة (تظليم السلطة، والعنف الاجتماعى بواسطة واحدة أو أكثر من الجماعات أو الطبقات بهدف الإبقاء على تطور النمط القائم من المجتمع الوطنى وضمانه فى الحالة الأولى، أما فى الحالة الثانية فيتميز التكوين الاجتماعى الاقتصادى بالملكية الخاصة لوسائل الإنتاج فى نظام للإنتاج

يرتكز على اقتصاد السوق والعمل المأجور) ومن الواضح أن كلا المفهومين لهما جذور وامتدادات فى ميدان العمل السياسى، ولكن هذه الجذور وتطبيقاتها العملية قبل كل شئ لا تضيق من الحقل المعرفى (الإبستمولوچى) الذى تغطيه هذه المفاهيم، والذى صمدت جدارته العلمية بنجاح أمام اختيار النقد، وإذا أخذ مفهوم الدولة كمثال فبوسع المرء أن يقول إنه أيا كانت الأشكال التى تأخذها أو أخذتها الدولة عبر التاريخ من المجتمع العبودى حتى الاشتراكية، ومن الحكم المطلق إلى الليبرالية، ومن المحافظة إلى الراديكالية، فإن تعريفها المذكور آنفا يبقى صالحا بدرجة كبيرة.

إلا أن الشئ نفسه ليس صحيحا فى المجموعة الثانية، إذ يبدو أن الدولة القومية الديمقراطية على سبيل المثال تكشف عن شكل متقدم من هيكل السلطة ينمو أساسا فى مواجهة مع الإمبريالية، وتعد طبيعته الطبقية شيئا ثانويا بالنسبة للعملية السياسية القومية، وبوسعنا أن نرى كيف أن هذا الشكل مقيد فى بعض النواحى وفى ظروف معينة، ومن الناحية الأخرى فإن تعبيرا مثل "الدولة القومية المستقلة" – وهو يبدو أكثر دقة وأقل معيارية – هو تعبير علمى صحيح داخل الإطار العام لمفهوم الدولة، ومع ذلك فإن التعبير الإجرائى "الدولة القومية الديموقراطية" – يشير إلى توجه من جانب الدولة للعمل من أجل توسيع مشاركة جماهير الشعب أو للعمل باسم هذه الجماهير أنه – إذا شئنا القول – يقوم لنا فارقا مفيدا فى مجال تقويم الحقائق السياسية، وهو فارق يمكن أن يجد تعبيرا عن فى شتى المجالات بطريقة أكثر موضوعية، ومع ذلك فلم يعد فى الحقيقة من الممكن اعتبار أن ما يقصد هنا هو مجموعة من الدول التى اختارت فى إطار نضالاتها القومية ضد الإمبريالية أشكالا متقدمة من التنظيم الاقتصادى وسياسة خارجية للاستقلال الديناميكى (الحياد الإيجابى) ابتداء من نهاية الحرب العالمية الثانية تصاعدا. إننا إذن نتعامل مع ظاهرة حديثة، ومع إن هذه الظاهرة تدخل فى التحليل السياسى والاجتماعى المعتاد إلا أنها تغطى مضامين مغايرة ومعاصرة قادرة على إحداث تغييرات مفاجئة فى الاتجاه، ولذا فإن ما هو جوهرى هنا ليس الطابع العلمى للتعبير ولكن فائدته الإجرائية.

وبطبيعة الحال لا تشكل الأمثلة السابقة نموذجا، ولذا فإن ميدان علم الاجتماع السياسى - بل وأكثر من ذلك فإن الميدان الذى أصبح يعرف باسم علم اجتماع التنمية أو علم اجتماع الأمم الجديدة - هما الأرض المفضلة لهذا النوع من الاضطراب والغموض.

ب - وثمة تمييز ثان من نوع أكثر عمومية يحمل سمات الطابع العلمى للجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية - هو طابعه الجزئى أو القطاعى غير العالمى.

ويجب أن يقال - فى المقام الأول - إن هذا الجهاز ليس جزئيا أو قطاعيا بشكل خالص، فمجموعة المفاهيم والأفكار والتعبيرات التى استعارها هى مفاهيم وأفكار وتعبيرات صحيحة من الفروع العلمية الأصلية ابتداء من البيولوچيا حتى الفلسفة، وقد أسست هذه المفاهيم والأفكار والتعبيرات إطارا للفروع المتخصصة فى علم الاجتماع مثل "السلطة"، "نمط الإنتاج"، "الأيديولوچية"، "هياكل علاقات القرابة"، "الحياة الدينية"، "الثقافة"، "التنظيم"، "الأبنية القومية"،.. بين مفاهيم وأفكار أخرى عديدة، ويجب أن تميز بين هذه المجموعة الأولى وبين الإسهام الخاص لعلم الاجتماع، أى العلم الوسيط بين العلوم الاجتماعية وبين المنهج والرؤية التى تدرس من خلاله مشكلات المجتمع مثل "الكاريزيا" "والأيديولوچية الضمنية" والـ "Menianism" "والتضافر العضوى"، "والرقابة الاجتماعية".. الخ. وفى الحقيقة يبدو أن مجموعة قليلة من المصطلحات هى التى نشأت عن فرع المعرفة المسمى علم الاجتماع نفسه، وهذا هو السبب الذى من أجله تركز التحليل على الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية ككل وليس على علم الاجتماع وحده.

وبطريقة أخرى فإن جوهر ما نتحدث عنه عندما تظهر هذه الفوارق هو أن المواد الملموسة - أى الواقع الاجتماعى، والخبرات التاريخية، وميدان استزراع الظاهرة موضع الدراسة - نشأت فى محلها فى العالم الأوروبى والغربى فى الوقت الذى اتخذت فيه العلوم الإنسانية والاجتماعية أشكالها الحديثة فيما بين القرن السابع عشر والقرن العشرين، وبعبارة أخرى فإن الحقائق (الوقائع) الموجودة والتى تشكل النظرية الاجتماعية الحديثة فى لحظة تكونها وتطورها ليست عالمية،

ولكنها غربية وأوروبية بشكل خاص، وذلك نتيجة لحقيقة الهيمنة الأوروبيـة ثـم هيمنة أمريكا الشمالية فيما بعد منذ عصر النهضة حتى العصر النووى، حقـا إنـه توجد هناك بعض النقاط الدخيلة على هذا السياق، بل ويوجد "علم" تم بنـاؤه علـى أساس علم الفهرسة وتصنيف المؤلفات، ولكن لا آسـيا ولا أفريقيـا ولا أمريكـا اللاتينية كانوا من المشاركين فيه فى الفترة التى كان الغرب فيها مشغولا بصـياغة رؤيته للعالم المادى (الحقيقى) من خلال ذلك التنوع الهائل من النظريات والفلسفات السياسية.

إذن كيف يكون فى وسعنا أن نتخيل أن الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعيـة الذى يشرح العالم المادى الحقيقى بصورة مفصلة قادر على إلهامنا بالعالمية؟ إنـه يفعل ذلك فقط من خلال افتراض مبسط ومجرد هو مركزية الغرب.

إن هذا الطابع الجزئى للوقائع القائمة، والذى يكون النظرية الاجتماعية ككـل هو ما يعطى هذه النظرية طابعها الجزئى لا العالمى الشامل.

ولكن أن نقول "جزئيا" لا يعنى أننا نقول "إقليميا" أو على الأقل فإن هذا الطابع الجزئى للنظرية الاجتماعية ليس فقط إقليميا ولا هو إقليمى بصفة جوهرية، ويعود السبب فى ذلك إلى أن ذلك الجزء من العالم الذى طور تلك الوقائع القائمة للعـالم المادى (الحقيقى) والذى اختزل هذه الوقائع وإخضاعها للدراسة هو الجـزء الـذى مارس الهيمنة بصورة مستمرة طوال أربعة قرون، وهذه الهيمنة هـى التـى فـى سياقها راكم ذلك الجزء من العالم الموارد والمعرفة (أى عملية التراكم الثقافى فـى أوسع معانيها) دون سابقة تاريخية، وقد اندمجت فى أثناء عملية التراكم تلك مـواد الدول والشعوب التابعة جزئيا، إلا أنها اندمجت كأشياء وليس كموضوعات، مع أن هذه المواد لم تغب قط عن الوجود، ومن هنا ينبثق التمييز بين خلع صـفة الطـابع الجزئى على هذا الجهاز المفاهيمى ككل وبين اتهامه بالإقليمية التى تنطوى ضـمنا على أنه تجاهل بقية العالم كلية بدلا من معاملته معاملة هامشية والتقليل من شـأنه كما حدث بالفعل.

إن الجهاز المفاهيمى الجزئى إذن – وهو على هذا النحو ليس مفاهيميا علـى إطلاقه – هو جهاز مفاهيمى جزئى يرتكز على الغرب، وتم وضع مفاهيمه سـلفا،

إلا أنه – مع ذلك وفى الوقت نفسه – هو الجهاز الوحيد المتاح لتفسير المجتمعات الإنسانية وللطموح إلى التعميم، وهذا هو السبب الذى من أجله تتجسد وضعيته العلمية والإبستمولوچية فى اللحظة التى ينحى فيها الطموح إلى العالمية جانبا، وهذه هى من وجهة نظرنا نقطة البدء.. أى جسد النظرية التى يمكن أن تزودنا بالفروض العلمية والتى بها يمكن تفسير عملية الاستكشاف المتماسكة للمجتمعات الإنسانية فى عالمنا المعاصر مع ملاحظة أن هذه النظرية هى النظرية الوحيدة فى جعبتنا، وبعبارة أخرى فإننا نرى عملية إعادة بناء النظرية الاجتماعية بوصفها المضمون المحدد لتطوير ونمو النظرية الاجتماعية ذاتها، وليس بوصفها رفضا للجهاز المفاهيمى المرتكز حول الغرب.

ويفيد المثال التالى فى توضيح هذه النقطة، وهو مأخوذ من الجزء (القطاع) الذى يحس فيه بأكثر الطرق مباشرة بوجود المجتمعات الأخرى، إنه قطاع الحقيقة القومية، فبالرغم من تنوع المدارس الفكرية فإن مفهوم الأمة قد عرف بأنه طريقة الصيانة المجتمعية (وحدة الإقليم والتوطن والنشاط الاقتصادى، وكذلك وحدة التطور التاريخى واللغة والثقافة والهوية الجماعية) التى ظهرت فى فترة الرأسمالية الصاعدة؛ أى فترة قيام أوروبا على أساس الكشوف البحرية والنهضة وتجلى المعيار الشكلى لهذه الطريقة للصيانة المجتمعية بطريقة أكثر وضوحا فى مجموعة المجتمعات القائمة برسوخ على استمرارية تاريخية تعود إلى العصور القديمة، وكما نعرف فإن مصر والصين وفارس (إيران) هى النماذج الأكثر بروزا، وبالإضافة إلى ذلك فإن تلك الطريقة نفسها للصيانة المجتمعية تتخذ أشكالا مختلفة، وتبرز فى مراحل مختلفة من التطور التاريخى، وقد كشفت عملية إعادة اكتشاف الشرق، ومن ثم أيضا إعادة اكتشاف العالم المستعمر فى الدراسات والبحوث الحديثة الطريق أمام عودة العوالم غير الغربية إلى الظهور، إذن فكيف يتأتى لنا أن نستبقى ذلك المفهوم للأمة والذى عرف فى أوروبا القرن التاسع عشر متيقنا من نفسه ومن سمو مكانته سلفا؟ ومن الناحية الأخرى كيف يمكننا أن نعمل إلا إذا بدأنا بذلك التعريف للمفهوم الذى سلف تصوره – طالما أنه افتراض علمى، وإلا إذا أعدنا تركيبه بعملية منهجية دقيقة، لأن المفهوم الوحيد الذى نملكه فى هذه المرحلة

من مراحل المعرفة أن تنمية النقد وتطوره لم تكن قط عملية ثانوية (أى عملية تقسيم ثنائى) الآن أو فى أى وقت آخر.

٣ – ٢: "تمييز وتنظيم الحقل المعرفى الإبستمولوچى": بناء سلم الأنماط:-

"لكى تحلل ثمرة البندق لابد أن تكسرها: من تعريف هيجل للتحليل، وبما أننا أنجزنا توا ذلك التحليل المتقدم، يتعين علينا الآن أن نتحرك إلى الأمام صوب مستوى ثان ونرتب العناصر مع إعطائها فى تشتتها وتنوعها تماسكا وشكلا، وسوف يكون ذلك مرحلة سابقة على "التركيب" وعلى إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى.

ومع ذلك فأين يجب علينا أن نجد "المبدأ التركيبى" أو المنهج – إذا شئت التعبير – الذى سوف يسمح لنا بأن نضع العناصر التى باعد بينها التحليل جنبا إلى جنب مرة أخرى؟.. هنا توجد صعوبات حقيقية، لأن التشتت على مستوى عالمى وبالقطع فإننا نستطيع أن نتخيل طرقا لحصر التنوع بدءا من بناء سلالم الأنماط المثالية بإيهام ماكس ڤايبر إلى سلالم الأنماط البنائية الوظيفية الأكثر معاصرة، ولا يهتم النقد الأصلى الذى وجهناه إلى هذين الأسلوبين فى التناول بطابعهما الشكلى ولكنه معنى بطبيعتهما الجامدة غير القادرة على التوليد وغير الجدلية، لأن كل عملية ترتيب منهجى وكل عملية تنمية علمية لا بد وأن يكون لها وبالضرورة جانبها الشكلى القابل فى اللحظة الأخيرة للتعبير عنه رياضيا.

ويسير بناء سلالم الأنماط، أى المرحلة الثانية من العملية النظرية التى شرحناها فى اتجاهين:-

(أ) – فى المرحلة الأولى يجد تطبيق المنهج التأريخى النقدى على تعريف محتوى خصوصية المجتمعات التى ندرسها، وبإيجاز شديد فإنها مسألة عزل الطريقة المحددة للصيانة المجتمعية فى مجتمع بعينه على أساس من الدراسة النقدية للتطور التاريخى للتكوين القومى الاجتماعى المعطى، وتتضمن هذه الطريقة المحددة للصيانة الوسائل المحددة لترتيب أنساق التفاعل الداخلى للعناصر الأربعة الرئيسية التى تشكل كل عملية الصيانة المجتمعية: إنتاج

الحياة المادية داخل إطار جغرافى سياسى (چيوبولتيكى) بينى (أيكولوچى) (أى نمط الإنتاج)، ثم إعادة إنتاج الحياة (الحياة الجنسية والتناسل) ثم النظام الاجتماعى (السلطة والدولة) وأخيرا العلاقات بمرور الزمن (النوعية المحدودة زمنيا للحياة الإنسانية، والعقائد الدينية والفلسفات) ويمثل إنتاج الحياة المادية بين هذه المجموعة من العناصر المكانة الحاسمة فى ترتيب طريقة الصيانة – ولكن ذلك يكون فى التحليل الأخير.

وسوف يمكننا تطبيق هذا النموذج على المجتمعات المختلفة من تطوير فكرة أولية عن النسق ككل، ومن إضافة الظلال والألوان – إذا استخدمنا لغة التعبير بالرسم – إلى التحليل الأول الذى أنجز على أساس المعيار الاقتصادى والاجتماعى.

(ب) – ما دام ذلك قد اتضح فإن التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية المختلفة تقدم صورة تجعل "التعيين أو التمييز أمرا بسيطا مسببا، وفى الواقع فبينما يسمح العديد من المجتمعات مثل المجتمعات المائية على سبيل المثال بالتمييز على أسس اقتصادية، فإن مجتمعات أخرى تعزو أهمية أكبر إلى الرباط الموحد للدولة: الولاء الأيديولوچى والاتصال الداخلى، المكان والعوامل الچيوبوليتيكية.. الخ، أما ما نحن معنيون به هنا فهو التمييز التفصيلى وليس تحليل محتوى محدد، وقد عرضنا النموذج الخاص بذلك التمييز التفضيلى بالفعل أنظر (أ) آنفا.

ودعنا نعود إلى المفهوم الموضوع سلفا للأمة، ففى اللحظة التى يكتمل فيها التحليل النقدى تكون المهمة هى وضع جدول منظم للأنماط الكبرى للمنظمات الاجتماعية التى تقع ضمن الحقل المعرفى (الإبستمولوچى) وسوف يشكل كل ذلك حينئذ سلما للأنماط، ولسوف تنشأ المشكلة عند تبين أى العوامل فى هذه الطريقة المقررة لصيانة المجتمعية أى صيانة الأمة يظهر إنه العامل الحاسم، إن نقطة البدء هى التحليل الحذر للمفهوم الموضوع سلفا والذى يعتبر افتراضا علميا عاملا. إنه الاستمرارية داخل الديمومة. وهذا هو ما نطلق عليه عمق الحقل التاريخى الذى

يعطى كل عامل مؤسس (مثل الحياة الجماعية، والموقع الچيوبوليتيكى، والوحدة الاقتصادية، واللغة والنفسية الكلية) دوره فى الأمة. إنه بدون هذا العمق للحقل التاريخى فإن كل عامل من العوامل المشار إليها يمكن وبنفس الدرجة أن يميز (أو يعرف) ظاهرة اجتماعية أخرى هى نفسها مزودة بهذا العمق، أو العكس بدرجة كبيرة أو صغيرة، إذ يمكن خلق جماعة دون أن تشكل جزءا من الأمة (المدن الجامعية على سبيل المثال)، فالمكان يمكن أن يخدم بصفة مؤقتة كمساحة للوجود المجتمعى لجماعة مغايرة للجماعة المكونة من أبناء البلد الأصليين مثل الإلزاس واللورين بين عامى ١٨٧٠، ١٩١٨ وفلسطين بعد عام ١٩٤٨، وذلك دون أن تصبح هذه الجماعة جزءا مكونا للأمة، ويمكن أن يقال الشئ نفسه على كل عامل من العوامل المكونة، وقد أصبحت هذه العوامل مكونة للأمة نتيجة لوجودها المتزامن داخل ديمومة تاريخية مستمرة تظهر هى نفسها بارزة بطرق عديدة متنوعة.

وهكذا فإن سلم أنماط الأنواع المختلفة للأمة، أى التكوينات القومية الاجتماعية الاقتصادية المختلفة سوف يوظف – على أساس من فكرة التكوين الاجتماعى الاقتصادى – فكرة عمق الحقل التاريخى بطريقة تفضيلية، فى ضوء الطبيعة الخاصية لمفهوم الأمة ذاته.

أما فى المجالات الأخرى فإن الشئ نفسه لا ينطبق بالضرورة، إذ لا يمكن لمفاهيم وأفكار مثل "الرقابة الاجتماعية" "والتثاقف" و "التنمية" والتصنيع – ولا ينبغى لها – أن تستخدم فى النموذج التفصيلى الملائم، ذلك النموذج الذى يتطابق فى الواقع مع ما يشكل الجوهر العميق لخصوصية كل من هذه العمليات.

إننا ينبغى أن نؤكد على هذا الجانب من الاستخدام التفضيلى غير الخالص للجوهر العميق، إذ أنه توجد فى حقيقة الأمر وجهات نظر تحليلية، أخرى كما توجد نماذج أخرى تحجب الجوانب الأخرى للظاهرة المدروسة تمثل استبدال مفهوم الأمة "بالتضامن الاجتماعى" أو "الهوية"، والاستخدام التفضيلى وحده هو الذى يسمح ببناء سلم أنماط يكون غير تحكمى ما أمكن، إلى حد أنه سوف يرتكز

على الدراسة المحدودة للجوهر العميق ولخصوصية كل ظاهرة وكل مفهوم وكل موضوع للدراسة وإعادة التركيب.

وبوسعنا أن نرى كيف أنه من الممكن فى هذه المنطقة الأولى البارزة بناء سلم لأنماط التكوينات القومية فى المجتمعات غير الغربية.. الدول الجديدة ذات الوجهة القومية، والدول القومية الجديدة ذات الوجهة الوحدوية، والأمم والدول القومية ذات الأصل الأوروبى المفروضة من أعلى على كيان أجنبى منسق وبائد (هو فى الحقيقة كيان أبناء الأرض الأصليين) وأخيرا الأمم المنبعثة، ولكى نضمن معيارا كونيا فلا بد من إضافة فئة خاصة إلى القائمة؛ وهى فئة الدول القومية الأوروبية وهى على وجه الدقة الدول التى شكلت خبرتها عملية تركيب المفهوم المتطور سلفا للأمة.

وسوف يختلف مدى انطباق المجتمعات كل على حدة داخل كل واحد من سلالم الأنماط هذه على المعيار الأصلى لكل نمط، إلا إننا سوف نكون قادرين فى مرحلة لاحقة من عملية التقنية المفاهيمية، على أن نضع وبطريقة مفيدة مجموعات فرعية كلما أمكن ذلك للتمييز فيما بين المضامين (المحتويات)، وسوف يسمح لنا ذلك بالتوغل الأعمق فى الفهم العلمى للظاهرة موضوع الدراسة، ويجعل هذا الفهم أكثر دقة، وهكذا فإننا نستطيع أن نميز بين الأمم المنبعثة فى النمط رقم ٤ على سبيل المثال، وهى بصفة رئيسية مصر والصين وفارس، فهى التى يظهر أنها المثال الوحيد للتكوين القومى الموحد، والذى حصل بصفة مستمرة طوال القرون الست عشرة الماضية على دولة متمركزة فى آن معا.

لقد أفضى بنا التحليل النقدى على المفاهيم الموضوعة سلفا، والتى تمكننا باستخدامها كفروض علمية لأغراض البحث من وضع سلالم أنماط مفيدة داخل كل حقل معرفى (إبستمولوچى). فهل أصبحت المرحلة الثالثة مرحلة إعادة تركيب المفاهيم وإعادة عالميتها إليها ممكنة الآن؟

٣ – ٣ إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى:

فى اللحظة التى تتكسر فيها البندقة فإن العناصر التى منها تكونت، والعناصر التى يمكن أن تكون "بندقة" أشمل ترتكز على العالم الحقيقى (المادى) بدلا من

البندقة التى تكسرت، تستطيع - بل ومن الممكن - أن تسهم فى إعادة تركيب المفاهيم والأفكار والـ Notions والنظريات التى منها يتألف الجهاز المفاهيمى ذاته.

وتبدو العملية سهلة بما فيه الكفاية فى المرحلة الأولى، إذ يمكن للمرء أن يستخرج من المقدار المتواجد جنبا إلى جنب من العناصر المؤسسة ودون نفقات جديدة تكوينا لشمولية مفاهيمية، وسوف تصبح الحقائق (الوقائع) القائمة (المعطيات) فى العالم الحقيقى (المادى) والوجود المتماسك للمجتمعات المحددة فى الزمان والمكان بنفس الطريقة عنصر التكوين التجميعى للعالم المفاهيمى الجديد، ولكن أى تجميع مهما يكن تكوينيا (تأسيسيا) لا ينتج تكوينا لمجرد أنه موجود، ولكنه يسمح بتفاعل (عملية) يجرى حدوثه تحت أفضل الشروط الممكنة.. وهذا هو كل ما فى الأمر.

لقد عرفنا عملية الصياغة النظرية بوصفها تتضمن إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية. ويعنى هذا أن المشكلات والصعوبات سوف تكون هى بالقطع نفس المشكلات والصعوبات التى تنشأ فى أية عملية للصياغة النظرية ومع ذلك فسوف يتخذ عدد معين من المشكلات والصعوبات طابعا خاصا، وهذا هو السبب فى أننا يجب الآن أن نواصل دراسة بعض النقاط الأساسية:

(أ) إن عملية الصياغة النظرية تلك لن تكون أكثر من وضع العناصر التى نستطيع الرجوع إليها فى مجموعها (الظاهرة وتحليلها) جنبا إلى جنب بمجرد ما أن تكتمل العمليات التى سوف نناقشها فيما يلى، وبعبارة أخرى فنحن لا نتحدث هنا عن عناصر يعيش بعضها متكافلا مع بعضها الآخر، ولا نتحدث عن مؤاخاة أو "مساواة" بين القياسات الوضعية فى هذه المرحلة من العمل، ولسوف يتعاظم الإغراء الوضعى - إذا بدا أنه سيجعل نقطة بدايته نفس الطريق الذى - إذا صح التعبير - قلب هذا البحث رأسا على عقب، أفلا يتعين إذن على المرء - بغض النظر عن إخلاصه للتعقيد الوضعى أن يحاول تقديم شرح تفصيلى ومدقق لهذا العالم من الاختلافات ومن الأشياء الأخرى المتعارضة أو المتنافرة؟

لكن ذلك سوف يتركنا فى مرحلة وضع سلالم الأنماط أو فى مرحلة مزامنة سلالم الأنماط فى أفضل الأحوال، وبوسع المرء أن يرى إلى أى مدى يمكن أن تخدم هذه الرغبة فى الدقة الصارمة – مع التشديد على الفلسفة الوضعية – كدفع مؤيد وكأرض خصبة للمنهج، إن النماذج والمعادلات والتوريدات سوف تسمح لذلك "التابلوه" الثابت بالحركة، وسوف تقود الوضعية إلى الاصطناعية، وعندئذ تكون حركة العالم قد شوهت.

ومن المهم فى كل عمليات الصياغة النظرية (وهى هنا ربما تكون أكثر أهمية من أهميتها فى معظم عمليات الصياغة النظرية الأخرى) التأكيد على التركيب النقدى الذى يميز النظرية كلها، والشئ الجوهرى هو الدراسة النقدية المقارنة للعوامل التى تظهر قدرتها على التصميم من بين العوامل التكوينية فى مختلف سلالم الأنماط.. أى عوامل إدماج العناصر التكوينية فى مفهوم مركب وسوف تبقى العوامل الجزئية الأخرى الأكثر تقييدا خارج المجال المحدد لعملية إعادة التركيب هذه.

(ب) سوف يسمح هذا التركيب النقدى فى اللحظات الأولى بإعادة تركيب الجهاز المفاهيمى، وسوف تعنى إعادة التركيب فوق كل شئ بالمفاهيم والأفكار والـ Notions والنظريات التى سوف يعتد عليها فى النقاط المحورية للعلوم الاجتماعية، ويجب أن يأخذ هذا الاهتمام أسبقية على كل العمل الذى يتم فى ميدان المفاهيم إلى الحد الذى تشكل عنده المفاهيم جذور وإطار البناء نفسه ككل، أى يجب أن تأخذ مفاهيم مثل "السلطة" و "الأمة" و "الثقافة" و "الأيديولوجية" و "الرقابة الاجتماعية" و "الحركات الاجتماعية" و "والدولة" و "الطبقات الاجتماعية" و الأولوية بين المفاهيم الأخرى.

وعند هذا المستوى من التعميمية فى عملية الصياغة النظرية سوف نعيد مباشرة ضم الأبعاد المتوازية للنقد الفلسفى، ولن يستطيع إسهام أية نظرية عميقة الجذور فى حقل محدد من حقول المعرفة الاجتماعية إلا أن يخدم هو نفسه فى توضيح العملية النظرية والجهد الإبستمولوچى، وهما عملية (تفاعل) وجهد

يواجهان مخاطرة التحطم على صخور الصورية إذا تركا داخل البعد المنعزل الخاص بالنقد الفلسفى، فإذا ما اعترف بذلك فإنه أبعد ما يكون عن النتائج الضئيلة للعملية الذى عرضناه هنا.

(ج) هل يعنى ما تقدم أن قيمة إعادة التركيب تنحصر فحسب فى الجهاز المفاهيمى الذى هو نقطة بداية هذه العملية؟ وبعبارة أخرى هل عملية إعادة التركيب عملية محافظة بصورة خالصة، أم أنها تستطيع أيضا أن تسمح فى التجديد؟.

إننا نعود هنا إلى النقطة الأولية (جزء ٣ – ١)، فما يتعين علينا إعادة تركيبه هو الجهاز المفاهيمى الذى منحنا إياه تاريخ العلوم الإنسانية فحسب إلى أنه ربما يخيل إلى البعض أن عملية إعادة التركيب بوصفها الشئ المركزى فى النظرية الاجتماعية ككل سوف تنجز فحسب عملية إعادة تركيب محافظة منقحة أو مفسرة، وبهذه الشروط سوف ينظر إلى الجهاز المفاهيمى على أنه افتراض بحثى علمى، أى المادة الوحيدة الموجودة فى حوزتنا من الفروض البحثية العلمية.

فإذا كانت تلك هى السمة الأساسية للعمل الذى نسير فيه، فإنه من المهم للغاية أن نعترف أن المصدرين الكبيرين للتجديد والخلق فى حقبتنا وهما ظهور القارات الثلاث فى العالم المعاصر، والثورة العلمية والتكنولوچية قد جعلا فى الإمكان صياغة عدد متزايد من الأفكار والـ Notions والتحليلات، ولسوف يعين ذلك حدود حقل إبستمولوچى جديد، كما إنه سيمكننا من بناء "أجساد" جديدة للنظرية ومن بناء مفاهيم جديدة، وذلك على أساس من الاضطراب الهائل الذى حدث فى العالم وفى معرفتنا عن كثير من مستويات ومظاهر الوجود.

لقد وضعنا – فى هذه النقطة الأساسية – تأكيدا ملحوظا على العامل الأول من هذين العاملين، ونعنى بالعامل الأول ظهور محيط القارات الثلاث، لأن خروجها إلى العيان بعد طول بقاء فى الظلال قد قلب رقعة الشطرنج الاجتماعية والسياسية رأسا على عقب بطريقة باهرة بالأبصار، كما أن هذا الظهور قد زود قضيتنا بالمصدر الرئيسى للتجديد فى حقل العلوم الاجتماعية، ومع ذلك ينبغى الاعتراف بأن العامل الثانى – القدرة على التكنولوچية والعلمية – قد دخل بدوره ساحة

المناظرة فى كل ميدان من ميادين، الوجود الإنسانى بكل صوره وذلك على الرغم من أنه معدل التسارع هذا أقل من أن يرى حقا حيث أن العادات المحافظة وميكانيزمات التعطيل تنمو بطريقة أسرع.

٤ – التوجيه إلى وجهات بعينها؟

من غير المجدى أن نحاول حصر عملية نظرية بمثل هذا العمق داخل قالب منهجى يمكن التنبؤ بمساره ومحصلته من البداية، ذلك أن المستقبل هنا كما فى أى مجال آخر لا يكون قد تحدد بعد.

ومن ناحية أخرى فإنه مما يستحق المحاولة أن نلقى الضوء على بعض المشكلات المتباينة التى سوف تصبح العملية النظرية الجارية الآن، والتى ينبغى أن نحاول تعداد آثارها الانحيازية.

٤ – ١ – السمة الأصلية للمنهج النظرى الذى نواجهه هنا هى أنه علمى أكثر من كونه منهجيا أيديولوجيا، ومن الناحية الفنية فالمنهج الذى شرح آنفا هو منهج تاريخى نقدى فى طبيعته العميقة، ومنهج مقارن بحكم الضرورة فى المناهج التى يتبناها، وهذا نتاج للتشتت البالغ للظاهرة الاجتماعية والتكوينات المجتمعية داخل إطارها الثقافى القومى والحضارى على النحو الذى يكشف عنه هذا الإطار – كلما مر الوقت، وهكذا فإنه – أى هذا المنهج – يغذ سيره ليصير نقدا.. أى دراسة للاحتمالات المحددة للظاهرة والتكوينات، والغرض هنا هو اختبار أى أجزاء الجهاز المفاهيمى الذى يؤخذ هو نفسه كغرض بحثى سوف يبقى صادقا، إذن فإن هدف هذا المنهج – مثل كل العلوم – هو الاحتفاظ بدرجة عليا من المعرفة والفهم للكلية التى يدرسها.. أى معرفة وفهم كل المجتمعات الإنسانية.

ويعمل النهج الأيديولوجى الدائم حاليا تحت مختلف أسمائه على مستويين: الأول مستوى التمييز المانوى – أى تقسيم العالم إلى ثنائيات على غرار مذهب المؤمنين (بما فى علم البرجوازية فى مواجهة البروليتاريا، والإصلاحية فى مواجهة الثورية).. وهذا التمييز يزيل منذ البداية ما ليس متسقا مع النظرية العالمية التى يتبناها، بدلا من أن يزيل ما لا يتطابق مع وقائع العالم المادى (الحقيقى) كما

نعرفه (والذى هو جوهر المنهج العلمى) ثم يلى ذلك توجيه للتحليل النقدى الذى هدفه هو اكتشاف نهاية العلمية أى إعادة تركيب الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية واكتشاف الاختيارات التى كانت ماثلة للعيان أو متضمنة فى البداية، إن إعادة التركيب سوف تكون إذ ذاك محافظة على ما سلم بوجوده وما تم تحسينه وإعادة وضعه فى موقعه على النحو المطلوب.

ويفرض الحذر نفسه لأن المستوى النظرى يمتلك خصوصية، وتعريف الخصوصية هنا هو أنها خصوصية البحث العلمى نفسه، ولكن هذا البحث يحدث فى إطار اجتماعى ثقافى بعينه وفى بيئة تاريخية، وهذا دليل على أن الاختيار الأيديولوچى فى كل النظريات الاجتماعية الممكنة هو حقيقة موضوعية يجب أن توضع فى العقل بوضوح.. إنها إطار ضرورى وتوجد فى أغلب الأحيان، والمهمة الأساسية هى أن تشير إلى كل من المرحلتين وأن نحلل علاقاتهما بلغة التفاعل الديالكتيكى بدلا من لغة المصطلحات البنائية غير الملموسة.

٤ – ٢ وفى المقابل تؤثر عملية التفاعل الواسعة والمعقدة فى الحقل الإبستمولوچى (المعرفى) وفى فروع الدراسة العلمية من ناحية، وفى المحيطات القومية الثقافية فى أطرها الحضارية من الناحية الأخرى، وباختصار فإنها تكشف عن مجمل مسار تاريخ المجتمعات الإنسانية.

إذن فإن ما يتضمن هذا البحث ليس المهارة الحرفية ولا هو البراعة الذاتية، إذ أنه ينبغى تقويم الحقائق (الوقائع) من خلال أعلى مناهج التحليل الأولى والقانونى كمالا، وهكذا ينبغى أن ترى عملية الصياغة النظرية فى لحظتين: الأولى هى مجموعة العمل المتقاطعة (المتعارضة) والمتعددة التخصصات المعرفية، والتى من شأنها إنتاج أعمال جماعية يمكن أن تقيم وبطريقة مفيدة سلالم أنماط وإشكاليات متعارضة ومقارنة، ثم – وهذه هى اللحظة الثانية – وضع محصلات تركيبية تفسيرية، حيث يواصل الدور الوسيط والتكوينى لبعض المفكرين والمنظرين توكيد دورهم الحاسم على مستوى التجهيز والبلورة النظريين.

٤ – ٣ إلا إن أكثر المشكلات التى تنشأ خطورة فى هذه المرحلة هى أن المرء يمكن أن يطلق وصف "الأرض النظرية المحايدة".

إننا إذا اعترفنا بحقيقة وجود الأزمة، ثم - وفى مرحلة ثانية - بعدم جدوى المناهج الحصرية، الأمر الذى سوف ينتج فى هذه المرحلة مقاومة عنيدة، فإنه سوف يوجد خطر هائل يتمثل فى رواية الصرع المفاهيمى الذى هوى ذات مرة وكأنه غير صالح لإعادة بنيانه.

وبالقطع فإن المرء يمكنه أن يشعر بتحطيم التقليد المحافظ برقته.. ذلك التقليد الذى يمثل مكان القلب فى المركزية الغربية، إذن أليست القضية إذ ذاك وفى نهاية المطاف هى أن ما تم اكتسابه كان نتيجة لعملية تاريخية طويلة؟ وأن الحقيقة هى أن ذلك التطور التاريخى الذى تميز بهيمنة الغرب - والتى لا تستطيع سوى أن تؤكد سقوط الشرق - تجعل ما تم اكتسابه ميراثا مشكوكا فيه، ولكننا فى النهاية لا يسعنا إلا الاعتراف بأن ما حدث قد حدث، فالعالم كما هو الآن قد شكله الغرب منذ عصر النهضة، وهو سيبقى كذلك فى مواجهة أى اعتراض وكل اعتراض، ولنوع المجتمعات الأخرى أن تجرب حظها، وفى أفضل الأحوال يستطيع المرء أن يتوقع تقدما مترددا، ولكن الاضطراب والعجز هما أكثر التوقعات تأكيدا على ما يبدو.

وهذه هى العقبات الثانوية لأن المشكلة حقيقية، فمن الصحيح أن إدخال "العوالم" التى وضعت على الهامش فيما سبق إلى "استواء العلم "يستثير قلقا عميقا على مستوى النظرية، ومن الصحيح أيضا وبالدرجة نفسها أن هذه الحقائق غير العادية التى تلتزم شئنا أم أبينا بأن ندمجها فى التحليل فى اطراده تجعل من العسير للغاية تصور التراكيب النقدية للنمط العالمى الحقيقى الذى أشرنا إليه (فى الجزئين ٣ - ١، ٣ - ٢) ثم من الصحيح كذلك أن معرفتنا بالمجتمعات غير الغربية نادرا ما تصل - فيما عدا بعض الاستثناءات القليلة، وبالرغم من التقدم الذى أحرز فى الوقت الحالى - إلى مستوى الدقة المطلوبة للانتقال من مرحلة الإدماج إلى مستوى التركيب التنظيرى، إنه إذن يتعين الاعتراف بأن ظهور هذه العوالم ووصولها إلى مرحلة الحركة الكاملة وبروز العامل القومى الثقافى داخل الإطار الحضارى، وكذلك الطبيعة الجمالية متعددة الوجوه للعالم، والتى بدأنا نعترف بها الآن فقط والتوالد الذاتى الذى بدأ يرى الآن فقط "إنه يتعين الاعتراف بأن كل ذلك خلق مناخا

نظريا كليا جديدا.. وهذا المناخ أبعد ما يكون عن مناخ الهدوء الثابت الراكد الـــذى كان موجودا فى أيام أخرى.

إن كل نظرية ممكنة تطمح إلى أن تكون عملية ينبغى أن تحوز قواما صـــلبا يعبر عن نفسه غالبا عن طريق عملية إضفاء للطابع الصورى الذى يمكن أن يعبر عنه بدوره بالمصطلحات – الرياضية، وهذا يعنى أو يقتضى تعريف المصطلحات، والتشخيص الدقيق لعلاقات التفاعل الداخلى يقتضى عملية صيانة وتطور حازمـــة وقابلة للتنبؤ، فهل يعنى ذلك أن ما يتم تعريفه بوضوح سيسير فى طريقه للحـــدوث بنفس درجة الوضوح؟.. لكى نفترض ذلك لا بد من تحديد مطلب (القوام الصـــلب) وإمكانية الإمساك بتلابيب المحتوى العميق للظاهرة والمفاهيم موضع الدراسة إلـــى جانب إمكانية وصف الظاهرة والمفاهيم باللغة الجـــارى اســـتعمالها، أو إذا شـــئت وصف الظاهرة والمفاهيم من خلال أفضل القوالب اللغوية فى الثقافـــة المهيمنـــة، وسيؤدى ذلك إلى تحويل المسألة الشكلية أو الصورية الخاصة بإمكانيـــة التعبيـــر اللغوى برمتها إلى معيار الوضوح العلمى ذاته، وعندئذ فسوف يختزل العلـــم إلـــى معناه اندراج وسوف تستسلم الجدلية للتحليل الشكلى.

إن هذا التقارب الموضوعى لتيارات النفوذ الفكرى هو الذى أفضى بعديد مـــن الباحثين والعلماء الاجتماعيين إلى التساؤل حول إمكانية العمـــل صـــوب التجديـــد العميق للنظرية الاجتماعية بمعنى تحدى إمكانية بناء جهاز مفاهيمى جديـــد جـــدير بالاعتماد عليه من أجل دمج العالم، وهذا هو النفوذ الضاغط المقيـــد للأيديولوجيـــة المسيطرة فى تنويعاتها الكلاسيكية والماركسية الزائغة.. فهى بعد "مغلق" أو چيتـــو فكرى للخبراء المتخصصين فى التقنية الإبستمولوچية والتعقيد المنهجى المتمـــدين فى الازدراء الشائع لتاريخ بعينه لمجتمعات بعينها فى العالم الحقيقى.

إن الأرض النظرية المحايدة ليست ظاهرة أزمة، ولكنها تقـــدم لنـــا مقيـــاس التغيرات العميقة الجذرية أحيانا – أى التورية – الحادثة على الأرض التـــى نحيـــا عليها من طرف إلى طرف، فلا شئ يعيش بسهولة فى فترات التمزق والانفجـــار، لأن تلك هى أيضا الفترات التى تنطلق فيها الاندفاعات الكبرى إلـــى الأمـــام مـــن الناس والحضارات، إن هذا يعنى أن زمن التراكيب النظرية الكبيـــرة يشـــير إلـــى

الأفق، فالعملية الحادثة الآن هى تقويم نقدى لما هو ما كائن أكثر من كونها إعـــادة تنظيم لوقائع (حقائق) العالم الحقيقى، ولذا فإن الجهد الحالى الرامـــى إلـــى وضـــع المفاهيم ليس إلا الصورة غير الكاملة للنظرية.. إنه نظرة مستقبلية ميزت من داخل حقل الدراسة ولكنها مهمة غير مكتملة.

هذا هو المناخ الصعب الذى يتعين على الجهد الرامى إلـــى تطـــوير نظريـــة اجتماعية مستقبلية أن يعيش فيه لوقت طويل نسبيا قادم، فإذا كان لنا أن نعيد تشكيل الهيكل المقدس النظرى - الذى هو نفسه نتاج مرحلة بعينها - فى صورة قوامهـــا الجدلية الاجتماعية للعالم الحقيقى فيجب أن نقبل العيش خلال التراچيـــديا المتفائلـــة للعالم الحقيقى عصرنا، وحينئذ فلن يكـــون التفريـــق الضـــرورى بـــين العمليـــة الاجتماعية والسياسية ومستوى العلم والنظرية بعد الآن شكلا من أشكال التهـــرب، ولكنه سيكون عملية تعميق، وهذه هى الوجهة التى يمكن فى ثناياها تشكيل مستقبل النظرية الاجتماعية.

(٣)

نظرية اجتماعية ذات مغزى: تفاعل الحضارات

"حيثما يوجد ثلاثة رجال يسيرون معا فسيكون بوسع أحدهم أن يعلمنى شيئا".

كونفوشيوس

"ربما يمكن إيجاز المسألة[1] برمتها فى الممارسة النشيطة للتواضع والحب الأخوى، إذ أننا فى حاجة إلى اقتناع حقيقى بأن كل صور العنصرية وكل المعتقدات المعتدة بنفسها فى التفوق الثقافى هى تذكر للجماعة الدولية".

جوزيف نيدهام

١ – الوضع الحالى للنظرية فى العلوم الاجتماعية:

١ – ١: لم تشهد العلوم الإنسانية والاجتماعية ولا العلماء المتخصصين فى هذه العلوم قط من قبل شيئا بشبه الانفجار الحالى للنظرية فى كل تصانيفها: بناء النظرية، والنظم النظرية والمقالات التنظيرية والنصوص النظرية المختارة والمؤلفات الإبيستمولوچية حول نظرية النظرية (وهى نوع من الكتابات التلخيصية النقدية لكل النظريات الممكنة، ثم البيانات النظرية والفلسفة وعلم نفس العمليات (التفاعلات) النظرية.. الخ، وقد بدأ مفهوم النظرية ذاته يترنح – إثر ذلك – من الموقع الفلسفى التقليدى (الكلاسيكى) إلى وضع بالغ التقلب والغموض فى المناهج الحديثة[1]، ويستطيع المرء إجمالا وبدرجة معقولة أن يرى عملية التنظير هذه بوصفها استجابة للحاجة إلى إيجاد تفسير مركب جديد وذى صلاحية لمجتمعات عالمنا المعاصر.. تلك الحاجة التى يحس بها بعمق فى العلوم الإنسانية والاجتماعية.

١ – ٢: من ناحية أخرى يدخل عالمنا الآن مرحلة تاريخية من التغير المتصل التوافق على كل المستويات وفى كل ميدان، ونحن نشعر برياح التغيير الجديدة بصورة رئيسية فى محيط الإنسان للقوى العالمية فى أعقاب اتفاقية يالتا

التى كانت هى نفسها ذروة اللحظة التاريخية للهيمنة الغربية (فيما بين النهضة والأعوام من ١٩٤٥ إلى ١٩٤٩) فمن الواضح أنه ينظر إلى الموجة العارمة من العمليات المجتمعية وخاصة الموجة المعاصرة من الثورات القومية والاجتماعية ومن التحرير والثورة بوصفها عاملا ممزقا للاستقرار القديم، كما أن هذه الموجة غالبا ما تنقد بقسوة وبعنف بوصفها هامشية وغير سوية أو شاذة، وأنها غير ذات موضوع وعارضة، والافتراض الضمنى الكامن هنا هو أن "الاستواء" يمكن تعريفه بوصفه تراث وتجلى العمليات (التفاعلات) المجتمعية داخل الهيمنة الغربية.

فكيف إذن يمكننا أن نربط بين الحصول على نظرية ذات صلاحية عالمية وبين تمزيق التوازن المجتمعى من الناحية الأخرى؟

١ – ٣: الإجابة التجريبية يمكن أن تكون هى أنه توجد علاقة مباشرة وعضوية بين الاثنين، ذلك أنه يمكن أن يقال إنه كلما اتجه عالمنا أكثر نحو نسق الطرد المركزى، كلما تشعر الروح الإنسانية أكثر وأكثر بالحاجة إلى تفسير بالغ التركيب وذى صلاحية عالمية لمجتمعات عصرنا... هذا التفسير هو ما يسمى بالنظرية الاجتماعية. وإذ ذاك يمكن النظر إلى الانفجار النظرى على أنه عملية مساعدة موجهة نحو بعث الوحدة الضائعة، وبل يمكن تفسير الانفجار النظرى بالدرجة نفسها وربما بدرجة أعلى من الاضطرار على أنه نتيجة للحاجة التى يشعر بها على نطاق واسع إلى الأمن العاطفى والنفس حيال سقوط الضمانة التى زودتنا بها فترات الاستراحة السعيدة فى منهج "العالم الواحد"، وبعبارة أخرى تبدو النظرية هنا بوصفها عملية بحث عن الأمن.

١ – ٤: هناك نوعان رئيسيان من التنظير فى العلوم الاجتماعية:

١) تعميق المنهج الإبستمولوچى، مع زيادة التركيز على التقنية المنهجية (الميثورولوچية) والتعقيد المفاهيمى وعلى التحليل ذى النزعة التحليلية المتزايدة المكتفى بما يحتوى عليه من عناصر، والأمن هنا يبحث عنه فى وصول النموذج إلى الكمال، وهذا النوع النموذج ذاته يكون فى أغلب الأحيان مشتق من النقد الصورى للمفاهيم السابقة – بمعنى أنه مشتق بطريقة تحليلية استدلالية

- أكثر من كونه نتيجة لمواجهة الواقع المحدد المتطور فى عالمنا المحسوس، ومن هنا تتبع الأهمية المتزايدة لعلوم اللغة والرياضيات بوصفها أكثر فروع المعرفة صورية، ويقودنا الانفصال عن هذا الواقع مباشرة إلى نفى التاريخية ونفى الجدلية التاريخية متحولين بدلا من ذلك إلى الوضعية الجديدة متخفية فى زى الفلسفة البنائية وتجلياتها فى العلوم الاجتماعية أى.. "الوظيفة".

٢) هناك نمط آخر من النظرية يخرج من المجرى الرئيسى للتفاعلات (العمليات) المجتمعية المحسوسة يدعى أنه يردد صدى عصره، ويظهر فحص هذا النمط الثانى أنه مع ذلك فى واقع الأمر أيديولوچية تتنكر فى ثوب نظرية اجتماعية، إنه رؤى سياسية وإعلانات بالنوايا أكثر من كونه تفسيرا عمليا وموضوعيا ونقدا للعمليات (التفاعلات) المجتمعية، إن الإطار العام هنا - كما هو واضح - إطار يوتوبى، والواقع يقدم هنا أو ينفى بلغة الهدف اليوتوبى.

وهكذا فإن النمطين السابقين للنظرية فى العلوم الاجتماعية كليهما اليوم ينتسبان للنمط العام نفسه.. أى الوضعية الجديدة أو النزعة الإيمانية التى هى البنائية فى الفلسفة والوظيفية فى العلوم الاجتماعية.. إنهما ما سبق أن افترضنا تسميتهما "بالفكرة السلبية"(٢).. أى الأيديولوچية المسيطرة لفترة سقوط الهيمنة العالمية الحضارية الغربية.

٢ - ظهور النزعة إلى المقارنة الصورية الحصرية:

٢ - ١ المقارنة ظاهرة بالغة الحداثة فى مضمار العلوم الإنسانية والاجتماعية، فمن النادر أن أظهرت الفترة الكلاسيكية التكوينية فى عصرنا الحديث (القرنين ١٨، ١٩) أى اهتمام بالمقارنة، فمن مونتسكيو حتى ماكس فيبر انهمك أعلام المفكرين فى اشتقاق النظرية الاجتماعية من دراسات الحالة مع وجود هدف مقارن بالغ العمق باعتباره وبصفة أساسية - مرجعا إضافيا للحالة المدروسة وتضم بعض هذه الأعمال مثل (روح القوانين) لمونتسكيو و(رأس المال) لماركس و(دراسات فى الفلسفة الوضعية) لكونت و(القانون القديم) لمين والأعمال الأخرى التى احتوت على الإشارات الأولى للمقارنة.. تضم (المجتمع القديم) لمورجان،

و(أصل الأسرة) لإنجلز وكذلك كتابة (الملكية الخاصة والدولة) وأعمال هربرت سبنسر وچون ستيوات ميل وسومبارت وا . ا . ويسترمارك. ولكننا بعد ذلك نلتقى بعلماء كبار مثل دوركايم وتونيز وسيميل اتجهوا عن قصد لتنمية نظرية من الدراسة فى العمق لحالات منتقاة أو قطاعات علمية فى العقد الأول من القرن الحالى، وبطبيعة الحال فمن المؤكد أنه صحيح أن العقول التكوينية الكبرى فى العصور المبكرة مثل أفلاطون وأرسطو وابن خلدون بصفة خاصة كانت أكثر توفيرا على تطوير نظرية اجتماعية من نقطة استشراف مقارنة، على الرغم من أن إطارها المرجعى كان بالضرورة محدودا من الوجهة الجغرافية (باليونان والعالم الهيلينى بالنسبة لأفلاطون وأرسطو، وبشمال أفريقيا فى حالة ابن خلدون).

ولكن فى أى جانب - إذا كانت هناك جوانب البتة - يمكن للمرء أن يتحدث عن المقارنة فى هذه المرحلة المبكرة، بل المرحلة بالغة الحداثة حقا فى تكوين شبكة العلوم الإنسانية والاجتماعية؟

إنه يبدو معقولا أن نفترض أن المقارنة فى هذه المرحلة لم ينظر إليها كضرورة، ولكن تجدر إضافة أن العقول التكوينية الرئيسية فى الفكر الاجتماعى والسياسى فى شرق البحر المتوسط كانت - ويالها من مفارقة - متقدمة فى هذا الجانب أكثر من العقول الأوروبية المؤسسة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ونظريتها فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ولكنها ليست مفارقة فى واقع الأمر، لأن مدى وكثافة واستمرارية عملية التبادل من التجارة حتى الميتافيزيقيات كانت فى العصور القديمة وفى شرق البحر المتوسط على وجه الدقة حرية بأن تجذب بطريقة صريحة اهتمام المفكرين الكبار الذين كانوا منغمسين بكليتهم فى بيئتهم المشروطة لأوضاعها الطبيعية والتاريخية والجغرافية، ومع ذلك فأفلاطون وأرسطو وابن خلدون لم يكونوا وحدهم، فقد ظهور أعلام وضعوا البذرة فى المركز الآخر للشرق - آسيا - مثل صن تزو فى الصين (٤٠٠ - ٣٢٠ قبل الميلاد) ونجوين تراى فى فيتنام (١٣٨٠ - ١٤٤٢ بعد الميلاد) وقدموا مدى موازيا من الاهتمامات بالنزعة المقارنة فى المحيط الآسيوى الصينى. ونحن لا نستطيع أن نشعر بمثل هذه الحاجة فى أوروبا ابتداء من تأسيس هيمنة الكنيسة

وعصر النهضة لأن أوروبا مركز مهيمن مكتفى بما يحتوى عليه مـن عناصـر ذاتية، كما أنه مركز آمن ولا يواجه تحديا، وهذا هو السبب فى عدم وجود المقارنة فى الفترة التكوينية الأولى للعلوم الإنسانية والاجتماعية فى أوروبا الحديثة – علـى الرغم من وجود بعض الاستثناءات البارزة.

٢ – ٢: أما المرحلة الثانية فى تطور العلوم الاجتماعية والإنسانية وفى تطور النظرية الاجتماعية والسياسية الخالصة الحديثة فيمكن إرجاع تاريخها فى الغـرب إلى الفترة من العصر الفيكتورى إلى يالتا، وكانت هذه هى مرحلـة الامبرياليـة.. مرحلة التوتر داخل النظام فيما بين الهيمنة الامبريالية الغربية وحركـات التحـرر الوطنى، وبوسعنا تصنيف هذه التوترات تحت ثلاثة عناوين رئيسية علـى أسـاس ظهورها كموجات مجتمعية عبر الزمن.

أ) التوترات فيما بين الأعضاء المؤسسين للنظـام العربـى المهـيمن (الحـروب الأوروبية الداخلية بين دولتين وبين تحالفات من الدول المتنافسة والتـى بلغـت ذروتها فى الحرب الأوروبية من ١٩١٤ – إلى ١٩١٨ والتى يشار إليها عـادة بوصفها الحرب العالمية الأولى).

ب) التوترات بين الأعضاء الكبار المؤسسين للنظام الغربى المهيمن مـن ناحيـة والأعضاء الكبار المؤسسين للعالم المهيمن عليـه وقتـذاك – الشـرق بصـفة خاصة، أى آسيا والمناطق العربية الإسلامية – من ناحية أخرى وذلك ابتـداء من ظهور الحركات الشعبية والثورية والقومية فى أوائل القرن التاسع عشر فى مصر والجزائر والمغرب (مراكش) وفارس (إيـران) إلـى انتصـار الثـورة الصينية فى ١٩٤٩ وحرب التحرير المنتصرة فى سنة ١٩٧٣).

ج) الثورات فيما بين كبار الأعضاء المؤسسين للنظام الغربى المهيمن بـدءا مـن انقسامهم إلى كتلتين متخاصمتين من الدول مع حدوث التباعد فيما بـين الـنظم الاجتماعية الاقتصادية والنظم الأيديولوجية (أى منذ ثورة أكتوبر سـنة ١٩١٧ إلى الحرب الباردة ثم التعايش السلمى والتعاون البناء حاليا.

وتكشف الدراسة الميدانية أن الجهود والمبادرات والإنجازات الكبـرى التـى حدثت فى حقل النظرية الاجتماعية من نقطة بداية مقارنة إنما حدثت فى المنطقتين

الأوليين، ويعود السبب فى ذلك على وجه الدقة إلى الظهور السريع للمناطق التــى كان مهيمنا عليها فيما سبق فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فيما بعد وإلى أهمية هذه المناطق، وتؤكد هذه الدراسة نفسها ما هو متضمن نظام التعايش السلمى "مــن أن الكعكتين الاجتماعيتين السياسيتين الأيديولوجيتين فى المحيط الغربــى المهــيمن تمثلان جزئين مكونين لمحيط حضارى واحد هو الغرب - الذى يضــم نظــامين اجتماعيين سياسيين أيديولوجيين تعليما يضم العديد من المناطق الثقافية (أوروبــا - الولايات المتحدة - أوروبا الشرقية) والعديد من الدول القومية، إن ذلك هو الــذى يشرح المحاولة الجارية للانتقال من التعايش السلمى إلى التعاون البناء، ومع ذلــك فإن النسبية تبقى على مستوى الحياة السياسية وعلى مستوى الإســتراتيجية: فكــلا الكتلتين منغمستان فى التقدم عبر النزعة الإنتاجية إلى الهدف الــذى تتوخــاه كــل المجتمعات الصناعية المتقدمة: أما تباعدهما فينشأ عند مستوى نظام القيم الرســمى وعمليات صنع القرار وإنسان القوة داخل كل كتلة.

ويوجد فى هذه الحلبة مفكران كبيران فى عصرنا هما ماكس ڤايبر وچوزيــف نيدهام ولكن تحول ڤايبر من مستوى الدراسات الأوروبية المقارنة إلــى مســتوى الدراسات المقارنة بين الشرق والغرب لم يعط إلا قدرا ضئيلا من الاهتمام حتــى الآن، فقد طور ماكس ڤايبر قبل وأثناء حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ بوصــفه المنظــر الأيديولوچى للإمبراطورية الألمانية مفهومه الخاص "بالأنماط المثالية" وكان هدف ڤايبر هو تعزيز شرعية صراع ألمانيا من أجل الهيمنة على أوروبا، وفيمــا بعــد استغرقت ثقافة الحضارات البعيدة مثل الصين والهند، جهود ڤايبر وبــذلك وجــدت فى الغرب ولأول مرة عقول تتوجه فى ميدان النظرية الاجتماعية نحو العالم ككــل وتتخذ منه ميدانا للعمل النظرى، وقد تجاوزت هذه العقول - فى هذا المضــمار - حدود المنهج المتمركز حول الغرب الذى كان ويزال سائدا، ومع ذلك فإن إصــدار العمل الموسوعى وتعبير فى عصرنا - العلم والحضارة فى الصين - والذى أخــذ يتزايد ابتداء من سنة ١٩٥٤ بتوعية رفيعة المستوى وإلهام من چوزيــف نيــدهام يبقى امتيازا لعميد كلية كينز وچونڤيل بجامعة كمبريدچ البريطانية، إن هنا عمــلا يمكن وضعه على الجانب الآخر من النهر ليقف وجها لوجه مع موسوعة ديد يدور ودائرة المعارف البريطانية، وبالقطع فقد كان العمل مخصصا للصين بصفة رئيسية

ولكن أعمالا رئيسية أخرى مندمجة فى هذا العمل أو احتـوت عليهـا المجلـدات المرافقة تعالج بصورة متخصصة موضوعات مقارنة بين الشـرق والغـرب فـى محاولة للإجابة على الأسئلة الأساسية على مستوى نظرى حول العالم والتكنولوچيا والتنظيم الاجتماعى والثقافة والحضارة والفلسفة والدين[٣] إلا أن طبيعـة أعمـال نيدهام سواء فى مجلداتها المختصرة أو فى إجماليها المعقد تمنعنا رغم ذلـك مـن الإمساك بالسمة الجوهرية لإسهامه، ولذا فليس هناك دليل على أن أعمال نيدهام قد استوعبت فى التيار الرئيسى للدراسات المقارنة والنظرية الاجتماعية، ومـع ذلـك فإن العملية قد بدأت.

٢ – ٣: وإلى جانب هذا التطور الكبير أو بموازنته ظهر رافد آخر للدراسات المقارنة، هذا الرافد هو ما أقترح تسميته "بالدراسات المقارنة الصورية القائمة على الحصر النمطى" فلقد أخذ إدراك المعدل المتسارع للتغير المجتمعـى فـى عالمنـا المتغير يتزايد منذ سنة ١٩١٧، وخاصة منذ الانهيار الاقتصادى فى الفتـرة مـن ١٩١٩ إلى ١٩٣٢، لقد أنمى انهيار النظام الغربـى المهـيمن منـذ سـنة ١٩٤٥ فصاعدا والصعود السريع للشرق إلى جانب موجة الثورات القومية والاجتماعيـة محصولا جديدا من الدراسات المقارنة التى تتصل بتطور النظرية الاجتماعية، فإلى جانب كتاب بارسونز "النظرية الكبـرى" – البرنـامج الأيـديولوچى لإمبرياليـة الولايات المتحدة فى ذروتها شغلت عشرات المقالات لحاملى الدكتوراه وعشـرات الندوات نفسها بمفهوم المقارنة، وكانت أداة هذا المفهوم – مفهوم المقارنة – هـى القياس (الكمى) حيث يتم اختيار المتغيرات من بين الأهداف التى يرسـمها العـالم المهيمن ومن ثم يوضع تكررها الدورى ومداها تحت الاختبار عن طريق دراسـة العينات، وقد أعطانا ذلك مقارنات بين تركيا واليابان ومقارنـات بـين الانتشـار اللغوى المتكرر فى كل من بيدو والهند وكندا وعلاقته بأنماط الأمة، كمـا أعطانـا اتباع مفهوم المقارنة بالقياس الكمى مقارنات بين التنمية الاقتصادية فى مصر وبين التنمية الاقتصادية فى بوليڤيا وبين الأديان أو الأيديولوچيات الدينيـة فـى فرنسـا الكاثوليكية وڤيتنام البوذية..... الخ وقد بدأ أن كل استواء مجتمعنا أو أية أمة يمكن مقارنتها بأية وحدة أخرى، ولسوف تصنف هذه الأمم أو الاسـتواءات المجتمعيـة

تحت عناوين يتم اختيارها وفقا للأهداف الموضوعة سلفا، وفى أحيان أخرى فإنها تدرس لمجرد حب الاستطلاع أو لزيادة الثقافة، وقد أصبح مفهوم المقارنة نتيجة لذلك مفهوما رائجا ومطلوبا لأناقته العلنية ومكانته المحترمة، والهدف من هذا المفهوم على المستوى السياسى هو كما شرحناه آنفا، أما هدفه العلمى فهو جعل مجتمعات وأمم أخرى معاصرة تتفاعل مع نمط وأنماط المراكز الغربية المهيمنة.

إن الحصر النمطى – باختصار – يرتدى ثيابا تجعله "مقارنة تؤدى إلى العالمية"، والحصر النمطى لا يزال أيضا ضاربا بجذور عميقة فى التكنيكات الكمية التى هى فى الواقع منهج صورى، أو محاولة لإخفاء المنهج الصورى مع إعادة تسميتها بالمنهج.

وبالرغم من ذلك وفى الوقت نفسه بدأ يعلن عن شعور بعدم الرضا لا سيما فى الفترة الأخيرة على وجه التحديد فى الفترة من ١٩٤٨ إلى ١٩٧٣، فالدراسات المقارنة للخط السائد لم تقدم سوى كيلا من المقارنات، وحتى فإذا توسعت فإنها لا تضيف إلى شروحنا وتفسيرنا وفهمنا لعالم متغير، ولم نحس بالحاجة الملحة إلى رؤية قادرة على توحيد المجتمعات المختلفة وعلى مزج إحداها بعدد آخر منها بطريقة جدلية الآن – والآن فقط على وجه – الدقة عندما ارتبطت أجزاء العالم ببعضها من خلال الإمبريالية والاشتراكية والظلم والتوسعات والعلم والتكنولوجيا (لاسيما عبر وسائل الإعلام الجماهيرية) وأخيرا عبر الجيوسياسية والأيديولوجية، فكيف يمكن إذن أن نواجه هذا التحدى؟.

٣ – المواقع

٣ – ١: إطار مفهوم المقارنة:

يتعين أن تكون الخطوة الأولى قبل أن نشرع فى ارتياد الطريق الذى تدافع عنه هى تقديم شكل من أشكال سلالم الأنماط المتماسكة للوحدات المجتمعية التى يتعين المقارنة فيما بينها، وبعبارات أخرى ينبغى أن نعرف حقا ما الذى سوف نقارنه وبماذا سوف نقارنه قبل المقارنة ذاتها.

ويتألف إطار مفهوم المقارنة من ثلاثة أنماط كبرى ومتداخلة من الدوائر:-

أ) الأطر الحضارية: هذه هى الدائرة الخارجية الأكثر عمومية والتى نعرضها على أساس منهج نيدهام لدائرة الحضارة الهندوآرية، ولكن ذلك يترك أمريكا اللاتينية غير محسوبة فى هذا المستوى من التحليل، إلا أننا سوف نعالج هــذه المســألة تحت البند (ب).

ب) المناطق الثقافية: إنها الدائرة الوسيطة، وهى غالبا متداخلة على نحو مشــوش مع الدائرة الحضارية (كما هو الحال فى مؤلفات توينبى حيــث يمكــن اتبــاع محاولاته المتعاقبة لوضع سلالم للأنماط بصورة مفيدة)، ويمكن بشكل متوســع تحديد المناطق الثقافية التالية:

١ - داخل الدائرة الحضارية الهندوآرية:

- العصور المصرية والفارسية القديمة والعصور القديمة فى بلاد الرافدين.

- العصور الإغريقية الرومانية القديمة.

- المنطقة الثقافية الأوروبية.

- منطقة أمريكا الشمالية الثقافية.

- الأجزاء الرئيسية من المنطقة الثقافية الهندوأوربية فى أمريكا اللاتينية.

- المنطقة الثقافية لشبه الصحراء الإفريقية.

- المنطقة الثقافية الإسلامية وهى جزئيا المنطقة الإسلامية العربية والمنطقــة الإسلامية الفارسية (مع استبقاء المناطق الثقافية الإسلامية الآسيوية التى تقع ضمن الدائرة الحضارية الصينية).

٢ - داخل الدائرة الحضارية الصينية.

- الصين الخالصة.

- اليابان.

- منغوليا ووسط آسيا.

- الاوتيانوس باستثناء استراليا ونيوزيلندا.

٣ - منطقتان حضاريتان - ثقافيتان وسطيتين تجمعان بين الإطارين الحضاريين الرئيسيين، وتمثلان همزة الوصل بين الإطارين الكبيرين:

- المنطقة الثقافية الإسلامية وهى جزئيا.

- شبه القارة الهندية، التى يمثل فى قطاعها الشمالى جزء مهما من الدائرة الحضارية - الثقافية الإسلامية.

(ينبغى تفسير هاتين الدائرتين الخارجتين الكبريين على أساس إبراز أوجه الاختلاف التاريخية الأصولية فيما بين "العوالم" التى تتكون منها البشرية أى فيما بين الشرق والغرب).

وفى واقع الأمر يمكن النظر إلى الشرق بوصفه يتألف من المكونات التالية:

١ - دائرة الحضارة الصينية ومناطقها الثقافية.

٢ - الدائرة الثقافية الحضارية للإسلام... الرابطة الواحدة الكبرى بين دائرة الحضارة الهندوآرية ودائرة الحضارة الصينية... وكلتيهما دائرتا وساطة ومنطقتا توترات كبرى(٤).

٣ - الدائرة الحضارية الثقافية الهندية.

٤- أجزاء المنطقة الثقافية الهندوأوربية فى أمريكا اللاتينية المرتبطة مباشرة بأفريقيا (وهى البرازيل بالتحديد وكذلك منطقة الكاريبى).

٤ - المنطقة الثقافية فى شبه الصحراء الأفريقية.

لذلك يتألف الغرب من القطاعات الكبرى للحضارة الهندوآرية.

(ج) الأمم (أو التكوينات القومية) وهى وحدات أساسية لوجود واستمرارية وتطور العمليات المجتمعية الكلية والكشف عنها، ولقد افترضنا سلما للأنماط يرتكز على خمس فئات:-

١ – الأمم الأصولية والتى توصف أيضا بالأمم الناهضة (مصر والصين وفارس وكذلك تركيا وفيتنام والمكسيك والمغرب).

٢ – النمط الأوروبى، ومن ثم الغربى للدولة القومية.

٣ – الدولة القومية الجديدة تتحرك نحو التوحيد، وتضم دولا قومية بالمعنى الحرفى لكلمة الدولة مثل (أثيوبيا وغانا ومالى وبورما وتايلاند) وتضم أيضا تكوينات قومية داخل إطار جماعات متعددة (أرمينيا – چورچيا، أوزبكستان... الخ).

٤ – الدولة القومية الثقافية (الهندية ثم الأوروبية فيما بعد) وهى منتشرة بصفة رئيسية فى أمريكا اللاتينية.

٥ – الدول الجديدة ذات الوجهة القومية (وهى موجودة بوجه خاص فى أجزاء متفرقة من شبه الصحراء الأفريقية وفى قطاع صغير من أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية).

وليس فى وسعنا سوى معالجة التمييز الأساسى بين الدوائر الثلاث فى عرض مستفيض.

وسوف يتم تحديد المناطق الحضارية على أساس التصور العام للعلاقات بين الثقافات والأمم والتكوينات المجتمعية من ناحية، وعلى أساس البعد الزمنى من ناحية أخرى، وإذا تكلمنا حرفيا فإن تلك العلاقة الفلسفية بالزمن بوصفه ميدان التطور الإنسانى ونتائجه هى ما يمكن أن يقال للتمييز بين الشرق والغرب، وهذه العلاقة شئ أكبر من أن تكون مجرد نظرة عالمية، وإذ ذاك فسوف يكون بمقدورنا النظر إلى المناطق الثقافية بوصفها مجموعات مجتمعية تقتسم، على أن يكون ذلك بشروط الحتمية التاريخية الجغرافية عبر التاريخ (بشقيها الأيكولوچى (البيئى) والچيوسياسى أكثر من كونه بشروط الفلسفة الخالصة) وهذا تصور للعالم يعبر عن نفسه غالبا فى قائمة محدودة من اللغات الرئيسية، بل ويعبر عن نفسه أحيانا فى لغة واحدة فقط (العربية، الصينية، الإنجليزية – الفارسية، اليابانية فى كل واحدة

من المناطق الثقافية المعنية). وهكذا يصبح تمييز الأمم والتكوينات القومية أكثر سهولة عندما يتم التوصل إلى اتفاق حول سلم الأنماط التكوينية الضرورى.

إننا بوضع تلك أنماط الثلاثة الكبرى المتداخلة من الدوائر كإطار لمفهوم المقارنة لم نفعل – مع ذلك – أكثر من تقديم وصف طبوغرافى (أو عملية تشريح) لميدان المقارنة، ويجب الآن أن نمضى قدما لربط الوحدات المختلفة داخل كل واحدة من الدوائر الثلاث بالدائرتين الثانيتين المحيطتين بهذه الوحدات ربطا جدليا، وهذا هو بالضبط الهدف من مقدمتنا عن مفهوم الخصوصية[٥].

٤ – حول ملائمة مفهوم المقارنة عمليا ومقتضياته:–

لقد أصبح واضحا من الشروح التى قد كوناها أن مفهوم المقارنة ليس مسألة تكنيكات أو منهج بالرغم من أنه سوف تكون هناك حاجة إلى تطوير التكنيكات والمنهج على نحو جدير بالاعتبار إذا كان لها أن تفى بحاجة مفهوم المقارنة فى إطار منظور تقاطع الحضارات.

ويمكن ربط المراحل المختلفة فى تاريخ مفهوم المقارنة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية وكذلك فى النظرية الاجتماعية الخالصة على النحو الذى وصف آنفا فى جزئى (٢٢) بالمراحل الحاسمة فى تطور إنسان القوة فى العالم، ولهذا السبب فإنه لا يمكن اقتراح مفهوم المقارنة داخل إطار منظور تقاطع للحضارات كأساس لنظرية اجتماعية ذات هدف إلا على أساس المزج بين العوامل التالية:–

١) ظهور أنساق جديدة للقوة فى العالم وظهور الشرق فى النهضة والقوة وموجة الثورات القومية والاجتماعية فى العالم وأثر المستويات الجديدة من العلم والتكنولوجيا على التغير الصناعى.

٢) الإدراك الواضح لحقيقة أن القواعد التى تم الحصول عليها منذ فترة – لنقل إنها قرن مضى – وحتى يالنا لم تعد صالحة للتطبيق، إذ يجب أن يفهم العلماء والمنظرون الاجتماعيون على السواء وبوضوح أن العملية الجدلية المتفاعلة داخليا فى العالم المحسوس يمكن – بل ويجب – أن تنعكس فى عملية متوازية

فى حلبة العلم والنظرية، إنه لم يعد من الممكن انتقاء مجموعة عينت نفسها بنفسها من العلماء والمنظرين الاجتماعيين المنتمين إلى الجزء صاحب الامتياز فيما سبق من العالم (أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية) لكى تزن هذه الحركة، وفضلا عن ذلك فما دامت هذه الحركة بطبيعتها ومضمونها وهدفها تعنى نهاية الهيمنة السياسية والثقافية الأيديولوچية على كوكب الأرض كله، فإن فرق العلماء الذين يمثلون المناطق الثقافية القومية تمثيلا صادقا، والذين يمثلون المدارس المختلفة للفكر فى كل منطقة – ولكن ليس العلماء الراغبين دائما فى قول نعم – هى فقط التى تستطيع الاضطلاع بهذه المهمة الهائلة بطريقة هادفة وفعالة، والميدان مفتوح للجميع، ولكن الأصوات التى سوف يستمع إليها وتتدارس أفكارها سوف تكون بالقطع أقل عددا للأسباب التى ذكرناها.

٣ – سوف تعتمد القدرة على تنظيم مثل هذه المشروعات إلى جانب حشد الموارد السياسية (الدول والأحزاب المعنية) والموارد الثقافية (كل من الأجهزة الأكاديمية والبحوث والعوامل الثقافية فى أوسع معانيها) على التسهيلات المؤسسية والفلسفات السياسية لكل الأطراف المشاركة إلى حد كبير، وبهذا فإن فتح ميادين جديدة على أساس الرؤية الموضحة هنا يمكن أن يكون ذا أثر منشط للتفاعل على العملية التى هى الآن فى دور التكوين ككل.

لهذا السبب تستطيع النظرية الاجتماعية ذات الهدف – وينبغى – أن تلعب دورا مهما كمؤثر وسيط فى خلال عملية إعادة تركيب نسق القوة العالمية فى عصرنا والتى هى عملية معقدة ومليئة بالصراعات. كما أنها تستطيع أن توفر بصلاحية تامة ميدانا فسيحا ونبيلا يعمل فيه العلماء والمنظرون المخلصون وفى أذهانهم رؤية للتاريخ، ولسوف يفيد هؤلاء من ذلك ومن وجهة نظرنا الحصول على نقطة انطلاق جديدة، وهى منظور تقاطع الحضارات الذى من خلاله سوف يضع العلماء والمنظرون أيديهم فى أيدى الطاقات الإنسانية القوية والطاقات المجتمعية والثقافية العلمية الكامنة.

إن ذلك سيكون هو الوعد الذى يبشر به حيال علم الاجتماع إن صح التعبير والذى سوف يأتى جنبا إلى جنب مع النشاط الرابح على المستوى وفى الإطار الذى نقترحه هنا على كل المهتمين.

الهوامش:

[1] قارن هذا بغياب أى مدخل عن " النظرية " فى International Encyclopedia of social Sciences (١٩٦٨) الأمريكية ، وبالمعجم الصادر عن اليونسكو (لندن ١٩٦٤) A Dictionary of the Social Sciences, والذى يقدم تحت مدخل " النموذج النظرى " نبرة راقية من الإبداع الفلسفى بقلم E.A.Gellner (ص ٤٣٥) . وبالتعريف الأساس والواضح والدقيق فى مقال "النظرية" فى المؤلف الكلاسيكى A. Lalande Vocobularie technipue er eritique de la philosophie , ٨th edn. (PARIS ١٩٦٠) pp. ١١٢٧-٨

[2] تعتمد الآراء الواردة فى هذا الفصل على أبحاثنا فى مجال النظرية الاجتماعية والسياسية بين أعوام ١٩٦٠ و ١٩٧٢ .

[3] بدأ مشروع Science and Civilization in China كمشروع كبير فـــى عـــام ١٩٤٢ . وظهر الجزء الأول فى ١٩٥٤ فى دار Cambridge University Press وينتظر استكماله فى ١٩٨٠ وقد نشر حوالى ثلثه حتى الآن فى سبعه أجزاء وصدرت إلى جانـــب الموســـوعة الأعمال الآتية :

Clerks and craftsmen in China and the west (١٩٧٠) within four seas . The dialogue of East and West (١٩٧٢) . The Grand titration . Science and society in East and West (١٩٧٢)

[4] انظر مؤلفا (دراسات فى الثقافة الوطنية) بيروت ١٩٦٩ وبشكل خاص " من أجل إستراتيجية حضارية " فى الثقافة العربية ، بيروت ابريل ١٩٧٣ (ص ١١٦-١٣١)

[5] وذلك وفقا للتعريف الذى قدمناه لمفهوم الخصوصية .

(٤)

علم الاجتماع والتاريخ الاقتصادى - محاولة للتلاقى

خضع المؤرخون الاقتصاديون العاملون فى الشرق الأوسط - ولا سيما فى الفترة الحديثة - لأثر مجموعة معقدة من عوامل التغيير، وقد أعادت هذه العوامل تشكيل ميادين الدراسة والبحث فيما قبل ليكون كل ميدان منها وكعلم اجتماعى (بما فى ذلك التاريخ الاقتصادى) وكدراسات إقليمية (وهى دراسة أوضاع القارات الثلاث المختلفة بما فى ذلك الشرق الأوسط) بعيدا عن الآخر، إلا أننا ينبغى أن نتساءل من وجهة نظر مناهج البحث التى يجب أن تكون عملية وصالحة بوجه عام بدلا من أن تكون مقصورة على إقليم واحد - حول استعمالات وحدود التاريخ الاقتصادى، ليس كعلم فى حد ذاته ولكن فى إطار العلوم الاجتماعية، كذلك ينبغى أن يعنى هذا التحليل بالميدان موضع الدراسة بملامحه الخاصة، أى الشرق الأوسط مع إشارة خاصة لمصر، ويجب فى الوقت نفسه أن يوضع هذا التحليل داخل الإطار الأوسع لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

إن المصدر الرئيسى للرؤية المحدودة للاستشراق الحديث هو التدريب والإعداد غير الكافيين للمتخصصين فى فروع المعرفة الحديثة[1]، وأظن أن المشكلة المركزية هى "الطريق الضيق" الذى توضع فيه المشكلة، لأن "المنهج" ليس إلا الرأس الطافية من عديد من الفلسفات الاجتماعية المتباينة مطبقة على واقع محسوس.

١ - التاريخ الاقتصادى والتنمية القومية:

يحتفظ علم الاقتصاد أو الاقتصاد السياسى كما نعرفه اليوم ببعض ملامح أعطاه إياها الكتاب الكلاسيكيون مثل أفلاطون وأرسطو أو الأب المؤسس لهذا العلم ابن خلدون، ولكن ما يعترف به اليوم هو أن علم الاقتصاد ولد فى مرحلة الانتقال من الإقطاع إلى الرأسمالية فى أوروبا، ومن الفلسفة السكولاستية أو التمسك الحرفى بتعاليم أرسطو إلى "ثروة الأمم". وكان على الرأسمالية التجارية، ثم

الصناعية فيما بعد، أن تحل عددا من المشكلات هى الطبيعة الظاهرية للعقبات الاقتصادية أمام التقدم، ودور العوامل المختلفة فى النشاط الاقتصادى، وأهداف ذلك النشاط ثم البحث عن مبررات أخلاقية وسياسية لهذا النشاط وهكذا، ويتناقض كتاب آدم سميث الصادر فى (١٧٧٦) بصورة حادة مع العرض التبشيرى السعيد الذى قدمه أتباع المذهب الفيزوقراطى فى الاقتصاد (الاقتصاديون الطبيعيون)، ففى تلك اللحظة كان يأتى إلى الوجود تكوين اجتماعى اقتصادى جديد هو الرأسمالية وكانت طبقة جديدة هى البرجوازية ثم القطاع الصناعى منها آخذين فى البروز، وهذه الطبقة هى التى وصلت إلى السلطة فى النهاية مع انتصار الثورة الفرنسية.

هل هو التحليل الاقتصادى أم إنه التاريخ الاقتصادى؟ هذا السؤال الذى طرحه كتاب ثروة الأمم أثير مرة أخرى فى كتاب رأس المال (١٨٦٧ – ١٨٩٤)، لقد اضطر المتخصصون فى الميادين العديدة للاقتصاد السياسى إلى مراجعة مناهجهم، كما اضطرت العلوم الاجتماعية التى كانت آخذة فى الظهور إلى مراجعة مناهجها فى مواجهة هذين الكتابين الشامخين اللذين مزجا فيما بين التاريخ الاقتصادى والتحليل الاقتصادى والتحليل الاجتماعى والفلسفة[٢] وقد شرعوا فى العمل، ليس لوصف، ولكن لتفسير ما أسماه سميث "الكائن الاقتصادى" و"الإنسان الاقتصادى" وكذلك تفسير السببية الاجتماعية وديناميات التاريخ الإنسانى كما فهمها ماركس، ومن ثم فلم يكن عملهم مجرد تجميع للحقائق فحسب، كما لم يكن مجرد إعادة ترتيب نظام عرض وتقديم تلك الحقائق، ولكن الوضعية فى ذات الوقت كانت قد بدأت تظهر على أثر ظهور التجريبية وفى سياق الأيديولوجية المسيطرة فى القرن التاسع عشر، وهكذا فقد أكد هذان المفكران فى العصور الحديثة وفى حقل الاقتصاد ذاته مقولة أوسكار لانج إن وجود معرفة علمية بالاقتصاد يعتمد على وجود طبقة اجتماعية تسعى لاكتشاف العلاقات الاقتصادية والقوانين التى تحكمها فى أرض الواقع، وهى طبقة تعبر أمانيها عن نفسها فى أيديولوجية تقدمية وفى أيديولوجية تميط اللثام عن الواقع[٣].

لقد فهم ظهور المدرسة التاريخية (و. روسشر، ب. هايلد براند، ك. نايز.. الخ) اعتبارا من ١٨٤٣ فصاعدا مع بدايات التاريخ الاقتصادى هذه النقطة كتاريخ

للأفكار الاقتصادية وكذلك فهمتها كتابات ريتشارد جونز، وقد توافق ظهور المدرسة التاريخية كما توافقت كتابات جونز كثيرا أو قليلا مع بدايات التاريخ الاقتصادى، ويظهر المسح الموجز لأعمال ذلك القرن فى ميدان التاريخ الاقتصادى أن التعريف يشمل ثلاثة ميادين متباينة: تاريخ الأفكار والنظم الاقتصادية[٤]، وتاريخ التنمية الاقتصادية أو التطور الاقتصادى لدولة واحدة أو – مجموعة من الدول، وتاريخ قطاعات محددة من النشاط الاقتصادى (الصناعة، النقل.... الخ).

ويقع التاريخ الاقتصادى للقارات الثلاث متضمنة الشرق الأوسط فى طوره الحديث – كما هو حاليا فى الميدان الثانى ويفضى بنا إلى الميدان الثالث، ولقد ندر أن بذل مجهود جاد لتحليل حركة الأفكار الاقتصادية أو لربطها بالتيار العام لتاريخ الأفكار، ويفترض أن الدول المستعمرة تستطيع تطوير جسد مستقل ذاتيا من الأفكار النظرية إذا نحينا جانبا النظرية الاقتصادية، وقد استمر ذلك – إذا تكلمنا على نطاق واسع لأسباب جلية – ليكون هو الموقف فى الدول المستعمرة سابقا حتى الثلاثينيات، وهذا هو السبب فى أنه من المهم جدا توضيح طبيعة العمل الذى قام به المؤرخون الاقتصاديون الكلاسيكيون الأوروبيون والأمريكيون الشماليون ككل، فهذا العمل سوف يمكننا من وضع أعمال زملائهم فى الدول المستعمرة سلفا ولا سيما فى الشرق الأوسط تحت المنظار.

إن المسلمة الأساسية للتاريخ الاقتصادى لكل العلوم الاجتماعية فى الواقع هى أن الإنسان والمفاهيم التى تطورت فى الدول الرأسمالية المتقدمة فى أوروبا وأمريكا الشمالية ذات صلاحية (أو شرعية) عالمية، ومن الواضح أن العالم ليس مصنوعا من وحدات متشابهة، ولكن يفترض أن أوجه الاختلاف يمكن تقليلها عند تحديد المبادئ العقلانية التى تضمن نموها "الطبيعى" لتصبح على وفاق مع النموذج الذى قدمته الدول الواقعة على الخط الأمامى للتقدم، ولسوف يكون من الواضح أن جذور هذه المسلمة الأساسية تكمن فى الفلسفة الإنسانية، بل وربما فى الفلسفة التطورية التى اخترقت ميدان الدراسات الاجتماعية زهاء نهاية القرن التاسع عشر، وقد تعززت هذه المسلمة بالافتراض الضمنى القائل بأن ما هو خير للغرب لا

يمكن إلا أن يكون نورا هاديا لبقية العالم، أى الدول المستعمرة على سبيل المثـــال، وهكذا جاءت المركزية الأوروبية لتحل تدريجيا محل الإنسانية التطوريـــة عنـــدما جاءت الدول المستعمرة التى كانت تناضل من أجل التحرر القـــومى إلـــى دائـــرة الضوء، ومن الطبيعى أن هذا الاتجاه قد ازداد قوة باقتراب القرن التاسع عشر من نهايته مع تركز الحياة الأكاديمية والمؤسسات فى الغرب، فقد وفرت مراكز التعليم العلمى المتخصص والمكتبات والنشر والصحافة وكـــذلك البـــاحثون والمعلمـــون البارزون؛ كل هؤلاء وفروا المصادر الكبرى لمساندة الاعتقاد بالمسلمة العالمية فى ذلك الميدان والعمل وفقا لها، ولقد كان الإطار المفاهيمى للعلوم الاجتماعيـــة – ولا يزال – غربيا فى أصوله وفى توجهاته، ولقد زاد من قوة هـــذا الاتجـــاه بشـــكل ملحوظ فى ميدان علم الاقتصاد الدور الاقتصادى القائد للدول الرأسمالية الكبـــرى فى السياسة العالمية وخلق سوق اقتصـــادية عالميـــة والـــدمج الإجبـــارى للـــدول المستعمرة والتابعة فى هذه السوق، كذلك عزز من قوة هذا الاتجاه هيمنة الغـــرب على تلك السوق، ومع ذلك فقد استمرت الثقافات والديانات التقليدية للـــنمط غيـــر الأوروبى مهيمنة على الجزء الأكبر من العالم. ولم تكن معظم الشـــعوب والـــدول مضطرة كما حدث بالفعل – لاتباع الطريـــق الغربـــى إلا فـــى ميـــدان النشـــاط الاقتصادى.

وقد أشار آسابريجز مؤخرا إلى حقيقة أن النظرية قد أدخلت حقنا إلى التاريخ من خلال تنمية "التواريخ الفرعية" أو الجزئية بالدرجة الأولـــى، ويمـــدنا التـــاريخ الاقتصادى بواحد من أفضل الأمثلة، فماركس صاحب النفوذ الرئيسى تبعه مـــاكس ڤايبر، فالنظريات سوف ترتكز على "المفاهيم والأطر" و"تكنيكات التفكيـــر"، إذ أن المؤرخ عندما يشرع فى دراسة مشكلة معينة فإنه يجد ڤايبر يبدأ بالمفاهيم والأطـــر وتكنيكات التفكير بوصفها بيانات الدراسة(٥) وقد أخذ هذا الطريق ذو الاتجاهين بين التاريخ وعلم الاقتصاد ينمو مع تكثيف متزايد للأعمـــال العاديـــة" فـــى التـــاريخ الاقتصادى والنظرية، ووجد المتخصصون أنه من الضـــرورى أن يتعـــاونوا مـــع الأنثربولوچيين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس وسائر العلماء الاجتماعيين.

وشيئا فشيئا أخذت المشكلات موضع الدراسة تظهر بوصفها "كليات معقدة" بدلا من ظهورها كظاهرة أو ظواهر مستقلة، وهذا هو الأصل فى ظهور التاريخ الاجتماعى كفرع من فروع المعرفة، وهو الفرع الذى سرعان ما نسخ علم التاريخ التقليدى، لاسيما فى فرنسا مع ظهور مدرسة "مارك بلوشى Annols".

ولكن ما الذى تكشف عنه التغيرات الاقتصادية: معدلها ومداها، وما الذى يكشف عنه النمو الاقتصادى والركود والرخاء؟ وما الذى تكشف عنه التنمية الاقتصادية والقيم الاقتصادية؟ وما الذى تكشف عنه هذه الأفكار والمفاهيم الاقتصادية عندما يطبقها المؤرخون الاقتصاديون على القارات الثلاث.؟

دعنا الآن ندرس ذلك النوع من المشكلات التى تفرض نفسها، إن هذه المشكلات تقع فيما يبدو فى ميدانين:

أ – نمط البيئة الاقتصادية: تشير كل الدلائل إلى حقيقة أننا هنا نتعامل مع وحدات متغايرة الخواص، وهذا التباين فى الخواص يحدث على مستويات عديدة، فنحن نعرف حكاية "القطاعين" فى الاقتصاديات المتخلفة أو الاقتصاديات النامية أى القطاع التقليدى أو القطاع الحديث، أو القطاع القديم الجامد و القطاع النامى Forward – looking sector [٦]، ولكن فى وسعنا الآن أن – نرى كيف يمكن أن تقترن التنمية "الاقتصادية" "بالتخلف الاقتصادى"، على الرغم من أنه لا يزال يتعين استكشاف أشياء كثيرة إذا كان لنا أن نحصل على مستوى مفيد من التحليل[٧].

فلقد وضع التناقض فيما بين الدول القومية القديمة (مصر، الصين، إيران، تركيا.... الخ) وكذلك وضعت الأنماط الأخرى من التكوينات القومية "التى تضم ما يسمى "بالدول الجديدة" إلى جانب مشكلة الحدود الاستعمارية المصطنعة.. كل ذلك وضع المفهوم الإجرائى المطبق على "العالم الثالث" موضع التساؤل[٨]، إن صورة المناطق الواسعة التى تهددها المجاعة والموت تحتل مساحة ضخمة من بيانات وتوجيهات وفكر الثوار، وفى الحقيقة فقد أصبحت هذه الصورة مقبولة كأحد جوانب حالتنا الإنسانية المعاصرة.

ويشير ذلك إلى تباين الخواص وليس إلى الانقسام الثنائى فحسب، أى لا يشير إلى عملية مزج فيما بين القديم والجديد ولكن إلى نتيجة عمل عوامل معقدة ومتباعدة فى أنحاء البناء الاجتماعى لتلك الدول، إنه يشير إلى نقص أساسى واختلال جذرى، كما يشير إلى القلق والاضطراب، وفى مثل هذه الحالة الإنسانية لا يستطيع المرء أن يبحث بعد الآن عن الإنسان الاقتصادى.

ب – ومع ذلك وبالرغم من هذه البنية الأساسية، فإن الاضطراب والفوضى قد أمكن تحاشيهما بثبات وإصرار فى الدول القومية القديمة، كما أن إرادة تحاشيهما توجد فى الأنواع (الفئات) الأخرى من الدول، فكيف إذن نستطيع تفسير هذا الاتجاه نحو التماسك والوحدة وسط تباين الخواص؟

لقد أصبح المتخصصون والرأى العام فى الغرب يدركون تدريجيا أنه يكمن خلف تلك التفاوتات الاقتصادية وخلف انعدام التماسك والوحدة ذلك طور كامل وعميق الجذور من المعتقدات والعادات وأساليب الحياة ومن الأفكار ونظم الفكر، كما تكمن إرادة تطمح إلى أن تكون جماعية بل وإلى أن تكون قومية، وسوف يتعين البحث عن مصدر تلك الإرادة القومية فى أيديولوچية ضمنية[٩] – هى إذا قبلنا الوصف – المركز العصبى لبنيتها العميقة، وتمثل هذه الأيديولوچية الجزء الأعظم من جبل الجليد، الجزء المختفى خلف الإحصاءات والمسوح الشاملة، واستطلاعات الرأى وما إلى ذلك، أنها شئ شامل "فهى بالتحديد بقية تاريخية اجتماعية قومية مغمورة بحيث لا يستطيع أى محلل اجتماعى أن يتجاهلها أو يغض من قيمتها، إن هذه الإرادة هى إذن الفرضية التى سأعمل بناء عليها، وهذا الفصل سوف يسعى إلى إثبات صحتها.

بعد أن قلنا ذلك، وبعد أن تحددت المشكلات، فبوسعنا الآن أن نمضى قدما لندرس أعمال المؤرخين الاقتصاديين فى الميدان الذى يشغلنا.

١ – هناك قائمة أولى من الكتب والدراسات توفر مسوحا وقائعية وهى كتب ودراسات وصفية بالدرجة الأولى، ولكنها أحيانا تكون تحليلية، وفى الحالة الأخيرة يكون التحليل عادة قد تم فى مواجهة خلفية تاريخية إجمالية

غامضة، إلا عندما تكون نقطة بداية التحليل افتراض عـام حـول الأديـان الشرقية فى علاقتها بالنشاط الاقتصادى، ولقد حاول اتجـاه مـن اتجاهـات التفكير الاقتصادى - وما زال يحاول تحت تأثير كولين كـلارك - تقـويم التنمية الاقتصادية فى الدول التى كانت مستعمرات سابقة من خلال مصفوفة موحدة من المعايير الإحصائية والرياضية، ولاسيما عن طريق المقارنـات الدولية للـدخل القـومى[١٠]، ولكـن المحاسـبة والقياسـات الاقتصـادية (econometrics) نحت التأريخية جانبا وبإصرار، وبذلك فإنهـا تتجاهـل المميزات القومية الخاصة[١١].

٢ - تبدأ الدراسات التى تتم فى مواجهة خلفية تاريخية عادة من مسـلمات عامـة حول العلاقة الداخلية بين الأديان الشرقية والنشاط الاقتصادى الحديث، فيـتم شرح التخلف وآفاق المستقبل بلغة الوحدات البنائية الدائمة، وتقدم المقـولات المعروفة عن الإنسان الإسلامى لملأ الفجوات الحتمية التى تتركها الأعمـال التى تحدثنا عنها فى الفقرة السابقة.

٣ - ومع ذلك فهناك مجموعة ثالثة من الدراسات ذات مظهر أكثر حداثـة، وقـد بدأت هذه الدراسات فى المزج بين استخدام أدوات التحليل الحديثـة وبـين التحليل الاجتماعى موضوعا فى منظور تاريخى، وأما القضايا الرئيسية فى هذا النوع من الأعمال فهى انقطاع الاستمرارية والتباين فـى الخصـائص والطابع الخاص للتنمية الاقتصادية فـى دول القـارات الـثلاث المختلفـة والعلاقة الداخلية بين التاريخ الماضى والتنمية الحالية، وبين الأيديولوچيـة والبناء الاجتماعى الاقتصادى وكذلك أسباب التطور المتفاوت للدول المختلفة ودور الاختيارية والفعالية السياسية.... الخ.

وقد استثارت الفروض الموضوعة قدرا كبيرا من المناقشات النظريـة حـول اتجاه الممارسة فى المستقبل، ويهدف عمل هذه المجموعة المشكلة حديثا فى ميدان النظرية والتطبيق العملى على السواء إلى إقامة العلاقات التاريخية الدقيقة بين العام (الشامل) والخاص وبين العلم والتنمية القومية، فهذه العلاقات هامة وفعالة.

٢ – استعمالات علم الاجتماع:

طرح ريمون أرون – مضطرا – فى الفترة الأخيرة حجته القائلة بأن خط التقسيم بين نوعى علم الاجتماع الغربى والسوفيتى، أى بين علم الاجتماع البرجوازى – الليبرالى وعلم الاجتماع الماركسى، يتعرض الآن لعملية استبداله بتقسيم جديد يتميز بين التيارات التجريبية والتيارات النظرية(١٢)، وبالرغم من أنه يبدو أن الكتابات الماركسية فى علم الاجتماع لا تزال واقفة فى حلبة علم الاجتماع النظرى، فإن الأعمال البارزة لعلماء الاجتماع الليبراليين (وآرون نفسه فى الخط الأمامى لمعسكرهم) تشير إلى وجود "الشقين" فى كثير من القطاعات والمواقف.

ومن الواضح أنه إذا كان التاريخ الاقتصادى الكلاسيكى يدعو – عند تطبيقه على القارات الثلاث إلى نقده نقدا قاسيا بسبب افتقاره إلى الرؤية النظرية لعملية بناء الأمة "national itasian psaces" فإن المعونة التى نحتاجها فى هذه اللحظة من علم الاجتماع لن تأتى إذن من قطاعه التجريبى، إذ أن نظرية علم الاجتماع التى نولى وجهنا شطرها الآن ليست فى واقع الأمر انحرافا فلسفيا عن المجتمع، ولكنها بالأحرى الصياغة المفاهيمية الدقيقة لاكتشافات علم الاجتماع داخل إطار التاريخ.

ويأتى ماركس وماكس ڤايبر فى المقدمة – وإن جاء كل منهما بطرق مختلفة، وقد طور جيلنا – المختلف كثيرا عن أجيالهما فى أنه شاهد ظهور ونمو دول اشتراكية وشاهد ظهور الحركات القومية ويقظة العالم الذى كان مستعمرا فى السابق – لقد طور جيلنا هذا علم اجتماع يعترف تدريجيا بأنه أكثر كفاية وملاءمة من المدارس الفكرية التى كانت مسيطرة فيما مضى، وربما يكون ذلك صحيحا بوجه خاص فى ميداننا الذى يعد ميدانا خصبا فيما يحتوى عليه من جديد والذى يعد ظاهرة غير كلاسيكية تقوض الأفكار التى تلقاها جيلنا.

لقد أثر كتاب ك. رايت ميلز "الخيال الاجتماعى" الصادر ١٩٥٩ – لمداه ورؤيته ولصدق عاطفته ونفاذ بصيرته، ناهيك عن جدارته بالشروط العلمية الكلاسيكية فى عدد كبير من العلماء الاجتماعيين وغير المتخصصين على السواء

بوصفه نقطة تحول فى التاريخ الفكرى لعصرنا وبوصفه إلهاما ومرشدا نحو المنهج لأولئك الذين تهتم أعمالهم بالمشكلات الجديدة التى أثارتها التحولات العميقة الحادثة فى عالمنا المعاصر، وهناك فى هذا الكتاب ثلاث نقاط تتطلب دراسة موجزة:

أ – يعتبر علم الاجتماع حاليا شيئين فى آن واحد، فهو رؤية للأشياء، وهو نوع معرفى متخصص يعنى بالمؤسسات الاجتماعية مادية كانت أم روحية، ولم يبدأ علم الاجتماع بوصفه رؤية فى التشكل إلا الآن فقط، ويمكننا "الخيال الاجتماعى" من الإمساك بالتاريخ والسير الذاتية وبالعلاقة بينهما داخل التاريخ عن طريق توجيه ثلاثة أنماط من الأسئلة:-

١ – ما هى بنية مجتمع ما ككل؟ ما هى مكوناته الجوهرية، وكيف يرتبط كل منها بالآخر؟ وكيف تختلف عن غيرها من متغيرات النظام الاجتماعى؟ وما معنى أى ملمح خاص داخل هذه البنية لاستمرارها ولتغيرها؟

٢ – أين يقف هذا المجتمع فى التاريخ الإنسانى؟ ما هى الوسائل التى يتغير بها المجتمع؟ ما هو مكانه وما هو المعنى الذى يسهم به فى تنمية الإنسانية ككل؟ كيف يؤثر أى ملمح خاص نقوم بفحصه فى الفترة التاريخية التى يتحرك المجتمع داخلها؟ وكيف يتأثر هذا الملمح بتلك الفترة؟ وما هى الملامح الجوهرية لهذه الفترة نفسها؟ وكيف تختلف تلك الفترة عن الفترات الأخرى؟ ما هى أساليبها المميزة فى صنع التاريخ؟

٣ – ما هى نوعيات الرجال والنساء التى تسود هذا المجتمع فى هذه الفترة؟ ما هى الطرق التى يختارون ويكونون من خلالها؟ وما هى الطرق التى يتحررون أو – يضطهدون بها؟ وما هى الوسائل التى يصبحون بها إما حساسين وأما متبلدى الشعور؟ ما هى أنواع "الطبيعة الإنسانية" التى تكتشف سواء فى السلوك أو فى الشخصية التى نلاحظها فى ذلك المجتمع فى تلك الفترة؟ وما هو معنى الطبيعة الإنسانية لملامح المجتمع الذى تفحصه ولكل ملمح على حده؟.

هذه هى الأسئلة التى يسألها أفضل المحللين الاجتماعيين سواء أكان موضوع الاهتمام هو دولة ذات قوة عظمى أو مجرد حالة المزاج الفنى والأدبـــى أو وحـــدة صغيرة كأسرة أو سجن أو عقيدة دينية، فهـــذه الأســـئلة هـــى المحـــاور الفكريـــة للدراسات الكلاسيكية للإنسان فى المجتمع، أو هى أيضا أسئلة من المحتم أن يثيرها أى عقل يملك الخيال الاجتماعى، إذ أن هذا الخيال هو القدرة على التحـــول مـــن منظور إلى آخر.... ومن منظور سياسى إلى منظور نفسى، مـــن فحـــص أســـرة واحدة إلى تقويم مقارن للميزانيات القومية فى العالم.. من المدرسة الثيولوجية إلـــى المؤسسة العسكرية.. من دراسات صناعية بترولية إلى دراسات الشعر المعاصـــر، إنها القدرة على التنوع من أكثر التحولات اللاشخصية، أى أكثرها بعدا عن الـــذات إلى أكثر الموضوعات قربا من الإنسان ذاته، وكذلك هـــى القـــدرة علـــى رؤيـــة العلاقات بين النوعين(١٣).

لقد اقتبست من هذا العمل الأول عن "الخيال الاجتماعى" باستفاضة لأنه يبـــين كل المشكلات المثارة فى الجزء الأول جنبا إلى جنب، ويظهر بوضوح الروح التى من المقترح استعمال علم الاجتماع بها لتذليل المصاعب التـــى يواجهـــا التـــاريخ الاقتصادى الكلاسيكى حاليا.

ب – عندما نصل إلى اتفاق حول العلاقات بين العلوم الاجتماعية المختلفة وبين كل قسم فرعى منها على حدة تكون القضية الرئيسية هى كيفيـــة إدمـــاج البعـــد التاريخى فى الدراسات الاجتماعية.

إننا قد ألفنا تمييز فرديناند بروديل بين المستويات الثلاثـــة للتـــاريخ، التـــاريخ قصير المدى الجزئى فى طرف والتاريخ طويل الأجل البنائى فى الطرف الآخـــر، وبين هذين الطرفين يقف التاريخ الوسطى (متوسط المدى).

والمستوى الثانى هو الذى يوجد من وجهة نظر بروديل – فيما بين التـــاريخ وعلم الاجتماع، ولا يمكن للتاريخ متوسط المدى الـــذى ينصـــب عليـــه اهتمامنـــا المركزى أن يخفق فى تبيان آثار هذا التعايش المبكر بين شيئين غيـــر متشـــابهين، ومن هنا يأتى القبول العريض لمقولة رايت ميل بأن (التاريخ هو "ساق" الدراســـة

الاجتماعية)[14]، ويأتى أيضا من هنا القبول العريض لمفهومه القائل بأن "علم الاجتماع الذى يستحق هذا الاسم هو علم الاجتماع التاريخى"[15]، ويمكننا إبراز العديد من الأسباب التى تشرح هذه الصلة الوثيقة بين التاريخ وعلم الاجتماع وقابليته للتطبيق على كل المجتمعات.

ونحتاج فى إيضاحنا لما يتعين شرحه إلى أطول أجل ممكن، ولن يتأتى لنا التزود بهذا المدى إلا بمعرفة المتغيرات التاريخية للمجتمع الإنسانى، ولكن الدراسات – التاريخية – تميل عادة إلى أن تكون إستاتيكية أو إلى أن تكون دراسات قصيرة الأجل لبيئات محدودة، فإذا ما عرفنا أن ما ندرسه عرضه للتغير فإننا على أبسط المستويات الوصفية يجب أن نتساءل: ما هى الاتجاهات البارزة؟ ولكى نجيب على هذا السؤال يجب على الأقل أن نقدم إيضاحا حول "اتجاه من ماذا إلى ماذا؟ أما الاتجاهات طويلة الأجل فتظهر الحاجة إليها عادة إذا رغب، فقط فى التغلب على الإقليمية التاريخية، والافتراض هنا هو أن الحاضر نوع من الخلق المستقل ذاتيا[16].

وهنا تتداعى تباعا مقولة ثانية هى: "إذا كان التغير التاريخى هو تغير العلاقات الاجتماعية وتغير العلاقات فيما بين الأجزاء المكونة للعلاقات الاجتماعية فإنه يتبع ذلك أن العالم الاجتماعى يصبح واعيا عندما يقارن بأن "التاريخى" هو جزء جوهرى مما يريد أن يفهمه وليس مجرد "خلفية عامة"[17].

وترتكز المقولة الثالثة على مبدأ الخصوصية التاريخية الشهير لماركس، فهل يتضمن هذا المبدأ أن الماضى يسيطر على كل من الحاضر والمستقبل ويعيد تشكيلهما؟ لقد شدد. ب. بوتومور مؤخرا على حقيقة أن النطاق الشامل للظاهرة القومية (مثله فى ذلك مثل إخفاء العقلانية البيروقراطية على المجتمع ظلا غير معترف بهما حتى ماكس فايبر[18]، ولهذا السبب فإن مبدأ ماركس يشير أولا إلى خط إرشادى، فأى مجتمع بعينه ينبغى أن يفهم بشروط الفترة الخاصة (المحددة) التى يوجد فيها، ويشير ثانيا إلى أن الميكانيزمات المتنوعة للتغير داخل هذا النمط التاريخى تلتقى فى نوع محدد من التقاطع، ولكن رايت ميل ذهب إلى أبعد من ذلك كاشفا تجاهل ماركس لحجم وأهمية (مغزى) العملية القومية.

وبطبيعة الحال فإنه من الواضح تماما أن فهم مجتمع يتحرك ببطء... مجتمع واقع عبر القرون فى إسار دائرة الفقر والتقاليد والأمراض والجهل يتطلب أن ندرس الأرضية التاريخية، كما تجب دراسة الميكانيزمات التاريخية المطردة لوقوعه المخيف فى أحبولة تاريخه الخاص، ويتطلب شرح هذه الدائرة وأساليب كل مرحلة من مراحلها تحليلا تاريخيا يسير فى العمق مسافات طويلة[١٩].

والإحالة هنا إلى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، ولكنها أيضا إلى أمريكا الشمالية من بعض الوجوه.

وبوسعنا أن نصبح واعين بغياب مراحل تاريخية معينة فى مجتمع ما، وهى مراحل تكون غالبا ضرورية للغاية لفهم الشكل المعاصر لهذا المجتمع عن طريق الدراسات المقارنة فقط، فالتقهقر من التاريخ - مع ملاحظة أننى اخترت الكلمة بعناية - يجعل الفهم الدقيق لمعظم الملامح المعاصرة لهذا المجتمع المعين - الذى هو بناء تاريخى لا نستطيع أن نرجو فهمه - من ضروب المستحيلات ما لم نسترشد بمبدأ الخصوصية التاريخية الاجتماعية[٢٠].

ج - لا ينبغى أن تفضى بنا الخصوصية التاريخية إلى عدم القابلية للحركة والتنقل ولا إلى الركود، فيجب أن ندرس التاريخ دائما لنتخلص منه، إذ بدلا من أن "نفسر" شيئا بوصفه "استمرار من الماضى" ينبغى أن نسأل لماذا استمر هذا الشئ؟. ومن هنا فغالبا ما تكون محاولة شرح الملامح المعاصرة لهذا الشئ المستمر وفقا لوظيفة المعاصرة أولا قاعدة صالحة، إذ يمكن للتاريخ إذا ما تم تصوره على أنه حكم بالإدانة غير قابل للنقض أن يعوق التاريخ إلى التطور، وأن يحيل الحاضر إلى تاريخ[٢١] وبكلمات بول سويزى الممتازة فإن الحاضر غير الموجود لا يمكن ببساطة إلا أن يكون صورة معاصرة للماضى التاريخى، إذ يشجع القالب القومى للتأليفية التاريخية استعمال الأنماط المتكررة بما فى ذلك الأنماط المتكررة للطابع القومى (الشخصية القومية)[٢٢] وهنا - وكما يشير آسابريمز مضطرا - يقع خطر أنماط ماكس ڤايبر المثالية.

(إن سلم الأنماط يكون عند تطبيقه على العالم الذى كان مستعمرا عنصرية مستترة، ولكن مبدأ الخصوصية التاريخية بدلا من هذا المنهج الاستاتيكى (الجامد) وبالتناقص معه يقود مباشرة إلى مفاهيم التطور والتغير، لأن هذا المبدأ إذا أردنا الدقة يقدم فكرة التاريخ، وهذان المفهومان يتطلبان فى المقابل إدخال الأدوات النقدية، وما دام الحاضر هو موضع الاهتمام فإن السؤال المركزى يصبح هو: لماذا؟ وفيما يتعلق بالمستقبل يصبح السؤال: كيف؟.

فكيف إذن نتصور مبدأ الخصوصية التاريخية فى ضوء الخيال الاجتماعى عندما يطبق على اهتمامنا المحدد الذى هو التاريخ الاقتصادى؟.

١ – ما دمنا نتعامل مع جزء من العالم له تقاليد تاريخية طويلة من الوجود العرقى
– وفى بعض الأحوال له تقاليد تاريخية طويلة من التماسك القومى
– فيجب أن يكون هدفنا الأول هو الدراسة المتعمقة للتاريخ الطويل لتلك الدول، على ألا تكون الدراسة سجلا للحوادث ولكن ترتيبا تعاقبيا للتكوينات الاجتماعية الاقتصادية، ثم علينا أن نحاول عزل تلك الملامح التى تبدو ثابتة، وأن نميز بعناية شكلها ودرجة تأثيرها فى الفترات المختلفة، ثم نصل بهذا إلى ما يظهر أنه الجوهر المركزى، أى إلى نواة أى تقليد تاريخى خاص، وبعبارة أخرى الخصوصية التاريخية لمجتمع معين.

٢ – يجب أن يتم تصور هذه النواة بوصفها عنصر استمرارية وتغير معا، إلا أن تأثيرها فى الاستمرارية أكبر وأكثر مباشرة، وفى التحليل الأخير تكون تلك النواة هى نسيج الاستمرارية القومية، ومع ذلك فعندما يحدث وأن تتغير النواة فإن العلاقات الداخلية تكون أكثر تعقيدا، إذ أن تلك النواة التى تضمن الاستقرار المطرد لا يمكن أن ترى هنا إلا على أنها شئ يزود بالإطار الأساسى الذى بداخله يمكن أن يحدث مدى محدود من أنساق التغير.

٣ – المفاهيم التى يجب أن تمدنا بأساس الدراسات التاريخية العلمية الحديثة هى التغير والتحول والتطور، إذ لا تستطيع هذه التغيرات باعتبار أنها تحدث داخل إطار أية خصوصية تاريخية بعينها إلا أن تترك "بصمتها" على

الإطار السياسى نفسه، ويعنى هذا أنه يتناول عناصر التغير المركزية هذه (مثل التكنولوچيا والمؤسسات وهيكل العلاقات الاجتماعية وربما الأيديولوچية بصفة خاصة) بطريقة واعية ومطردة الثبات وفعالة فإن تلك العناصر التى تبدو أكثر انفتاحا للتعديلات سوف تكون مقبولة بدرجة واسعة لدى الرأى العام، وبوسع المرء أن يأمل - ولديه أسبابه المعقولة - أن الإطار الأساسى نفسه وكذلك نواة الخصوصية التاريخية لمجتمع بعينه يمكن فى المقابل أن تعدل تدريجيا.

وعلى أية حال فالمسألة ليست مسألة تغير إذا ما حدث تغير فى الزى الخارجى والطبيعة العالمية التى هى الحلم المهيمن للمجتمعات الصناعية ولا هى الركود المنيع الذى تؤدى إليه حتما سلالم الأنماط العرقية العنصرية"، ولكنها بالأحرى مسألة المدى الخاص لإمكانيات التحول وأساليبه وأشكاله الممكنة.

٣ - ماضى مصر يتحرك صوب حاضرها ومستقبلها.

والآن دعنا أن ندرس كيف يمكن تطبيق هاتين السلسلتين من الاعتبارات على مشكلات محددة معينة، وهى مشكلات معقدة ومشهورة تتعلق بالتاريخ الاقتصادى الحديث لمصر، وسوف أشير إلى عدد مختار من الدراسات لتوضيح هذا التحليل ولإبراز المسائل المركزية.

وتتعلق المشكلة الأولى بالتحول من الإقطاع إلى الرأسمالية، وما يجدر الانتباه إليه هو أن هذه المشكلة التى تنتمى إلى التقاليد الكلاسيكية فى التاريخ الاقتصادى قد أثيرت مؤخرا بتأثير المناقشات الأيديولوچية حول طبيعة الثورة المصرية فحسب وليس نتيجة للدراسة الأكاديمية، فلقد اضطر المفكرون الاجتماعيون والكوادر السياسية على السواء إلى دراسة طبيعة المجتمع المصرى أثناء الحرب العالمية الثانية لكى يتسنى لهم وضع إطار لرؤية المستقبل الذى سوف تلح الحركة الوطنية فى طلبه، فهل كانت مصر مجتمعا إقطاعيا على نحو كاسح؟ وإذا كان الوضع كذلك فهل الهدف هو ثورة "قومية رأسمالية" وبرجوازية وديموقراطية؟ أم أن الإقطاع هو ببساطة من بقايا الماضى، ومن ثم فهل الهدف العاجل هو موصلة الضغط نحو مزيد من الخطوات الراديكالية وربما حتى نحو الاشتراكية؟

لقد ارتكز النظام الاقتصادى قبل سنة ١٩٥٢ بكثافة على الزراعة، وكانت الطبقات والموعات الحاكمة كلها، فيما عدا استثناءات قليلة تنتمى إلى القطاعات المختلفة لأرستقراطية الأرض، وكانت الثقافة والتقاليد وكذلك دور الدين ونوعية العلاقات فيما بين الأشخاص وأوضاع النساء كلها تميل إلى تأكيد هذه الصورة الزراعية المتخلفة، وقد تركزت مظاهر التحالف المعلن أو الضمنى بين المجموعات المصرية الحاكمة والإمبريالية فى (مصطلح) الإقطاعيين.. وهو مصطلح يرمز إلى الذين اعتبروا – أو يعتبرون عند النظرة الأولى – من كبار ملاك الأراضى، مع وجود الأسرة المالكة السابقة على رأسهم، وتبينت مجموعات راديكالية عديدة هذا التعريف للنظام الاقتصادى والاجتماعى فى مصر رغم تباين نظراتها وبرامجها، وكان من بين هذه المجموعات الحركة الوطنية للديموقراطية وهى إحدى المنظمات الشيوعية الأساسية، كما كان من بينها الضباط الأحرار، وفعل الشئ نفسه الرأى العام والصحافة على وجه الإجمال، بل إنه توجد بعض الأمثلة على أن هذه المقولة قد أخذ بها فى الجامعات والدوائر البحثية، وبوسع المرء أن يقول إن الإصلاح الزراعى بعد انقلاب سنة (١٩٥٢) فهم على أنه تصفية للإقطاع والبدء فى مرحلة جديدة وحديثة فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لمصر، وقد تمسك الصناعيون من جانبهم بهذه المقولة لكى يطالبوا بنصيبهم فى السيطرة على الاقتصاد وعلى الدولة وفى إدارتهما، مشيرين إلى أنه يمكن تجنب كلا من الثورتين البرجوازية الديموقراطية والاشتراكية فى اللحظة التى يتحقق فيها الهدف المهم إلا وهو تحطيم الإقطاع والتحول صوب التصنيع، ولكن التاريخ الاقتصادى الذى كان فى شكل كتيبات ومقالات كان قد اتخذ مظهرا غريبا من عدم الاستمرارية الشاملة، فبقيت الفترة ما بين محمد على ويوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ غير مكتشفة.

إن المناقشة حول "الإقطاع" لم تكن قد بدأت حتى حوالى الفترة من سنة (١٩٤٤) إلى سنة (١٩٤٦) أى بعد بضع سنوات من نشر كتاب أ. ا. جروتشلى عن التنمية الاقتصادية فى مصر الحديثة سنة (١٩٣٨)، وفى سنة (١٩٤٤) نشر

كتابا تاريخ لمصر أحدهما لمحمد فهمى لهيطة، والثانى لراشد البراوى ومحمد حمزة عليش، وفى هذا الوقت جرت مناقشات جادة فى المراكز السياسية الثقافية الماركسية فى القاهرة والإسكندرية ولم يستطع تطبيق مفهوم دورات التكوينات الاقتصادية الاجتماعية(٢٣) الذى كان كلاسيكيا إذ ذاك على مصر لأنه يخفق فى الكشف عن أن البنية الاجتماعية الاقتصادية كلها قد تحركت إلى مستوى جديد هو بالتحديد الرأسمالية بسمتيها (الماركسيتين) (الإنتاج من أجل السوق والعمل بالأجر) على الأقل منذ ظهور مؤسسة ملكية الأراضى فى عهد سعيد، ولاسيما منذ اندماج مصر فى السوق الاقتصادى العالمى تحت الحكم البريطانى بعد عام ١٨٨٢، وإذن لم يعد فى المقدور القول بأن الإقطاع هو النظام السائد فى مصر، ويمكن اعتبار صيغة البراوى التى وضعها تحت تأثير اليسار المعاصر أول تعبير أكاديمى عن هذا للاتجاه فى الفكر(٢٤) الذى اكتسب الاعتراف الرسمى (القومى) مع تحليل حسين خلاف للتحديث فى سنة (١٩٦٢)(٢٥) ومع ذلك فإن الأعمال الأكثر أهمية أنجزت فيما بين عامى (١٩٥٦)، (١٩٨٢) حيث أعطى اهتمام أكبر إلى أشكال التحول من الإقطاع الشرقى إلى الرأسمالية فى عهد محمد على من جانب مجموعة من المؤرخين والمنظرين الماركسيين الذين يعد أكثرهم أهمية بالنسبة لأغراضنا الحالية إبراهيم أمير(٢٦)، كما تعهد عيسوى وباير منفردين بدراسة أكثر تعقيدا أو لكن أقل براعة لنفس المشكلات على الرغم من أن نتائجها كانت مشابهة بدرجة أساسية(٢٧).

فى ذلك الوقت لم يكن الإقطاع هو القضية، ولكنها كانت الرأسمالية، فأى نوع من الرأسمالية كانت؟ إن الصيغة الحالية لوصف ذلك الشئ المتخلف من عصر الانحطاط هى "بقايا الإقطاع" وجاءت نتائج حرب السويس لتنشيط البحوث فى اتجاهين:-

١ - حول طبيعة الرأسمالية المصرية: فمن الواضح أن زراعة المحصول الواحد والاقتصاد الموجه للتصدير (انظر عيسوى) فى مصر كما فى غيرها من الدول التى كانت مستعمرة والآخذة فى الخروج ببطء من التخلف والسيطرة الخارجية قد أسهما فى تشكيل نسخة مشوهة من الرأسمالية الغربية، ولم يكن

فى الوسع أن يوصف القطاع الزراعى آنذاك بأنه "إقطاعى" مع أنه كان متفوقا على القطاعات الأخرى (الصناعية والتجارية والمالية) إلى حد أن هذه القطاعات توارت إلى الخلف، وهكذا يمكن وصف النظام الاقتصادى الذى كان سائدا فى مصر الحديثة (من عصر إسماعيل إلى سنة ١٩٥٢) بأنه "كان رأسمالية متخلفة من النمط الاستعمارى مع وجود قطاع زراعى متفوق"[٢٨]، وبوسع هذا التعريف أن يساعدنا على تفسير مسار التنمية ابتداء من الثلاثينيات فصاعدا، أى أثناء الفترة التى حارب فيها القطاعان الصناعى والمالى للرأسمالية المصرية للحصول على حق الوصول إلى السلطة والقرار فى المسائل الاقتصادية، مع وجود هدف نهائى لهما يتمثل فى إعادة تشكيل بنية السلطة فى القمة ككل، ويمكن لهذا التعريف أن يساعدنا أيضا على فهم التاريخ الاقتصادى لمصر فى عهد النظام الجديد بدءا من الإصلاح الزراعى على التأميم الشامل للقطاعات الحديثة.

٢ - تطلب الموضوع الثانى تحليلا أكثر قدرة على النفاذ فى ميدان علم الاجتماع هذه المرة، إذا كيف تأتى لمجتمع مندمج على هذا النحو الوثيق بالسوق العالمية منذ ستينيات القرن الماضى أن يقدم هذا الرداء من "بقايا الإقطاع" فى منتصف القرن العشرين؟ إنه يمكن تفسير ذلك بطغيان العوامل الأيديولوچية على العوامل المادية (البنية التحتية)، وهناك تفسير آخر تقترحه الملامح الخاصة للتاريخ المصرى فى حالة مصر المحددة ذلك أن الدور المركزى المهيمن والمستمر لدين الدولة كأيديولوچية يعنى أن المرء بوسعه أن يتوقع الإحساس بآثاره فى الميادين الثانوية من أيديولوچية وثقافة، وفى الحياة الاجتماعية اليومية وهى الميادين التى سبقت الإشارة إليها فعلا، ولقد تعزز هذا الطغيان الكبير (للعوامل الأيديولوچية) من جراء الوحدة العرقية والقومية القوية بشكل استثنائى والتى ميزت المجتمع المصرى، ففى الواقع يمكن - بل وينبغى - على المؤرخين والمراقبين الاقتصادين المعنيين عندما ينقبون عن الطرق التى يربطون بها فيما بين "العالمية والحالات

الفردية المحددة أن يعترفوا بالاختلافات الواضحة بين مصر والهند مثلا ما دام اندماجهما فى السوق العالمية ومستوى كل منهما فى الوحدة العرقية والوطنية هو محل الاهتمام.

والاشتراكية هى المشكلة الرئيسية الثانية: فتاريخ خلق ونمو القطاع العام اعتبارا من سنة (١٩٥٧) إلى سنة (١٩٦٣) وما بعدها تاريخ مؤثر، ولكن وسائل الإعلام حاولت التعتيم على الأرقام التى أعلنتها المصادر الحكومية، فقد وضعت تقديرات ميزانية عام (١٩٦٢) - (١٩٦٣) مساهمة القطاع العام عند نسبة ٦٥,٨% تاركة بذلك ٣٤,٢% فقط للقطاع العام، وتوضح أهداف خطة عام ١٩٦٤ - ١٩٦٥ أن القيمة المضافة المتوقعة كانت ١٥٣٨ مليون دولار من القطاع الخاص مقابل ٣٧٥,٦ مليون دولار من القطاع العام، فى الوقت نفسه فإن حوالى ٨٠% من الصناعة والنقل والتجارة كانت فى يد القطاع العام منذ عام ١٩٦٣ حتى اليوم، وبحلول عام ١٩٧٠ فإن الجزء الأكبر من الإنتاج الزراعى سوف يتم إنتاجه داخل إطار "تعاونيات المنتجين"[٢٩].

ولقد كتبت فى ١٩٦٤ ملخصا اثنتى عشرة سنة من التنمية الاقتصادية ما يلى:-

"يظهر الاقتصاد المصرى بوصفه اقتصاد مختلطا، فهو لا يزال من عدة وجوه رأسماليا، فقد بقيت الأرض فى معظمها بمنأى عن التأميم، أما القطاع العام فلا يزال مكوما بالسوق وبدافع الربح العام بالرغم من أنه تحت قيادة المديرين (التكنوقراطيين)، ويميل كل من التخطيط والمعونة الخارجية بوجه خاص إلى تعزيز هذا الخط فى المدى القصير على الأقل، إنه اقتصاد ينمو بسرعة كبيرة نسبيا مع وجود قطاع رأسمالية دولة مركزى (القطاع العام) بنسب غير عادية، ومع ذلك فإن كل موجة تأميمات جديدة لا تفعل سوى أن تزود التكنوقراطيين بمزيد من المواقع الحصينة ومزيد من السلطة، فى الوقت الذى تضعف فيه سلطة (قوة) رأس المال الخاص"[٣٠].

وقد قدم حسن رياض لتوه تقويما أكثر نقدا[٣١] بينما اختارت دراسة باتريك أوبريان المدققة بالرغم من عنوانها الفرعى (مصطلح اقتصاد السوق المتمركزة بوصفه أكثر قدرة على الكشف عن الحقائق من الصفات الغامضة مثل "المخطط" "والاشتراكى")[٣٢].

وتدور هذه التقويمات الثلاثة مثلها مثل الأعمال التى نشرها مؤخرا عديد من المتخصصين حول مصطلح أساسى هو "التمركز" وقد حاولت أن أبين أن ٧٠ قرنا من التمركز ليست مقصورة فحسب على المحيط الاقتصادى فى هذا المجتمع الذى يعد أكثر المجتمعات المائية قاطبة اندماجا وتلاحما، فالدولة تسيطر على النيل وكانت حتى النصف الثانى من القرن الماضى تملك الأرض، كما أن موقع مصر الجيوسياسى يتطلب منها تركيز جهاز قوى فى يديها، وبالإضافة إلى كل ما تقدم فهناك هيمنة أيديولوجية واضحة وأصبحت فى أغلب الأحوال "ثيوقراطية" بدءا من الفراعنة ومرورا بالعصر القبطى وانتهاء بالإسلام السنى: أنه هنا فى هذا التآلف تقع نواة الخصوصية التاريخية لمصر ويتعين على أى محلل لتاريخها الاقتصادى أن يأخذ ذلك نقطة بداية إذا كان له أن يصل إلى تفسير عقلانى محدد يمكن أن يشير إلى الأمام؛ أى فى اتجاه المستقبل، ولكن الدور المركزى المهيمن للدولة لا يبين فى حد ذاته عن تكوين اجتماعى اقتصادى كما أنه لا يفصح عن اقتصاد للسوق الحر.

إن أسلوب تناول هاتين المشكلتين المركزيتين فى التاريخ الاقتصادى الحديث يتركز على العلاقة بين الأيديولوجية والبنية الأيديولوجية، وعلى تحليل التغير قصير الأجل فى علاقة هذه العلاقة بالخصوصية التاريخية للمجتمع المصرى عبر آلاف السنين، وهكذا تظهر الأيديولوجية والخصوصية التاريخية فى حالة هذه الدولة القومية القديمة بشكل فريد بوصفهما عاملين من الحجم الأول (الذى يسميه لويس التوسير فى سياق آخر بالـ surdétermination)[٣٣] وفى التحليل الأخير يظهر أن هذين العاملين ذاتيهما قد تشكلا بتأثير الشروط الجغرافية والاقتصادية التى وضعت تلك البصمة التى لا يمكن محوها على التاريخ المصرى منذ بدايته حتى اليوم.

إن هذا الأسلوب الاجتماعى فى تناول المشكلات الاقتصادية يستطيع - أكثر مما تقدم - أن يلقى الضوء على إمكانيات تحقيق مستقبل غير يوتوبى، ويقترح الدور المستقبلى لذلك التمركز الزائد فى كل ميادين الحياة الاجتماعية مسارين ممكنين على الأقل:

١ - الأول.. يقتضى استخدام هذا التفكير فى التعجيل ببناء قطاع اقتصادى قائد أكثر قوة كرأس حربة للتنمية، ولسوف يكون مفيدا أن ندرس بالتفصيل أثر الأزمة الاقتصادية العالمية (١٩٢٩ - ١٩٣٢) على الاقتصاد والمجتمع المصريين والذى يتمثل فى التحول نحو اليمين، وفرض حكم إسماعيل صدقى الديكتاتورى على الجماهير الوفدية مقرونا بتعريفات الحماية الجمركية للصناعة الناشئة وبسياسة شاملة موجهة لصالح رأس المال الوطنى وخصوصا قطاعيه الصناعى والمالى ومع ذلك فيمكن أن يقال وبأسباب معقولة بأن نظام الحكم الحالى فى مصر قد قطع شوطا طويلا فى هذا الاتجاه، وأن العقبات الرئيسية أمام أية تنمية اقتصادية تالية تكمن فى الطبقات الجديدة المتحصنة، وفى التخريب البيروقرطى الخفى الذى تمارسه مجموعة متراصة من الفروع الحكومية والديناميات الاجتماعية (الموضوعية وليست الأيديولوجية) للسياسة القومية الراديكالية الحالية، ولسوف يكون من غير الواقعى أن نتصور أن أى تغيير فى طبيعة الدولة ذاتها يمكن أن يعزز وبطريقة حاسمة دور جماعات الفلاحين والطبقات العمالية أو المثقفين الراديكاليين.

٢ - وينتمى السياق الثانى إلى التاريخ متوسط المدى، ولسوف تكون نقطة العقدة هنا هى نسيج المجتمع المصرى نفسه الذى يشكل الفلاحون أغلبية أبنائه، وهنا كما فى أى مكان آخر فى القارات الثلاث - توجد المشكلة الكئود فى الموضوع كله، فالتخلف والفقر والأمية لا يزالون فى الريف أكبر بكثير منهم فى المدن رغم أن تقدما ملحوظا تحقق منذ سنة ١٩٥٢، ومع ذلك فالجهد الهائل المتطلب لتنمية مصر ليس مقصورا على مستويى التكنولوجيا

والدولة، إنه يتطلب التعبئة الشاملة للشعب، فإذا ما رغب فى أن لا تأخذ تلك التعبئة اتجاها غير مرغوب فيه، ففى المقدور إحداثها فقط بطريقة عقلانية وإنسانية بواسطة المؤسسات ولمنظمات المنبثقة عن المجتمع الفلاحى نفسه، ويلوح أن ذلك هو المغزى الحقيقى لحادث كمشيس (أبريل عام ١٩٦٦) وما يترتب عليه من أحداث.

٣ – وأخيرا.. ينبغى توجيه الانتباه إلى الشمول العميق فى الحقل الاجتماعى الاقتصادى نفسه سواء على مستوى البنية التحتية (المؤسسات الاقتصادية، الشروط المعيشية للشعب العامل) أو على مستوى الأيديولوچية (الأثر العميق لتبنى الاشتراكية كبرنامج قومى وأيديولوچية رغم كل غموضها وتشوهاتها) ولكن المستوى الوسيط للهرم الاجتماعى – وهو جهاز الدولة من ناحية "والطبقة الجديدة" من ناحية أخرى – يتخذ مظهرا استاتيكيا طاغيا، ومع ذلك فإن العمل يعكس النوايا أما طوعا وإما كرها، ذلك أننا وصلنا إلى قلب مشكلة السلطة.

صحيح أن تطبيق مبدأ الخصوصية التاريخية على الحالات التى نحن بصدد دراستها مسألة بالغة الحساسية، ولكن مشكلات تطبيقه ليست من المشكلات التى لا تقهر، ويبين التحليل أن عناصره متماسكة.. بطريقة ديناميكية، وبالرغم من أن متغيرات التغير الكامنة بالنظر إلى التاريخ المستقبلى متضمنا التاريخ الاقتصادى قد تكون محدودة طالما أن المستقبل هو موضع الاهتمام، فإن جدلية المجتمع المصرى لم تخمد قط، بل أنها فى حالة عمل مكثف منذ فترة ما بين سنة (١٩٣٩) وسنة (١٩٤٦).

هل التاريخ سبب للشقاء أم أنه الملوح بالوعد؟...

ذلك هو الدور الذى يمكن تخويله للخيال الاجتماعى.

الهوامش:

(١) انظر University Grants Committee Report of the Sub. Committiee on Orierntal , Slaronic , East European and African studies (London ١٩٦١) ولا تدخل أمريكا اللاتينية فى هذا التقرير، نظرا لأن العامل اللغوى لا يعوق البحث العلمى، ومع ذلك فإن مشكلتها متشابهة مشكلة آسيا وأفريقيا .

(٢) A.W Small , " Adam Smith and Modern Sociology ", vol I pp ٢٣٥ in H. Becker and H.E Bernes, Social Thought Frame lore to science , ٣rd ed.(N.Y.١٩٦١)vol Π , p ٥٢٣ -٥٢٦

(٣) ترجمة. Economic Politipue , A, Posner (Paris ١٩٦٢) vol. l, p. ٣٧٩.

(٤) انظر E.Roll, A History of Economic Thought London , ١٩٦٢, pp ١١-١٧, ٣٠٣-٣٠٨.

(٥) Asa Brizgs, " History and society" in AGuide to the Sicial Sciences, ed , N. Macken zie(London, ١٩٦٦) pp.٣٣-٥٣.

(٦) هناك كتابات كثيرة فى العلوم الاجتماعية فى بلدان العالم الثالث وخاصة من أمريكا اللاتينية . مثل أعمال Celso Furta do و Raoul Prebisch ، انظر فى ذلك العدد ٢٧/٢٦ من Partisans ١٩٦٦

(٧) انظر مجموعة الآراء والمناقشات ، خاصة T.Balogh oH. Hyint فى The Teaching of Development Economics Martin and K. Knaap (London ١٩٦٧) والمقدمة العامة بقلم شارل عيسوى فى The Economic History of the Hiddle Easr ١٨٠٠-١٩١٤:ABook Rcodings (Chicogo – London, (١٩٦٦) pp.٣-١٣.

(٨) انظر أنور عبد الملك " La vision du probleme coloniel par le monde ofro – asiatique" in Cohiers de sociolopic internationoux.xxx (١٩٦٣). Pp١٤٥-١٥٦. and "sociology of National Development" Social (Dialectics, vol. ٢London, ١٩٨١)

(٩) تم بلورة وتطبيق هذا المفهوم على يد ماكسيم رودنسون فى (Islam et Lapitalinc Paris, ١٩٦٦)

(١٠) على سبيل المثال ، على أساس القوة الشرائية للدولار فى ١٩٢٤-١٩٣٣.

(١١) J.Welier " Le Passage de l`analy se e`la sociologie e`conomigue " in ٦. Gurvitch . Traire de sociologie (Paris ١٩٦٢) vol I pp ٣٥٧-٣٨٢ وهو يذكر انتقادات مشابهة ومهمة .J.Nef

(١٢) انظر مقدمته فى .Les etapes de la pensee sociologigue (Paris, ١٩٦٧) pp ٩-٢٢.

(١٣) (.W. Mills .. The Sociological imagination, (Harmonds worth. ١٩٧٠) pp.١٣-١٤. وقد مثل اقتراب چاك بيرك فى الدراسات العربية فاتحة بالنسبة للمتخصصين ، باستخدامه ما يمكن وصفه " بحس الاستشراف"

(١٤) " History et Sociologie in o. outvich, Traite de sociologic vol. I. pp. ٨٣-٩٨. c.w Mills Sociolgical imagination p١٦٤.. ولمتابعة هذا الموضوع كمجال خاص لعلم الاجتماع فى الأسلوب التقليدى للقرن التاسع عشر

(١٥) انظر H.E. Borns , Historical Sociology : its Origins and Development (New York , ١٩٤٨).

(١٦) C.W. Mills. Sociological Imagination p ١٦٣،١٦٥،١٦٨ ولعله أمر بالغ الدلالة أن ينصب اختيار ميلز على موضوعى الجيش والقومية .

(١٧) المصدر السابق ص ١٦٦- ١٦٧

(١٨) " Sociology " in A Guide to the social Sciences p. 79-94

(١٩) C.W Mills . Sociological Imagination p. 172.

(٢٠) المصدر السابق ص ١٧٤، وقد أثار هذه القضية كل من T. Bottomore , Ara Briggsمصدر سابق.

(٢١) المصدر السابق ص ١٧١

(٢٢) A. Briggs , " History and Society " p ٤٩.

وانظر أيضا أنور عبد الملك " أزمة الاستشراق" و I. Sachs , " Du Moyen – Age à nos jours : Europe – centrisme et dècouvertedu Tiers- Monde , " in Annals, xxl (١٩٦٦) pp. ٤٦٥-٤٨٧

ويبلغ هذا الاقتراب التصنيفي أوجه في كتابات J Austruy

(٢٣) المجتمعات المشاعية البدائية ، العبودية ، الإقطاع ، الرأسمالية ، الإشتراكية والشيوعية . وقد دفع نشر مؤلف ماركس تدريجيا إلى تشجيع Grudrisse (Hermensworth ١٩٧٣) المناقشة حول التكوينات الاقتصادية قبل الرأسمالية غير الأوروبية، ومنها ما يسمى بنمط الإنتاج الآسيوى ، انظر أيضا إلى مقدمة لكتاب كارل ماركس E.Hobsbown

Precopitalist Economic Formation (London , 1864) pp 9-65

(٢٤) التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث (القاهرة ١٩٤٤) ص ٢٧-٢٨ وكانت المراكز الرائدة فى هذه الفترة هى " دار الأبحاث العلمية و لجنة نشر الثقافة الحديثة " .

(٢٥) التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث القاهرة ١٩٦٢. ص٤٣١-٤٤١.

(٢٦) الأرض والفلاح ، المسألة الزراعية فى مصر (القاهرة ١٩٥٨) ومن الدراسات الأخرى فى هذا المجال ، أبحاث كل من شهدى عطية الشافعى وفوزى جرجس، وقد ناقشنا جوانب الموضوع والجدل الدائر حوله فى أنور عبد الملك Egypte societe militaine (Patis, ١٩٦٢) pp.١٥-٩١.

(٢٧) C.Issawiy , Egypt at Mid – Century (New York , ١٩٥٤) الفصول ٢ و٣ ٦. Bare , A History of landownership in modern Egypt ١٨٠٠- ١٩٥٠(London ١٩٦٢) : على الجريتلى بنيه الصناعة الحديثة فى مصر (القاهرة ١٩٤٨) والذى لا يحدد إلا خلفية تاريخية ممدودة، على عكس مؤلفه بالغ الأهمية " السكان والموارد الاقتصادية فى مصر (القاهرة ١٩٦٢).

(٢٨) وهى الصيغة التى استخدمت فى مؤلفنا Egypte societe militaire

(٢٩) الرقم الأول مأخوذ عن The VAR Budget Estimates ١٩٦٢-١٩٦٣ Ne`tionel Bank of Egypt Econemic Bulletin vol XV (١٩٦٢) pp١٠٨-٧٥

والأخيـر مـأخوذ عـن P.D`Brien, The Revolution in Egypt`s Economic Systtem from private Enterprise to Socialism ١٨٥٧-١٩٦٥, (London , ١٩٦٦) p ٣٨٥-٣١٧

A- Abdel – Melak " Nasserism and Socialism " The Socialist Register 1964. (London, 1964) pp. 38, 55.

(٣٠) l`Egypte nassenienne (Paris ١٩٦٤)

(٣١) المصدر السابق ص ٣١٦، وكذلك وثيقة مقترحات الخطة الخمسية الأولى، وعلى الرغم من أن معظم النشاط الاقتصادى خاضع للتخطيط المركزى ، إلا أن الخطـة المصـرية تتضمن الإنفاق الاستثمارى فى القطاعين العام والخاص ، وتوزيع المبـادلات الخارجيـة (ص٣١٩) .

(٣٢) Pour Merx (Paris, ١٩٦٥).

المصادر

1- "LP'Home et la societe". N 23 (1972), P. 111-31.

2- "Cahiers internationaux de Sociologie". n 50 (1971), 23 – 40.

3- "Alternatives", vol. II (1976), 163 – 175

4- Cook, M.A. ed: Studies in the Economic History of the Middle East, Oxford U.P. London 1970 268 282

5- Sociologie des Mutations, Balandier, G. ed. Anthropos, Paris, 1970, 51 – 62.

6- Working group 14' Civilizations : one of many?

المؤتمر العالمى التاسع لعلم الاجتماع اوبسالا ١٩٧٨

7- "الكرول" رام الله، عدد ٥٣ (١٩٩٧) ٧٥–٦٤

8- "Dialectics and Humanism", Warsaw, n 1 (1982) 5 – 29.

9- "Cahiers Internationaux de Sociologie". Vol. XLII (1967), 49 – 57.

10- Abdel – Malek, Anouar, ed. YL' Armee dans la Nation (Asie, Afrique, Amerique Latine), S.N.E.D. Alger, 1975, 9 – 17.

11- 9th World congress of Sociology, uppsala (August 1978), 9 pp.

12- "L'Homme et La Societe", n 20 (1971), 279 – 298.

13- "Radical Geography: alternative viwpoints on contemporary social issues" peet, Richard, ed. Maaroufa Press, Chicago, 1977" Methuen, London, 1978, 293 – 308.

14- Le Centenaire du capital" du capital" Decades du Centre Culturel de Cerisy – la – Salle, nouv. Serie 10, Mouton, Paris – La Haye, 1970, 256 – 296.

15- "Diogene", Unesco, Paris, n 44 (1963), 109 – 142.

16- "Diogene", n 64 (1968), 105 – 133.

17- "Le Monde diplomatique", auot 1974, 19.

18- "Espoir", n 6 (1974), 15 – 17.

19- "Les Conditions de I "Independence nattonale dans Ie Monde moderne". Actes de Colloque International, Institut Charles de Gaulle (21 – 23 Decmber 1975). Cujas, Paris, 1977, 499 – 509.

20- First Sy mposium of the Iranian Centre for the Dialogue of Civilisations : "Can the planetry impact of western thought render possible a real dialoue between civilizations? (20 – 23 October 1977), Berg International, Paris, 1979, 197 –216.

21- Socialism in the World Beograd, n 7 (1977) 59 – 74.

22- ورقة عمل،

قائمة المراجع

تم تقديم الاراء الواردة فى هذا الفصل اعتبارا م عام ١٩٦٠ فى كتابات عديدة منها:

- Egypt socitte militoire immediate paris le seuil 1962 348pp indexes

- L' Drientalisme en Crise Diogence no 44 1963 pp. 109 – 142.

- idlolgie et renaissance nationale: L'Egypt moderne coll sociologie de la connaissance paris Edihons Anthropos, 1969. 575pp. bibliograghy, glossery transiliteration index.

- La jalectige sociale Paris leseuil 1972 480 pp.

- La renaissance du monde arabe

Ed. A. Abdel – Meleb, H. Hanefi A. A.belal. Brussels. Duclot, Algiers SNED, 1973 . 551 PP.

من أجل استراتيجية حضارية "الثقافة العربية بيروت ١٩٧٣ ص ١١٦ – ١٣١

Naciones y Rerolueiones "Estudios Orientales vol 8.n.3 (1973) pp. 229 252

"Le concept de speciticite "Economic et Humanisme no 216 (Morch – April 1974) pp. 43 – 47.

"Cherles de Gaulle et la dialectipue des cinlisehons Espoit n 6 (June 1974) pp. 15 – 17.

الخصوصية والاصالة بحث خصوم إلى ندوة أزمة النهضة الحضارية فى الـوطن العربى

الكويت، أبريل ١٩٧٤. الآداب مجلد ٢٢ ١٩٧٤ العدد ٥ صـ ٤١ – ٤٣.

– الفكر العربى فى معركة النهضة بيروت: دار الآداب ١٩٧٤. ٢٤ صفحة.

Ciarnee dans la nobo n

الجيش فى الآمة. مؤلف جماعي الناشر أنـور عبـد الملـك Algiers: SNEA ١٩٧٥ ٤٤٠ PP

- "Clarifying Concepts and Critenia in the social sciences Possihion report".

توضيح المفاهيم والمحددات فى العلوم الاجتماعية تقرير اليونسـكو قسـم التنميـة الدولية للعلوم الاجتماعية .pp ٥٦

The cinilsisahion project: the uisions of the Orient

المشروع الحضارى رؤيا فى الشرق. ورقه مقدمه إلى المؤتمر الدولى الـــ ٣٠ للعلوم الإنسانية فى آسيا وأفريقيا الشمالية المكسـيك ٣ أغسـطس ١٩٧٦. ٩ صفحات.

Le projet de cinlisahon posihons Les condihons de lindependance nehenale dans le monde modern

أعمال الندوة الدولية، معهد مشارل ديبول فى ٢٣ ديسمبر ١٩٧٥.

Paris ed Cuias 1977. pp 499 – 509.

Specificte et theore jociale

Ed. A. Abdel – yalek Paris Ed. Anthropos 197 7 470pp.

On the Dialectics of Time Posibons

ورقه مقدمة إلى الندوة الدولى الأولى للمركز الإيرانى لحـــوار الحضـــارات حول موضوع "هل يسمح التأثير العالمى للفكـــر العربـــى بحـــوار أقصـــى بـــين الحضارات؟ طهران ٢٠٠ – ٢٣ أكتوبر ١٩٧٧. ١٣ صحفه.

Arabe Culture in a Cheging World.

الثقافة العربية فى عالم متغير

ورقة مقدمة إلى الدورة الثانية المجلس الاستشارى للثقافـــة العربيـــة/ اليونســـكو، تونس، ٥ – ٩ ديسمبر ١٩٧٧).

الجزء الثانى

مفهوم الخصوصية

(٥)

مفهوم عمق المجال التاريخى

١ - طرح المشكلة

يقتصر تاريخ علم الاجتماع - الذى عاد إلى بؤرة الاهتمام بعد فترة من الإهمال - على وصف وتقييم المراحل التاريخية. كما يسعى أحيانا إلى طرح إشكاليات بغرض التنبؤ. وباستثناء بعض النماذج النادرة، فإن تاريخ علم الاجتماع قد ظل منصبا على التأريخ بمعناه الكلاسيكى. وقد تركز اهتمام مؤرخ السوسيولوچيا على رصد كافة العوامل المكونة من وجهة نظرهم لتميز واستمرارية هذا الحقل المعرفى، ولهم فى هذا بعض الحق، خاصة وأن السوسيولوچيا قد تعرضت لانتقادات علوم أخرى أكثر قدما. على أن مؤرخى السوسيولوچيا لم يوجهوا الاهتمام الكافى حتى الآن للتفسير السوسيولوچى للسوسيولوچيا. فهناك إدراك واضح للجهد الاقتصادى يذهب إلى حد اعتباره عاملا حاسما ذا تأثير مباشر. كما أن العلوم الاجتماعية تتجه فى مجملها إلى الاعتراف بالدور المحورى للبعد السياسى فى أية صياغة نظرية. وفى المقابل فإن ثمة أبعاد لم تتضح بعد بالدرجة المطلوبة، ويأتى على رأسها علاقات التفاعل بين مكونات الثقافة الواحدة، ونخص بذلك تلك العلاقات بين السوسيولوچيا التى ينتجها مجتمع ما أو منطق قومية ثقافية ما فى لحظة ما من تطوره التاريخى، وبين خصوصية هذا المجتمع كما تظهر فى استمراريته التاريخية واستجابته لصدمة المعاصرة. لكن المثقفين - خاصة الغربيون منهم يحجمون عن تناول هذه الأبعاد. وحتى فى حالة سعى بعضهم نحو تحليل نقدى لأسباب ومظاهر التمايز والاختلاف، فغالبا ما يتمسكون بالجانب الشكلى والبنائى، ذلك أن الاقتراب البديل وهو القائمة على التحليل التاريخى النقدى لا يسمح باستبعاد العامل القومى الثقافى - أى بعد الخصوصية، خاصة فى مرحلة بعث الظواهر ذات النوع القومى.

وفى الإطار المحدود لهذه الدراسة، فإن الاقتراب الثقافى من مسألة تمايز السوسيولوچيا النظرية غداة الحرب العالمية الثانية، قد يسمح برصد الانتشار بين التيار البنائى الوظيفى من جانب، والتيار التاريخى النقدى من جانب آخر، أخذا فى الاعتبار بالمعنى التنظيرى لهذا التيار الثقافى. إن هذا الانقسام الأساسى لا يتطابق مع الانقسام الأيديولوچى الذى درجنا على إعطائه الأولوية فى خضم الحرب الباردة، صحيح أن الاقتراب التاريخى النقدى المتمحور حول الماركسية يتعارض كلية مع المفاهيم السكونية للتيارات المحافظة، إلا أن ثمة بدايات لاتجاه من داخل الماركسية يتبنى الاقتراب البنيوى، سواء لأسباب تتعلق بالحداثة أو بالموضات الثقافية، وعلى الجانب الآخر فهناك من يتجه إلى السوسيولوچيا التاريخية، تأثرا بالميراث الثقافى الأوروبى. ذلك هو باختصار شديد الإطار العام والذى سبق تناوله باستفاضة فى أعمال أخرى، والذى يسمح بتناول بعث مفهوم التاريخ كظاهرة بكل ما تعنيه كلمة البحث من معان، فضلا عن المفاهيم المشتقة التى تسهم اليوم فى بناء الحقل الإبستمولوچى لمفهوم التاريخ، فى القلب من النظرية السوسيولوچية الحالية، على أن إحياء هذا المفهوم جاء على يد التيار التنظيرى التاريخى/ النقدى.

وقد واكب ذلك تحول ثان آثار مخاوف السوسيولوچيا الكلاسيكية. فقد كانت نقطة انطلاق وارتكاز كافة النظريات فى العلوم الاجتماعية، هى العقلانية الكلاسيكية الشكلية خاصة فى تنويعاتها الأرسطية والوضعية، وسواء كانت هذه القاعدة ضمنية أم معلنة طرحه، ونقترح تسمية هذه القاعدة بالتعادلية، ذلك أنها تشكل لب العلوم الاجتماعية المتمحورة حول الذات الأوروبية والتى تتميز بالنظرة التجزيئية، فمقتضى هذه النظرة، يفترض أن المعطيات السوسيولوچية متساوية القيمة من الناحية الفكرية والمثالية من حيث قابليتها للتطور والتحول والتقدم. على أن التطورات التاريخية المعاصرة تكذب هذه الفرضيات، فأسطورة قفزات التنمية تتراجع أمام احتمالات تنمية التخلف كما أن المفهوم الخطى الاستمرارى للتقدم الاجتماعى وتطور الأمم قد تلاشى فى مواجهة المفهوم الجدلى والصراعى لتطور المجتمعات البشرية. ومثل هذا التطور القائم على التناقض يتعرض هو الآخر

للانكسار والأزمة بل والتراجع، ومن ثم فإن التفسيرات حسنة النية والتي كانت تفسر الظواهر اعتمادا على متغيرات البيئة أو الظروف الخارجية أو على السياق التاريخي تبدأ في التساؤل: أليس من الأجدى أن نشدد على دور العامل الداخلي وعلى البناء الداخلي للمجتمعات محل البحث، وبصياغة أخرى على خصوصية المجتمعات، عوضا عن افتراضات العالمية والتعادلية؟[1]

إن مثل هذه الأسئلة والقضايا التي لم تكن متوقعة، توضح اليوم حجم المأزق الذي تواجهه العقلانية الميكانيكية الشكلية في مجال التحليل السوسيولوچي وبلورة المفاهيم السوسيولوچية .

إن الواقع يفرض نفسه، ولا يمكن اليوم الاقتراب من المجتمعات البشرية إلا من زاوية بعد الحركة السياسية، ومن ثم فإن السؤال الأساسي المطروح على كافة علماء الاجتماع هو كيفية تفسير عالمنا الواقعي المعاصر وتناقضاته المتعددة.

إن الاقتراب الأول يعتمد على العوامل ذات الطابع العالمي كالإطار الجغرافي في بعده التاريخي، كما يولي هذا الاقتراب اهتمام كبير للعبة القوى السياسية داخل المجتمع محل الدراسة وعلاقاتها بتوزيع القوة على الصعيد العالمي، كما أن تحليل الأبنية الاجتماعية - وخاصة الطبقية - يحتل أهمية كبيرة بتأثير الماركسية، فضلا عن الاعتراف بدور البنية التحتية الاقتصادية التي يذهب البعض إلى حد اعتبارها بمثابة العامل الحاسم.

وبناء على ذلك فإن التفسير السببي اعتمادا على تفاعل هذه العوامل، يسمح بالإجابة عن بعض التساؤلات غير التقليدية حول الاختلاف بين المجتمعات، ولا شك أن هذه التفسيرات أفضل من تلك التي تقدمها التعادلية البحتة.

إلا أن مجمل هذه العوامل لا يكفي.. فهناك ما يستعصي على التفسير، وإن كان متفاوت الأهمية.. إن التطور في أدوات التحليل على مدى قرن مضى لم يحدث أي تغيير في طبيعة التحليل ذاته، والذي ظل مستندا منذ عصر الأنوار وحتى اليوم على مبدأ العالمية وفرضية إخضاع كافة الظواهر الاجتماعية في كافة المجتمعات القومية لتصنيف موحد.

إن ما يستعصى على تحليل العوامل السابقة يؤكد توقعات البعض، أو يناقض توقعات البعض الآخر، فالفريق الأول ينتمى إلى التقليد المتمركز حول الذات الأوروبية، الذى يسعى إلى وضع المجتمعات داخل أنماط موحدة ويرفض تمايزها واختلافها. وإذا ما فرض التمايز ذاته فإن هذا الفريق يتشبث بالرفض. كان هذا هو المناخ النفسى والسياسى الكامن وراء أنماط ماكس ڤيبر التى تأكدت من بعده على يد ألفريد ڤيبر، فإذا كان ما يستعصى على التحليل أو يشذ حقيقة دامغة، فالسبب فى ذلك هو أن المجتمعات القومية المختلفة تنتمى إلى أنماط مثالية مختلفة وسرمدية، أى إنها عاجزة هيكليا عن تحقيق أى تطور مغاير للنمط، لأنه بحكم التعريف ثابت وجامد وغير قابل للتحول "كالألمانى" أو "المسلم" أو "الصينى"، هنا فإن الاختلاف يتحول إلى هوة سحيقة لا سبيل إلى عبورها ما دامت تتحدد هيكليا بناء على نمط مثالى، كما إنها هوة ثابتة لا تتحرك، ومن ثم يصبح الاختلاف هو نفس التطور والتحول الذى يقضى على احتمالات الديناميكية الاجتماعية ويصب التاريخ فى قوالب جامدة، ويفقد كل من الديناميكية الاجتماعية والتاريخ كل شرعية.

وتتضح إذن أسباب تفجر الأزمة عند مستوى معين من مستويات التحليل. صحيح أن المجتمعات القومية تختلف فيما بينها، لكن هذا الاختلاف ليس له طابع ميتافيزيقى، إلا كان معنى ذلك هو نكران كافة مكتسبات علوم الإنسان والمجتمع منذ ابن خلدون وباركليز وحتى ظهور الفكر الحديث فى القرن الثامن عشر. وهنا فإن الاهتمام ينصب على إيجاد وسيط بين الخاص والعام، بين الاختلاف ووحدة القالب الأولى. ذلك هو الهدف المحورى لمبدأ الخصوصية التاريخية، والذى كان سى. رايت ميلز واحدا من واضعيه، وقد حاولت تقديم البلورة النظرية لهذا المبدأ وتحليل عدد من مظاهره المحددة.

٢ – تحديد وتعريف المفهوم

لن نتعرض هنا لتحليل مفهوم الخصوصية التاريخية – وإن كان من الضرورى أن نتعرض لخطوطه العريضة – وبعد أن قمنا بتفنيد ورفض الاقتراب البنائى الوظيفى الذى يستند إليه مفهوم النمط المثالى وهو بعد مفهوم إثنو عنصرى

وجامد، يتعين علينا أن نبرز عوامل الاستمرارية التى تؤسس الذات التاريخية وتوفر لها الإطارات اللازمة عبر الحركة التاريخية، ومن ذلك تغير العصور والتكوينات الاجتماعية الاقتصادية والأنظمة السياسية والأنماط والنظم الثقافية والأيديولوچية إلخ...

ويتركز البحث فى المرحلة الأولى حول العوامل الرئيسية الكامنة وراء استمرارية المجتمع القومى عبر الزمن التاريخى. وقد ظل المفهوم المثالى - بل والروحى - مهيمنا لفترة طويلة خاصة من خلال فلسفة التاريخ، حتى أزاحه أخيرا الدور الحاسم للبنية التحتية الاقتصادية بتأثير من الماركسية. ويبدو لنا إنه من الأهمية بمكان أن نتعرض لثلاثة أبعاد إضافية، قد تكون ثانوية لكنها ذات دور حاسم فى هيكلة القالب الاجتماعى حول البعد الاقتصادى، وهى إعادة إنتاج الحياة البشرية، وفى القلب من هذا البعد قضايا الجنس والمشاعر، ثم النظام الاجتماعى أى قضايا السلطة والدولة، وأخيرا قضية الزمن / الموت والتى تطرح موضوعات الأديان والميتافيزيقا.

أما المرحلة الثانية من التحليل فتدرس التفاعل المميز بين هذه العوامل الأربعة فى مجتمع قومى معين بحيث تكشف عن نمط استمراريته التاريخية. ويبدو أن تضافر هذه العوامل يتحدد بناء على إطار حركة هذا المجتمع، فهناك أولا الجغرافيا كإطار طبيعى لكل حياة اجتماعية، ثم تطور هذا الإطار - أى الجغرافيا التاريخية - وعلاقة هذا الإطار المتغير بتوزيع القوة العالمى، أى الجغرافيا السياسية. ويشار فى هذا الصدد إلى الاهتمام الذى أثارته مقولة المجتمعات الهيدروليكية وإلى التمايز الصارخ لتجارب التحديث فى كل من اليابان وأمريكا اللاتينية، إن هذا الاقتراب يسمح باستخلاص خصوصية تضافر العوامل الأساسية للاستمرارية.

وهنا فإن الذات التاريخية لا تعد نمطا مثاليا، وإنما محصلة ونتاج للخصوصية كما أوضحناها. وهذا التحليل يناقض كلية الاقتراب المثالى من قضية الخصوصية ويتبنى المنظور التاريخى النقدى القائم على جدلية المجتمعات الواقعية.

وقد لاحظنا أن بلورة مفهوم الخصوصية التاريخية فى علم الاجتماع تتم بشكل طبيعى عبر الزمن التاريخى باعتباره الحقل الإبستمولوچى لمفهـوم الخصوصـية. ولن نتعرض هنا للقضايا الفلسفية المرتبطة بالزمن.. وحسـبنا أن نشـير إلـى أن الزمن التاريخى لا يتألف من التتابع الحدثى للظواهر والأبنية بشكل خطى ومتوال، ولكنه عمليه وترحال بطئ تعتريه التناقضات، كما قد تطرأ عليه لحظات الانفراج. وهذه العملية لا تخضع بالضرورة لقانون الجدل بأضلاعه الثلاثة فالمركب الجدلى ليس حتميـا، كما أن فترات القطيعة والتراجع هى جزء من ظواهر التاريخ.. الخ بمعنى آخر، ينظر إلى الزمن التاريخى باعتباره بنية وراثية. ومن ثم يصـبح مـن الممكن تحديد مفهوم عمق المجال التاريخى، والذى يبدو كأحد العوامـل المشـكلة لمفهوم الخصوصية التاريخية. فكيف يتم ذلك؟

إن عمق المجال التاريخى هو السند الزمنى لمفهوم الخصوصية التاريخيـة أو قل هو البعد الرأسى الذى تتجلى فيه هذه الخصوصـية. وإذا كـان لـب إشـكالية الخصوصية التاريخية هو استمرارية مجتمع قومى عبر التطور التـاريخى، فـإن لذلك صلة واضحة بمسألة الزمن. وليس المقصود هنا هـو زمـن المشـروع أو الذكرى، وإنما الزمن فى استمراريته، وهو ليس خطـا متقطعـا وإنمـا مجـال للانتشار. ومن هنا تكون تسميته بالمجال التاريخى، ويكون العمق هو أهم سـماته وعمق المجال التاريخى ليس مجالا فحسب، ولكنه أيضا إطار للهيكلة. حيث يمكن أن تتحقق الاستمرارية وأن يتم تناولها وفق أساليب مختلفة تتعلق بالكثافة والاتساق. قد تختلف دلالات الاستمرارية. وهنا فإن المتغيرات الدالة تنتج عن تفاعل طائفتين من العوامل أولها إدماج الزمن التاريخى فى حركة مجتمع قومى ما، ثم التضـافر المتميز للعوامل المكونة لهذا المجتمع. ويوضح تفاعل هذه العوامل أن المجتمعـات البشرية تستعصى على تفسير الاقتراب الجزئى الذى يدعى العالمية.

وبمعنى آخر، فإن عمق المجال التاريخى يصبح صورة لمفهوم الوقـت فـى محاولة رصد استمرارية وكثافة الجدل الاجتماعى فى المجتمعات البشرية، أو هـو الإطار العام الذى تتشكل داخله الخصوصية التاريخية لمجتمع قومى معين فى إطار منطقة ثقافية معينة تعد بذاتها واحدا من مكونات إحدى حضارات العالم.

٣ - ديناميكية المفهوم: مخطط برنامج البحث

إن الهدف من هذه المقدمة التحليلية ليس طرح ملاحظات ختامية، وإنما الشروع فى برنامج بحثى يتبلور حول ثلاثة محاور رئيسية:

٣ - ١ - أولها هو محور النظرية العامة، وخاصة الإبستمولوچيا، وتتمثل الإشكالية الرئيسية فى تغطية وبحث العلاقة بين مفهوم الزمن وبين مجموعة المفاهيم المرتبطة بكثافة الزمن فى مجال تاريخ المجتمعات البشرية. إن ظهور العالم غير الغربى - أى أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا على وجه الخصوص - فى مجال العلوم الاجتماعية الغربية قبل نصف قرن قد أدى إلى إثراء وتنوع المصادر الأولية للبحث عند أدنى مستوياته، وهو مستوى التحليل الثانوى، حيث اتسعت إمكانيات التعداد والإحصاء والتصنيف المنظم.

أما فى المرحلة الثانية - وهى مرحلة التحليل فإن إتساع مجال البحث الذى أشرنا إليه، يسمح بأعمال إعادة البناء النقدية فى الحقل الإبستمولوچى للزمن، وذلك انطلاقا من عالمية حقيقية وليس اعتمادا على معطيات وتقاليد المراكز المهيمنة المتتالية فى الحضارة الغربية. ومن ثم فإن كل من اختلاف الأزمنة والتعارض المتوازى بين الشرق والغرب لا ينظر إليه ككليات مثالية كتب عليها الاختلاف وككائنات مجردة من القدرة على التعالى ومن الجدلية الاجتماعية، وإنما ينظر إليه كتعبيرات مختلفة عن إدراك الزمن وفق إيقاعات اجتماعية واقعية تتحدد بناء على تاريخ خاص، وفى إطار بيئى وجغرافى وثقافى متميز.

أما المرحلة الثالثة فتتمثل فى التوصل إلى مركبات جديدة، أى فى إتمام بناء المفهوم ذاته، وتتركز الدراسات فى المرحلة الحاضرة والمستقبل على المستوى الثانى، ويتعين أن تسمح بالانتقال إلى المستوى الثالث، وهو مستوى الصياغة النظرية عبر المدى المتوسط.

٣ - ٢ - ويلى ذلك محور النظرية السوسيولوچية، وهنا فإن الأبحاث ينبغى أن تتناول النقطة الرئيسية وهى التناقض الأساسى بين الهوية والحركة - أى بين طائفتين من العوامل.

٣ – ٢ – ١ – عوامل القابلية للتغير والتى تنتج مباشرة عن مدى عمق المجال التاريخى للمجتمع محل البحث وكثافة ودلالة الجدلية الاجتماعية التى تدور فى هذا المجتمع فى إطاره القومى أو الإقليمى فضلا عن الاندماج والتماسك الاجتماعى والقومى والتحكم فى سلطة القرار القومى والوحدة الثقافية والهوية القومية والقدرة على الإشعاع والتأثير على صعيد الأبنية الفوقية، بغض النظر عن حصر الإمكانيات الموضوعية المتاحة وفاعلية وراديكالية الرغبة فى التغيير إذا ما تم الاتفاق حول ضرورته سواء على صعيد الجماهير أو على مستوى الدولة.. إلخ

ومن الواضح هنا أن أكثر الأمم والتكوينات القومية قدما ورسوخا هى أكثرها ثراء من حيث الإمكانيات الذاتية التى تسمح بطرح قضية التغيير والتمسك بالتغيير وتنفيذه.

٣ – ٢ – ٢ – عوامل عرقلة التغير والمواكبة لعوامل التغير فى إطار نموذج مجتمعى واحد: التقليد القومى والتقاليد الفرعية فى كافة مجالات الحياة الاجتماعية والتمسك بالصورة الجماعية للذات، وبالهوية القومية الشعبية عبر الزمن، وجود طبقات وقوى اجتماعية ومراكز وأجهزة ذات تأثير كبير تنحاز للمحافظة وتستند إلى الأيديويوچية الضمنية ذات الجذور العميقة السائدة فى المجتمع، حيث نجد صداها القوى والمروع خاصة فى لحظات الأزمة إلخ...

وهنا أيضا – وكما هو الحال بالنسبة لعوامل التغير – فإن الحضارات والثقافات القومية الأكثر قدما هى تلك التى قد تعرقل فيها العوامل الذاتية عملية التغيير بفاعلية أكبر وعلى امتداد فترات أطول.

إن تحليل هذا التناقض الأساسى، أو هذه التناقضات يجب أن يهدى إلى طرح إشكالية العامل الذاتى فى مجال الديناميكية الاجتماعية: الرؤية والإرادة والمشاورة والفعل.

وهنا فإن هناك أكثر من مأزق. ويرجع ذلك إلى التمسك بمقولات الذاتية وإلى رفض أى اقتراب نقدى من مسألة دور الفرد فى التاريخ فى آن واحد، فهل تسمح

العناصر التى تعرضنا لها بتناول هذه المشكلات على نحو أفضل؟ قد يبدو هنا أن الذاتية الجماعية – وهى بعد معطاة ذو طابع موضوعى وينبغى التعامل معها على هذا الأساس – قد يبدو أن هذه الذاتية الجماعية لا يمكن أن تكون ذات فصل إيجابى فى مجال الديناميكية والتغيير الاجتماعى إلا إذا استندت على معرفة محددة بالخصوصية المميزة لمجتمع ما انطلاقا من طبيعة ودرجة خصوصية الجدلية الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع.

وهنا فإن العوامل والمستويات والنقاط الفاصلة التى قد تتعرض لها عملية التغيير تتضح بشكل أفضل، حيث تمكن هذه العملية من خلق التغير أو الإسراع به، أى من إحداث تغيير عميق فى نمط تضافر العوامل الأساسية للاستمرارية الاجتماعية. ومن الواضح هنا أن اختفاء الديناميكية على مجتمعات متميزة ومختلفة كفرنسا وأثيوبيا ومصر والولايات المتحدة والصين والمملكة المتحدة لا يمكن أن يتم وفق ذات التصورات، وذلك أيا كانت أطروحات اليمين واليسار واللذان يتساويان فى تجاهل واحتقار الواقع.

٣ – ٣ – أما المستوى الثالث فهو مستوى السوسيولوچيا المقارنة واستخدامها لمفهوم عمق المجال التاريخى، فضلا عن استخدام هذا المفهوم فى مجال السوسيولوچيا السياسية وعلم السياسة. إن استخدام هذا المفهوم يمكن من إثراء البحث حول طائفتين من الإشكاليات.

٣ – ٣ – ١ – وتتمثل أولاهما فى تصنيف التكوينات القومية.. ويبدو لنا أن هذا التصنيف ينبغى أن يتم استنادا إلى الإحياء المعاصر للعالم غير الغربى منذ قرنين، أى استنادا إلى المعطيات التاريخية، والواقع المعاش للقسم الأكبر من المجتمعات البشرية، ونحن نعلم جميعا كيف طرحت مشكلة التشكل التاريخى لمفاهيم العلوم الاجتماعية.

وفى تصنيف التكوينات القومية الذى تعرضنا له فى كتابات أخرى يحتل مفهوم عمق المجال التاريخى دورا أساسيا ومحوريا فى صياغة وتصحيح وتنويع هذا التصنيف.

٣ – ٣ – ٢ – وتتمثل الإشكالية الثانية فى العلاقة بين هــذا المفهــوم وبـــين إمكانية التكوينات القومية حديثة العهد وتلك التى وضعتها الجغرافية التاريخية على الهوامش، وهنا فإننا نكون بصدد إشكالية المجموعات التى تسمى "بالأمم الجديـــدة" وبشكل خاص تلك المجتمعات التى توصف "باللاتاريخية". وهذه الإشكالية تعود بنا مرة أخرى إلى الطابع الوظيفى للسوسولوچيا حيث نواجه الهندسة الاجتماعية فـــى حالة "الأمم الجديدة" والبنائية فى حالة "المجتمعات اللاتاريخية" والتى تســـتند إليهـــا البنائية فى بناء تصوراتها الثابتة، حتى وإن تم ذلك اعتمادا على أعمال وصـــفية لا تخلو من الصحة.

تلك هى الخطوط العريضة التى تسمح بتعريف مفهوم عمق المجال التـــاريخى وتحديد دور وإمكانيات هذا المفهوم فى السوسولوچيا المعاصرة.

الهوامش:

(١) The nation of "Depth of Histonical Field"

وهذا هو التوجه الأساسى لكتابنا:

Ideologie et renaissance nationale "Egypt moderne.

(Paris' ١٩٦٩) وكما تم تلخيصه فى النتائج النظرية ص ٤٨ – ٥١٧

(٦)

مفهوم الخصوصية

١ - توجهات

ثمة حاجه للتأكيد على ضرورة التوصل إلى رؤية تجمع بين الخصوصية والعالمية، وبين العام والخاص، ومثل هذه الضرورة هى استجابة لمقتضيات كل من علوم الإنسان والمجتمع من ناحية أولى ومقتضيات الممارسة المجتمعية من ناحية ثانية، وصولا إلى رؤية موحدة وفهم موحد للعالم.. والحق إنه لم يسبق أن شهدنا وشاركنا فى هذا التنوع الهائل من الوحدات والعمليات الاجتماعية. وفى ذات الوقت، فإن الطفرة فى الاكتشافات العلمية وتطبيقاتها التكنولوجية، ترتبط أيما ارتباط بالرؤى الكلية، والأيديولوجيات والتصورات حول الأنظمة العالمية، واليوتوبيا المستقبلية وغير ذلك من أفكار.

ويزداد الإحساس بإلحاح هذا المطلب فى المناطق المستبعدة من المشاركة فى هذا العالم، أى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، أو بمعنى آخر وباستخدام مصطلحات الحضارة: فى الشرق. (الدائرة الآسيوية فى القلب منها الصين، والدائرة الإسلامية من حول العالم العربى، ومن حول هذه الدوائر كل من أفريقيا، وأقسام من وسط وجنوب أمريكا). ففى هذه المناطق، يتجلى السعى نحو الذاتية والهوية القومية، لعدة أسباب ترتبط مباشرة بصعود الحركات القومية فى المناطق التابعة، فى مواجهة الهيمنة التى فرضها الغرب منذ القرن الخامس عشر. إلا أن نظرة موازية إلى مضمون الأنظمة الاجتماعية الرئيسية فى المجتمعات المتقدمة، توضح أن هناك سعيا مماثلا نحو تعريف معايير جديدة فى هذه المنطقة فى العالم أيضا.

وقد تسارع هذا السعى بشكل ملحوظ من جراء صعود الشرق خلال القرن الحالى. ومن ثم، فإن الحاجة إلى البحث فى العلاقات بين العام والخاص هى حاجة

عالمية تتشارك فيها كافة المجتمعات البشرية فى وقتنا الحالى، وهو ما يطرح عددا كبيرا من القضايا والتساؤلات كيف يكون الربط - إذا كان ممكنا - وإلى أى درجة؟

فماذا عن بنية السلطة فى الدول الحديثة (غينيا الجديدة، جوايانا، جاميكا) والدول الفيدرالية والكونفدرالية، وماذا عن مؤسسات الدول القومية الحديثة والقديمة وهل هناك ما يربط على نحو معقول، تعريف السياسات الثقافية فى كل من فرنسا والبرازيل وتنزانيا ومصر واستراليا واليابان والمكسيك؟ وهل يمكن تحقيق الإجماع حول اقتراب مقارن فى قضايا مثل التعددية السياسية والهوية وإمكانية التغيير المجتمعى فى مجتمعات مختلفة مثل كندا والباراجواى وأندونيسيا وبولندا ومدغشقر؟ وما هى الإمكانيات المحتملة للإبداع الفكرى والعلمى والتكنولوجى وعناصر مقاومة الغير ونمط المواجهة بين التقليدية والحداثة فى أمم مثل منغوليا وإيطاليا والمجر وشيلى وبيرو والهند؟ إلى آخره.

إن القضايا الأساسية، التى ينظر إليها على إنها من "الاستثناءات"، تثير حيرة العقل التقليدى، ومنها: دور الجيش فى السياسة، عودة البعد القومى، ممثلا فى ظاهرة الحركات ذات النزعة القومية، اتجاه الأديان إلى البعد الثقافى الفلسفى الأيديولوجى والعكس، الوعى بالتماثل الجوهرى بين أشكال عدة للثبوت الاجتماعى مختلفة الشكل كالدولة الأوتوقراطية، والتعددية السياسية، والإجماع الشعبوى أو القبلى. إن معظم مجالات علوم الإنسان والمجتمع لا تخلو من غموض، وتطرح العديد من التساؤلات التى تبحث عن إجابة.

وتهدف النقاط التالية إلى الجمع بين عدد من الآراء - نطرحها هنا بشكل موجز - بهدف توضيح القضايا الأساسية حول مفهوم مركزى هو مفهوم الخصوصية.

٢ - إطار المقارنة

إن الخطوة الأولى والتمهيدية تتمثل فى طرح تصنيف للوحدات المجتمعية الكبرى محل المقارنة، وبمعنى آخر فإنه قبل إجراء المقارنة، يتعين أن نحدد على

وجه الدقة أطراف هذه المقارنة. ويمكن فى هذا الصدد، رصد ثلاثة أنواع متداخلة من الدوائر التى تشكل إطار المقارنة.

٢ – ١ – <u>الحضارات</u> تلك هى الدائرة الأوسع، والتى تم تعريفها بنـــاء علـــى اقتراب چوزيف نيدهام.

(أ) دائرة الحضارة الهندية الأوروبية.

(ب) دائرة القارة الآسيوية الصينية.

ولا تندرج أمريكا اللاتينية فى هذا الإطار، وإنما يمكن إدراجها على مستوى آخر.

٢ – ٢ – <u>المناطق الثقافية</u> وهى الدائرة الوسطية التى كثيرا ما يــتم الخلــط بينها وبين دائرة الحضارات حسبما ننظر فى أعمال آرنولد توينبى، والذى يمكــن تتبع محاولاته الناجحة فى صياغة الأنماط. ويمكن رصد المناطق الثقافية التالية:

(أ) فى دائرة الحضارة الهندية الأوروبية

- العصور القديمة فى مصر وفارس وبين النهرين.
- العصور القديمة اليونانية الرومانية.
- المنطقة الثقافية الأوروبية.
- المنطقة الثقافية الشمالية الأمريكية.
- معظم أجزاء المنطقة الثقافية الهندية الأوروبية فى أمريكا اللاتينية.
- المنطقة الثقافية الإسلامية جزئيا، أى المناطق الثقافية العربيــة الإســلامية والفارسية الإسلامية، باستثناء المنطقة الثقافية الآســيوية الإســلامية، التــى تندرج فى إطار دائرة الحضارة الصينية)

(ب) فى دائرة الحضارة الآسيوية الصينية

- الصين فى حد ذاتها

- اليابان

- منغوليا ووسط آسيا

شبه القارة الهندية

- الإقيانوسية (باستثناء استراليا ونيوزيلاندا)

- المنطقة الثقافية الآسيوية الإسلامية (من فارس إلى الفلبين)

وننظر إلى هاتين الدائرتين بوصفهما الأساسى التاريخى للتميز الأساسى بين عالمى الشرق والغرب.

والواقع أن "الشرق" يمكن رؤية تكوينه على النحو التالى:

(أ) دائرة الحضارة الآسيوية الصينية ومناطقها الثقافية.

(ب) الدائرة الحضارية / الثقافية الإسلامية – والتى يتضح أنها أهم الروابط بين دائرة الحضارة الهندية الأوروبية ودائرة الحضارة الآسيوية الصينية، ويتمثل الرابط إما فى الوساطة أو فى حقيقة أن هذه الدائرة تشهد توترات ساخنة.

(ج) أقسام من الحضارة الهندية الأوروبية فى أمريكا اللاتينية والمرتبطة مباشرة بأفريقيا وخاصة البرازيل ومنطقة الكاريبى.

(د) المنطقة الثقافية جنوب الصحراء الأفريقية.

ومن ثم فإن "الغرب" يتألف من معظم مناطق الحضارة الهندية الأوروبية.

٢ – ٣ – <u>الأمم</u> (أو التكوينات القومية تلك هى الوحدات الأساسية لوجود واستمرارية وتطور العمليات الاجتماعية الكبرى. وقد اقترحنا تصنيفها إلى خمس مجموعات:

(أ) الأمم الأساسية والتى يمكن وصفها حاليا بالأمم ذات النهضة المتجددة (مصر، الصين، فارس، تركيا، أثيوبيا، فيتنام، اليابان، كامبوديا والمكسيك والمغرب).

(ب) أنماط الدولة القومية الأوربية ثم الغربية.

(ج) الدول القومية الجديدة الساعية نحو الوحدة، ومنها الدول الجديدة بالمعنى الحرفى (غانا، مالى، بورما، تايلاند) والتكوينات القومية الواقعة فى إطار مجموعات متعددة القوميات (أرمينيا، چورچيا، أوزباكستان إلى آخره).

(جـ) الدول القومية المزدوجة الهندية ثم الأوروبية وخاصة فى أمريكا اللاتينية.

(د) الدول الجديدة ذات النزوع القومى (خاصة فى عدة مناطق فى جنوب الصحراء الأفريقية، وبعض مناطق وسط وجنوب أمريكا اللاتينية).

٢ – ٤ – ولن نتعرض هنا على نحو مفصل لأسس التمييز بين الدوائر الثلاث إلا لإبراز الخطوط العريضة.

(١) يتم تحديد المناطق الحضارية وفقا لعاملين هما المفهوم العام للعلاقات بين الثقافات والأمم والتكوينات الاجتماعية، من جانب أول، ثم البعد الزمنى من جانب ثان، وليست هذه مجرد رؤية للعالم، بل أن أساس التمييز بين الشرق والغرب، هو الرؤية الفلسفية للزمن كمجال للتطور البشرى وما يترتب على هذه الرؤيا من نتائج.

(٢) يمكن النظر إلى المناطق الثقافية، باعتبارها مجموعات مجتمعية تشترك فى رؤية واحدة للعالم. وترتبط هذه الرؤية بالمحددات التاريخية والجغرافية عبر التاريخ (بعدى البيئة والجغرافيا السياسية) أكثر مما ترتبط بالفلسفة بالمعنى الحرفى وقد تعبر عن رؤية واحدة للعالم، مجموعة محددة ومحدودة من اللغات و لغة واحدة (العربية، الصينية، الإنجليزية، الفارسية، واليابانية فى كل المناطق الثقافية الموازية).

(٣) لا شك أن تعريف الأمم أو التكوينات القومية هو أسهل بكثير، طالما تم الاتفاق حول أهمية وضرورة التصنيف.

إلا إننا عند وضع هذه الأنماط الثلاثة من الدوائر المتداخلة، نكون قد قدمنا وصفا طوبوغرافيا (أو تشريحا) لمجالات المقارنة، وتبقى ضرورة الربط الجدلى

بين مختلف وحدات الدوائر الثلاث من الأوسع إلى الأضيق. وهذا هو على وجه التحديد، الهدف من وراء طرح مفهوم الخصوصية.

مفهوم الخصوصية، البناء والديناميكيات

سوف نبدأ بطرح المفهوم الشامل الأول الذى قدمناه فى ١٩٧٠. يمكن تحليل مفهوم الخصوصية على ثلاثة مستويات ومراحل.

١ – مستوى/ مرحلة التعريف العام منذ البداية.

إن التوصل إلى خصوصية مجتمع ما يمكن أن يتم من خلال التعرف على نموذج الثبوت الاجتماعى الخاص بتكوين اجتماعى واقتصادى قومى معين، وذلك من خلال القراءة النقدية لتطوره التاريخى. ويتمثل نموذج الثبوت الاجتماعى الخاص فى نمط بناء وتفاعل مكوناته الأساسية الأربعة وهى:

(أ) إنتاج الحياة المادية فى الإطار الجغرافى والبيئى (نمط الإنتاج).

(ب) إعادة إنتاج الحياة (الجنس)

(ج) النظام الاجتماعى (السلطة والدولة)

(د) العلاقة بالبعد الزمنى (محدودية الحياة البشرية، الأديان والفلسفات)

ويشكل إنتاج الحياة المادية الدور الفاصل فى هيكلة نموذج الثبوت ككل، ولكنه يتدخل كمحدد أخير. وتطبيق هذا النموذج على عدة مجتمعات يوضح الصورة العامة، ويمكن من إضافة التفضيلات، وصولا إلى المستوى الأول للتحليل بناء على المحددات الاجتماعية الاقتصادية.

٢ – مستوى / مرحلة الوعى بالأبعاد الزمانية والمكانية.

إن دراسة الخصوصية لا تتم فى مجال الإبستمولوچيا البحتة المحددة، لكنها تقع فى إطار التطور الفعلى للمجتمعات. ومثل هذا التطور يبرز أهمية العامل الزمنى، ومن هنا كانت الأهمية المركزية لمفهوم "عمق المجال التاريخى". إن

السؤال عن الخصوصية ليس مطروحا بصدد المجتمعات العارضة (الحركة الطلابية مثلا أو الدول المصطنعة كالبيافرا) إن الحديث عن الثبوت الاجتماعى، يشترط امتداد الفترة التاريخية، وهو يصدق بهذا المعنى على التكوينات الاجتماعية القومية القديمة. وهو المجال النموذجى للخصوصية، وعلى تلك التكوينات التى لم تصل بعد إلى المستوى القومى المكتمل، وعلى "الأمم الفتية" بالمفهوم الذى يتحدث به توماس چيفرسون عن الولايات المتحدة.. ويوضح هذا اتساع مجال البحث الذى يشمل معظم شعوب وأمم عالمنا المعاصر. ولا شك أن العلوم الاجتماعية قد تواجه بمشكلة أكبر فيما يتعلق بالبعد المكانى، بسبب فقدان الثقة فى تصنيفات الجغرافيا السياسية. إلا أن التطور التاريخى للمجتمعات لا يتم فى الفراغ المجرد لجدليات العقل وهو مغذى فكرة التاريخ، كما أنه لا يدور فى مجال الإبستمولوچيا. ويمكن النظر للمجتمعات – فى إطار ظروفها الجغرافية – من زاويتين.

(أ) زاوية الموقع وما يترتب عليه من نتائج بالنسبة لوضع المجتمعات والدول؛ وهو مجال الجغرافيا السياسية.

(ب) زاوية المحددات الداخلية، أى البيئة، التى تشير إلى الموارد والإمكانيات، والتى يتعين تقييمها على ضوء المعطيات الديموغرافية.

٣ – مستوى / مرحلة التفاعل الجدلى بين عوامل البقاء وعوامل التغير، كالتأثير الفاصل لنمط الإنتاج، وعلى صعيد آخر، تقدم تقنيات الإنتاج.

ويكون من المهم التمييز بين ما هو باق وما يسمح بالثبوت (وهو أمر يختلف تماما عن الحديث عن "ثوابت" أصلية) وما يبقى وفق نموذج معين، وما يطرأ من جديد، وما هو قائم وما يزول. كما يتم تحديد العناصر الأربعة المحددة وأوزانها النسبية فى شتى مراحل التطور التاريخى.

٤ – ينطبق مفهوم الخصوصية على كل من المناطق المهيمنة والمناطق التابعة..*

---

* Pour uae sociologie de l'mperialisme"
L'homme et la Societe n ٢١ (١٩٣١) pp. ٢٧٩ – ٢٩٨

ويمكن رصد عدد كبير من القضايا التى تحتاج إلى الدراسة، بقدر ما تشكل إطارا لتكوين الخصوصية، فى القلب من النظرية الاجتماعية. ويمكن تقسيم هذه القضايا إلى مجموعتين.

(أ) استخدامات مفهوم الخصوصية: أى دلالة هذا المفهوم فى شتى نماذج المجتمعات.

(ب) تحديد المناطق ذات الأولوية فى الاقتراب المقارن باستخدام مفهوم الخصوصية كأداة ومفهوم مركزى.

٤ – الخصوصية والأصالة.

يظل البحث في مجال الانتقال من العالمية إلى الخصوصية من خلال الدراسات النقدية المقارنة، بحثا استثنائيا نظرا لأن الافتراضات النظرية المتمركزة حول الذات الغربية واليقين الفكرى والميل إلى الاختزال المميز لها، ليس من المتوقع أن تختفى من تلقاء ذاتها فى الظروف العالمية الحاضرة بما يميزها من تغير يتمثل فى ظهور حضارات وثقافات وأمم الشرق الناهض، فضلا عن تصاعد الإحساس بالأزمة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة فى الغرب بما يميزها من أنماط ومعايير استهلاكية.

إلا أن الخصوصية باقية. كيف يمكن تحديد موضع هذا المفهوم على وجه الدقة؟

إن الخصوصية كمفهوم صالح عالميا تبدو قائمة بالنسبة لكافة المجتمعات. إلا أن نظرة فاحصة إلى الكتابات الدائرة حول هذا الموضوع، تكشف عن صورة مختلفة بعض الشئ. فهى توضح أن المفهوم المقبول للخصوصية يتم ربطه بشكل

Sociologie de l'mptialisme (Anthropos ١٩٧١) ,٩ La gialectipue Sociale (Le seuil, ١٩٧٢). pp. ٣٨٩ – ٣٩٢.

أساسى بالمجتمعات القومية غير الغربية وغير الصناعية: الصين وشبه القارة الهندية وآسيا باستثناء اليابان والعالم العربى والإسلامى وأفريقيا والمناطق الداخلية فى أمريكا اللاتينية. وقد كانت مثل بعض المحاولات للتجديد النظرى كالانتقال من سوسيولوچيا المستعمرات التى عفا عليها الزمن، إلى سوسيولوچيا التنمية (أو التخلف أو العالم الثالث إلى آخره..) والتى لا تزال قائمة. الواقع أن مفهوم الخصوصية يستخدم ويتم تصوره على أنه دراسة العرقية Ethnicity دراسة سوسيولوچية. وقد استخدمت عدة تعبيرات تعكس جميعها انطباق المفهوم على المجتمعات الهامشية دون غيرها. ومن ثم استخدام المصطلح العربى – الأصالة – كمرادف للخصوصية. فلنحاول إعمال النظر فى هذا. ما الذى يمكن اعتباره "أصيلا" من المنظور السوسيولوچى؟

إنها العادات والتقاليد والقيم الاجتماعية والأخلاقية والنماذج التقليدية إلى آخره، هى بمعنى آخر تلك الظواهر التى تنتمى للماضى والمستمرة عبر التطور التاريخى، والتى استمرت بدرجات متفاوتة من التغير واحتفظت بتجانسها ودلالتها. ومن ثم، تكون قيم البداوة من منظور "الأصالة" مساوية للمفاهيم العربية حول الشرف والحب / النشوة، والخلط بين السياسة ونموذج العمارة الأندلسية والموشح كقالب موسيقى وأداء صوتى يتراوح بين المعانى الصوفية والدلالات الجنسية، والقدرة على التعاون الثقافى جنبا إلى جنب مع رفض السلطة، والعناد، كل ذلك يكون ضمن مكونات نموذج الأصالة العربية الإسلامية، وقد كانت هناك محاولات لنفى "الأصالة" عن مناطق قومية ثقافية ومجتمعات قومية أخرى، وكتبت فى ذلك صفحات طريفة أو ساخرة.

والآن، ما الذى يمكن أن نتوصل إليه بعد الرصد شبه الكامل لمعظم خصائص مجموعة مجتمعية ما (حضارات ومناطق قومية ثقافية ومجتمعات قومية) ومقارنتها بمجموعات أخرى؟ وإذا ما تم رصد تلك السمات، فإنه يبقى الكثير بشأن المجتمعات الغربية. إن محاولة المقارنة مع مجتمع غير غربى واحد أو أكثر تهدف إلى قياس الوزن الكامن فى كل خانة، لكنها لا تكفى للوصول إلى مستوى التفسير

التاريخى النقدى أو التاريخى الجدلى للاستمرارية، كما أنهـا تعجـز عـن فهـم التنويعات القائمة وتأثيرها العلمى ونمط تطورها إما كعناصر تقـع ضـمن إطـار معين للثبوت الاجتماعى أو كمكونات أساسية أو عوامل مشكلة لهذا الإطار ذاتـه. ومن ثم فإنها لا تسمح بفهم نمط الثبوت الاجتماعى للمجتمع محل البحث. إن هـذه المميزات، لا تعدو إن تكون قائمة مطولة من "العادات والتقاليد" (فى ظـل إعـلام قومية غير أوروبية) تصلح للرحالة المستتير أو رجل الأعمـال أو الدبلوماسـى. فماذا بعد؟

إن قوائم الصفات تميل فى مجال الاقترابات المقارنة إلى الشكل الاحصـائى، أى إنها تتحول إلى تعداد وإحصاء يفتقـر إلـى أى خلفيـة تاريخيـة أو تحليليـة موضوعية، شأنها فى ذلك شأن برامج المعلومات.

وهنا فإن الأداة المفهوم الجديدة" تتحول إلى نقيض المستهدف منها، وهو نقـد الرؤية الجزئية للعالم، والمتمركزة حول الذات الأوروبية. ومع ذلـك فـإن كافـة التغيرات العالمية تدفع نحو ذلك، وتضعنا أمام تحدى إعادة ضبط الأدوات النظرية، انطلاقا من نظرة كلية. وهذا هو المناخ الثقافى الذى دفع نحـو تحديـد وتعريـف مفهوم الخصوصية وصياغته تدريجيا. إن الزمن قـد تجـاوز فـى رأينـا كافـة الاقترابات الجزئية القائمة على الاختزال.

إن ما نحتاج إليه، سواء فى مجال الأفكار أو فى مجال الممارسة السياسية هو أداة تمكن فى ذات الوقت من:

(أ) رصد الاستمرارية والتغير فى مختلف المجتمعات، وهو ما أسـميناه بنمـوذج الثبوت الاجتماعى.

(ب) أن يتم هذا الرصد انطلاقا من العوامل المشتركة بين كافة المجتمعات القومية والتى تتفاوت فى الدرجة والشكل، وفقا للإطار التاريخى الجغرافى لكل مجتمع.

ولنعد إلى ما تطرحه قضية "الأصالة" من مشكلات. ليس من العسـير رصـد عشرات التسميات و المصطلحات التى تعبر عن مضامين مشابهة.

وهى تعنى فى أحيان كثيرة بالافتراضات العرقية هنا وهناك، وقد تكتسب طابعا عنصريا، ودائما ما تكون متأثرة بالتمركز حول الذات، وحول الذات الغربية تحديدا. وقد برزت فى فترة متأخرة صياغة أكثر تعقيدا تستمد أساسها من النماذج المثالية الڤيبرية، وهى ترجع جذور الخصوصية إلى وجود أنماط مختلفة من المجتمعات والتكوينات الاجتماعية. وهنا فإن هذه التمايزات المرتبطة بالتاريخ تؤدى إلى نماذج مثالية من التكوينات الاجتماعية، والشخصيات التاريخية التى تتميز كل منها بسمات هيكلية وروحية وثقافية. ويرى الكثيرون من مفكرى العلوم الاجتماعية أن الاقتراب الڤيبرى هو خطوة أكثر تقدما وعقلانية من الخليط المعتاد من الافتراضات والآراء المسبقة. إلا أن هذا الاقتراب، يعنى فى آن واحد:

(أ) الاعتراف بالتمايزات بين المجتمعات فى مواجهة فكرة العالمية القائمة على الاختزال وما يستتبعها من سياسات لنشر العالمية وفرضها فرضا.

(ب)وجود هوة لا يمكن تجاوزها بين مختلف التكوينات الاجتماعية، خاصة المجموعات القومية والقومية الثقافية، بحيث تتمايز كل بخصائصها المستقلة تمايزا بنائيا ولا يعود هذا التمايز إلى اختلاف مسار التطور التاريخى الموضوعى بقدر ما يعود إلى التميز البنيوى. وهنا فإن هناك أمثلة عديدة على ما يسمى "بالأصالة"، نذكر منها الطابع العسكرى لبعض الجماعات القومية والقومية الثقافية فى الشرق والغرب على السواء، الطابع العاطفى المميز لسكان حوض البحر الأبيض، خصوصية العلاقة بالبعد الزمنى فى أمريكا اللاتينية، ما يقال عن الميل إلى رفض الاندماج فى جنوب الصحراء الأفريقية، العقلانية فى فرنسا، العقل التاريخى الفلسفى فى ألمانيا، البراجماتية والتجريبية فى العالم الأنجلوسكسونى المسعى، إلى حدود جديدة فى الولايات المتحدة والاتحاد السوڤيتى، الرؤية المتكاملة للعالم فى الأمم القديمة (مصر، الصين، فارس... إلى آخره) ويمكن أن تضاف العديد من الأمثلة إلى هذه القائمة. وعند هذا المستوى المتواضع من التحليل، تتضح أهمية الاختلافات القائمة بين المجتمعات والتى ليس من المقصود أن تزول، فكأنه قد حكم على المجتمعات أن تظل

مختلفة ومنفصلة وعاجزة عن التلاقى. إن الاعتراف بالتمايزات وبحق التمايز يؤدى إلى الفصل والعزلة وغياب التواصل. ويبدو العالم وكأنه مجموعة من الجزر غير المتصلة نظرا لاختلافاتها وانتمائها إلى نماذج مثالية مختلفة. فهل هناك من سبيل لتجاوز هذه الرؤية السوداوية والميكانيكية؟

٥ - نحو فهم عميق للواقع الكلى

يتعين أن يستخدم مفهوم الخصوصية فى مجال الدراسة المقارنة ذات الدلالة، نحو إعادة بناء النظرية الاجتماعية. والسبيل إلى ذلك هو تحديد أولويات المقارنة فعلى أى أساس يتم ذلك؟

٥ - ١ - لتكن نقطة الانطلاق هى القبول بأوسع مجالات التعددية. إن المحددات والأولويات فى مجال العلوم الاجتماعية، تتأثر مباشرة بطبيعة السلطة السياسية، أما العوامل الاجتماعية الاقتصادية، فإنه يبدو أنها تمارس تأثيرها بأسلوب غير مباشر وكخلفية، وليس على نحو ميكانيكى، كما أن هناك تفضيلات مؤسسية مشروعية وتفضيلات شخصية ذات تأثير. ومن ثم فإن قضية الأولويات ومحدداتها تستوجب البحث. ولنبدأ بالتفصيل فيما قدمناه.

إن طائفة أولى من أولويات المقارنة - ومن ثم من المحددات التى تتحدد بمقتضاها الأولويات - ترتبط بالضرورة بالمجالات ذات الموقع الوسيط بين الفكر والممارسة، أو بمعنى آخر بالمشروع الاجتماعى / الاقتصادى والسياسى والثقافى الذى يتبناه المجتمع القومى فى فترة ما من تطوره التاريخى، إن الخاصية المميزة لهذا الاقتراب - الذى لا يمكن تجاهله، والذى يتميز بطابعه العملى - هو أنه يهتم بما يتم فعلا، على صعيد الممارسة الاجتماعية والسياسات العملية، مستخدما فى ذلك أدوات قياس كمية كثيرة، حتى إنه لا يبدو أن البعد التاريخى الممتد لا يكون له إلا نصيب محدود جدا من التحليل. وهو ما يمكن أن نسميه بالمقارنة الوظيفية أو التكتيكية.

وتبقى طبقات عميقة غير معلومة، وهى تلك التى تتركز فيها المــادة الأوليــة للنظرية الاجتماعية، من منظور تعدد الحضارات. وهنا تحديــدا، تتضــح أهميــة مفهوم الخصوصية، والذى ينبع أساسا من مفهوم عمق المجال التــاريخى، الــذى يشكل جوهر ومصدر الخصوصية والذى يسمح بصياغتها. إن تبنــى مثــل هــذا الاقتراب يبرز كافة العوامل التى يمكن على أساسها تحديد الأولويات والمحــددات، وبذلك يتم الانتقال إلى مستوى آخر من المقارنة، هو ما نسميه بالمقارنة الأساسية / المجدية، أو بالمقارنة الحضارية الاستراتيچية.

٥ – ٢ – وتشكل مجالات البحث الأربعة نمط الثبوت الاجتماعى ذاته، وهــى إنتاج أدوات الحياة المادية وإعادة إنتاج الحياة البشرية والسلطة الاجتماعية والعلاقة بالبعد الزمنى. ويمكن إدراج عدد كبير من الظواهر والعوامل ضمن هذه المجالات الأربعة. ويتبقى بعد ذلك عدة عوامل وظواهر ذات طابع تأريخى مؤقت.

وهنا تثار عدة تساؤلات

(أ) هل تتساوى المجالات الأربعة فى أهميتها بالنسبة لتطور المقارنة الأساسية؟ هنا يجب الأخذ فى الاعتبار بأنماط التداخل بين هذه المجــالات مــن جانــب أول، وبضرورات الممارسة الاجتماعية من جانب ثان. فمجال إنتــاج أدوات الحيــاة المادية، لا يمكن أن، ينفصل عن السياسات العمليــة والممارســة الاجتماعيــة المتصلة، فى كل زمان ومكان، وهو ما يدفع الرؤية الماركسية إلى تمييز هــذا المجال، باعتباره العامل المحدد فى الجدليات الاجتماعية. والأمر صحيح رغــم وجود قوالب متميزة. وبمعنى آخر فــإن التكوينــات الاجتماعيــة الاقتصــادية الرأسمالية وتطور المجتمعات القومية والمجموعات القومية الثقافيــة المختلفــة (اليابان وكندا، مصر والسويد إلى آخره) هو تعبير أو تجسيد لخصوصية كــل من هذه المجتمعات من زاوية تطورها التاريخى.

(ب) أما المجالات الأخرى فهى أكثر التصاقا بالخصوصية حيث يبدو أنها تشــكل مستوى الأبنية القومية، وذلك من خلال إعادة إنتاج الحياة البشرية، أى مجــال

الجنس، الذى يقف فى منصف الطريق بين الإنتاج الاقتصادى من جانب وتركيبة السلطة / الثقافة من جانب آخر. ويشار فى هذا الصدد إلى أن تغيرا ملحوظا قد طرأ على هذا التوازن الدقيق:

فيمكن أن يقال أن الجنس كان أكثر ارتباطا بالإنتاج الاقتصادى فى المجتمعات ما قبل الرأسمالية، حيث لم تكن هناك وسائل إعلام لتضخيم الإحساس بالذات، وكانت أخلاقيات الإنتاج والاستهلاك تختلف عما هو قائم الآن فى المجتمعات الصناعية الأكثر تقدما. وفى المقابل، يمكن القول بأن الجنس قد أصبح اليوم أكثر تأثيرا بمختلف صور الأوضاع البشرية وإلى حد ما بعلاقته بالبعد الزمنى والفلسفة والأيديولوجية والميتافيزيقا والأديان والاتجاهات الصوفية، كما أنه شهد تغيرا أساسيا على أثر العمل من أجل تغيير وضع المرأة فى المجتمعات المتقدمة فى عالمنا المعاصر.

(٣) وقد كشفت السلطة مؤخرا عن صلاتها الهيكلية بالجزء غير الظاهر من الحقيقة، أى بالجذور العميقة للخصوصية القومية الثقافية، خاصة فى المسارات المتميزة للتجربة الاشتراكية فى كل من الاتحاد السوفييتى والصين. وفى دور وموقع الجيش فى القلب من السلطة السياسية فى شتى النماذج الناصرية (مصر، الجزائر،بيرو، الأرجنتين، البرتغال) وذلك مع الاختلاف الكلى عن الانقلابات الرجعية التقليدية فى المناطق ذات التقاليد القومية الهشة، ونجاح الليبرالية فى الدول الرأسمالية الغربية والمرحلة ما بعد الاستعمارية بالنسبة للقوى الاستعمارية التقليدية (بريطانيا وفرنسا والبرتغال وبلچيكا خاصة) والهيمنة الأمريكية الإمبريالية (فى ڤيتنام خاصة).

(٤) وتتجلى أهم سمات الخصوصية فى المجال الرابع المتعلق بالعلاقة مع البعد الزمنى. ذلك أن هذا المجال يتصل مباشرة بالفكر والثقافة وتفاعلهما على صعيد شبكة العلاقات المعقدة والمنظمة بين الدين والفلسفة. وهناك فإن الحاجة إلى وصف الأشكال والقوالب والطبائع تكون محدودة، لأننا نتجاوز مستوى الجدل

حول العرق، ولأن النقاش يدور على صعيد آخر أكثر ارتفاعا من المظاهر الواضحة التى يسهل رصدها.

وعلى الرغم من وضع هذه الفكرة، إلا أنها لا تؤخذ فى الاعتبار على نحو كاف. فإن كان كل من الثقافة والفكر المرتبطان بعلاقة الإنسان بالبعد الزمنى وكما تعبر عنها الأديان والثقافات، تعكس هذا القدر الكبير من الاختلافات، وتتضح من خلالها، نماذج الخصوصيات، فذلك لأنها تعبر عن لب نموذج الثبوت الاجتماعى، أى عن الواقع الكلى العميق الجذور، وعن الإنجازات وأشكال التوازن والإمكانات المحتملة لمجتمع ما.

إن تركز مثل هذا القدر من الخصوصية فى هذا المجال بعينه، هو ظاهرة بالغة الأهمية. ويعنى ذلك أن مجال تفاعل البنية القومية الثقافية كما تعبر عنه كل من الأديان والفلسفات والميتافيزيقا والأيديولوچيات والأشكال فوق السيكولوچية والصوفية، هو المجال الأساسى لإعمال المقارنة الأساسية، الإستراتيچية والحضارية، حيث تتجلى فى أوضح أشكالها الأهمية المركزية للبعد الزمنى ولعمق المجال التاريخى.

٥ – ٣ – ومن ثم فإن المحاولة الأولية لرصد الأولويات تكون على النحو التالى:

(أ) إن مجال / مستوى البنية الثقافية والفكرية ممثلا فى الفلسفات والأديان والأيديولوچيات هو الذى تظهر فيه أكبر وأوضح التمايزات، ويمكن أن يستخدم بكفاءة كنقطة بداية أساسية نحو الدراسة المقارنة.

(ب) ومن الممكن أن تمكن دراسة هذا البعد من توضيح مظاهر الخصوصية فى سائر المجالات المرتبطة بالبنية الفوقية، وهى إعادة إنتاج الحياة المادية والسلطة، وقد يسمح هذا بإلقاء الضوء على مجال البنية التحتية الاقتصادية.

(ج) إن أهم المجالات وأوسعها وأكثرها ثراء هو الذى يجمع بين كل من علاقة الإنسان بالبعد الزمنى وعامل السلطة. فالسلطة قد تتردد فى الارتباط بالأديان والفلسفات والأيديولوچيات، فى حين أنها تدعم صلاتها العضوية بالبنية التحتية .

الاقتصادية والتى تتأثر بدورها بالتقدم التكنولوچى، والذى يسهل تعميمه فى خطوطه العريضة على مناطق قومية ثقافية مختلفة.

٥ – ٤ – وثمة مثال مهم يمكن أن يلقى الضوء على هذا المجال بالغ التعقيد. فالنظر إلى المجتمعات التى عرفت تحت عنوان "المجتمعات الهيدروليكية". وهى كما نعلم، تلك المجتمعات التى تعتمد على الرى الصناعى لإنتاج غذائها، فى غيبة الرى الطبيعى القائم على الأمطار المنتظمة. ومثل هذه المجتمعات توجد وفق هذه الفرضية فى منطقة خط الاستواء وجنوبه، وتعتبر من أقدم المناطق الحضرية، حيث ظهرت أقدم المجتمعات والحضارات فى تاريخ البشرية (مصر، بين النهرين، الصين، وسط وشمال الهند، أمريكا الوسطى، وسط أفريقيا) ووفقا لهذه النظرية فإن الحاجة إلى الرى الصناعى – أى بناء السدود وشق القنوات والمصارف – كانت هى السبيل الوحيد لإحكام السيطرة على مجارى الأنهار الكبرى، كالنيل ويانج تسى كيانج، والجانج، دجلة والفرات والكونغو... إلى آخره، وقد أدت هذه الحاجة الدائمة إلى السيطرة على موارد المياه، إلى خلق أداة للسيطرة الموحدة والمنظمة على هذه الشبكة الممتدة والمعقدة، بما يستتبعها من سيطرة على عدد من الوحدات الإقليمية أو الأدنى من الإقليمية. وهو ما يفسر ظهور الدول المركزية الجديدة فى أفريقيا، بما يميزها عبر مضى القرون، من طابع أوتوقراطى لا سبيل لتجاوزه. حسنا.. هناك سؤالان يجب طرحهما:

(أ) إذا كانت الطبيعة الأوتوقراطية لسلطة الدولة فى هذه المناطق، تفسر كذلك، فكيف يمكن تفسير هذا الطابع الأوتوقراطى فى سائر أنحاء العالم، وعلى امتداد التاريخ البشرى، باستثناء مناطق محدودة وفترات مؤقتة؟ هل من الأدق القول إن وظائف الدولة هى تلك تتمثل تحديدا فى الضبط الاجتماعى والاستخدام العقلانى للقوة بغية الحفاظ على نظام اجتماعى معين؟

صحيح أن هناك درجات متفاوتة من الأوتوقراطية. إلا إنه يبدو حتى الآن، أن القوة هى سمة مستمرة عبر تاريخ البشر.

(ب) إذا ما تناولنا المجتمعات التى أشير إليها، فهل يمكن الجزم بـأن مؤسسـاتها الثقافية والاجتماعية وظواهرها وعملياتها متشابهة حقا فـى كـل مـن فيتنـام والسودان وباكستان والمغرب وإيران وكامبوديا على سبيل المثال؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فكيف يمكننا رصد الاختلافات، إذا تمسكنا بالعموميات السـطحية ورفضنا الغوص فى الأعماق باستخدام مفهوم الخصوصية كما تـم توضـيحه، وبحيث يسمح هذا المفهوم برصد أبعاد كل من البقاء والتغير فى هذه المجتمعات والجماعات القومية الثقافية؟

إن المجتمعات الصناعية المتقدمة ليست بحاجة إلى نفى أو إخفاء ما يعبر عن "أصالتها" أو إلى اعتبارها فى عداد "العادات والتقاليـد" المشـكلة لخصوصـيتها. ويصدق هذا أيضا على المجتمعات الأقل تصنيفا، وخاصة غير الغربية. ومن هنـا فإن مفهوم الخصوصية يكتسب أهميته من كونه مفهوما وإرادة للرؤية الكلية، التى تستهدف معرفة أعمق بأسباب الاختلاف بين المجتمعات علـى امتـداد تطورهـا التاريخى. إن الهدف يتمثل فى الربط الجدلى وليس الاختزال. وبدلا مـن "بنـوك المعلومات" التى لا تكتسب قيمتها إلا كأداة لخدمة التحليلات التاريخية النقدية، فـإن هذه التحليلات، تبقى وسيلة للربط بين الاقتراب الكمى الإحصائى فى رؤيـة كليـة للعالم، وصولا إلى أى بعدين رئيسيين همـا رأسـيا التطـور التـاريخى، وأفقيـا الحضارات والمناطق الثقافية والمجتمعات القومية.

(٧)
التصورات والمعايير فى العلوم الاجتماعية

١ - ملاحظات تمهيدية

١ - ٣ - يتضمن القرار ٣ / ٢١ / ١، الصادر عن الدورة الثامنة عشر، للمؤتمر العام لليونسكو، (الفقرة ٣٠٢٤ من ١٨ جـ) عددا من الأطر المرجعية التى تهدف إلى توجيه الجهود المشتركة فى مجال العلوم الاجتماعية، حيث تنص على ما يلى" بهدف توضيح المفاهيم ودفع تطور العلوم الاجتماعية، فإن قضية عالمية النزعة فى العلوم الاجتماعية، وإقليمية الجذور، سوف تظل محل بحث، بالتعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية والمتخصصين. وسوف تتواصل الجهود بهدف جمع وتحليل وجهات النظر الرئيسية السائدة بين الآراء الواردة فى هذا المقال، لا تعكس بالضرورة وجهات نظر اليونسكو.

الجماعة الدولية للعلوم الاجتماعية". ويعطى النص التالى ملخصا لخطة العمل هذه:

"إن الهدف فى المشروع هو المساهمة فى ضبط المفاهيم الأساسية والمحددات المتعلقة بتطور العلوم الاجتماعية على الصعيد الدولى والإقليمى والقومى. وبشكل خاص، فإن قضية النزعة العالمية والتمايز الجغرافى والأسس الفكرية والمنهاجية التى تؤسس التعدد فى أنماط التفكير فى العلوم الاجتماعية، سوف تدرس، بالتعاون مع المؤسسات القومية والإقليمية وجمعيات المتخصصين. وسوف يتم رصد وتحليل وجهات النظر الرئيسية وإعداد دليل عمل للمشاركين، كما سوف يتم إعداد تقرير عام اعتمادا على المساهمات الفردية".

١ - ٢ - وقد تم بعدها تقديم برنامج القرار ١١١٢٠٣ إلى اللجان القومية لليونسكو، حيث تم التركيز على صلب الموضوع وهو "إن قضية عالمية نزعة

العلوم الاجتماعية وإقليمية جذورها، سوف تبحث بالتعاون مع اللجان القومية والمؤسسات الدولية والإقليمية والمتخصصين". إن إحدى السمات المميزة للعلوم الاجتماعية فى وضعها الحالى، هى الاتجاه إلى "المحلية" أو "الإقليمية"، فى مواجهة تلك العلوم الاجتماعية "المستوردة" وهو الاتجاه الذى يتخذ موقفا نقديا من الحركة الثقافية الأحادية الاتجاه من المركز إلى الهوامش، ويهدف إلى تحقيق الاستقلالية الحقيقية للعلوم الاجتماعية فى مناطق شتى من العالم. وعلى المستوى المؤسسى، يؤدى مثل هذا الاتجاه إلى إقامة مؤسسات إقليمية للعلوم الاجتماعية، من أجل تعميق التعاون فى مجالات البحث والتوثيق والتدريس، كما يؤدى على مستوى المضامين إلى إعمال الرؤية النقدية فى المفاهيم والمحددات السائدة، والتى كثيرا ما تتأثر بالتمركز حول الذات والانحياز الثقافى.

"إن أحد اهتمامات اليونسكو الرئيسية كجهاز مسئول عن نمو العلوم الاجتماعية على الصعيد العالمى، هو ما إذا كان من الممكن أن تمثل المحلية أداة للإثراء وخطوة نحو العالمية بفضل إسهام مختلف الدوائر الثقافية والاجتماعية السياسية، بدلا من أن تكون مجرد انشقاق فى العلوم الاجتماعية، إلى عدة مدارس يصعب التوفيق بينها".

وتتضمن الوثيقة تعريفا موسعا لاقترابات المشروع على النحو التالى:

"وفى مجال انتقاء البلدان والمؤسسات الدولية والإقليمية المشاركة فى المشروع، فإن ثمة اقتراب بينهما صحيح وقابل للتنفيذ، هما المعيار الجغرافى، ثم معيار المضامين. ذلك أن هناك بالفعل العديد من مدارس العلوم الاجتماعية فى شتى المناطق الجغرافية، كما أن هذه المدارس تختلف فيما بينها على صعيد المنهاجية المطبقة فى البحث العلمى".

"وهنا فإن كل من المعيارين مكمل للآخر ويسهم فى محاولة تجاوز الرؤية المحلية والضيقة لمحددات ومفاهيم العلوم الاجتماعية".

"لذا فإنه يتعين أن يأتى على رأس الأولويات، ضرورة تنمية أطر منهجية متميزة ومفاهيم ومحددات تكشف عن اتجاهات الفكر الاجتماعى المرتبطة بالقيم

المحلية وبتمايز الهياكل الاجتماعية والتوجهات الثقافية، وفى هذا الإطار فإنه ينبغى الأخذ فى الاعتبار بكل من التمايزات الجغرافية وتلك التمايزات الفكرية والمنهاجية".

١ – ٣ – من الطبيعى أن تعكس هذه الاقتباسات الاتجاه السائد فى العلوم الاجتماعية، ثم فى الثقافة بشكل أوسع.. ولا شك أن الممارسين فى مجال العلوم الاجتماعية يعترفون بأن تطلعاتهم لم تقابل بالإهمال على الصعيد الدولى وعلى المستويين الثقافى والمؤسسى، وأن الإطار المرجعى الواسع الذى أعدته اليونسكو قد طرح المشكلة بشكل دقيق، وهى كيفية الربط بين القومى وما فوق القومى، وبين الإقليمى والكلى، وبين الخصوصية والعالمية.. إلا أن الباحثين قد يرون أيضا – وهذا أمر طبيعى – أن ثمة تساؤلات عديدة كان ينبغى أن تطرح حول التمايزات النظرية والمنهاجية والتحليلية.. وقد يرى البعض الآخر، أن ثمة مبالغة فى طرح هذه القضية التى تخص مناطق معينة.. ومن هنا كان المشروع البحثى الذى نقدمه، بشكل موجز، لتنفيذ مشروع اليونسكو.

١ – ٤ – ونؤكد بداية على أن الطبيعة المركبة والدائرة لهذه المقترحات تستلهم مضمون وإطار "المخطط التوجيهى"، كما أنها تتفق ونتائجه المتوخاة، وهى بالتالى مرحلة أولى فى الجهود المشتركة وعليه:

(أ) نؤكد بداية على أن هدفنا المشترك هو كما واضح: السعى من أجل عالمية حقيقية للإطار المفاهيمى للعلوم الاجتماعية مواكبة وإثراءا للاتجاهات العامة السائدة. ومن ثم فإننا ننظر إلى تحقيق عالمية الإطار النظرى للعلوم الاجتماعية، كعملية شاملة تخل فى اعتبارها عددا كبيرا من المتغيرات، وليست كحقيقة قائمة لا تدع المجال مفتوحا أمام أية تساؤلات مستقبلية.

(ب) سوف يتم تعريف الخصوصية فى مختلف أبعادها الإقليمية والقومية والحضارية والثقافية إلى آخره.. وهنا فإن هناك عدة فلسفات وأيديولوجيات ونظريات ومناهج تعبر عن هذه المتغيرات وتؤثر فى استخدامها وتوجيهها.

(ج) من ثم فإن المشاركين فى المشروع، سوف يمكنهم بالطبع، الاختيار بين أكبر قدر من البدائل المتنوعة، الأمر الذى من شأنه إثراء المساعى المشتركة.

٢ – السياق التاريخى للقضية

١ – إن جدلية العلاقات بين العالمية والخصوصية وبين الكلية والإقليمية، تواكب مرحلة جديدة ومعقدة من مراحل التطور التاريخى لمجتمعات هذا العالم.

٢ – ١ – ويمكن رصد أبرز الملامح الجديدة للوضع العالمى متمثلة فى نهوض آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، انتقالا من الاستقلال الشكلى إلى مشروعات النهضة الثقافية والحضارية. إن النصف الثانى من القرن العشرين قد شهد العديد من عمليات التغير، إلى حد أن معظم المراكز الدولية والقومية الكبرى قد اتجهت إلى تحليل العمليات المرتبطة بالوضع العالمى الجديد واستشراف مستقبله، ذلك الوضع الذى كثيرا ما يطلق عليه فى الوثائق الرسمية للأمم المتحدة النظام الاقتصادى العالمى الجديد".

٢ – ٢ – ومواكبة لهذا التحول السياسى الاجتماعى الجديد، يمكن رصد أن العلوم الاجتماعية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية والعالم العربى، تتجه بشكل متزايد نحو إثبات الذات. وليس هناك أى نقص فى المواد المرتبطة بتطور العلوم الاجتماعية فى هذه المناطق، حتى وإن كان بعضها لا يأخذ بشكل الأبحاث والتقارير العلمية، وإنما يظهر فى شكل وثائق سياسية رسمية، تشريعية وتنفيذية، كما يظهر فى وسائل الإعلام والمناقشات العلمية والفكرية والسياسية، الدائرة فى الجامعات والمراكز الثقافية والبحثية فى هذه القارات.

وتتمثل أهم القضايا فيما يلى:

(أ) هناك إحساس بأهمية الحاجة إلى تكوين مراكز كبرى للإبداع الثقافى / العلمى والفكرى على السواء. حيث ترتبط العلوم الاجتماعية فى هذه القارات ارتباطا مباشرا بالاستقلال الوطنى ومتطلبات التنمية الاقتصادية والاجتماعية.. ومن ثم فإن التحدى الذى تواجهه النخب القومية والسياسية والثقافية / العلمية يتمثل فى

وضع أسس خاصة للنشاط العلمى، ارتباطا بالتقدم الاجتماعى. ويستتبع ذلك بالضرورة أن يعتمد بلوغ هذه الأهداف على شبكة واسعة من التوجهات القومية أو القومية / الثقافية والإقليمية. وهذا هو الدافع الرئيسى للاتجاه نحو السياسات القومية / الثقافية التى كثيرا ما تقترن فى العديد من المناطق بالتوجه الإقليمى.

(ب) وفى مرحلة أولى يتم التركيز على الإطار المؤسسى متمثلا فى الجامعات والأقسام والمعاهد المتخصصة، ومراكز الأبحاث وقوائم المراجع والدوريات والمكتبات إلى آخره.. ويمثل تراكم المادة البحثية وطرح ما توصلت إليه مختلف العلوم الاجتماعية، المرحلة التمهيدية الأولى فى عملية البناء القومى والإقليمى.

(ج) أما المرحلة الثانية وترتبط مباشرة بالمشروع البحثى لهذه الهياكل، فتتمثل فى تحديد الأولويات العلمية إما وفقا للموضوعات أو للمناطق، وذلك على ضوء المشكلات التى تواجهها المجتمعات القومية والتجمعات الإقليمية. وهناك محاولة لطرح وحل هذه المشكلات اعتمادا على المناهج والنظريات والأدوات العلمية الواردة من المجتمعات الصناعية المتقدمة. على أن الاهتمام ينصب أساسا على المشكلات الخاصة بمجتمعات محددة. ومن ثم فإن الاتجاه نحو الاقتراب القومى والإقليمى، يكون مرتبطا ارتباطا عضويا بالسعى من أجل الاستقلال القومى والتوحد والتجمع الاجتماعى / الثقافى الإقليمى، كأكثر العوامل حيوية فى وضع عالمى متميز.

(د) ويفضى ذلك إلى مرحلة ثالثة أكثر تعقيدا بدأت تتضح معالمها. وتتعامل أساسا مع مضمون المفاهيم والنظريات والمناهج والاكتشافات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية، خاصة تلك الصادرة عن كبرى المراكز فى أوروبا وأمريكا الشمالية. حيث تبرز هنا الحاجة إلى عملية تكوين وتنمية مناهج ومؤسسات للإبداع العلمى والفكرى، تجمع بين الباحثين المنتمين إلى هذه المناطق. وثمة إحساس فى هذه المرحلة بأن هناك العديد من الموارد التى ينبغى اختبارها والاستفادة منها، كتلك المستمدة من التقاليد ومن القوالب التاريخية للحضارات

والثقافات والقوميات والنماذج الخاصة لضمان الثبوت والتحول المجتمعي. ولا ينظر إلى هذه العملية باعتبارها مهمة الجماعة العلمية أو الباحثين في العلوم الاجتماعية فحسب، ولكنها تتم بمشاركة قطاعات اجتماعية أوسع، طالما أن التنمية الثقافية والعلمية ينظر إليها كجزء عضوى من التنمية القومية والإقليمية.

ويمكن إذن، أن نصف هذه الحركة بأنها عملية مركبة تشارك فيها العديد من القوى بدءا من تشكيل المؤسسات ثم هيكلة العناصر الجديدة ووضع أطر للإبداع العلمي والثقافي، وبكلمة واحدة، فهو الانتقال من ما قبل العالمية، إلى عالمية حقة للعلوم الاجتماعية عبر المرور بالتمايز والإبداع القومي والإقليمي.

٢ – ٣ – هناك عدد متزايد من مراكز البحث الاجتماعي في أوروبا وشمال أمريكا، التي شرعت في الاستجابة لتغير الأوضاع العالمية، ومدى تعقدها ومدى ملائمة أطروحات العلوم الاجتماعية، فشرعت في طرح التساؤلات حول الحدود العلمية للإطار النظرى للعلم الاجتماعي.

(أ) وتركز الرؤية المحافظة على ضرورة التمسك بما سبق، أى أنها ترفض التسليم بوجود أزمة في مفاهيم علوم الإنسان والمجتمع، وتفسر المشكلات في هذا الصدد على أنها مجرد نتيجة "للتعصب" و "الإقليمية العاجزة".

وافتراضها الأساسي، هو أن علماء – ما يسمى بالهوامش – لم يتمكنوا بعد من الإلمام بمقتضيات البناء النظرى في عالمنا المعاصر.

(ب) وقد ساد هذا الاتجاه في منتصف الأربعينيات، التي شهدت إحياء للفلسفة الوضعية الجديدة ممثلا في البنائية في مجال الفلسفة والفكر الاجتماعي، والوظيفية في مجال العلوم الاجتماعية التطبيقية، والتي جلبت معها ترسانة من الإمكانيات الجديدة لتدعيم النمط الثقافي السائد. والعنصر الأساسي في هذا الصدد هو الاختزال بحيث أن ما كان صالحا بالنسبة للمجتمعات الصناعية المتقدمة، يظل صالحا للبلدان النامية، وافتراض العالمية في هذا الصدد يعني أن كافة الوحدات الاجتماعية المتخلفة والتكوينات الاجتماعية، ما عليها إلا أن تتبع

خطى المجتمعات الصناعية المتقدمة. وهذا الاقتراب الذى ما يزال مهيمنا، قد يسلم بوجود التمايز ولكنه لا يعترف بوجود مشكلة فى البناء النظرى أو بين منظرى العلوم الاجتماعية، ويرى أن التمايز يمكن تجاوزه من خلال الفعل الاجتماعى، دون أن يعنى ذلك أى مساس بالإطار المفاهيمى للعلوم الاجتماعية.

٣ – من الخصوصية القومية والإقليمية إلى العالمية.

يتمثل التحدى إذن فى الربط بين قطبى العالمية والإقليمية. وعلى الرغم من أن هناك إجماع وتمسك بين أعضاء الجماعة العلمية للعلوم الاجتماعية حول قضية العالمية، فإنه يبقى التركيز على البعد القومى والإقليمى، الذى يتعين فحصه، باعتباره السبيل الوحيد نحو الوصول إلى عالمية العلوم الاجتماعية فى عالمنا المعاصر. إن سلسلة العمليات التى يشتمل عليها مفهوم "الإقليمية كطريق نحو العالمية" يمكن فهمها بأساليب عديدة، بل ومتناقضة، يتوافق كل منها مع غايات وأهداف قد تتكامل مع بعضها، وقد تختلف.

٣ – ١ – وفى بداية تعرضنا لبعض التحليلات الصادرة عن الجهات المعنية بإقليمية العلوم الاجتماعية، ومنها سمنار "العلوم الاجتماعية كنظام فوق قومى" (بلاچيو. إيطاليا مركز مؤسسة روكفلر ١٦ – ٢١ يوليو ١٩٧٣) نجد أن هناك العديد من الاختلافات، حيث تتمثل الفكرة المحددة فى تقرير السمنار فيما يلى:

"لقد أدت الحركات التاريخية إلى غياب التوازن عن العلوم الاجتماعية فوق القومية، متمثلا فى علاقات التبعية التى تربط علماء الاجتماع فى الدول النامية، بالعلماء فى الدول المتقدمة". ويسرد التقرير الملامح الأساسية للأزمة محل البحث.

"ترجع علاقات التبعية إلى النظريات والمناهج المهيمنة السائدة فى البلدان المتقدمة والتى تستخدم كمرجع عالمى للبحث والتدريس، وإلى تركز إمكانيات البحث العلمى المتقدمة والنشر والكشف عن نتائج الأبحاث العلمية وتركز كبرى المراكز الأكاديمية فى أوروبا والولايات المتحدة، والتى كثيرا ما تجذب إليها الصف الأول من الباحثين فى العلوم الاجتماعية من شتى أنحاء العالم". ثم ينتقل

التقرير بعد ذلك إلى جوهر الأزمة "إن نتيجة انعدام التوازن والتبعية، تذهب إلى ما هو أبعد من مجرد عدم التكافؤ فى توزيع إمكانيات البحث والتدريس. حيث تتمثل أخطر سماتها فى استمرار سيطرة النظريات والمناهج المرتبطة بالتقاليد الثقافية والتجارب التاريخية الخاصة بالغرب وحده، والتى لا تشكل نسقا واحدا، كما إنها ليست بمنأى عن النقد. وهى تقوم على عدة تصورات فلسفية، كما أنها لا تقدم تفسيرات مؤكدة حول القواعد الأساسية للسلوك البشرى والأبنية الاجتماعية.

ويصدق هذا على كافة الاتجاهات الماركسية، وتلك المسماة بالماركسية الجديدة، و المضادة للماركسية والسلوكية والتاريخية والبنائية والوظيفية. حيث تتصف هذه الاتجاهات بقدر عال من الأمبريقية وتميل إلى معالجة الأنظمة الاجتماعية بوصفها وحدات قائمة بذاتها. والأهم من ذلك هو أن هذه النظريات تختص بمشكلات المجتمعات الصناعية، ويرى الكثير من مثقفى الدول النامية، أنها ليست مجرد أدوات للتقدم العلمى فحسب، ولكنها أدوات للسلطة السياسية تعمل على ترسيخ البنية الحالية للعلاقات الدولية". وبكلمة واحدة – وحتى لو اعترض البعض على وصف الفلسفات الاجتماعية الغالبة – السلوكية / الوظيفية – فإن التبعية السياسية – الناتجة عن الهيمنة السياسية – تؤدى مباشرة إلى التبعية العلمية الفكرية".

٣ – ٢ – ويستهدف هذا المشروع جمع وجهات نظر الباحثين والمؤسسات والهيئات الإقليمية، حول مفاهيم ومستويات الإقليمية.

٣ – ٢ – ١ – ويمكن أن نبدأ بطرح أكثر المعانى شيوعا ووضوحا وهو النظر إلى الإقليمية كنتاج لانقسام العالم إلى مناطق جغرافية، وبحيث ينقسم تحليلنا لقضية عالمية العلوم الاجتماعية إلى المناطق التالية: أفريقيا – أمريكا الشمالية – أمريكا اللاتينية – العالم العربى – آسيا – الاقيانوسية. ثم يأتى بعد ذلك التعرف على الوحدات الفرعية أو المناطق كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية إلى آخره أو القطاع الأنجلو / ساكسونى واللاتينى، الوحدات الفرعية الأوروبية والآسيوية كالصينية واليابانية وشبه القارة الهندية. ومثل هذا التصور الجغرافى، له

جدارة على الصعيد الكمي أى حساب الموارد البشرية والمؤسسية وحجم ونسبة الباحثين وكم المطبوعات والمشروعات والأنشطة العلمية ومخصصاتها المالية وما إلى ذلك.

ويستتبع هذا، النظر إلى الإقليمية بوصفها عملية خلق الظروف الملائمة لتحقيق زيادة كمية النشاط الفكرى، فى المناطق التى تعانى نقصا، وصولا إلى الحد المطلوب من الموارد المخصصة للعلوم الاجتماعية، ومن السهل إيجاد مواضع القصور فى هذا الاقتراب. إلا أن التساؤل لا يزال قائما: فهل بإمكاننا تجاهل الحاجة إلى البنية التحتية العلمية الملائمة؟ وكيف يمكن إذن أن نعمل على توفير أسس بديلة لتطوير العلوم الاجتماعية فى مختلف مناطق العالم؟

على أن التساؤل الأخطر هو: هل يعنى توفير البنية الأساسية للعلوم الاجتماعية، ضمان الاتجاه نحو تحقيق العالمية المنشودة؟ وألا تعنى العالمية فى هذه الحالة مجرد نشر الاكتشافات والنظريات الجاهزة، من المجتمعات الصناعية المتقدمة إلى العالم النامى فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية؟

أو ليس من الأجدى أن ننظر إلى التقسيم الجغرافى باعتباره أداة لرصد البنية الأساسية للنشاط العلمى، وهو الشرط الضرورى للوصول إلى الهدف؟.

٣ – ٢ – ٢ – ثمة اقتراب ثان يؤسس الإقليمية على الأساس الأيديولوچى. وعلى ضوء هذا الاقتراب، تتضح ثلاثة أقسام هى المجتمعات الصناعية ذات النموذج الرأسمالى (الليبرالية – رأسمالية الدولة – الاحتكارية – الاستعمارية الإمبريالية..) أو ما يسمى بالعالم الأول، والمجتمعات الصناعية ذات النموذج الإشتراكى فى أوروبا أو العالم الثانى، ثم الدول المتخلفة و النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، والمسماة بالعالم الثالث، أخذا فى الاعتبار بانقسام العالم الثالث إلى ثلاثة قطاعات (انظر ١٠٥).

ونقطة الضعف الأساسية فى هذا الاقتراب هو أن هناك درجة عالية من التماثل الأيديولوچى بين المجتمعات الصناعية الأوربية والأمريكية، أعلى بكثير من

تلك القائمة بين المجتمعات الاشتراكية فى كل من شرق أوروبا وآسيا كما أن ما يسمى بالعالم الثالث يضم شتى التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية فضلا عن التمايز العميق فى القوالب الحضارية والثقافية. على أن لهذا الاقتراب تأثيرا قويا على العلوم الاجتماعية المعاصرة. فقد أصبح للأيديولوجيات السياسية والتصورات الفلسفية والمعتقدات الدينية تأثير حاسم على صياغة وتحول العلوم الاجتماعية. فقد واكبت "نهاية الأيديولوجيات" التى تدعمها الاتجاهات الوضعية الجديد، نهاية "موت الفلسفة" الذى تنبأت به النظريات الاشتراكية فى القرن التاسع عشر، حيث تشهد الفترة الحالية بعثا للأديان، بما فى ذلك أكثر شعبوية ومسيانية. فهل يعنى ذلك أن العوامل التى طال إهمالها، قد أخذت فى الاتساع، حتى أنها امتدت إلى كافة مظاهر المجتمعات، لم يعد من الممكن تجاهل الأبعاد المتعلقة بالبنية الفوقية للثبوت والتحول الاجتماعى. فهل يمكن تفسير ذلك على ضوء حركة الأحياء الموازية فى المجتمعات التقليدية فى أمم آسيا وأفريقيا والعالم العربى وأمريكا اللاتينية – أى فى المجتمعات "الطرفية" المهمشة؟ وبعبارة أخرى فهل هناك ارتباط بين بروز البعد القومى / الثقافى وبين الاعتراف بالبعد الأيديولوجى والفلسفى للعلوم الاجتماعية؟

هناك عدد من القيود على هذا التحليل. إلا أنه يمكن ملاحظة أن هناك درجة عالية من التماثل بين مختلف التيارات الفلسفية الأيديولوجية – على الأقل الاشتراكى والرأسمالى. أما عما يسمى بالعالم الثالث، فهو يطرح سؤال مهم وهو ما إذا كان من الممكن تعريف أيديولوجية موحدة إن وجدت؟ يمكن تعريفها على أنها أيديولوجية قومية أو بمعنى أدق ذات نزوع قومى. ثم تنقسم بعد ذلك إلى أشكال عدة قومية راديكالية، أو تقليدية، أو إصلاحية، أو شعبوية أو تقدمية. إلى آخره.. وموطن المشكلة، بالنسبة لكافة المناطق، أن مثل هذا التقسيم قد يدفع إلى تبسيط مخل، وهو ما يطرح مرة أخرى مخاطر الاختزال.. فهل يمكن أن يصبح الاقتراب الأيديولوجى هو طريقنا للانتقال من الإقليمية إلى العالمية فى مجال العلوم الاجتماعية؟

٣ – ٢ – ٣ – بعد استعراض كل من الاقتراب الجغرافى الأيديولوجى، لا يبقى إلا الأخذ بالإطار الأوسع، وهو الاقتراب القائم على الحضارات والثقافات.

وهو لا يقتصر على الموقع الجغرافى، بل يتعرض للتكــون التــاريخى للأفكــار والنظريات؛ فاستراليا ونيوزيلاندا شركاء فى التكوين التاريخى الثقافى لأوروبا فى أمريكا الشمالية، أكثر من الإقيانوسية وشرق وجنوب شرق آسيا. وسوف نتعــرض لذلك بالتفصيل فى فقرة تالية (انظر الفقرة ٥). إلا إنه من المهم أن نقــرر الآن — وطالما أن اهتمامنا ينصب على المضامين الخاصة بالمعرفة العلميــة للمجتمعــات وليس على الموقع والبنية الأساسية فحسب، أن التساؤل يدور حتما حــول جــذور وتطور وتحول تلك المضامين والعلاقات القائمة فيما بينها.

كيف يمكن بناء على ما سبق أن نقيم هذه الاقترابات من مسألة الانتقــال مــن الإقليمية إلى العالمية، وكيف يمكن أن نربط بينها؟

٣ – ٣ – يجب أولا أن نقدم اعتبارين أساسيين:

٣ – ٣ – ١ – نود بداية أن نقدم طرحا واضحا وعمليا للمشــكلة وماهيتهــا، وما هى القطاعات التى دفعت التساؤلات حولها وتطلعاتها إلى طرح القضية محــل البحث، إن الإجابة واضحة فى صياغة السؤال.. إن المطلب صــادر عــن آســيا وأفريقيا والعالم العربى وأمريكا اللاتينية، ارتباطا بجذور هذه المناطق على الساحة وتكوين بنية أساسية قومية للعلوم الاجتماعية فيها، ففــى هــذه المنــاطق، يســود الإحساس بغياب الملاءمة سواء على صعيد المفاهيم أو على صعيد تطبيقات العلوم الاجتماعية، كما تعكس بوضوح ذلك العديد من الوثائق، التى تعرضنا لأحدها فــى البداية.

فالأمر لا يتعلق أنه بكافة المناطق، وإنما بآســيا وأفريقيــا والعــالم العربــى وأمريكا اللاتينية أساسا. كما أنه لا يتعلق بكافة الأيديولوچيات وإنما بتلك المعنيــة بالتغير الاجتماعى الاقتصادى والسياسى الراديكالى. كما أن الأمر لا يتعلق بكافــة المناطق الحضارية والثقافية، وإنما بتلك القائمة فى إطار ما يسمى بالهامش، والتى تتطابق إلى درجة كبيرة مع منطقة الشرق كتكوين تاريخى، (وكمــا يعبــر عنهــا مشروع الشرق / الغرب لليونسكو).

٣ – ٣ – ٢ – تتعلق المشكلة محل البحث بـالتكون التـاريخي الاجتمـاعي للأفكار في إطار سياقها الحضاري / الثقافي الخاص، وهو ما يمكن تعريفه أيضـا بعلم الاجتماع التاريخي للثقافة والمعرفة. إن التكون التاريخي للأفكـار والمفـاهيم المتعلقة بالمعرفة الاجتماعية لمختلف المجتمعات والتكوينـات الاجتماعيـة هـي المنطلق الأساسي لهذا المشروع. ومثل هذا الاقتراب النقـدي / التـاريخي أكثـر جدوى في دراسة التطور المقارن للإطارات النظرية للعلوم الاجتماعية، مـن كـل من الاقتراب المثالي – الأنماط المثالية – والاقترابات الوظيفية التي تحمل مخاطر الاختزال والتبسيط.

وهنا فإنه من الملائم أن نشدد على الطبيعة العلمية والنظرية لهذا المشـروع، من حيث إنه يدور حول طرق تكوين مختلف مفاهيم ومحددات العلوم الاجتماعيـة وليس حول مختلف العمليات المعرفية في ذاتها، وهو الأمر الذي يدخل في إطـار الإبستمولوجيا النقدية المقارنة.

ويبقى أن نتعرض لطائفة من الآراء حول الموضوع، وهي وإن كانت محدودة إلا أنها تشكل نموذجا معبرا عن شتى الآراء التي نأمل أن تكون بمثابة مؤشر مفيد في هذه المرحلة التمهيدية من المشروع.

٤ – عرض للآراء التمهيدية

استتبعت المرحلة التمهيدية للمشروع بعض الآراء العامة المشـتركة، فضـلا عن عدد من وجهات النظر المتميزة.

٤ – ١ – وقد أكدت طائفة أولى من الآراء على التوجه العالمي للمشروع.

٤ – ١ – ١ – وشدد أحد الآراء على الربط بين التفاؤل بنجـاح المشـروع، ومقتضيات التعايش السلمي.

أما عن التعدد في المنطلقات والمدارس الفكرية، فقد نظر إليـه مـن زاويـة المناطق الجغرافية أولا، ثم من زاوية الأيديولوجيات، وأخيرا من منظور الوحدات القومية الثقافية. واعتبر أن هذا التعدد يؤدي إلى طرح إيجابي للمشروع فـي ذاتـه وإلى تمكن اليونسكو من تحقيق أهدافه.

"إن وجود عدة مدارس للعلوم الاجتماعية، يصعب التوفيق بينها وإن تنعكس من خلالها وجهات النظر الثقافية والسياسية، وأن تلعب الأبعاد الإقليمية دورا هاما فى صياغة هذه المدارس، كل هذا يعبر عن تعدد المشكلات التى يواجهها العالم، بالنظر إلى تنمية المجتمع البشرى. ومن العبث أن نتجاهل هذه الحقائق التى تشير إلى التعددية حتى وإن كان الهدف هو تحقيق وحدة العلم على المستوى العالمى".

ومن ثم فإننا نرى إنه من الضرورى – خاصة فى مجال العلوم الاجتماعية – أن نستخلص من وثيقة اليونسكو، المفاهيم التى تسمح بتركيز البحث حول نقاط محددة (...) ومثل هذا الاقتراب هو وحده الذى يسمح بتحقيق تعاون حقيقى بين مختلف العلماء المنتمين إلى شتى المدارس الفكرية فى كافة المناطق، وألا تحول الاختلافات المنهاجية والنظرية والخصوصيات القومية والثقافية فى مفهوم العلوم الاجتماعية دون التعاون الفعال، وذلك على ضوء المبادئ التى تضمنتها الوثيقة التأسيسية للمنظمة. إن وضع قائمة الأولويات التى تسمح بصياغة أطر ومفاهيم ومحددات العلوم الاجتماعية، يجب أن يتم على أساس تفكير عميق فى جوهر الموضوع، ودون أى جنوح نحو الشكلية".

وتعكس إجابة أخرى ذات الرأى:

"مع إيماننا بأهمية هذه الدراسة فى تقدم العلوم الاجتماعية، فإننا نود أن تشمل المناقشات عددا كبيرا من باحثى العلوم الاجتماعية، سواء فى المرحلة التمهيدية أو أثناء تنفيذ المشروع.

٤ – ٢ وقد أكدت طائفة أخرى من الآراء على ضرورة المضى فى المشروع، مع إبراز عدد من المشكلات:

(أ) أرى أن المشروع سوف يكون له أهمية بالغة إذا تم تناوله بعمق وموضوعية، بعيدا عن "الأساليب الدبلوماسية".

وإذا ما تم تنفيذ البحث بواسطة طائفة من علماء الصف الأول، الذين يتميزون باستقلالية حقيقية، فسوف أكون من أشد المؤيدين له، وإلا فلا".

(ب) إن مفهوم العالمية من المفاهيم التى يجب أن تناقش من حيث واقعها الحـالى، وما إذا كان ممكنا ومرغوبا كهدف.. على أنـه لـدى تحفظـات قويـة علـى المشروع، إذ يبدو أن به تعقيدات كثيرة وإنـه لـيس بمنـأى عـن الخلافـات الأيديولوجية. وإذا كان المشروع يسعى إلى المصداقية، فمن الضرورى أن يتم الكشف صراحة عن هذه الخلافات".

(ج) إن المجالات الأكاديمية التى تغطيهـا عنـاوين الاجتمـاع وعلـم الاجتمـاع الأنثروبولوجى، وغيرها، تنقسم إلى "نظرية عامة" ثم "تطبيقات عملية" وأعتقـد أن أجهزة مثل اليونسكو، تكون معنية بهذا القسم الأخير، إن تقنيات واهتمامـات الباحثين المدربين فى المملكة المتحدة أو الولايات المتحدة، ودراساتهم العمليـة (...) ليست لها أية صلة واضحة بالمشكلات الاجتماعية التى تسعى بلدان العالم الثالث لبحثها. من المؤكد أن كافة الأكاديميين فى مجال العلـوم الاجتماعيـة، يطرحون نفس القضايا على المستوى النظرى المجـرد، وأن ثمـة ضـرورة لاستخدام ذات المفاهيم لكى يصبح الاتصال الدولى ممكنا. ولكن هل هم بحاجة لتوصيات اليونسكو بهذا الشأن؟

(د) إن وصف برنامج اليونسكو (المشروع الفقرة ٣-١١٢-١) للقضية يثير عـدة مشكلات مختلفة الطابع. كما أننى لا أثق، إلى أى مدى يمكـن الحـديث عـن "جماعة دولية" واحدة للعلوم الاجتماعية، ولكن أظن أن ما يـدور فـى ذهـن اليونسكو هو قضية محددة، هى العلاقة بين النزعة العالمية وإقليمية الجـذور. وما يثير قلقى فى هذا المشروع هو (أ) ما إذا كان قد تم تعريف خصوصية هذه المشكلة بشكل منفصل عن مشكلات أخرى لصيغة قد تطرأ خلال المناقشة (ب) ما إذا كانت أساليب البحث المستخدمة فى المشروع ملائمـة أو إن كانـت قـد حددت أصلا و(كل ما قيل فى هذا الصدد هو مجرد الإشارة إلى "الجهود مـن أجل جمع وتحليل وجهات النظر الرئيسية)..

(هـ) ماذا عن مضمون وأساليب التحليل؟ وعلى سبيل المثال، كيـف يـتم تقيـيم وجهات النظر، بغرض التعرف عليها؟ وعلى أى أساس يتم قبـول بعضـها أو رفض البعض الآخر؟"

٤ – ٣ – كما طرحت بعض المقترحات والتعليقات حول تعيين مجموعة واضحة من القضايا، التى تتصل بالمقترحات النظرية وببعض جوانب العلوم الاجتماعية التطبيقية.

(أ) إن المشكلة التى أشرتم إليها واضحة بلا شك فى مجال العلوم الاجتماعية. بل إن "الإقليمية تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، فهى لا تتعلق فقط بالتمايز الإقليمى فى مجال العلوم الاجتماعية، ولكنها تمتد إلى الأقليات فى مختلف المناطق. ومع ظهور العديد من الحركات الاستقلالية، يتضح أن العلوم الاجتماعية تصبح أداة فى خدمة طرف ما. ويواكب ذلك نقد مرير لما يسمى "بالعلم الرسمى" ومحاولة تطوير مفاهيم بديلة لا يشوبها الانحياز المسبق ضد بعض الفئات كالعمال والمرأة إلى آخره. إن ما نتطلع إليه هو علم وثيق الصلة بالمشكلات التى تعانيها الجماعات وأن تكون العلوم أكثر انتباها لما هو مميز لكل جماعة بشرية وأكثر ارتباطا "بالتعريف الذى تقدمه الجماعات بذاتها عن أوضاعها".

"وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى الأهمية الفائقة لتيارات العلوم الاجتماعية المعنية بالتأكيد على القدرات الإبداعية للإنسان والتجدد الثقافى، ومنها على سبيل المثال وليس الحصر علم الاجتماع القائم على مشاركة الجماعات فى التفكير، والإثنوغرافية المنهاجية، والرومانسية الجديدة فى مدرسة فرانكفورت والاهتمام المتجدد بالتفاعلات الرمزية. ونحن نرى أن مثل هذه الاتجاهات البديلة يمكن أن تشكل إلى حد كبير، خطوة فى اتجاه العالمية، شريطة توفر بعض الشروط. إن المناقشة الدائرة حاليا حول أطر العلوم الاجتماعية يمكن أن تؤدى إلى تهميش بعض هذه الأطر ورفض الحوار حول تطور العلوم الاجتماعية، مع من يؤمنون بمعتقدات مغايرة".

(ب) لست مقتنعا تماما أن مثل هذا البحث المقترح فى المشروع (٣-١١٢-١) هو أفضل الوسائل لبلوغ الهدف. وأرى أن البحث يجب أن ينصب فى أحد جوانبه على كيفية استخدام بعض التصنيفات (العرق، الذكاء، المرض العقلى) فى مختلف البلدان والمؤسسات، ومثل هذا لا يمكن التوصل إليه بمجرد جمع وجهات النظر".

(ج) مقترحات لإجراء دراسات حول الجوانب الاجتماعية والفكرية والثقافية لتأكيد السلام والأمن العالميين (..) وتلك المرتبطة بتصفية الاستعمار والعنصرية والفصل العنصرى والاستعمار الجديد (..) دور المؤسسات فوق القومية فى الحياة الدولية (..) وأثرها السلبى على التعليم والثقافة والاتصال. دراسات حول التأثيرات الاجتماعية والثقافية للتقدم العلمى والتقنى، ودراسات حول عدد من مشكلات التنمية الاجتماعية الاقتصادية فى البلدان التى خضعت للاستعمار فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية (...)".

(د) "ما هو مقترح هو أن يتم تنفيذ المشروع إما على أساس جغرافى أو على أساس "نظرى منهجى". وأرى من جانبى أنه من الضرورى تعيين قضية أو قضيتين من كبرى القضايا محل المناقشة فى كافة البلدان، وبحث مساهمة العلوم الاجتماعية فى كل منها.. وهذه العلوم تتأثر كثيرا بالسياسات العامة ودور الحكومة.

فالبطالة والتضخم ووضع العمالة الأجنبية المهاجرة، كل هذه القضايا تتم مناقشتها فى العديد من البلدان، وتسهم فيها العلوم الاجتماعية بدرجات متفاوتة.

٤ – ٤ – وهناك طائفة موازية من المقترحات التى تتعلق مباشرة بكيفية تنظيم الأنشطة العلمية:

(أ) ما هو المقصود على سبيل المثال بـ "تنمية إطار خاص للعلوم الاجتماعية ومفاهيم ومحددات إلى آخره؟ هل الهدف هو صياغة مخطط يصلح كإطار للمناقشة حول العلاقات بين مختلف المنهاجيات والممارسات والسمات والمشكلات الخاصة بمناقشة المناطق؟ هل الهدف هو الجمع بين ممثلى مختلف المدارس والمناطق للعمل معا، أم إن المشروع يندرج فى إطار علم اجتماع المعرفة؟ فى هذه الحالة كان من الأجدر أن يبادر بدعوة المتخصصين فى هذا المجال (..) وبالنظر إلى طبيعة المشروع، فإن عقد ندوة دولية استطلاعية يبدو فكرة جيدة. ولا يشترط أن يكون المشاركين فيها من المنتمين إلى مدارس

محددة، لكن المعيار هو مدى اهتمامهم بهذه القضايا وانعكاس هذا الاهتمام فى كتاباتهم".

(ب) طالما أن اليونسكو مناط بمثل هذا المشروع، فمن الضرورى إتمامه. وحول هذا الافتراض، أشير إلى أن المهمة الأولى لمثل هذه المجموعة هى تعيين المفاهيم والمحددات (أيا كان المقصود بالمحددات) محل الجدل والخلاف، وإدراجها فى قائمة، على أن يكون الهدف حول إبراز المشكلات والجوانب الخلافية وليس البحث عن حلول فورية".

(جـ) وتؤكد إحدى الأوراق الجماعية على الاقتراب القائم على علم اجتماع المعرفة، نورد منها على سبيل المثال:

"إن الوحدة الأساسية للتفكير" هى المفهوم وليس الكلمة (..) ويمكن كسر الحواجز بين المفاهيم، توضيح العلاقات القائمة فيما بينها (...) باستخدام لغة تتفق والمنطق الأساسى للعلم".

٤ – ٥ – لقد أشار استخدام بعض الألفاظ قدرا من عدم الوضوح، كالتضاد بين ما يسمى بالإقليمية والعالمية، والموازاة بين العلوم الفيزيائية والبيولوچية من جانب، والعلوم الإنسانية والاجتماعية من جانب آخر.

(أ) فى حالة العلوم الفيزيائية والبيولوچية، فإن القانون الطبيعى الواحد يصدق على كافة الحالات. أما فى العلوم الاجتماعية، وباستثناء الألسنية، فإن ذلك لا ينطبق. ولا أعتقد أن ثمة قوانين عامة للعلوم الاجتماعية، وإن حدث ذلك، فلن يتم إلا إذا اتفق الممارسون على جدوى تطبيق مفاهيم واحدة على الصعيد العالمى. لكن أحدا لن يستطيع فرض مجموعة من المفاهيم العالمية على معطيات إمبريقية غير متجانسة. إن المشروع المقترح، لو تم تنفيذه على نحو صحيح، لسوف يكشف أن البشر الذين يعيشون فى ظل أنظمة اجتماعية اقتصادية وسياسية مختلفة، لديهم أفكار مختلفة حول طبيعة ووظيفة العلوم الاجتماعية وإطارها النظرى.

(ب) تكشف إحدى الوثائق عن تلخيص واف لكافة الآراء المؤيدة والمعارضة.

"أود أن أؤكد أولا على أن الإقليمية ليست فى ذاتها هدف نهائى لكنها وسيلة لاستعادة معانى ودلالات غابت عن العالم الثالث، كنتيجة للعلوم الاجتماعية "المستوردة"، أما إذا تحولت إلى هدف، فقد تؤدى إلى "ترقيع" ثقافى يحرم العالم الثالث من التعرف على قيود التبعية الاقتصادية، بل والسياسية أحيانا التى لا تزال تربط ما يسمى بالمركز والهوامش. إن من خصائص وديناميكيات الأنظمة الدولية، أن كافة الأمم والثقافات - بما فى ذلك أكثرها انعزالية - قد بلغت اليوم قدرا من الترابط، بحيث أنه يستحيل تحليلها على ضوء المفاهيم الأصلية وحدها. إن الهدف النهائى يجب أن يتصل فى علم اجتماعى دولى يربط بين verstehen أصيل، وبين تحليل للنظام الدولى وانعكاساته على المستوى القومى. ومثل هذا العلم الاجتماعى متسع بما فيه الكفاية لقبول كل من ما يسمى بالمحددات الجوهرية للإثبات، وما يسمى بالمحددات الوضعية الجديدة القائمة على الفروض والاستنباط والرفض الإمبريقى".

ومثل هذا الربط، يستخدم كلمة الأصالة بالمعنى الحرفى والإثنولوجى. إلا إن علماء الاجتماع والمثقفين فى ما يسمى بالعالم الثالث، يجمعون على أن لفظ السكان "الأصلية" وكل ما يرتبط به من ألفاظ، مشتق مباشرة من التجربة والمصطلحات والمعايير الخلقية الخاصة بالتجربة الاستعمارية (فمن الذى يتحدث عن مؤشرات اجتماعية أمريكية أصيلة، أو عن مفاهيم أخلاقية فرنسية "أصيلة" أو رؤية سويدية أصلية حول أنماط الاقتباس؟) ومن ثم فإنه ينبغى إعادة المصطلح ضمن المصطلحات العلمية المقبولة عالميا، كالذاتية أو أفضل منها القومية والقومية / الثقافية والإقليمية إلى آخره. وهو ما تشير إليه تحديدا عدة وثائق.

٤ - ٦ - وتؤكد إحدى الوثائق الأساسية - وهى الوحيدة الصادرة عن المجتمعات النامية - على المشكلات الواقعية التى يواجهها البحث العلمى الاجتماعى فى هذه المجتمعات:

"بالنظر إلى موضوع تحديد أولويات لتنمية أطر العلوم الاجتماعية والمفاهيم والمحددات إلى آخره فإنه فيما يتعلق ببلدنا، أشير إلى أهمية أن يتبنى القائمون على العلوم الاجتماعية على المستوى القومي، موقف وأسلوب تفكير يعترف للبحث العلمى البحت بأهميته، وبحيث يتجلى ذلك على مستوى المساندة المعنوية والمادية للعاملين فى هذا المجال، والذين يعملون بحكم طبيعة تخصصاتهم فى مجال البحث العلمى البحت. إضافة إلى ذلك، فإنه يتعين إحداث طفرة قوية فى تمويل الدوريات المتميزة فى مجال العلوم الاجتماعية والكتب وسائر المطبوعات، التى يمكن أن توجه لمختلف مستويات الجمهور. وسوف يكون هناك طلبا كبيرا فى السنوات القادمة، على مختلف أنواع المجلات البحثية والمؤلفات، نظرا للارتفاع السريع فى رقم دراسى العلوم الاجتماعية. كما أنه يجب أن يتاح المجال أمام حرية البحث عن مصادر تمويل العلوم الاجتماعية فى البلاد، داخل وخارج الجامعة".

تلك هى أولويات العلوم الاجتماعية، وفق تعريف اليونسكو".

وتميز الوثيقة بين ثلاثة أنماط أساسية للعلوم الاجتماعية:

(١) البحث العلمى الأساسى ومجاله هو تقدم المعرفة.

(٢) البحث التطبيقى والذى يعنى بالتطبيق العملى للمعرفة بحيث تترجم فوريا على صعيد الممارسة

(٣) البحث حول مشكلات محددة والذى يربط بين الأنماط السابقة، بهدف توفير أنواع جديدة من المعلومات وتوضيح البدائل وتعميق الرؤية لكل القضايا الحيوية فى حياة المجتمع" (..)

وقد أثيرت قضية أساسية هى: إلى أى مدى يعكس اهتمام اليونسكو بالبحث الأساسى، حاجات وافتراضات المجتمعات النامية، كما يعبر عنها اتجاه الإقليمية؟ ومن المعروف أن هذا الاتجاه الأخير لا يلفظ العلوم الاجتماعية فى صورتها الغربية، ولكنه يعمل الرؤية النقدية إزاء جنوحها نحو التمركز حول الذات ويبرز انحيازها الثقافى وينتقد نزوعها نحو تفسير يصلح عالميا، دونما أسس حقيقية. ومن

ثم فإن جوهر اهتمام اليونسكو فى مجال البحث الأساسى فى مجال العلم الاجتماعى هو:

(١) التأكد من أن مطالب الدول النامية تتم الاستجابة لها بالكامل.

(٢) وفى نفس الوقت، يتم تشجيع الإقليمية بدلا من انقسام العلوم الاجتماعية إلى مدارس يصعب التوفيق بينها. ويشكل هذا الاقتراب إثراء وخطوة نحو العالمية، بفضل مشاركة مختلف القطاعات الثقافية والاجتماعية السياسية. وربما كانت أكثر النقاط العلمية أهمية، هى تلك المتعلقة بإمكانية إعمال المقارنة على الأصعدة الثقافية والاجتماعية والقومية. والمشكلة الأولى فى هذا الصدد هى قابلية البيانات للمقارنة والتى يمكن تحقيقها من خلال استخدام إطار موحد من المفاهيم والأدوات. إلا أن البلدان تنتمى إلى عدة مستويات للتنمية.

ومن ثم فإن العلاقة بين مجموعة البيانات والسياق الاجتماعى الثقافى والاقتصادى من التميز بحيث أنها تجعل من مقارنة النتائج، وإصدار التوصيات بشأن السياسات أمرا بالغ الصعوبة. لذا فإنه ينبغى أن يكون إطار المقارنة والدول التى يشملها واضحا.

ولضمان أعلى مستوى من المقارنة بين البيانات فإنه ينبغى تبادل الاستشارة بين الباحثين فى عدة مراحل هى تخطيط البحث وصياغته ومدى ظهور النتائج المؤقتة وإعداد التقارير المبدئية".

ومن ثم يكون السؤال المطروح هو: ما هو الإطار الملائم لتحقيق مقارنة مجدية يمكن من خلالها إعادة الهيكلة النقدية والواقعية للإطار النظرى للعلوم الاجتماعية؟

٥ – إطار الرؤية المقارنة

إن نظرة إلى مجال المقارنة، تكشف عن التقسيمات التالية:

(أ) العالم "الأول" أى مجتمعات البلدان الرأسمالية الصناعية فى الغرب.

(ب) العالم "الثانى" أى المجتمعات الصناعية فى البلدان الاشتراكية.

(ج) العالم "الثالث" أى البلدان النامية أو الأقل نموا فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

والواقع أن تبلور التغيرات المرتبطة بتوزيع القوة على الصعيد العالمى فى ١٩٧٢ / ١٩٧٣ قد أفضى إلى إعادة بناء ما يسمى بالعالم الثالث، وذلك على النحو التالى:

(د) العالم "الثالث" بكامل معناه: ويضم مجتمعات غير صناعية تتوافر لديها مصادر الطاقة والبنية التحتية للتنمية.

(هـ) العالم "الرابع": بلدان ليست لديها مصادر طاقة أو بنية تحتية اقتصادية ذات شأن.

(و) العالم "الخامس": بلدان لا تتوافر فيها الطاقة ولا البنية التحتية وهى بشكل رئيسى بلدان صحراوية.

إن ما يسمى بالعالم الثالث، قد ينبثق عنه قطاع أعلى، مركزى الطابع، وهى الفكرة التى يشار إليها ضمنا فى المفهوم الإجرائى المسمى "بالمجتمع ما بعد الصناعى". إن المضى قدما فى مهمتنا العلمية، يقتضى وضع إطار تصبح المقارنة من خلاله وعلى أساسه مجدية وذات دلالة.

٥ – ٢ – والاقتراب الأول من المقارنة، يقضى أولا بوضع تصنيف متماسك للوحدات المجتمعية محل المقارنة، وبمعنى آخر، فينبغى قبل إعمال المقارنة، أن نحدد ما هى الوحدات محل الدراسة.

٥ – ٣ – إن الجهود المكثفة التى بذلت فى مجال وضع إطارات الرؤية المقارنة بدءا من عام ١٩٤٥ وطوال العقود الماضية، قد أدت إلى تعايش عدد من الإطارات التى يمكن الاستفادة منها لتعميق الاتجاه نحو المقارنة. ونود أن نشير هنا بوضوح إلى أنه لم يحدث بعد أى إجماع بين أعضاء الجماعة العلمية حول أفضل

الخيارات. وقد تعرضنا باستفاضة للاقترابات الأساسية الثلاثة (أنظر ٣ – ٢) لـذا فإننا نقدم الاقتراب التالى على سبيل الاقتراح، وكواحد ضمن عدة اقترابات يجـدر الأخذ بها فى الاعتبار.

٥ – ٤ – والاقتراب الذى نقترحه والذى يتبع الملامح التى طرحها كل مـن جوزيف نيدهام وآرنولد توينبى، يتجه أولا إلى تعيين ثلاثة أنمـاط مـن الـدوائر المتداخلة، كإطار للمقارنة.

٥ – ٤ – ١ – الحضارات: وتلك هى أوسع الحلقات ونعتمد هنا على تعريف جوزيف فيدهام.

(أ) دائرة الحضارة الهندية الأوروبية.

(ب) دائرة الحضارة الآسيوية الصينية.

وهو ما يعنى عدم الأخذ فى الاعتبار بأمريكا اللاتينية عند هذا المستوى مـن التحليل، على أن تدرج فى ٥ – ٤ – ٢ – أ.

٥ – ٤ – ٢ – المناطق الثقافية: وهى تلك الحلقة الوسيطة التى كثيرا ما يـتم الخلط بينها وبين حلقة الحضارات، ويمكن تتبع محاولات آرنولد توينبى للتصـنيف فى هذا الصدد. ويمكن بشكل موسع، رصد المناطق الثقافية التالية:

(أ) فى دائرة الحضارة الهندية الأوروبية:

- الحضارات القديمة فى مصر وفارس وبين النهرين.
- الحضارة اليونانية الرومانية القديمة.
- المنطقة الثقافية الأوروبية.
- المنطقة الثقافية لشمال أمريكا.
- الأقسام الأساسية للحضارة الهندية الأوروبية فى أمريكا اللاتينية.
- المنطقة الثقافية جنوب الصحراء الأفريقية.

– المناطق الثقافية الإسلامية جزئيا، أى المناطق العربية الإسلامية والفارسية الثقافية، باستثناء المنطقة الآسيوية الإسلامية المرتبطة بدائرة الحضارة الصينية.

ب – فى دائرة الحضارة الآسيوية الصينية:

– الصين.

– اليابان.

– منغوليا – وسط آسيا.

– ڤيتنام وجنوب شرقى آسيا.

– شبهه القارة الهندية.

– الأقيانوسية (باستثناء استراليا ونيوزيلاندا)

– المنطقة الثقافية الآسيوية الإسلامية (من فارس إلى الفلبين) وننظر إلى هاتين الدائرتين بوصفهما الأساس التاريخى للتميز الأساسى بين المسارات التاريخية بين عالمى الشرق والغرب.

٥ – ٤ – ٣ – الأمم (أو التكوينات القومية) كوحدات أساسية لوجود واستمرارية وتطور العمليات الاجتماعية الكبرى. وقد اقترحنا تصنيفها إلى خمس مجموعات:

(أ) الأمم الأساسية والتى يمكن وصفها حاليا بالاسم ذات النهضة المتجددة.

(ب) النموذج الحديث للدولة الأمة.

(ج) الدول القومية الجديدة الساعية نحو الوحدة، ومنها الدول الحديثة بالمعنى الحرفى للكلمة، والتكوينات القومية التى تقع فى إطار مجموعات متعددة القوميات.

(د) الدولة القومية المزدوجة.

(هـ) الدول القومية الجديدة ذات النزوع القومى.

٥ – ٥ – ولن نتعرض هنا على نحو منفصل لأسس التمييز بين الدوائر الثلاث إلا لإبراز الخطوط العريضة. يتم تحديد المناطق الحضارية، وفقا لعاملين هما المفهوم العام للعلاقات بين الثقافات والأمم والتكوينات المجتمعية، والبعد الزمنى. والأمر لا يقتصر على رؤية للعالم فحسب، بل إن أساس التمييز بين الشرق والغرب، هو الرؤية الفلسفية للزمن كمجال للتطور البشرى، وما يترتب على هذه الرؤية من نتائج. ويمكن النظر إلى المناطق الثقافية باعتبارها مجموعات مجتمعية تشترك فى رؤية واحدة للعالم. وترتبط هذه الرؤية بالمحددات التاريخية والجغرافية عبر التاريخ (بعدى البيئة والجغرافيا السياسية) أكثر مما ترتبط بالفلسفة بالمعنى الحرفى للكلمة، وقد تعبر عن رؤية واحدة للعالم، مجموعة محددة ومحدودة من اللغات أو لغة واحدة (العربية، الصينية، الإنجليزية، الفارسية، اليابانية... كل فى منطقتها). ولا شك أن تعريف الأمم أو التكوينات القومية، أسهل بكثير، طالما تم الاتفاق على أهمية وضرورة التصنيف. إلا إننا عند وضع هذه الأنماط الثلاثة من الدوائر المتداخلة، نكون قد قدمنا وصفا طبوغرافيا (أو تشريحا لمجالات المقارنة). وتبقى ضرورة الربط الجدلى بين مختلف وحدات الدوائر الثلاث، من أوسع إلى الأضيق وهذا هو على وجه التحديد الهدف من وراء طرحنا لمفهوم الخصوصية.

٥ – ٦ – لا شك أن الأنماط الأساسية للمقارنة تتمثل فى الاتجاهات التاريخية. وقد تنامى موازاة لذلك اقتراب للمقارنة، يقوم على المحددات الكمية وانتشر بين فروع العلوم الاجتماعية، وهو ما يؤكد على أهمية التشديد على الحاجة إلى التحليل النقدى وإلى إعادة بناء شبكة "المؤشرات الاجتماعية" السائدة حاليا، بدءا من الاقتراب المقارن.

وربما يحمل هذا الاقتراب أهم إمكانيات التطور لكونه يجمع بين إعادة البناء النقدى لكل من المقارنة الاجتماعية ذات الاتجاه التاريخى، واقتراب "المؤشرات الاجتماعية" بما يميزه من اتجاه كمى.

٦ – نحو العالمية. تعيين المفاهيم والمحددات والحاجة إلى إعادة بناءها خلال الرؤية النقدية.

٦ – ١ – إذا ما اتفقنا على صلاحية ما أوردناه كإطار ممكن للرؤية المقارنة، يصبح من الممكن أن نتقدم إلى الأمام نحو صياغة مجموعات من المفاهيم، هى فى أشد الحاجة إلى إعمال الرؤية النقدية وإعادة البناء. ولذا فقد حاولنا فى الملحق رصد عدد من الموضوعات فى قوائم ثلاث.

– تضم القائمة (أ) بشكل أساسى تلك المفاهيم والمدركات المرتبطة أساسا بالمجتمعات الغربية الصناعية، الرأسمالية والاشتراكية.

– أما القائمة (ب) فتضم المفاهيم والمدركات الخاصة بمجتمعات وأمم آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

– وتجمع القائمة (ج) أخيرا بين المفاهيم والمدركات المشتركة بين (أ) و (ب) والتى تشكل بهذا المعنى محور الرؤية النقدية.

٦ – ٢ – وقد تمت صياغة المفاهيم والمدركات الواردة فى (أ) و (ب) و (ج) كوحدات قائمة بذاتها. ومن المهم أن تتم صياغتها بعد ذلك على نحو أكثر ترابطا، بحيث تكون بحق أساسا لمهامنا المشتركة. وقد أبرزنا عددا من المفاهيم الأساسية فى القوائم (أ) و (ب) و (ج) للإشارة إلى أولويتها. وبشكل عام فإن المدركات والمفاهيم الواردة فى (أ) ترتبط بافتراضات التوسع فى التنمية والأيديولوجية الإنتاجية والاستهلاكية وإطلاق إمكانيات العلم والتكنولوجيا، والأنظمة الاجتماعية والسياسية التى تواكب هذه الافتراضات. أما القائمة (ب) فتضم المفاهيم والمدركات المرتبطة بإشكاليات التحرر والتنمية فى مواجهة الهيمنة والتخلف. والواقع إن مفاهيم القائمة (ج) تشكل مجال الفلسفة الاجتماعية بما تميل إليه فى صورة أنماط التنمية الجديدة والتصور السائد عن العالم والتصورات عن الحضارة والثقافات إلى آخره.

٦ – ٣ – أما عن استراتيجية تحديد الأولويات، فيمكن أن تتمثل فى:

١ - (أ) - (ب) - (ج)

كما يمكن أن تتمثل أيضا فى:

٢ - (ج) - (ب) - (أ)

وقد يرى البعض أن أكثر الاقترابات واقعية هو (ب) - (ج) - (أ) لما يعنيه من تركيز على المفاهيم والمدركات الخاصة بالمجتمعات الآسيوية والأفريقية والأمريكية اللاتينية، بحيث تأتى القائمة (ب) فى المقام الأول، ويواكب ذلك العمل من أجل إعادة بناء الإطار النظرى للعلوم الاجتماعية - (ج) - ثم تأتى أخيرا قضية المجتمعات الصناعية المتقدمة - (أ) - وقد يتبنى اتجاه آخر، انتقاء مجموعة موسعة من المفاهيم أو الموضوعات تتم صياغتها كنقطة انطلاق أساسية للمقارنة، على أن يتم اختيارها من القوائم الثلاث دون تمييز وبحيث تصبح هذه القوائم مجرد مثال توضيحى.

***

يجدر أخيرا ونحن بصدد المضى قدما فى مشروعنا المشترك، أن نذكر بالطابع الأولى لهذا المشروع. ولا شك أن هناك عدة اعتبارات علمية وثقافية واجتماعية سياسية سوف تؤثر حتما على دراستنا. إلا إنه يمكن توقع الكثير من وراءها، ومن المسيرة الطويلة نحو عالمية العلوم الاجتماعية ومن معرفتنا بالمجتمعات البشرية كسبيل لتعميق معرفتنا بالأساس التاريخى للخصوصيات القومية الثقافية.

مسرد

السلطة الزعامية	charismatic power
الأيديولوجية الضمنية	Implicit ideology
(المستوى) الإطار السابق على الإطار التصويرى وإطار المفاهيم	pre- conceptual frame
حقل/ ميدان المعرفة	epistemological field
سلم الأنماط	typology
نمط الاستمرارية الاجتماعية	mode or social maintenance
جيوبوليتيكا (الجغرافيا السياسية)	gepolitics
المجتمع المائى/ الهيدروليكى	hydraulic
عمق الحقل التاريخى	depth of the historical field
إرهاف/ تدقيق المفاهيم	conceptual refinement
التركيب النقدى	critical synthesis
تكوين اجتماعى- اقتصادى	socio- economic formation
تركيب التفسيرى	interpretative synthesis
أرضية الداثبات النظرى	theoretical 'no man's land
الكيفية الاجتماعية	hypothetical mode
التعالى المنهجى	methodlogical sophistication
التباعد- الاستبعادية	distanciation
القومى/ القومى التكوينى	nationalitarian
محصلة الاتجاه	vection
استرداد الهوية	reconquest of the identity

polycentrism	تعدد المراكز
thematic	موضوعاتى
esoteric	التنسيق الذاتى
mediation	الوساطة
partnership	المشاركة
societal delegation	الإنابة الاجتماعية
theory building	عملية التنظير
professionalism	الاحترافية
integration	(عامل) ادماج
civilist	المدنية
hegemony of decision power	هيمنة سلطة الإقرار
political class	الطبقة السياسية
national project	المشروع الوطنى
philosophical illusionism	البهلوانية الفلسفية
functionalism	الوظيفية /
universalism/ globalism	العالمية
national formation	التكوين القومى
modality	الكيفية
new nationally oriented state	الدولة الجديدة ذات الرسالة/ الوجهة القومية
new national states geared towards unification	الدولة الجديدة ذات الرسالة/ الوجهة الوحدوية
renascent nation	الأمة المنبثقة/ الناهضة
conceptualisation	عملية تركيب المفاهيم
Islamic fundamentalism	الأصولية الإسلامية

liberal modernism	اتجاه التحديث الليبرالى/ المحرر
raricalisation	التحول نحو الجذرية
sociological itinerary	السيرة الاجتماعية
epistemological object	موضوع علم المعرفة
oligarchy	حكم القلة
compradore	الرأسمالية العملية
productivism	النزعة الإنتاجية
voluntarism	النزعة الإدارية
operational sociology	علم الاجتماع الحركى
capitalistic	الرأسمال/ الرأسمال التكوينى
sumbiosis	تجميع / تكوين تجميعى
synthesis	تركيب
dichotomy	ازدواجية
symbiotic state	
hegemonic choice	تجميع / تكوين تجميعى للدولة
sociological imagination	هيمنة اختيار
historical specificity	الخصوصية التاريخية
agnostic	اللاإيمانية/ اللاتدين
theoretical elaboration	التركيب النظرى
formativre factor	عضو تكوينى
modernist syncretic philosophy	البنية التأليفية التحديثية
Neo-dogmatism	
activist humanism	النزعة الإنسانية الايجابية
residual	المتبقى

patterning, structuration	تشكيل
semantic variation	التنوع فى الدلالة
hegmonic centre	مركز مهين/ مركز هيمنة
negative thought	الفكر السالب/ فكر الردة
space- time factors	العناصر المكانية الزمنية
combinatory	تركيب توافقى- محصلة تركيبية
matrix	قالب
theoretical field	مشغل- ساحة نظرية
hegemonic imperialism	الامبريالية المهيمنة
socio- political indicators	المؤشرات السياسية والاجتماعية
exceptionalism	نظرية الاستثنائية
putschism	ظاهرة الانقلاب العسكرية
cultural area	الدائرة الثقافية
marginal	هامش
pluralist normality	الاستواء التعددى
extra- societal	ما بعد الاجتماعى

Encyclopedias, Dictionaries, Vocabularies

Guid and kolb (eds) A Dictionary of the social sciences, Tavistock 1946.

Lalande, A. Vocabulaire technique et critique de la philosophie, P.U.F. Paris 1960.

Taylor, Ch. L. Hudson M. C. World Handbook of political indicit rs, 2nd ed, Yale U.P, London 1972.

Cranstom, M. (ed) A Glossary of political Terms, the Bodely Head, London 1966.

Rivaud, A. Dictionnaire de la longue philosphique paris.

Foulquie, Dictionnaire de la langue philosophique, paris.

Edwards, P. (ed) Encyclopedia of Philosophy, 8 vol. New York 1962.

Williams, R. Keywords, a vocabularly of culture and society London 1986.

Runes, D. D. (ed) Dictionary of philosophy, 18th ed. New York 1960.

Welmar, B.J. (ed) Dictionary of Behavioural Science, New York, London 1973.

Duncan Mitchell, G. (ed) Adictionary of sociology London 1968.

Elliott, F. A Dictionary of Politics 7th ed., London 1973.

Davies D. A Dictionary of Anthropology, London 1972.

Winick, C. Dictionary of Anthropology, Totowa 1968.

Plano, J. C. Oithon, R. the international relations dictionary, New York 1969.

Seldon, A. Pennance, F. G. Everyman's Dictionary of Economics, London 1965.

Greener, M. the penguin dictionay of commerce, London 1970.

Drever, J. A Dictionary of psychology, London 1952.

Stamp, D. A Glossary of Geographical Terms, 2nd ed. London 1966.

Moore, W. G. A Dictionary of Geography, London 1961.

Monkhous, F. J. A Dictionary of Geography, 2nd ed. London 1972.

Theodoren, G. A. & A. G. A Modern Dictionary of Sociology, London 1970.

Roberts, G. K. A. Dictionary of Political Analysis, London 1971.

Sauvet, T. Dictionnaire Economique et Social, Paris 1962.

Gilpin, A. Dictionary of Economic Terms, 3rd ed. London 1973.

Ashworth, G. Encyclopaedia of Planning, London 1973.

Hout, T.F. Dicitionary of modern sociology totowa 1969.

Pieron H. Vocabulaire de la pyschologie

Romeuf J. Dictionnaire des sciences economiquew 2 vol.

Appendix 3: BIBLIOGRAPHIC ORiENTATIONS

Abdel-Malek;A. "Orientalisme en' Crise", Dioglme No. 44 (1963):109-42;La Dialectique sociale, Ed. Le Seuil, Paris 1972;

A!-Fikr al-'Arabi Fima'rakat al-Nadhah (ArabiC 'ThaugHt hi the Struggle for Renaissance), Dar-al-Adab; Beirut 1974, p. 240.

Akiwowo, A. Ethnosociology, 'The Captive Mind, and Sociology, University of !fe, JUly 1975; '10 pp.

Alatas, S. H. "The 'Captive Mind in Development Studies", Cultures, Unesco 1975; "Erring Modernization - the Dilemma of Developing Societies", Symposium on the Developmental Aiins' and Socio-Cultural Values in Asian Society, Bahg- kok, Nov. 3-7, 1975, 45 pp.

Barel, Y. La Reproduction socia!e, Anthrapos, Paris 1974, 552 pp, Bauer, R. A. (ed.) Social Indicators, MIT Press 1966, xxi-357. Bdieman, A. Cultures in International Re!ations.

Brodbeck, M. Readings in the Philosophy of the Socia! Sciences, Macmillan, Lendon, 1968, ix~788 (cf. last page).

Casanova, P. G."Historical 'Systems and Social Systems", Studies in Comparative InternationaL Development, Rmgers Univ" Vol. VIII, Fall 1973, No.3.

Cecconi, O. Croissance econamique et sous-deveLoppment culturel P.U.F., Paris 1975.

Current Research and Development in Scientific Dacumentation, Wishing ton, D. C" ,National Science Foundation, ,Qtiart~cly since 1&57.

Desanti, J. Toussaint La'Philosophie s !·mcieuse au critique des philosophies de la science, Le Seuil, paris 1975, p. 283.

Dubois; J.' "Pourquoi des riictionriaires?", Socia! Science Information 1967, 6 (4): 101-112.

Ditmer, R. W" A Thl!saurus of Planning Terms, Council of Planning., Librarians -:-" Exchange Bibliography No. 983, February 1976.

Durkheim, E. and Mauss,M, f'rimitive Classification, University of Chicago Press 1963; {!.nnee Sociologique. 1901-2: 1-72, Paris 1903,

Evans, D. Explorations in Ti1Jl-e, Council of Planning Librarians ~, Exchange Bibliography No. 911 andl112: November 1975.

Eller, J. L. and Panek, R. L. "Thesaurus Development for a Decentralized Infor-

mation Network",American Documentation, July 1968: 213-220.

Fairbank, J' K.,Reischauer, Craig, AM. East Asia, the Modern Transfo;'mation', G. ,Allen and Unwin, ,London 1965, xvi-954.

Flathman, R. E. (ed,) Concepts in Socia! and Political Philosophy, Macmillan, London 1973, ix-53:!.·

Foskett, D. "J.'Pro.plems ot Indexing and Clasiffication in the 'Social' Sciences", Internationa! Social Science JOl.rna! 1971, 23 (2): 244-255.

Goldberg, A. L. "InfOrmation, needs of social scientists and ways of. meeting them",International ,social Science Journa! 1971, 23 (2): 273-283.

Gould and Kolb (eds.) A Dictionary of the Socia! Sciences, Tavistock Publica-

tions, 1964, "vi-760,

Harris, M. the Rise of Anthropologica! Theary - A History, of Theories of Cu!-

ture, Crowell Co., New York 1968, p. 805.

Himmelstranct" U. ':Structure,Mechanism" Commupication and, Actioin Applied Sociology"; 19 pp'. Paper' presented to the Conference on Social Engineering-

Warsaw, April 18-19, 1975; International and Application: extending the reach of Survey Research, 51 pp.

Hortan, R. and Finnegan, R. (eds.) Modes of Thought - Essays on Thinking in Western and non-Western Societies, Faber & Faber, London 1973, p. 400.

Hunt, R. (ed) Personalities and Cultures - Readings in Psychological Anthropology, Natural History Press, New York 1967, xxi-434.

International Associations, special issue on: 'Conceptual Problems of International Discourse II", April 1974, 26 (4).

International Centre for the Terminology of the Social Sciences, Social Science Information 1966, 5 (3): 88-90.

Iyer, R. (ed.) The Glass Curtain between Asia and Europe, London 1965. Khakhulina, L. A. Formation of Systems of Concepts in Interdisciplinary Studies, paper presented to the 8th World Congress of Sociology, Toronto, August 1974, p. 25.

Lalande, A. Vocabulaire technique et critique de la Philosophie, P.U.F., Paris 1960, xx-1323.

Lefebvre, H. Logique forme!!e, Logique dialectique, Anthropos, Paris 1969; La vie quotidienne dans Ie monde mod erne, Gallimard, Paris 1968.

Lengyel, P. "The Unesco pilot project in social science terminology", Babel 1956, 2: 24-27.

Mandersloot, W. G. B., Douglas, E. M. B., and Spier; N. "Theasurus Control the Selection, Grouping and Cross-Referencing of Terms for Inclusion in a Co-ordinate Word List", .Juurnal of the American Society for Information Science, Jan-Feb., 1970: 49-57.

Manners, R. A. (ed.), Kaplan, D. Theory in Anthropology - A Source book, Routledge anrt Kegan Paul, London 1968, xii-578.

Moon, Pary and Spencer, D. E. "Internationality in the names of scientific concepts", Amencan Journal of Physic 14: 285--293; 431-438, 1947, 15: 84-92,

1948, 16: 100-104.

Moore, B. Jr. Social Origins of Dictatorship and Democracy - Lord and Peasant in the Making of the Modern World, Beacon Press 1966.

Moore, Ch. A. (ed.) The Status of the Individual in East and West, University of Hawaii Press, Honolulu 1968; xxi-606; Philosophy and Culture East and West, Univ. of Hawaii Press, Honolulu 1968, xv-832.

Mukherjee, R. The Sociologist and the Social Reality, Presidential Address to the Twelfth All-India Sociological Conference, Varanasi, October 28--30, 1974,

p.24.

Id. On Social Indicators: GNE in particular, Calcutta 1926, p. 5.

Nash, R. fl., Dutton, E. P. Ideas of History Vol. I, II, New York 1969.

Needham, J. Science and Civilization in China, 1954, particularly vol. I General Orientations, and Vol. II History and Scientific Thought in Chinese Philosophy; Clerks and Craftsmen in China and the West, Cambridge 1970; Within Four Seas: The Dialogue of East and West; The Grand Titration: Science and Society in East and West, London 1969.

Nkrumah, K. Le Consciencisme - Philosophie et Ideologie pour la decolonisation et la Developpment, avec une reference particuliere d la Revolution africaine, Payot, Paris 1964, 176 pp.

Newsletter 9 of the Program on Public Conceptions of Science, Harvard University 1974, 46 pp.

Paenson, I. Systematic Glossary of Selected Economic and Social Terms (English, French, Spanish, Russian), Pergamon, Oxford 1963; Macmillan, New York 1963.

Pool, Ithiel de Sola "Symbols, Meaning and Social Science", in Bryson, L. (ed.) Symbols and Values, Harper, New York 1954.

Preiswerk, R., Perrot, D. Ethnocentrisme et Histoire, Anthropos, Paris 1975, p. 390. Regionalization of Social Sciences in Latin America, Asia, and Africa, Internatioal Social Science Journal Vol. xxv, No 4, 1973.

Riggs, F. W. On Definitions, Pittsburgh, Pa.: UniverSity Center for International Studies, University of Pittsburgh, Working Paper No. 11, August 1974.

Salton, G. "Automatic processing of foreign language documents", Journal of the American Society for Information Science, May-June 1970, 187-194.

Scharam, S. D'Encausse H. Carrere Le Marxisme et l'Asie, 1853-1964, A. Colin, Paris 1965, 488 pp.

Taylor, Ch. L., Hudson, M. World Handbook of Political and Social Indicators, 2nd ed., Yale U.P., New Haven 1972, xiv-42.

Toynbee, A. A Study of History, 13 volumes, London 1933-1955.

Tsurumi, K. Dochaku Bunko to Cairai Bunka Nihon no Shakai Shi (Endogenous and exogenous cultures, Social and cultural history of Japan), vol. III, Kodansha 1973.

Unesco: Bibliography of Interlingual Scientific and Technical Dictionaries Fifth ed. 1969 .

Viet, J. Thesaurus for Information Processing in Sociology, Mouton, Paris 1971. Wallerstein, I. "The' Rise and Future Demise of the World Capitalist System:

Concepts for Compartive Analysis", Comparative Studtes in Society and History Vol. 16, No.4, September 1974, 387-415.

Wiener, Ph. P., Noland, A. Ideas in Cultural Perspective, Rutgers U.P., New Brunswick, N.J. 1962, 3-758.

wilson, W. J., and Dumont, R. G. "Rules of CorrespondencE and Sociological

Concepts", Sociology and Social Research 1968, 52 (2): 217-2:7.

Wolman, B. B. (ed.) Dictionary of Behavioural Science, Macmillan 1973, ix-478:

Wright Mills, C. The Sociological Imagination, Oxford U.P., New York 1959, 234 pp. Wuester, E., "Bibliography of monolingual and technical glossaries", vol. I, Natio-

nal Standards, Unesco 1955.

الجزء الثالث

الأمــة

(٨)
الأمة: الإطار التكويني

"لقد حرثنا البحر"

(سيمون بوليڤار ١٨٣٠)

إن عام ١٩٨٣ – عام الاحتفال بمرور مائة وخمسين عاما على مولد سيمون بوليڤار، محرر أمريكا اللاتينية، وعام الذكرى المئوية لوفاة كارل ماركس – هذا العام يعد بمثابة دعوة صريحة لكافة رجال الفكر والعمل لأن يبدأوا فى النظر إلى حصاد فترة ما بعد ١٩٤٥ فيما يتعلق بالإشكالية العامة للأمة والثورة. إن ضجيج الاحتفالات الرسمية سوف يعطى روح هذه العصور كما كانت على الأقل على المستوى الرسمى الظاهرى، ولكن وراء ذلك يوجد الفكر المتضمن أو النسيج الحى للحياة اليومية الاجتماعية والسياسية والفكرية الجارية، وغالبا دون فهم واعتراف كاف.

هل يكون باستطاعتنا إذن أن نحاول اتساقا مع هاتين العمليتين التوأمين أن نقوم باستكشاف الدائرة العلمية والسياسية للأمة على كلا المستويين العامل والمفاهيمى لنطرح عددا محددا من الطروحات أمام مزيد من التحليل المناقشة؟

لقد كان التطور الأساسى والحرج منذ عام ١٩٤٥ على الساحة الدولية وفى الفكر والفلسفة السياسية هو: عودة ظهور البعد القومى للمواقع السياسية فى المشكلات الاجتماعية، وذلك بعد خسوفها أو على الأقل تهميشها فيما بين عام ١٩٤٥ و ١٩٦٨.

وخلال الفترة اللاحقة للحرب العالمية (١٩٣٩ – ١٩٤٥) كان هناك هجوم مركز سواء على مستوى وسائل الإعلام أو على مستوى العلوم الاجتماعية موجه إلى أسس النظام الاجتماعى الموجود وليس الدولى أو العالمى. وقد بدا ذلك من

خلال "الشخصية الفاشستية" التى نشأت كرد فعل للدول الديكتاتورية والاستبدادية فى فترة ما قبل ١٩٤٥. ومع ذلك فقد تجاوزت غايتها إلى حد بعيد تلك الوعود البراقة التى أطلقها روادها. واتضح عاما بعد عام ثم يوما بعد يوم بإصرار لا يهدأ أن الهدف كان هو تفتيت الدولة القومية وتشويه جذورها التاريخية الخصوصية إلى ما كان يعرف ولا يزال يعرف "بهويتها القومية" لحرمانها من قالبها الأشمل والأوسع، أى من تراثها القومى والثقافى الخاص داخل إطارها الثقافى الجغرافى ومن دائرتها الحضارية الخارجية الأوسع التى تنتمى إليها كل دولة قومية. كانت تلك هى روح العصر فيما بين يالتا والثورات الشعبية عام ١٩٦٨ فى العالم الغربى وخصوصا فى كل من الولايات المتحدة وفرنسا. ومع ذلك فلم يستطع هذا التحدى أن يصل إلى جوهر بناء النظام الدولى: حيث لم تكن الحملة ضد الحرب الفيتنامية سوى رفض أخلاقى أيديولوجى للإمبريالية الأمريكية المهيمنة ولم تكن رفضا لمعاهدة السلطة المقسمة بين القوتين العظميين كما رسختها يالتا. كذلك فإن حرب التحرير المأساوية فى الجزائر لم تثر تلك الأصداء الحارة فى وسائل الإعلام العالمية التى يهيمن عليها الغرب، فى حين مرت عملية استئصال جذور الشعب الفلسطينى.. تلك العملية التى تمت فى ظل الحماية - الدبلوماسية والسلطة المركزة للعالم الغربى التى مكنت من إنشاء الدولة الصهيونية فى عام ١٩٤٨ مما أدى إلى سلسلة من الحروب والمآسى... مرت هذه العملية على أنها "ظاهرة ثانوية".

وعلى الجانب الآخر من النهر... فى القارات الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية - كانت هناك عمليات أعمق تسير فى اتجاه مختلف تماما، فمنذ عام ١٩٤٥ - تحرير الصين وإنشاء جمهورية الصين الشعبية - حتى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ التى أفضت إلى أزمة البترول والانهيار العملى للاقتصاديات الرأسمالية الغربية ظهرت موجة من الحركات القومية والتحرر القومى والثورات القومية وحروب التحرير، وتزايدت بمصاحبة عمليات عميقة للتحول الاجتماعى التى كانت تصبو إلى الثورة الاجتماعية تحت لواء الاشتراكية. وكما نكتب اليوم فى عام ١٩٨٣ احتفالا بذكرى سيمون بوليڤار بينما لا يزال البناء ذو القطبين الذى

خلقته بالتا يعمل بقوة، فإن التحول العالمى قد بدأ بأساليب وخلال طرق لم تحـــددها الكتب والأيديولوچيات.

(أ) إن ٦٢ فى المائة من حجم البشرية يعيشون فى قارة واحدة هى آسيا. تلك القارة التى تضم أكبر دولة فى العالم.. الصين التى تعد هى ذاتها المراكـــز القيـــادى الثانى للاشتراكية فى هذا القرن بعد أقوى ثورة فى تاريخ البشرية إلـــى جانـــب اليابان التى تعد ثالث دولة من الناحية الصناعية والفنية، وإن كانت من ناحيـــة الفعالية والقدرة العملية تعد أول وأسرع قوة صناعية وتكنولوچية صاعدة فـــى الاقتصاد الرأسمالى العالمى بالاشتراك مع شبه القارة الهندية - وشرق وجنوب شرق آسيا التى تمثل جبهة للنمو الصناعى وتركيز الموارد لم يكن يسمع عنهـــا منذ جيل فقط.

(ب) بناء مركز قوة دولى رئيسى ثالث حول معاهدة السلام والصداقة التى وقعـــت بين الصين واليابان فى عام ١٩٧٨ ليرتبط مباشرة بالمنطقة الأفرو - آســـيوية العربية الغنية بالبترول عند ملتقى أوروبا وأفريقيا وآسيا.

(ج) الإنجازات السياسية والاجتماعية الاقتصادية الناجحة فى الاتحاد السوڤيتى على الرغم من الخسائر الفادحة التى منى بها خلال حـــرب ١٩٤١ - ١٩٤٥. إلـــى جانب القوة اقتصادية للولايات المتحدة بالرغم من عدم كفاية نفوذها السياســـى لأسباب قلما عرفت داخل مركز هيمنتها ذاته.

(د) ظهور محيط أمريكا اللاتينية الغربى فى كل من أمريكا الوســـطى والجنوبيـــة كمجموعة رئيسية ذات أهمية وتأثير ومغزى متزايد، ليس فقط بالنسبة لسياسات القارات الثلاث ولكن أيضا بالنسبة للمعادلة الشاملة فى المواجهة بـــين الشـــمال والجنوب، بالإضافة إلى ظهور المحيط الجنوبى وبمحيطاته واراضيه كســـاحة للصراعات الرئيسية فى القرن الواحد والعشرين.

(هـ) الحقيقة التى نادرا ما تفهم والتى تقول بأن أكثر من أربعة أخماس الشـــعوب التى تعيش فى ظل نظم اشتراكية اجتماعية موجودة فى آسيا وأفريقيا وأمريكـــا

اللاتينية، فى حين يتكون الربع الباقى من الجزء الأوروبى من الاتحاد السوفيتى والدول الاشتراكية الأوروبية فى وسط وشرق أوروبا.

(و) بداية نهاية الوهم البروميثيوسى بأن البشر قوى خلاقة، وبالسير اللانهائى فى اتجاه الإنتاجية والاستهلاكية والمتعة. إلى جانب انبعاث روح التسامى والتحضر فى أشكال جذرية راديكالية شعبية.

(ز) التأثير العميق المحدود نسبيا للمرحلة الثانية من الثورة الصناعية والتكنولوجية أو ما يسمى بالثورة العلمية والتكنولوجية لأسباب مرة أخرى لم تجد من التحليل إلا القليل، وسوف نتحدث عنها فيما بعد.

وباختصار فإن ما يحدث ليس هو ما كان مفروضا أن يحدث. وما كان مفروضا أن يحدث لم يحدث. والممثلون والعاملون الذين لم يكن من المتصور وجودهم يقفون الآن فى مقدمة المسرح التاريخى حيث تواجه تحدياتهم وأعمالهم مراكز السلطة والنفوذ التقليدية بتحديات جديدة فى أقل العصور المفضلة لدى النظام العالمى التقليدى.

وفى قلب هذا التحول العالمى أو فى قلب انتقال البعد الرئيسى للمبادرة التاريخية إلى مراكز القوى الجديدة الناشئة فى القارات الثلاث يقف المتغير المحتجب (الظاهرة، البعد، العملية، المؤسسة، التكوين): الأمة - الحقيقة القومى فى حركة.

٢ - ولقد كانت عودة قدوم الأمة كمتغير أساسى مصحوبا بظهور مواز لعدم كفاية الدولة الحديثة.

ومنذ عام ١٩٤٥ أنشئت ٩٩ دولة جديدة، وأصبحت الآن عضوا فى منظمة الأمم المتحدة. وفى نفس الوقت كان يتضح يوما بعد يوم أن أغلبية هذه الدول ليست فى وضع يمكنها من القيام بعمل فعال سواء فى تغيير الظروف والأوضاع الموجودة داخل حدودها أو فى الحفاظ على هذه الحدود كما رسمتها المعاهدات

السابقة التى قننها القانون الدولى، بالإضافة إلى التحرك على الساحة الدولية. لقد تمتعت هذه الدول بأضواء وسائل الإعلام الغربية وكان ذلك قبل أى شئ فرصة أخرى لتعزيز وتقوية الهجوم على المؤسسات السياسية للنظام العالمى بما فى ذلك الدولة القومية التى تكونت تاريخيا. وفى واقع الأمر لم يلق تحليل الجانب الإيجابى لاستمرارية وفعالية الدولة فى العصور الحديثة إلا القليل جدا من الاهتمام، بل ومن الأبحاث العلمية لدهشتنا أيضا.

إن إحياء الدولتين الألمانيتين للأمة الألمانية بعد يالتا، وظهور الدولة اليابانية رغم الصورة المنزوية التى اتخذتها بعد هيروشيما، ومرونة مصر الثورة منذ عام ١٩٥٢ رغم ستة حروب (الحروب الأربعة الكلاسيكية لأعوام ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧، ١٩٧٣، ثم حرب الاستنزاف ١٩٦٩ - ١٩٧١ وحرب اليمن من ١٩٦٣ - ١٩٦٥). واستمرارية الدولة الإسبانية خصوصا خلال فترة الانتقال الحرجة من نظام فرانكو إلى المؤسسات التقدمية الديموقراطية الحالية حول الملكية. وقدرة المكسيك والبرازيل وغيرهما من دول أمريكا اللاتينية على مواجهة التحديات، خصوصا التحديات الاقتصادية والمالية الخطيرة وتحقيق درجة معقولة من التقدم الاقتصادى الاجتماعى والثقافى. وإعادة بناء الدولة الفيتنامية بعد سنوات الحرب الـ ٢٥ بنفس القدرة على تكوين الدولة الجزائرية بعد الفترة الاستعمارية، والإمكانيات المؤكدة لاحتواء الاتجاهات الانفصالية الطاردة بواسطة الدولة فى الهند وسويسرا ونيجيريا وكندا وماليزيا وكذلك المرونة الموازية للدولة القومية فى فترة ما بعد الإمبراطورية وفى هولندا والبرتغال بصفة خاصة.. كل ذلك وغيره كان خليقا بها أن تكون نماذج أساسية تشد انتباه المحللين السياسيين والفلاسفة وممارسى السياسة لو لم يكن مجال الدولة ذاته قد اختفى وراء ظل الانهيار الحتمى.. الشك فى الشعارات الفوضوية والعدمية.. وباختصار هى التأثيرات المميتة للعقلية السلبية على الفكر والممارسة منذ عام ١٩٤٥.

إن محاولة التمييز هنا لا بد أن تكون بين مفهومى: "وحدة التحليل" و "وحدة العمل".

وفى حالة الأمم التى تشكلت تاريخيا، أى التكوينات القومية القائمة حول مراكزها السلطوية القومية المتتابعة، يمكن رؤية التصادف بين وحدة التحليل ووحدة العمل. ويمكن لهذا التصادف أن يصل إلى درجة عليا تنتهى ذروتها فى أقدم الدول القومية فى العالم: مصر، الصين، فارس التى تتبعها مباشرة دائرة أوسع من الأمم القديمة مثل اليابان، أثيوبيا، المكسيك، كمبوتشيا، ڤيتنام، المغرب ليلحق بها بعد ذلك ما يسمى بالدول القومية الحديثة فى أوروبا كما حدث فى النهضة التى حاولناها فى عام ١٩٧٦، سلم أنماط التكوينات القومية فى فئاتها الخمس التى يمكن تطبيقها هنا وهى:

(أ) الدول الجديدة ذات التوجه القومى.

(ب) الدول القومية الجديدة ذات التوجه الوحدوى.

(ج) الأمم والدول القومية ذات الأصل الأوروبى التى فرضت من أعلى على أساس أجنبى منهار.

(د) الأمم المنبعثة.

(هـ) الدول القومية الأوروبية أو الغربية.

إن الشئ الأساسى فى هذا الصدد هو أن نفهم بوضوح أن الوجود المجرد لدولة "كوحدة تحليل" لا يجعل منها أوتوماتيكيا "وحدة عمل". ذلك لأن الانتقال من "التحليل" إلى "العمل" يتطلب بدقة "عمق المجال التاريخى" وهو الوحيد الذى يجعل بالإمكان أن يتحول الاحتمال إلى فعل ويعطى صوتا لهذا الجزء الخفى من جبل الجليد الذى يبرهن على الأهمية الحاسمة فى العمل التاريخى.

وفى الوقت نفسه فإن التفهم الأفضل لهذا التمييز.. على سبيل المثال أولا "الأمة" كمتغير أساسى إذا قورنت "بالدولة" التى تقوم فى تكوين اجتماعى غير قومى.. هذا التفهم يمكن أن يساعد على أن نفهم لماذا لم يكن لظواهر العالمية (الكوزموبوليتانيزم)، وتجاوز القومية، والكروية المفردة إلا القليل جدا من التأثير فى أعماق الأمم الرئيسية أو فى المناطق المستقلة ذات البناء الثقافى الجغرافى

الجيد. وأينما وجدت تعد الأمة هى الموضوع الأساسى والفاعل الرئيسى فى التاريخ. ولم يكن فى استطاعة المؤسسات المتعددة الجنسية ولا القوى المهيمنة الرئيسية، ولا هذا التيار الكوزموبوليتان الخارج عن القومية الذى يسيطر على أعماق القطاع المتغرب من مفكريه أن يعدل من مساره بشكل أساسى، رغم ما يواجهه من عقبات على الطريق.

وفى الوقت نفسه فإن عدم فعالية التكوينات الاجتماعية غير القومية التى أسست على أنها دول أو عدم فعاليتها النسبية لأسباب تتعلق بالحجم والقدرات والإمكانيات الحقيقية قد أدى إلى الحاجة إلى إعادة التجمع على المستوى الإقليمى وهو ما يمكن أن يعد التطور الأساسى فى المسرح السياسى الدولى فى عصرنا وهو التطور الذى يجمع بين الدائرتين القريبتين من بين الدوائر الثلاث (الأمم، المناطق الثقافية الجغرافية، والحضارات)، على سبيل المثال، الأمم داخل مناطقها الثقافية الجغرافية فى مجموعتها الأوسع تسعى بأمل إلى تحقيق قوة اجتماعية مقبولة وواقعية سواء فى صورة جامعة أو تجمع كونفيدرالى أو حتى تجمع فيدرالى على حسب ما تسمح الأوضاع والظروف.

ولذلك فإن ما يتعرض للخطر هنا ليس صلاحية وفعالية الأمة كعامل مكون أساسى ("متغير" باستخدام مصطلح العلوم الاجتماعية) ولكن ما يتعرض للخطر فى الواقع هو فعالية "الأمة" و "الدولة" التى يجب أن يتحول إليها الانتباه حتى نختصر الطريق فى محاولة التغلب على عدم فعالية العديد من الكيانات الموجودة وتجاه بناء وحدات تحليل وتطبيق إقليمية فعالة وخلاقة عندما تكون هناك حاجة إلى ذلك.

إن واحدا من أهم عوامل حجب هذا التمييز بين وحدات التحليل ووحدات العمل كان يتمثل فى ظهور الولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها القوة العالمية الرئيسية منذ عام ١٩٤٥. ذلك لأن ما كان يعتبر "الأمة الجديدة" فقط على حسب تعبير توماس جيفرسون أصبح فى أقل من جيلين (من ١٩١٩ إلى ١٩٤٥) القوة العالمية الرئيسية على المستويات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية. وقد كان بالإمكان تحقيق ذلك من خلال حقيقة مؤداها أن هذه النصف قارة ظلت محصنة

ضد الحروب والاحتلال والدمار الذى هو من صنع الإنسان.. إن الدولة التى اتخذت قرار ضرب هيروشيما وناجازاكى بالقنبلة الذرية لم تكن قد عرفت أبدا ثمن طلقة واحدة تطلق على سكانها عبر الحدود الأطلنطية الطبيعية والتى ينبغى أن تضاف إليها الظروف المناخية والبيئية الاستثنائية فى الولايات المتحدة والحصانة الكاملة التى تتمتع بها حدودها الجنوبية والشمالية، وقد تضخمت إلى حد كبير نتيجة هذا الوضع الفريد فى الجغرافيا التاريخية بواكير هيمنة حركة النشر الأمريكية خصوصا فى مجال العلوم الاجتماعية منذ أواخر الثلاثينيات وبالتحديد منذ عام ١٩٤٥ فى وقت خسوف الإمبراطوريات الكلاسيكية التى كانت قائمة فى كل من بريطانيا العظمى وفرنسا وهولندا وإيطاليا بالإضافة إلى الهيمنة الألمانية على أوروبا.

وما كان يبدو أن الولايات المتحدة قد اكتسبته بحق النشأة، لم تكتسبه وحدات التحليل والعمل الأخرى، أى الأمم الأخرى وفى الواقع الدول الأخرى. ولذلك فإنه عندما يكتشف الضعف فى الفعالية السياسية لممارسة الدولة فإنه يرجع فورا إلى مجال الحصر الكمى، أى إلى حجم وقوة هذه الدولة بعينها وليس إلى طاقتها، إلى القيام بالعمل أى إلى خصوصيتها التاريخية كتكوين قومى، كأمة فعالة قابلة للحياة والنمو. وبما أن الأمة والدولة قد امتزجتا معا فى غموض تكافلى فى الولايات المتحدة حيث يعد تكوين الدولة ذات بناء غير متماسك بشكل واضح بغض النظر عن خصوصية مجموعة قوميات العرقية داخل النظام الفيدرالى. وجنبا إلى جنب مع هذا التأثير لا بد للمرء أن يلاحظ تأثير إنشاء الدولة الصهيونية لإسرائيل فى عام ١٩٤٨. وعلى المستوى الظاهرى كان من المستحيل بالنسبة للعلوم الاجتماعية التى سيطر عليها منهج "الحصر النمطى" (حيث "الهوامش" - أى القارات - لا بد وأن تخضع لـ "المركز" الغربى المهيمن)The periphery approach rductionist cnetre-cum- أن تبرر لحقيقة أن دولة صغيرة تستطيع أن تعمل بمثل هذه الأسلوب بالفعل الواضح من خلال حجب الشخصية الخصوصية القومية الجاذبة نحو المركز للطوائف اليهودية - عبر الصهيونية وتجاه دولتهم فى

إسرائيل. وبذلك كانت الطريقة الوحيدة لتبرير فعالية الدولة هـي الادعـاء بأنهـا "معجزة".. استثنائية الدولة المنتخبة كما كانت فى مكان وزمان التحليـل الأسـمى لتكوينها التاريخى كوريث موضوعى لجماعات الأقلية اليهودية القومية فى الـدول المسيحية الغربية منذ القرن الثالث، بالإضافة إلى التأييد الاستراتيجى الشامل الـذى لاقاه هذا التكوين من جانب القوى المجتمعة لكافة العالم الغربى منذ زرعها فى قلب منطقة الحرب والسلام فى عصرنا.

إن هذين النموذجين يمكن تكرارهما فى عدة حالات أخرى. ومع ذلك يبدو أن ما قيل فيه الكفاية للإشارة عند هذه النقطة إلى: كيف كان الاختلاط بـين وحـدات التحليل ووحدة العمل قاتلا بالنسبة لفهم الأمم فى عصورنا هذه.

٣ – داخل إطار التكوينات القومية الاجتماعية تكون الأولوية – للسياسة للحاضـر على أنه التاريخ، وإلى الأنماط القومية على المتغيرات الثانويـة الأخـرى داخل التكوين الاجتماعى القومى ذاته مثـل الطبقـة والفئـات الاجتماعيـة والأقاليم والجماعات العرقية. إلخ.

والجدل الأول فى هذا الصدد يتعلق بصعود متغير "الطبقة" إلى مستوى الهيمنة تحت تأثير نفوذ الماركسية الكلاسيكية والفكر الماركسى الجديد فيما بـين ١٩٤٥، ١٩٦٨ فى فترة أزمة الدول الجديدة التى أثارت اضطرابا على أنها أمم عديدة. وقد كان من السهل عندئذ أن نبرهن على أن ضعف أغلبية الدول الجديدة كـان يرجـع أساسا إلى فقدانها لتماسكها وإلى الطابع غير القومى لجماعة السلطة الجوهرية التى عادة ما توصف بأنها "طبقة اجتماعية" بالمصطلحات العلمية. لقد كانت هـذه هـى الأوقات التى وضعت فيها الكومبرا دورز على أنها التجربة الثوريـة الصـينية أو الطبقة الاجتماعية غير القومية التى لا تستطيع بأسلوب حاسم أن تغير من مصـير الأمم التابعة فى نفس الوقت الذى تكون فيه قادرة فى حالات عديدة على أن تعمـل كقوة تحديث غربية عنيفة. وكانت هذه أيضا هـى الأوقـات التـى بـدأت فيهـا الإمبريالية المهيمنة للولايات المتحدة تأخذ شكلها النهائى تجـاه مفهـوم "الانتشـار الشامل" globalreach وهو مفهوم جيوبولوتيكى وجيواستراتيجى أدى فيما بعد إلى

ما يسمى "بالعالمية" globalism رغم عملية الإصفاف الشرعية "للانتشار" الشامل ذاتها كما نرى فى الموقف الراهن فى كافة أرجاء القارة الآسيوية، وفى آسيا الغربية، والشرق الأوسط وأمريكا الوسطى.

وبالنظر من مركز الإمبريالية – المهيمنة – حتى لو كان ذلك بأسلوب مضطرب يبدو أن الحاجز الأساسى كان هو التماسك القومى الذى مكن وحده من وجود الغالب التكوينى وعناصر تشكيل جبهات قومية متحدة قوية تقوم على أساس التحالف التاريخى بين الطبقات العاملة والبرجوازية الأصلية غالبا حول الجيش الوطنى. وقد كان ذلك بالتحديد هو محط اهتمام الإمبريالية المهيمنة الذى توافق مع مصالح منقذى البشرية من العدميين والفوضويين الذين تستروا وراء اليسار "الجديد" والذين اهتموا بصورة مرضية بتقسيم مرة أخرى جبهة القوى الاجتماعية داخل الأمم إلى الحد الذى جعل من المستحيل وجود جبهوية، وهو ما أدى إلى الإسراع بتمزيق الجبهات القومية الداخلية للأمم.

وعند هذه النقطة لا يسع المرء أن يتفادى تحليل الجذور والحدود التاريخية لمفهوم "الطبقة" وموقعها الأساسى فى الفكر الماركسى، ويكفى أن نقول هنا إن الاشتراكية كما طورها كارل ماركس وفريدريك إنجلز نشأت فى وقت كانت هيمنة الغرب – وخصوصا هيمنة الرأسمالية الأوروبية – لا تبدو فيه موضوعا لأى شك وهى تحصد فوائد فائض القيمة التاريخى. ولذلك فقد كان العمل الحيوى الأساسى الذى انشغل به مؤسسو الاشتراكية يسعى إلى إيجاد السبل والوسائل التى تمكن من نقل فائض القيمة التاريخى هذا وفوائده من القلة الحاكمة فى المجتمعات الغربية إلى الأغلبية المطحونة، وخصوصا الطبقة العاملة وحلفاؤها الفقراء. وقد أمكن تحقيق ذلك من خلال القالب السياسى والفلسفى للتراث الحضارى الغربى الذى يقوم على أساس العقيدة المانوية التى تؤمن بالانقسام الداخلى بين المؤمنين وغير المؤمنين، وبين المؤمنين من قطاعات مختلفة ثم بين طبقات اجتماعية مختلفة، مما أدى إلى أعنف الحروب وأطولها فى تاريخ العالم والتى وصلت إلى ذروتها بالحرب الأوروبية ١٩١٤ – ١٩١٨ ثم الحرب العالمية ١٩٣٩ – ١٩٤٥.

ومن هذا القالب وفى هذا المناخ نشأت هيمنة مفهوم الطبقة كمتغير أساسى فى التحليل الاجتماعى والعمل السياسى ليفرضه من أعلى على كيانات اجتماعية مختلفة تماما (فى آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية والعالم العربى).

ولقد بدأ التاريخ يقول - وسوف يقول - كيف أصاب هذا الاستقراء الميكانيكى وأضر بالإمكانيات الثورية الانتقالية لشعوب البشرية وبقياداتها الثورية التى انحصرت داخل القوالب المذهبية الحديدية للفكر الاشتراكى الغربى فى القرن التاسع عشر.

إن التسليم بأن "الطبقة" - كواقع ملموس فى مجتمعات واقعية وليس كمفهوم - هى المتغير الأساسى، أو الظاهرة الأولوية يعنى التسليم بأن تجمع البشر انطلاقا من العدم لا لهدف أو سبب أو مشروع لا يأخذ شكله الحقيقى إلا إذا نظم فى إطار عدة معسكرات من أجل الحرب المدنية. والواقع أن تاريخ أقدم الحضارات التى تشكلت فى إطارها - ولا تزال تتشكل - أقدم التكوينات الاجتماعية وتؤدى وظيفتها غالبا بأساليب أكثر تطورا وأكثر تحضرا مما تفعل العديد من المجتمعات المعاصرة.. إن هذا التاريخ يشير بوضوح إلى أن التجميع كان له الأولوية على التقسيم، وأن الحضارات والمناطق الثقافية والتكوينات الاجتماعية القومية كانت قالبها الأشمل والأوسع الذى تعمقت فى إطاره هذه التباينات والتنوعات. وهذه التباينات والاختلافات هى التى أدت بالتحديد إلى تشكيل المجموعات الاجتماعية التى تطورت فيما بعد لتصبح طبقات اجتماعية بظهور أول مجتمعات الطبقة فى تاريخ العالم، أى مجتمعات العبيد القديمة فى الشرق فى خط مواز لتلك التى نشأت فى إطار الحضارات العظيمة للعالم الغربى فى أمريكا الوسطى والجنوبية. ذلك لأن أية طبقة اجتماعية لا تستطيع أن تتشكل وحدها من العدم، وإلا كان ذلك يعنى معالجة العملية الاجتماعية على طريقة روبنسون كروزو. وبوسع المرء أن يتخيل طبقة فى تعارض مع طبقة أخرى بحيث يتشكل من مزج الاثنين تكوين اجتماعى يسمى فيما بعد "أمة". إن الجذور، القالب التكوينى والقالب المستمر للاستمرارية والتحول الاجتماعى كان ولا يزال وسيبقى إلى أمد بعيد حقا هو التكوين الاجتماعى

الذى أصبح يعرف باسم "أمة"، وإذا كان لهذا العالم أن يبدو أقل غربة وأكثر ألفة أو قبولا فى عام ١٩٨٣ فإن الفضل سوف يكون للتحول الموضوعى للعالم الذى لعبت فيه القارات الثلاث دورا حاسما، وإن كان لا يزال هذا الدور غير واضح بعد على المستويات الفلسفية والفكرية والنظرية.

إن الطريق القومى له الأولوية كشرط أساسى للتحول الاشتراكى والثورة. ولا يمكن تحقيق التحول الاشتراكى والثورة وصيانته وحمايته وتعميقه فى إطار الاستقلال الوطنى والسيادة إلا من خلال طريق النضال الشعبى الوطنى التحريرى ومن خلال تعبئة أوسع جبهة من القوى الوطنية حول الشعوب العاملة.

إن تاريخ الثورات فى القرن العشرين لم يعالج من زاوية جدليات الأمة مع الطبقة ولكن من زاوية الأيديولوجية - وتحليل الطبقة والنظم السياسية، والملاحظات الاستشرافية التالية يمكن أن تسهم فى تعميق الفهم لهذه الأطروحة الثالثة:

(أ) إن النمط الأول للثورات الأساسية فى وقتنا هذا.. أى النمط الاستقلالى الوطنى قد تحقق بشكل طبيعى تماما من خلال الطريق الوطنى، ودائما تحت قيادة البورجوازية الأصلية. ولكن عندما تنجح عادة ما تدخل فى تحالف وثيق مع الشعوب العاملة خصوصا طبقة الفلاحين والمثقفين الوطنيين. وعندما يتشكل تراث الدولة القومية المركزية يكون المركز الموحد هو دور الجيش كجيش الأمة. وما من معالجة ساخرة تستطيع أن تقلل من حجم إنجازات الثورة الوطنية على مداها المتعدد الذى يضم كلا من مصر والمكسيك واليابان والهند وإيران وغانا.. وهذه ليست سوى أهم الأمثلة وأكثرها شهرة. فى حين يدخل توحيد ألمانيا وإيطاليا فى أواخر القرن التاسع عشر مباشرة فى إطار هذا النمط. والتحليل الأوسع والأدق لمدى الدول الجديدة المستقلة بعد عام ١٩٤٥ بالإضافة إلى الحالات الرئيسية المذكورة سابقا سوف يظهر اختلالا مدهشا فى الأهداف السياسية لهذه الثورات الوطنية.

إن الأمم القديمة كانت دائما تستهدف مصاحبة التحرير أو الاستقلال بالنهضة أو استعادة الذات، فى حين أن التكوينات الاجتماعية الحديثة التشكيل كانت تهدف أكثر إلى الجوانب السياسية المجردة للاستقلال التى صاحبها فى الأوقات الأخيرة البعدين الاقتصادى والثقافى.

(ب) وإذا انتقلنا إلى تحليل الثورات الاشتراكية فإننا سوف نواجه موقفا أكثر تعقيدا أيضا على المستوى الأكثر مباشرة، فنمط الطبقة ضد الطبقة أو الثورة البروليتارية، أو هيمنة الطبقة العالمة الذى ارتفع صوته فى القرن التاسع عشر قد تحقق فى الواقع فى مثل فريد واحد هو ثورة أكتوبر ١٩١٧ التى قادتها العسكرية السوفيتية ومن ورائه منظمة البلشفية السرية، التى أكتسبت فيما بعد سلطة الدولة والسلطة الاجتماعية من خلال طريق دموى وشاق وصعب استطاعت أثناءه أن تحصل تدريجيا على هيمنتها القوية على الفلاحين وهى تسعى فى الوقت نفسه إلى تحقيق توازن دقيق مع الأمم غير الأوروبية الواقعة ضمن الاتحاد السوفيتى أو الأمم الآسيوية من الاتحاد السوفيتى، وهو ما يعد أكثر إنجازاتها ثراء وبقاء.

هذه الحالة فى تفردها تحققت من خلال إضعاف الجيوش والدول الرئيسية فى النظام الإمبريالى التقليدى فى حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ وخصوصا تفتت روسيا القيصرية وجيشها. ومنذ ذلك الوقت فشلت كافة محاولات الثورات التى قادتها الأقلية البروليتارية، مما فتح الطريق مباشرة أمام الفاشية والنازية التى ساندها ما يشبه إجماع شعبى خصوصا فى ألمانيا وإيطاليا.

ولذلك كان على الموجة الثانية من الثورات الاشتراكية فى أوروبا أن تنتظر حتى الحرب العالمية ١٩٣٩ – ١٩٤٥، وحرب التحرير الوطنية العظيمة التى قادها جوزيف بروز تيتو فى يوجوسلافيا، والتى نجحت فى كسر شوكة جيوش الاحتلال وتتويج الاشتراكية قمة سلطة سياسية مستقلة فى يوجوسلافيا المحررة. وبذلك رسمت يوجوسلافيا الطريق الذى امتزج فيه التحرر الوطنى بالثورة الاشتراكية بصورة عصرية، بحيث كان الأول هو الشرط الأساسى لتحقيق الثانى كما طرحنا فى أطروحتنا الأولى.

أما الدول الاشتراكية الأوروبية الأخرى: جمهورية ألمانيا الديمقراطية وبولندا والمجر ورومانيا وبلغاريا وألبانيا بدرجة أقل.. هذه الدول تحررت أساسا بالقوة المسلحة للجيش الأحمر بالاشتراك مع درجات متباينة من المقاومة السياسية الفعالة فى هذه الدول. ولم تكن لا الثورة البروليتارية ولا عملية التحرر الوطنى هى التى فتحت الطريق أمام التحول الاشتراكى، ولكن كانت هيمنة الچيوبوليتكس التى وفرت الظروف الوطنية الملائمة فى هذه الدول.

وعلى الجانب الآخر من النهر كانت أعظم ثورة فى تاريخ البشرية، نحو الصين تحت قيادة ماوتسى تونج - وشواين لاى - وشوتين.. كانت هذه الثورة نتيجة انتهاج المسلك الشعبى واستراتيچية المسيرة الطويلة التى صاغها الحزب الشيوعى الصينى بزعامة ماوتسى تونج، وهى استراتيچية كانت على قدر واسع من الوطنية حتى أنها ظلت مفتوحة أمام الچنرال شيانج كاى شيك وحبس حتى عام ١٩٤٧ على الرغم من الهجمات العسكرية المذكورة التى شنها الكومينو ضد حلفائه الشيوعيين. وليس من محض الصدفة أن. كان يوم أول أكتوبر ١٩٤٩ مخططا من جانب القيادة والشعب الصينى ليكون "يوم التحرير" ولد يوم "انتصار الاشتراكية" ناهيك عن انتصار الشيوعية.

إن هذا الدرس الثورى العظيم أو أعظم الدروس الثورية فى تواضعها وواقعيتها لم يفهم ولم يجد وعيا ملائما فى معظم الحركات الثورية التى كرست نفسها للاشتراكية على المستوى العالمى. وبدلا من ذلك فقد اختارت هذه الحركات أن تركز على الانقسام السوڤيتى الصينى الحاد وعلى الوجه اليسارى "للثورة الثقافية" حتى تجعل من فكر ماوتسى تونج وصفة أو صيغة لكل طائفة يسارية، فى حين أنها فى واقع الأمر ومن ناحية تاريخية تعد أقوى أعداء الطائفية اليسارية. وقد انتهجت ذات الاستراتيچية.. استراتيچية الجبهة المتحدة الواسعة فى كل من كوبا وكوريا وڤيتنام تحت شعار الاشتراكية بينما فتحت الطريق أمام الثورات التقدمية الوطنية فى معظم المناطق الأخرى من آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية حيث كان التحرر الوطنى والاشتراكية هما الشعار، وخصوصا فى الجزائر وأثيوبيا وأنجولا

وموزمبيق وغينيا ونيكاراجوا. فى الوقت الذى أدى فيه الفشل فى تحقيق ذلك من خلال هيمنة القوى الثورية إلى مأساة فى شيلى، بالإضافة إلى الفوضى التى أصابت العديد من القوى الثورية فى عدد من المناطق الأخرى وخصوصا فى الشرق الأوسط.

(ج) إن أية دراسة مقارنة دقيقة للنمطين السابق ذكرهما للثورات الوطنية والاشتراكية الرئيسية سوف تكشف على الفور أنه لم تكن هناك حالة.. أية حالة واحدة كانت الثورة الوطنية الراديكالية تعتبر فيها مرحلة أولى تمهد لثورة راديكالية وطنية ثانية، وعلى اعتبار أن الأولى تستهدف تحقيق أهداف الاستقلال الوطنى والتحول الاشتراكى بينما تنتقل الثانية إلى تحقيق الاشتراكية والشيوعية. وبمعنى آخر عندما تحقق أمة ثورتها الوطنية الراديكالية فليس هناك ما يشير فى التاريخ حتى الآن وعلى حد علمنا به إلى أن هذه الأمة نفسها قد قبلت الدخول فى طريق ثورة راديكالية ثانية تتحرك تجاه الاشتراكية، بينما تحققت كافة الثورات الراديكالية التى أدت مباشرة إلى الاشتراكية فقط فى دول لم تدخل تجربة الثورة الوطنية الراديكالية قبل ذلك باستثناء واحد ووحيد هو الاتحاد السوفيتى. وبمعنى آخر فإن نظرية المراحل الثورية باعتبارها تتابع تفرضه الضرورة والمصير التاريخى لن تتحقق فى الواقع التاريخى، وقد تظل على أفضل الأحوال مجرد أمل أو حلم. ولذلك فينبغى أن تأخذ النظرية الثورية فى اعتبارها هذه الحقيقة التى يبرهن عليها التاريخ المعاصر من القرن الثامن عشر حتى أيامنا هذه.

(د) هل يعنى ذلك أن كافة الثورات الراديكالية الوطنية فى عصرنا ينبغى بالضرورة أن توجه إلى طريق الاشتراكية؟ سوف يحدث ذلك على الأرجح. وكانت العلاقة النسبية للراديكالى القومى بالمكونات الاشتراكية فى كل ثورة وطنية سوف تتحدد ليس فقط بواسطة توازن القوى السياسية على كلا المستويين الداخلى والخارجى وفى الدائرتين الخارجية والداخلية للجدليات الاشتراكية ولكن أيضا – وهذه هى نظريتنا – من خلال البنية الخصوصية

للأمة المعنية. أى بواسطة قدرتها على العمل كتكوين اجتماعى فعال، كأمة حول دولتها. وفى استطاعة المرء أن يغامر بفرضية تقول إنه كلما كان ذلك أقل، أى كلما ظل المجتمع المعنى عند مستوى التكوين الاجتماعى أكثر منه كأمة، كلما كان بالإمكان تحقيق حلم الوصول إلى الاشتراكية، وكلما قل فهم القيادة السياسية للجدليات المعقدة للتحرر الوطنى والبناء الوطنى والتحول الاشتراكى أو قل قبولها من جانب الشعوب المعنية ومن جهة أخرى كلما زاد انتشار العامل الوطنى داخل التكوين الاجتماعى المعنى كلما أمكن للمعالجة أن تركز على الأمد الطويل.. على الجبهة الوطنية المتحدة كاستراتيجية تاريخية وعلى العلاقات المتداخلة بين العمليات الثورية من جانب وعلى المشروع الاجتماعى ثم الوطن، وفى الحالات الأفضل على المشروع الحضارى من جانب آخر. هنا وعندئذ وفى حالات الكثافة الوطنية الأفضل وفى حالة الأمم المتأصلة فى خصوصيتها سوف تكون هناك ثقة أقوى من الربط بين التحرر الوطنى والتحول الاشتراكى.. السيادة بالاشتراكية - والهوية بالمقاومة. ويمكن أن يصبح ذلك أرضية الانطلاق تجاه ما بدأ يظهر الآن كما أنه الحضارة الاشتراكية، وإن كان لا يظهر على أنه حتمى وبحكم الضرورة فى الصيغ الخصوصية القومية والأشكال الاستقلالية.

إن الأمة التى تواجه الهيمنة والعدوان هى حلقة الوصل الخلاقة تجاه إعادة التجميع على نطاق أوسع، خصوصا الكتل الإقليمية، الجيوثقافية والقالب الحضارى الأوسع. وحيث أن الأمر كذلك فإن الظواهر القومية تعد أكثر الحقائق ثباتا من التاريخ، فى نفس الوقت الذى توفر فيه أداة يمكن بواسطتها تشكيل عمليات الاستمرار والتحول القادرة على الربط بصورة أفضل بين الخصوصية والعالمية أو على تعزيز العالمية الجديدة داخل إعادة بناء ميزان القوة العالمى وصنع النظام العالمى.

لقد ارتبط دائما مفهوم الأمة بمفهوم "القومية" التى تضرب جذور دلالاتها أساسا فى التاريخ التوسعى الغربى والذى قصد به أن يكون جوهر تاريخ العالم. أن

القيم الأساسية المتعلقة بالارتباط بالأرض والولاء للدولة والحب والإخلاص للشعب الذى ينتمى إليه الفرد والتضامن مع هؤلاء الكبار والصغار الذين نشأوا على نفس الأرض وفى ذات الثقافة وعانوا معا لأجيال وربما لقرون من الاضطرابات والقلاقل التى شكلت وصاغت الواقع الراهن.. كل هذه القيم اختفت وتوارت خلف شعار التوسع والتعصب والشوفينية، والمواقف القاتلة تجاه المجتمعات القومية الأخرى، وبذلك طبع التراث الدموى للتاريخ السياسى الأوروبى مرة أخرى بصورة سلبية إيجابية الجدليات التاريخية من خلال سلبياتها ورغما عنها.

لقد خيمت الحروب الداخلية والحروب القومية على جميع القارات بكل تأكيد ومع ذلك فقد كان التركيز والتجميع السريع الفائض القيمة التاريخية فى أوروبا الغربية منذ عصر النهضة حتى يالنا وسيظل ظاهرة فريدة فى تاريخ العالم. حيث كان ذلك هو وحده الذى وفر الدوافع للتتابع الفريد فى الحروب القاتلة التى أدمت القارات الغربية القديمة، فى حين ألحق الدمار والقمع بالمناطق الجغرافية الثقافية التى أصابها توسعه القاسى فى شبه الصحراء الأفريقية وفى العالم الإسلامى اللأفرو آسيوى وفى المجتمعات الهندية من المحيط الغربى وجنوب شرق وأخيرا شرق آسيا.

وفى مواجهة العمليات الحربية المتدفقة أصبحت روح القومية أو السياسة التوسعية العدوانية العميقة للتفوق القومى على المجتمعات والهويات القومية الأخرى تسير على مساحة "الأمة" بأكملها، وفى هذا الصدد قد يكون من المفيد أن نلاحظ أن أسوأ الفترات لم تكن فترات ١٩١٤ – ١٩١٨ ولا ١٩٣٩ – ١٩٤٥ ولكن كانت أسوأها هى فترات مذابح الشعوب السوداء فى أفريقيا ومذابح الهنود فى المحيط الغربى واستخدام القنبلة الذرية ضد اليابان والحروب ضد فيتنام وأكثر من ذلك ضد الشعب الجزائرى وهويته الثقافية. ومنذ عام ١٩٤٥ ظلت عشرات الحروب القومية مستمرة ناهيك عن محاولات لستئصال والقضاء على الشعب الفلسطينى، بالإضافة إلى رفض الاعتراف يحق الأمم السوداء فى أفريقيا الجنوبية فى الوجود.

وقد بدأ رد فعل القارات الثلاث يظهر مع ظهور باندونج عندما التقى زعماء الشرق لأول مرة فى إبريل ١٩٥٥ للإعلان عن بداية التضامن الأفرو آسيوى الذى يؤمن بالتضامن وبضرورة تنفيذ المبادئ السامية الخمسة للبانشيلا. Panshila واضعا بذلك فلسفة للسلام، ومحددا المبادئ التكوينية للمشروع الحضارى فى الشرق. ومنذ هذه اللحظة شاهد التاريخ امتداد هذه الحركة حتى أمريكا اللاتينية من خلال مؤتمر القارات الثلاث وتوسيع المنطقتين من خلال الدائرة الملحقة لدول حركة عدم الانحياز التى بدأت تكتسب دعما أساسيا فى العالم الغربى ذاته وخصوصا يوجوسلافيا.

وفى إطار هذا النسيج الأوسع الذى قد نستطيع أن نطلق عليه نسيجا حضاريا طالما أنه يضم الدائرتين الأساسيتين للقالب الحضارى فى الشرق إلى جانب الدائرة الثقافية الواسعة جدا فى أمريكا اللاتينية والكاريبى المرتبطة بكل من القالب الحضارى الغربى وصعود الشرق من الناحية السياسية.. فى إطار ذلك كان هناك تطور ثان ربما يكون له مزيد من الأهمية الواقعة الفورية وهو عملية إعادة التجميع الإقليمى الثقافى الجغرافى منذ سنة ١٩٤٥ التى شهدت إنشاء جامعة الدول العربية، والتى كانت صدى لحركات قومية اتجهت إلى التوحيد القارى أو الأقاليمى فى أمريكا اللاتينية مستلهمة بشكل مباشر سيمون بوليفار، وتكوين الاتحاد الهندى بتركيباته الثقافية، وإنشاء منظمة الوحدة الأفريقية، ومنظمة دول جنوب شرق آسيا ومحاولات توحيد أوروبا "كسوق" يستهدف إعطاء ثقل أكبر للقارة الغربية القديمة فى مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، ثم الكتلتين السياسيتين الأيديولوچيين، حلف شمال الأطلنطى وحلف وارسو، إلى جانب عمليات أصغر.

ومن الواضح أن إعادة التجميع الأيديولوچى السياسى من أجل التحالف، لها طابع مختلف عن إعادة التجميع الثقافى القومى أو الثقافى الجغرافى. حيث أن النمط الثانى الذى نعنى به هنا يظهر عندما تكون الدولة الأمة غير قادرة لأسباب تتعلق بالحجم أو الموقع الإمكانيات المتاحة على مواجهة تحديات السيطرة الأجنبية وحدها. هنا تحدث أهم التطورات ذات المغزى: لأن هذه التجمعات الإقليمية، لا تتم

وفقا للجغرافيا، أى ليست بالضرورة نتاج تقارب الموقع الجغرافى ولكنها أساسا تتم وفقا لدائرة المنظورات الثقافية والهوية والمشاعر المشتركة وأحيانا مع لغة أو لغتين مشتركتين. وهذا يعنى أن أرض الأمة ليست هى جانبها الاجتماعى الاقتصادى، ولكنها تعد بمثابة عمقها وهويتها القومية فى عالم تعد ثقافته أو ما يسمى بنيته العليا متأصلة فى الأمة من خلال الجدليات التاريخية.

وهكذا فإن الموجة المتصاعدة من العنف والعدوان والسيطرة والهيمنة والحروب المصحوبة بالخطر النووى تؤدى إلى التعزيز القوى لأولوية السياسى.. ولكن السياسى بالقدر الذى يكون فيه مستودعا للتراثات التاريخية وللحضارات والثقافات التى تشكل المدى الكلى للأمن والدول والمجتمعات والجماعات العرقية التى يتكون منها هذا العالم.

إن أولوية السياسى تقود مباشرة إلى المطلب الحضارى وإلى ظهور التسامى، الروحانى، الثقافى جنبا إلى جنب مع العوامل الاقتصادية الاجتماعية التقليدية والعوامل الأيديولوجية السياسية فى عملية تكون فيها وحدة التحليل والعمل أو البوتقة هى الأمة العصرية.

٥ - وتعد الأمة خلال فترة الصراعات وحروب التحرير وخلال فترة السلام العالمى هى أكثر الموضوعات التى يمكن الاعتماد عليها. فى حين أنها تعد أيضا المفتاح للجدليات المتشابكة للچيوبوليتكس وللاستراتيجية الجغرافية. وفى الحالة الأخيرة تكون جماهير الشعب فى إطار قالبها الثقافى الوطنى هى العامل الأساسى فى الچيوبوليتكس وفى الاستراتيچية الجغرافية. وليست القوة الهيمنية الميكانيكية التى تعتمد على التفوق الاقتصادى والتقدم التكنولوچى. وهكذا فإن الحقيقة والظاهرة والعلمية القومية يمكن لها أن تسهم إسهاما حيويا على المستوى الثقافى القومى للسلام.. بظهور المطلب الحضارى السامى بتوجهاته نحو تحديد المشروعات الحضارية واستراتيچياتها المصاحبة.

"وعند آخر المطاف". عند آخر المطاف فقط تصبح الأمة هى العامل الحاسم حقا إذا كانت قد تشكلت فى قالب الجدليات التاريخية وإذا كانت قد تمكنت من

تطوير إطار واسع إذا لن يكون الإطار الأوسع للاجماع بين طبقاتها المختلفة وعناصرها الأخرى من الجماعات الاجتماعية والعرقية. هنا فقط يمكن لعملية بناء الجبهة الوطنية المتحدة فى مستوييها التوأمين: المستوى السياسى الأيديولوچى للأحزاب السياسية ومنظمات النقابات العمالية والمنظمات الاجتماعية المهنية والمؤسسات إلخ.. والمستوى الثقافى الذى يتكون من مدارس الفكر والعمل المختلفة – أن تكون الأداة التى لا تستطيع الأمة بدونها أن تأمل فى استكشاف قوتها الكامنة وتعزيز وتقوية قدرتها على المرونة والتكيف ومواجهة العدوان بقلب مفتوح والتطلع إلى المستقبل.

وخلال هذا التحليل كان ينظر للأمة دائما من خلال البعدين التوأمين للجدليات التاريخية من جهة، ومن جهة أخرى من خلال المنظور الحضارى الثقافى والرؤية والبعد – وبالتدريج فإن ما فشلنا فى إدخاله ضمن الأطر المذهبية التقليدية للتحليل السياسى يمكن فهمه بأسلوب أكثر واقعية وإنسانية إذا قبلنا معالجته من منظور مختلف.. أى من منظور القطاعات المتقدمة من المثقفين، وهو منظور أساسى فى القلوب والعقول وفى حياة الأغلبية العظمى من الشعوب الكبار والصغار على السواء الذين تدفعهم أحاسيسهم بالقلق وحاجتهم إلى الأمان والتسامى والقيم والوصول إلى معنى الحياة إلى الأمة كبوتقة.

إن التحولات التى طرأت على العالم فى عصرنا عادة ما ينظر إليها على أنها مجموعة ممتدة ومتداخلة جدا من الدوائر المعقدة تمتد من الچيوبوليتكس إلى الاستراتيچية الجغرافية إلى المطلب الحضارى المتسامى. إن الموجات المتصاعدة من المواجهات والأزمات الاقتصادية العميقة فى الدول الصناعية المتقدمة. بالإضافة إلى سلب قوة المجتمعات الفقيرة والخطر الدائم للمذابح النووية، والانتشار الشرير للعقلية السلبية كتلك التى تطلقها مراكز الإعلام الغربية المهيمنة.. كل هذه العوامل تتجمع لنشر الخوف والقلق خصوصا فى أوقات تعثر فيها الإيمان اليوتوبى أخيرا. ولا يأخذ هذا القلق الإنسانى بالتأكيد شكل الجماعات الفردية التى ستؤدى إلى ظهور فرويد أو كافكا فى الحضارات والثقافات والأمم والمجتمعات غير

الغربية. هنا كانت الأمة دائما وعبر قرون طويلة تعد قالبا جماعيا تنصهر فيه العلاقات الإنسانية والاجتماعية والصراعات لتتحول إلى إجماع وإلى تعزيز الوحدة على حساب الاندفاع الحاسم تجاه العصرية أو التحديث باعتباره عملية استقلالية وطنية أو عملية تاريخية خصوصية. ومع ذلك وحتى هنا استمر ويستمر القلق ولكن بدرجات أقل بكثير وفى أشكال وقوالب أكثر إنسانية.

ومن هذه المجتمعات بالتحديد.. من قاراتنا الثلاث المتجمعة حول الأمم القديمة فى الشرق خصوصا نستطيع أن نستخلص الدرس من أجل مستقبل صالح. وهو أن الحاضر كتاريخ ومرحلة انطلاق من أجل المستقبل يمكن أن يعايشه ويقبل رغم نبضات الزمن القاسية، وذلك ليس هدفا بسيطا للعقول والأرواح العذبة. فبستطاعته أن يوفر الواحة الضرورية للسلام والتأمل والتركيز.. تلك الواحة الضرورية جدا من أجل شحذ طاقاتنا وتنمية رؤيتنا وإطلاق أصواتنا التى كتب عليها الخفوت. ولو أصبحت هذه الواحة أيضا "مكان سعادتنا المشتركة" (الطهطاوى) التى لا بد من بنائها بالمعرفة والإبداع وامتزاج الآمال بالجهود، وإذا أصبحت فى كلمة واحدة "أمة حقيقية" فإن وقتا قد يجئ نشعر فيه "أننا لم نحرث البحر" بلا جدوى. لأننا لو أردنا أن نحرث البحر بطريقة مؤكدة ذات مغزى فلا بد أن يكون هناك مكان لخلق هذا الجمع من الذكاء والقوة ومن البديهة والمعرفة الدقيقة، ومن الشعور والرؤية التى كانت ولا تزال وسوف لا تتوفر بدون الأمة كبوتقة للاستمرارية والتحول الاجتماعى.

(٩)
الجيش والأمة
جوهر السلطة الاجتماعية

لقد أصبحت هناك حاجة اليوم إلى مؤشرات اجتماعية وسياسية، إلى معرفة دقيقة وموضوعية، أى إلى المعرفة ذاتها. وهو الأمر الذى يعنى فى حقيقته الابتعاد عن البلاغيات التى تستهدف إنقاذ ماء الوجه والتى حلت فى العديد من المراكز محل النظرة العالمية إذا لم يكن محل النظرية ذاتها.

إن عملية "الإدماج" التى شهدها العالم بعد الأزمة الخطيرة التى واجهها النظام الرأسمالى الغربى فى الفترة ما بين الأزمة الاقتصادية الخطيرة (١٩٢٩ - ١٩٣٢) والحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ثم انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية التقليدية وظهور الشرق الثورى الناهض وموجة حركات التحرر الوطنى العاتية والثورات الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكى وإنشاء نظام للدول الاشتراكية إطار متنوع.. كل هذه العوامل مكنتنا من رؤية هذه الوحدة ومن تحقيقها، وكشفت عن العوائق والتباينات التى تقف فى طريقها.

وحيث أن عملية الإدماج والتوحيد هذه عملية جدلية فإنها لا تحقق الأمن خلال تعميق الخصوصيات.

هذه هى الأرضية التى ينبغى أن نفسر فى إطارها الظمأ إلى الدقة والسعى وراء الحساب الكمى والنماذج التركيبية، والتعبير عنها فى إطار العلوم الاجتماعية والوظيفية.. وهى جميعها مكونات متلازمة للأيديولوچية المسيطرة على جوهر ثقافتنا المعاصرة وحركة أفكارنا فى وقتنا الراهن.

ومما لا شك فيه أن "الجيش" أو "المؤسسة العسكرية" هى من بين هذه المؤشرات. ولكن كيف يتأتى لنا فهم "السلطة" و "السلطة العسكرية" على وجه الخصوص؟ كيف نستطيع أن نحدد العلاقة الشكلية بين أفراد المؤسسة العسكرية –

الصناعية، أو أن نحدد حتى العلاقة بين الجيش والحركات الوطنية وهى المشكلة الأصعب؟

إن علم اجتماع "المؤشرات[1] Indicators إذا وضع في إطار أشمل لسوسيولوچيا العلوم الاجتماعية قد يكون بوسعه أن يوضح أن كلا من المسلمات الضمنية والاختيارات الظاهرية لن تجد تعبيرا عنها أفضل مما ستجد على مستوى "المؤشرات"، ذلك إذا أخذنا فى الاعتبار أن مهمتها هى الوصول بدقة المعرفة المنطقية – التى تعمل معى نفسها من خلال عملية التمييز – إلى أعلى نقطة لها. إننا نحدد هنا فقط الخطوط العريضة لتلك القضايا التى نرغب فى إلقاء مزيد من الضوء عليها، ومعى تلك القضايا التى لا تنطوى على أى خطر علينا.

إن الجيش يوجد بالتحديد فى قلب السلطة. أو عند نقطة الالتقاء بين المشروع السياسى الوطنى والجهاز الذى يضمن حمايته. أى يمكن القول إنه يوجد من جوهر نمط الاستمرارية الاجتماعية التى تتحدد من خلالها كافة الخصوصيات على المستوى النظرى، والذى يكفل الوجود الفعلى للتكوينات الاجتماعية والاقتصادية القومية فى التاريخ على مر الوقت.

ونتيجة ذلك تصبح الإشكالية غير واضحة وتتزايد البلبلة حول أكثر العناصر التركيبية للسلطة ويصبح من العسير استيعابها. وهو ما يعكس بالتالى عدم دقة المعرفة والتفسيرات النظرية التى تكونت طبقا للمؤشرات من خلال دراسات الحالة. غير أنه لابد من تحديد موقع ذلك فى حد ذاته.

١ – ظهور عامل "العسكرية" فى العلوم الاجتماعية:

هناك دراستان حديثتان لكورت لانج Kutr Lang يتتبعان تاريخ ظهور عامل العسكرية فى العلوم الاجتماعية. وإذا وسعنا نطاق هذا الحقل موضع الدراسة ليشمل الثقافة العامة ككل فإنه سوف يصبح من الواضح إلى أى مدى كانت الاضطرابات العميقة التى جاشت بها التركيبات الاجتماعية الاقتصادية وجدليات الإمبريالية المهيمنة والحركات الوطنية والثورات الاجتماعية وبصفة خاصة فى

عالم القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية).. إلى أى مدى كانت هذه العوامل هى التى دفعت بالجيش أو بالعامل العسكرى إلى الظهور على السطح خصوصا فى الفترة ما بين ١٩٦٠ - ١٩٧٠ (السويس، فيتنام، الثورة الثقافية الصينية، الجزائر، وبيرو... الخ).

ونحن نجد أن طبعة عام ١٩٦٣ من الموسوعة البريطانية تقتصر فقط على تدوين تاريخ الجيوش. وتتضمن مدخلا خاصا بأساليب وتكتيكات القوات المسلحة وخاصة فى الولايات المتحدة. وبعد خمس سنوات - أى فى عام ١٩٦٨ - خصصت الموسوعة الفرنسية ثلث المدخل المعنون: "الجيش" لدراسة سوسيولوچيا "العسكرية" والعلاقات بين الجيش والمجتمع وذلك تمهيدا لمدخل آخر تحت عنوان "العسكرية" لم ينشر بعد.

والشئ نفسه ينطبق على القواميس الأساسية فى العلوم الاجتماعية، حيث تخلو تقريبا من تناول هذه المسألة، سواء كان ذلك فى قاموس العلوم الاجتماعية الذى وضعه كل من ج. J .Gould و ل. فلورنس إيليوت Florence Eliot عام ١٩٦٩، أو قاموس علم الاجتماع لدنكان ميتشل Duncan Mitchell فى عام ١٩٦٨. وغيرهم كثيرون.

وقد ظل الحال على ما هو عليه حتى نشرت فى الولايات المتحدة الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية. وفيها أخذت العلوم الاجتماعية فى اعتبارها للمرة الأولى عامل العسكرية[٥]. ومما يستحق الذكر هنا هو أن هذه الموسوعة لم تضم سوى مداخل بسيطة لا يمكن الزعم بأنها شاملة.

هذا هو الإطار الثقافى العام الذى يمكن أن نحدد من خلاله ظهور عامل الجيش أو العسكرية فى العلوم الاجتماعية.

١ - ١ تتضمن الأعمال موضع الدراسة ثلاث مراحل:

(أ) مرحلة علم الاجتماع الكلاسيكى:

إن الاتجاه المعادى للعسكرية له تاريخ طويل يمتد إلى ما قبل سانت سيمون أو مدرسة التطوريين الاجتماعيين. وبصفة خاصة هربرت سبنس[٦] الذى يرجع إليه لانج أصول هذا الاتجاه..

ومع ذلك فقد كان المفكرون الاجتماعيون فى واقع الأمر وسواء كانوا من أصحاب مذهب اليوتوبيا أو مذهب التطور.. كانوا استمرارا لواحد من مدلولين أساسيين (وهو ما يمكن تسميته بمدلول الإنسانية التكتيكية فى التراث الأوروبى العالمى كما تم تطويره فى الـ Ufklaring والـ Encyclopedie. حيث تتجلى روح القوانين من خلال العقل الذى كان قبل "عصر الثورة"[٧] ينعم فى عالم مثالى روحانى. يرى تطور التاريخ على أنه صعود مستمر إلى عالم التنوير والسعادة والخلاص عن طريق ممارسة الهيمنة بطبيعة الحال على العالم وقتئذ.

غير أنه بعد نصف قرن كان استيلاء البرجوازية على السلطة السياسية فى أوروبا وما أدى إليه ذلك من انتشار المبادئ الأولى للعمال والثورة الشعبية وراء فضح الحدود الفعلية للسلطة ومشاكل العنف. ومن ثم تركزت أعمال هيج وماركس النظرية على مشكلة السلطة فى المجتمعات الإنسانية، فعالجها الأول من خلال الجدليات المثالية للروح. أما الثانى فقد ركز على الجدليات الموضوعية والمادية والاجتماعية.

ثم حان وقت ظهور اتجاه الإنسانية الواقعية. وهو الاتجاه الثانى فى التراث الأوروبى الذى أسسه أرسطو وميكيافيللى وهوبس الذين فرضوا أنفسهم مع هيجل وماركس ولينين بصورة حاسمة على الفكر الغربى.

ومع ذلك فلا تزال هناك أوهام تسيطر على هذا المجال ربما أكثر من أى مجال آخر من مجالات الحياة الاجتماعية. فالقضية الحقيقية هنا فى واقع الأمر هى قضية حقيقية السلطة ودور العنف فى التاريخ. غير أن التراث الثقافى الغربى لا يسعه إلا أن يلجأ دائما إلى أصوله المسيحية بهدف تأجيل لحظة الإلهام السياسى أو على الأقل التقليل من أهمية مظاهرها العنيفة. ولذلك فإنه من اليسير علينا أن ندرك لماذا ظل الجيش كما كان بعيدا عن الأنظار، مختفيا وراء ظلال لا يظهر منها إلا فى لحظات الخطر والهزيمة، ولماذا لا يزال مغلفا فى الثوب الأحمر والأسود.

لا تزال إذن توجد هذه الأوهام العنيدة التى تصر على تقسيم السلطة إلى الشرعية العلمانية واليوتوبيا. وهى كلها تأثيرات متنوعة دفعت الطبقة السياسية إلى

رفض الاعتراف بالجيش إلا كملاذ أخيـــر.. تـــأثيرات متنوعـــة قـــادت المثقفـــين والمفكرين والمنظرين إلى موقف السلبية الذى يرفض حقيقة الجيش وحقيقة العنـــف المحتمل. كما لو كانت الدولة البرجوازية والمجتمع الرأســـمالى يحـــاولان باســـم إنسانية تأثرت بدورها بالنزعة الروحانية والفكر العلمى التكتيكى غسل أيديهما مما يشكل فى واقع الأمر درع وجودهما وقوتهما.

وبدءا من سبنسر حتى حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥، كانت مشكلة العنـــف تفســـر باتفاق عام فى إطار ثقافى. فقد آمن سبنسر بأن التنافس الصناعى لـــم يكـــن فـــى استطاعته أن يقضى على الصراع المسلح. أما جومبلويز Gumplowiz الذى كان أكثر وعيا بالتوسع الاستعمارى، فقد تنبأ بأن الكراهية العنصرية سوف تتحول إلى عبودية واستغلال اقتصادى بدلا من أن تتحـــول إلـــى حـــرب. فـــى حـــين كـــان راتزينهوفر Ratzenhofer يشعر أن باستطاعته أن يكتب أن "دولة الثقافة" ســـوف تحل محل "دولة الصراع". أما أى. ك. لاى فقد كان يحذو حذو هـــ. ســـبيير فـــى ملحوظته الصحيحة تماما بأن اكتشاف التصور الخاص بالتركيب الاجتماعى فـــى الولايات المتحدة قد ابتعد بالنقاش ككل عن العنف.

ومن ثم كان من المنطقى تماما أن يتطـــور علـــم الاجتمـــاع ليشـــمل الفقـــر والاستغلال الاقتصادى والصراع الطبقى والعلاقات بـــين الجماعـــات. أى جميـــع مجالات التوتر الاجتماعى المهمة، وذلك قبل ظهور على اجتماع العسكرية(٨).

وفى هذا الصدد نستطيع أن نذكر أيضا "وظائف الصراع الاجتماعى" لصاحبه لويس كوزر الذى يزخر بتحليل الصراعات السياسية والدينية والصناعية. ومع ذلك لا يكاد يذكر الصراعات العسكرية إلا نادرا.

وفى عام ١٩٥٦ وتحت تأثير أوجست كونـــت - وهـــو نفســـه كـــان تابعـــا لمونتيسكيو - كان علم الاجتماع الأوروبى يعادى فكرة العنف، وبالتالى عجز عن أخذها فى الاعتبار.

ورغم أن توكفيل Tocqueville التفت فى لحظة ما إلى الحركـــة الملموســـة للصراع على السلطة، إلا أن ظهور الاشتراكية عزز هذا العداء تجاه فكرة العنـــف

عند ديركهايم Durkheiem ومدرسته.. أما فى ألمانيا فقد كان ماكس فيبر Max Weber أبرز علماء الاجتماع فى النصف الأول من هذا القرن، وهو الذى أعطى مزيدا من الاهتمام لظاهرة الحرب وعلاقتها بالتركيبات الاقتصادية والاجتماعية. ومن هنا وصلنا إلى نقطة التحول، وأصبح مستحيلا منذ ذلك الوقت تجاهل العنف وتاريخه. فقد أقام شوميتر Chumpeter فى علم اجتماع الإمبريالية (١٩١٨) علاقة مباشرة بين الرأسمالية وآليات الحرب، وذلك رغم أنها كانت علاقة مضللة فى هذه الفترة، لأنها صورت فكرة المركب العسكرى – الصناعى[٩].

أما مشروع مؤسسة كارنيجى فقد جمع فى إطار "التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للحرب العالمية" ١٥٠ مقالة دراسية خاصة بـ ٢١ دولة (رغم أن هذا العمل لم ينشر إلا فى عام (١٩٤١).

وفيما يتعلق بـ "Soziologie Krieges" لـ رودلف شيتميز (١٩٢٩) فهو يعد عملا تمهيديا فى هذا المجال. ومع ذلك فإن الدراسات الكلاسيكية. وحتى أحدث السجلات التاريخية لعلم الاجتماع تصر على إما تهميش هذه القضية أو تجاهلها تماما.

(ب) حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ وفترة يالتا:

انتهت الحرب الأوربية الثانية التى سرعان ما تحولت لتصبح حربا عالمية حقيقية "وهى الأولى من نوعها رغم أنها عادة ما يشار إليها على أنها الحرب العالمية الثانية" فى الفترة ما بين ١٩٣٩ – ١٩٤٥.. بتحديد توازن القوة العالمى الذى اتفق عليه فى يالتا. ولأن هذه الفترة أكدت على الأهمية الحاسمة للجمع بين القوة العسكرية، والإستراتيجية السياسية والبنية الاقتصادية الأساسية فقد كان لها تأثيرها الحاسم أيضا على دراسة عامل العسكرية فى العلوم الاجتماعية.

وفى بداية الحرب أشارت الكتابات الألمانية والأمريكية إلى احتمالات وجود دراسات اجتماعية حقيقية للعسكرية. لكن واقع الأمر أن متطلبات العمل العسكرى لقوى الحلفاء: (بريطانيا العظمى والولايات المتحدة) إلى جانب الاتجاه الأيديولوجى

الذى كان سائدا فى ذلك الوقت.. وهو اتجاه البراجماتية والوظيفية والتفعية الميكانيكية الرافض تماما للتنظير.. هذا الاتجاه فرض نفسه على برنامج العمل فى ذلك الوقت. وفوق كل ذلك كانت ضرورات المرحلة تنحصر فى قياس درجة الاستغلال القصوى للموارد (بشرية واقتصادية وامدادية Logistiques) وفى تطوير المناهج الإجرائية المنظورة لتحقيق أهداف الحلفاء فى الحرب.وفى هذه الفترة انصب الاهتمام الأساسى على علم النفس الاجتماعى والطب النفسى والبحث الإجرائى فى علاقتها بضرورات تعبئة الجماهير فى الدولة المحتلة عن طريق جهاز عسكرى مهنى تدرب وتعلم وفقا لمتطلبات الحرب الكلاسيكية. أى أنه كان توجها إجرائيا - بالمعنى الحرفى للكلمة - أكد مرة أخرى على المعالجة الوظيفية للعلوم الاجتماعية فى الولايات المتحدة وفى الغرب بوجه عام.

وهنا ينبغى علينا أن نشير بصفة خاصة إلى "الجندى الأمريكى" لـ س. أ. ستوفر فى عام ١٩٤٩. وهو عمل أساسى من بين مجموعة من الأعمال التى اهتمت بسلوكيات الجيوش والسكان ككل أثناء المعركة وعند الانسحاب، أى تحت تأثير الحرب بشكل عام[١١].

ويلخص صامويل هنتينجتون Samuel Huntington فى "الجندى والدولة" (١٩٥٧) الاتجاه العام لهذه الأعمال.

ومع ذلك فلا يزال الطابع العلمى المحدود والصبغة المحلية السياسية التى سيطرت على هذه الأعمال فى تلك الفترة تثير الكثير من الدهشة. حيث أبرزت جميعها الدور الحاسم للقيادة السياسية والبنية الاقتصادية، ودعمت هذا وذاك بالبحث العلمى والتكنولوچى. ولكننا لا نكاد نجد - إلا نادرا - عملا يهتم بدراسة ما سمى بعد ذلك "بالمركب العسكرى الصناعى" كما لو أن الجوانب الشكلية لعملية صنع القرار العسكرى التى تحوطها السرية فى أوقات الحرب هى التى سمحت بتجاهل المشكلة الأصلية الخاصة بسلطة القرار السياسى.

وهكذا ظلت العلاقة بين الجيش والمجتمع بمعناها الواسع فى الظل، فى نفس الوقت الذى خرجت فيه مفاهيم مثل "الدولة فى ظل سيطرة الجيوش" و "الحرب

الشاملة" و "العمود الخاص" من الضباب والظلام حتى رغم أنها لم تكن قد نجحت بعد فى النفاذ إلى دائرة البحث العلمى والنظرى.

على أى حال لا تزال هناك قضايا أكثر خطورة سوف نعود إليها مرة أخرى. ومنها على سبيل المثال: إلى أى مدى تطورت الأفكار والأبحاث فى تلك الفترة وفى هذه القطاعات التى تورطت بصورة عميقة فى الصراع مثل الاتحاد السوفيتى وألمانيا والصين واليابان؟

كذلك فلا زلنا نجهل تماما الأبحاث التى أجريت فى وقت كان العالم فيه – رغم انقسامه الروحانى – لا يزال عالما غربيا ينظر إلى كل شئ فيه من منطلق علاقته بالغرب، ومدى إسهامه فى استمرارية تجربته التاريخية وتقاليده الفكرية.

ولا تزال هذه التقاليد الفكرية فى واقع الأمر ورغم الاضطرابات التى نشأت عن الحرب هى التى تضع العراقيل فى طريق ظهور عنصر العسكرية فى مكانه الطبيعى فى داخل البناء القياسى للعلوم الاجتماعية.

(ج) شهدت الفترة التى بدأت بإنشاء أول دولة اشتراكية فى الشرق: (جمهورية الصين الشعبية. أكتوبر ١٩٤٩) كلا من تفكيك الإمبريالية الأوروبية الكلاسيكية وتصعد نظام جديد للإمبريالية المهيمنة على المستوى العالمى تسيطر عليه أمريكا الشمالية بالإضافة إلى موجة جديدة من الحركات الوطنية والثورية فى آسيا وأفريقيا، وفى أمريكا اللاتينية وفى بعض القطاعات الغربية. ولذلك فقد أصبح الشرق الثورى المنبعث الذى استحوذ بجدارة على المبادرة التاريخية الثورية هو حد الريادة فى الحقبة التاريخية الراهنة وفى المستقبل المنظور. ومن ثم فإن الجدل بين الحضارات – فى الشرق والغرب – الذى يشكل الإطار العام يرتبط تركيبيا فيما يتعلق بالشرق بجدلية التكوينات السياسية القومية والاقتصادية الاجتماعية، وبهذه الوسيلة فإن الشرق يساهم فى توصيل الجدلية الاجتماعية إلى أعلى مستوى لها.

وهكذا فإن مشكلة العنف المبرر للسلطة وأدواتها فى أجهزة الدولة تفرض نفسها على اهتمامات العلوم الاجتماعية فى وقتنا الراهن. وطالما كان هذا العنف

المبرر يشكل أهم أداة منظورة لإحداث تحولات فى توازن القوة العالمى والهيمنة الطبقية داخل المجتمعات التى تخوض عملية التغيير، فإن ذلك سوف يضطرنا إلى إعطاء مزيد من الاهتمام للظواهر الجديدة ومنها الظاهرة القومية، ولعناصر جديدة أيضا وغير مألوفة يعد الجيش عنصرا أساسيا منها. بالإضافة إلى الإطار الجيوبوليتيكى ومجالات الثقافة والحضارة. وهذه جميعها تبدو أنها تسهم إسهاما مهما فى انهيار الحقبة الجميلة.

هذا هو المناخ أو الضرورة الاجتماعية التى سوف تجعل من الممكن أخيرا الاعتراف بالدور المهم لعنصر العسكرية فى الحركة الموضوعية للمجتمعات الواقعية في العالم الراهن. ومنذ عام ١٩٦٠ وما بعدها أصبح علم الاجتماع العسكرى علما معترفا به كفرع من فروع العلم: فى الولايات المتحدة من خلال "المعهد الجامعى للتنظيم العسكرى" والذى تحول أخيرا إلى "المعهد الجامعى للقوات المسلحة والمجتمع"، وفى بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا الغربية والدول الاشتراكية الأوروبية. وذلك نتيجة نشر عدد متزايد من الدراسات والمشروعات الجماعية، ومن خلال إنشاء لجنة بحث على مستوى عالمى تختص بموضوع "كالقوات المسلحة والمجتمع" تحت إشراف الرابطة السوسيولوچية الدولية (المؤتمر السوسيولوچى العالمى السادس.. إيڤيان ١٩٦٦). ثم بصورة أشمل نتيجة الاهتمام المتزايد من جانب علماء الاجتماع وعلماء السياسة فى القوات المسلحة فى القارات الثلاث التى هى مجال الحركة الضخمة والتجديد وموضع الملاحظة المضطردة.

٢ – الاستثنائية وظاهرة "الانقلابات العسكرية": المنهج الوظيفى:

٢ – ١ تعريف الحقل العلمى

يبدو أن عنصر العسكرية قد دخل الوعى السوسيولوچى بطريقة عكسية. فبدلا من ظهوره نتيجة العمليات الواقعية فى العالم نجد أنه نشأ على أساس وعى زائف وتطور بحذر بالغ وفى الحدود العتيقة للمناخ الثقافى التقليدى. وإذا كانت المعايير العادية حسبما نزعم هى بالفعل المتعلقة بالمدنية والعلمانية والإنسانية؛ فإن عنصر

العسكرية يمكن اعتباره عندئذ عنصرا غير عادى أو جسما غريبا أو إيقاعا شاذا فى حركة التطور السلمية المتناغمة تجاه التقدم.

وهذا هو السبب فى أنه كان هناك ميل إلى إجراء الدراسات الأولى فى المجالات الثقافية الهامشية للمجتمعات السياسية بالتحديد فيما يسمى بالعالم الثالث.. حيث يجد المحلل نفسه هنا وجها لوجه أمام عمليات تختلف موضوعا عن تلك التى تحدث فى العالم العادى أى فى عالم المجتمعات المتقدمة اقتصاديا فى أوروبا وأمريكا الشمالية. وسوف يتم تبرير هذا التباين فى معظم الأحيان باستخدام منهج تاريخى وهو المنهج الذى يوحى به بوضوح النمط المثالى لـ ڤيبر Weber وكما طوره خلفاؤه وتلاميذه. وفى أحيان أخرى يتم الاعتراف بهذا التباين على أنه حتمية تاريخية تفسرها الخصوصية. وبذلك يتحمل التاريخ الموضوعى للجدليات الاجتماعية مسئولية هذا الشذوذ أو الانحراف عن المسار الطبيعى.

ويبدو أن هذا التطور الطبيعى تماما يواجه المحللين والمنظرين بصعوبات ضخمة، فكيف للمحلل أن يؤيد التأثيرات الغربية للظواهر التى تفرضها الأيديولوچية الغربية السائدة، وفى الوقت نفسه يستطيع أن يطور الأدوات الضرورية اللازمة لتقليل هذه التأثيرات الغربية ذاتها أو يشرح منطقها التاريخيى؟ إن ذلك ينطوى على خطر جوهرى حقيقى يتمثل فى اضطرار المحلل إلى قبوله هذا الاستواء التعددى الذى يضم دوائر قومية وثقافية وحضارية متعددة. وهو الأمر الذى يؤدى بدوره إلى كشف الطابع المتميز للجهاز المفاهيمى وللنظريات المستخدمة حاليا أو - إذا جاز القول - فإن ذلك سوف يكشف انحراف المنحرفين. وسوف تكون نتيجة ذلك كله الالتقاء الموفق بين المضمون وحقه الجغرافى، وهو ما سوف يلقى الضوء على الظاهرة ككل.

إن باستطاعتنا أن نعرف هذه الظاهرة فى ضوء طابعها العام بظاهرة "الاستثنائية"، غير أن هذه الدراسة المتمحصة للبحث تكشف عن الطابع غير المؤكد أو المشكوك فيه للمشروع العلمى ذاته.. هل هو "علم اجتماع العسكرية" سوف يتم تعريفه فى أفضل الأحوال على أنه "الحقل العلمى" الذى يشكل فيه استخدام العنف

المنظم أو القوات المسلحة أهمية أولى سواء كوسيلة أو كعقبة فى محاولة متابعة أى موضوع اجتماعى محدد[١٢].

وهنا تحدث البلبلة: هل ما نناقشه هو عنف غريب على الحياة الاجتماعية؟ هل العنف المسلح يعتبر خاصية من خصائص الجيش وحده؟ أم أنه خاصية محددة من خصائص جهاز الدولة؟ وأخيرا هل من الممكن أن نتصور تحقيق أى هدف اجتماعى ذى أهمية دون اللجوء إلى العنف المنظم؟

وهكذا ينشأ العديد من التساؤلات التى تكشف وتثير قضية الافتراضات الأيديولوچية المسبقة لهذا العلم من علوم الاجتماع كما تم تعريفه فى النص العلمى الرسمى الذى نشر فى عام ١٩٦٥ تحت إشراف الرابطة السوسيولوچية الدولية بدعم من اليونسكو.

والقضية هنا على ما يبدو تتعلق بكيفية فهم "الدور ما بعد العسكرى للجيش"[١٣] وكيفية إدماج "العسكرية الجديدة"[١٤] فى الصورة الكلاسيكية (رجال العسكرية القدامى)، ثم كيفية فهم أسباب هذه العناوين المثيرة للقلق مثل: "الجيش يتدخل"[١٥].

ليس بوسعنا أن نجد تفسيرا أفضل لهذه التساؤلات. فالمناقشة تدور كما لو أن الدور الأساسى للجيش هو دور "عسكرى ضمنى" منفصل (طبقا للتحليل الصورى عن جهاز السلطة) ويتم فى إطار مركب الدولة – الأمة الطبقة. كذلك يبدو الأمر وكأن الجهاز العسكرى فى اغترابه عن هذه العملية الغريبة للسلطة أصبح يعى فجأة قدراته، فأدار ظهره للتقاليد القديمة وألقى بنفسه فى خضم مغامرة، أو على أفضل الأحوال فى عمل لم يسبق له مثيل.

هذه هى بكل تأكيد نظرية الاستثنائية، ولكن فى إطار ما يوصف بالفعل بأنه حقل "علم اجتماع الجيش"[١٦].

وفى عام ١٩٧٠ كان هذا الحقل الدراسى يعرف عادة بأنه "يشكل كافة الأوضاع والتركيبات التى يتخذ فيها عنصر العنف المنظم دورا رئيسيا وشرعيا".

ولنلاحظ هنا أنه فى الفترة ما بين ١٩٦٥ و ١٩٧٠ تطورت مفاهيم جديدة مثل: "الأوضاع"، "التركيبات" و "الشرعية". ومن ثم فإن هذا الحقل من شأنه أن يضم أربعة مجالات: الحرفة المسلحة، المؤسسة العسكرية كبناء اجتماعى، العلاقة بين المدنيين والجيش، ودراسة الحرب[١٧]. وهو ما يعنى القول أن الحقل العلمى الذى يتحدد فيه موضع عنصر الجيش فى المنطقة المهيمنة ومنطقة القارات الثلاث يطمح على الأقل إلى تحقيق الوحدة والتجانس. إذن هل يمكن لنظرية الاستثنائية أن تكون أساسا لوضع نظرية عامة؟

٢ – ٢ الحقل العلمى فى إطاره الجغرافى

لقد بدأت تعبيرات مثل "الجيش والمجتمع"، والجيش فى الأمة (وبعد أن فرض الواقع المعاصر نفسه بأساليب غير مرئية) تتسلل إلى ما يمكن اعتباره أنماطا قديمة أو عتيقة. وبما أن الحال كذلك فما هى أفضل وسيلة لفهم مثل هذه التعبيرات؟

سوف نتحول إلى العالم الآخر: إلى العالم الثالث أو عالم القارات الثلاث.. هذه المنطقة التابعة.. عالم الثورات والحركات الوطنية.. وحيث يأتى المؤشر ليس من علم الاجتماع الاستعمارى القديم الذى تأسس فى الماضى فى أوروبا ولكن من الولايات المتحدة.. هذا القادم المتأخر إلى عالم الإمبريالية المهيمنة الذى وصل فى الفترة ما بين أزمة ١٩٢٩ – ١٩٣٢ وحرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥.

لقد دخلت الولايات المتحدة إلى هذا المجال الجديد للسيطرة بروح ريادية: أو ليست هى كما كان يحلو لتوماس جيفرسون أن يؤكد دائما: "الأمة الجديدة الحقيقية الوحيدة؟!".

غير أن هذه الدولة التى نجحت فى أقل من مائتى عام فى أن تتطور من مرحلة "الأمة الجديدة" لتصل إلى أن تصبح أعظم دولة فى التاريخ من خلال قوة مؤسساتها العسكرية الصناعية إبان الحرب.. تجربته الخاصة وعلى أساس نمطه الخاص وبهدف توزيع مشاكله؟

كانت هناك إذن خطوة واحدة بين كون الولايات المتحدة: "الأمة الجديدة الوحيدة" وبين فرضها لنموذج "الأمة الجديدة" على المجتمعات القومية فى مناطق

التبعية[١٨]. ثم ألا يسود الاعتقاد وبصفة عامة بأن المـرء لا يلحـظ بدقـة أدنـى مستويات الاستوائية إلا داخل هذه التكوينات القومية؟ أو ليست هذه التكوينات هـى بالتحديد الحقل المفضل لممارسات العسكريين حيث تكثر الحركات الثورية المطالبة بالاستقلال؟ ثم أليس هؤلاء هم ذاتهم العسكريون الذين يلعبون دورا كبيرا فى أتخاذ القرار السياسى فى الولايات المتحدة؟

ومن ثم وبناء على ذلك تصبح "الأمم الجديدة" هى الميدان المفضل لدراسة علم اجتماع العسكرية. وهذا الميدان الذى يعد إضافة متأخرة إلى المجال السوسيولوچى الواسع سوف ينجح فى تحقيق وصفه العلمى عندما يقيم رأس جسر علـى الضـفة الأخرى من النهر مبتدئا بعلم الاجتماع العادى كحقل أكثر ضمانا وأمنا.

هذا هو الإطار الجغرافى – المفضل إذا لم يكن الوحيد – وذلك طالمـا بـدأ العمل فى المجتمعات المتقدمة اقتصاديا والمهيمنة سياسيا.

وهكذا فإنه باستطاعة الدراسة السوسيولوچية لعنصر الجيش أن توفر بصورة طبيعية عناصر المقارنة الاجتماعية الكبرى طالما تحملت مسئولية التعـرف علـى كل المجتمعات التابعة والمجتمعات المهيمنة التى تسيطر عليها. وهى أيضا الوحيدة التى باستطاعتها أن تضع أساس نظرية عامة بظاهرة الجـيش فـى المجتمعـات القومية طالما أستكملت عملية التنظير الثلاثى[١٩]. وسوف تكون هذه هى أول مرة تنقلب فيها عملية محدودة على نفسها وتثمر عن نتيجة إيجابية.

ولكن هل من الممكن عندئذ أن نتجاوز نظرية الاستثنائية أو بمعنى آخر كيف لنا فى هذا الحقل المحدد موضـع الدراسـة أن نقـيم الجـدل بـين الخصوصـى والعمومى؟!

٢ – ٣ المعالجة الوظيفية: الإحلال (البديل) الاجتماعى

يبدو أن هذا هو الهدف الذى سعى إليه علماء الاجتماع والسياسية – ومعظمهم من الأمريكيين – فى أعقاب يالتا وانتصار الثورة الصينية.

٢ – ٣ (أ)

تعد هذه العملية فى الواقع عملية مختلفة بشكل ملحوظ حيث يوجد التزام قوى بتطوير النظرية منذ عام ١٩٦٠ وفيما بعد، وذلك طالما كانت الحالات الرئيسية هى موضوع البحث. غير أن هناك تصورا بأن عملية التنظير هذه تعد انعكاسا نظريا للأسلوب العام الذى تؤدى من خلاله المجتمعات (خصوصا الولايات المتحدة) وظيفتها. وهو أسلوب تزينه بعض الملامح المحلية المحددة التى لها دورها المبرز بالضرورة. بمعنى آخر فإننا لا نقوم بالتحليل المقارن للمجتمعات القومية بهدف تعزيز تصور الخصوصية على أساس دراسة دقيقة ملموسة لخصوصية كل منها، ولكن على العكس من ذلك فإننا نقوم بهذا التحليل على أساس نمط الاستمرارية الاجتماعية والوظيفية الاجتماعية التى يفترض عندئذ أنها تتكاثر على نطاق أضيق فى المناطق المختلفة من العالم اللاغربى.

٢ – ٣ (ب)

وحيث أن دراسة المصطلحات تثبت دائما أنها دراسة تنويرية فإننا سوف نشير هنا إلى المصطلحات الأساسية فى هذه الإشكالية وهى "التحديث" و "التكامل" (التكامل وليس الخصوصية) والتصورات والمفاهيم التى تنبع منها.

وفى البداية حدد كل من چون ج چونسون وهانزسبيير وإدوارد شيلز هذا الوضع فى إطار أول بحث أساسى تقوم به مؤسسة راند Rand فى سانت مونيكا (١٩٥٩ – ١٩٦٥) كما يلى[٢٠]:

"يلعب الجيش دورا حيويا فى كثير من الدول التى نشأت فى حقبة ما بعد الاستعمار. فهو كقوة ثورية ساهم فى تفكيك النظام السياسى التقليدى فى بعض الدول، ولكنه. فى دول أخرى لعب دور قوة الاستقرار حيث ساهم فى تجنيبها الوقوع فريسة للحكم الشيوعى. وفى أحيان أخرى لعب الجيش دور القوة التحديثية لنصرة آمال الطبقة الوسطى أو المطالب الشعبية التى تسعى على التغيير الاجتماعى ومنح الخبرات التكنولوچية والإدارية للقطاع المدنى فى الدول التى لا تتوفر فيها هذه الخبرات"[٢١].

"ومع ذلك فإن هناك سعيا أساسيا وراء مؤشرات عن كيف يتنافس السياسيون العسكريون مع الوطنيين والبيروقراطيين والمثقفين المتأثرين بالغرب. وعندما يستولى العسكريون على السلطة من المدنيين كما يحدث فى مناسبات لا حصر لها فى كافة مراحل نمو المجتمعات، فإنه يبدأ على الفور فحص صفاتهم الكاريزمية ومهاراتهم الإدارية والتنظيمية وغيرها بهدف التوصل إلى إجابة عن السؤال حول: لماذا نجحت الحكومات العسكرية فى تحقيق تقدم النمو القومى والممارسات الديموقراطية فى بعض الدول بينما كانت عامل تخلف فى البعض الآخر"؟[٢٢].

إن القضاء على هذه الفجوة بين الصفوة التحديثية والجماهير الشعبية هو الشرط اللازم لخلق مجتمع سياسى[٢٣]..

وهنا تبدو المصطلحات كما لو أنها ذات المصطلحات المستخدمة فى العلوم السياسية ، ولا تزال السيكولوجية الاجتماعية تسيطر عليها بصورة عميقة.

إذن كيف يكون باستطاعتنا أن نبرر انحراف العسكريين عندما يتحولون إلى سياسيين؟. لقد تم تعريف هذه اللعبة بالفعل على أنها لعبة التحديث. وفى هذه المرحلة من نموها يشارك علم الاجتماع العسكرى بالكامل فى رواج الدراسات حول "عملية التحديث".

ما هى إذن "عملية التحديث" هذه بالتحديد؟ إنها تتضمن تقليد عملية التنمية الغربية (و. و. رستو) ولكن مع انعدام القدرة على اللحاق بعملية التنمية الغربية. كيف يمكن تحقيق ذلك؟

الإجابة هنا تكون بالتركيز على "الإدماج". أى على تشكيل مركز قوى قادر على توحيد وإدماج المكونات المختلفة لمجتمع ما (الطبقات، الجماعات السلالية، المناطق، الأقاليم، الثقافات، الأقليات، والتكوينات السياسية والأيديولوجية). وبدون هذا المركز التجميعى فإنه يصبح من المستحيل تقريبا تكاثر النماذج التحديثية التى شكلتها المراكز المهيمنة. هذه النماذج هى وحدها القادرة على ضمان تحقيق التطور السوى الرشيد للمجتمعات التابعة (هذا المحيط الذى يرقص على نغمة مركز الهيمنة). ولكن فى الجوهر تكمن مشكلة السلطة وصلب مركزها: الجيش.

وسوف يتم استخدام تصور "التكامل" على مستويين: أولهما على مستوى المركز العسكرى ذاته الذى يجب تركيبه قبل التحرك إلى العمل على المستوى الأشمل للمجتمع القومى.

ومن ثم فإنه دراسة "النظام العسكرى" سوف توصف على أنها تتألف من عملية "التكامل الوظيفى" (لانج) التى صاغ منها س. أندرزيوسكى و م. دفيلد[٢٤]. نماذج لأنماط عديدة. ومن هنا سيتضح على الفور أن الجهاز العسكرى يستجيب للتكامل الوظيفى للطبقة السياسية عندما يصل إلى أفضل مستوياته بمفهوم (الأمة تحت سيطرة الجيش) وفقا لفيلد، و "المركب العسكرى الصناعى" و "الصفوة السلطوية" كما يقول ل. س. رايت ميلز.

أما المستوى الثانى – وهو مستوى "العلاقات المدنية العسكرية" الذى ينظر إليه على أنه يشكل عملية "التكامل المعيارى" فهو ينبع من المستوى الأول حيث أن كل شئ تقريبا يندرج تحت هذا العنوان: " العلاقات بين الطبقات الاجتماعية والمؤسسة العسكرية، بين رجال الدين والسواد الأعظم من الشعب، بين البيروقراطية والأوليجاركية والمجتمع ما قبل الصناعى، بين تأثيرات الانتصار والهزيمة، عدم الاستقرار الحكومى، الروح المعنوية، الوحدة الوطنية فى مواجهة الروح الطائفية، القيادة العسكرية والتدخل السياسى. مفهوم المركب العسكرى الصناعى والدولة العسكرية. الجيش والبحث العلمى والتكنولوجى. المساعدة الأجنبية: علم السكان (الديموجرافيا) وفرص العمل الطاقات التنظيمية والإدارية والسيكولوجية، الزعامة. وفى التحليل النهائى الإمبريالية"[٢٥]. أى أن كل شئ ينتمى إلى هذا المجال. وسوف نرى فيما يلى ما ينطوى عليه ذلك. كذلك ستتولى الموجة الثانية، أو بمعنى أصح علم الاجتماع العسكرى كما طوره موريس جانوفتيز مهمة استكشاف هذا الحقل الضخم من منظور وظيفى ولكنها ربما تولى مزيدا من الاهتمام للصعوبات النظرية.

٢ – ٣ (ج)

إن الإضافة التى قدمها جانوفيتز[٢٦] مستندا إلى فرضية حديثة لكاتب هذا الكتاب تتركز فى محاولته تحديد دور الجيش داخل إطار عملية "تكامل ديناميكى"

تفتح سبلا مهمة أمام عناصر تنشأ عن المنعطفات الدولية. ومع ذلك فكل شئ يرجع بنا إلى نفس القضية التى حدد جانوفيتز إشكاليتها الرئيسية على النحو التالى:

أولا: "إلى أى مدى عدل الجيش فى الدول الصناعية والدول النامية من منظوراته المهنية حتى تأخذ فى الاعتبار الأسلحة الجديدة للتدمير الجماعى والطابع الاجتماعى السياسى للحرب التقليدية"؟.

وثانيا: لماذا تتمتع طبقة الضباط فى الدول النامية بنفوذ أقوى فى شئون السياسة الداخلية مما تمتعت به نفس الطبقة فى المجتمعات الصناعية؟

ويقترح الكاتب أن نسعى للإجابة على هذه التساؤلات بدراسة البناء الداخلى لمهنة العسكرية فى مجتمعات مختلفة ودراسة التباينات فى البناء الاجتماعى بين الدول القومية المختلفة.

وبما أنه ثبت أن "تحليل الجمع الإحصائى" غير مرن فى الإسقاط النظرى، فإنه يصبح من الضرورى أن نتحول إلى البحث عن "فئات مفاهيمية محددة" خصوصا من أجل تحديد التطبيق المحدد للمشكلة الكلاسيكية لعقلانية التنظيمات الكبيرة. أى للأوضاع التى يصبح من الممكن فى ظلها تطوير أو تنظيم التكيف الفعال بين الوسائل والغايات على التنظيمات العسكرية.

وفيما يتعلق بالسؤال الأول فقد كانت هناك إجابات أكثر جدية، منها على سبيل المثال: "داخليا يحمل مفهوم العسكرية فى طياته معنى تنمية وتثبيت الممارسات التى تعوق هذه الإجراءات العلمية والإدارية التى من شأنها أن تؤدى إلى مزيد من "المهنية". أما خارجيا فإن العسكرية تتضمن السلطات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى يحددها الجيش وتأثير هذه السلطات على البناء الاجتماعى الداخلى وعلى السياسات الدولية".

إن العسكريين متخصصون فى إدارة العنف والدمار الجماعى. والنموذج المثالى للرجل العسكرى المحترف ليس فى أن يكون عالما أو مهندسا أو رجل أعمال دائما يدخل فى تكوين صورته الحرفية الذاتية عنصر بطولى لا يمكن التقليل منه إلى درجة أن الرجل العسكرى ينبغى أن يكون قد واجه الخطر وجها لوجه".

وهكذا سرعان ما يتحول إلى معلم. ويقودنا ذلك مباشرة إلى السؤال الثانى الذى يتعلق بالعلاقة بين القوات المسلحة والبناء الاجتماعى.

سوف تكون نقطة البداية هنا النموذج "الأرستقراطى - الإقطاعى" الأوروبى الذى يبرهن بعدم كفايته على الحاجة إلى دراسة "الجذور الاجتماعية" للمؤسسة العسكرية. ومن ثم فإن الدراسات المقارنة قد تمكنت من التمييز بين خمسة أنماط للعلاقات المدنية العسكرية هى: "النظام الفردى الديكتاتورى للسيطرة المدنية العسكرية"، ونظام الحزب المدنى الجماهيرى، ونظام التنافس الديموقراطى أو شبه الديموقراطى، ونظام الائتلاف المدنى العسكرى. وأخيرا نظام الأوليجاركية العسكرية.

ومع ذلك فإن سلم أنماط النظم هذا لا يقطع الشك حيث يكون رد فعل العسكريين فى أفريقيا وآسيا بأساليب غير متوقعة.. فهم "عملاء ناقصون للتغيير السياسى".

وهنا يتدخل البعد الدولى سواء على أساس منهج "الصراع" أو من خلال منظور "تظامى"، وهنا أيضا نادرا ما نجد إشارة لوجود الإمبريالية المهيمنة (مصطلح إمبريالية ليس موجودا فى أى مكان فى النص). أو لتوازن قوة التعايش. ويبدو "الأمر الواقع" وكأنه قادر على تخفيف التوترات وتسوية الحروب المحلية، وهى تلك الصراعات التى يمكن معالجتها بقيام القوات المسلحة بدور بوليسى بحيث تمارس مهامها "كقوة شرطة عسكرية" من المفترض أنها تمثل "إضافة سوسيولوچية لمشكلة التنظيم". وتتخذ أشكالا متعددة، سواء الشكل الوطنى (قوة البوليس الوطنى كما وصفها و. ميلز و ج. بريد) وشكل القوة المتعددة الجنسيات أو الدولية (قوات المراقبة الخاصة فى إطار الأمم المتحدة كما وصفها توماس شيلينج).

إذن يستخدم الجيش على المستوى الداخلى كأداة لتحقيق الوحدة، أو كوسيلة غير كاملة للتحديث. أما على المستوى الخارجى فإنه يقوم بدور الحارس على العلاقات الدولية. وهذه هى أفضل صورة استطاع علم الاجتماع السياسى أن يقدمها لدور الجيش فى المجتمعات المعاصرة. وهى تقع فى إطار وظيفى عام رغم أنها

أصبحت الآن أكثر قابلية للفهم أى بعد أن اتخذت هذا البعد الدولى. ومن ثم فإن النتيجة التى وصلنا إليها والتى وصفناها بأنها منهج التكامل الديناميكى للعنصر العسكرى فى المجتمع تجعل من اليسير علينا أكثر من ذى قبل أن نأخذ فى الاعتبار الصيغ المختلفة التى يؤدى بها المجتمع المدنى العسكرى وظيفته.

ومع ذلك فلا يزال هناك مفهوم خارج مجال تخصص الحقل العلمى. وهو هذا المفهوم الذى يسمح لنا تطبيقه هو وحده بأن نأخذ فى الاعتبار هذا الانتشار الطيفى الواسع المدهش للجيش فى كافة مجتمعات هذا العالم المعاصر، وليس فقط فى المجتمعات الخاضعة للسيطرة.

وسواء نظرنا إلى القطاعات الصناعية الرأسمالية (الجيش فى فرنسا والولايات المتحدة وسويسرا وبريطانيا العظمى والبرتغال على سبيل المثال. أو فى ألمانيا النازية والمعاصرة) أو المجتمعات الاشتراكية.. (الجيش فى الصين والاتحاد السوفيتى وكوبا بصفة خاصة) ثم هذه المجتمعات فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية التى أقامت نظام الدولة القومية المستقلة استنادا إلى نمط راديكالى.. مصر والجزائر وشيلى وتنزانيا وغيرها. أو مجتمعات هذا المحيط التابع ذاته حيث تعرضت الحركة القومية للاحتواء أو للحصار فى إطار الاستقلال الشكلى. ثم معظم الدول الأفريقية شبه الصحراوية ودول أمريكا اللاتينية على سبيل المثال. فى كل هذه الأنماط لا تعمل الأشياء بنفس الأسلوب، حتى دخل كل فئة من الفئات الاجتماعية السياسية العظمى التى يمكن تحديدها على المسرح الدولى.

ولذلك فإن "الاستثنائية" ليس بوسعها حتى داخل حدود العقلانية الشكلية للوظيفية أن توفر لنا الإطار النظرى لتفسير العالم الواقعى.

ومن الواضح أن الصعوبة هنا تنشأ من أمرين: أولا من الطريق المسدود الذى تصل إليه الوظيفية بشكل عام[٢٨]. وثانيا من عجز كافة الوسائل الوظيفية المتاحة من جهة، ومن جهة أخرى من محاولة استخدام الاستثنائية من وجهة نظر أوروبية كأساس لجزء واحد من نظرية عامة. ونقصد بهذه النظرية نظرية التكامل الديناميكى التى تتخذ فى هذه الحالة شكلا محددا هو "البديل الاجتماعى". ومن ثم

يكون هدف البحث أساسا هو اكتشاف عامل الإدماج ويصبح هـذا الهـدف أكثـر إلحاحا وضرورة عندما تكون هذه المجتمعات التى يطلب فيها تدخل الجـيش هـى المجتمعات التى تقع فى منطقة العاصفة حيث تتشكل حركـات التحـرر الـوطنى وتندلع الثورات القومية والاجتماعية. وحيث تغطى نظرية الاستثنائية علـى نقطـة الالتقاء التاريخى الموضوعى عند تمزيق نظام الهيمنة العـالمى لصـالح القـوى الشعبية الثائرة فى الدول القومية، التى لا تزال تقع فى محيط التبعية. عنـد هـذه النقطة تبدو كافة القوى الاجتماعية.. الطبقات الوسـطى والبورجوازيـة الوطنيـة والصفوة المثقفة والتكنوقراط التحديثية وكأنها قد امتلكت زمام أمورها على الأقـل فيما يتعلق بالدور المنوط بها فى مركز جهاز السلطة. وعند هذه النقطة يبرز دور الجيش كعالم إدماج: كمعلم وكعنصر للتحديث.

٢ – ٤ اللحظة التاريخية للمنهج الوظيفى

يتعين علينا الآن أن نسعى فى إطار تحليل قمنا به فى مجـال آخـر[29] إلـى تحديد الدوافع التاريخية سواء على نطاق واسع أو وفقا للشـروط المحـددة التـى يفرضها الحقل العلمى موضع البحث.. تلك الدوافع التى أدت بمجموعة من علمـاء الاجتماع والسياسة إلى التفضل التلقائى للمنهج الاستثنائى ومحاولة تطوير نظريـة وظيفية.

وبما أننا قد انتهينا من مناقشة الـدوافع التاريخيـة والثقافيـة وراء المـنهج الاستثنائى فإنه يتعين علينا الآن أن نحدد العناصر التاريخية التى أتاحت بلورة هذا المنظور عند هذه النقطة فى مجال العلاقات بين الجيش والمجتمع المـدنى، وهـى تنحصر فى عنصرين: الأول حالة الأمر والواقع التى ترسخت فى الغـرب علـى أساس تقسيم العالم إلى معسكرين: معسكر رأسمالى (حر) ومعسكر إشتراكى كمـا اتفق فى يالتا. غير أن العنصر الثانى يبدو أقل وضوحا. فالمجموعة الرئيسية مـن المتخصصين من العنصر العسكرى فى العلوم الاجتماعية كانت – ولا تزال – كما رأينا متمركزة فى الولايات المتحدة. وقد بدأ العنصر العسكرى يتحول إلى قضـية فى وقت كانت فيه هذه الدولة قد بـدأت ترتـدى عبـاءة الإمبرياليـة الأوروبيـة

الكلاسيكية، حتى أن منطقة نفوذها التقليدية ظلت طبقا لما حدده مذهب مونرو فـى عام ١٨٢٣ هى العالم الغربى ومنطقة أمريكا الجنوبية والمحـيط الهـادى. وهـى مناطق تبدو دولها مجموعة من الأمم لا تنتمى إلى النموذج الأوروبى أو التقليـدى الذى حددنا موقعه قبل ذلك فى سلم أنماط يشمل: "الأمم والدول القومية ذات الأصل الأوروبى التى فرضت على أساس أجنبى متدهور ومتفكك "والأم المنبعثة" والأمـم القومية الجديدة ذات التوجه الوحدوى، "والدول الجديدة ذات التوجه القومى".

هذه الأمم غير التقليدية تعتبر أمما جديدة وذلك نتيجة للنزعة الأمريكية التـى اتجهت إلى تطبيق التجربة الخاصة بالولايات المتحدة على كل منطقة خارج حدود العالم القديم.. أى خارج حدود أوروبا.

وفى الوقت ذاته، وبينما كانت العلوم الاجتماعية فى أمريكا تحول إنتاجها إلى العنصر العسكرى فى هذه المناطق التى نشأت فيها التكوينات القومية غير التقليدية كانت هذه التكوينات – الضعيفة البنية – فيما يتعلق بتكامل الدولة القوميـة والتـى كانت قد منحت جذور "طبقة سياسية" بينما تثير مشكلة الهويـة القوميـة(30) قلقهـا – باستثناءات قليلة – هذه التكوينات كانت تمر بمرحلة تفكك وعدم تماسك خطيـرة اتسمت بسلسلة من الانقلابات العسكرية المتعاقبة.

كان ذلك إذن هو عصر الكولونيلات.. عصر العدو السـريع عبـر مسـافات شاسعة مفتوحة لا تؤدى إلى كاليفورنيا. كان ذلك عصـر صـعود الأوليجاركيـة العسكرية والكومبرادور. وأخيرا كان ظهور رجال حرب العصابات وراء الجبـال وفى عزلة عن الجماهير الشعبية التى ظل مستوى اندماجها القومى والاجتمـاعى الضعيف يمثل مشكلة دائمة.

هذا إذن هو المعامل Catalyst. وسوف يكون ذلك هـو الإجابـة النظريـة، فالجيش والجهاز العسكرى والعلاقات بين الجيش والقانون سوف ينظر إليها جميعا من خلال هذا المنظور.

ومعنى ذلك أننا سوف نجد استثنائية هـذه الـدول الواقعـة تحـت سـيطرة الإمبريالية الجديدة المهيمنة للولايات المتحدة والتى كانت فى ذات الوقت المصـدر

الرئيسى للبحث فى عنصر العسكرية فى العلوم الاجتماعية.. سوف نجد هذه الاستثنائية فى الجيش، وبواسطته ومن خلاله سوف نصل إلى عقلانيتها التى تفسر فى حد ذاتها وفقا لمعنى وظيفى.

ولأن هذا بالقطع يعد تطبقا مفتعلا غير يسير فإنه يؤدى إلى أسئلة بلا إجابات ومراوغات وتقديرات استنتاجية – سطحية وما ينتج عنها من فشل نظرى، وذلك رغم التقدم الحقيقى فى تحديد الحقل العملى وطرح الفروض القابلة للتطبيق والقضايا المتصلة.

وهكذا تبقى الإشكالية الأساسية هى: ما هو دور الجيش فى المجتمعات الحديثة؟ وهى ليست إشكالية مقصورة على محيط القارات الثلاث أو منطقة التبعية.

ولذلك – كما قلنا فى بداية هذه الدراسة – فإنه بقدر ما يوضع الجيش فى مركز السلطة لكل مجتمع قومى على حدة بقدر ما تتخذ عملية التركيب النظرى بعدا عالميا. وبقدر ما تجرب التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية المختلفة منعطفات تاريخية متباينة بقدر ما ينبغى على النظرية أن تأخذ فى اعتبارها أوسع مدى من المتغيرات المستمدة ليس من ظاهرة الاستثنائية، ولكن من مفهوم الخصوصية الذى سننتقل إليه الآن فى محاولة لاستكشافه.

٣ – الجيش فى عملية بناء التكوين القومى

٣ – ١

يتناقض تاريخ المجتمعات الإنسانية مع كل من الاستثنائية الفكرية Cematic والاستثنائية الإقليمية: بل إن تاريخ المجتمعات الإنسانية يشهد على صدق حقيقة أن الجيش كان دائما فى مركز العملية التى يتم بمقتضاها بناء التكوينات الاجتماعية الاقتصادية كتكوينات قومية. أى أنه كان على الدوام جوهر بناء الأمم والدول.

وهذه الفرضية الأساسية التى لا يمكن الاعتراض عليها تجد دليلها وبرهانها فى جيش مصر الفرعونية – وفى الجيش الذى وحد الصين تحت زعامة هانز وفى بلاد الفرس القديمة. كذلك فهناك دليل على ذلك فى الدول القومية – الأوروبية

الحديثة، فرنسا منذ Vercingetorix حتى نابليون. وبريطانيا العظمى فى عهد كرومويل. وروسيا منذ بيتر العظيم حتى سوفيتيات الجند (١٩١٧) وبولندا قبل هزيمتها، والسويد تحت زعامة تشارلز الثانى عشر. وينطبق نفس الشئ على أرجاء أخرى من اليابان إلى تركيا ومن إسبانيا إلى أثيوبيا. وفى هذه الدول الضائعة فى أفريقيا وأمريكا الوسطى والجنوبية[٣١].

وكلما كانت المجتمعات الإنسانية تسعى إلى تحقيق وجود متكامل كوحدة قومية حول مركز سلطة يكون هو فى حد ذاته أداة لهيمنة طبقات مسيطرة. كان الجيش هو جوهر هذه العملية ككل، فالجيش كان مثل رأس حربة يقوم بتمهيد الطريق وحماية السلطة القومية ويجوب الحدود، وعندما تثير الظروف قضية الوحدة يكون على الجيش توحيد المكونات المختلفة للكيان القومى حول مركز الهيمنة. ومما لا شك فيه أنه عادة ما كان يتم تنفيذ ذلك باستخدام النار والسيف، ولكن دائما استنادا على مشروع سياسى قومى، ودائما فى إطار نظرة عالمية شاملة.

٣ - ٢

إن هذه الحقائق وهذه الفرضية ليست لها أية استثناءات فى أية مرحلة من مراحل تاريخ العالم، ومع ذلك فإن العلوم الاجتماعية لن تأخذ منها سوى دور العنف الذى اضطلع به الجيش انطلاقا من رؤية أخلاقية بحتة، وهكذا تتقلص الظاهرة بأكملها إلى مستوى الانحراف اللا إنسانى المستمر. ويصور دور الجيش فى تحقيق الوحدة الاجتماعية الكاملة دورا استثنائيا فى استواء يعتبر كامنا فى أسبقية نشوء المجتمع المدنى بتوجهه الديموقراطى التعددى الإنسانى السلمى العلمانى.

كان هذا إذن هو اتجاه هذا العصر، لا سيما بعد فترة حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ وحيث لم يستطع العالم المهيمن (الغرب) أن يجد وهو يحاول أن يواجه حقبة تاريخية بأكملها (عشرة قرون من الحروب الأوروبية) وسيلة أخرى لتعديل التوازن بصورة دائمة وجذرية بين دوله الأساسية التى حاول هتلر أن يوحدها فى مواجهة دولة واحدة من بينها اختارت طريق الاشتراكية.

ومع ذلك يظل الجيش فى مركز السلطة. وتستمر الحروب ناشبة فى أرجاء العالم تحت رايات الغرب المتمدين الديموقراطى العلمانى السلمى.. هذا الغرب الذى خاض عشرة قرون من الغزوات الصليبية ضد العالم الإنسانى "الملحد" الذى يتحكم في المناطق الهامة المحيطة بالبحر المتوسط حيث تلتقى أوروبا بالشرق سواء بأفريقيا أو آسيا.. هذا الغرب الذى ارتكب أعمال القمع البربرية ضد السكان الهنود الأصليين فى الأمريكتين، والذى قام بعمليات الاستغلال التجارى لأفريقيا وبلقنتها وإنشاء الإمبراطوريات الاستعمارية، التى تبعها النظام الإمبريالى وهو نظام كان أول ما ضرب الشرق (أى العالم العربى والإسلامى) ثم الهند والصين، ومعظم أرجاء آسيا.

وليس بخاف أنه فى الفترة التى أعقبت يالتا لا تزال الحروب التى يتورط فيها الغرب هى تلك الحروب التى يخوضها ضد الشرق الثورى الناهض: فى كوريا وڤيتنام والهند الصينية وفى مصر والجزائر. ومع ذلك لا تزال العمليات العسكرية البوليسية مستمرة ومتكاثرة بحيث أنها أصبحت تتحكم فى حجم الدمار وتحفظ ماء الوجه فى نفس الوقت. ومثال على ذلك ما حدث فى إيران "مصدق وتودة" وما حدث فى أندونيسيا فى عهد سوكارنو وعيديت Aidit وكوبا الشيوعية وجمهورية الدومينيكان وجنوب أفريقيا وأنجولا وموزمبيق والسودان والأردن والمغرب.

أما فى "ڤيتنام الشهيدة" وحدها فقد فجرت الولايات المتحدة كمية من المتفجرات تفوق ما شهده العالم خلال فترة الحرب العالمية الثانية كلها. وڤيتنام أيضا مثال على هذا النمط من الصراع المحلى الذى يسمح بصيانة وهم السلام العالمى.. فهو سلام يستبعد منظوره العنصر العسكرى من الحقل الرئيسى للمعرفة العلمية والثقافية بقدر ما يستطيعون.

٣ - ٣

إن هذه المبادرة العسكرية التى تأخذ شكل هجوم شامل من جانب الإمبريالية المهيمنة على مستوى عالمى شامل تصبح أكثر حتمية أمام ظهور حركات الاستقلال الوطنى فى محيط التبعية لا سيما فى الشرق إلى جانب أمريكا اللاتينية وبعض أنحاء أوروبا.

ومن الطبيعي أن نمو الحركات الوطنية سواء اتخذت شكل بناء دول جديدة ذات توجه قومى أو شكل الانبعاث لأقدم الأمم فى العالم – وهو أقصى أطراف التكوين الاجتماعى القومى – لا يتأتى إلا بعمل مشترك لكل من جماهير الشعب والدولة القومية المستقلة.

ولذلك فإنه يصبح من الطبيعي أيضا أن يجد الجيش نفسه فى قلب هذه الأزمة الصعبة، حيث أنه يضطلع فى التحليل النهائى بمهمة حماية استقرار مؤسسات الدولة القومية واستقلالية سلطة القرار لديها وعلى أنه جيش الشعب الذى يناضل من أجل تحرره وثورته. ومن هنا نجده يضطلع بالدور التقليدى للمؤسسة العسكرية فى نفس الوقت الذى يتحمل فيه وظيفته كحامل رسالة المستقبل. والصين ومصر هنا مثلان واضحان.

وهكذا يصبح الجيش الآن وأكثر من أى وقت مضى جوهر وطليعة الجدلية الاجتماعية فى أنحاء العالم، سواء جيوش القوى الإمبريالية المهيمنة التى تقوم بمهامها فى الخارج ومن ثم فهى تعمل على حماية أوهام المجتمع المدنى الإنسانى المسالم من جهة، أو من جهة أخرى جيوش الحركات الوطنية فى أرجاء المحيط التابع سواء كان محيطا منبعثا أو فى حالة ثورة والذى يأخذ شكل جيش الدولة أو القوات الشعبية.

كل هذه الضغوط تفسر ظهور "علم اجتماع العسكرية" لفهم الثورة الطائشة لما كان يعتبر استثنائيا وغير عادى فى محيط عادى طبيعي.

٣ – ٤

وهكذا كما رأينا يبرز "علم اجتماع العسكرية" عندما يقتحم الجيش مرة أخرى حقل الرؤية العلمية. ومن هناك يتقدم سواء فى محيط الهيمنة أو فى المحيط الثورى التابع فى اتجاه رد منطقى مألوف.

٣ – ٤ (أ)

إذا سلمنا بأن الجيش يقوم دائما بدور إيجابى تقدمى فى النضال الوطنى ضد الإمبريالية، فإننا سنحاول أن نقيم معادلة بين هذا النمط من الجيش وجيوش الدول

المهيمنة. وفى كلتا الحالتين سوف يعتبر الجيش جماعة اجتماعية محايدة تؤدى وظيفتها وتستجيب لمؤثرات وضغوط وتقاليد واحتياجات متشابهة. وفى هذا الإطار تستخدم الوظيفية لتبرئة الجيش فى الدول الإمبريالية حيث تفسر أعمال القمع والمذابح وحتى الإبادة على أنها مجرد اضطرابات تحدث أثناء أداء النظام الاجتماعى لوظيفته وهو النظام الذى بإمكانه تلبية كافة الاحتياجات.

ولذلك فإن التحليل الوظيفى يلقى قناعا على المضمون الاجتماعى السياسى للمؤسسة العسكرية وهى تعمل فى بيئة قومية متباينة للغاية وفى مواقف زمانية مكانية مختلفة.

٣ - ٤ (ب)

إذا كانت نقطة البداية لدينا هى الدور الأصلى للجيش كمؤسسة مهمتها حماية النظام الاجتماعى بمعناه الواسع فى أية دولة قومية معينة. فإنه سيكون من الممكن دائما العودة إلى نفس الرأى السائد القائل بأنه فيما يتعلق بالقوات الشعبية أو جيش الدولة التى تخوض نضالا من أجل الاستقلال والثورة هناك نفس المعامل السلبى الذى يعد مقبولا بالنسبة للجيش فى الدول المهيمنة. غير أن هذه المناقشة تؤدى فى أكثر أشكالها المتطرفة الفاضحة إلى نفس رد الفعل الرافض الذى عبرت عنه القطاعات التقدمية العريضة فى الغرب تجاه دور الجيش فى الصين الشعبية خلال فترة الثورة الثقافية[32]. فقد نظرت هذه القطاعات إلى الكوادر التى تكونت من الفلاحين المسلحين والعمال المثقفين الذين بنوا الثورة طوال نصف قرن من النضال حتى المسيرة الطويلة وبمجرد أنها نظمت نفسها فى الجيش الشعبى على أنها متطابقة مع الجيش فى الدول الإمبريالية. وهنا يلعب التفسير التروتسكى دورا رئيسيا إذا سلمنا بكراهيته للدول الاشتراكية وجهاز السلطة فيها طالما كانت هذه الدول تمتلك بناء بيروقراطيا، أى شكلا من أشكال التنظيم الذى يضطلع بمسئولياته أمام الجماهير الشعبية على مستوى إقليمى.

غير أن هذا الغموض وهذه المتناقضات ليست نتيجة الصدفة، فنحن نؤمن تماما بأنها تعد نتيجة مباشرة لوجود حقل علمى محدد خاص بعلم الاجتماع

العسكرى، وذلك لأن دراسة العنصر العسكرى ينبغى أن تكون جزءا طبيعيا مندمجا فى علم الاجتماع السياسى وسوسيولوچيا الحركات الوطنية. وعندئذ فقط نستطيع أن نبدأ فى تفسير الطابع اللا انحرافى للعنصر العسكرى وذلك بوضعه فى إطار بيئته الموضوعية فى العالم الواقعى.

ومع ذلك فإن هذا المنهج هو الذى أعطى هذا الطابع العلمى لتلك الأعمال التى أثرت فى تحديد اتجاه العلوم الاجتماعية على مستوى أكثر شمولية، بينما ظل البحث فى علم اجتماع العسكرية يركز طاقاته على تكييف وسائل الاتصال بالجماهير ولا سيما الصحافة.

٣ – ٥

إن دراسة الجيش ينبغى أن تعالج فى إطار علم اجتماع السلطة. وبما أننا قد اخترنا أن نضعه فى طليعة العملية التى تتشكل بمقتضاها التكوينات القومية فإنه سوف يوفر لنا أيضا الفرصة لأن نضيف إلى هذا الإطار الشامل علم اجتماع الحركات الوطنية. وإنه مما يستحق الإشارة إليه هنا أن التحليل سوف يتبلور فى إطار مفهوم الخصوصية.

والمشكلة فى واقع الأمر تتلخص فى الآتى: كيف لنا أن نبرر الاختلاف الملحوظ فى الدور الذى يقوم به الجيش فى دولة متشابهة وفى إطار تكوينات اجتماعية اقتصادية استطاعت بكل وضوح أن تحقق نفس مستويات التنمية الاقتصادية؟ ثم كيف نفسر على سبيل المثال التباين بين دور الجيش فى اليابان وبريطانيا العظمى، فى البرازيل والمكسيك، فى مصر وتركيا، فى الصين وبولندا، فى نيچيريا وجمهورية مالاجاش، فى الولايات المتحدة وألمانيا؟

إننا إذا استخدمنا المنهج الوظيفى لمعالجة هذه المشكلة فإننا لن نتوصل إلى إجابة شاملة، وسوف يقتصر الأمر فى النهاية على التفصيلات الإحصائية والسلوكية التى يهتم بها علم الاجتماع العسكرى.

ولكننا من جهة أخرى إذا افترضنا وضعا تاريخيا نقديا يقوم على أساس تصور الخصوصية، فإنه يصبح من الواضح على الفور أن الجيش ليس كيانا

مجردا – فى أية عينة معرفة – منعزلا عن الأساس الملموس الذى يوجد ويعمل فى إطاره[٣٣]. ولكنه بالقطع عنصر تكوين مندمج فى التكوين الاجتماعى الاقتصادى ككل، ويشكل المحور الأساسى للسلطة.

وفى هذه الحالة فإن التحليل سوف يشير إلى المجتمع القومى ذاته، وسوف ينظر إلى الجيش من خلال هذا الإطار الشامل، ليس ببساطة "كجيش" فقط ولكن كجيش قومى فى مجتمع قومى معين وعند مرحلة معينة من مراحل تطوره التاريخى، ثم يوضع ذلك فى إطار عملية التطور التاريخى ككل.

وبمجرد أن يتم تحديد خصوصية هذا المجتمع القومى ككل فإنه سوف يكون بالإمكان التركيز على شكل التكوين القومى المعين وعلى أسلوب التحول من تكوين اجتماعى اقتصادى إلى آخر (من الإقطاعيين إلى الرأسماليين على سبيل المثال). وفى إطار هذه الدائرة يكون بالإمكان أن ننظر إلى الأساليب الخاصة التى تتشكل بها سلطة الدولة. وعندئذ يكون من الممكن أيضا أن نجد مغزى لعناصر أخرى مثل فصل السلطة بالنسبة للتوجه العلمى والتقنى للجيش الفرنسى، والتعايش بين سلطة الدولة التى تضم العنصر العسكرى والكفاءة الاقتصادية والأيديولوچية القومية فى مصر، والدور الأصلى للجيش فى الإمداد ونقل الجنود وإيوائهم فى البرازيل وأندونيسيا، والدور الرئيسى للجيش فى جدلية الشعبية والاستبدادية فى روسيا، وسيطرة نزعة الانقلابات العسكرية، أو العمل المشترك مع القوى الموجودة ميادين الهيمنة عند بعض جيوش الدول ذات التوجه القومى والطابع الوحدوى والشعبى الذى ميز الجيش فى الصين وفيتنام فى بعض الأوقات والتوجه البطولى التعليمى للجيش فى كوبا والمؤسسة العسكرية الصناعية فى حقبة الثورة التكنولوچية والعلمية فى الولايات المتحدة... إلخ.

ولسنا نقصد هنا أن نقول بأى حال أن السلطة السياسية وبالتالى الجيش متميزان فى طابعهما الأساسى فى أى من هذه الدول، ولكن الأمر ببساطة هو أن عملية التطور الخصوصية لكل دولة لها تأثيراتها على الدور المنوط عادة بالجيش فى تلك الدولة، على أن يكون مفهوما بوضوح أن الجيش يشكل فى كل الحالات

المحور الأساسى لسلطة الدولة لحظة إنشائها، وعند تلك النقطة التى يتحول فيها كل تكوين اجتماعى اقتصادى إلى أمة منبعثة جديدة وموحدة. ورغم أن المصطلح مشترك، إلا أنه سوف يتضح أن لدينا هناك شيئا مشتركا بين جيش الكومبرادور الذى يقوم على حماية المصالح المشتركة للإمبريالية وحلفائها وعملائها من الأهالى الأصليين من جهة وبين مؤسسة عسكرية نشأت نتيجة تراث تميز بالرغبة فى تحقيق استقلال الدولة القومية، أيا كانت حدودها: الجيش اليونانى أيام الثورة المضادة (١٩٤٥ – ١٩٤٩) والجيش الذى قدر له الاستيلاء على السلطة بعد عدة سنوات فى مصر، والجيش الذى قاده أتاتورك فى حرب الاستقلال (١٩١٩ – ١٩٢٣) والجيش الذى يطارد الليبرالية فى جواتيمالا وبارجواى وأفريقيا البرتغالية. والجيش الذى برز أثناء المسيرة الكبرى وجيش دولة ظل دائما على هامش جميع الصراعات على مر التاريخ مثل جيش سويسرا. وهكذا يتضح أنها جميعها مختلفة للغاية يصعب حصرها فى نمط أو تعريف أو وظيفة سياسية مشتركة.

٣ – ٦

نستطيع الآن أن نرسم سلم أنماط مبدئى استنادا إلى العلمية التى يتم بمقتضاها بناء الأمة كالآتى:

٣ – ٦ (أ)

الدول ذات معامل عال لاشتراك العسكرية فى الحياة الاجتماعية وهذه المجموعة تضم مجموعتين فرعيتين:

١ – الدول القومية الواقعة فى محيط التبعية التى تناضل من أجل التحرر وتحقيق ثورة قومية واجتماعية. وهذه المجموعة تضم المحيط القارى الثلاثى بأكمله لكنها تضم بصفة أساسية، تلك التكوينات القومية التى تتمتع بعمق تاريخى عظيم، أو بالأحرى الأمم القديمة التى تسعى فى مرحلة تكوينها القومى إلى تحقيق نهضة قومية وليس مجرد استقلال بسيط.

٢ – الدول الإمبريالية المهيمنة التى آثرت الدخول فى نشاط إمبريالى فعلى على مجرد حماية ممتلكاتها القديمة[٣٤].

٣ – ٦ (ب)

دول ذات معامل ضعيف لمشاركة العسكريين فى الحياة الاجتماعية. وهذه المجموعة تضم أيضا مجموعتين فرعيتين:

١ – الدول الجديدة ذات التوجه القومى فى المحيط التابع، والتى تركز اهتمامها على بناء نفسها أكثر من التركيز على المواجهات، مع التسليم بأن إمكانياتها كأمة تبدو وكأنها ليس لها جذور عميقة جدا.

٢ – هذه الدول الواقعة فى محيط الهيمنة التى تعنى بصيانة مكاسبها السابقة أكثر من التورط أكثر من التورط فى مسار عدوانى إمبريالى فعلى.

٣ – ٦ (جـ)

سوف يظل نموذج الأنماط الذى حددناه على هذا النحو صالحا للتطبيق على نطاق المسار المنظور لعملية التطور، رغم أنه من المسلم به أن أى انفجار مفاجئ قد يؤدى إلى تدخل الجيش حتى فى تلك الدول التى تبدو بعيدة جدا عن التراث العسكرى.

إن هذه الخطوة التحليلية الأولى تقودنا بالضرورة وبشكل مباشر إلى مشكلة السلطة، أى إلى قضية الدولة.

٤ – الجيش وممارسة السلطة المهيمنة

٤ – ١

لقد اشرنا مرارا إلى هذا الستار الدخانى الذى يثار فى محاولة لحجب دور العنف فى ممارسة السلطة. ولذلك ينبغى علينا الآن أن نأخذ فى الاعتبار عنصرا حديثا هو استنزاف المناقشات القديمة حول الطابع الأساسى غير العنيف لسلطة الدولة بدءا بالليبرالية الفلسفية الكلاسيكية، وانتهاء بفلسفة المجتمع المفتوح التى أثارها مؤخرا كارل بوبر، وفى ذات الوقت الذى كانت فيه الدولة الأتوقراطية تسير فى طريق النمو الكامل فى كل من أوروبا وأمريكا الشمالية[٣٥]. كان هذا التطور يسهم بشكل مباشر فى جلاء ووضوح العنصر العسكرى.

ولا يسع المرء إلا أن يندهش وهو يرى كيف وبأى قدر من التشويش استطاعت الدول القومية فى أوروبا الرأسمالية الاستعمارية أن توهم، أو بالأحرى أن تفرض على العالم وهم الطابع الليبرالى المدنى الإنسانى المسالم للدولة.

فمنذ عصر الثورات (البورجوازية) الكبرى بداية من الثورة الفرنسية وانتهاء بتحطيم النظام الرأسمالى العالمى باندلاع ثورة أكتوبر وبعد ذلك تحطيم النظام الإمبريالى الكلاسيكى فيما بين أزمة (١٩١٩ – ١٩٣٢) وحرب (١٩٣٩ – ١٩٤٥) وحتى الانفجار الأخير الذى أحدثه بعث الشرق تحت تأثير الصين الشعبية.. خلال كل هذه الفترة كان تاريخ سلطة الدولة فى العالم أجمع هو تاريخ التنظيم العقلانى المضطرد للعنف كأداة لحماية استمرارية هيمنة الطبقات والمجاعات الاجتماعية المسيطرة فى الدولة القومية. ولذلك فسوف يبدو أنه فى الإمكان العثور على تفسير ذلك فى فترة التوافق الأوروبية. وهى تلك الفترات من التاريخ الحديث التى ألقت فيها الدول الأوروبية مؤقتا بسلاحها ووافقت على التعايش فى إطار سلام دائم هش بدءا من معاهدة فينا (١٨١٥) إلى الحرب الفرنسية البروسية فى عام ١٨٧٠، ومن سحق كوميون باريس حتى حرب (١٩١٤ – ١٩١٨) ومن معاهدة فرساى، (١٩١٩) إلى ميونخ (١٩٣٨). ثم فى أوروبا الغربية وبتأييد من الولايات المتحدة، وحتى فى أمريكا الشمالية ذاتها بعد عام ١٩٤٥.

خلال هذه الفترات استطاعت دول أوروبا والغرب الرأسمالى أن تقبل إنشاء مناطق تكاد تخلو من العنف على أراضيها، بينما كانت تحتفظ فى الوقت ذاته بهيمنتها على العالم. ومع ذلك فقد كان هذا السلام المدنى مصحوبا دائما بتفجير العنف الدموى ضد الأعداء من الشعوب الوطنية (كوميون باريس، وقمع الثورة الروسية الأولى فى عام ١٩٠٥، والثورات الألمانية والمجرية التى اندلعت فى أعقاب ثورة أكتوبر لعام ١٩١٧). كذلك كان هذا السلام مصحوبا دائما بالممارسات المستمرة المنتظمة للعنف فى المستعمرات وشبه المستعمرات والأراضى الخاضعة للتبعية فى آسيا وأفريقيا وأستراليا وأمريكا اللاتينية، وهكذا ساد السلام المدنى

داخليا، بينما استمر العنف ضد جميع الأعداء سواء على الساحة الداخلية أو على الساحة الخارجية. واستطاعت الدولة أن ترى نفسها كدولة السلام المدنى المتاح فقط، ولكن الثمن كان نوعا من التشويه النظرى والأيديولوچى الذى كان يستند إلى رغبة عارمة فى إخفاء الطابع الطبقى للسلطة من أجل تعزيز وهم تقسيم السلطات، أو هذا الوهم الذى يعطى أولوية للحرية الفردية الشكلية على الحريات الجماعية. ومن هنا جاءت النظريات المثالية حول الدولة حتى العصور الحديثة.

ومع ذلك فقد كان لا بد أن يؤدى انهيار النظام الإمبريالى الكلاسيكى فى عام ١٩٤٥ ثم انتصار الاشتراكية ففى الجزء الأعظم من آسيا فى نفس الوقت الذى كانت تمر فيه الدول الاشتراكية الأوروبية بعملية البناء.. كان لا بد أن يؤدى كل ذلك إلى انهيار مواز للنظريات المثالية بشأن الدولة. وفى عالم أمكن توحيده أخيرا على نطاق شامل أصبحت التجربة الحية للعنف - سواء العنف المنظم فى الدول المهيمنة أو العنف الهمجى فى الدول التى أخضعتها الإمبريالية بقوة السيف - تشكل جزءا من التجربة اليومية لكل البشر فى جميع أرجاء العالم، ولم يعد هناك الآن ما ينقذ نظريات الحقبة الجميلة وهى تلك الحقبة التى حققت فيها الدول الرأسمالية تقدمها تحت ستار الإنسانية الليبرالية المتمركزة فى الغرب.

عنف بالغ وانتهاكات لا حصر لها... ونماذج فيتنامية عديدة... وبدأت الشعوب تدرك تدريجيا حقيقة سلطة الدولة... والعنف الذى كان بالأمس من فعل الشياطين كشف عن نفسه اليوم... إنه أداة الموت الجماعى ووسيلة لخلق عالم جديد. وهكذا فإنه يتحول إلى جزء من رؤية عامة شاملة لعالم يشكل أو لمشروع حضارى يتيح للشعوب فرصة انتزاع حق تقرير مصيرها.

ولقد كان لهذا التطور الذى شهدته الروح العامة نتائجه الواضحة فيما يتعلق برؤية الدور الرئيسى للعنصر العسكرى فى ظاهرة السلطة. حيث أصبح ينظر الآن إلى هذا العنصر من منظور يتسم بالواقعية أكثر منه باليوتوبية حتى أنه يبدو من الطبيعى تماما أن يحتل الجيش مكانا رئيسيا فى جهاز العنف المنظم الذى هو جوهر طبيعة السلطة والدولة.

ولكن ما هى إذن هذه السلطة وهذه الدولة فى المرحلة الراهنة من التطور التاريخى للمجتمعات الإنسانية؟

٤ - ٢

كانت نظرية السلطة السياسية التى تتجسد من خلال وسيط الدولة محل دراسات قليلة فى العصور الحديثة[٣٦]. بل إن هذه الدراسات كانت مقصورة على التجربة الغربية، فى الوقت نفسه الذى كانت "الدولة" كواقع تنمو فيه داخل الإطار العام للسلطة السياسية فى اتجاه عمق غير مرئى فى أرجاء الشرق ومحيط القارات الثلاث بصفة عامة. ومع ذلك فإنه يبدو من الصعب فى حدود هذا الإطار البحثى أن نحدد خطة تحليلية دقيقة لهذا التطور الذى كانت جوانبه النظرية المبتكرة موضوع بحثنا منذ عام ١٩٦٢.

٤ - ٢ (أ)

إن العامل الأساسى فى هذا التطور هو ظهور الخصائص الشاملة الكلية لهيمنة سلطة القرار على كل المستويات كما تمارسها الدولة المعاصرة لمصلحة طبقة أو عدة طبقات أو مجموعات اجتماعية، وذلك كبديل لدولة ذات طبيعة محدودة تتركز على ممارسة العنف المنظم تأييدا لهيمنة طبقة أو عدة طبقات أو مجموعات اجتماعية.

وعلى مدى المرحلتين العظميين للتاريخ الحديث... مرحلة الثورة الصناعية، ومرحلة الرأسمالية الكلاسيكية، ثم المرحلة الأحدث للثورة التكنولوجية العلمية.. على مدى هذه الفترة كانت الخصائص الأساسية لسلطة الدولة أو جوهر هذه السلطة كما هو يؤكد على هيمنة قطاعات مختلفة من البورجوازية من خلال ممارسة العنف المنظم. وفى حالات أخرى يكفى أن نستبدل مصطلح "البورجوازية" بمصطلحات أخرى تعبر عن الطبقات المالكة السابقة عليها فى التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية فى الغرب.. مجتمع الإقطاع وامتلاك العبيد، وذلك حتى نصل إلى تركيب نظرى صادق لسلطة الدولة داخل مجتمعات الطبقة.

غير أن القول بذلك وإثباته على نحو واف ليس سوى بداية. فالواقع أن الدفعة القوية التى أخذتها وسائل الانتاج أو التكنولوجيا بالمعنى الشامل لها والعلوم الرياضية والطبيعية (من خلال الحروب والثورات) على مر أكثر من قرنين، بدءا من عصر الموسوعيين حتى عصر الثورة الثقافية قد أدت إلى تحولات عميقة فى العالم على كافة المستويات.

وخلال فترة الرأسمالية الكلاسيكية استطاع القطاع الخاص أن يضمن التنمية الضرورية بتقدم الاقتصادى. وغالبا كما كان التقدم العلمى والتكنولوچى يستمر فى إطار هذا القطاع الديناميكى. أما الثقافة بدورها فقد كانت لها جذورها فى ذات الأرضية حيث عبرت من خلال الفردية عن تطلعات الفلسفة المثالية وأفضلياتها فى البورجوازية الجديدة على سبيل المثال. وباختصار كانت الدولة تمارس وظيفتها المهيمنة بصورة مباشرة على القطاع السياسى الخصوصى، وعلى دعم النظام الاجتماعى كما تحدده الطبقات الحاكمة. ومن هنا كان للقطاع السياسى الخصوصى ولجهاز الدولة هذا الوضع المتميز. وليس معنى ذلك أن الدولة قد فشلت فى الاهتمام بالاقتصاد والثقافة. فقد كانت تفعل ذلك دائما وبصورة فعالة للغاية. غير أن هذه المجالات لم تكن أبدا محل اهتمامها الرئيسى، وذلك لأن الرأسمالية الليبرالية.. كانت تبدو هى ذاتها وكأنها تمتلك أدوات انتشار هذه المجالات الأساسية للديناميكية الاجتماعية.

غير أن الأمور اختلفت فى السنوات التالية بصورة كبيرة بعد أن سيطرت الإمبريالية المهيمنة والحركات الثورية وحركات التحرر والثورات الاجتماعية والوطنية العظيمة على هذه الحقبة. وأيضا بعد الثورة فى مجال العلم والتكنولوچيا. فقد شهد العالم تحولات بعيدة المدى تمثلت فى القضاء على غموض العالم وشمولية العلاقات الدولية والوظيفة المعجلة للصناعة الكيميائية والكهرباء والطاقة النووية والإلكترونيات وانتشار وسائل الانتاج الحديثة التى أصبحت لا غنى عنها للمسيطرين على هذه الصناعات الجديدة وعملائهم فى نطاق واسع.. هذه التحولات جعلت من الحتمى اللجوء للحاجة التقليدية، إلى الوصول بترشيد توظيف المجتمعات

والجدلية الاجتماعية إلى مستوى غير معروف حتى الآن يستطيع فى نفس الوقت أن يتحكم فى مستقبل العالم كله وأن يوجهه ويخططه.

لقد كان على أساس هذه الاحتياجات الجديدة التى نشأت نتيجة تطور العلوم والتكنولوچيا نفسها أن طرحت مشكلة السلطة بمفاهيم جديدة فى الفترة ما بين ١٩١٧ – ١٩٤٥ ولا سيما فى أعقاب الأزمة الاقتصادية العالمية فيما بين (١٩٢٩ – ١٩٣٢). Volens nolens. وهكذا أصبح واضحا للجميع أن المراكز التقليدية (الكلاسيكية) لسلطة القرار فى المجتمعات الرأسمالية لم تكن فى وضع يمكنها من احتواء هذه العملية الواسعة بالقوة اللازمة.

وقد يبدو ذلك عن بعد وكأنه المغزى الحقيقى لظهور أربع حركات مختلفة لسلطة الدولة المعاصرة وهى حركة الاشتراكية الماركسية، وحركة الإصلاحية الكانزية (نسبة إلى چون منيارد كينز John Maynard Keynes) عالم الاقتصاد الإنجليزى، والمؤسسة العسكرية الصناعية وحركة الـ Statism ذات التوجه الاستقلالى.

ومع ذلك فقد بدأت الدولة وجهازها بأسلوب تعارضى – تكاملى فى إحكام قبضته على ثروة متزايدة أبدا من المعرفة وسلطة دائمة النمو لاتخاذ القرارات الأساسية، ووصلت تدريجيا إلى مستوى تخطيط الحياة الاجتماعية وتوجهها ككل. وبنفس الأسلوب التعارضى التقاربى لا يبدو أن الحاجة إلى العقلانية القصوى التى تفرضها مركزية السلطة - أى الدولة – قد استطاعت أن تستحوذ على المركز غير الدولانى لاتخاذ القرار فى أى مكان.

ولكن هل تتناقض المؤسسات المتعددة الجنسية مع هذا التوكيد؟

إن هذه المؤسسات يقوم على توجيهها فى الأساس رأس المال الاحتكارى الأمريكى – مع شركائه – الذى يمارس سلطة القرار من خلال المؤسسة العسكرية الاقتصادية، ويجد وسائل التنفيذ فى جهاز الدولة الإمبريالية المهيمنة التى تجد بدورها سندا من أجهزة الدول التابعة وتنوع أنشطتها من خلالها[٣٧].

إن هذا التحول فى طبيعة السلطة ذاتها وآداتها (الدولة) يمكننا من تبرير الدور الجديدة المنوط بالجيش الذى هو المحور الرئيسى للدولة. فالجيش لا يجد نفسه فى قلب كل مرحلة سياسية اليوم لمجرد التعويض عن غياب أية طبقة أو مجموعة اجتماعية معينة. ولكنه يضرب بجذوره أصلا فى تطور التركيب الداخلى للتكوينات الاجتماعية الاقتصادية القومية فى عصرنا الحالى، أيا كانت أيديولوجيتها والتى سلمت الدولة السلطة المركزية لاتخاذ القرار فى كافة مجالات الحياة الاجتماعية التى هى مسئولة عن صيانتها وتنميتها. سواء كانت هذه المجالات اقتصادية أو هيمنة سياسية أو ثقافية أو أيديولوجية أو صور الحياة اليومية.

... هذه هى القضية الرئيسية لعلم الاجتماع السياسى فى عصرنا الحالى. وهذا هو الأساس الموضوعى لظهور عنصر العسكرية – من خلال إطار واسع ومتمايز إلى أقصى حد – فى جوهر الجدلية الاجتماعية. فضلا عن ذلك فإن هذا هو الإطار الذى يصبح من الممكن من خلاله أن نعالج كافة التناقضات بين الجيش والمجتمع.

٤ – ٢ (ب)

أما المظهر الثانى من مظاهر تطور الدولة المعاصرة فهو الحاجة إلى التمييز بين الوسائل المحددة التى يتم وفقا لها تركيب الجدلية الاجتماعية فيما يتعلق بممارسة سلطة القرار.

إننا إذا نظرنا إلى الدول الغربية الرئيسية فسوف نجد تنوعا طبقيا مدهشا فى القوى المنغمسة فى الصراع على السلطة. فنجد بريطانيا العظمى والدول الإسكندناقية حيث استطاعت الأحزاب السياسية أن تؤسس نفسها فى مجرى عملية تاريخية ممتدة. وفى نفس الوقت وبصفة أساسية فى وجه غزوات أجنبية عادة ما تؤدى إلى تصلب الدولة كملجأ أخير ومأوى لا بديل عنه. وهكذا يظل دور هذه الأحزاب مهما فى عملية صنع القرار السياسى، وإن كان لا يزال أقل أهمية مما كان عليه حتى منذ نصف قرن مضى.

أما فى الدول الحديثة التوحيد نسبيا فإن جهاز الدولة المركزية يتمتع بوضوح بوزن مهم إلى حد ما: غير أن النضال الطويل من أجل الوحدة (خاصة فى إيطاليا

وألمانيا) يكشف عن مدى عمق الخلافات الموجودة، ويفسر المغزى النسبى للأحزاب السياسية الإقليمية فى هذه الدول (وخصوصا الحزب المسيحى الاشتراكى الألمانى فى بافاريا، والحزب الشيوعى الإيطالى فى الأقاليم الوسطى والجنوبية التى تمكنت من تحقيق وحدتها، إلى جانب المافيا الأداة التحريرية الوحدوية الجنوبية).

أما فى فرنسا وهى البلد الذى تمتع بفترات طويلة من الوحدة وكان ضحية غزوات عديدة، فقد كانت الدولة هى العمود الرئيسى للبناء السياسى بأكمله منذ فترة ليست بقصيرة قبل ظهور اليعقوبيين (Jcobins). وقد كان للأحزاب فيها دور أبعد ما يكون عن التفاهة، ولكن فقط إلى الحد الذى يمكنها فيه أن تقدم بديلا وطنيا للدولة (كما استطاع أن يفعل الحزب الشيوعى إبان فترتى الجبهة الشعبية والمقاومة على وجه الخصوص).

وأخيرا نجد عند الطرف الآخر للولايات المتحدة حيث لم يكن للحزبين الرئيسيين (الديموقراطى والجمهورى) سوى القليل من الوزن. فالسلطة فى الواقع تركزت فى أيدى المؤسسة العسكرية الصناعية. أو بمعنى آخر اشتركت مؤسسات الاحتكار وجهاز العنف المنظم فى ممارسة السلطة. ذلك لأن الولايات الأمريكية قد تشكلت من خلال المؤسسات الاحتكارية والجيش فى حروب الانفصال، وبعد ذلك تحت لواء الإمبريالية المهيمنة. وقد تم ذلك فى غضون فترة قصيرة نسبيا.

ورغم أن الأحزاب فى الولايات المتحدة لها شعبيتها الوطنية بكل تأكيد، إلا أنه ليس هناك سوى القليل جدا من تلك الأحزاب أو التكوينات السياسية التى تعمل على المستوى الإقليمى أو على مستوى أى من الولايات الفيدرالية: فالمعروف أن الإحساس القوى بالانتماء إلى طائفة إلى جانب الانتماء إلى الأمة أقوى بكثير من الولاء الحزبى.

أما فى الدول الاشتراكية الغربية فهناك عملية موازية من التمايز حيث انعدمت تقريبا تجربة تعدد الأحزاب فى الاتحاد السوفيتى الذى ورث التقاليد المركزية للإقطاعية العنصرية، بينما تشهد الدول الاشتراكية الأوروبية الأخرى

تعددا للأحزاب الديموقراطية إلى جانب الحزب الشيوعى الحاكم. وهنا أيضا يجد المرء عملية مختلفة سارية فيما يتعلق بالمجموعة الرئيسية (تداخل الحزب الشيوعى مع جهاز الدولة) فى إطار حزب الدولة، الذى يختلف جذريا عن جميع الأحزاب فى الدول الرأسمالية.

ولكن الشرق يختلف هنا أيضا حيث يجد المرء نموذج الدول الاشتراكية الغربية: التعددية حول الحزب الشيوعى فى الصين وفيتنام. والحزب الواحد فى كوريا الشمالية ومنغوليا. نجد أيضا فى الشرق نظما تسير موازية لتلك النظم الموجودة فى الغرب الرأسمالى، رغم أنها تعطى الدولة فى جميع الحالات دورا ممتدا (والهند أوضح مثال على ذلك). كذلك فهناك فى الشرق دول تابعة أو شبه تابعة تحت قيادة عسكرية، وحيث يخضع حزبها الواحد لسيطرة الجيش أو للمؤسسة العسكرية.

أما أمريكا اللاتينية فهى تقدم لنا صورة أكثر تنوعا من كافة النماذج الغربية إلى جانب نموذج الدولة القومية الضعيفة جدا ومحاولات بناء حياة سياسية اجتماعية حول دول من النمط الحديث.

لقد كان هدفنا من سرد هذه النماذج القليلة ليس رسم نموذج لأنماط السلطة السياسية فى عالمنا المعاصر، ولكن لنصور إلى أى مدى اختلف التطور التاريخى والتركيب الأصلى لجهاز السلطة السياسية من أقصى الدنيا إلى أقصاها.

ولهذا السبب ذاته فقد استعرنا من خلال منظور مقارن شامل مفهوم جرامش (أنطونيو جرامش مفكر الحزب الشيوعى الإيطالى (١٨١٩ – ١٩٣٧) عن "الطبقة السياسية" لنرمز إلى الجوهر الرئيسى لممارسة سلطة الدولة فى كافة التكوينات القومية الاقتصادية الاجتماعية. وتتكون هذه "الطبقة" من: كوادر الطبقات المسيطرة والمجموعات الاجتماعية وأحزابها وأجهزة الدولة وكوادر الطبقات المهيمنة والمجموعات الاجتماعية وأجهزة أحزابها المتورطة فى صراع على السلطة وتصور كليهما لاحتمالات تحويلها إلى دولة.

وفى إطار هذه "الطبقة السياسية" تستحق الأدوار المتتالية للعناصر التركيبية المختلفة اهتماما خاصا. وتشمل هذه العناصر: الأحزاب وأجهزة الدولة والمؤسسات العسكرية والجماعات الأيديولوجية والمدنية والدينية الأساسية... الخ.

ولكن كيف يفيدنا هذا التصور الجديد للتركيب التاريخى الخصوصى لسلطة الدولة؟

إنه بعبارات دقيقة يسمح لنا بالإجابة على أسئلة محددة حول أسباب اختلاف دور الجيش اختلافا جذريا فى أنماط المجتمعات المختلفة.

إنه لمن الواضح على سبيل المثال أن الجيش يلعب دورا أساسيا فى تكوين السلطة السياسية فى الدول التى لم تعرف تقليد ما يسمى (التعددية السياسية) سواء كان ذلك بسبب احتلال الدولة للمركز الرئيسى لعدة قرون (مصر، فارس، الصين، اليابان) أو بسبب النشأة الحديثة للدولة القومية (نيچيريا، البرازيل، باكستان، أندونيسيا) كذلك فإنه يلعب دورا رئيسيا فى تلك الدول التى يكمن تراثها الثقافى القومى فى اندماج السلطة الروحية بالسلطة المدنية، كما هو الحال بالنسبة للإسلام.

أيضا يلعب الجيش دورا مماثلا (بالمعنى التاريخى والأيديولوچى) فى الدول التى تكون فيها سلطة الدولة نتاجا مباشرا للنضال الشعبى المسلح تحت قيادة حزبها الثورى كما هو الحال بالنسبة للصين وڤيتنام وكوريا وكوبا.

وهكذا فإنه ليس هناك فى واقع الأمر سوى مجموعة قليلة من الدول فى أوروبا الغربية إلى جانب أمريكا الشمالية – وهى الدول التى مارست نفوذ الهيمنة على تاريخ العالم منذ عصر النهضة وحتى يالتا – التى استطاعت أن توفر الظروف الضرورية لإقامة نظام سياسى تعددى بالمعنى الحزبى. وبذلك أحالت دور الجيش إلى دور ثانوى نسبيا يخرج منه فجأة كلما تفجرت الأزمات، الحروب، الغزوات الاستعمارية والثورات.

إنه إذا تحقق البناء التاريخى للسلطة السياسية فى أعقاب فترة غزو أو سيطرة أجنبية طويلة أو متوسطة الأجل، فإن الطبقة السياسية تبرز كطبقة مدنية مهيمنة

وإن كان يدعمها جهاز الدولة الذى يعد الجيش محوره الأساسى. وفيما عدا ذلك فإنه فى جميع الحالات – وهى الغالبية العظمى فى تاريخ المجتمعات الإنسانية – تكونت الطبقة السياسية بصورة سافرة حول الجيش الذى تعترف بتميزه.

وبما أننا أكدنا على الاتجاه العام، فإنه يصبح بإمكاننا الآن أن نرسم نموذجا للأنماط المختلفة لسلطة الدولة يقوم على أساس معامل الوجود المؤثر للجيش فى قلب هذه السلطة.

وهذا النموذج لن يكون مجرد إعادة تجميع أخرى للعناصر الإمبيريقية المتفاوتة، ولكن سوف يكون تنظيرا للدراسة النقدية المقارنة للأشكال الخاصة المختلفة التى تتخذها التكوينات الاقتصادية الاجتماعية القومية فى العالم. وبمعنى آخر فإن دراسة العنصر العسكرى فى العلوم الاجتماعية ليس موضوع حقل علمى كاذب يسمى (علم الاجتماع العسكرى) لأن ما نحتاجه أساسا هو تقصى واضح تماما غير غامض لسوسيولوجيا السلطة بأبعاد نموها الباطنى (الدولة) ونموها الخارجى (الحركات الوطنية والثورات أو الهيمنة والإمبريالية).

وعندئذ فقط نكون قد حددنا موضع الإشكالية فى العلاقات التعارضية بين الجدلية الموضوعية للسلطة والجيش.

٥ – الجيش فى جدلية الاستمرارية الاجتماعية والثورة

طوال هذه العملية التى وصفناها سالفا، وسواء على المستوى التحليلى النقدى أو على مستوى البناء النظرى بقى التعارض بين الجيش والاستواء normality الاجتماعى السياسى: فى إطار التيارات المختلفة للعلوم الاجتماعية والنظرية السياسية وفى مدرسة "علم الاجتماع العسكرى" التى كانت نقطة بدايتها هى تلك الميثولوجيا المقبولة فى جوهرها من جانب كافة الاتجاهات المختلفة فى إطار الأيديولوجية السائدة. وأيضا فى جوهر الخطوط العريضة لنظرية اجتماعية حول السلطة يحتل فيها الجيش مكانه التاريخى والبنيوى المناسب. وهى تلك النظرية التى حددنا إطارها العام فيما سبق.

إن استمرار التعارض على هذا النحو المتواصل يخلق مشاكله الخاصة به.

٥ – ١

يكمن العامل الأول من عوامل هذا التعارض المتواصل فيما أسميناه "أعماق طبيعة الجيش" كالمحور الأساسى للسلطة السياسية للدولة وكأداة رئيسية للحفاظ على استمرارية كافة التكوينات القومية والاقتصادية والاجتماعية.

لقد كان هذا هو الحال دائما كما أشرنا سلفا. غير أن تطور المجتمعات المعاصرة أدى إلى كشف أغوار هذه الطبيعة، وذلك لسبب بسيط هو أن عملية التطور هذه تضع فى أيدى سلطة الدولة وفى أيدى الجيش كمحورها الرئيسى الأدوات السياسية للقرار والفعل ليس فقط على المستويات السياسية والعسكرية المجردة، ولكن أيضا على المستويات التكنولوچية والعلمية والثقافية والأيديولوچية.

وهكذا وبما أننا افترضنا وجود هذا التركيز للقوة الفعالة (للسلطة) فى أيدى الدولة والجيش، فإنه يصبح من الضرورى أن نقيس مغزى ووزن هذه الحقيقة على الإطار الجماعى لكافة جوانب الحياة القومية الممكنة (المشروع القومى).

وفى واقع الأمر فإن عناصر الاستمرارية الاجتماعية فى جميع التكوينات الاقتصادية والاجتماعية القومية أو فى جميع الأمم كما تحدد وضعها فى إطار مفهوم الخصوصية الذى افترضناه.. هذه العناصر ليست فى حد ذاتها طاقة لضمان هذه الاستمرارية التى تعتمد أساسا على الإرادة المشتركة للجماهير الشعبية وللطبقة السياسية فى صيانة واستمرار مجتمع قومى معين إلى الحد الذى يجعله كيانا خصوصيا متميزا. فالروح العامة والإرادة الجماعية فى عودتها على هذا النحو إلى قاعدتها التركيبية التاريخية الموضوعية الملموسة تتخذ شكلا دقيقا محددا يضمن للأمة فى مرحلة معينة من النمو التاريخى التطور من خلال الاستمرارية.

وهذه القاعدة تستمد جذورها من كل من التاريخ البين (الواضح) للمجتمع القومى ككل، ومن الوعى الكامن بهذا التاريخ بين جماهير الشعب. وهو وعى له جذور فى أعماق الأمة.

إن الرغبة فى العيش معا لا تعنى بالضرورة الرغبة فى استمرار هذا التعايش. إنها أيضا الرغبة فى استمرار التطور معا. وهذا أساسا هو دور المشروع القومى ووظيفته ورسالته.

ورغم أنه بإمكان كافة المجتمعات القومية أن تشيد بالطبع مشروعا وتسميه المشروع القومى إلا أنه سوف يكون واضحا مع ذلك أن فعالية المشروع السياسى أو قدرته على الوصول إلى مرتبة المشروع القومى لا تقل قدرته على حشد طاقات الأمة.

إنها بمعنى آخر مهمة الاستمرارية فى عمق الحقل التاريخى، سواء بالمعنى الموضوعى أو بالمعنى الذى يستقر فى وعى الجماهير. وهذه الاستمرارية هى وحدها القادرة على استيعاب الصدمات وتغذية وصيانة وتوفير اللحظة السياسية ومكانها، بما يمكن أن يضمن نمو وترعرع المشروع.

إن مؤسسات الدولة تنشأ وتتطور على أساس هذا المشروع القومى، وينطبق نفس الشئ على التكوينات الرائدة للطبقة السياسية التى تؤدى وظيفتها وفقا لمصادر طبقية وأيديولوجية. ومع ذلك فلا يرى المرء فى أى مكان مثل هذا التوافق الواضح بين المشروع القومى والمشروع المؤسسى كما هو الحال بالنسبة للجيش. فشعار مدرسة العلوم التطبيقية: "من أجل الوطن والعلم والمجد" يتردد بتنويعاته المخلفة فى كل مكان لتعليم كوادر الجيش. ولأن مسئولية الجيش هى فى نهاية الأمر وفى أساسها حماية الأمة ودولتها، فإن التوافق بين المشروع القومى والمشروع المؤسسى الخاص يكون توافقا تأسيسيا بنائيا بالمعنى الحرفى وليس بأى حال توافقا تكتيكيا أو عارضاً.

ومع أنه من الممكن تعريف الوطن بأنه مجموعة من الأشخاص يخضعون لقيادة طبقة أو عدة طبقات اجتماعية، فى حين أن المجد يعنى أشياء مختلفة تماما بالنسبة للقيادات التى تحدد مواقفها الفلسفية والأيديولوجية اتجاهاتها المتعارضة والعلم هو أكثر هذه العناصر الثلاثة وأيسرها عالمية يقوم على أساس سياسات علمية وثقافية عامة تحددها ضرورات طبقية وأيديولوجية مختلفة.. رغم ذلك إلا

أنه فى كل مكان وفى ظل كافة الظروف فى مناطق مختلفة وأيديولوچيات متباينة يكون الجيش دائما هو حامي: "الوطن والعلم والمجد" فى قلب الحياة القومية وهذه الرسالة تتحدد وتستمر من خلال "قسم الولاء حتى الموت" الذى يؤديه كل من ضباط الجيش والكوادر الثورية (المثقفون العضويون) رغم أنه لا يؤديه أبدا المثقفون التقليديون.

هكذا يمكن رؤية كل شئ على أنه وظيفة الطبقة والطابع الأيديولوچى للسلطة. وبقدر ما يمكن صياغة المشروع القومى فإنه سوف يكون من إعداد الطبقة السياسية الموجودة فى السلطة، وإن كان إعداده لابد أن يكون متصلا بأعماق قلب الأمة.

٥ - ٢

لقد استطاع الجيش طوال فترة تاريخية طويلة نسبيا - بداية من تأسيس الدول الأولى وحتى الثورة الصناعية - أن يحتمى داخل هذا البعد: النظام وحماية المشروع القومى. ثم وصلت الأساليب الفنية الحديثة التى تطورت ببطء إلى الجيش أولا، وكان بعضها نشأ فى جذوره فى هذه المؤسسة مثل البارود وبوصلة الملاحة والقذائف.

أما الاختراعات الكبرى فقد نشأت فى قطاعات مختلفة: بعضها مثل الطباعة نشأ فى القطاع المدنى من خلال الدولة المدنية، وبعضها مثل الهندسة الهيدروليكية وتطبيقاتها انتشر فى مؤسسة الجيش وفى الجهاز الإنتاجى. ولكن ودون أى استثناء استطاع الجيش أن يسيطر على هذه الاختراعات ويستخدمها ويطورها جميعها.

وكان لا بد من أن تتبلور هذه العلمية وتتعمق بشكل ملحوظ نتيجة الاكتشافات البحرية العظيمة. ثم نتيجة الثورة الصناعية قبل أى شئ آخر. حيث تحولت عملية تجميع المواد والحصول على الوسائل والبرامج طويلة المدى إلى مهمة شاقة معقدة ومتنوعة خصوصا فى العصور الحديثة، حتى جعلتها الدولة مهمتها الأساسية باضطراد. وهذا هو ما يفسر كيف أصبح الجيش هو النقطة التى تركزت عندها

أكثر وسائل التقدم التكنولوجى تطورا بما أنه فى حاجة ضرورية إليها إذا كان له أن يستمر فى إطار وظيفته. وعندئذ نشأ التوتر الذى كان أصل التناقض الذى أشرنا إليه.

٥ - ٢ (أ)

هناك فى واقع الأمر سلسلة من التوترات. الأولى على مستوى التعارض بين الرسالة الخصوصية للجيش من جهة - أى حماية النظام لصالح المشروع القومى ومن جهة أخرى الطابع الخصوصى للنشاط الفكرى والعلمى، الذى يعتمد أساسا على معالجة نقدية للظواهر: أى أنه فى جوهره دراسة نقدية لإمكانيات وحدود الظروف الاجتماعية التى ينمو فيها هذا النشاط بشكليه (سوسيولوچيا العلم والمعرفة).

مثل هذه العلمية لابد بطبيعتها أن تتطور جدليا من خلال حركة مستمرة محورها دائما التساؤل حول ما هو موجود واستكشاف آفاق جديدة، غالبا ما تكون متعارضة مع المعرفة القائمة.

وهكذا يصبح فى وسعنا بسهولة أن نقول إن التعارض بين العسكريين والمثقفين يشبه إلى حد ما الصراع بين بارمينيدز (Parmenides) وهيرقليتس (Heraclitus) ولكن فى صورة صورة عامة مجردة للغاية. فهناك وفرة فى المسايرين للأعراف Conformists بين المثقفين - سواء المثقفون العضويون أو التقليديون - وذلك رغم تشدقهم بالمعاصرة. وبالمثل فهناك أقلية من المؤسسة العسكرية كانت لها مواقفها الإيجابية إزاء قضية التجديد سواء فى مجال التكنولوچيا أو فيما يتعلق بالديناميكية الاجتماعية والسياسية للعالم. ومع ذلك فإن التعارض يستمر ويشجعه هؤلاء المفكرون الذين يعارضون فكرة التحكم فى الثقافة والمعلومات.

٥ - ٢ (ب)

أما مصدر التوتر الثانى فهو يكمن فى التناقضات العميقة داخل المؤسسة العسكرية نفسها بين القطاعات التقليدية التى تركز اهتمامها على مفهوم النظام وبين

القطاعات الديناميكية التى ترى أن استمرارية نظام المشروع القومى مـا هـو إلا جزء من معالجة ديناميكية مستقبلية لهذه الاستمرارية.

وترى هذه القطاعات الديناميكية أن بوسع الجيش - بـل ينبغـى عليـه - أن يصبح بمثابة الوسيط بين الفئات المعنية بالنظام والتقدم بدلا من محاصـرة نفسـه داخل حدود مجال النظام وحده. ومن الواضح أن التقدم التكنولوچى والعلمـى قـد منح هذا التصور لرسالة الجيش مصداقية لا بأس بها فـى عصـر الإلكترونيـات والأسلحة والطاقة النووية، أو عصر الإمبرياليـة المهيمنـة والثـورات الوطنيـة والاجتماعية العظمى.

هذا هو المصدر الأساسى للقلق داخل الجيش. فمع أن المثقفين قد أحالوه إلـى مرتبة هامشية، إلا أنه يجد نفسه الآن يمر بتغييرات جذرية. ورغم أنه قـد تكـون تاريخيا كأداة للحفاظ على استمرارية النظام ككل، إلا أنه نادرا ما يجد نفسـه الآن فى وضع يمكنه من المشاركة فى عملية إعادة التقييم الجذرية الجاريـة الآن بمـا تنطوى عليه من إحلال المنهج الجدلى محل المنهج الإستاتيكى المحدد.

إن الدولة المعاصرة قد أعادت صياغة نفسها بسهولة نسبية فيما يتعلق ببعديها الاقتصادى والثقافى. ولكننا لا نجد هذه التعارضات بين النظـام والحركـة، بـين الاستمرارية والجدلية إلا فى جوهر الدولة، أى داخل الجيش. ومن هنا جاء منـاخ الصراع والتوتر المتزايد وانعدام الفهم والإحساس بالهامشية الذى يسـيطر علـى الجيش. وهنا أيضا نجد تفسيرا لظهور عامل العسكرية كإشكالية سوسيولوچية.

إن بروز الجيش كإشكالية سوسيولوچية عنـد نقطـة التوسـط بـين العلـوم الاجتماعية المختلفة[٣٩]، جاء مصاحبا للتحول الممتد العميق الذى طرأ على طبيعة الدولة المعاصرة ووظيفتها، بالإضافة إلى وضوح وجلاء هذا التحول أمام الطبقـة السياسية ومثقفيها.

إن هذين التحولين يمثلان نهاية الوهم الفلسفى والوظيفية الخالدة فى تلك العلوم المعنية بديناميكية المجتمعات الإنسانية. ورغم أننا سوف نفتقد هذه اليوتوبيا الكريمة

غير الفعالة، إلا أنه إذا كان لليوتوبيا أن تتحول إلى حقيقة فعليها أولا أن تخوض التجربة المريرة التى صنعت التاريخ بكل منعطفاته وتحولاته.

ومع ذلك فإن هذا التطور الذى يبعث على البهجة يختلف جذريا عن محاولة عزل الجيش فى مجال علمى منفصل يسمى "علم الاجتماع العسكرى"، فليس هناك من يتحدث عن "علم اجتماع البوليس" أو "علم اجتماع القضاء" وهما جهازان أساسيان من أجهزة الدولة.

أما المطلوب فله بالفعل اسم وحقل علمى محدد بوضوح وهو:

"علم اجتماع السلطة" أو "سوسيولوچيا السلطة".

إن علم اجتماع السلطة، وليس علم الاجتماع السياسى، هو الذى نجد فيه هذا الخلط الحتمى بين الدولة والحكومة، وبين السلطة والإدارة، وذلك وسط المناقشة العادية للتعددية وللديموقراطية والانتخابية والرأى العام والاشتراكية والمنظمات الدولية، أى أن كل شئ خاضع للبحث والمناقشة.

ومع ذلك فقد حان الوقت لأن تتمكن العلوم الاجتماعية من التغلب على العوائق التى تتمخض عن السلطة فى واقعها الملموس، أى على مشكلة العنف وتنظيمها وترشيدها.

وعندئذ فقط سوف يكون بالإمكان أن نفهم علميا مشكلة الجيش وعلاقته بالنسيج الاجتماعى، الذى يعد جوهر وجوده مرهونا بحمايته.

إن هذا المنهج سوف يؤدى فى المرحلة الأولى إلى وضع الجيش فى قلب سلطة الدولة. وهكذا يصبح من الممكن فى مرحلة تالية بعد عزل خصوصية المجتمع الذى تعد هذه الدولة هى مركز سلطته – وهنا توجد المشكلة الحقيقية – تحديد العوامل الخاصة التى تحدد مستوى عمل الجيش فى قلب سلطة الدولة فى هذا التكوين القومى أو ذاك، وفى مرحلة محددة من تطوره التاريخى – وليس لأى تكوين قومى فى أى مرحلة من مراحل تاريخه.

ولذلك يستطيع المرء أن يرى أن الدراسة السوسيولوچية للجيش هـى جـزء متكامل من علم الاجتماع النقدى والمقارن للسلطة السياسية، يحركها - شأنها فـى ذلك شأن علوم المجتمع ككل - مفهوم الخصوصية، الذى يعد هو وحده القادر على التوسط بين الجدليات الاجتماعية على امتدادها وعلى الربط بأسلوب منطقى جلـى بين الخصوصى (ما هو قومى) والعمومى (ما هو شائع بين الإنسانية ككل).

هذا هو ما ينبغى أن تكون عليه حال دراسة مشكلة العلاقـات بـين الجـيش والمجتمع فى المرحلة الراهنة من تطور كـل مـن التـاريخ الملمـوس والعلـوم الاجتماعية.

إذن ينبغى أن يبدأ البحث بطرح الأسئلة والفرضيات المترسخة فى هذا الحقـل المعقد المليئ بالعوائق. وبقدر ما يكون الجيش هو جوهر السلطة فى كل مكان حتى لو كان ذلك بدرجات خصوصية متفاوتة من الفعالية، بقدر ما تمكننا هذه الدراسـة من الكشف بوضوح عن الدعامات الأساسية لعملية الاستمرارية الاجتماعية القومية والعنف المنظم، وأن نلقى ضوء قويا على وظيفة الجدليات الاجتماعية فى التاريخ. وقبل أى شئ فى عصرنا هذا وفى هذه الحقبة من التاريخ التى تبدأ فـى اللحظـة الحاسمة عندما يصل بنا توازن القوى العالمى إلى مشارف التحول للعالم.

الهوامش:

(١) إلا اذا اعتبرانا أن هذه المؤشرات تعد من المسلمات. راجع البحث الهام الذى بدأه اعتبارا من ١٩٦١ Program Yale Data وحرره

Bruce M.Rusett, World Handbook of Political and social indicators. (New Haven and London 1961)

لا يشمل رءوس الموضوعات جيش (أو حرب) وهناك بعض المؤشرات فى المقالات التالية:

"Military Personnel, as percentage of population age 15-64". (p.p. 72-8, 81, 269, 293-300, 319, 336) "Expenditure on defence: a 5 percentage of GNP" (PP. 72-3, 79-81, 269, 288)

لكنه مع ذلك لا يقدم أيه إيضاحات حول طبيعة قوة الدولة

(٢) Kurlang "Military Sociology, a t rend Report and Bibliography" current sociology. Vol. xIII, no. 1 (1965, Oxford). "

"Military Sociology" 1963-9 Current sociology, vol no 3 paris (1968).

(٣) انظــر فصــل "Army" فــى Encyclopedia Britannica (Chicago – London 1963ed) حيث تتعرض كافة الموضوعات المتعلقة بالعسكرية لمختلف الجوانب vol 2 pp 443 – 59 باستثناء العلاقة بين الجيش والمجتمع.

(٤) انظر مقالات

"Armee et pouvoir by B. C و "Armee" (typologic historique) by p. Devautor hantebout in Encyclopedia universalis (Paris, 1938) vol. 2pp 405-21 and 422-8

(٥) وبشكل خاص المداخل التالية فى:

International Encyclopedia of the Sciences (New Yourk. 1968).

S.P. Huntington, "Cinil-military relations" vol 2 pp 422-8

L.I. Radway, "Militarism" vol 10pp. 300-5: Klanq. "Military" vol. 10 pp. 305 – 12.

(٦) تجدر قراءة دراسة J.Y. Peel حول

"Herbert Spencer: the Evolution of a Socilolgis (London 1971).

خاصة الصفحات pp 191, 223 وأيضا دراسة S. Andreski (ed)

Herbert Spencer: Structure, Function and Evolution (London 1971)

(٧) عن الثورة البرجوازية فى فرنسا والتحول الصناعى فى إنجلترا راجع:

E.J.Hobsbawm. the age of revolution 1798 – 1848 (London 1962)

وحول أيديولوچية تلك الفترة راجع كل من

Sidney pollard, the idea of pregress, History and Society (London 1968).

Andre Vachet, L'ideologie liberale: I'individu et'sa propriee (Paris 1970).

كما يمكن إيجاد بعض المعطيات الهامة فى الدراسات التى قامت بتجميعها (اللجنة الدولية لتـــاريخ الحركات والأبنية الاجتماعية".

Movements national d'independence et classes polpu;aires aux xix et siecles en occident et en orient, 2 vols (Paris 1971).

(٨) K.Lang "Military Sociology p.1 - 2 م.س.ذ.

(٩) "إن الرأسمالية لا تخلق آله حرب، والأصوب إلى القول هو أن آله الحرب التى خلقت لتواجه متطلبات الحرب أصبحت بدورها تخلق الحروب التى تحتاج إليها".

(J.Schumpeter, Zur Sogioloie der imperialismen" Archiv fur sozialwissenschaft and sozialpolitit, vol xiv (December 1918) pp 275-310.

كما تتبع الدراسات التالية نفس الخط

M.H. Cornefo, La guerre au point de vue sociologique (Paris 1930)

M.R.Davies the evolution of war (New Haven, 1929)

Quincy wright, A study of war (chicgo london 1942)

Alfred vagts a history of militarism 2nd ed (New York 1959)

Leon bramson and george w. goethals (eds) war: studies from psychology sociology, anthropology (New York 1946)

Emile Wnty L'art de la guerre 3 vols (verries 1967-8).

وقد تابع تطور هذه المسألة على نحو جيد

Morris janowiz in jacques van Doorn (ed) Armed forces and society Sociological essays (the hague/ paris 1968) pp 17 – 19

وأنظر أيضا:

J.van doorn (ed) military profession and miliatary regimes: commitments and conflicls (the hague, 1970).

(١٠) انظر على سبيل المثال Armand cuvilliet, manuel de sociologie 3 vols. (Paris

guy rocher introduction a la sociology generale 3vols (عدة طبعات 70–1950

(montreal/paris 1968 – 70) Dristel (ed) recent sociology 2 rols (London 1969)

Ronald fletcher the making of sociology a study of socielolgical theory 2 vols (London 1971)

ويضاف إلى ذلك التجاهل التام لسلسلة الدراسات البالغة الأهمية التي أجرتها تحت إشراف اليونسكو مجموعة من أهم المراكز العلمية الدولية

Tendances principales de la recherche dans les sciences sociales et humains part 1 sciences sociales (Paris/ the hague, 1970)

(١١) انظر بشكل خاص

A.K. Davis "Bureaucratic patterns idn the new officers corps" social foreces vol 27 (1948) pp. 142 – 53

المصدر السابق E.D. Spindler "the military a systemic anglysis" P. 38 - 8

المصدر السابق T. caplow, G.D Spindler "the military a systemtic anglysis" vol 25 (1947) "rumors in war"

المصدر السابق vol 25 (1974) pp 288 - 302 f. elki "soldiers language" in american journal of sociology vol 51 (1946) pp 414-22 E.A. Shils and M.janowiz "cohesion and disintegration of the wehrmacht in world war" public opinion quarterly vol 12 (1948) pp411 – 17, C.H. Page "Bureaurcracy 94–other face" social foreces vol 25 (1946) pp 88

ولنفس الكاتب "Informal socieal Organisation in the Army"

American journal of sociology, vol 51 (1946) pp. 365 – 70

Morris janwitz the professional soldier (New York 1960) R.C Homans "the small warship" American sociological review vol 11 (1946) pp 294 – 300.

S.L.A Marshell "Men against fire" infantery journal (washinoton 1947) R.C. Strone "status and leadership in a combat fighter squadron" american jouranl of sociology vol 51 (1946) pp 388 – 94

R. Grinker and J. spiegel men under stress philadelphia 1945

K. Demeter Das deutsche heer und seine offiziere berlin 1935

W. A. Hunt an inverstigation of naval neuropsychiatric screening procedures in H. gvetzkhow (ed)(gropus leadersship and men pittsburgh 1951 pp. 2450 – 6

W. Weller the veteran comes back New York 1944

D.N. Michell some factors tendin to limit the utitlity of the social scientist in military systems analysis operation research, vol 5 (1957) pp 90 – 6

كما يمكن الاطلاع على تلخيص مفيد فى

K. Lang military organization in j.g. march (ed)

Handbook of social organization (New York 1964) pp 838 – 78

Guy michelat and jean pierre homas contribution a l etured du recutiement des ecoles d officiers de la marine 1945 – 60

وهو تقرير مقدم إلى المؤتمر العالمى السادس لعلم الاجتماع. ليڤيـان 1966 وحـول الكتابـات الفرنسية انظر

Raoul girarder prolbems militaies contemporainsetat des travaux reue fracaisis de science politique n 10 1960 pp 395 – 418

(١٢) K.long military sociology pp 5-6 ص.س.د.

(١٣) Leo Hamon ed le role extra militaire de l armee dans le tiers mond paris 1966

على أننا نلحظ فى الوقت نفسه ظهور اتجاه لتجديد دراسات سوسيولوجية القوة لا يستثنى العامـل

انظر الاعداد الخاصة revue francaise de sociologie vol ii no 2 1961

"queve – armee – societe l'armee et le pouvoir" La nouvelle revue marxiste no 1 1961

"le sabre et loi" and "armed forces and society in western europe" archives europeennes de sociologie vol II No 1961 and vol vi no 2 1965

وعلى رأس هذه المراجع

Paul – marie de la gorce, La republique et son a rmee paris 1963

(١٤) هذا هو عنوان المؤلف الجماعى الذى حرره

M.Janowiz the New military: changing patterns of organization (New York 1964)

والذى كان (Socilogy and the military establishment (New York 1959

ثم أصبح the professional soldier: a social and poloititcal portrait (New York 1960)

والذى كان الغرض منه هو توفير قاعدة لبدء أعمال لجنة أبحاث "القوات المسلحة والمجتمع" المنبعثة عن "الجمعية الدولية لعلم الاجتماع".

(١٥) Henry Bienen (ed) the military intervenes: cese studies in political development (New York 1968)

Edwin Lewren. Generais versus prsidents: neo militarism in latin america (London 1964)

لذا فإن الرؤساء لا يمكن أن يصبحوا جنرالات

(١٦) هناك قضية أوسع وهى أنه بدلا من بناء سوسيولوچيا عسكرية على نمط السوسيولوچيا الاقتصادية والسياسية يبدو لنا أنه من الأكثر دقة أن نتحدث عن سوسيولوچيا الجيش أو الاقتصاد أو السياسة أخذا فى الاعتبار أننا هنا بصدد الاقتراب السوسيولوچى من قطاع اجتماعى معين وليس حقل علمى متميز يمكن أن تبنى على أساسه منهاجية جديدة. وهنا فإن القضية المطروحة هى خصوصية علم الاجتماع.

(١٧) K.Lang, Military sociology. P. 7 م.س.ذ

(١٨) يسعى Lucy Mair فى (New stations (chicago, 1963 لتقديم الأسس النظرية لهذه العملية وكيفية التعبير عنها فى مختلف المجالات. انظر:

M. Jonowitz, the military in the political development of new nations (chicago, 1964)

على أن البعض يشير بدقة أكبر إلى "البلدان الجديدة" ولكن ذلك يأتى فى الإطار غير الواضح لما سمى "ببناء الأمة" فى إطار المؤتمر السادس "للمنظمة الدولية لعلماء الاجتماع المتحدثين بالفرنسية" (رويومون اكتوبر ١٩٦٥)

انظر العدد الخاص

"sociologie de la construction nationale dans les nouveaux etats" revue de L'Institut de socioologied no 2-3 (bruxelles 1967), "L,edification national dans diverese regions) revue internationale des sciences sociales vol xxlll no3 (1971)

وتخلط الكتابات بين التشكيلات القومية وبناء الدول والأبنية الإدارية، على أن هناك اهتماما برصد اشكال الاستمرارية فى أعمال jacques berque وخاصة L'Orien second (Paris 1970).

(١٩) انظر مقالنا: L'Atenir de la theorie sociale فى المجلد الأول من الجدلية الاجتماعية، تحت الطبع

(٢٠) JJ. Johnson (ed) the role of them military in underdeveloped countries (princeton 1961)

ولا تخفى بعض الدراسات احتقارها للمناطق التابعة

E.A. Shils "the military in the political development of the New States p 7-68"

وفى فترة من الفترات صدر عن مركز أبحاث العمليات الخاصة بالجامعة الأمريكية

A preliminary bibliography on studies on the role of military establishments in develpoing countries (washington 1963) mimeo.

(٢١) فى H.Speir in JJ.Lohnson, the role of them militory

(٢٢) JJ. Johnson, p 4 المصدر السابق

(٢٣) E.A,Shils in Johnson p 61 المصدر السابق

(٢٤) stanilaw andrzejewski military organisation and society london 1945
M.D. Feld "A Typology of military Organization" in C.J Friedrich and s.e. harrie (ed) public policy harvard 1958.

وانظر أيضا

Michael howard (ed) soldiers and government: nine studies in civil military relations (London 1957)

(٢٥) انظر K.Lang military sociology pp. 1-26

"military sociology" 1963 – 9 pp 7-21 special number "beitraze zur militar – soziologie" Kolner zeitschrift fur soziologie und sosialpsychologie sonderheft 12 (1968)

ومعظم عناصر (٨٤٥) الببليوجرافيا التى أوردها 57 – rolf ziegler pp 327 في المصـــدر السابق

(٢٦) "armed forces and sociey a world prespective" in j.van doorn (ed) 38–armed forees and society pp. 15

(٢٧) انظر بشكل خاص:

w. milis and j.read the abolition of war (london 1969) thomas c.sheling "A speical surveillance force" in I. Wright, w.m. evan and D. Morton (eds) preventing world warlll (New York 1962) pp 87 – 105 warren elwood the role رسالة دكتوراة williams paramilitarism in inter state relations. London of the politicals armies in xxth century european politics university (1965) mimeo: fred r. von der mehden & charles w. anderson, "political action by the military in the developing areas" social research vol 28 (1961) pp 459 – 79 d.c rapoprt "a comparative theory of military and political types" in s.p. huntington (ed) chaning patterns of military polititcs glencoe 1962) pp. 71 – 101.

ومن الدراسات الحديثة انظر

Anatol rapoport the big two soviet – ameriean perceptions of foreign policy (New York 1971)

ومن وجهة النظر السوفيتية ورقة A. Kalyadin المقدمة إلى مؤتمر إفـيــان "disarmament 15–as a social problem" (moscow 1966) mimeo pp. 13

وخاصة ببيلوجرافيا الكتابات السوفيتية

A. arsumanyan a stuggle between two systems and world developmetn moscow 1964

P. Fedoseev and j.frantsev on working out the metholdolgical questions of history 1963

S. strumilin problems of military economy and disarmament 5 vols 1964 vo 4

V . aboltin ed policy of stae and disarmament, 3 vol 1966

G. modrginskaya ed problems of peace and war in philosophy and sociology 1966 academy of sciences of the ussr economic problems of disrmament 1961 v yemyelyanoy atom and peace 1965 n tlensky anti – rocket system and disarmement problems 1965

I. Glagolev economy as in flueced by disarmament 1964

V. morsov disarmoment and the probledm of the capitilist market moscow 1964 o. bogdanov nuclear disarmament 1961 and universal and total idsarmement internationl law questions 1964

L. gromov and v. strigachev problems of disarmamet as the main issue of these days 1963

N. nikolsky the main question of modern times: problems of annihilating wars 1964

N. pitersky international security forces 1966

disarmament and help rendered to develping countries in والمؤلف الجماعى eduation (1966)

K. lvanov and B. bastanov: we look into tomorrow 1964 s. malinin and v. onushkin. International cooperation in them field peaceful utilisation of atomic energy 1961

وحول وجهة النظر الغربية انظر

Frtwin hackel military and political purpose (london 1970)

Sir robert thompson rerolutionary war in world strategy 1945 – 65 (London 1970) L.S Griling peoples war: the conditions and the consequnces in chian and in south east asia (London 1969) Alexander dolov (handbook of

intelligence and guerrillas warfre (ann arbor 1963 martin oppenbeimer the urban guerrillas (chicogo 1969)

وعلى الجانب الآخر عدة مؤلفات على رأسها

w. Pommeroy guerrilla warfare and marxim (london 1969) richard gott guerrilla movements in latin americal (London 1970) lewis gann guerrillas in history (stanford 1971) hamza alawi "peasants and revolution" socialist register 1969 (London 1969) pp. 241 – 77 russel stetler (ed) the military art of peoples war seleceted writing of general vo nguyen giap (New York/ London 1970).

Eric r. wolf peasant war of the twentieth century (New York 1969)

Shingo shibita marist military theory and the people s war in vietnam: فيتنام وإشكاليات النموذج vietnam to shiso no modai (Tokyo 1968)

Carlos marighla rof them libeavation of braezil (harmonds worth 1978)

وقد طرح ماوتسى تونج اشكالية الحركات الثورية military writing (Peking) ٢٨ والمؤلف الرئيسى فى هذا المجـــال هـــو c. wright mills the socilolgical imagination والـــذى انطلقت منه حركة علم الاجتماع الراديكالى وانظر فى الاتجاه نفسه

Henri lefever, au- deta du structuralisme

(٢٩) خاصة فى Le moment historique de la recherche theorique

(٣٠) وهناك تلخيص واف لهذا الموضوع فى

S. Stabb in quest of identity: patterns in the spanish american essay of edas 1890 – 1960 (Chapel Hill. 1967)

كما أن هناك معلومات فى

I. L. Horowitz j.de castro and j. gerassi (eds) latin american radicalism: a documentary on left and nationalst movements (New York 1969)

لقد تركت هذه الإشكالية بصماتها على مجمل الانتاج الأدبى فى أمريكـــا اللاتينيـــة، كمـــا يمكـــن الرجوع إلى تعبيراتها الفلسفية فى عدة كتابات منها

Sergio bagu tiemop realidead social concimiento (Mexico 1970)

وخاصة فى كتابات florestan fernandes and darcy riberio

(٣١) وعلى رأس الكتابات حول هذا الموضوع تشير إلى مؤلف أساسى هو

Barrington moore. Social origins of dictatorship and demecracy: Lord and peasant in the makin of the modern world (Boston 1966).

والذى يكاد يبدأ الاعتراف بأهميته كمصدر نظرى. ومن الأعمال المفيدة حول بلدان معينة:

Karl Demeter, them german officer corps in society and the state 1650 – 1945 (Frank furt 1962, London 1965)

F.L. Carsten them reichswehr and politics 1918 – 1933 (Oxford 1966)

Paul Marie de la gorce, la republique et son armee (Paris 1963)

Christorpher hill, the english revolution (London 1940): society and puritanism in pre-revolutinary england (London 1964) intellectual origins of the english revolution (London 1965) God's Englishman: oliver cromwell and the english revolution (London 1970).

Niyazi berkes the development of secularism in turbey (Montrcal 1966)

Joseph Needham, Science and Civilisation in china (Cambridge 1954)

Raymond aron. Paix et gurerre entre les nations (Paris 1962)

Anouar abdel-malek ideologie et renaissance nationale : L'Egypte moderne (Paris 1969)لمدينة مصر، القاهرة ١٩٨٣

Russel B-Nye this almost chosen people: people: Essays in the history of american ideas (East Lenisng 1966)

Richard hosfstadter and S.M.Lipset (eds) turner on the sociology of the froniter (New York 1968) R. Palme Dutt india today (London 1938): etienne balazs La bureau cratie celeste, recherches sur l'economie et la societe de la chine traditionelle (Paris 1968).

(٣٢) انظر فى هذا المصدر العمل الهـام John Gittings the role of the chinese army (London 1967) والذى يطرح مسألة تحليل دور الجيش فى الثورة الثقافية

(٣٣) ويمكن الاطلاع على إشارات حول هذا الموضوع – وأن كانت لا تخلو من الادعاء فى

Andre Glucksmann Le disours de la guerre paris 1967

(٣٤) ويتيح ظهور عدد من الدراسات الحديثة والمتناقضة حول هذا الموضوع دفع الجدل بشـكل اعمق انظـر المجتمـع المصـدر والجـيش ١٩٨٦ A-Abdel – Malek Egypt societe

militaire (Paris 1962) roger murray militarism in africo research poper No 1, The Tanganyia African National Union National headquarter (July 1966)

David Wood the armed forces of the african states (London 1966).

Ruth first the barrel of a gun: political power in africa and the coup d'etat (London 1970), Amos perlmutter, military and oplitics in Israel, nation building and role expansion (London 1969),

C.Herweitx. middle east politics: the military dimension (London 1969)

Bernard vernier armee et politique ou moyen – Orient (Paris 1966)

P.J.Vatikiotis , politics and the military in jordan : a study of the Arab Legion 1911 – 1957 (London 1963)

Philipe G. Schmitter military intervention- political competitiveness and public policy in latin America 1950 – (1970)

تقرير مقدم إلى مؤتمر فارنا:

كما يمكن الاطلاع على ملخص واف لمختلف الكتابات حول هذا الموضوع، خاصة فى أمريكا اللاتينية فى

Alain rouquie, Le role politique des forces armees en amerique latine etat des travaux revue francaise de science polititique vol XIX no 4 (1969) pp 862 – 85.

(٣٥) انظر نقد Maurice cornforth the open philosophy and the open society (London 1968

(٣٦) المصدر الأساسى فى هذا المجال هو Barrington Moore (مراجع هامش ٣١) كما يمكن الرجوع إلى الجوانب المكملة فى C. Wright Mills, the Power elite (New York 1956)

Ralph milliband, the state in capitalist society (London 1969).

وقد سبقت ذلك محاولة لاجراء مماثل للمجتمعات الشرقية من زاوية التمركز حول الذات الأوروبية فى:

Karl wittforgel, oriental despotism a comparative study of total power (Yale 1957)

أما بالنسبة للاطار التاريخى فيمكن الرجوع إلى كل من :

Arnoud brecht, political theory the fovndations of twentieth century political tought (princeton 1958) D.D. Raphael: proplems of polititcal philopohy (London 1970)

وأحد أمثلة الرؤية المتمركزة حول الذات الأوروبية هو:

N.Poulantzas: Political power and social and social classes in the capitlist state (London 1971)

ويمكن الرجوع إلى الرؤية الجماعية فى

Jean Dru: De L'Etat socialiste: vol II Ici, maintenant, demain (Paris 1968)

(٣٧) وحول المواقف المرتبطة بالتروتسكية واللكسمبورجية يمكن الرجوع إلى:

A. G. Frank Le development du sous- development L' amerique Latine (Paris 1970) S.Amin L'accumuletion a lechelle mondiale (Paris 1970)

كما أن هناك طرح لبعض الأفكار فى

Robin murray "internationalisation of capital and the nation – state" new left review no 76 (1971) pp 84 – 109

والتى يوجه لها الانتقاد فى

Bill worren "on the internationalisation of capital and the nation – state" ibidm no 68 (1971) pp. 83 – 8.

على أنه لا يجب نسيان أنه للحفاظ على أنفسهم يحتاج الأمريكيون إلى ربع إنتاج العالم من الصلب والسماد الكيماوى و ٤٠% من لب الخشب و ٣٦% من الوقود وخمس إنتاج العالم من القطن و ١٠% من المساحات المنزرعة خارج نطاق الحدود الأمريكية وأوروبا الغربية بدورها ليست بعيدة عن هذه الأرقام

Gerald Leach: "Spaceship Earth: the crisis to end all crises?" observer (DET. 1977 PP. 6 – 7

وانظر أيضا قائمة المراجع فى

Christober tugendhat, the multinationtionls (London 1971) pp 226, 8.

(٣٨) اعتمد النقد المعاصر على تقليد بريطانى راسخ فى مجال تاريخ العلوم

J.D. Bernal social function (London 1939) science in history (London 1954)
J.G. Crowther, the social relation of science (London 1941) scence in modern society (London 1967)

J Needham Science and civilisation in china

كما يمكن الرجوع إلى الكتابات المتميزة لـ

Victor perlo militarism and industry arms profiteering in the missile age (London 1963) harry magdoff the age of imperisalism the economics of U.J Forign (New York 1966): robin clarke the science of war peace (London 1971).

وحول دور J.D. Bernal راجع:

loren R. Graham "science in history" the New York times book review LXXVI no 31 (1 October 1977) pp 18 – 19

(٣٩) حول التطورات الحديثة للجدل حول خصوصية علم الاجتماع، انظر:

Robert W. Friedrichs, A Sociology of sociology (New York 1970)

A-Abdel – Malek "le vime congre's mondial de sociology" Atomes no 7 (1970) p 691

P.Bourdieu, J.C. Chamboredon, J.C.Passeron, Le Metier de sociologue voll (Paris 1968)

كما أن هناك طرح لبعض الأفكار فى

Robin murray "internationalisation of capital and the nation – state" new left review no ٧٦ (١٩٧١) pp ٨٤ – ١٠٩

والتى يوجه لها الانتقاد فى

Bill worren "on the internationalisation of capital and the nation – state" ibidm no ٦٨ (١٩٧١) pp. ٨٣ – ٨.

على أنه لا يجب نسيان أنه للحفاظ على أنفسهم يحتاج الأمريكيون إلى ربع إنتاج العالم من الصلب والسماد الكيماوى و ٤٠% من لب الخشب و ٣٦% من الوقود وخمس إنتاج العالم من القطـن و ١٠% من المساحات المنزرعة خارج نطاق الحدود الأمريكية وأوروبا الغربية بدورها ليست بعيدة عن هذه الأرقام

Gerald Leach: "Spaceship Earth: the crisis to end all crises?" observer (DET. ١٩٧٧ PP. ٦ – ٧

وانظر أيضا قائمة المراجع فى

Christober tugendhat, the multinationtionls (London ١٩٧١) pp ٢٢٦, ٨.

(٣٨) اعتمد النقد المعاصر على تقليد بريطانى راسخ فى مجال تاريخ العلوم

J.D. Bernal social function (London ١٩٣٩) science in history (London ١٩٥٤)

J.G. Crowther, the social relation of science (London ١٩٤١) scence in modern society (London ١٩٦٧)

J Needham Science and civilisation in china

كما يمكن الرجوع إلى الكتابات المتميزة لـ

Victor perlo militarism and industry arms profiteering in the missile age (London ١٩٦٣) harry magdoff the age of imperisalism the economics of U.J Forign (New York ١٩٦٦): robin clarke the science of war peace (London ١٩٧١).

وحول دور J.D. Bernal راجع:

loren R. Graham "science in history" the New York times book review LXXVI no ٣١ (١ October ١٩٧٧) pp ١٨ – ١٩

(٣٩) حول التطورات الحديثة للجدل حول خصوصية علم الاجتماع، انظر:

Robert W. Friedrichs, A Sociology of sociology (New York ١٩٧٠)

A-Abdel – Malek "le vime congre's mondial de sociology" Atomes no ٧ (١٩٧٠) p ٦٩١

P.Bourdieu, J.C. Chamboredon, J.C.Passeron, Le Metier de sociologue voll (Paris ١٩٦٨)

الجزء الرابع

الإمبريالية، الهيمنة، التحرر

(١٠)

فائض القيمة التاريخي

لقد أحاط الغموض وما برح يحيط بالمكانة التى تشغلها مسألة القوة من جراء ضباب كثيف من الاعتبارات المنوعة تصب كلها باتجاه إنكار أولية المكانة السياسية لهذه المسألة.

وقد بدأ مفهوم القوة (العنف) لفترة من الزمن، أما محرما، أو على الأقل هامشيا بالنسبة للفكر الاجتماعى. تلك كانت فترة الغلبة غير المنازعة تقريبا لأيديولوچيا التقدم.

كان الشعور الذى يخامر البرجوازيات الحاكمة أنها حققت فعلا الشطر الأعظم من المهام التاريخية للتقدم الاجتماعى – الاقتصادى والثقافى، فى حين كان هدف القوى الصاعدة للاشتراكية هو استكمال الثورة الديموقراطية ودفعها باتجاه الشعبوية، ولما كان "العنف" فى النظرية السياسية والاجتماعية بالذات يمثل شكلا للأعراض المرضية المتلازمة الخارجية المنشأ، فقد بقى العلم المختص بعلل النظام الاجتماعى ملتزما، من الناحية الجوهرية، بإمكانية تحقيق السلام الأبدى، بالتقدم غير المحدود، وبالازدهار اللامتناهى... بالسعادة، أى وبكلمة، بالأرض وقد استحالت فردوسا.

بعد ذلك جاء انقسام العالم الصناعى المتقدم إلى معسكرين فى أعقاب ثورة أكتوبر ١٩١٧، وما أصاب الخطوات الاجتماعية للأنظمة الرأسمالية من جراء الركود الذى ضرب الاقتصاد العالمى فى أعوام ١٩٢٩ – ١٩٣٢، أضف إلى ذلك استياء قطاعات واسعة من السكان فيما بعد من جراء تناقص التسهيلات والمنافع فى بلدان الهيمنة السابقة تحت تأثير حركات التحرر الوطنى فى الشرق، وفى وقت أخذ فيه الخطر النووى يلوح على نطاق واسع... هذه العوامل هى التى أدت إلى نشوء الاهتمام المستجد بالحجم الذى يتخذه عنف القوة داخل المجتمعات الحديثة، وفيما بينها.

لقد ظل البعد الإمبريالى، بوصفه عاملا مركزيا فى تركيب القوة فى العصر الحديث، يرى باستمرار فى مباشرته، وليس كأحد العوامل والتعبير المعاصر للسيرورة التاريخية. وإزاء فوران العنف – من تصاعد حمى التسلح، وتكاثر الحروب بين القوميات، وصولا إلى الحرب العالمية فى الأعوام ١٩٣٩ – ١٩٤٥ واستخدام السلاح الذرى لأول مرة فى التاريخ ضد أمة كبرى من أمم الشرق – إزاء هذا العنف، لم يعد ممكنا، أو قل لم يعد معقولا بعد الآن، تجنب مواجهة الحقيقة: حقيقة القوة السافرة لعنف الكلى الواسع النطاق، وسياسات التسلح، والحاجة إلى شكل من أشكال الكبح والضبط. لهذا، كان المسمى إلى نزع السلاح، من بين أمور أخرى، مطلبا ملحا من مطالب العصر.

يمكن القول إن التوجه الأساسى فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر ثم فى القرن العشرين كان، وما يزال، توجها أخلاقيا إلى حد بعيد. فالعنف والتسلح ينظر إليهما كعمل شرير، والسلاح ونزع السلاح كعمل أخلاقى محب للخير. ولو قدر لأحد أن يجرى تحليلا لمضمون الخطب والمقررات والكتابات والبيانات حول الحرب والعنف والسلام أو نزع السلاح، لتكشف هذا التحليل عن حصيلة وفيرة جدا من الاعتبارات الخلقية ونسبة أقل بكثير من التحليلات السياسية للقوة، فما بالك بالمقارنات الحضارية؟ والظاهر أن المآزق والنتائج اللامتناهية المترتبة على مثل هذا التوجه الأخلاقى لم تستطع التغلب قط على ذلك المزاج الخيرى، إذا جاز التعبير، لدى أتباع المبادئ الأخلاقية المعاصرين تجاه مقولتى القوة والعنف، ولاسيما أن معظمهم ما انفك يطلب الدفء فى أحضان البيئة التسلطية للإمبريالية والهيمنة اللتين يتظاهرون بالاشمئزاز منهما واستنكارهما. أما من جانبنا، فقد جرى تحديد اللاعنف والسلام ونزع السلاح باعتبارها جزءا من إطار أعرض من المصطلحات المهجورة وعودة إلى زمن ما قبل الرأسمالية. وهكذا كان العجز، فى الحقيقة، يتستر خلف برقع الشعبوية. وعلى ذلك، استطاعت مراكز القوة أن تواصل السير كالمعتاد.

إن جذور العنف، جذور الحرب الشاملة، والطريق إلى التسلح، إنما تكمن في التركيب التاريخي للنظام الدولي... أى فى التكون التاريخى للهيمنة الغربية، هذه الهيمنة المتجذرة فى فائض القيمة التاريخى، ابتداء من القرن الخامس عشر.

٢ – ١ لئن كان صعود الغرب إلى موقع الهيمنة، من بداية القرن الخامس عشر وحتى اجتماع يالطا لا يقع ضمن المجال المباشر لهذا البحث، إلا أن المرء لا يسعه أن ينسى كون تلك الفترة هى بالذات الفترة المتصلة بامتداد ظاهرة الحرب إلى مناطق أوسع فأوسع من العالم، كما كان معروفا فى ذلك الحين، إلى أن شملت الجزء الأكبر من أوروبا وآسيا وأفريقيا فى وقتنا الحاضر.

٢ – ٢ غير أن الشئ الأهم فى التحليل البنيوى للهيمنة الغربية ليس ذلك البعد الحربى، بقدر ما ينبغى تركيز الاهتمام على تشكيل فائض القيمة التاريخى.

أ) الموجة الأولى من الغزوات، والنهب، والاختراق والاحتلال، جاءت لتضرب المنطقة العربية – الإسلامية اعتبارا من القرن التاسع عشر: بدءا بالحملات الصليبية ووصولا إلى العسكرية الصهيونية.

ب) الموجة الثانية، الموجة الأشد فتكا من الناحية البشرية، عصفت بالقارة الأفريقية. والنزف اللاحق الذى ترتب على تجارة الرقيق كان له أعمق الأثر فى إمكانيات أفريقيا المعاصرة.

ج) الموجة الثالثة أتت لتدمر الحضارات والمجتمعات الهندية فى أميركا الوسطى والجنوبية، وإخضاعها للإمبراطوريات البحرية الإسبانية والبرتغالية.

وهكذا دشنت حقبة تاريخية امتدت، فى دائرتها الأوسع، أحد عشر قرنا ونيفا، وفى دائرتها الأضيق خمسة قرون. وخلال هذه الحقبة، نجحت أوروبا والغرب فى القضاء على مراكز القوة فى الشرق، وبدرجة أعم، فى آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية. كما نجحا فى مراكمة ثروات قاراتنا الثلاث – ثرواتها المادية وإمكانياتها البشرية والثقافية على حد سواء – وتكديسها فى دول البرجوازيات الغربية

("القومية") الصاعدة آنذاك. والغريب أن هذه السيرورة الضخمة والطويلة الأمد من المراكمة والتكديس، هذا السلب الضارب في أعماق القارات الثلاث طوال قرون وقرون من السيطرة، ظلت موضع تجاهل من قبل أبرز مفكري أيديولوجيا التقدم في الغرب. فصيغهم كانت صيغة "فائض القيمة الرأسمالي"، كما لو أن الشئ الأهم في تاريخ البشرية هو ذلك الطور الأخير من الصراع الطبقي في المجتمعات الطبقية، حيث ينتظر من الرأسماليين أن يقوموا باستغلال الطبقات العامة.

٢ – ٣ إننا هنا أمام الجذور عينها لمشكلة الهيمنة والعنف والعنف المضاد في التاريخ. في الواقع، لم يكن فائض القيمة التاريخي محصورا، في يوم من الأيام، ضمن مجال الاقتصاد فحسب. إن تكديس المواد الأولية، ومصادر الطاقة، والأراضي والمساحات، والسيطرة على المدن والموانئ وشبكات المواصلات الرئيسية والمحيطات، إلخ..، كان أمرا على جانب كبير من الأهمية بالتأكيد. لكن فائض القيمة التاريخي أتاح للبرجوازيات الغربية، أولا وقبل كل شئ، الوسيلة الكفيلة بضمان هيمنتها على العالم.

فبفضل فائض القيمة التاريخي هذا، أمكن للثورة العلمية والصناعية أن تحدث. وفتحت الجغرافيا السياسية المجال واسعا للانتشار باتجاه السيطرة على العالم من خلال القوة البحرية، فيما ساهمت تقنيات الاتصالات في التخفيف من فيض الأفكار والنظريات والمفاهيم من "المركز" إلى "الأطراف" المختلفة. وكانت النتيجة تكدسا فريدا من نوعه عند "المركز"، بلغ ذروته في تركز صياغة النظرية الاجتماعية والاتجاهات الفكرية الحديثة عموما، وفي مراكز الهيمنة الغربية. من هنا، فقد استحال على شتى "الأطراف" – آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية – أن تتطور إلا وفق النهج الذي تقترحه وتفرضه فرضا مختلف المدارس الفكرية في الغرب المهيمن.

لهذا السبب، كان وضع المسألة المشار إليها – أعني وضعها في الموضع ذي المعيار الأخلاقي – مصاغا بتعابير مستعارة من المؤسسة الشعبوية أو الليبرالية للغرب نفسه.

٢ – ٤ إن الانتقال من الأشكال المبكرة للاستعمار إلى الإمبريالية الكلاسيكية، إلى الشكل الأرفع من الإمبريالية فى عصرنا، أى إمبريالية الهيمنة، قد أدى إلى تكوين ما يسمى بالنظام الدولى (المعهود) الذى وجد تعبيره الحديث فى الفترة ما بين ١٨١٥ و ١٩٤٥، وبشكل أكثر تحديدا فى يالطا، هذا النظام الدولى كان يعنى التكريس الرسمى للهيمنة الغربية، رغم انقسامها إلى ضروب اجتماعية – سياسية من النظم والأيديولوجيات، وإقصاء كل ما عداها. وقد تطور هذا النظام الدولى، كما نعلم، عبر ثلاث مراحل متوالية: الحرب الباردة، التعايش السلمى، والانفراج، وباستطاعتنا أن نرى حاليا التحديات التى يواجهها الانفراج نفسه بوصفها نتيجة الارتقاء أتباع "اللجنة المثلثة(*)" إلى سدة الحكم، ووجود "أدوات" الحرب الباردة والصهيونية فى قلب القوة الإمبريالية الرئيسية فى عصرنا، لمواجهة المد الصاعد لحركات التحرر الوطنى والثورات الاجتماعية التى تظهر الآن فى العالم.

٢ – ٥ ومما يجدر ذكره هنا، أن الدعوة إلى إقامة نظام دولى جديد قد حرفت هى نفسها، بفعل مؤثرات الهيمنة الغربية، إلى دعوة لإقامة نظام "اقتصادى" دولى جديد، كما لو أن المسألة تتلخص فى إعادة توزيع بعض أشكال الموارد المادية وبذلك تستقيم اللعبة.

إننا ندعو مجددا إلى عكس الطريقة التى تطرح بها المسألة. فالدعوة إلى نظام دولى جديد، يعترف اعترافا كاملا بالقارات الثلاث التى بقيت منسية حتى الآن –

(*) وتسمى أيضا "منظمة المثلث المتوازى الأضلاع" وهى لجنة أسسها دافيد روكفلر، مدير بنك (تشيس منهاتن بنك)، وتضم نخبة من المثقفين والسياسيين ورجال المال فى كل من الولايات المتحدة وأوروبا= =الغربية واليابان، ومن هنا كانت تسميتها بالمثلث المتوازى الأضلاع. وقد أوكلت رئاستها إلى زبغنيو بريجنسكى، مستشار الرئيس الأمريكى لشئون الأمن القومى ، ومن أعضائها البارزين: ريمون بار، رئيس وزراء فرنسا. ويذكر أن هذه اللجنة هى التى دعمت حملة ترشيح كارتر للرئاسة.

قارات آسيا وإفريقيا وأميركا اللاتينية – فى تفاعل جدلى مع المجتمعات المتقدمة القائمة فى أوروبا وأميركا الشمالية، الرأسمالية منها والاشتراكية على حد سواء، إنما تعنى، فى حقيقة الأمر، إننا مدعوون الآن إلى التفكير بلغة سياسية حقيقية، مؤكدين بذلك على أولوية السياسى فى مجال السياسة.

لا بد من التسليم، إذن، بأن النضال فى سبيل نظام دولى جديد إنما يرتبط أشد الارتباط بإشكالية العنف والعدوان والتسلح. زد على ذلك أن النضال من أجل نظام دولى جديد هو، فى حد ذاته، السبيل الذى يؤدى إلى عالم أكثر إنسانية، عالم يمكن للعقلانية السياسية والسلام ونزع السلاح أن تقوم فيه على أسس ومرتكزات واقعية.

– ٣ –

إن المسألة المطروحة أعلاه تفضى بنا إلى صياغة إستراتيجية واقعية العقلانية السياسية بلغة تتعارض تعارضا كليا مع الجو السائد حاليا سواء على صعيد الحد من السلاح، أو الإدانة الأخلاقية لسياسة التسلح.

باختصار، إن الطريق إلى العقلانية السياسية والسلام ونزع السلاح إنما يمر بالضرورة عبر تحويل المسار الرئيسى للسياسة الدولية فى الاتجاه المعاكس، وإقامة نظام دولى جديد وتغيير مفهوم الإنسان كقوة حاسمة بالمعنى الفاوستى المحدث للكلمة.

ولكن حسبنا أن نتساءل: كيف السبيل إذن للمضى قدما؟ .

٣ – ١ النقطة المحورية ههنا هى الانطلاق بالمبادئ والمتطلبات السياسية لكافة مراكز القوة الصاعدة فى النظام الدولى الجديد من منطلق الاعتماد على النفس. وينبغى النظر إلى الاعتماد على النفس، فى هذا السياق بمعناه الأرحب، أى باعتباره يشمل كافة قطاعات وأوجه الحياة القومية، بدءا بالاقتصاد وانتهاء بالجغرافيا السياسية والاستراتيجية دون أى استثناء على الإطلاق. كذلك لا بد من تمييزه بوضوح على ذلك التوجه الباطنى: فالمجهود السياسى فى الاعتماد على النفس إنما يتركز على تعبئة كل الامكانات المتوفرة لدى الأمة المعنية، أو فى

منطقة ثقافية – قومية ما، بما يفتح الطريق واسعا أمام الإبداع الفكرى النابع من الداخل، بدلا من تلك الطرق والوسائل المتبعة، على اختلافها، للتكيف مع المعرفة والتقنيات السائدة حاليا على المسرح الدولى.

وهكذا، فإن الاعتماد على النفس لا بد أن ينظر إليه كتوكيد على الاستقلال القومى، ضمن إطار التكافل بين الأمم، والأقاليم والمناطق، مع الضغط دائما باتجاه الوضع القومى للمسألة وليس العكس.

٣ – ٢ وإذا فهم الاعتماد على النفس على هذه الصورة، فسوف يعنى إعطاء قدر أكبر من الأهمية للنضال التحررى الوطنى، والحركات الاستقلالية ولتلك الموجة المنوعة من الثورات الوطنية والاجتماعية فى القارات الثلاث على وجه الخصوص، وذلك بقصد حمل قوى حديثة ومراكز جديدة للقوة الإقليمية إلى داخل الهيكل الحالى لميزان القوى الراهن فى العالم. أى، وبتعبير آخر، بقصد تعديل السيناريو السائد الآن، وبشكل أساسى سيناريو الانفراج ما بين الدولتين العظميين، على ضوء التدخل المتزايد للمركز الثالث – المركز الصينى المتين للقوة فى العالم. إن مناطق كاليابان، وشبه القارة الهندية والعالم العربى، والبرازيل، وإيران، وفيتنام، وجنوب شرق آسيا، والصين فى مقدمتها طبعا، يمكن أن تحدد على ضوء هذه الحقيقة، كعوامل رئيسية فى إعادة تشكيل الأنماط المتغيرة للقوة فى العالم".

ومن شأن جملة السيرورات هذه، المعقدة إلى أبعد الحدود، والمشوشة فى أكثر الأحيان، أن تؤدى إلى انبثاق ما اقترحنا تسميته "بالسيناريو البديل". وبمقتضى هذا السيناريو البديل، تتوازن الجبهة الحالية للهيمنات السائدة فى العالم الغربى بجبهة قوامها المراكز الرئيسية للقوة المتعادلة فى الشرق، وفى القارات الثلاث بشكل أعم أى بالضبط ما تعمل "اللجنة المثلثة" للحيلولة دونه.

٣ – ٣ وعلى امتداد الحقبة التاريخية التى تتفتح الآن أمامنا، سيكون من الضرورى بالنسبة لنا جميعا أن نعمل بتأن وهدوء دون أى إثارة، وذلك خوفا من أن تجرفنا الأحلام. لأن بروز نماذج السيناريو البديل – أى انبثاق السيناريوهات البديلة – سيكون عملية طويلة، تسلك طرقا لم تكن معروفة حتى الآن. عدا أنه

سيأتى من خلال سلسلة من النضالات والنزاعات مع النماذج العالمية للهيمنة فى العالم. ومن هنا منشأ الضرورة لاعتماد الرؤية البعيدة النظر للتاريخ، ولاسيما على ضوء المعرفة بأن فى استطاعة الأمم والثقافات والحضارات الأقدم فى العالم، التى تتقاسم الآن فيما بينها الغالبية العظمى من الإمكانيات البشرية والموارد الاقتصادية والمواد الأولية ومصادر الطاقة، وتسيطر على المناطق الجغراسياسية على المستوى الإقليمى، أن تعبئ وتحشد تدريجيا الإمكانيات اللازمة لصد موجات المد الناجمة عن الهجوم المعاكس المحتوم، وتقيم توازنات أكثر عقلانية شيئا فشيئا.

٢ – ٤ والحال أن النضالات فى سبيل بناء النظام الدولى الجديد قد اتسمت منذ البداية، بهذه العينة الجلية.

إن بلوغ نقطة الخطر لن يكون، من الناحية النظرية، إلا عندما تبلغ الجبهتان – جبهة الهيمنات القائمة حاليا والجبهة المتعاظمة لمراكز القوة الصاعدة – مستوى قريبا من التعادل. والواقع أن الدفع والهجوم المعاكسين سوف يظهران، كما بينا أعلاه، قبل ذلك بوقت طويل. فكما نعلم جميعا، لم ينقض عام التغيير العظيم، عام ١٩٧٣، الذى شهد الخاتمة المظفرة لحرب فيتنام وحرب أكتوبر فى الشرق الأوسط إلا وكان الهجوم المعاكس الاستراتيجى والشامل للجبهة التقليدية المهيمنة فى الغرب – وفى قطاعاتها الإمبريالية بالدرجة الأساسية – سجل تحركات حازمة وفعالة فى أجزاء واسعة من أفريقيا وآسيا.

والصعوبات الكامنة هنا مزدوجة: سلبية وإيجابية.

أ – من الناحية السلبية، سوف تتمثل الصعوبة الرئيسية فى الموافقة على العمل بطريقة ثنوية (مانوية)، أى اعتبار جبهة الهيمنة كجبهة واحدة غير منوعة، ينبغى مواجهتها ومقاومتها بطريقة تناحرية. ومن شأن هذا التصرف أن يفضى رأسا إلى الكارثة. إنه لمن الأهمية المحورية بمكان، فيما لو أردنا ترشيد مسار العلاقات الدولية، أن نتخذ مقاربات محددة، محنكة ومتنوعة جدا، حيال المسائل الاستراتيجية وتطبيقاتها الإقليمية سواء بسواء. إن الضرورة ستحتم علينا، ولوقت طويل وطويل جدا بالفعل، أن ندخل فى

أنماط ونماذج معقدة من العلاقة الجدلية غير التناحرية عبر صيغة "الاستقلال من خلال التكافل" ذات الأثر الفعال على مختلف المستويات والوتائر.

ب – أما الصعوبة الإيجابية، إذا جاز لنا القول هذا، فهى أشد هؤلاء بكثير. لأنه إذا كان لنا أن نجارى عملية إعادة بناء النظام الدولى المنطلقة قدما باستمرار، فعلينا حكما أن نكون قادرين على توفير البدائل للأنماط الحالية للتطور الاجتماعى – الاقتصادى، السياسى والثقافى.

– ٤ –

هذا هو موضع محل دعوتنا إلى تكوين مشروع حضارى جديد للبشرية، مشروع يتألف هو نفسه من مجموعات متفاوتة: ومع ذلك متباينة، من المشاريع الحضارية لمدنيات وثقافات العالم الرئيسية فى عصرنا، فضلا عن مميزاتها وخصائصها المتشكلة عبر التاريخ، وهكذا، بوسع حقبة تاريخية بارزة من تاريخ البشرية، الحقبة المنفتحة الآن أمامنا، أن تشهد التقاء سيرورتين.

٤ – ١ من جهة، سيرورة تغيير الأنماط التقليدية للقوة فى العالم باتجاه إقامة نظام دولى جديد على نحو واعد. إذ ليس إلا بخلق مراكز قوية فى مواجهة الهيمنات القائمة يتسنى للبشرية أن تمارس مزيدا من العقلانية على العنف وسباق التسلح واستخدام الأسلحة الفتاكة تحديدا، لو فى شكلها الرادع المزعوم. عندئذ فقط، سيغدو من الممكن سماع الدعوات الفلسفية والأخلاقية والوصول بها إلى نتيجة. ليس من سبيل إلى نزع السلاح إلا من خلال قلب حالة عدم التوازن الحالية فى النظام الدولى.

٤ – ٢ فى الوقت نفسه، وفى آن معا، سيرورة أجزاء تقييم لتلك الثروة الهائلة من القيم الروحية والمفاهيم الفلسفية والتجديدات النظرية، النابعة من صلب الإبداعية الثقافية لقاراتنا الثلاث، والتى تجد جذورها المتأصلة عميقا فى عظمة حضارات الشرق، كل ذلك بغية التعجيل بتطوير المشروع الحضارى الجديد، حتى

ولو بصورة جزئية، حتى يكون فـــى المقـــدور التصـــدى لأخطـــار ومعضـــلات المجتمعات الصناعية المتقدمة، التى تبرر ما يرتكب من تجاوزات باسم سياســـات سباق التسلح، وتصلح عذرا لإخفاء شرورها المتأصلة عن وعى الجماهير.

(١١)

فى نظرية الإمبريالية والهيمنة

"ألا تستطيع أن تحل مشكلة؟ حسنا. إذن عليك أن تعرف وضعها وتاريخها".

ماوتسى تونج

فإذا أردت أن تفهم ظاهرة ما فلن تستطيع أن تصل إلى ذلك إلا إذا اتصلت بهذه الظاهرة. وعشت فى البيئة التى حدثت فيها.. فكل المعارف الحقيقية إنما هى ثمار تجارب حية.

إن الجدليات المادية ترى أن المسببات الخارجية هى شروط التغيير، أما الظروف الداخلية فهى مصدر التغيير، وأن المسببات الخارجية تقوم بوظيفتها من خلال وساطة المسببات الداخلية.

منذ بداية البحث والشرح النظرى الذى نأمل فى أن يشترك فى تطويره عدد متزايد من علماء الاجتماع والمتخصصين فى العلوم الاجتماعية والإنسانية فى مجال الإمبريالية وجدلياتها الملموسة – كما حددنا هنا العلاقات الجدلية بين الإمبريالية والحركات الوطنية خلال التاريخ المعاصر – أقول منذ البداية ظهرت حقيقتان سوف يتكرر ظهورهما بدرجات مختلفة فى مجالات أخرى من عملية تنظيم العلوم الاجتماعية.

أولى هذه الحقائق هو العالم الحقيقى.. عالم الإنسان والمجتمعات التى تعيش فى صراع.. تناضل من أجل تحررها – وربما بقائها – فى عالم يجيش بالاضطرابات.

لقد كان للنظام الرأسمالى وامتداده الإمبريالى الذى تركز فى الغرب منذ أوائل العصر الحديث تأثير قوى دفع الإحساس بالإقليمية إلى حدودها القصوى وعزز

البعد الدولى لجدليات التكوينات الاجتماعية القومية – الأمم – التــى شــكلت، ولا تزال تشكل النسيج الأساسى الذى نمت وتطورت حوله الجدليات الاجتماعية لأولى المجتمعات التى ظهرت فى عصرنا. إن العالم ليس عالما واحدا، وهو أمر واضح جدا، ومن جهة أخرى فإن العالم بدأ يتجه إلى تعميق وتكثيف العلاقات المتداخلــة بين وحداته المكونة المختلفة بأساليب وبسرعة لم تكن معروفة قبل ذلــك الوقــت. وليس هذا العصر الذى نعيشه عصر الاندماج العالمى (العالمية: تطــور أخلاقــى وسيكولوچى ذو جذور ظواهرية) بقدر ما هو عصر بــدأ فيــه تحريــك جــدليات الحضارات والثقافات القومية بما يوفر الإطار الذى تواجه فيه الجماعات والطبقات الاجتماعية المتضادة بعضها البعض سعيا وراء السلطة داخل كل تكوين إجتماعى. وأحيانا على مستوى مجموعات محددة معروفة من التكوينات الاجتماعيــة داخــل محيط ثقافى إقليمى واحد.

فى خضم هذه العملية تواجه الإمبريالية الحركات الوطنية ليس فقط فى محيط الدول التابعة التى كانت ممثلة فى مؤتمر القارات الثلاث. وقد كانت آسيا وأمريكــا اللاتينية بكل تأكيد هما الميدانين الأساسيين اللذين تكشفت فيهما الجــدليات الهائلــة للإمبريالية وحركات التحرر. غير أن تطور مصير أوروبا التى يحدها الأطلنطــى والمتوسط ومصير الولايات المتحدة عندما حوصرت فــى الحركــة الارتجاعيــة لانحسار الحروب الإمبريالية، وظهور مشكلة السود وغيرهم من الجماعات العرقية فى أراضيهم.. كل ذلك يشير إلى أن إشكالية جدليات الإمبريالية والحركات الوطنية إشكالية موجودة فى قلب العالم المعاصر. إنها تظهر اليوم بصورة أضخم مما كانت عليه خلال منتصف القرن الماضى أو قبل الحرب العالمية الأولى.

أما الحقيقة الثانية فهى أكثر إثارة للاختلاف؛ على الأقل إذا نظرنا إليها خارج بيئتها العامة. ويمكن صياغتها كالآتى:

إذا نظرنا إلى ما يسمى بالدراسات العلمية للإمبريالية فإنه يبــدو واضـــحا أن أفكار هذه الحركات التى أغمست طوال القرن الماضى والنصف فى الكفاح ضــد الاستعمار والإمبريالية قد تم تجاهلها عمليا. كذلك غابت أفكار الحركات العماليــة

الشعبية التى عادة ما ينظر الفكر المحافظ إلى نضالها على أنه تم حشده. وقد انتصرت معظم الأعمال الحديثة على تفسيرات النصوص الكلاسيكية، خاصة النصوص التى وضعها المنظرون الماركسيون الغربيون، وكان افتراضها أن الأسئلة الأساسية تعنى بتماسك الحديث المنطقى، ودقة الفوارق المفاهيمية والإنجازات النشطة وغير الحقيقية لعلوم المنهج ونظريات المعرفة التى تنفر من الواقع الملموس. وترفض المذاهب التاريخية النقدية، وتصد المعالجة السياسية الاجتماعية للنظرية السياسية بحجة "إنتاج" نظرية سياسية، وهى فى هذه الحالة النظرية السياسية للإمبريالية المتضخمة: وقد أصبحوا بطرقها الأيديولوچية.

هل هذا إذن مثال آخر على الانفصام المتزايد بين النظرية والممارسة.. بين الجدليات الملموسة للعالم الواقعى وتفسير هذه الجدليات؟ يبدو أن هذه هى الحال ولكن إلى حدود معينة. وفى هذه الحالة يكون ميدان الملاحظة هو القوة فى أعلى مستوياتها طالما أنها تتضمن أيضا البناء الجوهرى لشبكة القوى المهيمنة التى تجد نفسها فى مواجهة اتجاه للانفصال عن هذه الشبكة التى تكتسب أيضا مستويات جديدة أعلى. وبنفس المنطق فإنه سوف يكون واضحا أن العمل التنظيرى لا يمكن أن يتطور خارج إطار السياسة والرؤية السوسيولوچية للسياسة. إن كل شئ يعود بنا بإصرار إلى علم لجتماع السياسة الواسعة التى لا تعنى بمشكلة السلطة داخل تكوين اقتصادى لجتماعى قومى محدد، ولكنها تعنى بالنضال من أجل السلطة وفى مواجهتها على مستوى عالمى، بما يتضمنه ذلك أيضا على مستوى أوسع من دراسة الجماهير الشعبية، والجغرافيا السياسية والأيديولوجية والاستراتيچية والاقتصاد الدولى والحضارات والثقافة والدولة والثورة.

وهنا لا بد، كما فى كل مجالات علم الاجتماع السياسى أكثر من أى مجال آخر، من تأصيل التحليل والشرح النظرى. على أن تكون نقطة البداية هى الحقل الاجتماعى فى السياسة والممارسة ليستمد منها عناصره الأساسية وإشكالياته وإلهاماته وتوجهاته وفرضياته التفسيرية الهائلة. إن أى أسلوب آخر للمعالجة سوف يكون محكوما عليه بأن يبقى غير متصل بالموضوع، منفصلا دائما عن الاتصال الحقيقى بالشئ الذى يبحثه.

١ – التطور التاريخى لنظريات الإمبريالية

ليس هذا مجال الاستفاضة فى سرد تاريخى مفصل ومرتب لنظريات الإمبريالية. ولكننا سوف نحدد ببساطة أهم الأطوار ومراحل التطور النظرى فى علاقته بتطور العالم والمصاعب التى تواجه اليوم هذه النظريات، كل ذلك بهدف تحقيق الانفراج فى المأزق الذى وصلت إليه المعرفة العملية بالإمبريالية.

إن الدراسة النقدية لتطور نظريات الإمبريالية يمكن بناؤها حول لحظتين عظيمتين كلتاهما تمثل المراحل التاريخية الاجتماعية وخطوات التطور فى النظرية فى نفس الوقت.

١ – ١ فترة الإمبريالية الكلاسيكية: المعالجة السياسية ذات البعد الاقتصادى

لقد كان شائعا فى السنوات الأخيرة أن ينظر إلى دراسة الإمبريالية على أنها تقتصر فقط على دراسة النظرية اللينينية وملحقاتها[١] مما أدى إلى إحداث خلط بين أهم عمل نظرى علمى وبين كافة الأبحاث والدراسات العلمية الموجودة تحت أيدينا. غير أن بالنسبة لهؤلاء الذين يتخذون هذا الموقف تصبح النتائج التى يتوصلون إليها مجرد مزيد من التدريب فى علم الماركسية مبتعدة مرة أخرى عن الطبيعة الجدلية التركيبية للماركسية، رغم أن هذا الجانب بالتحديد هو الجانب الذى ينبغى إعادة التأكيد عليه الآن.

١ – ١ (أ)

إن دراسة التغيرات اللفظية[٢] التى حدثت أثناء فترة الإمبريالية الكلاسيكية وخصوصا خلال القرن التاسع عشر، وتركزت حول قوة بريطانيا، تكشف عن خليط غير عادى من الأفكار والآراء الأخلاقية والدينية والعرقية والسياسية والاقتصادية والثقافية والسيكولوجية. فكل شئ مسموح به طالما أنه يبرر "أعباء الرجل الأبيض".. هذه الرسالة التاريخية التى أنزلت على أوروبا لتتحمل عبء مصيرها ومهمة تمدين العالم وتحضره.

ويبدو أن كلمة "إمبريالية" ذاتها قد صيغت حوالى عام ١٨٣٠. ثم استخدمت مرة أخرى فى عام ١٨٤٨ لتعزز طموحات لويس نابليون القيصرية.

ومنذ هذه الفترة تطور المصطلح فى اتجاهين: فى مضمار قد يبدو للبعض مثيرا للدهشة إذا أصروا فقط على إدارة ظهورهم إلى العالم الواقعى، الذى يعد محوره الأساسى الصراع من أجل السلطة على مستوى العالم وليس على المستوى القومى الداخلى.

وهكذا كان العصر الفيكتورى يركز على البعد السياسى للمصطلح، خصوصا من خلال أعمال جلادستون Gladstone و أ. ليال A..Lyall و س. رودس C.Rhodes وجراى Grey وسالزبورى Salisbury وروديارد كيبلينج Rudyard Kipling وكوبدين Cobden و أ. ميلنر A..Milner وجوزيف شامبيرلن Joseph Chamberlain. تماما كما فعلت الحاشية البروسية فى عصر بسمارك، وخصوصا: Bethmann-Hollweg, Moltke, Treitschke, W.Giesebraht and E.Haeckel.

وقد كان لمثل هذا التقليد فعاليته فى فرنسا فى أعقاب تشامبلين Champlain وريكيليو Richelieu بدءا بمشروعات نابليون الثالث. ثم تطورت بواسطة چوليس فيرى Jules Ferry و ب ليروى بوليو P.Leroy – Beaulieu و هـ. ليوتى H.Lyautey.

أما الاتجاه الثانى فقد ركز على الفوائد الاقتصادية الناجمة عن سياسة الإمبريالية من خلال المدرسة التجارية التى نشأت فى أوروبا فى فترة ما قبل الماركسية والتى يمثلها س. ديلثاى Dilthey وكليبينج Kipling وديزى و م كينجلى وليتون و د. رويتر. وقبل كل هؤلاء جلادستون مع شومبيتر(٣) اللذين أعطياها التعبير النظرى.

ولقد ذكر مؤخرا – وهو أمر صحيح – أن هذا الاتجاه يعود إلى فترة الصليبية التى استمرت بلا انقطاع لمدة قاربت على العشرة قرون(٤). وهى الفترة التى كانت مطلوبة لإخضاع الشرق غير المسيحى.

وعن نقطة الالتقاء بين هذين الاتجاهين نجد أن المنظر الأساسى هو الأدميرال الأمريكى ألفريد تاير ماهان من خلال عمله الأول: "تأثير القوة البحرية على التاريخ". ١٦٦٠ – ١٧٨٣.

ومن الواضح بكل تأكيد أن الاتجاه الثالث الذى يؤكد أولا على أن المشروع الحضارى أو إنسانية الإمبريالية الحضارية هو الاتجاه الذى استطاع أن يحافظ على بقائه وسط حكام الإمبريالية الكلاسيكية. ويجد أن هذا الاتجاه خير تعبير عنه اليوم فى مذهب نيكسون الذى لا تترك قسوته أى مجال للأوهام فيما يتعلق بما تتضمنه الإمبرياليات الغربية من محتوى حضارى: أى التغلب بالقوة والسيف على شعوب وأمم العالم غير المهيمن جسديا وروحيا وقلبا وإرادة.

١ - ١ (ب)

ولقد جاءت نهاية القرن التاسع عشر لتبلور بوضوح النظام الإمبريالى البريطانى والصراعات المتزامنة التى أثارتها المبادرات الإمبريالية خصوصا فى فرنسا وألمانيا.

إن هذه الخلفية من الصراعات المريرة التى اتسمت بمستوى عال من العنف وانتشرت على مساحة جغرافية أوسع مما كانت عليه فى أى وقت سابق (هذه الأيام التى سبقت الحرب العالمية الأولى) كان حريا بها أن تتمخض عن المحاولات الأولى فى التركيب synthesis من داخل الإطار الأنجلوساكسونى المهيمن ذاته.

وفى عام ١٨٩٠ نشر الأدميرال الأمريكى تاير ماهان كتابه الأول الذى نظر فيه إلى بناء الإمبراطورية البريطانية من الناحية السياسية.. سيطرة البحر، وهو مجال للسيطرة أنشئ فى حد ذاته على أسس الثورة الصناعية. وليس هناك ما يفسر الصمت الذى أحاط بهذه الأفكار سوى انعدام الثقة فى الجغرافيا السياسية بعد ١٩٤٥.. تلك الأفكار التى بدأت الآن تفقد أهميتها والإحساس باتساقها مع الواقع تلقى اعترافا من خلال إعادة اكتشاف المؤسسة الصناعية العسكرية. وبعد ١٢ عاما من ذلك الوقت وفى ذروة حرب باور Bore نشر چون أ. هوبسون كتابه: "بحث فى الإمبريالية" ١٩٠٢. وقد بنى هوبسون تفسيراته وتحليلاته على السياسة البريطانية فى جنوب أفريقيا والصين وعلى تحليل الاقتصاد البريطانى وذلك بعد جيل من ظهور ماركس. وبعد أن رفض الالتحام بين الإمبريالية السياسية والعسكرية وكبار الرأسماليين، ومعظمهم من اليهود الأجانب ذهب هوبسون إلى

التأكيد على حقيقة أن المشروع "يرتكز فى التحليل النهائى على تحالف سرى قوى داخل ثنايا الشخصية القومية.. هذا الشغب العنصرى من أجل السيطرة.. هذا الإحساس الداخلى غير المرشد بالبطولة التى تقيس مجد كل دولة بمقياس إذلال دولة أخرى من أجل الوصول فى النهاية إلى هذا التعريف الذى وصفه هوبسون قائلا: "إن الإمبريالية هى محاولة يقوم بها كبار المتحكمين فى الصناعة لزيادة تدفق الفائض بواسطة اكتشاف أسواق وقنوات للاستثمار فى الخارج يمكن أن تستوعب البضائع أو الرأس الذى لا يستطيعون توظيفه فى بلادهم(٥). (كوبدين أكثر منه ماركس)، ولكن علينا ألا ننسى حقيقة أن ماركس لم يطرح أبدا مشكلة الإمبريالية.

وبين التحليل الماركسى للحدود الخارجية للاقتصاد الرأسمالى الذى كان مركزه بريطانيا العظمى، والتحليل اللينينى للإمبريالية على أنها أعلى مرحلة من مراحل تطور الرأسمالية.. بين هذين التحليلين يتداخل تطوران كلاهما يقوم على أساس التحليل النقدى لفعالية الإمبراطورية البريطانية. وقد احتفظ لينين والتيار الماركسى الأوروبى بأحد هذين الاتجاهين اللذين قدمهما هوبسون حتى الحرب العالمية الثانية.

١ - ١ (ج)

هناك عدة قوائم حديثة متنوعة خاصة بالتناول الماركسى للإمبريالية وخصوصا فى إطار البحث الفرنسى بمركز الدراسات والأبحاث الماركسية. وهى قوائم يمكن أن نضيف إليها سلسلة من الدراسات والمؤتمرات الأخرى مثل "ندوة الجزائر" إلى جانب هذا البحث الذى ظهر فى الألمانيتين تحت إشراف Das Argument. وليست هذه بالطبع سوى نماذج لا تمثل بأى حال القائمة الطويلة الشاملة.. هذه الدراسات تسمح بوضع نموذج مؤقت لأنماط المعالجات البحثية فى أوروبا وفى ضوء الماركسية خلال النصف الأول من القرن العشرين.

وهناك مجموعة أولى من النظريات التى تبدأ بتحليل "رأس المال". - وخصوصا الجزء الثالث - وهى تستهدف تحديث كل من نظرية ماركس فى الرأسمالية وبنائها. وهؤلاء المنظرون الذين كانوا منشغلين فى الوقت نفسه بدرجات

متفاوتة فى العمل السياسى، جاءوا فى معظمهم من وسط أوروبا الأمر الذى يعطى بطبيعة الحال طابعا مميزا لمعالجتهم للمشكلة التاريخية الخاصة التى يهتمون بها.

وفى ألمانيا فى عهد فيلهيلم الثانى حيث سيطرت الديموقراطيـة الاشـتراكية اليمينية طالب بيرنشتين فى كتابه

"مقتضيات الاشتراكية ومهام الاشتراكية الديموقراطية" (١٨٩٩)

باتباع كتاب ماركس بدقة بعد أن أصبح الجزء الثالث من رأس المـال لـيس كافيا لتفسير التوسع الألمانى وخصوصا المسيرة نحو الشرق.

وقد كان على برنشتين أن يستشهد باسم الاشتراكية ليـروى بوليـو Leroy Beaulieu عميد مفكرى التوسع الإمبريالى الفرنسى. أما أوتو باور الـذى كـان باستطاعته الاطلاع على أعمال هويسون وتوجان بارانوسكر فقد بـدأ فـى كتابـه (قضية القومية والديموقراطية الاشتراكية) فيينا ١٩٠٧ من نقطـة التنـاقض بـين الشعوب والأمم فى الإمبراطورية النمساوية المجريـة (المعروفـة اليـوم باسـم تشيكوسلوفاكيا) وألمانيا صاحبة أحدث صناعة حديثـة متطـورة. ويشـير بـاور Bauer إلى اتجاه الأخيرة إلى تراكم فائض القيمة المأخوذ من الأولى منتهيا إلـى أن التنمية الاقتصادية إذا تحققت على هذا النحو فسوف ينتج عنهـا أيضـا مزايـا وفوائد للعمال فى الدول المسيطرة، ومتنبأ فى نفس الوقت بأنـه "عنـدما يحـرك رأسمال فى صراعه من أجل الأسواق ومناطق النفوذ الجيوش الضـخمة الحديثـة التى تتشكل من ملايين الجنود فإنه سوف يكون قد وصل إلى ذروة السلطة".

ومن هنا فإنه سوف يسقط فى الهاوية. هذا الانهيار للإمبريالية علـى نطـاق العالم سوف يأتى معه بالثورة الاشتراكية العالمية.

وهنا نلحظ أنه فى كل مرحلة يهتم النقاش بأوروبا وبالصراعات الأوروبية – الداخلية، وبجدليات حركة العمال الأوروبية وبالدول القومية التى تهيمن على القارة الأوربية: فإذا تمكن رأس المال الضخم من توصيل الأمور إلى نتيجتها الحتمية فإنه سوف يؤدى إلى اندلاع حرب أوروبية داخلية سوف تكون نتيجتهـا فـى النهايـة انتصار أعداء رأس المال الضخم أى العمال الاشتراكيين.

لقد كان باور النمساوى الماركسى يكتب فى وقت تحولت فيه أسطورة الوسطية الأوروبية إلى أسطورة بالية (انتصار اليابان على الصين، الحركات القومية المهمة فى الهند والصين ومصر والثورة فى المكسيك الخ).

وبالنسبة لباور ورفاقه كانت اللعبة دائما إما فائزة أو خاسرة فى أوروبا، وليس فى الغرب ولا فى الولايات المتحدة التى كانت لا تزال فى ذلك الوقت أمة جديدة لم تتحول بعد إلى طرف مهم.

ولقد كان هناك بالتأكيد بعض التحسن منذ دافع برنشتين عن "حق الشعوب ذات الحضارات الأعلى فى ممارسة الوصاية على الشعوب ذات الحضارات الدنيا". ومع ذلك لم يتم حتى الآن تجاوز المعالجة الليبرالية الأخلاقية حيث أن كوتسكى Kautsky الذى ندد بالبعثة الألمانية للصين (١٨٩٩ - ١٩٥٥) رأى فى هذه المعالجة سياسية "شبه إقطاعية" لا تتمشى مع مرحلة التطور التى وصلت إليها الرأسمالية الأوروبية والألمانية. هذه المعالجة وصلت إلى نقطة النهاية فى عمل هيلفيردنج Hilferding.

ثم جاء رأس المال المالى Finance Capital (١٩١٠) ليبلور المعالجة الميكانيكية الاقتصادية بالتركيز على مستوى البناء التحتى: القول بأن انتهاء التنافس على المستوى القومى كان نتيجة التراكم المتزايد لرأس المال الذى جاء بدوره كنتيجة للاندماج بين قطاع الصناعة وقطاع الاحتكارية من جهة والاشتراكية من جهة أخرى. وقد كانت نتيجة هذه المعالجة إهمال العامل السياسى بمعنيين: أن الإمبريالية تتحرك للبحث عن مجالات للاستثمار خارج أوروبا ولكن تصدير رأس المال نادرا ما يتطلب سيطرة سياسية مباشرة. ومن ثم فإن البديل سوف يكون إما حربا عالمية أو اشتراكية. وكلتاهما ثمرة عملية يمكن وصفها بأنها عملية الترشيد الجاذبة نحو المركز أى تدخل إمبريالية عظمى أو عكسها ذات وجه اشتراكى أوروبى.

ولم تفعل روزا لوكسمبرج سوى أنها أضافت المزيد من الظلال والتفاصيل إلى هذه المعالجة. فأولا تعد روزا لوكسمبرج أقل تقدما فى تفكيرها من

هيلفيردنج حيث تقول إن الإمبريالية تسعى إلى السيطرة على العالم الخارجي من أجل تسويق منتجاتها أكثر من زرع رأسمالها. ومن هنا يأتي المغزى التجاري للسوق الخارجية. وانطلاقا من ألمانيا انتقلت إلى تحليل اقتصادي بني أساسا على قياس العوامل المؤثرة في التنمية الداخلية أو عدم التنمية في القوى الإمبريالية. وهو تحليل اعتمد على دراسة حالات معينة، خصوصا في مصر. وفي كل جزء من كتابها (تراكم رأس المال) ١٩١٣، نجد انفصالا تاما وأساسيا عن المسألة القومية وتجلياتها في العالم الاستعماري في تلك الفترة. فهو أساسا بحث نظري كتب لأغراض سياسية طالما أنه يبدي اعتراضا لفرضيات الديمقراطية الاشتراكية اليمينية في ألمانيا. إن خلفية أوروبا الوسطى تظهر ثم تغلق على نفسها مرة أخرى وكأنها تسلم بصلاحية نظريتها عالميا.

هذا هو إذن الأساس النظري الذي بنى عليه لينين مقاله حول: "الإمبريالية أعلى مرحلة من مراحل الرأسمالية" ١٩١٧. وهنا تبدو القضية الأساسية في مكان آخر. فقد كانت الإشكالية اللينينية بأكملها بقواعدها في أوروبا وتقاليدها في الماركسية الأوروبية وحركات العمال الأوروبيين تعني بوضوح بتحقيق الثورة وليس باستكمال المسار النظري. وفي الفترة ما بين ١٩١٧ و١٩٤٢ كان كل شيء قد وضع في مكانه: أطروحات إبريل، الإمبريالية، الدولة والثورة، الشيوعية اليسارية، إنشاء أول دولة اشتراكية في التاريخ وتأسيس الدولة الثالثة. لقد عانت روسيا التي كانت أساس اهتمام لينين من الصدمات الأولى التي أحدثها الشرق الثائر في الغرب الإمبريالي الاستعماري.. الانتصار الياباني في عام ١٩٠٥ الذي كان أول خطوة في مسيرة البعث الطويلة.. شرق ثوري كان له أن يسهم في تعميق الأزمة التي بدأت بالثورة الروسية عام ١٩٠٥. والتي منيت بالهزيمة قبل أن تتمكن من الوقوف على أقدامها. وبعد ذلك بتسع سنوات دخلت روسيا في الحرب الأوروبية أو فيما سمي بالحرب العالمية.. مما كلف القيصرية سلطتها في أكتوبر ١٩١٧. ومن توشيما إلى وينتر بالاس كان لينين يضع استراتيجيته. وكانت قضيته الأساسية هي الربط بين حركة العمال الاشتراكيين في قلب صراع الإمبراطوريات، والربط أيضا - وإن كان ذلك له مغزى ثانوي في تلك الفترة - بين هذه الحركات ونضال الأمم والشعوب التي كانت خاضعة لهيمنة النظام

الإمبريالى المشتبك فى الحرب. وقد كان هذا التطور بالتحديد هو الذى أخذ الأولوية على البحث عن الحلفاء الداخليين رغم أن هذا المسعى لن يهمل مطلقا.

وقد كان طبيعيا أن تتدفق النظرة الثاقبة فى ظاهرة القومية الناشئة وفى الأهمية الحاسمة لتوازن القوى الدولى، أى للجغرافيا السياسية، على مستوى أكثر عمومية لتضع بذرة شيوعية الجناح اليسارى والتى استمرت كعلامة مميزة من: "تظامين للديموقراطية الاشتراكية" (١٩٠٥) "وخطوة إلى الأمام وخطوتين إلى الوراء" (١٩٢٠) عبر أطروحات إبريل ١٩١٧ التى كانت أساس أول ثورة اشتراكية فى التاريخ.

إن التحليل البنائى للإمبريالية المعاصرة (الخصائص الخمس) قد حدد أهمية الجوهر الاقتصادى العميق والذى كان لا بد من التأكيد على دوره الحاسم فى اللحظة الأخيرة طوال الوقت. غير أن هذا الجوهر الاقتصادى العميق لم يتم التأكيد عليه من منظور اقتصادى ميكانيكى جاف ولا على أساس تنقية تحليل نظرية المعرفة، ولكن على العكس كان أساس العالم المعاصر الواقعى للحرب الأوروبية التى عبرت عن مستوى نمو القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج. لقد كان هذا التحليل الواقعى وليس "الخصائص الخمس" هو الذى كشف عن التحولات الجذرية التى حدثت فى واقع الرأسمالية الدولية. لقد استبعدت الرأسمالية الإمبريالية أكثر من مليون شخص فى وقت كانت الجدليات الاشتراكية الأساسية قد بدأت وقبل قرن من الزمان تكشف عن نفسها داخل عالم أوروبا المغلق... هناك عبرت هذه الجدليات عن نفسها فى الصراع الطبقى.. هذا الصراع الذى يسعى إلى إعادة بناء الهيمنة التى تمارسها طبقة أو مجموعة من الطبقات الاجتماعية ضد بقية المجتمع القومى وفى مثل هذا الوقت وفى هذا القطاع من العالم لم يكن للقضية القومية أكثر من دور ثانوى فرعى.

باستطاعة المرء إذن أن يلحظ أن يوجد الخلاف الأساسى بين معالجة لينين وتلك التى قام بها ماركسيو أوروبا الوسطى فى وقت سابق على ثورة أكتوبر. فبالنسبة للينين لا تتفجر القوة الاشتراكية فى محيط التأملات النظرية، وهو أمر

واضح تماما. وقد اكتمل تحليله الواقعى للرأسمالية فى روسيا هنا بالتحليل الواقعى للرأسمالية على نطاق العالم (الإمبريالية على سبيل المثال).

وقد كشف هذا التحليل الثانى عن تعديل فى المجال السياسى الاجتماعى حيث ظهرت المسألة القومية وحركات الاستقلال القومية وميزان القوى الدولى على أنه العنصر الثانى فى الجدليات الاشتراكية فى بداية القرن العشرين. وهكذا لا يمكن أن يكون هناك أى مركب نقدى Criticl Synthesis للجدلية الاشتراكية الرأسمالية (لا ثورة اشتراكية) لا يستمد جذوره من الإشكالية الجديدة للرأسمالية الإمبريالية، وقد كان هذا هو أساس الخط العام للماركسية فى القرن العشرين، والذى حدده كل من لينين وماو، ثم أضاف إليه إضافات مهمة كل ستالين وتوجلياتى وهوشى منه وفيدل كاسترو وذلك عندما أعطوا أولوية للمستوى السياسى.

واليوم وبعد جيلين من كتيب لينين يصبح من المفيد أن نكرر المعالجة السياسية الأساسية والفرضيات العلمية لهذا العمل تشكل الخيط المشترك بين الأغلبية العظمى من الدراسات النظرية والأبحاث الواقعية حول قضية الإمبريالية فى مختلف مجالات العلوم الاجتماعية. وقد كان هناك على ما يبدو عدة محاولات ناجحة تماما للربط بين أسماء الماركسيين النمساويين واسم روزا لوكسمبرج وبين هذه العملية المهمة، خصوصا فى أعقاب فترة المعاداة للستالينية التى أحيت بدورها موجة المعاداة للقومية فى ماركسية أوروبا الوسطى. وكما أظهرت الأعمال الحديثة فليس ممكنا أن يحدث مثل هذا التحول، فكل ما نواجهه هو عمليتان علميتان وسياستان متعارضتان ومختلفتان تماما رغم حقيقة أن كلتيهما استمدت إلهامها من الأرضية الأيديولوجية النظرية نفسها[٦].

ولقد كان لهذا التحول الأساسى أن ينكشف من خلال الدراسات النظرية حول الإمبريالية خلال المرحلة الثانية للإمبريالية الجديدة و نظام الهيمنة الإمبريالية العالمية كما نفضل أن نصفها وهى الإمبريالية المهيمنة.

١ - ٢ مرحلة نظام الهيمنة الإمبريالية العالمية: الانفصام بين المعالجة السياسية الاجتماعية من ناحية والأيديولوجية من ناحية أخرى.

١ - ٢ (أ) تجديد المعالجة السياسية الاجتماعية

منذ ثورة أكتوبر ١٩١٧ وحتى تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى أول أكتوبر عام ١٩٤٩ (خلال ٢٠ عاما تجمع أكثر من خمس البشرية حول الاشتراكية) لم يتطور البحث والنقاش فى الإمبريالية إلا قليلا.

حتى الأعمال التى تناولت هذه القضية فقد اهتمت بالتدوين التاريخى السياسى وبالتحليل المالى والاقتصادى أكثر مما اهتمت بتجديد النظرية. وفيما يتعلق بالمراكز الثقافية الغربية المهيمنة فقد طرحت المشكلة السياسية الاجتماعية الأساسية فى فترة ما بين الحروب من خلال الصراعات الاجتماعية الضخمة، أى الصراعات الطبقية داخل العالم المهيمن ذاته. ومع ذلك فلم ينظر إلى ظهور الفاشستية إلا بمعنى صغير جدا وعلى أنها ديكتاتورية الرأسمالية الاحتكارية الكبيرة فى مواجهة الخطر المتزايد للثورة البروليتارية. وقد أكد الكومينترن - وخصوصا منذ فترة سيطرة توجلياتى وديميتروف - على الصلة البنائية بين هذا الطرف، وهو طرف داخلى، بمعنى أنه كان يعمل داخل كل دولة أوروبية اهتزت بالأزمة الاقتصادية العالمية.

١٩٢٩ - ١٩٣٢، والطرف الخارجى للصراع بين مختلف الدول القومية فى إطار النظام الإمبريالى والرأسمالى الدولى.

وهناك أمكن النظر إلى الجدليات الموضوعية لهذين الطرفين على أنهما سيؤديان حتما إلى حرب عالمية جديدة سوف يكون هدفها إعادة بناء مختلف محيطات الهيمنة ومستعمراتها. وكان مفتاح هذه العملية كلها هو التوصل إلى فصل أول دولة اشتراكية فى التاريخ.. الاتحاد السوفيتى.

ودعنا نحلل هذه المشكلة بشكل أكثر تحديدا. فقد كشف الاهتمام الذى حظى به خطر الفاشستية وخصوصا فى ألمانيا عن أن الطاقات السياسية لهذه المجموعة

الجديدة من الدول الإمبريالية تكون موجهة تماما وبصورة طبيعية ضد الدول الأخرى فى المحيط المهيمن أكثر مما تكون موجهة ضد ممتلكاتهم فى المناطق المستعمرة فى آسيا وأفريقيا (أمريكا اللاتينية لم تدخل فى هذا النزاع حتى الحرب العالمية الثانية). ومن ثم نجد ثلاث نتائج لهذا التطور:

١ – أولا تفهم دقيق للعلاقات البنائية بين الرأسمالية الاحتكارية من جهة والنظام الإمبريالى من جهة أخرى. وحيث أن معظم الأعمال قد خصصت للمجتمعات الغربية فإن هذه المجتمعات تشكل أكثر الوسائل قابلية للتحقيق بما يعزز المعالجة السياسية التى يسيطر عليها العنصر الاقتصادى كما هو الحال فى عمل لينين.

٢ – لأسباب واضحة تؤدى هذه المعرفة الدقيقة إلى إدراك أهمية المظاهر العسكرية والسياسية المحددة للنشاط الإمبريالى، وهو ما يثير بدوره مفهوم المؤسسة الصناعية العسكرية التى صيغت أول ما صيغت فى أعقاب الانتصار على الفاشستية فى عام ١٩٤٥. أما الدولة التى لا يزال ينظر إليها على أنها نموذج ميكانيكى عضوى – الدولة كعميل للعنف الرشيد الذى يسعى إلى تعزيز سلطة طبقة أو عدة طبقات مهيمنة – فقد بدأ قناعها يسقط نتيجة الممارسات العنيفة لهذه الملحمة المعذبة: فقد كان الجيش والبناء التحتى الصناعى والعلمى الذى يدعمه فى قلب هذا العنف خصوصا فى تلك العمليات الخارجية التى كانت الوسيلة الوحيدة لإنشاء قوة ذات تطلعات هيمنية. قوة إمبريالية قادرة على أن تلحق بنفسها محيطات تابعة مستقلة وأحيانا مستعمرة. كذلك ظهرت هذه الظاهرة التى من خلالها عبرت عن نفسها هذه المرحلة القصوى للرأسمالية على أنها أعلى مستويات ممارسة الهيمنة التى أصبحت مظاهرها العسكرية والسياسية أكثر وضوحا اليوم، طالما أنها كانت أوروبا التى اضطرت منذ ذلك الوقت على مواجهة الخطر المباشر.

وفى الواقع فقد كانت الكتابات الأساسية حول مشكلة التبعية والنضال ضدها فى هذه الفترة هما تلك الكتابات التى اهتمت بالفاشستية من جهة وبالجهات الشعبية الوطنية من جهة أخرى.

٣ – وعلى النقيض من ذلك فقد تحركت إلى المستوى الثانى رؤية الجدليات الاشتراكية فى قلب المنطقة التابعة، أى الحركات الوطنى فى الدول

المستعمرة وشبه المستعمرة والتابعة فى آسيا وأفريقيا. فقد اعتبرت العلوم الاجتماعية فى الغرب المهيمن (وهو أمر طبيعى للغاية) أن هذه المجموعة من العناصر لا تشكل عاملا أساسيا فى الصراع بين القوى. إنها مجرد عامل آخر ولكنه عامل ليس له دور أساسى يلعبه. فهذا العالم لا يستحق سوى المكانة الثالثة. وقد استمر هذا الموقف حتى عصرنا الحالى كما سنرى.

ورغم أنه تم حسم المشكلة داخل الكومينترن فيما بين عامى ١٩٢٠و ١٩٢٣ حيث عولجت هناك بالطبع من زاوية سياسية، غير أن الأطروحات الأيديولوچية والنظرية التى اعتمدت عليها المناقشة كانت هى التى حددت توجهات العلوم الاجتماعية ذاتها. وهناك أطروحتان متضادتان تحركت عليهما أطروحة أوروبا الوسطى إلى مجال الانتصار الخارجى. فمن جهة هناك سيراتى **Serrati** و م. كالينينى **M.Kalinini** بتأييد من ج. ف ستالين **J.V.Stalin** وقد اقترح ستالين مقتبسا من ماركس وإنجلز ما أصبح بعد ذلك الأطروحة الأساسية للحزب الشيوعى السوڤيتى فى مؤتمره الثانى عشر وهى: "أن القاعدة السياسية لديكتاتور البروليتاريا تتشكل أساسا وأولا فى الأقاليم الصناعية الوسطى وليس فى المناطق البعيدة الهامشية التى تعتبر مناطق زراعية.

وبالنسبة لـ م. كالينين كانت المسألة هى تعليم شعوب الغابات فى كيرجيزيا والأوزبيكس والتركمان وتعويدهم على قبول أفكار شعوب لينينجراد.

وقد كان يشير بالطبع إلى الاتحاد السوڤيتى بشكل خاص جدا. ولقد أصر ستالين على قوله "دعونا لا ننسى الشرق". وفى عام ١٩١٨ عين سلطان جالييف نائبا له فى قيادة "لجنة القوميات". كما تكشف أعماله لنظرية فى تلك الفترة عن اهتمامه بالتأكيد على التقارب بين القومية والشيوعية إلى درجة أكبر وهو ما عبر عنه بعمق أكبر مما استطاع أى منظر رائد فى تلك الفترة. وكان من الطبيعى أن يكون تروتسكى هو الذى يسير إلى أبعد من ذلك فى تأكيد العناد "التنظيرى" لقيادات المدن وأوروبا فى العملية الثورية العالمية وبالتحديد فى وقت تجمدت فيه الثورة الأوروبية فى مسارها(٧).

وعلى الجانب الآخر من النهر دافع سلطان جالييف بتأييد من حنفى مظفر و م. إن. روى وتان ملاكا من مواقع مختلفة عن الأطروحة الأساسية التى صورت فيما بعد بأسلوب مدهش، وذلك فى الوقت الذى كان فيه توازن القوى الدولى الذى استقر فى يالتا عام ١٩٤٥ على أساس تفوق الغرب ينقلب بظهور قادة الثورة الصينية من أمثال شان دوكسيو المؤسس، ثم ماوتسى تونج وشواين لاى ولين بياو بصفة خاصة.

ويقول سلطان جالييف "إن الشعوب الإسلامية أمم بروليتارية، وهنا فارق ضخم بين الوضع الاقتصادى للبروليتاريا الإنجليزية والفرنسية وهذا الوضع بالنسبة للبروليتاريا فى المغرب وأفغانستان. وفى استطاعتنا أن نؤكد أن الحركة الوطنية فى الدول الإسلامية لها طابع الثورة الاشتراكية".

هذه هى الفرضية التى سوف تقود إلى تفوق رياح الشرق عشية الثورة البروليتارية العظيمة. ولقد جاء وقت كان الشرق فيه مخولا بعد إعادة ولادته وهو يفوز بالثورة للاستيلاء على المبادرة التاريخية على نطاق العالم أجمع[٨].

هذه الفرضية سوف تواجه دائما نفس الأعداء فى نفس القطاعات وفى قلب ذات التكتلات الثقافية التى تظهر احتقارا للعالم الحقيقى. إن أوضح مثل على هذه الكراهية التى يشعر بها عالم محدد أو قطاع غير قومى من اليسار الغربى للاتحاد السوفيتى (لأنه بيروقراطى) والصين (لأنها عنصرية) وكوبا (بسبب واقعية الدولة فيها) بالإضافة إلى مشاعر الكراهية تجاه الأحزاب العمالية والشيوعية والحركات الوطنية الشعبية التى تعمل من أجل الاستقلال والتحرر فى عالم القارات الثلاث.

وفى الفترة من ١٩١٧ إلى ١٩٤٩ تأرجح توازن القوى العالمى ليس نتيجة الثورات الاشتراكية الناجحة فى الغرب (أوروبا وأمريكا اللاتينية) إنشاء نظام فى الدول الاشتراكية الأوروبية "الجمهوريات الشعبية" يرجع أساسا إلى انتصار الاتحاد السوفيتى على ألمانيا الهتلرية – بقدر ما كان نتيجة انبعاث الشرق الشيوعى – كما هو الحال فى الصين وكوريا وفيتنام. ثم بعد ذلك على الطرف الآخر من العالم التابع الثورة الكوبية والنظم الراديكالية القومية أو الثورية المعادية للإمبريالية فى

العالم الأفروآسيوى، وأخيرا فى عالم القارات الثلاث ككل الذى يعد رواده هم مصر والجزائر وتنزانيا وغينيا وشيلى وبيرو.

ولذلك فإن النضال ضد الهيمنة، وضد الهيمنة الإمبريالية بصفة خاصة، قد انتشر بشكل موضوعى على نطاق منطقة لم يكن من المستطاع معرفة حدودها. فقد انفتحت القارات تحت ضغط الحركات الوطنية وانسحبت الإمبراطوريات الكلاسيكية. وواجهت الإمبريالية الأمريكية المهيمنة ذاتها مقاومة قوية. ولذلك فإن كل العناصر التى يمكن أن تؤدى إلى تجديد نظرية الإمبريالية فى إطار النظرية العامة للعلاقات الدولية كانت موجودة بقوة وبعمق وبصورة لا يمكن الرجوع عنها.

كانت كل العناصر هناك بالفعل فيما عدا الرغبة فى البدء فى هذه العملية التى تعيد "اكتشاف الإمبريالية" والتى دعا إليها هارى ماجدوف Harry Magdoff فى عام ١٩٦٦.[٩] إن ثراء التجديد الاجتماعى والسياسى الذى حدث من جانب إلى آخر فى القارات الثلاث كان مصحوبا بتحفظ على نفس القدر من القوة فى قلب العالم الثقافى للعالم المهيمن، الذى يواجه الآن مقاومة تعد من ناحية التفسير التاريخى مقاومة مريحة ويمكن التحقق منها تقوم على أساس التحليل الخلاق أو التطوير النظرى.

ولقد كان غير المتصور أن تستطيع العوارض البنائية التى تكون على مثل هذا القدر من الأهمية أن تسيطر إلى مالا نهاية على حركة التاريخ.

ولقد كانت هناك أربعة أحداث رئيسية ذات أهمية غير متساوية استطاعت أن تدفع عملية التجديد النظرى: تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى نهاية المسيرة الطويلة: السويس والناصرية، والمقاومة الفيتنامية الناجحة، وكوبا والكاستروية خلال الستينيات. وسوف نتعرض للمحتوى الأيديولوچى لهذه الأحداث فى الجزء الثانى من هذا الفصل. ولكن ينبغى علينا أن نشير فى هذه المرحلة إلى أن هذا التجديد النظرى يتطور فى خطين مختلفين ومتكاملين فى نفس الوقت: الخط الأول هو تجديد تحليل الهيمنة الإمبريالية الذى يبرز فى المقدمة مسألة طبيعة المؤسسة الصناعية العسكرية. والخط الثانى هو الذى يعنى بالمقاييس الأولية لتطور

الحركات الثورية وحركات التحرر الوطنية ويؤدى إلى وجود مفهوم جدلى للإمبريالية أكثر من تنقية مفاهيمية داخل الإطار المغلق لعلم المعرفة الذى يستجيب عنصراه للحركة الحقيقية فى المجتمعات الواقعية فى العالم المعاصر: الهيمنة الإمبريالية من جهة والحركات الوطنية من جهة أخرى.

ومع ذلك فإن عملية التجديد هذه قد وصلت الآن فقط إلى مرحلة اكتمالها ونضجها ولم تستطع بعد أن تتغلب على مفهوم الإمبريالية الذى لا يزال يسيطر فى الغرب حتى الآن. وهذا هو المفهوم الذى يجب أن نبحثه الآن.

١ – ٢ (ب)

لقد حددنا بالفعل التناقضات بين الحركة الحقيقية للعالم من جهة والاتجاه المسيطر فى عملية التنظير داخل العالم الإمبريالى من جهة أخرى. ولقد مكنتنا بعض الأعمال الأخرى من أن نعالج هذه الظاهرة بالنظر بصفة خاصة فى مشكلات الإمبريالية والبعث الوطنى والحركات الوطنية والجيوبوليتيكية ودور الجيش وفى القارات الثلاث، وذلك داخل إطار مجال كامل من المشكلات السوسيولوجية والسياسية التى تتمخض بدورها عن القضية العامة الخاصة بالعلاقة بين الثورة والحضارة. تلك القضية التى تعد نقطة بدايتها النظرية والمنهجية هى تحليل الدياليكتيك الاجتماعى الذى اهتمت به منذ عام ١٩٥٦.[١٠]

وليس الهدف هنا هو تقديم تحليل نقدى منظوم. ولكن بدلا من ذلك سوف نقتصر على مناقشة المحتوى النظرى المشترك بين مختلف الدراسات التى تنطلق من الأيديولوجية السائدة، وهى الوظيفية التى تعبر عن نفسها فى الجانب الأيديولوجى الرجعى المحافظ، بنفس القدر الذى تعبر به عن نفسها فى جانبها الماركسى، وربما بقدر أكبر من الأخير إلى الحد الذى يستطيع فيه المرء أن يسعى إلى اللينينية الماركسية من أجل العثور على نظرية وافية للإمبريالية.

إن جوهر هذا المضمون المشترك يمكن أن يتضح من خلال ثلاثة عناصر أساسية:

أولا – الإطار العام يوفره لنا ما يمكن وصفه "بعالمية النظرية" التى كان مسلما بها سابقا فى لحظة تاريخية محددة عندما كانت مظاهر الخصوصية العنيدة التى لا يمكن مقاومتها قد بدأت تظهر (الحضارات العظيمة، المجالات الثقافية والتكوينات القومية) فى قلب تلك الإطارات الأيديولوجية التى كانت مدعوة أساسا للقيام بمهمة عالمية (الاشتراكية بالإضافة إلى المسيحية أو لنكون أكثر تحديدا الماركسية والكاثوليكية والإسلام أيضا والبوذية... الخ). ومع ذلك فلا يزال مفسرو النظرية يعطون ظهورهم للجدليات الضرورية للحضارات ويعتبرون العالم سائرا فى طريقه، يقاد ويفكر له بواسطة "العالمية" أو بواسطة رغبة المراكز المهيمنة فى الغرب فى فرضه نماذجها النظرية وأطرها المفاهيمية وفرضياتها – وهى كلها نتاج تجاربها القطاعية – على الحركة الواسعة للعالم المعاصر.

وقد يكون ذلك هو الدافع وراء الموقف الذى اتخذه الكومينترن من الصين فى عام ١٩٢٤ والولايات المتحدة من فيتنام واليسار الغربى المعادى للشيوعية من كوبا وشيلى والطبقة السياسية الأوروبية من مصر والعالم العربى فى ظل القيادة الناصرية أو فى رد فعلها تجاه غينيا والجزائر وغيرهما.

ولنكن أكثر وضوحا: فالإمبريالية ظاهرة عالمية واسعة تنشأ من وجود مركز الهيمنة – الولايات المتحدة التى تسيطر وتستغل المناطق المحيطة بها أى مجالات القارات الثلاث. إن المسرح العالمى قد أصبح أكثر عقلانية – إذا جاز لنا هذا الوصف – مما كان عليه فى أى وقت سابق بمعنى أن الانتشار والتداخل بين دوائر الصراع المهيمنة والمستقلة يمكن التقليل منه بواسطة نظام تنظيرى أو تطوعية نظرية وبحيث توجهه إلى الوسط والأطراف. كل شئ إذن فى مكانه، وأهم من ذلك أصبح من الممكن التخلص من شبح الظاهرة القومية والحركات القومية وشبح التلاقى بين الثورة الاجتماعية والوطنية. وهكذا أيضا زالت احتمالات وجود مراكز قوة لصنع القرار القومى ورفضه مراكز صنع القرار المهيمنة، أى النزعة الطاردة إذا شئت.

وكما سنرى فإن ذلك جعل من الممكن تجاهل خصوصية العالم السياسى ذاته لأن كل شئ قد أعطى مكانه فى المشروع النظرى والذى تلتصق به عوامل محددة

قسرا وطوعا أو كرها. تلك العوامل التى سوف يكون تحليلها مرفوضا على أساس أنه تحليل إمبريقى أو وصفى.

إن أحد مميزات هذه المعالجة هو أنها تحشد قطاعا مهمـــا من الرأى المطيــع حول هذه الظاهرة للإمبريالية التى تعتبر واحدة من عدة ظواهر عالمية من بينهـــا وسائل الاتصال والتحديث وتلوث البيئة والتى سوف تكشف عن أية دراسة دقيقـــة لها عن تفاوتات وتنويعات. نفس الاختلاف فى وجودها الفعال وفى أهميتها داخـــل الكيانات القومية الثقافية المختلفة.

ثانيا – أما العالم الثانى فهو يوفر لنا أداة تحليل الواقع ويمكننـــا مـــن اختبـــار كفاية أو عدم كفاية النماذج الأيديولوجية التى افترضت من أجلها. هذه الأداة هـــى "الانتفاع الميكانيكى بالعامل الاقتصادى" وليس ببساطة الاقتصاد الكلاسيكى البسيط.

إن مفهوم "شكل الإنتاج" سوف يطرح على أنه موضوع أساسى وحاسم أكثـــر من المفهوم الشامل "للتكوين الاقتصادى الاجتماعى"[١١] وأكثر من ذلك فإنه طالمـــا يبدو سلم الأنماط الأوروبى لأشكال الإنتاج الخمسة فى الماركسية الكلاسيكية غيـــر قادر على احتواء تنوع المجتمعات غير الغربية التى اكتشفتها العلـــوم الاجتماعيـــة منذ قرن تقريبا، فإنهم سوف يهرعون إلى اقتراح أنماط أخرى يكون مـــن شـــأنها تقليل التفاوت، وأن تجعل من الممكن تنظيم عالم معقد إلى درجة لا يمكن تصديقها حتى قبل أن تصل المعرفة العلمية إلى مستواها الأمثل.

هذا هو التفسير التاريخى والأيديولوجى للاستقبال الحافل الذى أعطى لمفهـــوم (النموذج الآسيوى للإنتاج) والذى يتطلع إليه البعض لإضافته إلى مفهوم "النمـــوذج الأفريقى للإنتاج" الخ. ولا يسع المرء إلا أن يقول أن الخصوصيات الثقافية القومية المختلفة تفرض نفسها بإلحاح على كافة التنظيرات السابقة. وعنـــد هـــذه النقطـــة يكتسب التطور النظرى فى المراحل الثلاث التى حددناها فى (مســتقبل النظريـــة الاجتماعية) التصديق والاعتماد.

وهذه المراحل الثلاث هى: فقد الجهاز المفاهيمى للعلوم الاجتماعية، وتحديـــد الميدان العلمى وبنية سلم أنماط وإعادة بناء الجهاز المفاهيمى بالتأكيد على العامـــل

المزدوج للاختلاف والتباين. وهى الأداة المفضلة التى يستخدم فى تحقيقها وتوضيحها مفهوم الخصوصية[١٢].

إن النتيجة التى سوف تتمخض عن طرح مشكلة الإمبريالية بهذا الأسلوب سوف تتلخص فى إمكانية الاستثمار الدقيق (ربما يكون دقيقا دقة الرياضيات) للخط البيانى لعلاقات القوى على مستوى العالم.. وبالتالى فإن العناصر التى عينت طبقا لوضعها الاقتصادى تظهر على أنها حالات عديدة لا تختلف جذريا إلا فيما يتعلق بتقدمها على نطاق أنماط أشكال الإنتاج وإلى الدرجة التى يوجد فيها تنوع فى كثافة العوامل الاقتصادية داخل كل عنصر.

إن منطق التغيير يفرض نفسه على عالم متغير، والجدلية الاجتماعية تعمل طبقا لضرورات محددة سلفا تمشيا مع هذه الحسابات الاقتصادية. إن الأمم والمجتمعات، الطبقات الاجتماعية والتكوينات السياسية، الثقافات والأيديولوجيات تدخل أوتوماتيكيا فى نشاط على أساس "مبدأ تطورى" يوفر لها المفتاح الاقتصادى ولكنه لا يستطيع إلا أن يثير شكلا معينا من أشكال السلوك الذى لا بد له بدوره أن يثير نتيجة معينة... الخ.

إن إهمال خصوصية العامل السياسى يظهر على أنه نتيجة لا يمكن تفاديها لهذه الآلية التى يتسم بها الفهم العلمى للإمبريالية والحركات الوطنية.

ثالثا - هذا الإغفال لخصوصية العامل السياسى لا يستتبع بالضرورة إغفال وجود وضرورة الصراعات السياسية. ولكنه يعنى بدقة أكثر إغفال العملية السياسية والنظر إليها على أنها لا شئ سوى التحول الأوتوماتيكى والمقدر سلفا لاحتياجات نمط الإنتاج وللصراعات بين أشكال الإنتاج المختلفة.

وهكذا فإن إغفال العامل السياسى يمكن النظر إليه على أنه يؤدى إلى العامل المكون الثالث وهو اليأس السياسى.. هذا اليأس الذى أدى إلى وجود الفوضوية وأسلوب حرب العصابات والاعتداءات الوحشية على رشادة وعقلانية العملية السياسية خصوصا فى تنوعاتها الشيوعية.

وفى حقيقة الأمر فإنه إذا أمكن تنظيم التداخل بين الوحدات المختلفة داخل أشكال الإنتاج المتنوعة مقدما على أساس تعريف هذه الوحدات المختلفة طبقا للمعايير الاقتصادية، فإن العمل السياسى الذى يستمد جذوره من المشروع السياسى وأشكال صنع القرار والتنظيم يصبح عندئذ أقل أهمية. ونستطيع أن نقول إذن إن الثورة كانت مستحيلة فى أى من دول المجال المعطى – أمريكا اللاتينية والعالم العربى – إذا سلمنا بالمفهوم الذى تتوحد طبقا له أشكال الإنتاج المهيمنة، أى تلك الخاصة بالرأسمالية الإمبريالية تحت إشراف الولايات المتحدة التى تقوم بعملية تجميع "الوسط على نطاق العالم" (الأطراف).

إن الحل الأوحد سوف يكون تدمير المركز الإمبريالى نفسه، رغم أن المرء سوف يضطر بالضرورة إلى قبول احتمال الثورات القارية القادرة على كسر القوة الإمبريالية الخانقة. وهكذا فإن أى شئ لا ينقذ عمليا المشروع النظرى للثورة العالمية سوف يكون مدعاة للاحتقار والتقليل من شأنه ورفضه على أنه ادعاء مبالغ فيه. وسوف يتخذ نفس هذا الموقف إزاء نظرية مراحل الثورة وتجاه حركات الاستقلال الوطنى التى تقوم على أساس التحالف مع البرجوازيين الأصليين (عند النقطة التى تبدأ منها فى القيام بدور وطنى) وتجاه الطبقات العمالية ودور الجيش فى بلدان تلعب فيها الدولة دورا تاريخا رئيسيا فى تدعيم المجتمع الوطنى وتجاه التعايش الذى بدأ يدخل بوضوح مرحلة أكثر تعقيدا – وإن كانت أقل تحديدا – من مراحل جدلية دوائر التعايش المضاعفة وتجاه دور النظام فى الدول الاشتراكية وتجاه استيراتيجية التحالف العالمى بين الدول الاشتراكية والأحزاب من جهة والحركات الوطنية المعادية للإمبريالية، من جهة أخرى.

وبينما ننتظر انهيار المركز المهيمن – وهى عملية تاريخية بكل وضوح – فإن كل ما نستطيع أن نقوم به لسياسة فن الممكن، على حد تعبير ماركس، كخطوة على طريق التحرر والثورة سوف يدان بجريمة "الانتهازية" باسم التطهر الثورى.. هذا التطهر الذى طالما ظل عاجزا عن رفع أصابعه سوف يستسلم بطبيعة الأمر لليأس والوهم وللعمليات اليائسة. وهو مثل واضح على المستوى السياسى والأيديولوجية السائدة التى تعد أساسا "الفكرة السلبية"[١٣].

هذا التوصيف التحليلى المختصر يرجع بوضوح إلى ذلك الموقف النظرى الأيديولوچى السياسى الذى تجمع فى القرن العشرين حول أسماء ليون تروتسكى وروزا لوكسمبرج. أما الجدليات المعاصرة فهى تدور أساسا بين تفسيرات وتأويلات مختلفة. نحن نعرف إلى أى مدى يندر مستمعو هذه المجموعات داخل الحركات المعادية للإمبريالية فى العالم أجمع.

٢ – من الأيديولوچية إلى علم الاجتماع: جدلية الإمبريالية

إن القلق المتزايد فى نظرية الإمبريالية المعاصرة يرجع إلى المسافة التى تفصل باضطراد بين أحدث محاولات تطوير نظرية – خصوصا تلك التى تنتمى إلى الإطار الوظيفى – وبين التحديات التى يمثلها لهم العالم الواقعى.

إن جهل واضعى هذه النظريات الحديثة الذى يتجلى عندما يبدءون فى معالجة التحليل النقدى الذى يوفره لهم قادة الإمبريالية، حول موضوع هو من صميم خبرتهم الملموسة – خصوصا فى ڤيتنام – هو أمر مثير للدهشة. ولذلك فإن كتاب "جوهر الأمن Essence of Security " الذى نشر فى عام ١٩٦٨ والذى ينظر فيه چوزيف ماكنامارا إلى حالة المشكلة ويحلل أسباب الهزيمة ويحدد مسار الإمبريالية المهيمنة فى المستقبل، كان ينبغى أن يلفت أنظار الباحثين أكثر من تلك الكتابات القصصية التى تهتم بالرؤى الغامضة لعالم ثنوى (مانوى) وتتعهد بتكريس نفسها للشهادة والبعث. ذلك لأنه فى جوهر التحليل الذى قدمه رجل كان، ولا يزال، يعد المنظر الأساسى لبناء السلطة فى الإمبريالية المهيمنة للولايات المتحدة تكمن الحقيقة الوطنية؛ الظاهرة القومية.

فقد كان فشل الإمبريالية فى فهم الظاهرة هو الذى أدى إلى الهزيمة فى ڤيتنام وفى التحليل النهائى إلى الخسارة فى آسيا كلها. إن هذا النقد الذاتى التحذيرى (والذى يمكن البناء عليها بأشكال مختلفة) يمد العالم التابع ككل بمفتاح الخطة الإمبريالية الرئيسية حتى عام ٢٠٠٠ وفيما بعد، إنه منظور للسلطة السياسية القائمة على السيطرة على عملية التنمية وهى تحل محل التنمية العسكرية المالية الكلاسيكية.

إن التطور الذى نود أن نراه هو ذلك الذى يكون هدفــه التغلــب علـــى هـــذا الانفصال الذى هو نتيجة أساسية للطابع الوظيفى الغربى المزدوج لغالبية الكتابـــات النظرية حول الإمبريالية. أى القول بأن نضع عملنا في قلب العملية الملموسة التى تحدث الآن في العالم. ومثل هذا التطور يجد صياغته من خلال عـــدة فرضـــيات أساسية نلخصها فيما يلى:

٢ - ١ الإمبريالية كظاهرة اجتماعية عالمية

إنه أمر ضرورى وذو جدوى لأى تحليل أن نبحث ظاهرة فى حـــد ذاتهـــا ولكـــن ينبغى أن ننتبه دائما إلي حقيقة أساسية هي أن الإمبريالية بوصفها ظاهرة اجتماعية عالمية ليست ظاهرة أحادية المعنى.

فالإمبريالية وجدت فقط عندما كانت هناك أمم هناك وتكوينات قوميـــة وحركـــات وطنية تتطلع إلى الاستقلال والحكم الذاتى...[١٤] حكـــم ذاتـــي وجـــد الاســـتعمار والإمبريالية فيما بعد أن رسالته الأساسية هى عرقلته وإخضاعه وتفكيكه وتدميره. وإذا كانت دوافع ظاهرة الإمبريالية مجرد دوافع داخلية أساسا أي تلك التى تتعلـــق بمستوى تطوير رأس المال الاحتكارى، الذي يقوم على أســـاس الـــدور الرئيســـي لرأس المال فإن القوة الطاردة تجاه السيطرة الخارجية ترى فقط على إنها موضوع معين للبحث عن الحد الذى تلتقى فيه هذه الحركة الخارجية وتصطدم بالمقاومـــة. وهكذا فإن بناء الإمبراطورية التى تسعى إلى السيطرة عليها يولـــد مـــن اســـتخدام العنف ومن الممكن أن نتخيل دراسة للإمبريالية فى خضـــم الصـــراع مـــن أجـــل السيطرة على الإنتاركتيك أو القمر. ولكـــن يبقـــى دائمـــا أن التحليـــل لنشـــاطات الإمبريالية البريطانية في الهند ومصر والفرنسية - والبلچيكية والإيطاليـــة - فـــى أفريقيا، والألمانية فى أوروبا، والأمريكية فى آسيا وأمريكا اللاتينية هو الذى يوفر أساسا موضوع العمل التحليلى والنظرى الذى يتطور اليوم والـــذى ننتظـــره فـــى المستقبل. ونحن نعرف أن أكثر الحالات إيحاء أو أكثرهـــا نخـــرا بالصـــعوبات و الاستكشافات المتورة هى بالتحديد تلك الحالات التى تتصادم فيها الأشكال المختلفـــة من الإمبريالية مع المجتمعات الصغيرة التى تعد فى حد ذاتهـــا تكوينـــات قوميـــة

راسخة قادرة على المقاومة العميقة للتغلغل الإمبريالى. ذلك لأن هذه المقاومة تستمد جذورها من المشروع السياسى الذى يعتمد فى أساسه على هوية قومية تعززه، والذى يختلف جذريا عن القفزات والطفرات التى يستطيع المرء أن يلحظها فى مكان آخر والتى مهما كانت تستحق فهى فى نفس الوقت غير ذات فاعلية.

إن ذلك يعنى أنه ليست هناك نظرية للإمبريالية ليست فى أساسها البنائى جدلية للسيطرة والتحرر، وفى هذه الحالة بين الهيمنة الإمبريالية والحركات الوطنية. إن دراسة نظرية الإمبريالية دون وضع الظاهرة منذ البداية فى إطار الجدلية الكاملة للهيمنة والاستقلال وفى قلب جدلية للعلاقات الدولية للقوى فى عصرنا سوف يكون بمثابة إدارة ظهورنا للواقع. وهنا كما فى كل مكان آخر فى العلوم الاجتماعية ينبغى على علم المنهج أن يفسح المجال لعلم الاجتماع. وعلى النظرية العقائدية أن تتخلى عن مكانها للتحليل الديالكتيكى - إلا طبعا إذا كان المرء يتخيل أن الإمبريالية المهيمنة تحركها رغبة فى تنقية مفاهيمها الأساسية وتخفيف صرامتها المنهجية.

إن مشكلة هؤلاء الذين يؤمنون بهذه النظرية عن العالم إلى جانب هؤلاء الدارسين والمنظرين الذين يتوقون إلى جعل أعمالهم متناسقة مع العالم الواقعى هى مشكلة مزدوجة: فمن جانب عليهم السعى إلى فهم دقيق لعلاقات القوى بين المجتمعات القومية والقوى المحتملة فى عالمنا المعاصر. وبذلك يرسو عملهم على أرضه الحقيقية. ومن جانب آخر عليهم تطوير إطار مفاهيمى قادر فى المقام الأول على أن يكون وسيطا بين العوامل المتضادة المكونة لصورة العالم، ثم على تحديد علاقة جدلية رشيدة بينها وأخيرا على توحيدها.

إن الإطار الذى نرغب فى رسمه من واقع البناء الداخلى لهذه الجدلية يتطلب مفهوما منظما. ولذلك فإنه من المناسب عند هذه النقطة أن نناقش هذا المفهوم المسمى بمفهوم الخصوصية.

٢ - ٢ مفهوم الخصوصية

إن تحليل مفهوم الخصوصية يمكن أن يقدم فى لحظات مختلفة:

٢ – (أ) فى البداية: فى لحظة التعريف العام

فحتى نستطيع أن نحدد خصوصية مجتمع معطى فإننا سوف نسعى إلى عمل دراسة نقدية للتطور التاريخى للتكوين الاقتصادى الاجتماعى القومى المعطى وهو ما سيمكننا من تحديد النمط الخصوصى للاستمرارية الاجتماعية فى هذا التكوين. إن شكل الاستمرارية الاجتماعية هذا هو ببساطة النمط الخصوصى لتنظيم وتداخل للعناصر الأربعة الأساسية المكونة لكل نظم الاستمرارية الاجتماعية وهى: إنتاج الحياة المادية داخل حدود جغرافية وبيئية مقررة (شكل الإنتاج) والتكاثر (النشاط الجنسى) والنظام الاجتماعى (السلطة والدولة) والعلاقات الزمنية (الطبيعة النهائية للحياة الإنسانسة والديانات والفلسفات). وفى هذه المجموعة يلعب عامل إنتاج الحياة المادية دورا حاسما فى تنظيم نمط استمرارية ككل ولكن فقط فى المثل الأخير. غير أن تطبيق هذا النموذج على مجتمعات مختلفة سوف يجعل من الأيسر رسم الصورة ككل والتغلب على مناطق وظلال الاختلاف من خلال الملاحظات السائدة. فى التحليل الأولى الذى تم على أساس المعايير الاقتصادية الاجتماعية[١٥].

٢ – ٢ (ب) لحظة الوعى بالعوامل الزمانية المكانية

إن دراسة الخصوصية لا يمكن أن تتم فى إطار البحث المنهجى الخالص، بل ينبغى إتمامها فى إطار التطور الملموس للمجتمعات المعطاة. ويعد عنصر الزمن عاملا أساسيا فى هذا التطور. ومن هنا تأتى أهمية مفهوم "عمق المجال التاريخى"[١٦]. ولا يتعلق الأمر بالكشف عن الخصوص فى قلب مجتمع يختار اعتباطا.. حركة طلابية مثلا أو دولة نحتت فى أرض منعزلة (بيافرا من نوع ما...) الخ. ولكن عندما نتحدث عن الاستمرارية الاجتماعية فإننا نعنى بذلك فترة تاريخية طويلة تؤدى بالتالى إلى تكوين مجتمع.

إذن المسألة ليست مسألة مصادفات أو احتمالات. وهكذا نستطيع أن نتحدث عن خصوصية تكوينات اجتماعية قومية ذات أساس قوى (المحيط الذى لا يتيسر فيه فهم هذا التصور) لهذه المجتمعات التى لم تكتسب الوضع القومى بمعنى أدق "وللأمم الجديدة" كما وصف توماس جيفرسون الولايات المتحدة.

ومن الواضح أن الشبكة سوف تنتشر وتتسع أو فى حقيقة الأمر فإنها سوف تغطى نظم أمم وشعوب عصرنا الراهن.

أما فيما يتعلق "بعامل المكان" فإن العلوم الاجتماعية سوف لن تكون على مثل الاسترخاء وذلك لأسباب يمكن نسبتها على الچيوبولوتيكا(١٧).

فالتطور التاريخى للمجتمعات لا يحدث فى محيط جدلية الروح - التاريخ بدلا من التاريخ - ولا داخل حدود المنهجية المغلقة. إن المجتمعات تتطور ولكنها تتطور فقط داخل حدود وجودها الجغرافى الذى يتحدد من منطلقين: الموقع الذى يتحكم فى كيفية تقييم المكان الذى يعنيه الموقع للمجتمعات، وفى علاقات دول هذه المجتمعات بعضها ببعض، أى تأثيرها السياسى الجغرافى على سبيل المثال. وثانيا الظروف الداخلية... البيئة مثلا التى تصف وتضع الحدود على الموارد والإمكانيات المحتملة، وهى عوامل سوف يتم تعديلها وتكييفها طبقا لاعتبارات ديموجرافية.

٢ - ٢ (ج)

لحظة جدليات عوامل الاستمرارية والتحول

بمعنى آخر يمكن الاحتفاظ بالاستمرارية الاجتماعية من خلال عملية تطور تمر بتحولات جذرية ابتداء من أشكال الإنتاج (وهى حاسمة فى المثال الأخير) وتصل إلى الحدود التى يحددها مستوى نمو تكنيك الإنتاج. وحتى نميز ما يدعم وما يتم تدعيمه (وهى قضية مختلفة تماما عن قضية الثوابت التى يثيرها ڤيبر Weber) داخل نمط معين وبين ما لم يوجد بعد ولكنه فى الطريق إلى الوجود وما هو موجود الآن ولن يكون موجودا فى المستقبل.. أن نميز بين هذه العوامل الأربعة عن غيرها أيا كانت القيمة النسبية لهذه العوامل الأخرى فى أى حقبة تطور تاريخى معينة.. هذه هى المهام الأولى.

٢ – ٢ (د)

سوف يستعمل مفهوم الخصوصية فى كل من المحيط المهيمن والمحيط التابع

إن الإمبريالية هى نظام من الدول الإمبريالية المهيمنة أكثـر منهـا كيـان أو وحدة موحدة. وقد كان الأسلوب والوسيلة التى تمـارس بهـا الـدول الإمبرياليـة هيمنتها مألوفة لدينا بعض الوقت، ومع ذلك لم يحدث إلا نادرا أن وجدت محاولات للربط بين هذا الجانب من الإمبريالية وخصوصية الدولة القومية التى تمارسها، أى وضع وحالة الخطوط السياسية وتحليلها، والاستراتيچيات والتكتيكات التى توصـى بها والتنافس بين الإمبرياليات المختلفة.

إن لدينا العديد من الأدوات الكاشفة، غير أنه ليس هناك تفسير سوسـيولوچى نستطيع أن نلجأ إليه. وهذا التصور يصـبح أغـرب عنـدما نعـرف أن مـارس ودوتوكفيل وڤيبر (ناهيك عن ابن خلدون وأرسطو) الذين أشاروا إشارات دائمة فى بحوثهم عن السياسات الأوروبية الغربية إلى الصلة بين طبيعة التطور التـاريخى لكل دولة قومية (خصوصيتها) والعلاقات التى تقيمها هذه الدول فيما بينهـا فيمـا يتعلق بالقوى والتبعية.

إن كل شئ يحدث كما لو كان خارج أوروبا بعيدا عن الغرب. وقد اقتسـمت كل الدول المهيمنة بالتساوى هذا العبء الذى يتحمله الرجل الأبيض إلى الحد الذى اشتركت عنده أكثر الدول تقدما فى النظام الرأسمالى الغربى والأوروبى ككل فـى الاستغلال الشامل للدول التابعة. وفى هذه الحالة فإن استخدام مفهوم الخصوصـية ينبغى أن يؤدى إلى أن نأخذ فى الاعتبار التباينات الموجودة فى جوهر النظام فـى الدول الإمبريالية المهيمنة. وهذا بدوره سوف يسمح بمزيد من الدقة فى تناول هذه التباينات.. فى هذه الحالة النضال من أجل التحرر الوطنى. لأن فى ذلك تعمل أكثر القضايا أهمية فى التارخ المعاصر.. قضية العالمية والطموح الإنسانى مباشرة على تقليل تأثيرات القمع.

إنك تستطيع أن تقول ما شئت عن حركة التاريخ ولكن التحليل النقـدى الـذى يستطيع أن يكشف ويقسم ذلك فإنه شئ يخشى منه.

وعلى الجانب الآخر من النهر، فى المحيط التابع الذى يضم الجزء الأعظم من القارات الثلاث لآسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية تتحرك الجدلية الاجتماعية على محور تشكله الحركات الوطنية بأوسع معنى لهذا المصطلح: التكوين، إعادة التكوين، والتجميع وإعادة التجميع، بعث الأمم وحركات التحرر الوطنى وحركات المقاومة الوطنية والثورات الوطنية، والثورات الاجتماعية والوطنية... إذن ليست هناك أية صعوبات. فمفهوم الخصوصية يعمل إذا جاز القول فى قلب المحيط الذى هو ملكه.. وذلك لأن من أهم ملامح الحركات الوطنية هو تأكيدها على الهوية القومية، وتحديد المشروع القومى، والتغلب على قوة القرار القومى تحت قيادة البرجوازية الوطنية أو عمال المدينة والريف[١٨].

وسوف تنشأ الصعوبة فقط عند التمييز بين هذا القبول الإجماعى القومى، وبين دراسة نقدية تتناول الجوانب الإيجابية والسلبية لمفهوم الخصوصية فيما يتعلق بقدراتها على إيجاد حل لواقع التبعية أو الفشل فى ذلك.

وليس هناك أهم من المقارنة بين مصر محمد على ويابان ميجى فى القرن التاسع عشر سوى المقارنة الأشمل التى لا بد أن تكون بين التطورات المختلفة جدا والموازية فى نفس الوقت التى أدت إلى فتح أبواب الصين واليابان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وهناك العديد من الحالات الأخرى، أى بمعنى آخر من المهم جدا أن نفهم لماذا تسمح الخصوصية لدولة أن تتطور من التبعية إلى الاستقلال، أى تركد أو تتجمد، أن تجرب المصاعب والتراجعات بأساليب تبدو فى ظاهرها غاية فى التعارض حتى أنها غالبا ما تنسب إلى الأزمة وحدها.

٢ – ٣ مرحلتا جدلية الإمبريالية

بين علم اجتماع الإمبريالية أو سوسيولوجيا الإمبريالية على أساس مفهوم الخصوصية وبمساعدته.. هذا المفهوم الذى لا بد من النظر إليه من زاويتين فى مرحلتين:

١ – لحظة أو مرحلة التحليل البنائى لجدلية الإمبريالية الذى يسمح بوضع العنصرين المكونين – المحيط الإمبريالى المهيمن، والمحيط القومى التابع –

حول عاملين: الخصوصية (العامل الداخلى وميزان القوة العالمى "العامل الخارجى").

٢ – لحظة أو مرحلة الديناميكية الواقعية لهذه الجدلية أو التضاد بين هذين المكونين وتطورهما.

٢ – ٤ المحيط التابع: الحركات الوطنية

إن أى تحليل بنائى لجدلية الإمبريالية سوف يسعى إلى تحديد البناء الداخلى لكلا المحيطين اللذين يشكل التضاد بينهما لب جدلية الإمبريالية.

٢ – ٤ (أ)

يعد محيط المجتمعات القومية التابعة الأساس ونقطة البداية فى نفس الوقت: فالتكوينات الاجتماعية القومية تشكل فى حقيقة الأمر النسيج الأساسى للجدلية الاجتماعية على مر التاريخ، وسوف يظهر أن ذلك سيستمر على ما هو عليه فى المستقبل القريب.

ومع ذلك فينبغى أن نوضح أننا لا نناقش "الأمم" بالمعنى الأوروبى للكلمة ولكننا نناقش "التكوينات القومية" التى حددنا سلم أنماطها فى البداية. وينبغى أن نؤكد مرة أخرى على أن الأساس ليس حقيقة التبعية، ولكن الأساس هو وجود مجتمع قومى واستمراريته. هذه المجتمعات القومية كما نعرفها اليوم تتوزع بالتساوى بين كل من المحيطات المهيمنة والتابعة. وبالمثل فإنه من الواضح أن المجتمعات القومية فى المحيط التابع اليوم هى التى تطرح بقوة مطلب الوجود القومى المحكوم ذاتيا إلى حد أن التطور البنائى للإمبريالية المهيمنة يمنحها فرصة أعمق للنفاذ وأكبر أثرا مما كان عليه الأمر فى العصر الكلاسيكى للاستعمار.

وهكذا فإنه فى المجتمعات القومية للمحيط التابع التى تعد أيضا أكثر عددا بالمعنى الديموجرافى يطرح بعد الخصوصية الداخلى بأعظم تأثير، حيث يكون النضال الوطنى نفسه منظما على أساس الشخصية القومية والتغلب على الهوية القومية وسلطة القرار القومى، سواء فيما يتعلق بالبناء القومى أو إعادة البناء وإعادة التجميع أو البعث القومى.

ماذا عن العامل الثانى؟ هنا أيضا تشير الدلائل إلى أن المجتمعات القومية فى محيط التبعية تعى بحرص الإطار الچيوسياسى للقيود الخارجية التى تعمل فى وسطها. إن تقدم الإمبريالية المهيمنة فى حد ذاته يجعل ذلك أمرا حتميا. وقبل أى شئ فإن هناك قوتين ضاربتين نوويتين تواجهان الصين (الأسطول السابع) والأسطول السادس الرابض على سواحل العالم العربى. ومع ذلك فإنه لمن الجدير بالإشارة فى نفس الوقت أن نقول إن هذه الدرجة العالية من الوعى على المستوى القومى تكون مصحوبة ببعض الالتباس وبعض اللين داخل الطبقة السياسية. ويكمن تفسير ذلك فى جزء منه فى هذا الدور غير المتناسق الذى تلعبه العلوم الاجتماعية والتى تتركز فى مراكز ثقافية يقع معظمها فى المحيط المهيمن.

على أن النظرة إلى علاقات القوى العالمية التى طورها مفكرو وسياسيو محيط التبعية تعتمد إلى حد كبير على ما يسمى بالمعلومات العلمية التى يزودون بها والتى استمدت من رؤية مختلفة تماما.

وهناك المزيد: فإذا تمحصنا فى الديناميكية الواقعية للحركات الوطنية داخل محيط التبعية فإنه سوف يكون واضحا أن الثورات الاجتماعية والوطنية فى هذه الدول عادة ما تتجه إلى اتباع أحد طريقين، إما طريق الصيغ العديدة للخط العام الذى يستمد إلهامه من بؤرة ثورية قوية (الاتحاد السوفيتى – الصين)، وإما من جهة أخرى طريق التطوير القومى الذاتى للخط العام. وفى الحالة الأولى سوف تتأثر رؤية علاقات القوى العالمية بقوة بالبؤرة الثورية الأساسية كما يتم التعبير عنها من خلال الحزب وجهاز الدولة إلى الحد الذى تعزز فيه هذه الرؤية لعلاقات القوى العالمية منظور وإرادة وسياسية الدولة.. أى دولة محتملة فى علاقاتها بأى نظام اجتماعى أو أيديولوچى تؤيده.

وبعد ذلك سوف يكون التقييم الزائد عن الحد أو التقييم الضعيف الذى يشكل طبيعيا جزءا من الرؤية العامة له صداه على المستوى الوطنى أيضا.

ومع ذلك فإنه يمكن البدء فى مشروع قد يبدو غير قابل للتحقيق فى إطار توازن القوى العالمى (ڤيتنام على سبيل المثال) وتنفيذه اعتمادا على إرادة القيادة

الثورية الوطنية لفيتنام. وفى نفس الوقت اعتمادا على التأييد والموازرة المشتركة والأساسية لكل من الصين والاتحاد السوفيتى. ومن جهة أخرى فإنه ما قد يبدو غير قابل للتساؤل بمعنى الحقيقة السياسية - مثل حرب العصابات التى تزعمها جيفارا فى أمريكا اللاتينية - ربما يجد نفسه أيضا مدفوعا إلى النمو داخل حدود رشيدة عقلانية: على سبيل المثال داخل حدود عامة للجبهة الشعبية والوطنية كما حدث فى ظروف مختلفة وبأساليب مختلفة مع كل من فيدل كاسترو وسلفادور الليندى.

ويتبع ذلك مبدأ أساسى هو: أنه لا يمكن معرفة معايير كل من هذين العاملين: الخصوصية وتوازن القوة العالمى معرفة موضوعية وقياسها بصورة فعالة فى العملية الواقعية لجدلية الإمبريالية إلا فقط عندما تكون قيادة النضال الثورى وقيادة حركات التحرر الوطنى فى أيدى قيادة وطنية شعبية مستقلة.

٢ - ٤ (ب)

خلال عملية حصر التطور التاريخى للتكوينات الاجتماعية فى أنحاء العالم فإن لحظة تقسيم العمل فى المجتمعات البدائية.. تلك اللحظة التى تتكون فيها الطبقات الاجتماعية وبالتالى جهاز سلطة الدولة تكون مصحوبة على المستوى الاجتماعى الداخلى (ثم بعد ذلك على المستوى الدولى) بظهور ظاهرة الصراع من أجل الهيمنة بين وحدات اجتماعية سياسية متعددة. لذلك فإن المحيط المهيمن لا يوجد إلا فقط بعد وجود المجتمعات القومية ولكنه يتبعها بارتباط وثيق، لأنها هى ذاتها الحالة التى ترتبط فيها بنائيا ظواهر التنافس والتوسع والسيطرة والهيمنة بوجود الدولة.

وعلى مر تاريخنا المعاصر كشفت الهيمنة عن نفسها بأسلوب كلاسيكى كظاهرة سياسية وثقافية وأيديولوجية إلى جانب شكلها الإمبريالى الذى حلله لينين.

وسوف نتطرق فى الجزء القادم (جزء ٢ - ٥) إلى طبيعة الإمبريالية فى الوقت الحالى بعد أن أصبحت ظاهرة لها سيطرة عالمية وليست فقط مجرد تغلغل مالى واقتصادى وسياسى. أما الآن فإنه يجدر التطرق إلى العوامل الداخلية والخارجية التى تحكم محيط الإمبريالية المهيمنة.

وفيما يتعلق بدراسة عامل الخصوصية فإن الاتجاه العام سوف يكون التقليل من أهمية هذا العامل، حيث أن دولة المنطقة الإمبريالية المهيمنة التى ولدت عن طريق التوسع الأوروبى سوف تستمر فى العمل فى مناخ "العالمية"، وهو أنسب مناخ لإخفاء طبيعة نظامهم المهيمن على باقى أنحاء العالم. إن تغلغلهم فى محيط التبعية سوف يفسر على أنه تغلغل أملاه ذلك العبء الواقع على كاهل هؤلاء الرجال البيض الذين كرسوا أنفسهم من أجل مدنية وتحضر آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من خلال الاستعباد. غير أن الأهم من ذلك هو أن الإصرار على خصوصية كل دولة من الدول المهيمنة فى وقت الأزمة العامة سوف يكون من شأنه إضعاف الحالة بتفتيت المشكلة. وفيما عدا هذه الكليشيهات فإننا نعرف هذه الصراعات الدامية التى أدت إلى المواجهة فيما بين دول الغرب الرأسمالى والإمبريالى فى هاتين الحربين الممتدين واللتين رؤى أنه من المناسب وصفها بالحروب العالمية تمشيا مع الفكرة (العالمية) التى تقول بأن ما يخص أوروبا يخص بالضرورة العالم أجمع. وتبدو الحالة أوضح بالنسبة لحرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ عندما اتخذ الصراع بعدا جديدا بسبب اتساع نطاق العمليات وبسبب الطابع العالمى للصراع ضد الفاشستية وفشل محاولة عزل الاتحاد السوفيتى.

وأخيرا كان المحرك أو الدافع الثالث الذى تأسس مباشرة على المعادلة العالمية التى تم الاتفاق عليها فى يالتا عام ١٩٤٥ والتى كانت نتيجتها، وهو أمر واقع سمح للغرب بالاستمرار فى إملاء المسار العام للتطور التاريخى، إننا نعرف كيف عدل انتصار الثورة الصينية وتأسيس جمهورية الصين الشعبية فى أول أكتوبر عام ١٩٤٩ هذه الخطة بشكل جذرى، لكنها فى نفس الوقت لم تؤد إلى التخلى عنها. وإذا نظرنا إلى تجربتنا الخاصة المعاصرة فإننا سوف نعرف أنه توجد فوارق جذرية بين السياسات الاستعمارية لدول مثل بريطانيا وفرنسا وبلجيكا وإيطاليا وهولندا وبين تصرفات ألمانيا هتلر أو يابان تروجو. وهى الإمبرياليات الكلاسيكية، وسوف نعرف أيضا التطور العام للإمبريالية الأمريكية الذى يجعلها متميزة عن كل ما عرف من إمبرياليات.

إن هذا يمثل جرعة لا بأس بها من الخصوصية (ولنتذكر أننا نتحدث عن أكثر الدول القومية الغنية فى عالمنا المعاصر) حتى لو كانت تختفى وراء قناع الرغبة فى عدم الاستعراض، وأن تظل على هذا الجانب من الخط فى الوقت الذى يكون فيه التحرر والثورة التى تنفجر فى مواجهتها على نفس القوة من العمق والجذرية. وينطبق الحال على العامل الخارجى – توازن القوة العالمى.

وفيما عدا الولايات المتحدة – "أمة جديدة" – عادة ما تتجه الدول الإمبريالية المهيمنة إلى إخفاء تفوقها الواضح تماما. وهذا يتطلب منا أن ننظر إلى مجموعة كاملة من العوامل التى سوف تكشف توازن القوى الحالى فى العالم. وهى مستوى النمو الاقتصادى والثقافة والأيديولوجية والمعتقدات الفكرية والتاريخ وأسطورة التراث... الخ.

إن الإمبريالية المهيمنة سوف ترغب فى أن تكون مقبولة كوريث شرعى للتفوق التاريخى لأوروبا والغرب وليس كجهاز قوة يحارب من أجل الحفاظ على سيطرته من خلال الاستخدام المحسوب الفاتر لأقوى وسائل العنف التى عرفها الإنسان فى تاريخه.

إنه لمن الواضح أننا أبعد ما نكون عن المزايا التى يكشف عنها التحليل البنائى الذى تم فى إطار المجال الإمبريالى. هذا المحيط المهيمن أو هذه الإمبريالية المهيمنة تقدم من جهتها صورة قاصرة تماما عن مواقعها وإمكانياتها الفعلية وعن أعمالها وسلطاتها. وهكذا فإن الطريق يكون مفتوحا أمامنا لنلقى بعض الضوء على الديناميكية الملموسة لجدلية الإمبريالية.

٢ – ٥ المجال المهيمن: الإمبريالية المهيمنة

إن الدراسة الصحيحة لجدلية الإمبريالية فى عصرنا ينبغى أن تعكس الترتيب فى عرف كل من العاملين المكونين للجدلية، حيث أنه من الواضح أن الحركات الوطنية المعاصرة تستمد فعاليتها – بالتحديد من أخذ الإمبريالية المهيمنة فى الاعتبار (على الرغم من أن ذلك ليس سبب وجودها كما أكدنا فيما سبق فى قسم ٢ – ٤ (أ).

وبعد التأكيد على ذلك وحتى نستطيع أن نحافظ على ذات الإطـــار المقـــارن للحظتى التحليل فإننا سوف ندرس كلا من هذين العاملين بـــنفس الترتيـــب الـــذى عرضنا به من قبل:

٢ – ٥ (أ)

أولا وقبل كل شئ: الحركات الوطنية فى مجال التبعية (العامـــل الـــداخلى). وسوف نحتاج هنا لأن نقرر كيف كان لنا أن نميز بينها وبين غيرها من العوامـــل الأخرى للجدلية الاجتماعية، وهو ما أشار إليه كل من كونت Conte وسبنســـر و دير كاييم Durkheim على أنه الديناميكية الاجتماعية.

إن باستطاعتنا أن نميز عدة أنواع مختلفة من الديناميكية، وبالتالى عدة أنـــواع مختلفة من الحركة الاجتماعية: حركات الجماعـــات أو الطبقـــات فـــى المجتمـــع والحركات السياسية بمعناها المجـــرد والحركـــات الثقافيـــة والفلســـفية والدينيـــة والأيديولوجية، وحركات الجماعات الاجتماعية من غيـــر الطبقـــات الاقتصـــادية، الاجتماعية. وهى الجماعات التى تتشكل على أساس معايير ديموجرافية وعرقيـــة وجنسية على سبيل المثال.

إن كلا من هذه الأنماط المختلفة للحركات يظهر بصورة أو بأخرى محـــدودا فى فعاليته وقوته واستمراريته فيما يتعلق بعمقه وتأثيره، أو بمعنى آخر فيما يتعلق بمدى كفايته الاجتماعية.

وأحيانا – وإن كان ذلك لا يحدث إلا نادرا – تعترضنا ظواهر تتميز بمستوى عال غير معتاد من التركيز والتماسك التنظيمى، وذلك على الرغم من خصائصـــها القطاعية الأخرى التى تحد من اتساع وإمكانيات نموها. وكوميون باريس مثل على ذلك، حيث نرى هنا بوضوح عند أية نقطة تستطيع الحدود التاريخية الموضـــوعية كحركة مثيرة كثيرة خلاقة كهذه سواء، فيما يتعلق بالقطاعات المشتركة فيها أو فيما يتعلق باستمرارية وكثافة الحركة بمعنى اجتماعى أوسع (إطار التكوين الاجتماعى القومى. الأمة ككل) أن تنتقص بشكل مباشر من فعالية الحركة ككل، لـــذلك فهـــى تمثل النقطة الأمثل للحركات الاجتماعية غير القومية[١٩].

ولا فائدة من الغضب. فالمشكلة الأساسية للجدلية الاجتماعية فى الواقع يمكن تحديدها فى أنها مشكلة التوصل إلى خليط يجمع بين المدى والكثافة الاستمرارية. أى أنها مشكلة البحث عن تحالف يضم أوسع مدى ممكن من القوى بهدف أن يأخذ هذا التحالف على عاتقه القيام بأعلى مستوى ممكن من النشاط إلى الحد الذى تستطيع فيه هذه القوى أن تتوحد حول أهداف قادرة على إثارة كثافة عمل معنوى. وهذه بالمعنى الدقيق المحدد هى الطابع والدور المميز للحركات الوطنية فى أى مكان وفى أى وقت تنشأ فيه، وسواء كانت حركات تحرر وطنية أو جبهات عسكرية وسياسية وطنية حيث يكون هدفها بناء دولة قومية وإعادة بناء الجماعية القومية والمقاومة الوطنية والثورة الوطنية بالارتباط مع ثورة اجتماعية... الخ.

هنا... وهنا فقط يكون لنا إطار من الإنجازات التاريخية الضخمة التى أمكن تحقيقها نتيجة تكوين أوسع جبهة ممكنة من كافة أشكال الحركات الاجتماعية غير القومية: من الأتاتوركية فى تركيا إلى الماوية فى الصين إلى الناصرية فى مصر إلى الكاسترویة فى كوبا.. فى كل أشكال المقاومة الوطنية أو النضال من أجل التحرر الوطنى فى أوروبا النازية أو فى الجزائر أو فى ڤيتنام والهند الصينية وشيلى عبر النطاق الكامل للتكوينات الاقتصادية الاجتماعية والنظم الأيديولوچية والسياسية.

وهكذا نأتى إلى جوهر الموضوع: إن الحركات الوطنية هى المنبت الأساسى الذى تتكشف من خلاله الجدلية الاجتماعية فى أوقات الإمبريالية المهيمنة والثورات. وهكذا فإنه يمكن النظر إلى العامل الداخلى للحركات الوطنية على أنه نتيجة الاندفاع الأقصى إلى الاستقلال الوطنى الذى يشكل فى حد ذاته أعلى درجة من التعبير عن هذا الخليط من المدى والكثافة والاستمرارية الذى يمكن لأى حركة اجتماعية أن تكتسبه فى تاريخنا المعاصر.

٢ – ٥ (ب)

وعلى المحور الآخر فإن الإمبريالية المهيمنة – العامل الخارجى – تبدو شيئا مختلفا للغاية عن سابقاتها أى عن الاستعمار والإمبريالية التقليدية[٢٠].

ومصدر الاختلاف هنا هو التطور التكنولوجي الذى يدعم سلطة الدولة ككـل فى قلب العملية الاقتصادية. وهناك عامل واحد حيوى هو أنه لأول مرة فى تاريخ الإنسان اتحد العالم منذ منتصف القرن التاسع عشر وإلى ما بعد. فقبل مائة عام من هذا التاريخ – ولنأخذ نقاط حدودنا من البيـان الشـيوعى لعـام ١٨٤٨ وتأسـيس جمهورية الصين الشعبية فى عام ١٩٤٩ – كان العالم يتشكل من أوروبا وأمريكـا الشمالية والممتلكات الأوروبية فى أفريقيا وآسيا. وكان أكثر من نصـف البشـرية ونصف شعوب أراضى العالم يعيش فى الظل (لم تدخل أمريكا اللاتينيـة الـوعى السياسى العالمى إلا فى سنوات ما بعد الصين). وخلال الجيلين الماضـيين سـمح التقدم فى الصناعات الكيميائية والمعدنية والطبيعة النووية والتقدم فى الاتصـالات والإلكترونيات.. سمح للتكامل العالمى أن يقطع مسافة طويلة، فاكتشـفت منـاطق هامشية وأقيمت علاقات اتصالية بنائية بين الشعوب والأمـم والـدول والثقافـات. وأنشئت قطاعات على نطاق واسع داخل السـوق الدوليـة (القطـاع الرأسـمالى، والقطاع الاشتراكى الأوروبى والقطاع الصينى، حتى أصبح من المألوف أن نشير إلى التكامل فى السوق العالمية، أى فى سوق واحدة تسيطر عليها الولايات المتحدة وحلفائها الرأسماليين فى أوروبا وأمريكا(إلى جانـب أشـكال التطـور والنمـو الاقتصادى فى فترة ما بعد الاستقلال الخ... هذا التطور وهذا التحول العميق فـى آلية العلم والتكنولوجيا يشكل بالقطع ثورة... ثورة علمية وتكنولوجية تعد بـدورها أساس ثورة صناعية ثانية فى الدول المتقدمة صناعيا.

ولكن ماذا كانت انعكاسات كل ذلك على الظواهر الإمبريالية؟ كانت النتيجـة الأساسية هى: تحريك مركز الحركة الإمبرياليـة بعيـدا عـن "البنـاء التحتـى" الاقتصادى الاجتماعى ومن اتجاه "البناء الفوقى" السياسى العسكرى والأيديولوجى.

وفى الحقبة التاريخية التى حللها لينين كانت القـوة الدافعـة بوضـوح هـى الاحتكار ورأس المال، أعلى مراحل الرأسمالية فى ذلك – ومن هنا كانت التجليات الكلاسيكية (من تصدير رأس المال إلى الحروب بين الدول الإمبريالية خصوصـا حرب ١٩١٤ – ١٩١٨).

أما الثورة التكنولوجية (التى تحدث فقط فى دول المجال المهيمن وفى الاتحاد السوفيتى والصين بعد إنشاء نظام الدول الاشتراكية(فإنها سوف توفر فى نهاية الأمر أدوات تحقيق حلم الهيمنة..حلم كل الدول المهيمنة المحتملة وهو اندماج الصورة الكاملة للجدلية الاجتماعية فى المجال المهيمن ككل على أساس نظرة عالمية مشتركة وإرادة سياسية وجهاز سلطوى للنظام المركزى المهيمن. وما لم تستطيع إنجلترا فيكتوريا أن تتصوره إلا بشكل غير كامل فى عصر سيد البحار والحكومة غير المباشرة وأسلوب الحياة الإنجليزى أمكن تحقيقه فى فترة ما بعد حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ بواسطة الولايات المتحدة.. مستودع القوة الموروثة للتاريخ الغربى، ولقد أصبح ذلك العمل الحديث المهم الذى أصدره جابرييل كولكو وهارى ماجدوف ولجنة الباحثين الآسيويين الموجودة فى The Bay area Institute فى بيركلى. ومن وجهة نظر أخرى بواسطة ج ماكنمارا وغيره.

وبمعنى آخر فإن الثورة العلمية والتكنولوجية أدت إلى وجود أداة جديدة – المؤسسة الصناعية العسكرية – لممارسة سلطة الهيمنة السياسية ولتحل محل طبقة الاحتكار الفردية التى سادت فى الفترة السابقة. ذلك لأن الجهاز العسكرى يبدو هو الوحيد القادر على تقليل التعدد وتوحيد الكيان وفرض الاتجاه السياسى العام بسبب استعداده التكنيكى (السلاح والتكنولوجيا)، وأهدافه التقليدية وامتداده فى المساحة (چيوبوليتيكا)، ودرجة عقلانية التنظيم العليا. وقد كان ظهور مؤسسة القوة هذه فى المرحلة الأولى داعيا لتدعيمها عن طريق تقسيم العالم بعد يالتا والثورة الصينية إلى نظامين اقتصاديين اجتماعيين ضخمين، وأكثر من ذلك فإن ممولى وقائدى الصناعة كانوا فى حاجة إلى درع جديد تام يعزز هيمنتهم فى وجه تحالف الدول الاشتراكية والحركات الوطنية المعادية للإمبريالية.

إن هذا التحليل الأولى يؤدى إلى مباشرة إلى البحث عن الدوافع. والتحليل الإحصائى المقارن يكشف عن أنه إذا كان حجم الفوائد التى تراكمت بواسطة الإمبريالية فى مجال التبعية قد زاد بصورة ملحوظة (كنتيجة فى جزء منها لفتح مناطق كانت هامشية للتغلغل الاستعمارى)، فإن نسبة هذه الفوائد العائدة على الناتج

القومى للدول الرأسمالية الأساسية فى انخفاض. وبمعنى آخر فإن الدافع لم يعد دافعا ماليا واقتصاديا فحسب – وفى حالة الولايات المتحدة لم يعد هذا الدافع دافعا أساسيا، رغم أنه لا يزال دافعا مسيطرا بالنسبة لبعض الدول الإمبريالية الأقل أهمية من الولايات المتحدة. إن الإمبريالية المهيمنة لم تعد تحشد كل قوتها من أجل ضمان سيطرتها على السوق الڤيتنامية ولا لضمان تدفق البترول من جنوب شرقى آسيا أو الشرق الأوسط. فالقضية أصبحت على ما يبدو قضية من نوع مختلف تماما. أى أنها قضية التحكم فى توجيه وتنظيم عملية التنمية العالمية، وحتى قرارها، على أساس احتكار القطاع المتقدم للمعرفة العلمية وللإبداع الفكرى.

وإذا كانت الثورة فى وسائل الإعلام قد جعلت من الممكن الوصول إلى أبعد الأماكن عن الأرض فإن محتوى ما ينتقل من مدى المجال المهين يستطيع أن ينفذ إلى أعماق الشعوب والأمم والثقافات. وبذلك يكون باستطاعتها أن تفرض الحدود على فكرها وعلى مداركها وأحاسيسها العاطفية إلى جانب طرح حلول وصيغ وأساليب ليست مناسبة لها. ومن هنا تبدو أهمية عامل البناء القومى، وفيما عدا حساب مستويات فائض القيمة فإنه لا ينبغى علينا أن نغفل عن رؤية الدور الأساسى الذى تلعبه الإمبريالية فى التحكم فى عملية التوجيه والقرار والتنظيم للتطور العالمى.

إن الإمبريالية المعاصرة فى معناها الحقيقى ما هى إلا إمبريالية مهيمنة تمارس أقصى درجات العنف المرشد فى أعلى مستوى له منذ أى وقت مضى، ومن خلال القوة والسيف، ولكن أيضا من خلال محاولة السيطرة على القلوب والعقول. ذلك لأن محتواها يتحدد بواسطة العمل المشترك بين المؤسسة الصناعية العسكرية والمراكز الثقافية المهيمنة فى الغرب، وجميعها قام على أساس مستويات متطورة من التقدم الذى حققه رأس المال الاحتكارى ودعمته كلا من مزايا الثورة التكنولوجية والعلمية والثورة الصناعية الثانية ذاتها.

ولأول مرة فى التاريخ أدى هذا الاقتحام إلى وجود وسائل السيطرة بقاعدتها فى التحكم فى الفضاء. ومن هنا جاء انبعاث الجغرافيا السياسية.

٢ – ٦ تقدم النظرية

وعندما يأتى قطبا الحركة الواقعية للتاريخ فى العالم المعاصر (على عكس الترتيب المنهجى للعناصر فى المجال النظرى الذى يستجيب للاحتياجات الأيديولوچية المجردة) وجها لوجه فإن نتائج مهمة لا بد أن تظهر على المستوى النظرى. فقد وصلت التناقضات الاجتماعية – الجدليات الاجتماعية إلى مستوى من الكثافة والمدى والعمق هنا لم يكن معروفا فى أى وقت مضى من تاريخ الإنسانية. ومعنى ذلك أنه عند هذا المحور بالتحديد للجدليات الاجتماعية يحتاج البحث أن يمتد إلى أكثر الظواهر الاجتماعية وضوحا فى مغزاها، وإلى أكثر التناقضات ثراء فى المشكلات والمنظورات. هذا هو المجال الذى يعد أكثر خصوبة فى الاستكشافات الجديدة والذى يعد أيضا أكثر المجالات الصالحة كأساس لوضع نظرية عامة للمجتمعات تجمع بين أعلى درجات التعارض فى إطار أكبر مساحة اجتماعية عيانية.

يكمن إذن مستقبل النظرية السياسية والاجتماعية فى الدراسة العلمية لعلاقات القوى الدولية – علم اجتماع العلاقات السياسية الدولية – والتى يعد جوهرها الأساسى سوسيولوچيا جدليات الإمبريالية والحركات الوطنية.

إننا لم نعد نتناول "المناطق التخصصية"، ولكن ينبغى أن تكون كافة محاولات التنظير القائمة حاليا أو التى ستحدث فى المستقبل مرتكزة على هذا المجال الجدلى الذى يعد فى نفس الوقت أوسع إطار عام للجدليات الاجتماعية ومحتواها الحاسم. وهكذا فإنه ما من شئ له قيمة، ومن ثم ما من عمل نظرى يمكن أن يتم خارج إطار العالم الواقعى.

إن فى استطاعتنا أن نقيس إلى أى مدى وصلنا خلال القرن الماضى، ولكن تقدم النظرية يسير مع خطوات العالم.

٣ – إطار القوة: ملاحظات نحو المستقبل

٣ – ١ إدراج النظرية فى العالم الواقعى

سوف يكون واضحا أن محتوى العمل الذى لا بد من إتمامه من أجل إيجاد تفهم فعال ودقيق لسوسيولوچيا الإمبريالية، أى حتى نضع نظرية سوسيولوچية تعتمد بشكل صارم من الناحية البنائية على ديناميكية إطار العلاقات الجدلية للقوة فى العالم. وكما هو الحال فى كافة مجالات علم الاجتماع السياسى (وهنا أكثر من أى مجال آخر) يعد العمل النظرى عملا عضويا ومكملا للمعرفة بالسياسة.

إن الصعوبات تنشأ مباشرة من هذا الارتباط العضوى: من جهة نتيجة ظهور الشرق والقارات الثلاث المنسية فى العالم المعاصر، ومن جهة أخرى من الثورة العلمية والتكنولوچية فى المحيط المسيطر. وهما اللتان أديتا إلى اضطراب ميزان القوة العالمى. بالإضافة إلى ذلك فإن هذه العملية قد اكتسبت فى جيل واحد سرعة متزايدة.

لقد تغير كل شئ تقريبا فى العالم. غير أن هذا التغير فى حد ذاته ليس عملية ثابتة أو ظاهرة تحدث لأول مرة، ولكنها ظاهرة مستمرة فى التفوق على نفسها. كيف إذن نستطيع أن نبنى نظرية للإمبريالية على مثل هذه الأرضية المتحركة؟ يحدث ذلك فقط بالوصول إلى تفهم نظرى للطابع الجدلى العميق للنشاط النظرى نفسه كما يحدده تطور العالم الواقع، أى بإدراك أن العمل النظرى إذا كان له أن يتحول إلى مثالية ميتافيزيقية لا يستطيع أن يشمل بناء وظيفة بنائية جديدة أيا كان مظهرها الأيديولوچى. كما أنه لا يستطيع عكسيا أن يظل عند مستوى الانطباعية المرنة، حتى لو ارتدى الألوان الظواهرية.

إن نقد المحور النظرى لمجال علمى معطى بواسطة إدماج حركة العالم بالمعرفة التى اكتسبناها عنه لا بد أن يضمن مستوى أعلى أو تركيبا جدليا من المعرفة النظرية أكثر تطورا، والذى يعد فى نفس الوقت شكلا من أشكال المعرفة المتكاملة تاريخيا لظاهرة معطاة فى وقت محدد من التاريخ وفرضية علمية يمكن

الانطلاق منها إلى تحقيق مستقبلى لما فى عملية الحدوث ولم يأخذ بعد شكله المحدد. هذا هو الأسلوب العلمى فى العلوم الطبيعية. غير أن تبنى هذا الأسلوب فى العلوم الاجتماعية لا يزال يتراجع فى يومنا هذا. أو يخضع للأيديولوچية السائدة التى ذهبت تبحث عن عقيدة جديدة فى نفس اللحظة التى يبدأ فيها الغطاء الخاص الضامن للعالمية المتمركزة فى الغرب فى التصدع.

ومن خلال دراسة الخطوط النشطة للقوة فى قلب جدلية الهيمنة الإمبريالية والمحيط الوطنى يمكننا أن نحدد بعض قضايا البحث. ونبدأ فى تطوير منظور خاص بإطار القوة فى عام ٢٠٠٠ وفيما بعد.

٣ - ٢ نحو تعايش سلمى ثلاثى ذات متغيرات متعددة

منذ مؤتمر ڤينا فى عام ١٨١٥ وحتى مؤتمر يالتا فى عام ١٩٤٥ اهتمت أوروبا أولا ثم الغرب ككل برسم خطوط مناطق النفوذ للدول الكبرى. وإذا كان مركز القرار السياسى قد اقتصر على أوروبا وبعد معاهدة ڤرساى (١٩١٩) انتقل إلى أمريكا الشمالية. فقد ظلت مناطق النفوذ نفسها محددة للغاية: أوروبا وأمريكا الشمالية والمستعمرات الأوروبية ومناطق التبعية أساسا فى أفريقيا وآسيا الجنوبية، ولكن أيضا هنا وهناك فى أقاليم أخرى نشأت فى أعقاب التجارة ومواقع الحدود والقواعد العسكرية فى الحاميات.

وفى يالتا كان المنظور هو ذاته إلى حد كبير، فهناك كانت المهمة الأساسية هى تقسيم، أوروبا إلى نظامين أيديولوچيين وسياسيين اجتماعيين على أساس خط تقسيم، سواء كان خطا رسميا أو ضمنيا اعتمادا على القوة العسكرية لكل من المعسكرين (الأطلنطى ووارسو). وفى هذه المناسبة أصبح البحر المتوسط - وقبل ذلك المحيطان الهادى والأطلنطى - تشكل جزءا من المنطقة الغربية. فيما عدا ذلك فقد كان الموقف أقل وضوحا. فلم ينظر حتى بعين الاعتبار إلى الصين (كان ذلك فى عام ١٩٤٥) بينما استمرت آسيا كما كان الحال من قبل أرض الصيد الخاصة بالإمبرياليات الكلاسيكية، تماما مثل أفريقيا والعالم العربى، حيث لم يكن مسموحا

تحت أية ظروف أن يخرجوا عن مجال النفوذ الغربى. أما أمريكا اللاتينية فلم يأت حتى ذكرها ولا أية منطقة وراء المحيط الهندى، سواء نصف الكرة الجنوبى أو المناطق القطبية.

إن حجم المساحة التى تم توزيعها فيما بين عامى ١٨١٥ – ١٩٤٥ تعكس مباشرة حجم التوسع الغربى. ومع ذلك فقد كانت وجهة النظر السائدة فى يالتا هى أنه ما لا يخضع للسيطرة الغربية لا يمكن أن يشكل موضوعا مستقلا فى التاريخ السياسى، وهكذا بالتالى لا يمكن أن يصبح مركزا للقرار على المستوى الدولى.

إن انتصار الثورة الصينية فى عام ١٩٤٩ كان خليقا به أن يصبح نقطة تحول فى التاريخ العالمى، وبالتحديد لأنه وضع الشرق الثورى المنبعث من جديد (مجال التبعية) فى قلب العلمية السياسية الدولية.

ومنذ عام ١٩٤٩ حتى عام ١٩٧٠ – أى جيل بالكاد – تغير التوازن فى أعقاب فشل كل من الثورات والثورات المضادة. وبدا أنه تم الوصول إلى حد أو إلى بداية لما ظهر بعد ذلك على أنه ميزان قوة دولى جديد وبما يحدد علاقات القوة فى هذا النصف الأخير من القرن العشرين: إقامة السلطة الشيوعية فى الصين، ودعم ڤيتنام، والوجود التلقائى للنظامين الأيديولوچيين والسياسيين فى أوروبا واستمرارية الحركة القومية المعادية للإمبريالية وترسيخها فى آسيا والعالم العربى وأفريقيا. ثم وصول أمريكا اللاتينية إلى المسرح وانتهاء عملية تهميش تلك الدول التى اختفت فى يالتا (ألمانيا، اليابان، إيطاليا) واستقلالية فرنسا ديجول وظهور أهمية العامل الثقافى (فى الثورة الصينية، ولكن أيضا فى البحث عن الذات الأوروبية... الخ).

إن الخطوط الأساسية لتوازن القوة العالمى الجديد يمكن تحديدها ببساطة فى الآتى:

٣ – ٢ (أ)

باستطاعتنا أن نحدد دائرة القوة الأولى فى أوروبا حول الاتحاد السوڤيتى. وتضم هذه الدائرة محوريين أساسيين للتناقض، وبالتالى للتعايش مع محور

فرنسا- الاتحاد السوفيتى التقليدى فى أعقاب إنشاء "المقاومة الديجولية"، ولكن قبل ذلك محور ألمانيا - الاتحاد السوفيتى الذى جاء نتيجة قرار جماعى اتخذته الطبقة السياسية فى الاتحاد السوفيتى بضرورة إعطاء قوة دفع للنمو الصناعى والعلمى والتكنولوجى. وهو النمو الذى لا تستطيع أن تساهم فيه سوى ألمانيا الاتحادية فى إطار سياسة الأوستوبوليتيك وتحت حماية المظلة النووية السوفيتية.

إن هذه الدائرة سوف يكون من شأنها ممارسة نفوذ مباشر على المناطق التالية: البحر المتوسط، الشرق الأوسط والأدنى، شبه الصحراء الأفريقية والمحيط الهندى وشبه القارة الهندية فى آسيا. ثم تأثير أكثر محدودية على أجزاء من الأطلنطى الشمالى والأوسط، وجزء من أمريكا اللاتينية وجزء لا بأس به من المنطقتين القطبيتين.

٣ - ٢ (ب)

دائرة القوة الثانية يمكن أن تتشكل من آسيا فى تجمعها حول الصين لتضم محورا أساسيا واحدا للتناقض وبالتالى للتعايش: المحور اليابانى - الصينى. فبعد انتصار الثورة الثقافية فتحت الصين أبوابها للعالم، وواجهت ضرورة إعطاء حافز قوى للتنمية الداخلية فى المجالات الصناعية والعلمية والتكنولوجية. ولقد كان هذا هو دور اليابان بمجرد أن يستطيع رأس المال اليابانى الضخم أن يؤكد استقلاليته عن الولايات المتحدة. إن هذه الدائرة سوف يكون من شأنها ممارسة سيطرة مباشرة على آسيا والمحيط الهادى بالإضافة إلى شرق أفريقيا وعلى مدى مساحة القارات الثلاث بصفة عامة.

٣ - ٢ (ج)

أما أمريكا فسوف تشكل حول الولايات المتحدة الدائرة الثالثة للقوة، وسوف ينشأ التناقض ولكن ليس بالضرورة الحاجة إلى التعايش بين الولايات المتحدة من جهة وكندا والدول الاشتراكية وأخيرا البرازيل من جهة أخرى. وهنا سوف تمارس الولايات المتحدة نفوذها مباشرة. ومن هذا المنطلق يصبح من المهم أن نشير إلى التوزيع الجديد للقوة داخل محيط الهيمنة فى شكل "مثلث مقلوب". فقد استبدل مثلث

يالتا، الذى كانت أوربا والولايات المتحدة تشكلان قطبيه الشماليين، بينما تعد أفريقيا نقطة التقائه الجنوبية بمثلث آخر، والولايات المتحدة هى نقطة التقائه الشمالية. فى حين تتكون زاويتاه الجنوبيتان من منطقة الهادى وأفريقيا شبه الصحراوية؛ أى نصف العالم. وفى واقع الأمر فإن قاعدة هذا المثلث تتسع لتضم كل المحيط الجنوبى (جنوب الهادى استراليا، إندونيسيا، أفريقيا الجنوبية، جنوب الأطلنطى وأمريكا الجنوبية) إلى جانب جزء لا يستهان به من المنطقتين القطبيتين الشماليتين.

٣ - ٢ (د)

وداخل إطار القوة هذا بأقطابه الثلاثة الرئيسية (الصين، الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى) لابد من إيجاد نمط آخر من التعايش، فبدلا من التعايش الثنائى السلمى سوف نجد من جهة تعايشا سلميا ثلاثيا. ومن جهة أخرى شكل أو عدة أشكال من التعايش السلمى الجزئى داخل كل محيط للقوة على حدة. ومما لا شك فيه أن التحرك من تعايش سلمى ثنائى ثابت أساسا إلى هذا التعايش السلمى الثلاثى ذى التنوعات العديدة سوف يسمح بالضرورة بتفاعل دقيق ومتنوع للتبديلات والتكوينات الجديدة: بمعنى أن التوازن العالمى المستقر الذى نشأ فى يالتا سوف يتضمن وسوف يدخل العالم بسرعة حقبة تاريخية من الحركة العظمى التى سوف يفتح فيها نمو القوة الكامنة الذى عرقلته الدول السياسية الطريق إلى جدليات أكثر تهذيبا للحيادية والاستمرارية. وهى جدليات سوف تتمكن الحركات الثورية والوطنية فى عالم التبعية من أن تستمد منها بعض المميزات بمجرد أن تستطيع فهمها، وذلك من خلال تكوين التحالفات الدولية والجبهات التى تكون فى وضع أمثل يمكنها من دعم الاندفاعية الأصلية القوية تجاه الثورة والتحرر.

إن الدراسة الدقيقة لكل من المحيطات السياسية الجغرافية الكبرى الثلاثة سوف تمكننا من تحديد مكان منطقتين أساسيتين يشكلان أعلى درجة من درجات التداخل الجدلى، وهما الشرق الأوسط والبحر المتوسط من جهة، ومنطقة الهادى الوسطى والغربية من جهة أخرى، حيث تتقابل بموضوعية مراكز القوة الأساسية الثلاثة. ومن ثم فينبغى أن تحدث علاقات أكثر دقة للتعايش الاقترانى فى مناطق

تتسم بتناقضات داخلية حادة حيث تتحرك الكوامن العسكرية والثقافية والاقتصادية القوية، والتى تعد على نفس المستوى من الأهمية باعتبارها مفترق الطرق الذى يتقابل عنده محيطا الحضارة العظيمان.. الشرق والغرب.

٣ - ٢ (هـ)

إن من المهم جدا عند تقييم علاقات القوة على مستوى المراكز الثلاثة الرئيسية للقرار السياسى أن نتجنب إغراء اللجوء إلى التفسيرات الميكانيكية المتطرفة. صحيح أن دائرتين من بين الدوائر الثلاث يقعان حول قطب من قيادة اشتراكية. وهو ما يعنى بوضوح أن قوة ونفوذ اثنتين من هذه الدوائر سوف يكون فى صالح القوة الاشتراكية والسياسية التقدمية، ومع ذلك فإن الأمر لا ينطوى على أن قوة الإمبريالية المهيمنة سوف تتلاشى نتيجة ذلك، ولكن ما يمثله ذلك بالفعل هو درجة أعلى من التناقض ودرجة أقوى من الخصومة والعداء: لقد تزايدت القوى الاشتراكية التقدمية والإيجابية سياسيا بشكل ملحوظ، وخصوصا منذ تلك اللحظة الحاسمة التى لم يكن هناك مفر منها عندما بدأ البحث عن أشكال جديدة للتحالف داخل جبهة العالم الاشتراكى، ومع ذلك فإن قوى الإمبريالية المهيمنة الملتفة حول الولايات المتحدة لا تضعف نتيجة لذلك، لأن انتهاء المواجهات العسكرية الاستراتيجية الضخمة قد أدى إلى توزيع القوة على مختلف المستويات، وعلى نطاق عالمى بدلا من تركيزها. ومع ذلك فإنه يظهر أن نمو إمكانيات النظامين الأيديولوچيين والاقتصاديين الاجتماعيين سوف يرتد لصالح الجبهة التى تضم المركزين اللذين يضمان دولة ذات قيادة اشتراكية. إن إيقاع هذا التطور الخطى سوف يتحدد بواسطة الجدليات الواقعية التى تعمل داخل الأنماط الجديدة للتعايش السلمى.

٣ - ٣ تحول الحركة الوطنية إلى الراديكالية الثورية:

إن حركات التحرر والثورات فى عالم التبعية سوف تكشف عن التغييرات الجذرية التى حدثت. تلك التغييرات التى يعد ملمحها الأساسى هو التحرك على مستوى حركة الاستقلال الوطنى التى تصل إلى أوجها وذروتها التاريخية فى فترة

أزمة ١٩٢٩ – ١٩٣٢ و ١٩٣٩ – ١٩٤٥ التى تدفقت منها إلى مستوى حركات وطنية راديكالية أخذت على عاتقها مهمة البحث عن حل للمشاكل الأساسية سواء كانت داخلية أو خارجية وسوف تكون نتيجة ذلك الالتقاء بين الحركات الوطنية والثورات الاجتماعية ذات التوجه الاشتراكى.

٣ – ٣ (أ)

أما داخليا فهناك تناقض مدهش بين المرحلة الكلاسيكية (ابتداء من الأزمة الاقتصادية الضخمة حتى يالتا) وبين اللحظة التاريخية الراهنة وعلى طول القارات الثلاث إلى جانب القطاعات التابعة الخلفية من الغرب (المتوسط فى أوروبا، وكويبيك فى أمريكا الشمالية) كانت هناك مطالب قومية، ويبدو أنها تتحرك فى اتجاهين رئيسيين كلاهما مختلف جذريا وأكثر فعالية من الفترة السابقة.

فقد كانت هناك جماعة حساسة سواء فى البناء التحتى (المساحة الأرضية السكان، الموارد، والإمكانيات الاقتصادية) أو فى العقيدة السياسية، وهى الجماعة التى اختارت طريق الاشتراكية تحت قيادة الأحزاب القوية والدول الشيوعية القومية (الصين، أمريكا الشمالية، ڤيتنام وكوبا).

وجماعة أخرى على وعى بالدور التاريخى المحدود للبرجوازية الأصلية التى تسمى بالبورجوازية الوطنية[٢١]. وهى تلك الجماعة التى قررت الانطلاق فى كفاح مستمر ضد الإمبريالية والطبقات الحليفة لها داخل الدول التابعة، وذلك بالسعى إلى التحالف مع القوى العاملة فى المدن وفى الريف وبين المفكرين الثوريين وتلك الجيوش التى نشأت بتقاليد استقلالية، إننا نستطيع الآن أن تقدم تقييما للمحاولات الأولى فى هذا الاتجاه، خصوصا تلك التى بذلها أتاتورك ابتداء من عام ١٩١٩ ومحاولات جمال عبد الناصر؛ أى ابتداء من حرب الاستقلال فى تركيا حتى الثورة الوطنية المصرية التى تبلورت فى عمليات السويس والسد العالى تلك العمليات التى ألهمت بدورها فارجاس وبيرون والليندى فى أمريكا اللاتينية، وبن بركة وبومدين فى المغرب العربى، ونكروما ونيريرى وباتريس لومومبا وسيكوتورى فى أفريقيا، ونهرو وسوكارنو وسيهانوك وغيرهم كثيرون فى آسيا.

إن ما تمخض عن هذه المحاولات فكان بمثابة جبهة استقلال وطنى معادية للاستعمار ينبغى الآن وبالضرورة أن تمتد لتشمل الجماهير الشعبية (جنبا إلى جنب مع جزء من الطبقة الوسطى والجهاز العسكرى ذات التقاليد الموالية للاستقلال) بدلا من تقليصها وحصرها فى دور جيش المرحلة stage army إن هذا التطور يجعل من الممكن أن نطرح مباشرة مشكلة الربط بين الاستقلال والاشتراكية ويسمح من جهة أخرى للطبقة العاملة وطبقة الفلاحين والمثقفين الثوريين أن ترتفع إلى مستوى القيادة السياسية الوطنية، وبالتالى يصبح من الممكن بموضوعية رسم مسار الثورة.

إن تصرفات الإمبريالية فى الفترة ما بين ١٩٤٧ و ١٩٧١ لا بد من توضيحها، انطلاقا من خلفية التحدى الناشئ: المذابح فى اليونان، الجبهة الشعبية الوطنية فى إيران وإندونيسيا، الحروب الثلاث فى الشرق الأوسط: ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧ وتدمير جبهة وليدة فى الكونغو كان خليقا بها أن تصبح أرضية الانطلاق لأفريقيا السوداء التى لا تزال ترزح تحت نير الدول العنصرية فى الجنوب، المقاومة السودانية والفلسطينية فى عامى ١٩٧٠ و ١٩٧١ والهجمات المتكررة على كوبا. وقبل كل ذلك فيتنام.. هذا الخط الجبهوى لحرب بشعة أبدية جرت إليها كل الصين الهندية.

٣ - ٣ (ب)

أما خارجيا فقد قبلت هذه الجبهات الوطنية الراديكالية التى تشكلت لمجابهة الإمبريالية المهيمنة الحاجة إلى إنشاء تحالف استراتيجى أكثر من تحالف مؤقت أو تكتيكى من جبهة الدول الشيوعية والأحزاب والحركات على المستوى الدولى. وبهذه الطريقة ساهمت الجبهات الوطنية الراديكالية بقوة فى إمكان التغلب على الاختلافات الخطيرة بين المعسكرين الشيوعيين المعاديين للإمبريالية - الصين والاتحاد السوفيتى على أساس الضرورات الخارجية الموضوعية للكفاح ضد الإمبريالية، ونموذج فيتنام الذى كشف عن إرادته السياسية فى بيان هوشى منه الرائع . كذلك فقد تمكنا من إقامة رابط عضوى بنائى غير قابل للتحلل بين محيط

القارات الثلاث من جهة والمحيطين الآخرين، اللذين تحركهما الدول الاشتراكية المسيطرة وبين مجموع الجبهات المعادية للاستعمار والجبهة الداخلية المعادية للاستعمار وأخيرا داخل الولايات المتحدة من جهة أخرى.

٣ - ٣ (ج)

وهكذا بمعنى أدق استطاع الشرق فى فترة انبعاثه وثورته أن يأخذ زمام المبادرة التاريخية على نطاق العالم، وليس فقط داخل القارات الثلاث... تلك المبادرة التى استحوذ عليها الغرب بعد النهضة... فترة الاكتشاف العظيمة والتنوير وإنشاء الدول القومية الأوروبية. وقد كان ذلك هو المغزى الحقيقى لمأثورة ماوتسى تونج التى قال فيها: "إن رياح الشرق سوف تتفوق على رياح الغرب".

٤ - حول الحاجة إلى استراتيجية علمية

إن العلوم الاجتماعية ليست على استعداد بعد للاعتراف بحقيقة وأهمية وانعكاسات هذا الجيشان وهذا الدور الجديد للشرق. فلازلنا على مسافة بعيدة جدا من علم اجتماع الحضارات الذى يشكل فى رأينا الأساس الضرورى للفهم العلمى للعالم القادم[٢٢].

فالتنبؤ بالتطورات القادمة لا يزال يتحدد داخل الأطر العلمية التقليدية التى أضيفت إليها فصول حتى تواكب التحولات فى العالم المعاصر وخاصة التحولات داخل المجتمعات الصناعية الغربية التقدمة. غير أن التطور نحو فهم شامل: أو علم الجدليات والحضارات والمحيطات الثقافية والمجتمعات القومية أوشك على البداية، وذلك لأنه لا يزال ينظر إليه على أنه يقع خارج حدود علم الاجتماع (فلسفة التاريخ ونظرية العلاقات الدولية... إلخ).

وهكذا فإن المشكلة التى نواجهها هى مشكلة تحديد سياسية علمية.. سياسية وليس تكتيكيا علميا: كيف يمكن تطوير علم الاجتماع بحيث يتجاوز بمهامه التاريخية حدود الاهتمامات المؤقتة والايجابية والتأويلية؟

كيف يمكن استخدام هذا الخيال الاجتماعى الذى بدونه سوف يكون كل ما نستطيع أن نقدمه ينحصر فى مجرد مرشد لكل حقبة تاريخية كما حدثت وبسبب

وصفها وحالتها العلمية كما حددناها سلفا فإن جدلية الإمبريالية (سوسيولوچيا الإمبريالية والحركات الوطنية) تمثل حقلا غنيا يساهم فى إيضاح التناقضات. فهو أكثر الأدوات تنوعا، وحقل العلم الذى يعنى مباشرة بالحركات الاجتماعية العينية للحاضر كتاريخ. أى بتاريخ هذه المجتمعات الإنسانية التى تتكون الآن.

إن الحقل الأساسى الذى تتكشف فيه الصراعات الضخمة فى عصرنا هذا هو أيضا الحقل الذى لا بد أن تنشأ فيه جذور النظرية الاجتماعية المعاصرة.. نراع النقد تجد سندها فى نقد العسكرية؟ هذا هو بالتحديد الاتجاه الذى لابد من اتخاذه إذا كان لنا أن نقدم فهما حقيقا علميا للعالم الواقعى، بالإضافة إلى نظرية اجتماعية وسياسية للفترة القادمة.

الهوامش:

(١) إن التحليلات التروتسكية واللكسمبورجية والماركسية البنائية تقتصر على منافسة الدروس المستخلصة من (الأدبيات الكلاسيكية) وتتعرض للينين من زاوية كتاباته اكثر مما تناقش حركته السياسية، كنتيجة (لإعادة قراءة) النصوص. انظر كتابات Christian Palloix خاصة فى إطار مركز الدراسات والأبحاث الماركسية CERM مثل Les theories de A'imperialisme au debut du XX emesie ele lenine, Rosa Lusembourg (Paris ١٩٧٠) mimo. ندوة الجزائر ٢١ – ٢٤ مارس ١٩٦٩ (الجزائر ١٩٧٠). انظر من ضمن الأعمال العديدة التى تعرضت للقراءات الجديدة كل من A. Gunder Frank و S.Amin الذى يهتم بشكل أكبر بالاحصائيات، وكتابات مجلة New Left Review فى لندن وأعمال المؤتمر الإسكندنافى فى الخ .. يمكن الرجوع إلى بيبلوجرافيا مركز الدراسات والأبحاث الماركسية CERM ومعهد (جرامشى) ومعهد كارل ماركس بلاينبرج ونصوص ندوة الجزائر ونصوص مؤتمر فارنا وكذلك كتاب K.Nkrumah

Neo-clolnialism, the Last Stage of Imperialism (New York, ١٩٦٥)

(٢) انظر ضمن الكتابات حول هذا الموضوع A. P. Thomson

Doctrines of Imperialism (New York, ١٩٦٥), R. Koebner and H.D. Schmidt, The Story and Significance of Imperialism: a political Word ١٨٤٠– ١٨٦٠. (Cambridge; ١٩٦٤):

ومقال Hans Daadler حول (الإمبريالية) فى :

International Encyclopedia of the Social Sciences, vol. VII (New York, ١٩٦٨) pp. ١٠١–٩, Horace B.Banis, Nationalism and Socialism-Marxist and Labour Teories of nationalism to ١٩١٧ (New York ١٩٦٧)

الذى يعد من الأعمال المكملة الهامة

(٣) Joseph Schumpeter, (Zur Sogiologie der Imperialismen) in Archiv fur Sozialwissenschaft and Sozialpolitik, Vol xlvi (Dec ١٩١٨) pp. ١–٣٩.

والمصدر السابق (June ١٩١٩) pp. ٢٧٥-٣١٠

Imperialism and Social Classes (New York, ١٩٥١, ١٩٥١, ١٩٥٥)

الذى ورد فى

(٤) انظر Aziz S.Atiy, Crusades, Commerce and Culture (Bloomington ١٩٦٢); Norman Daniel, Islam, Europe and Empire (Edinburgh, ١٩٦٦)

وعن الشرق بمعنى أوسع انظر V.G. Kiernan

The lords of Human Kind (London, ١٩٦٩) and Jacques Decornoy, Peril jaune peur blanche (Paris ١٩٧١)

(٥) من المفارقات أن الطبعة الأمريكية الحالية من Imperialism: a Study (Ann Arbor, ١٩٦٥) قد خففت من حدة اللهجة حيث لا نجد فى المقدمة التى كتبها Philip Siegelman ولا فى الفهرس أية اشارة إلى الجماعات.

قائمة الدول والأجناس وأسماء الأعلام . وفى المقابل نجد طرحا دقيقا فى Koeber & Schmiort Story and Significance of Imperialism

(٦) (انظر الهامش ١) Actes du colloque du CERM وخاصة عرض Yvon Bourdet حول Bauer وانتقادات كل من G.Labica, G Badia, R. Gallisot. I. Petit.

(٧) (إن القرية لا يمكن أن تتساوى مع المدينة فى السياق التاريخى الحالى. فالمدينة تقود القرية، والقرية تتبع المدينة بالضرورة، لكن السؤال هو : من هى الطبقة الحضرية القادرة على جذب القرية؟) . هذا النص الذى كتب عام ١٩٢٨ يندرج فى إطار الأفكار التى طرحها برنامج الدولية الثالثة للعام نفسه والذى جاء فيه : (إن أهمية المستعمرات وشبه المستعمرات فى فترة التحول ترجع إلى أنها تمثل قرية العالم فى مقابل الدول الصناعية التى تلعب دور المدينة)

Theses and Resolutions of the Sixth Congress, ١٩٢٨.

وهى ذات الرؤيا التى حاول Michel Grusenberg المعروف باسم Borodin ومبعوث الكومنترن إلى الصين فرضها على الحزب الشيوى الصينى عشية مذابح شنغهاى فى ١٩٢٧ .

وفى المقابل قال المارشال لين بيايو تعليقا على قرار ماوتسى تونج ربط مسار الثورة بالعناصر الأساسية للمسيرة الكبرى : (إن العالم ينقسم إلى مدن وقرى . وفى اعتداءاتهم على بلدان آسيا بدأ المستعمرون فى السيطرة على المدن الكبرى والطرق الرئيسية . لكنهم فشلوا فى إحكام قبضتهم على الريف) . (٢٥ سبتمبر ١٩٦٥) .

(٨) قام بتجميع الوثائق الأولية فى

Arsarani and Gabidullin Ocerki, Panislamizmai panturkizma u Rossii (Moscow ١٩٣١). H. Carrere d'Encausse and S.Schramm, Le Marxisme et L'Asie ١٨٥٣-١٩٦٤ (Paris, ١٩٦٥)

Martin Ebon, The life and Writings of China's New Ruler Lin Pao (New York ١٩٧٠) Kai-Yu Hsu, Chou en lai: China's Grey Eminence (New York, ١٩٦٨).

J.P. Haitbcox, Communism and Nationalism in India M.N.Roy and Comintern Policy ١٩٢٠-١٩٣٩ (Priceon ١٩٧١); Ho Chi Minh. De la revolution ١٩٢٠-١٩٦٦ (Paris, ١٩٦٨): Sac-Sook Suh, Documents of korean communism ١٩١٨-١٩٤٨ (Princeton, ١٩٧٠): Jacques Leclerc Le concept d'indonesiation du marxisme-leninsme a travers les textes d'Aidit ١٩٦٢-١٩٦٥ (Paris ١٩٧٠)

رسالة دكتوراه :

وفى المصادر العربية تفسير أفكار Eneausse and Schramm فى إلياس مرقص ، الماركسية والشرق العربى ١٨٥٠ - ١٩١٨ (بيروت ١٩٦٨).

أما الرؤية المتمركزة حول الذات الأوروبية فيعبر عنها نصان هما :

Charles Bettelheim (La revolution cubaine sur la voie sovietique) والبيان الذى وقعه عدد من المثقفين (Le monde (١٢ Mai ١٩٧١

وكان رد المثقفين الكوبيين كالتالى : (لقد حان الوقت لكى يكف مهرجو البرجوازية عن القيام بدور القضاه إزاء ثورات لم ولن يقوموا بها ، لما تمثله من مخاطر بالنسبة لهم) le monde (٣٠-٣١ Mai ١٩٧١)

(٩) Harry Magdoff. The Age of imperialism – the Economies of our foreign Policy (New York, ١٩٦٦).

(١٠) تسعى مجموعة أولى من الدراسات النظرية إلى فقد آفاق جديدة لدراسة جدلية الثورة والحضارة .

(١١) انظر بشكل خاص Henri Lefebvre

(La re-production des rapports de production), L'Homme et la Societe, no, ٢٢ (١٩٧٢) pp. ٣-٢٣ وأيضا لنفس الكاتب Au-dela du structuralisme (Paris, ١٩٧١)

(١٢) انظر دراستنا (L'avenir de la theorie sociale) Cahiers Internationaux de Sociologie (Juin ١٩٧٠) وانظر أيضا Social Dialectice, vol. I pp ٢٤-٤٢

(١٣) أحد الأمثلة الجيدة على ذلك الخط المتميز الذى اتبعه كل من Salvador Allende و Regis Debray والذى عبر عنه وبرى فى Conversation with Allende (Harmondsworth, ١٩٧٢).

(١٤) انظر أنور عبد الملك Le phenomene nationalitaire ورقة مقدمة إلى الجمعية الفرنسية لعلم الاجتماع فى ٢٠ فبراير ١٩٧١ .

(١٥) انظر (l'avenir de la theorie social) و (Le moment historique de travail theorigue) أوراق مقدمة إلى المؤتمر الثامن للجمعية الدولية الاجتماع الناطقة بالفرنسية . حمامات تونس ٢٧ سبتمبر إلى ٣ أكتوبر ١٩٧١ . انظر Social Dialectics. Vol ١, pp ٣-٢٤

(١٦) أنور عبدالملك

(La notion de protondeur due champ historique en sociologie), in G. Baland (ed.) Sociologie des mutations (Paris ١٩٧٠) pp-s١٦١

انظر أيضا.Social dialectics, vol. ١, pp. ١٥١-٩.

(١٧) أنور عبدالملك

(Geopolitics and National movements: an Essay on the Dialectics of Imperialism)

ورقة مقدمة إلى ندوة

(On Imperialism and its Place in Social Science Today). Elsinore (April ١٩٧١)

(١٨) أنور عبدالملك

(Esquisse d'une typologie des formations natinales dans les trois continents) cahiers interationaux de sociologie, vol. xlii (١٩٦٧), pp. ٤٩-٥٧.

والمصدر السابق ١٠-٣ .pp

(١٩) وهو المجال الذى تتعرض له أعمال آلان توران الحالية .

(٢٠) Gobriel Kolko: The Roots of American Foreign Policy (Boston ١٩٦٩):
The Limits of Power the World and V, Foreign Policy ١٩٤٥-٨٤ (Ney York ١٩٧٢)

انظر أيضا :

K.T.Fann and D.C. Hodges. Readings in U.S. imperialism (Boston, ١٩٧١)

(٢١) أنور عبدالملك Egypte Societe miliaire

ومقدمة الطبعة الأمريكية التالية Egypt, Military Society

(New York ١٩٦٨) pp. Vii – xl, (Nasserism and Socialism), Socialist Register ١٩٦٤ (London ١٩٥٤). pp.٣٨-٥٥.

(Sogiologie du developpement national – problemes de conceptualisation), Revue de l'Institut de Sociologie, nos ٢-٣ (١٩٦٧) pp. ٢٤٩-٦٤.

والمصدر السابق ٣٣-١١.pp

(٢٢) اعتمادا على الورقة التى قدمناها فى الندوة حول ماركس فى اليونسكو مايو ١٩٦٨ .

(Marxisme et sociologie des civilisations) Diogene, N ٦٤ (١٩٦٨). pp. ١٠٥-٥٣.

انظر أيضا Social Dialectivs vol I pp. ٩٧-١١٧

وأطروحتنا للدكتوراه Ideologie et Renaissance nationale l'Egypte moderne (Paris ١٩٦٩)

والتى تم تلخيصها فى :

(Untineraire sociologique, le concept de renaissance nationale), L'homme et la societe, no. ١٢ (١٩٦٩) pp. ٣-١٦.

(١٢)

الچيوسياسية والحركات الوطنية التحررية

"إن الحرب ذات أهمية حيوية للدولة، وهى مسألة حياة أو موت، كما أنها الطريق للنجاة أو الدمار، ومن ثم فيلزم دراستها بتدقيق. إن أول عناصرها الأساسية هو التأثير المعنوى، والثانى المناخ، والثالث التضاريس، والرابع القيادة، والخامس العقيدة... إن إحراز النصر فى مائة معركة ليس ذروة المهارة. ولكن إخضاع العدو بدون قتال هو منتهى البراعة. ولهذا فإنه من الأهمية العظمى فى الحروب أن تنال من استراتيچية العدو. ومن ثم فإن البارعين فى الحرب هم الذين يقهرون جيش العدو بدون خوض أية معركة. فهم يستولون على مدنه بدون أن يضطروا إلى مهاجمتها، ويطيحون بدولته بدون خوض أية معارك منهكة".

(صن تزو: "فن الحرب" عام ٤٠٠ ق.م)

١ – طريقتان لدراسة الإمبريالية[١]

١ – ١ يبدو أن دراسة الإمبريالية كانت، منذ جيل مضى، قد ارتبطت وتلاءمت ببساطة مع الطريقة الاقتصادية – السياسية، وتمثل هذا فى كتابات ن. بوخارين، وبصفة خاصة ف. أى. لينين وأتباعه داخل الحركات الاشتراكية والمعادية للإمبريالية فى العالم كله، كما فعل ذلك أيضا تلاميذه وأعداؤه على حد سواء فى العالم الأكاديمى. ولقد حاولت فى بحث آخر[٢]، أن أدلل على وجهة نظرى ومفادها أن هذه الطريقة اللينينية هى فى الأساس سوسيولوچية، وهذا يعنى أن طريقة التصدى للمشكلة تنصب أساسا على دراسة الأنظمة الرأسمالية فى مستهل القرن العشرين من حيث أدائها الوظيفى فى إطار توازن القوى الدولى السائد (عشية حرب ١٩١٤ – ١٩١٨، وهى أول حرب عامة بين دول أوروبا)[٣] وهى أبعد من أن تكون مجرد تمرين فى استخدام علم المعرفة وعلم المناهج بهدف "إرهاف مفهوم" الإمبريالية، وهو المجال المحبب لأعمال التهريج الثقافى الأنيق فى أيامنا، للوضعيين الجدد المتعاليين أصحاب التأويلات للكتب المقدسة "الماركسية".

١ – ٢ إن جوهر طريقة لينين – كما واصل السير عليها، ولكن بأسلوب متمايز إلى حد بعيد، كل من ج. ف ستالين، وب. توليانى، وماوتسى تونج، وهوشى – منه، وفيديل كاسترو، يتمثل بالتحديد فى الربط، بشكل تركيبى ديالكتيكى، بين العنصرين الأساسيين المكونين للنضال العالمى ضد الإمبريالية: الجبهة العالمية المتحدة التى تضم الطبقة العاملة وحركات التحرر، فى مواجهة تجمع القوى المتناحرة الكولونيالية.

كان هذا هو الخط الاستراتيجى العام للكومنترن، كما استمر الخط أيضا فى أعقاب حل الكومنترن، ولكن بعد أن طرأ عليه اختلاف مهم يتمثل فى وجهات نظر الاتحاد السوفيتى، كما عبرت عنها قرارات المؤتمرين الدوليين للأحزاب الشيوعية والعمالية (اللذين عقدا فى موسكو عامى ١٩٦٦، ١٩٦٩) فقد أكدت هذه القرارات الدور الرئيسى لمنظومة الدول الاشتراكية، بالتحالف مع الطبقة العاملة، والحركات الاشتراكية فى العالم، إلا أنها هبطت بمنزلة دور حركات التحرر الوطنى للمرتبة الثالثة، رغم الجهود المضنية التى بذلها الحزبان المغربى والسودانى.

ومن ناحية أخرى، أكدت الصين نظرياتها بشأن وحدة القوى الثورية للقارات الخمس (وليس الثلاث) وقرنت هذا بتأكيد مماثل على النظرية القائلة بأن "رياح الشرق لها السيادة على رياح الغرب" أى أن الشرق، وهو يتألف الآن من الدول "المتخلفة" التابعة، هو الذى يمسك بزمام القيادة فى القيام بالمبادرات الثورية التاريخية، مثلما كان يفعل الغرب تماما فى فترة الاكتشافات البحرية الكبرى حتى قيام عصر النهضة.

١ – ٣ وهكذا فموقفنا متباعد جدا عن الاتجاه السائد فيما يجرى من دراسات حول النظرية الإمبريالية فى بعض الدول الغربية.

إن انحدار الغرب كما يتمثل فى تدهور الإمبراطوريات القديمة وتحول المركز العالمى الجديد للإمبريالية من أوروبا إلى أمريكا، قد اقترن به نشوء أزمة خانقة شملت القيم والنواحى الثقافية والحضارية. وأدت هذه الأزمة بدورها إلى تلمس لبحث معتقدات جديدة قد توفر قدرا أكبر من الطمأنينة. وكان باستطاعته الديالكتيك

المحدد لمجتمعات محددة فى العالم المحدد أن يدفع للأمام عملا عمليا أكثـر دقـة وأصالة، من أجل التحليل والدراسات المقارنة والتطويرات النظرية فـى ارتبـاط عضوى بالعمل السياسى الجماهيرى ذى الطابع الفعال والمضنى، وقد تحقق هـذا بالفعل، ولكن ليس بالقدر الكافى فى مجال العلوم الاجتماعية التى لم تزل خاضـعة إلى حد كبير للاحتياجات السياسية - الثقافية للغرب المأزوم ولأمزجتـه وأنماطـه ومتطلباته.

وهكذا فقد أصبح الاتجاه الغالب فى الدراسات الخاصة بالنظرية الإمبرياليـة هو النموذج الثانى من المعالجة، أى أيديولوچية الهيمنة التكوينية الوظيفية، ولكـن مع صبغها بنبرة "ثورية" "ماركسية". وينتهج روادها الأصغر سـنا حاليـا نفـس المسار، وهو اختزال ديالكتيكات المجتمعات المعاصرة إلى مركب مـن وحـدات جرى تعريفها بعناية، مع مزيد من الألفاظ والمفردات المعقدة لعلم المعرفة، ومـع علم المنهج (وليس المنهج) الذى جرى تدقيقه، وإضفاء سحر على طـابع العالميـة وهو ما ينتمى حقيقة إلى رسالة المخلص الموعود التى ترجع إلى عصر التفـاخر بـ "عبء الرجل الأبيض". ومن الواضح أن الملهمـين الرئيسـيين هنـا هـم ل. تروتسكى وخلفاؤه. وفى هذا الصدد قد تجد د. لوكسبورج قبولا أفضل لدى الـرأى العام المتخصص، حيث أنها قامت بالفعل بأعمال سياسية على قدر من الشـجاعة. على أن المفاهيم الرئيسية هنا تنتمى إلى "العالمية" المختزلة: "المركز المهـيمن" و "الحافة" و "التراكم" و "أشكال الإنتاج". على أن الاتجاه الذى يتخلل كل هـذا هـو الضرورة التاريخية المقررة سلفا (القدرية؟).

كما لو أن الثورة تنبثق من مبحث المعرفة المعقد، وكأن لم يزل فى استطاعة السادة، وقد ارتدوا الأردية الحمراء، أن يحددوا مسار التاريخ!! وكانت هذه أساسـا دعاوى وأهداف الاتجاه السائد لرواد هذه الطريقة حتى اليوم(٥).

ولكن مع كل غطرستهم المنمقة هذه، فإنها لا تستطيع أن تخفى عداءهم الشديد لمبادرات الشرق الثورية المتعاظمة، على نحو خاص الصين التى تنـتهج مسـارا شيوعيا، ومصر فى الشرق الأوسط، وأفريقيا، الـذين ينتهجـون مسـارا وطنيـا

راديكاليا حيث أنهم ينطلقون من إدارك مفاده أن الإمبريالية ليست إلا نظاما عالميا للتراكم الاقتصادى – المالى والذى لا يمكن دحره إلا بوحدة شعوب العالم بقيادة مثقفيها بطبيعة الحال.

١ – ٤ إن الآراء القائلة بأن الإمبريالية قد تكون نظاما سياسيا عالميا يتمركز حول المؤسسة العسكرية – الصناعية ويستهدف ضمان هيمنته على العالم بفرض رؤياه الخاصة ومفهومه عن الإنسان، وقيمه وحضارته التى تعتمد على الإنتاج وتبديد الموارد، مستخدما فى ذلك سفك الدماء والخراب، ومن ثم فإنه من أجل مواجهة هذه الإمبريالية ينبغى على حركات التحرر الوطنى اللجوء إلى كافة السبل الممكنة المتاحة فى عالمنا كما هو كائن اليوم، وكما كان على مدى التاريخ، وهى وسائل تستطيع بها الدول القومية أن تلعب، بطرق عديدة متنوعة، أدوارا تكون أساسية فى بعض الأحيان، من أجل كبح التغلغل الإمبريالى، وتمهيد الطريق لشن الهجوم وفتح الطريق أمام غارات عنيفة ضد الإمبريالية. إلا أن مثل هذه الحقائق والبيانات بعيدة تماما عن التفكير السائد الآن وسط تلك الدوائر القليلة العدد والمعزولة عن الجماهير العريضة لشعوب القارات الخمس وهى تشكل بالفعل "جيتو" العجز الروحى.

وإنى لأرى أن الطريقة الأولى (الاقتصادية – السياسية) هى طريقة علمية وسوسيولوجية أصيلة، وفى مقدور هذه الطريقة وحدها أن تقدم لنا فهما لديالكتيك الإمبريالية فى عصرنا الراهن، بدلا من تقديم وجهة نظر مصقولة لعالم مانوى يلعب فيه مفهوم الإمبريالية دور الشيطان الذى تنبثق عنه الآثام فى مواجهة مفهوم الثورة.

٢ – جدلية الإمبريالية

٢ – ١ إن الحديث عن الإمبريالية، يتطلب بالضرورة التعرض لعنصرين متمايزين: وهما متمايزان من حيث أصولهما ووضعهما التاريخى، ولكنهما ارتبطا حديثا برباط وثيق عن طريق ديالكتيك السيطرة والخضوع. فمن جهة هناك الشعوب، والتكوينات الاجتماعية والأمم، والدول، والأقطار المحتلة أو تلك المعتمدة

كليا أو جزئيا على عواصم الاستعمار (الميتروبولى) الأوروبية والأمريكية خلال عصور الاستعمار والإمبريالية. ومن جهة أخرى، هناك مراكز قوى الهيمنة الاستعمارية والإمبريالية فى الغرب.

٢ – ٢ إن هذا العرض للواقع الفعلى يشير إلى أن أحد العنصرين، وهو المجتمعات الوطنية التابعة، هو الذى يشكل العنصر الذى له أولوية الوجود بالنسبة إلى العنصر الآخر. فقد وجدت هذه المجتمعات منذ أجيال وقرون، بل وأحيانا منذ ألوف السنين قبل ظهور الاستعمار الحديث والإمبريالية. كما أن هذا الواقع يشير كذلك إلى أن السيطرة الغربية لم تنشأ إلا منذ عصر الاكتشافات البحرية، وقيام الدول القومية الأوربية الحديثة الخاضعة لسيطرة البورجوازية، ومنذ عصر النهضة والثورات الصناعية الكبرى ذات الطابع البورجوازى الديموقراطى، وكل ذلك منذ القرن الخامس عشر حتى الآن.

٢ – ٣ وبسبب مسارات الحياة المتمايزة والمنفصلة تاريخيا، فإن كلا من هذين العنصرين، أى كل وحدة اجتماعية – قومية فى إطار كل من هاتين المجموعتين، قد عمدت إلى تطوير معالجتها الخاصة بها فيما يتعلق بالتبعية أو الهيمنة فى داخل الإطار العام لعالم محكوم بالتناقض الرئيسى بين الإمبريالية والثورات الوطنية والاجتماعية. وفى كلمات أخرى، فإن "النسق" يعمل ليس باعتباره نظاما وظيفيا – تركيبيا لوحدات تتبادل فيما بينها عشوائيا الهيمنة والتبعية، ولكن كنسق ديالكتيكى لتجمعات مجتمعة معينة (تحددت تاريخيا) أى مجتمعات قومية تبلورت حول جهاز السلطة فيها وهو الدولة، فى ظل ظروف مختلفة كثيرا وبأساليب وأنماط بالغة التنوع، وبطرق جد مختلفة، ومن أجل تحقيق إنجازات وأهداف ومكاسب تتباين تباينا كبيرا. إن كلا من هذه القوى سواء دول الهيمنة الإمبريالية أو الأقطار التابعة الخاضعة فى مقدورها أن تحقق رؤيتها الخاصة (المحددة تاريخيا) لمصيرها. ورؤيتها الخاصة لصورة الإنسان التى تزعم أنها تصونها، وتكافح من أجلها، وعاقدة العزم على تحقيقها.

٢ – ٤ وإذا ما قيل إن مثل هذا الدياكتيك الشامل لا يتأتى إلا فى إطار الدول القومية الضخمة، فإن الإجابة هى بكل بساطة أن هذا هو الوضع للأغلبية العظمى من البشر كما هو الحال الآن.

فعلى كل حال، فإن نصف سكان العالم يعيشون ضمن الدول الأربع، هى (الصين، والهند، واتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، والولايات المتحدة الأمريكية) فى الهند ذاتها، يتحدث ٩٠ فى المائة من سكانها ١٤ لغة رئيسية. وفى أفريقيا يستخدم نصف السكان ما بين ٤ لغات إلى ٦ لغات[٦]، وإن النظرية الاجتماعية لا تنشأ إلا عن تركيز الاهتمام على التجمعات المجتمعة الكبرى، بينما تدخل الحالات الصغيرة باعتبارها تنويعات، أو أنماط فرعية.. الخ (مثلما هو الحال في جزر المالديف بالمقارنة مع الصين فى أية دراسة للأمة).

٢ – ٥ إن نموذج الترابط والتداخل بين هذين العنصرين المتمايزين لا تكشف عنه الثنائية الطهوسية السائدة الآن بين الإمبريالية (الشريرة) "والحركات الوطنية" (الطيبة) ولكن ما يكشف عنه بالأحرى هو نموذج الديالكتيك الأصيل، والذى تتكشف فيه عوامل الترابط بين الإمبريالية المهيمنة وحركات التحرر الوطنية بأشكال بالغة التنوع والكثرة، كما هى محددة بتفاعل بعدى الخصوصية (خصوصية كل من الجانبين، أى خصوصية الأنظمة الإمبريالية المختلفة، وخصوصية المجتمعات القومية المتنوعة) وكذلك نسق القوة العالمى (كما تطبقه الأنظمة الإمبريالية على المجتمعات القومية المتنوعة).

ومن الممكن، للأغراض التحليلية، أن نضيف البعد الخاص بالخصوصية بالعوامل الداخلية، والبعد المتعلق بنسق القوة العالمى، أو الجيوسياسية، بأنه بعد للعوامل الخارجية، ويقوم كلا البعدين بأداء دورهما فى إطار كل من العنصرين، وهما بذلك متداخلان فى نطاق ديالكتيك بالغ التعقيد.

٢ – ٦ إننى لا أهدف فى هذه الورقة إلى تحليل بعد العوامل الداخلية، أى مفهوم الخصوصية[٧]، وأقترح لأسباب عملية، أن أتقدم بالتعريف التالى:

"إن الخصوصية، أى السمة الخاصة لمجتمع ما، لن تفهم قط إلا بالدراسة النقدية للتطور التاريخى المحدد لتكوين قومى اجتماعى اقتصادى معين، وهو الذى يحدد نمط الاستمرارية الاجتماعية الخاصة بهذا المجتمع".

وهذا النمط المميز من الاستمرارية الاجتماعية ليس إلا نمط التمفصل (أو الترابط) والتفاعل للعوامل التكوينية الأساسية لأية استمرارية اجتماعية عبر المسار التاريخى لوجودها:

إنتاج الوسائل المادية للحياة فى الإطار الجغرافى والإيكولوچى المعين (طريقة الإنتاج)، وإنتاج وسائل الحياة الطبيعية – الفيزيقية (الحياة الجنسية)، والنظام الاجتماعى (السلطة والدولة) الحقل الزمنى (محدودية حياة الإنسان) الديانات، الفلسفات، وفى هذه المجموعة، يحتل إنتاج الوسائل المادية للحياة الفيزيقية مكانة حاسمة فى تركيب نمط الاستمرارية الاجتماعية ككل، ولكن لا يتم هذا بطريقة ميكانيكية، لكنه يحدث فقط فى التحليل الأخير.

وانطلاقا من هذا المنظور، فإن مفهوم الخصوصية المرتكز على التحليل النقدى للعملية التاريخية يستطيع أن يساعدنا فى التوصل إلى تفهم عميق لمختلف المجتمعات القومية، وأكثر جدا مما تستطيعه المحاولات الأولية الرامية إلى تقديم تصنيفات من خلال المعيار الاجتماعى – الاقتصادى فقط.

٢ – ٧ إن بعد العوامل الخارجية، أى نسق القوة العالمى، أكثر وضوحا إلى حد كبير، إلا أن تأثيره، وكذلك نمطه المتغير بشكل سريع يكاد يستعصى على الفهم. فهنا تتدخل مشاعر قوية لتعتيم إدراكنا هذا البعد، فالمثقفون وعلماء الاجتماع فى دول الهيمنة ميالون إلى حجب طريقهم المتمحورة حول الغرب، وذلك عن طريق الإصرار على إخفاء طابع العالمية، والقيم الإنسانية، والطريقة الليبرالية، أو المعيارية الراديكالية – الليبرالية، فى معالجة مشاكل سلطة سياسية معينة، أو صراع قوة معين. وقد يعمدون إلى تطبيق نفس الأسلوب ذى الطابع العالمى بطريقة وظيفية، فى دراسة الإمبريالية من منظور أنها تشكل نظاما عالميا موحدا للهيمنة يتحلق حول مركز واحد، ومن المحتم أن ينفرط عقده كنسق والنظر إلى

حركات التحرر الوطنية والثورات بوصفها أعمالا مقررة سلفا ومتزامنة سلفا تحدث على مستوى العالم كله متخطية الحدود والأمم الكريهة والدول المقيتة (على منوال الطريقة التروتسكية واللوكسمبورجية) وهى طريقة تنطوى على احتقار للشرق ورياح الشرق السائدة.

٢ – ٨ كيف تجرى صياغة الديالكتيك المحدد تاريخيا على نحو معين لبعدى العوامل الداخلية والعوامل الخارجية؟

من أجل هذا، ينبغى فى الدرجة الأولى بذل محاولة لتحديد الأهمية النسبية لكل بعد فى كل من عنصرى الإمبريالية والحركات الوطنية.

٢ – ٨ (أ) من الواضح بجلاء أن نضال الحركات الوطنية من أجل الاستقلال، والتحرر الوطنى والثورات الاجتماعية إنما يطرح نفسه باعتباره نضالا من أجل إنقاذ واستعادة الهوية الوطنية، والسيادة، وسلطة القرار فى مواجهة هيمنة الإمبريالية. ومن ثم يتبع ذلك ضرورة أن تبدى الحركات الوطنية تركيزا أقوى على مضمون خصوصيتها المميزة، يفوق حديثها عن الإمبريالية المهيمنة، حيث أن هذه الخصوصية بالتحديد هى فى قلب نضالها التحررى وثوراتها. وفى الحقيقة، فإنه ما من دراسة جادة لأدبيات العلوم السياسية والاجتماعية منذ ١٨٤٠ – ١٩٠٠، إلا وتظهر صحة ذلك فيما يتعلق بتطور الآراء والتفكير على اتساع القارات التابعة الثلاث: آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وقد أصبح مفهوم الخصوصيّة الآن أكثر من أى وقت مضى هو المفهوم المركزى للفلسفات الاجتماعية والسياسية لحركات التحرر الوطنى فى القارات الثلاث. ويرجع هذا إلى أن الثورة العلمية والتكنولوجية الثانية قد زودت دول الهيمنة الإمبريالية بقدرات هائلة على الاختراق المدمر لروح الإنسان وعقله، بفضل السيطرة على وسائل الإعلام والثقافة الجماهيرية.

ومن الناحية الأخرى، تعنى دولة الهيمنة الإمبريالية لستر ادعاءاتها العميقة الجذور بشأن خصوصية الغرب، ومؤداها أنه خلق لكى يقود ويحكم، ولكى يدخل الحضارة للأراضى غير المعروفة والمناطق النائية (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا

اللاتينية) فى العالم، أى "عبء الرجل الأبيض" الكامن تحت ادعــاءات "العالميــة". وعلى كل حال، فإن الوضع الراهن، أى عدم مواجهة الهيمنة الغربية بأى تحد من جانب الشرق المناهض، لا يمكن أن يؤدى إلا إلى استمرار توازن القــوى والــذى يمثل فيه النظام الإمبريالى (موقع القلب) فى التعايش السلمى الذى نشأ فــى يالتــا (١٩٤٥). وفى كلمات أخرى، فبينما تعتمد قوى الهيمنة الإمبريالية إلى التقليل مــن خصوصيتها، إلا أنها تتصرف فعليا بطريقة ترتكز أساســا عــل رؤيتهــا الذاتيــة لخصوصيتها التى تحددت تاريخيا.. ولكن مع التأكيد على شئ.

٢ – ٨ (ب) وينشأ الموقف الموازى، ولو أنه أكثر تشوشا، وذلك عندما نبحث فى الأهمية النسبية لبعد العوامل الخارجية، أى توازن القوى العالمى. وقــد يميــل المرء إلى توقع أن تظهر قوى الهيمنة الإمبريالية إدراكا صريحا لوضعها المميــز. إلا أنه فيما عدا الولايات المتحدة، فلا يوجد إلا فرق حقيقى للتقليل من أهمية هــذه الميزة، وذلك فى محاولة لإخفاء حقيقة الصراعات السياسية فى عصرنا الــراهن. فالإمبريالية المهيمنة تفضل أن تجد القبول باعتبارها الوريــث الشــرعى للتفــوق التاريخى لأوروبا والغرب، وليس باعتبارها القوى الساعية للاحتفاظ بالسيطرة عن طريق استخدام بلا رحمة لأقصى أنواع العنف فى التاريخ البشرى.

وعلى الجانب الآخر، أى المجتمعات الوطنية التابعة، يبدو أنها بطبيعة الحــال أكثر إدراكا لهيكل القوة، وعلى كل حال، فإن أقوى قوتين ضــاربتين للإمبرياليــة الأمريكية مرابطتان فى مواجهة المنطقتين الرئيسيتين للتحالف الاستراتيجى الفعال بين الدول الاشتراكية والحركات الوطنية: فالأسطول السابع يواجه الصين ومنطقة الباسفيك فى آسيا، بينما يواجه الأسطول السادس مصر، والعالم العربــى، والبحــر الأبيض المتوسط والجناح الجنوبى لنسق الدول الاشتراكية الأوروبية. وليس ثمــة شكوك بصدد هذا فى عقول الجماهير العريضة للسكان المعنيــين. إلا أنــه مــن الواضح أيضا وبالقدر نفسه، أن قيادة حركة التحرر الوطنى، فى نطــاق "الطبقــة السياسية" فى غالبية الدول التابعة، كثيرا ما تواجه صعوبات حقيقية فــى التوصــل إلى تفهم المعلمات الحقيقية لديالكتيك الإمبريالية كما توجد حاليــا وكمــا تتعــرض للتغييرات السريعة.

٢ – ٨ (ج) وثمة سببان لهذه الصعوبات من ناحية، تنزع الآليات المحددة لحركات التحرر الوطني والثورات الوطنية الاجتماعية في الأقطار التابعة إلى الوقوع في إطار أحد النمطين: إما الخضوع للمضاعفات الناجمة عن وجود خط عام يوحي به مركز ثوري قوي، وأعني الاتحاد السوفيتي أو الصين، أو تطوير خط عام ذي طابع وطني مستقل ذاتيا. وفي الحالة الأولى، ينظر إلى التوازن المحدد للقوى العالمية من وجهة نظر مركز الثورة الرئيسي ودولته وحزبه، وسوف يعمد بطبيعة الحال إلى أن يعكس على المستوى القومي، التأكيد المبالغ فيه أو التهوين من توازن القوى العالمي القائم، بقدر ما يكون هذا المجال في قلب الرؤية والإرادة السياسية للدولة، أية دولة في أي نظام اجتماعي وأيديولوچي. وبمعنى آخر فإن ما قد يبدو غير معقول أو غير ممكن عمليا نتيجة لتوازن القوى العالمي القائم، يمكن محاولة القيام به بل وتحقيقه بدرجة ما، وكمثال على هذا فيتنام، في مواجهة تباين هائل في القوة (وترجع أساسا إلى قرار القيادة الفيتنامية الثورية الوطنية، إلا أنه أمكن بطريقة بالغة الأهمية الحصول على الدعم المشترك الواسع النطاق من كل الاتحاد السوفيتي والصين)، وفي الواقع فإن في الوسع تحويل ما هو قابل للمحاولة ولتحقيق العملي إلى مسارات تحقق أهدافا جد متنوعة، وكمثال على هذا سيادة الجبهوي العام الذي طوره كاسترو والليندي بالمقارنة مع دعوى چيفارا لحرب العصابات.. والأمثلة لا حصر لها.

والنقطة المهمة في كل هذا هي كالتالي: طالما كان نضال حركات التحرر الوطني في أيدي القيادة الوطنية المستقلة، عندئذ فقط يكون في الإمكان تقييم معلمات توازن القوى الدولي بصورة واقعية، وحساب ما يتكشف فعليا من ديالكتيك للإمبريالية، أو من ديالكتيك مع الإمبريالية.

٢ – ٨ (د) إن الصعوبة الثانية تنشأ نتيجة للتأثير المبالغ فيه والمصطنع للعمل النظري والأيديولوچي والعلمي الذي تجريه المراكز الراديكالية والثورية في الغرب حول أفكار ومشاريع أقسام صغيرة من الأنتلچنتسيا والطبقة السياسية في البلاد التبعة. وهنا نجد مرة أخرى إما التهويل أو التهوين من الإمكانيات التحررية للبلاد

التابعة، أو – وهكذا يتكرر بصورة أكثر شيوعا – إضفاء الطابع الرومانتيكى المثالى على الخضوع الذى يؤدى، كما حدث فى الماضى، إلى أخطاء فادحة.

٢ – ٨ (هـ) نلخص مما سبق فنقول: إن قوى الهيمنة الإمبريالية فى الغرب تنزع إلى التهوين أو ستر استخدامها الخاص لبعدى العوامل الداخلية (الخصوصية) والعوامل الخارجية (توازن القوى العالمى)، فى الموقف الذى تضع فيه الحركات الوطنية للشرق الناهض الخصوصية فى مركز الصدارة من نضالها، وتبدى إدراكا مرهفا لوضع توازن القوى العالمي، حتى ولو كان هذا الإدراك يتعرض مرارا للتشويش بفضل الأكليشيهات الأيديولوچية.

٢ – ٩ والآن بعد أن تم تحديد الأهمية النسبية لكل من البعدين فى كل من العنصرين المكونين لديالكتيك الإمبريالية، نستطيع أن نمضى قدما لتقييم الديناميكية الفعلية لهذه العلمية الديالكتيكية.

٢ – ٩ – ١ ودعونا نبحث أولا بعد العوامل الداخلية، أى الحركات الوطنية ويمكن تناولها عن طريق عقد المقارنة مع أنماط الحركات الأخرى داخل نطاق مجتمعاتها: وهى حركات المجموعات والطبقات، والحركات السياسية، والثقافية، والحركات الأيديولوچية. وكل من هذه الأنماط والأنماط الفرعية لهذه الحركات محدودة بقدر كبيرا أو صغير فى مداها، وشدتها، واستمراريتها، أى فى امتدادها الاجتماعى وفعاليتها، وعمق تأثيرها. وقد يشهد المرء فى أحوال نادرة تمركزا أو تنظيميا غير عادى، ولو فى قطاعات معينة – وعلى سبيل المثال، كميونة باريس، ومع ذلك فإن المحدودية الشديدة لمدى وقوة هذه الحركات داخل الدائرة المجتمعية – القومية المتسعة، تجعلها دوما ضعيفة.

ومع ذلك، فإن هذا هو أقصى ما تستطيع أن تصل إليه مثل هذه الحركات.

إن المشكلة الرئيسية فى الديالكتيك الاجتماعى تتمثل فى إشكالية الجمع بين المدى والكثافة والاستمرارية، أى مشكلة تكوين أوسع جبهة ممكنة من القوى المتحالفة الهادفة إلى القيام بأقصى عمل ممكن ومركز من أجل الموضوعات

الأكثر قدرة على تحقيق الحد الأعلى من العمل الفعال. وهـذا هـو، علـى وجـه التحديد، الدور المميز للحركات الوطنية خلال مختلف مراحل ظهورها. هنا، هنـا فقط، نشاهد أعظم قدر ممكن من تمركز مختلف التجمعات الاجتماعية، والطبقات، والقوى، والاتجاهات التى توحدت أساسا لتحقيق المهام الرئيسية للتحـرر والقيـام بالتحولات الاجتماعية - الاقتصادية. وهذا هو ما حدث فى أمثلـة الكماليـة فـى تركيا، والماوية فى الصين، والناصرية فى مصـر، والكاسـترويـة فـى أمريكـا اللاتينية، وكذلك جميع حركات المقاومة فى أوروبا خلال الاحتلال النازى. وهـذا هو المنشأ الأساسى للديالكتيك الاجتماعى فى فترة الإمبريالية والثورات.

٢ - ٩ - ٢ وفى مواجهة هذا العامل، الذى وصف بأنه أقصى تجمـع مـن حيث المدى والقوة والاستمرارية، يمكن أن تصل إليه أية حركـة اجتماعيـة فـى المجتمعات الحديثة، أى أقصى تحرك وطنى تحررى.. فى مواجهة هذا يقف بعـد العوامل الخارجية، أى الإمبريالية، التى يمكن تحديد أهم مظاهرها بالچيوسياسية.

وهنا مرة أخرى، ينبغى التمييز بين عدد من العناصر المكونة للنسق العـالمى للقوة الإمبريالية: الاحتكارات على المستوى القومى، والمتعـددة الجنسـية، ودول الهيمنة على المستوى القومى، والسيطرة الدولية علـى وسـائل التقـدم العلمـى والتكنولوچى، وعلى الاتجاهات الرئيسية الثقافية والأيديولوچية ووسـائل الإعـلام الجماهيرية التى تظل بواسطتها الدول التابعة فى حالة "اتصـال" دائـم مـع دول الهيمنة الإمبريالية. وهنا مرة أخرى، يستطيع المرء أن يميز بين هـذه العناصـر المكونة، وذلك فيما يتعلق بمداها وقوتها واستمراريتها دوما. وقد انعكس هذا فـى التحول الدقيق غير الملحوظ من تفسير الإمبريالية وفق بنيتها التحتية الاقتصادية - المالية، إلى تفسيرها بالمنظور المعاصر الأكثر إرهافا، باعتبارها محاولة لفـرض نسق الهيمنة يشمل العالم بأسره، عن طريق الاستخدام الكفء للمجتمع العسكرى - الصناعى. وهذا المجمع العسكرى - الصناعى قد كشف عن نفسـه، فـى القـرن الحالى، وعلى نحو أكثر سفورا خلال الثـورة الثانيـة فـى المجـالات العلميـة والتكنولوچية، والصناعية فى الدول المتقدمة، عن طريق السيطرة المباشرة علـى القضاء كإطار وتمهيد لعمليات التغلغل العميق والإخضاع.

وبمعنى آخر، فإن المجمع العسكرى – الصناعى الذى يمتلك سلطة الإقرار فى الدول الأكثر تقدما، قد حشد لتحقيق هدمه جميع المصادر والطاقات للإمبريالية المهيمنة فى أكمل توليفة من حيث المدى والقوة والاستمرارية، وذلك عن طريق الاستخدامات السياسية للفضاء، أى الچيوسياسية.

٢ – ١٠ ومن ثم، يترتب على ذلك، أنه باقتران هذين الطرفين: الحركات الوطنية والثورات من جانب، واستخدامات الإمبريالية للچيوسياسية من الجانب الآخر، نصل إلى أن أحد مجالات الممارسة السياسية المعاصرة يوجد حيث يصل ديالكتيك الصراع من أجل القوة العالمية إلى أعلى مستوى له. وهنا يتوافر أيضا المجال العلمى الذى يبشر بأضخم الآمال فى تجديد النظرية الاجتماعية والسياسية، من حيث أن النظرية العامة تستمد محتواها الأساسى من المجموعات المجمعية الكبرى، وهنا فيما نحن بصدده، فإنها تستمده من ظاهرتى المجتمعين الكبيرين الرئيسيين فى عصرنا الراهن.

٣ – أهمية الچيوسياسية[٨]

إن أية دراسة نقدية لدور الچيوسياسية يتعين عليها أن تعنى بالأسئلة الثلاثة التالية: كيف تطورت الچيوسياسية، وكيف يجرى استخدامها بواسطة ديالكتيك القوى الدولية؟ ما هى الحدود المفروضة على الچيوسياسية؟ ومن ثم، ما هى استخدامات الچيوسياسية فى دراسة أهم ديالكتيك اجتماعى يشهده عصرنا الراهن، وأعنى به الديالكتيك بين الإمبريالية والحركات الوطنية؟

٣ – ١ قبل وقت طويل من صياغة اصطلاح "چيوسياسية"، أوضحت التقاليد العريقة فى دراسة الجغرافيا (سواء الجغرافيا السياسية أو الطبيعة على حد سواء) "إن دراسة الظاهرة السياسية فى بيئتها المساحية" (و. أ. د چاكسون) يفضى مباشرة إلى تواز بين مفهوم النسق فى النظرية السياسية، ومفهوم المنطقة فى الجغرافيا (جسبراوت). وقد تجمع الكثير من المؤلفات العلمية منذ صدور دراسة فردريك راتزل "بوليتشى چيوجرا" (الجغرافية السياسية) (١٨٩٧) وتناولت: المناطق السياسية، الإمكانيات السياسية، مفهوم السلطة، الأدوار الخاصة بكل من عوامل قوة

الجذب والطرد، للسياسة والاقتصاد والثقافة فيما يتعلق بمشكلات السلطة، الجوانب الديناميكية لهذه المشكلات.. إلى آخره وقد أفضى ذلك إلى بذل محاولات للتوصل إلى تنظيم وظيفى للجغرافيا السياسية، كما تعبر عن ذلك بنوع خاص دراسة س. ب جونس "مظهرية المجال الموحد للجغرافيا السياسة" (١٩٥٤) وكان نموذجه مؤلفا من خمسة مقالات متداخلة "الفكرة السياسية – القرار – الحركة – المجال – المساحة السياسية" قد حمل النموذج بشكل كبير وبصورة واضحة بافتراضات سلوكية، بل حتى بتجاهل شديد للدور الجوهرى الذى تلعبه البنية التحتية الاقتصادية. ولا يسمح المجال هنا بتقديم مسح للموضوع. إلا أنه يتعين على المرء أن يدرك حقيقة أن الچيوسياسية كانت لها أهمية طاغية فى ميدان الجغرافيا السياسية قبل الثلاثينيات من القرن الحالى.

إن الحرب (العالمية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨) التى نشبت بين الدول الإمبريالية قد وضعت نهاية – لبعض الوقت – للسياسات التوسعية لألمانيا لصالح النظامين الإمبرياليين لبريطانيا وفرنسا، بينما أوضحت ثورة أكتوبر الأزمة العامة لهيمنة الرأسمالية فى أوروبا ذاتها. وكانت هذه هى بداية ظهور الچيوسياسية بالمعنى المعاصر: فقد بدأت بكتاب "ستيتن سوم ليفسفورم" (الدولة بوصفها المنظم) بقلم رودلف كلين عالم السياسة فى أوبسالا الذى صدر فى ١٩١٦، وأوحت ترجمته بالألمانية فى ١٩١٧ مباشرة بنشأة فكر كارل هوسوفر، الذى كان يحاضر حول الچيوسياسية فى ميونخ اعتبارا من عام ١٩١٩، وأصدر مجلة Zeitschrift fur Geopelink ذات النفوذ الواسع فى عام ١٩٢٤، وأصبح أستاذا متفرغا للچيوسياسية فى ميونخ ومدريد ومديرا لمعهد الچيوسياسية بها بعد عام ١٩٣٣ بمساعدة الحكم النازى.

وفى غضون ذلك، اتخذ نجاح الچيوسياسية فى سائر أنحاء العالم نمطا ثانيا: فالجغرافيون فى دول الهيمنة الغربية العريقة كانوا ينزعون إلى اتخاذ موقف نقدى منها، وأحيانا موقفا سلبيا (مثلما حدث فى فرنسا، حيث أقر كل من ب. فيدال دى لا بلاش، و ج. برونيه، وسى. فالو بمساهمات راتزال، إلا أنهم رفضوا النظر إلى

الچيوسياسية بوصفها حتمية بيئية، وهكذا انضموا إلى أ. ديمانجيون، وج أنسيل وغيرهما، وفى انجلترا، سار موقف التحفظ الملحوظ حول الموضوع بأسره حتى الحرب العالمية الثانية) ومن ناحية أخرى، فقد أبدى الجغرافيون والعلماء الاجتماعيون فى الدول الناهضة فى الشرق، التى كانت حتى ذلك الحين دولا تابعة، وكذلك علماء من الولايات المتحدة الأمريكية، اهتماما متزايدا بالچيوسياسية، أما اليابان، هذا البلد المثالى، فقد كان له فضل الريادة (أشار ف. أى. ليفين بنوع خاص إلى كتاب هاشيدا Hashida "دور اليابان فى المحيط الهادى" عام ١٩٠٥، وكتب هوشوفيرست كتبا عن اليابان وحدها فيما بين ١٩١٣، ١٩٣٨).

وقد أضافت الدراسات المصرية تأكيدا قويا على الجانب الثقافى (ابتداء من مؤلف طه حسين "مستقبل الثقافة فى مصر"، ١٩٣٦ إلى جمال حمدان "شخصية مصر، دراسة فى عبقرية الزمان والمكان" القاهرة ١٩٦٧ – ١٩٧٠، عبورا بجمال عبد الناصر "فلسفة الثورة" ١٩٥٤، وحسين فوزى "سندباد مصرى" ١٩٦١ ومساهمات أنور عبد الملك "المجتمع المصرى والجيش "العسكرية فى مصر" ١٩٦٢، و"الأيديولوچية والنهضة الوطنية فى مصر الحديثة" باريس ١٩٦٩ "ثم "نهضة مصر" القاهرة ١٩٥٢... إلخ، وربما كانت البرازيل أكثر صراحة من أى قطر آخر (كما ظهر فى مؤلفات جوزيه دى كاسترو "چيوبوليتيك المجاعة" ١٩٥٢ والجنرال جولبيرى دى كوتو أوسيلفا "چيوبوليتيك دى برازيل" ١٩٦٧ وغيرها). أما إيطاليا فلم تبد أى اهتمام خاص، حتى خلال دروة حكم موسولينى.

كانت الحرب العالمية بالفعل نقطة تحول، فقد صاحب الولايات المتحدة الأمريكية إلى مرتبة الدولة العالمية العظمى ازدهارا فى الدراسات الچيوبوليتيكية، التى أطلق عليها فى حذر شديد اصطلاح "الجغرافيا السياسية" كما لو كان القصد تبديد شبح النازية: وبدأ بذلك التقليد العظيم الذى وضع لبنته المؤلف الرائد للأدميرال أ. ت. ما هان "Mahan" "دور القوة البحرية فى التاريخ" (بوسطن ١٨٩٠)، وهو الذى سار على منواله بنوع خاص فى بريطانيا العظمى هالفورد ماكيندو، فى الولايات المتحدة كل من م. ج سبيكمان، د. ويتلسلى، أى. بومان، أ.

ب دى سفيريسكى، ج كولكو، وفى فرنسا، چان چوكمان. وهنا ينبغى أن نشير إلى أن الموقف التقليدى المعادى للچيوسياسية من جانب الكومنترن استبدل فى حذق وهدوء بموقف أكثر عمقا من جانب الأحزاب الشيوعية الكبرى المعنية، وبخاصة أحزاب الاتحاد السوفيتى، والصين، وفيتنام وإيطاليا: ومن المفهوم أنه كان يجرى تدريس مادة الچيوسياسية فى مدارس تخريج القيادات (الكادرات)، وكانت كتب ماوتسى تونج "كتابات عسكرية" والچنرال فونجوين جياب "الفن العسكرى لحرب الشعب" (نشر عام ١٩٧٠ فقط) وأخيرا الكتاب الرائد للأدميرال سرجى جورشكوف "العالم المحيط" (١٩٧٠) بمثابة المراجع المدرسية.

وكان اهتمام الحزب الشيوعى الإيطالى منصبا أساسا على الأبيض المتوسط باعتباره "بحر الحسم".

٣ – ٢ كيف يمكننا أن نقيم أهمية وحدود الچيوسياسية؟ أن الإهمال والاحتقار، كما رأينا، يرجعان إلى دوائر النخبة المثقفة، وخاصة دوائر العواصم الاستعمارية المعادية للحركات الوطنية ذات الطابع اليسارى. إلا أن الكوادر السياسية والمثقفين العضويين لم يشتركوا على الإطلاق فى مثل هذا التميز الأيديولوچى، ومع ذلك، فعندما يتأكد دور الچيوسياسية فى الديالكتيك الاجتماعى للعصرين ينبغى علينا الاعتراف به كعامل أساسى، ولكن ليس باعتباره عاملا حاسما.

إنه حاسم بقدر تشكيله للإطار الخارجى الذى يمارس تأثيرا كبيرا على إظهار الديالكتيك الاجتماعى فى كل حالة على حدة، وفى كل منطقة.. إنه لا يمكن أن نتغافل عن دور الثورة الصناعية الثانية من حيث أنها دعمت بشكل كبير من مغالبة إطار القوة سواء بواسطة الاستخدام العنيف لعامل القضاء، أو بالتغلغل العميق فى إرادة الإنسان وعقله وروحه. ومع كل ذلك، فقد عجزت الجيوسياسية بكل ما لديها من قوة عن أن تظهر بصورة مقنعة باعتبارها العامل الحاسم فى صراعات العالم المعاصر – كما تكشف عن ذلك دراسة قريبة لجوزيف مكنمارا بعنوان "جوهر الأمن" (١٩٦٨).

لم يسبق من قبل أن كشفت قوة الآلة بمثل هذا الوضوح، وبفضل اعتمادها على القذائف الصاروخية العابرة للقارات، والترسانات النووية، عن محدودية الچيوسياسية، وذلك أنه يبقى في النهاية عامل خفي – تتمثل هويته في الحركة الوطنية أو الوجود القومي، أو الإرادة الشعبية – ينبثق باعتباره العامل الحاسم حقا (كما حدث في ڤيتنام) ولكن حتى هنا لم يحدث هذا العامل فعله الحاسم بغير دعم عسكري، واقتصادي وامدادات متواصلة وضخمة من جانب الصين والاتحاد السوڤيتي لدولة تقع على الحدود الجنوبية للصين الشعبية.

إني أعني بهذا العامل الحاسم – وهو الإرادة الوطنية للجماهير الشعبية، التي مكنته أن يعمل كعامل حاسم في صراعات القوى في العالم بين الإمبريالية والحركات الوطنية، وذلك عندما يؤدي دوره كجزء مكون متكامل للإستراتيچية الشاملة، ومستفيدا بالكامل من الجوانب الإيجابية والسلبية، ومن النواحي المساندة والمعوقة للچيوسياسية. ويتضح هذا بجلاء بإيراد عدد من الحالات ذات الدلالة البالغة: ڤيتنام – الصين... بالمقارنة مع المقاومة الفلسطينية – مصر، المكسيك – كوبا بالمقارنة مع بيرو – شيلي.... الخ.

ويبقى الافتراض السياسي صحيحا من حيث المبدأ، وهو أن الچيوسياسية تمثل عاملا أساسيا، ولكن ليس العامل الحاسم في نهاية المطاف، في ديالكتيكات الإمبريالية والتحرر الوطني. وما ينبغي أن نرمي إليه يتعلق أساسا بتقييم الأبعاد المحددة، الدنيا والقصوى، لأهمية العامل الچيوسياسي في صراعات القوة العالمية في عصرنا الراهن.

٣ – ٣ وهذا يفضي بنا إلى التفكير المباشر في الاستخدامات الممكنة للچيوسياسية بصدد تشكيل عالم الغد. على ألا يكون دافعنا "النموذج النظري" لمثل هذه الاستخدامات المحتملة، ولكن الإمكانيات المحددة لميزان القوى المتغير في العالم.

٣ – ٣ – ١ ومن ثم تكون نقطة البداية على النحو التالي: إن توازن القوى العالمي، كما تشكل في نهاية الحرب العالمية الثانية في مؤتمر يالتا، قد بدأ الآن

يدخل مرحلته الأخيرة، ولا ينبغى علينا أن نفهم من هذا أن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى كفا عن أن يكونا القوتين العظميين، إنهما كذلك وسيظلان هكذا حتى نهاية القرن الحالى على الأقل، ولكنهما لم يصبحا يشكلان المركزين الوحيدين للقوى العالمية، وإن اتفاقيات يالتا، والتى تختص بالعالم الغربى تبدو الآن وقد تلاشت فى مواجهة نهضة الشرق. وهذا ينطبق أساسا على آسيا، ولكن أيضا على أفريقيا والشرق الأوسط بدرجات مختلفة، وكذلك على أمريكا اللاتينية النائية، والمهملة حتى الآن.

٣ - ٣ - ٢ إن الشكل الذى سيكون عليه ميزان القوى العالمى الجديد فى نحو عام ٢٠٠٠ يمكن رسم خطوطه الرئيسية على النحو التالى:

أ - كتلة قوة أوروبية غربية بقيادة الاتحاد السوفيتى، مع نسق مزدوج من التحالفات بين دول أوروبا بعضها البعض: فألمانيا (التى ترتبط سياسة قيادتها الاشتراكية الديموقراطية للتقارب مع الشرق (سياسة أوستوبوليتك)، مع تجميع الخبرات التكنولوچية والصناعية الأكثر تقدما للدول الرأسمالية الأوروبية)، والإمكانيات الهائلة للاتحاد السوفيتى الملتزم حاليا بتسريع إيقاع التحديث الاقتصادى لمواجهة كل من الإمبريالية الأمريكية والنفوذ السياسى الصينى (وهى سياسة قد تؤدى إلى تكوين شكل ما من توحيد ألمانيا فى هيئة اتحاد فيدرالى بين دولتى ألمانيا) ونمط التحالف الكلاسيكى بين الاتحاد السوفيتى وأوروبا الغربية مع قيام فرنسا بدور الشريك الكبير على المستوى الثقافى والسياسى، وإيطاليا التى تتقدم حثيثا الآن فى اتجاه أن تشكل نوعا ما من المهادنة التاريخية مع الإسهام المباشر للحزب الشيوعى الإيطالى أقوى الأحزاب الشيوعية غير الحاكمة وأقواها نفوذا فى الغرب، وفى الأبيض المتوسط، والقارات الثلاث.

ب - كتلة قوة آسيوية - شرقية بقيادة الصين، بالتحالف مع العالم العربى بزعامة مصر، ودول منطقتى الأبيض المتوسط وشرق أفريقيا، بالتعاون الوثيق مع اليابان لمواجهة مشكلات التحديث الاقتصادى فى أعقاب الثورة الثقافية الكبرى.

ج – كتلة قوة غربية – أمريكية تتألف أساسا من الولايات المتحدة وبزعامتها بالتحالف مع عدد من الشركاء الصغار.

إن العوامل المركزية فى تحالفات القوى الجديدة هذه تتمثل فى بندى (أ)، و(ب): أى المبادرات السياسية للدولتين الاشتراكيين الكبيرتين فى تحالف مع الحركات الوطنية على المستوى السياسى، وفى تحالف على المستوى الاقتصادى والتكنولوچى مع الدولتين الرأسماليتين الكبيرتين غير المهيمنتين (ألمانيا الغربية واليابان) تحت حماية المظلة النووية لكل من الاتحاد السوڤيتى والصين.

أما دور دور بند (ج) الخاص بالإمبريالية الأمريكية فهو يبدو كأنه محكوم بمدى التقدم عبر المسارين المتقاربين لقوى الاشتراكية والتحرر الوطنى، وهو دور الدفاع الاستراتيچى، كما كان الوضع فى السابق، مثلته ڤيتنام.

٣ – ٣ – ٣ بالإضافة إلى إعادة التنظيم هذه لتوازن القوى العالمى، فيمكن إعطاءه تصور واضح للمناطق التالية:

أ – إن منطقة أوروبا الغربية بقيادة الاتحاد السوڤيتى سوف تمتد إلى أوروبا كلها، وآسيا غربها ووسطها، والأبيض المتوسط، والشرق الأوسط، وشمال أفريقيا، وأجزاء من الأطلنطى (الشمال والوسط)، والباسفيكى (الشمال والجنوب مرارا بالمحيط الهندى) والمحيطات الهندية.

وهى بهذا سوف توفر مظلة على جانب كبير من التنوع وغالبا ما تكون ملائمة للحركات الوطنية فى هذه المناطق، بشرط أن تبرهن هذه الحركات على قوتها وأن تدرك بوضوح معلمات التورط السوڤيتى الممكن.

(إن الأبيض المتوسط والشرق يقعان مباشرة فى نطاق البعد الچيوسياسى المباشر للعمل السوڤيتى، ولا ينطبق هذا على شيلى أو الهند).

ب – ستغطى منطقة كتلة القوة الآسيوية – الشرقية بقيادة الصين جميع الأراضى الداخلية لآسيا وكذلك شرق أفريقيا، وأجزاء من الشرق الأوسط والمحيط الباسفيكى. وفى وسع هذه الكتلة أن تكون عاملا حاسما لمعظم حركات

التحرر الوطنى والثورات فى هذا الجزء من العالم، حيث يعيش أكثـر مـن نصف الجنس البشرى.

ج – المنطقة الغربية – الأمريكية بزعامة الولايات المتحدة الأمريكيـة، سـتغطى شمال أمريكا، وأغلبية منطقة المحيطين والباسـفيكى، وأمريكـا الجنوبيـة، وأفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، والقارة الجنوبية. وداخل هـذه المنطقـة يمكن توقع استخدام أقصى أنواع العنف للحفاظ على هذه الأجزاء المتبقيـة، وشعوبها وإمكانياتها وثرواتها فى أيدى الإمبريالية الأمريكية. وهذا يعنى أن حركات التحرر معرضة لأن تثبت أنها الأقوى فى هذه المنـاطق، بسـبب الضغوط الأمريكية المكثفة، ولكنها معرضة أيضا لأقصى أنواع القمع.

٣ – ٣ – ٤ وعلى المستوى العالمى، سيتمثل التناقض الكبير بـين الكتلتـين بزعامة الدولتين الاشتراكيتين العظميين من جانب، والكتلة التى تقودهـا الولايـات المتحدة من جانب آخر، وسيكون هناك داخل كل من هذه الكتل تناقضات صغرى، بين الدول ذات الأنماط المختلفة اجتماعيا واقتصاديا، وبين كل هذه الدول وشركائها الاشتراكيين القياديين. وهذا الديالكتيك الاجتماعى المكثف والممتد الـذى ستشـهده الأجيال القادمة فى العالم سوف يتطور من خلال نموذج من الصـراعات المعقـدة والمكثفة. وما من أحد يستطيع الآن تقييم فرض أية حرب عالمية ثالثة، وخاصة أن القوى الفعالة التى تصنع القرارات الإمبريالية تشعر أنهـا أخـذت تفقـد قـدرتها التاريخية على المبادرة.

ومن ثم تجئ الأهمية الحيوية لإدخال الجيوسياسية باعتبارها عاملا أساسـيا، ولكن ليس حاسما فى تقييمنا لمستقبل الإمبريالية والحركات الوطنية فـى عصـرنا الراهن وما بعده...

الهوامش:

(١) قدم هذا الجزء بطريقة أكثر تبسيطا للندوة التى استمرت يوما واحدا وكان موضوعها "نظريات الإمبريالية" ورأسها بوب سوتكليف وروجر أوين فى جامعة سانت أنطونى، أوكسفورد ١٩٧٠.

(٢) أنور عبد الملك Pour une sociologie de l'imperialisme

(٣) منذ عام ١٩٤٥، أطلق المزيد من النيران وقتل المزيد من البشر فى المعارك، ومع هذا فالعالم رسميا فى سلام الآن، أى ما بين دولة غربية كبرى تحارب أخرى غربية. وفى الحقيقة فإن الحرب العالمية الأولى كانت حربا داخلية بين دول أوروبا بعضها البعض، ولكن لا ينطبق هذا على الحرب العالمية الثانية، وهى صدقا الحرب العالمية الأولى.

(٤) انظر النص الجزئى الذى قدمه على يعطا نيابة عن حزب التحرر والاشتراكية (المغرب) للجنة التحضيرية للمؤتمر الدولى (الثانى) حول الأحزاب الشيوعية والعمالية (موسكو ١٨ – ٢٢ مارس ١٩٦٩) وفى مؤلف أنور عبد الملك:

La Pensee Politique arabe cont emporaline Le Seuil, Paris, ١٩٧٠, ١٩٧٥, ١٩٨٢. والطبعة المجددة الإنجليزية:

Contemporary Arab Political Thought, Zed Press, London ١٩٨٤.

وقد أثار هذا غضب أحدهم (القوميين و العنصريين. إلخ) انظر:

Nathan Weinstock: La Gauche Arabe, Maspero, Paris, ١٩٧٠.

(٥) أحب أن أحيل القارئ إلى هذا البيان الرائع الذى قدمه سلفادور الليندى رئيس شيلى فى مقابلة صحفية مع ريجس دوبريه:

Allende: the polling booth revolutionary, the Sunday times, ١٤ March ١٩٧١, p. ١٣.

(٧) أنظر:

Russett, Bruce, ed.: world handbook of poitical and social indicatiors, Yale U.P. ١٩٦٤. P. ١٨ – ٢١. Friedrich, Xarl J: Some Genera thevitical reflections of the problems of political data, in Merritt, R.L. and Rlkkan, S: Comparing Nations, Yale U.P. ١٩٦٦. P ٥٧ – ٧٩.

(٧) أنور عبد الملك:

(٨) انظر العرض التقليدى لأشكال الجيوسياسة بقلم:

D. Whittlesey and H.W Weigert, Geopolitics, in the 1963 edition of encyclopaedia Briannica vol. 10, p. 182 E – 182 J: Political Geograpy – a sing of the time – by H. Sprout, in the international encyclopaedia of the social sciences, vol. 6, pp. 116 – 23.

Harm j. de blij (ed) systematic political geography, john wiley new york – london 1967, Charles A. Fisher (ed) Essays in politicl Geography, Methune, London, 1968 Jean Gottman, La Politique des Etats et la geographie, Paris, 1961.

ثم الهوامش لمشروع كتاب لينين:

Imperialism, in V. I. Lenin, Complete works, vol. 39 foreinglanguages de . (french text) Moscow.

(١٣)

الماركسية والتحرر الوطني

فى هذا الفصل[1]، فضلت أن أقتصر على طرح بيان بالإشكالية النظرية على أن أقدم عرضا نظريا كاملا، ذلك لأن الإشكالية موضع البحث هى قبل أى شئ آخر إشكالية ديناميكية فى حركة مستمرة، فهى ليست مذهبا يتعين علينا تحليله ولكنها حركة يتشكل أحد دوافعها الرئيسية من هذا العمل المنهجى والفلسفى والأيديولوچى والسوسيولوچى الذى يعرف بالماركسية.

لذلك فإنه يستحيل من وجهة نظرى أن نقدم أية أطروحة thesis على المستوى المنهجى. فضلا عن ذلك وفيما يتعلق بشخصى فإننى لست مؤهلا لتقديم أية أطروحات، أما ثالثا وفيما يختص بوجود أطروحات إقليمية فإنه قد تم تجميع هذه الأطروحات فى نص قد تعرفونه جيدا؛ وهو النص الكامل للقرارات والمقترحات التى أقرها المؤتمر الأول للتضامن بين شعوب أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية والذى انعقد فى هافانا فى يناير عام ١٩٦٦. ولكن فيما عدا ذلك فإنه ليست هناك أية نظريات تجمع فى أى شكل بين القارات الثلاث. ولذلك فما ينبغى عمله هو محاولة تعيين موضوعهم وصياغة الإشكالية.

يتكون هذا العرض من خمسة أجزاء تسبقها مقدمة أحاول فيها أن أحدد وجهة النظر الغربية فى "الماركسية بين البدائيين Aboriginals أو الماركسية فى العالم المتخلف.

أما الفصول الأخرى فسوف تعنى على هذا الأساس بعرض تاريخ الإشكالية من خلال الإجابة على أسئلة مثل: فى أية مرحلة تصبح مشكلة الماركسية أمرا مثيرا للقلق فى القارات الثلاث؟ وما هى جذور وطبيعة المشكلة التى تنشأ من العلاقات بين الماركسية وحركات التحرر الوطنى؟ ما هى وظيفة الماركسية داخل حركات التحرر الوطنى فى دول القارات الثلاث؟ وإلى أى مدى ينعكس التداخل

فيما بينها على مفهوم الماركسية وطبيعتها ومظهرها كما هى اليوم فى القارات الثلاث خاصة فى أوروبا؟ ذلك لأنها ليست شيئا واحدا على الإطلاق. وسوف نتبين فيما بين بعد ضخامة التباين فيما بينهما.

وأخيرا فسوف أطرح فى خلاصة قصيرة سؤالا عما ينبغى عمله: ما الذى يستطيع الماركسيون من جهة والمنظرون الماركسيون marxologists من جهة أخرى أن يفعلوه إزاء كل ذلك.

إن السؤال الذى يطرح نفسه عندما يقدم المرء على دراسة موضوع من هذا النمط هو: إلى أين يتجه مصير الماركسية؟ وكيف تم تحويلها؟ ما هى الآن فى أوروبا التى أفرزتها وكيف أصبحت فى القارات الثلاث التى تنظر إليها فى يومنا هذا على أنها أيديولوجية ثورية رئيسية؟ ذلك لأنه لا يوجد فى الوقت الحاضر حتى احتمال الحوار، ناهيك عن المحصلة التركيبية.

وكما سنرى فيما بعد فإن الماركسية فى الغرب تعتبر من وجهة نظر القارات الثلاث وكأنها فى أزمة. فقد انعدم تقريبا التجديد النظرى. وما فعله العمل النظرى لن يكن له سوى علاقة طفيفة جدا بالثورة. فالقارات الثلاث ترى ماركسية الغرب منقسمة، وقعت فريسة للانقسام بين التطور والدوجماتية، وهناك خلل يثير الدهشة فى الاستمرارية بين النظرية القائمة وبين ما يطلب من الماركسية أن تفعله، ذلك لأن مهمتها الحقيقية هى تغيير العالم مهما كانت براعة المفكرين الماركسيين والنجاح الذى حققوه.

ومن جهة أخرى وإن كان ذلك على المستوى الظاهرى فقط فإن الماركسية فى القارات الثلاث تبدو للأوروبيين شكلا من أشكال القومية الراديكالية يختلف تماما عن الماركسية فى شكلها الذى طوره ونظمه مفكرو الغرب على الأقل حتى تفجرت أزمة الكومينترن Comintern.

وهناك رجلان مختلفان تماما هما چورچ لوكاس ورايت ميلز، أكد الاثنان – الأول فى كتابه "مغزى الواقعية المعاصرة"، والثانى فى "الخيال الاجتماعى" – على

أنه فى القارات الثلاث فقط أو فيما تصفه أوروبا بالعالم الثالث تستطيع الإشكالية الماركسية أن تواجه المشكلات التى يكون من شأنها أن تساهم فى إثرائها. غير أن نداءاتهما ذهبت أدراج الرياح، لأن الغرب بعيد فى فكره كل البعد عن الرغبة الصادقة فى استخلاص دروسه والبحث عن مصادر أفكاره خارج نطاق ذاته. ولذلك فإن هذا المجال قد خلا تماما من أى عمل بحثى. وفى استطاعتنا أن نقول إن العقبتين الرئيسيتين اللتين وقفتا حجر عثرة فى طريق المعالجة الغربية لإشكالية القارات الثلاث كانتا عقبتين سيكولوجيتين. فمن ناحية يسيطر على الماركسيين اعتقاد بأنهم هم الذين يملكون الهيمنة السياسية والاقتصادية على حركات الاشتراكية والشيوعية الدولية (وحتى أزمة الكومينترن، أو بالأحرى حتى بعد ذلك إلى أن نشأت الكومينفورم كانت أوروبا هى مصدر الصيغ النظرية والخطوط العامة والأطروحات المنهجية للحركات الماركسية) ولذلك فإنه من الصعب أن تجد نفسها مضطرة للاعتراف بوجود "الآخر"، خاصة إذا كان هذا الآخر له مكانة الصين أو الشرق.

وإذا نحينا السياسية جانبا فإننا نستطيع أن نقول إن هناك فى الغرب تقليدا ملحا لأن يفكر للآخرين فى مشكلاتهم.

أما بالنسبة للغربيين من غير الماركسيين فهم مؤمنون بالحقيقة القديمة جدا التى تقول بهيمنة الغرب وأوروبا هيمنة شاملة ثقافيا وطبيعيا على العالم الآخر. ولا شك فى أن هذا التساؤل الذى طرحه مونتسكيو منذ زمن بعيد "كيف يكون أى شخص فارسا؟".. لا يزال هذا التساؤل تساؤلا عصريا، حيث أن العديد من أصدقائنا فى الغرب لا بد وأنهم يتساءلون حتى الآن: "كيف يكون أى شخص صينى أو فيتنامى أو كوبى أو أفريقى أو عربى أو كولومبى... إلخ؟". لأن هؤلاء بالنسبة إليهم يبدون كائنات أخرى مختلفة، ولأنها كذلك فإن لها رؤيتها الخاصة. ومع ذلك وحتى لو كانت هذه الرؤية الخاصة تتسم بالصفة العالمية فإن الغرب يفضل أن يتعامل معها إما بالسخرية (الوسيلة السهلة) أو من خلال محاولات مستمرة دءوبة لتهميشها والتقليل من أهميتها بما يؤكد إيمانه الراسخ بأن القضايا

الحقيقية تتقرر بالفعل فى قطاعات معينة فى عدد صغير من دول العالم الغربى، ذلك رغم أن الواقع يؤكد أن اللعبة الحقيقية تمارس على الجانب الآخر من العالم.

١ – تاريخ الإشكالية

صحيح أن هناك مشكلة ببليوجرافيا. ولذلك فإنه يصبح من المفيد أن نستعرض المراحل المتتابعة فى العلاقات الإشكالية بين الماركسية والتحرر الوطنى طالما كانت هناك محاولات للدراسة المتعمقة لهذه المشكلات[2].

وعلينا فى البداية أن نعترف بالاختلاف فى الطبيعة بين المراحل المختلفة للمشكلات.

أولا: مرحلة التجميع الأولى للمواد الخام. **وثانيا:** مرحلة الانتاج الحربى.

وثالثا: مرحلة المعالجات النظرية الأولى فى فترة ما بعد ١٩٤٥، مع التركيز على فترة ما بعد ١٩٤٩ وحتى الوقت الراهن.

وفيما يتعلق بالمرحلة الأولى فإننا ليس لدينا سوى القليل جدا من المادة المتاحة. وبفضل المؤسسة الوطنية للعلوم السياسية استطاع س. شرام S. Schramn. وكارير دان كوس أن يقارنا لأول مرة فى "الماركسية وآسيا" بين مجموعة كبيرة من الوثائق المهمة. ورغم العديد من السلبيات وأوجه القصور إلا أن هذا العمل يتميز بأنه جمع النصوص مع دراسة نقدية لها مما أتاح اكتشاف الصيغ الأصلية التى كانت عادة ما تقتبس من مطبوعات تحكمت فيها الضرورات الچيوبوليتيكية (الجغرافية السياسية) طوال فترة الكومينترن. وهذا يعد فى حد ذاته إنجازا له قيمته. فنحن نعتبر هذا العمل عملا أساسيا لدراسة هذه المشكلة، ونأمل أن يزودنا المختصون فى أسرع وقت ممكن بأعمال مماثلة حول الماركسية وأمريكا اللاتينية والماركسية وأفريقيا.

هناك أيضا بعض الأعمال المتفرقة حول ما ينظر إليه عادة على أنه قضية هامشية (وأشير هنا بالتحديد إلى الإسلام) ولكنها فى حقيقة الأمر أعمال نظرية عامة تركز بشكل مباشر على علم اجتماع الأيديولوچية المقارن. ومنها على سبيل

المثال كتاب حول سلطان على Sultan Galiev وضعه أ. بينينجس ..A Benningsen.

وأخيرا فقد أعدت الجامعات الأمريكية مجموعة غير عادية من رسائل الدكتوراه التى تتناول بصورة أكبر الماركسية فى تلك الدول الواقعة فى نطاق السيطرة الأمريكية وخصوصا على طول محور الباسفيك فى أمريكا اللاتينية وآسيا. لأن ذلك هو المحور الاستراتيچى الأساسى فى القرن العشرين وليس محور الأطلنطى التى تعيش أوروبا فى نطاقه.

كل هذه المواد تجمع بين ميزة واحدة إلى جانب عيب واحد وإن كان أقل أهمية. فميزتها الأساسية هى أنها تلقى ضوءا ليس على النظرية الماركسية، ولكن على الأيديولوچية والبرامج الشيوعية. ولذلك فإن هؤلاء الذين يهتمون بالسياسة سوف يجدون فيها مادة وفيرة. أما بالنسبة للذين يهتمون بالنظرية فإنهم لن يجدوا فيها سوى القليل. ولسنا نقصد أن الفاصل واضح إلى هذا الحد ولكن ما نعنيه هو أن هذه المواد اهتمت بالسياسة أكثر مما اهتمت بالنظرية.

١ - ١

ولنبدأ بالمستوى الأول لهذه المادة: لدينا حاليا عدة أعمال تعنى بالمفهوم الماركسى للواقع الوطنى، وهذه المادة تقدم لنا تاريخا دقيقا لتطور هذا المفهوم وبالتالى لتطور حركة التحرر الوطنى، ولما يسمى أحيانا بماركسية الجهاز أو ماركسية الدولة (وتوصف أيضا بالماركسية الأوروبية) من ماركس إلى ستالين. إننى لا أعتزم هنا أن أكرر تفسيراتهم. ولكننى سوف أكتفى بعرض بعض الأمثلة الصارخة التى توضح كيف كانت الماركسية الأوروبية الكلاسيكية تمثل مشكلة للتحرر الوطنى.

ففى كتاب نشره المؤرخ الأرچنتينى جوستاف بيهوت حول المشكلة العرقية فى أمريكا اللاتينية. نجد على سبيل المثال عددا من الإشارات المثيرة إلى إنجلز وغيره.

وفى مقال نشر فى ٢٣ يناير ١٨٤٨ فى Deutsche Zeitung وآخر نشر فى فبراير ١٨٤٩ فى Neue Zeitung يناقش إنجلز حرب ١٨٤٧ بين الولايات المتحدة والمكسيك، فيشير بوضوح لا لبس فيه إلى الطابع الإيجابى للتوسع الأمريكى فى المكسيك على أنه يمثل امتدادا للحضارة الرأسمالية المتقدمة. وهو ما يمكن أن ينسحب على حرب فيتنام مثلا بعد قرن كامل.

ومن هنا تبدو القضية واضحة: نحن ناشرو الحضارة.

لقد فاق إنجلز ماركس فى نظرته إلى الحرب المكسيكية وغيرها من الحروب على أنها عمليات حضارية، وهو ما عبر عنه فى نص نشر عام ١٨٢٢ وأشار إليه لينين فى مجموعته عن "حركة التحرر الوطنى لشعوب الشرق" قائلا:

"فى رأيى أن المستعمرات نفسها، أى تلك الأراضى التى تقطنها شعوب أوروبية مثل كندا والكاب واستراليا، سوف تحصل على استقلالها. أما بالنسبة لتلك الدول التى استبعدت ببساطة والتى تقطنها شعوبها الأصلية مثل الجزائر والهند وهولندا والبرتغال وإسبانيا فإنه يتعين على طبقة البروليتاريا أن تتحمل مسئولية مؤقتة فى توجيهها بأسرع وقت ممكن إلى طريق الاستقلال".

ولسنا بحاجة إلى القول هنا إن إنجلز يشير إلى البروليتاريا الأوروبية حيث أن لم تكن هناك فى ذلك الوقت طبقة بروليتاريا فى الدول التى أشار إليها.

وهكذا أيضا تطرح مسألة التحرر الوطنى بنفس الطريقة: فسوف تقوم بالثورة نيابة عن الآخرين. وسوف نجد هذه السيكولوچية السياسية ذاتها فى نهايات الحرب الجزائرية تتحكم فى عمل بعض الجماعات المنتمية إلى اليسار المتطرف (Piedsrouges) الذين اعتقدوا أنهم بمجرد تحقيق الاستقلال بعد تضحيات ضخمة سوف يستطيعون تدريب هذه الثورة على تحقيق ما لم يكن بالإمكان تحقيقه فى ظل الظروف الطبيعية فى أوروبا.

ولذلك فقد كانوا يقولون بطريقة أو بأخرى: "إنكم أنتم الذين دفعتم ثمن الثورة ولكننا نحن الذين ينبغى علينا أن نصيغ إشكاليتها".

ولم يمر وقت طويل حتى وقع حدث غير مجرى الأمور. ففـي عـام ١٩٠٥ استطاعت دولة شرقية مثل اليابان التى أعيد اكتشافها، خصوصية وفردية تطورها أن تنتصر لأول مرة فى تاريخ الحرب النظامية على دولة أوروبية وهى روسيا.٠

هذا الحدث كان من شأنه إثارة تحولات ملموسة نحـو الجذريـة فـى كافـة الحركات الوطنية فى أرجاء العالم الاستعمارى. ولذلك يعتبر عـام ١٩٠٥ بحـق تاريخا حيويا فى عملية التطور الأيديولوچى لكافة الحركات الوطنية دون اسـتثناء. فقد كان النصر اليابانى هو العامل الشرقى الأول فى ظهور الأفروآسـيوية علـى سبيل المثال. وعلى هذا الأساس يمكن للمرء أن يفهـم هـذه الظـاهرة الغريبـة والحقيقية فى نفس الوقت.. أى ظاهرة النهضة السياسـية للشـرق، لأن المسـألة بالتحديد هى مسألة سيكولوچية سياسية أكثر منها مسألة عرضية تكتيكية.

وبعد ذلك جاءت أعمال لينين الوسيط الأساسى بـين الماركسـية الكلاسـيكية الأوروبية والشرق، والذى رحل فى وقت مبكر فلم يـتمكن مـن تبنـى القضـية وتطويرها إلى ما كان يرغب فيه حقا. لقد ساهم لينين بمجهود عظيم وخاصة خلال المؤتمرين الأول والثانى للكومينترن فى محاولة فهم وجهة نظر الشعوب المتخلفـة التى عارضته بعنف ووضوح لا لبس فيه.

ثم ظهر الصـراع الأيـديولوچى الحقيقـى بـين الماركسـيين الأوروبيـين والماركسيين الوطنيين فى الدول المتخلفة إبان المؤتمرات الثانية والثالثة والرابعـة للدولية الاشتراكية. وبعد ذلك حول برنامج الكومينترن فى عام ١٩٢٨. علـى أن أهم ما ينبغى الإشارة إليه هنا هو أنه فى تلك اللحظـة تشـكلت مجموعـة مـن "الأخرين" التى اضطلعت بمهمة تحقيق التزاوج بين الاحتياجات السياسية لحركـات التحرر الوطنى والحاجة إلى صياغة ما بدا بعد ذلك على أنـه أكثـر النظريـات السياسية والاجتماعية المتطورة فى الغرب (الماركسية). وسوف أقتبس هنـا دون ترتيب محدد سلسلة من النصوص التى تتراوح فى انتمائها بين اليمـين واليسـار. واليمينيون هنا يمثلهم تان ملاكا والحزب الشيوعى الإندونيسى الذى تطرف فى هذا المنظور (كما فعل العديد من الأحزاب الشيوعية الأخرى وخاصة فى مصر) إلـى

الحد الذى انتهى فى إندونيسيا بكارثة فعلية مثلما انتهى فى أماكن أخرى بهزائم فادحة.

أما اليسار فيمثله م. ن روى الهندى. ويمثل الوسط سلطان جالييف الذى لم يكن فى "القارات الثلاث" ملهما بقدر ما كان عاملا معجلا للتفاعل فى الفكر الماركسى الوطنى رغم أنه نسى تماما اليوم.

قال نان ملاكا مؤسس الحزب الشيوعى الإندونيسى فى المؤتمر الرابع للكومينترن عام ١٩٢٢ عندما كان يتحدث عن الوحدة الإسلامية:

"أولا: ما معنى حركة الوحدة الإسلامية؟ لقد كانت الوحدة الإسلامية فى الماضى معنى تاريخيا، بمعنى أن الإسلام كان خليقا به أن ينتصر على العالم أجمع بقوة السيف. أما اليوم فإن الوحدة الإسلامية لها معنى مختلف تماما. إنها الكفاح من أجل التحرر الوطنى طالما أن الإسلام يمثل كل شئ لكافة المسلمين. إن الإسلام ليس دينا فقط ولكنه دولة اقتصاد وزراعة وغيرها. هكذا فإن الوحدة الإسلامية اليوم تعنى الرخاء لجميع الشعوب الإسلامية أو الكفاح من أجل تحرير ليس فقط الشعوب الإسلامية وإنما أيضا الهندوسية واليابانية وغيرها من الشعوب الإسلامية المقهورة".

ورغم أنه ملاكا لم يقلها صراحة، إلا أن غيره من الحاضرين فى المؤتمر أشاروا إلى أن هذا المفهوم ينطبق أيضا على شعوب آسيا السوفيتية وآسيا الصينية. وقد انتهى ملاكا نفسه بالتأكيد على "الحاجة لمساندة حرب التحرير الوطنى التى يخوضها ٢٥٠ مليون مسلم ضد قوى الإمبريالية".

هذه ببساطة هى أكثر النظريات تطرفا فى اليمينية أو أكثر تعبير قومى عن محاولة الوساطة بين الماركسية وحركات التحرر الوطنى.

أما بالنسبة لنظرية الجناح اليسارى فهى - وإن كانت أكثر صقلا - إلا أنها كانت مختلفة أيضا تام الاختلاف عن الصيغ الماركسية الأوروبية. وقد طرح روى الهندى هذه النظرية على المؤتمر الثانى والثالث والرابع للدولة الشيوعية.

وسوف أستعرض هنا على سبيل المثال نصا أعيد اكتشافه مؤخرا، وتمت مراجعته بواسطة الكومينترن وهو يتضمن الفرضيات الأساسية التى طرحتها رؤى ونقد لينين، لها واقترح حل الوسط الذى اتفق عليه.

الفرضية الأولى: الرأسمالية الأوروبية تستمد قوتها فى المقام الأول ليس من الدول الصناعية الأوروبية بقدر ما تستمدها من ممتلكاتها فى المستعمرات.

النقد والتعديل: إن واحدا من أهم المصادر التى تستمد منها الرأسمالية قوتها هى التبعيات والممتلكات فى المستعمرات.

الفرضية الثانية: لن تنجح طبقة العمال الأوروبيين فى الإطاحة بالرأسمالية الأوروبية حتى يتم استئصال هذا المصدر (أى عائدات المستعمرات).

النقد والتعديل: إن الفائض الناتج عن استغلال المستعمرات هو الدعم الأساسى للرأسمالية الأوروبية. وطالما لم يكن بالإمكان حرمانها من مصدر هذا الفائض فلن يكون من اليسير على الطبقة العاملة الأوروبية أن تسقط النظام الرأسمالى.

هذه هى الفرضية الرئيسية، فهنا وضعت كافة الأوراق على المائدة. وهنا يتمثل – إذا أردت أن تعرف – المنبع الأيديولوچى للخط الصينى.

الفرضية الثالثة: إن الاستعمار الأجنبى الذى فرض بالقوة على شعوب الشرق قد حرم هذه الشعوب من النمو اجتماعيا واقتصاديا بنفس القدر الذى نمت به وتطورت الشعوب الأخرى فى أوروبا وأمريكا.

ولننظر الآن إلى سلطان جالييف الذى – كما أعتقد – وضع أساس ما أصبح بعد ذلك يسمى "بماركسية القارات الثلاث". فخلال فترة عمله كمساعد مفوض للقوميات فى عهد ستالين عام ١٩١٩ وبعد عزله من الكومينترن فى عام ١٩٢٣ لم يتغير الرجل رغم ما طرأ على صياغاته من تغيرات جعلتها أكثر جذرية.

ولنسمع أولا من الرجل وهو يتحمل المسئولية السياسية: ففى تقريره حول الثورة الاجتماعية فى الشرق الذى نشر فى عام ١٩١٩ بواسطة جهاز المفوضية للقوميات يستعيد سلطان جالييف الرؤية الأوروبية لثورة أكتوبر قائلا:

"إن تحويل ثورة أكتوبر هذه إلى ثورة اشتراكية عالمية ينظر إليه فقط على أنه انتقال الطاقة الثورية الروسية إلى الغرب. أى إلى هذا الجزء من العالم حيث تكون المتناقضات بين المصالح الطبقية للبروليتاريا من جانب وللبروجوازية من جانب آخر فى أكثر أشكالها حدة، وحيث تبدو بالتالى الأرض أكثر خصوبة لنمو الثورة. أما الشرق بسكانه الذى يصل تعدادهم إلى مئات الملايين من البشر المقهورين بواسطة البورجوازية الأوروبية الغربية فقد كان منسيا تماما".

لقد تجنب جالييف مسار الصراع الطبقى فى الشرق (هذا ما وصفته بتهميش العالم الثالث). ولم تكن مشكلة الثورة فى الشرق موجودة إلا فى عقول أفراد معزولين مثل م. ن. روى وسلطان وتان ملاكا.. كانت مفقودة مثل قطرات الماء فى بحر الثورة الهائج. فقد أدى الجهل بالشرق والخوف الذى أثاره دائما إلى رفض الاعتراف بقدرته على المشاركة فى الثورة العالمية. وهكذا يضيف جالييف قائلا: "إن التوجه المنفرد للثورة تجاه الغرب كان خطأ" ثم بعد ذلك فى عام ١٩٢٣ يعبر هذا الرجل عن نفسه فى عبارات أكثر راديكالية قائلا:

"إن الشعوب الإسلامية[٣] هى أمم بروليتارية. فهناك فارق ضخم بين الوضع الاقتصادى للبروليتاريا الفرنسية أو الإنجليزية ومثل هذا الوضع للبروليتاريا فى المغرب أو أفغانستان.. إننا نستطيع أن نؤكد أن الحركة الوطنية فى الدول الإسلامية لها خاصية الثورة الاشتراكية".

إن هذه الصياغات التى وضعها جالييف فى عام ١٩٢٣ والتى يمكن وصفها بأنها صياغات وقتية أو شخصية قد تكررت مرة أخرى فى نص معروف ألا وهو "بيان جيفارا" حيث نقرأ:

"ماذا تبقى لنا من دور نحن المستغلين فى هذا العالم؟.. لقد راقبت شعوب القارات الثلاث ڤيتنام وتعلمت من دروسها.. وطالما ابتزت الإمبريالية الإنسانية بالتهديد بالحرب، فإن الرد الصحيح هو ألا نخاف الحرب.. أن نهجم بقوة ودائما فى كل مكان.. وعندما ينتهك هذا السلام اللعين فماذا تكون مهمتنا إذن؟ أن نحرر أنفسنا مهما كان الثمن."

على أن أهم ما فى هذه الصيغة هنا قوله: "نحن المستغلين فى هذا العالم" وليس "نحن شيوعيو القارات الثلاث". أى نحن الذين يمكن اعتبارنا طبقة البروليتاريا فى الدول الغربية المتخلفة.

ورغم أن هذا النص قد صيغ فى عبارات مختلفة اختلافا طفيفا، إلا أنه يعبر فى جذوره عن نفس الفرضيات التى طرحها سلطان جالييف، ألا وهى أن الشعوب الإسلامية فى الشرق هى أمم بروليتارية. غير أن سلطان جالييف الذى يهتم أكثر من چيفارا بوجود الأمة قد أصر على صياغة أطروحاته فى عبارات وطنية. فكلمة "الأمة" كلمة تحظى باهتمام بالغ لدى الماركسيين المنتمين إلى الحركة الوطنية والذين اتجهوا إلى اليسار. ولكنها فى الوقت نفسه تعد أقل أهمية بالنسبة لهؤلاء الماركسيين مثل چيفارا الذين أخذوا الصيغ الثورية كنقطة انطلاق لهم فاندمجوا تدريجيا فى هذه الحركة الشعبية أو تلك. إنه اختلاف فقط فى المعالجة والتناول ولكن الجوهر يظل واحدا. إن چيفارا ليس سلطان جالييف، كما أن الماركسيين فى القارات الثلاث مثل الصينيين وغيرهم لا يتحدثون "بلغة چيفارا". ومع ذلك فما يقولونه لا يختلف فى أساسه. وباستطاعة المرء أن يشير إلى نصوص أخرى فى هذا الصدد. منها على سبيل المثال بيانات هوشى منه عندما كان يقود حركة الاحتجاج العنيفة ضد محاولة تجاهل المشكلة الاستعمارية وخصوصا فى عام ١٩٢٤ فى المؤتمر الخامس.

"إننى هنا لأوجه انتباه الشيوعية الدولية سواء أرادت أو لم ترد إلى حقيقة مهمة: هى أن المستعمرات موجودة، وأن على الثورة أن تجد حلا لمشكلة مستقبل المستعمرات إلى جانب الخطر الذى تمثله هذه المستعمرات.. رفاقى ولتغفروا لى جرأتى.. لماذا لا تنظمون تكتيكاتكم وقواكم بلغة ثورة المستعمرات؟.. إننى أستحثكم بكل قوة أن تأخذوا حذركم".

لقد قدم هوشى منه حديثا على أساس أنه تلقى تعليمه فقط داخل مدرسة الحزب الشيوعى الفرنسى. ومع ذلك ففى هذا النقاش فى المؤتمر الخامس الذى حذف منه دائما النص السابق لم يكن هوشى منه مهتما بشرح الفرضيات بقدر ما كان مهتما

بقوله: "نحن موجودون.. ولن تستطيعوا أبدا أن تتجاهلوا هذه الحقيقة حتى تنظروا في مشكلاتنا.. وإذا لم تفعلوا فسوف نستمر فى طريقنا.. وهو لم يقل: نختار طريقنا نحن. ولكنه كان يعنى بالتحديد: عليكم أن تفعلوا شيئا معنا يختلف عما كان يمكن أن تفعلوه وحدكم دوننا".

وأخيرا تنتهى هذه القصة الطويلة بتلك الأطروحة التى تضمنها برامج الكومينترن فى عام ١٩٢٨:

"إن تحقيق تحالف أخوى مناضل مع القوى العاملة من المستعمرات هو واحد من الأهداف الأساسية للبروليتاريا الصناعية فى عالم يتولى قيادة النضال ضد الإمبريالية".

وعندما ننظر إلى هذا النص الذى صيغ فى عام ١٩٢٨ ونقارنه بواقع اليوم فسوف نستطيع أن نتبين كيف اختلفت الأمور فى تطورها عما عرضه الكومينترن على المستوى النظرى بعد سبع سنوات من المناقشات والجدل المحتدم.

كذلك فإنه من المدهش حقا أن يتضح من خلال النقاش أن أقرب الرجال إلى رؤية سلطان جالييف كان ستالين، رغم أنه كان هو نفسه الذى أزاح فيما بعد أقرب الرجال إلى التصور الوطنى فى استخدامات الماركسية. ففى كافة نصوص المعاصرة.. وفى كل مناقشاته مع روى وسلطان جالييف الذى كان عدوه الأساسى يبدو الخلاف على المستوى التكتيكى أكثر منه على المستوى النظرى. وفى النهاية يتحدث ستالين باللغة نفسها، لكنه يتحدثها باسم أمته هو فى حين يتحدث الآخرون باسم ثورة قادمة فى أمم أخرى. وإذا عدنا للنظر فى هذه النصوص فسوف يتضح لنا كيف اقترب ستالين فى ذلك الوقت من التصور الوطنى للماركسية فى شكل يتعارض مع الفرضيات التى تبناها الكومينترن. ومما لا شك فيه أن هذا يرجع إلى حقيقة أنه كان قد بدأ يتحرك فى اتجاه الاشتراكية فى دولة واحدة أو الاشتراكية الوطنية.

١ - ٢ أما فيما يتعلق بالمرحلة الثانية للتطور الوطنى فيما بين الحربين فليس هناك سوى القليل جدا من المواد المتاحة. ويبدو أن الكومينترن كان قد دخل فى

سبات عميق فيما يتعلق بهذه المسألة. فقد أدت استراتيجيته المتذبذبة بين خطين رئيسيين – الطبقة فى مواجهة الطبقة والجبهة الوطنية – طبقا لمقتضيات النضال السياسى للبروليتاريا الأوروبية والدولة السوفيتية إلى وجود ماركس القارات الثلاث فى موقف تعذر الدفاع عنه.

الطبقة ضد الطبقة؟ هذا يعنى أن على المرء أن يضع نفسه فى صف البروليتاريا، سواء كانت موجودة أو شكلية، أو حقيقية، وأن يضع المرء البروليتاريا فى مجابهة السواد الأعظم من الشعب الذى يتشكل أساسا من سكان مرتبطين بالاقتصاد الزراعى.. بالفلاحة. وهو ما يعنى أيضا أن على المرء أن ينفصل عن هذه الجماعات أو هذه القطاعات من الطبقة أو الطبقات من البورجوازية الأصلية (أو كما يطلق عليها "البورجوازية الوطنية") التى لها مصلحة فى العمل ضد الإمبريالية. وهذا لن يؤدى فى النهاية سوى إلى مذابح الچيتو تماما كما حدث فى إندونيسيا وفى غيرها من دول القارات الثلاث.

الواقع إذن إن نتيجة هذا الخط الأول كانت حجب كل نشاط ماركسى له علاقة بحركات التحرر الوطنى.

الخط الثانى: الجبهة الوطنية – العالمية:

من الذى ينبغى عليه أن ينضم إلى الجبهة الوطنية؟ لقد حددت أحزاب الكومينترن قبل حلها تصورين يبدوان من على بعد خاضعين للنقد الجذرى:

التصور الأول: هو تصور "البورجوازية الوطنية". ولكن أين توجد هذه البورجوازية الوطنية؟ إنها فى الواقع كما أوضحت ليست فئة علمية ولكنها فئة چيوبوليتيكية عاملة، كان هدفها فى فترة ما يسمى بإستراتيچية الجبهة الوطنية حشد البورجوازية ككل (باستثناء قطاعات صغيرة جدا ارتبطت بالإمبريالية بصورة لم يكن بالإمكان إصلاحها) فى رباط مع الدولة الاشتراكية. وذلك فى إطار إستراتيچية عالمية عامة للنضال ضد الهجمة الإمبريالية. أو على الأقل، ومن الناحية التاريخية كان لهذين التكتيكين أثر فى إثارة أزمة أساسية داخل كافة الحركات الوطنية فى القارات الثلاث.

أما الصيغة النظرية الثانية فهى تلك المتعلقة "بالدولة الديموقراطية القومية" وقد تشكلت هذه الصيغة فى المؤتمر الأول للأحزاب الشيوعية والعمالية فى موسكو تلبية لاحتياجات الهند وإندونيسيا. وهى تعنى الدولة التى لا يتعرض فيها الشيوعيون للاضطهاد بحيث يستطيعون العودة للاندماج فى الإطار القومى بما يعزز ويقوى إمكانية الدولة القومية المستقلة تحسبا لما يحمله المستقبل. وكما سنرى فيما بعد؛ فقد أدى الجمود الذى وصل إليه الطريق الثالث، أو الانهيار الذى أصاب نظم الدول القومية المستقلة التى لم تفسح مجالا فى هذه المرحلة للثورة الاجتماعية إلى حرمان هذه التصورات العاملة من خاصيتها كتصورات، ولم يعد لها صلاحية عالمية.

ومع ذلك فإن أسباب إهمال هذه الفترة لا ترجع فقط للكومينترن، ولكنها ترجع أيضا لحركات التحرر الوطنى. فلم يحدث أن حققت ثورة ذات مضمون اشتراكى فى أى من دول المستعمرات نجاحا. ورغم أنه من الممكن أن نقول إن الخطأ كان خطأ الكومينترن، إلا أن الحذر واجب هنا. فمنذ عام ١٩٢٧ وإلى ما بعد ذلك كان الانفصال الحاد بين الثورة الصينية وبين الكومينترن قد اكتمل وتأكد على مستوى النظريات الأساسية. ومع ذلك فإن علاقات القوى فى ذلك الوقت لم تكن تسمح بنشوء دولة اشتراكية فى القارات الثلاث، وكان من الطبيعى إذن أن يتمخض ذلك عن استمرار ريادة أوروبا من الناحية السياسية والاقتصادية إلى جانب الناحيتين الثقافية والنظرية.

ومن جهة أخرى كانت دول القارات الثلاث تقدم أشكالا اجتماعية اقتصادية على قدر هائل من التباين والاختلاف فيما بينها. فلم يكن هناك شئ مشترك بين دول مثل الصين وبوليفيا. أو بين كوبا فى ذلك الوقت ومصر، أو بين جنوب أفريقيا والهند.. فهذه الوحدة لم تكن قد تعرفت على ذاتها بعد.. كانت لا تزال متفرقة تماما علميا وسياسيا وعاطفيا. ولم يكن هناك إلا القليل من الروابط أو الجسور بينهم. لقد عاشت ثورات هذه الفترة داخل إطار ما يوصف بشكل عام بالحوار مع العالم الغربى، ومع اليسار داخل هذا العالم الغربى بدأ الحوار.. فهى لم تستطع أن ترى

أبعد من ذلك إلا عندما تتدخل دولة مجاورة فتسمح بالتحالف بين الدول وحركات التحرر.

هكذا كانت هذه العوامل الرئيسية – فى فترة ما بين الحربين التى ضمنت استمرار الهيمنة الأوروبية وانهزام أو انعدام الثورات الاشتراكية والفرقة وعدم التواصل فى التضامن بين شعوب عالم المستعمرات التابع.. ثلاثة عوامل إذن هى التى أدت إلى ضعف النشاط النظرى فى فترة ما بين الحربين. ولسوف يكون عملا هائلا أن نسعى إلى معرفة ماذا حدث بالنبش فى النصوص والبحث عن ببليوجرافيا العديد من الأشخاص الذين وضعوا تجاربهم حتى نستطيع أن نكتشف كيف كانت الشعوب غير الأوروبية وغير الغربية تفكر. وما الذى دعاها إلى المزج بين كلمات مثل الحرية والتحرر الوطنى بشئ لم يكن له علاقة بهذه الكلمات أو بفلسفة اقتبست من العالم الغربى. وفى غياب مثل هذه النصوص سوف يكون من العسير للغاية أن نقدم شرحا دقيقا متعمقا للمعالجات النظرية لهذه المشكلات التى تطورت فى فترة ما بين الحربين. وفى النهاية فإن المادة كلها موجودة فى أيدى أجهزة الهيمنة والقمع للدول القومية والمستعمرة فى ذلك الوقت.

١ – ٣

المرحلة الثالثة: وتتعلق بالمعالجات الأولى لمسألة العلاقة بين الماركسية وحركة التحرر الوطنى بعد عام ١٩٤٥، وخصوصا بعد انتصاره الثورة الصينية التى كانت ولا شك أكثر ضمانا ومدعاة لثقة ماركسيى القارات الثلاث ولحركات التحرر الوطنى من الانتصار اليابانى فى عام ١٩٠٥.

فقد حدث فى هذا البلد المهم أن شيئين تأثر بهما جناحا الحركة الوطنية بطرق مختلفة قد امتزجا: التحرر الوطنى والثورة الاشتراكية، فقد كانت الصين أول نموذج ضحى ونتيجة حرب طويلة وصعبة فى بلد عظيم اتسمت الشعارات والصيغ النظرية وخطوطها بالتلقائية بقدر ما اتسمت بالخصوصية والحديد. ولذلك فقد كانت ضربة جبرية إلى السيكولوچية السياسية لشعوب الشرق. ولذلك أثرت هذه الظاهرة

على كل القوى على نطاقها الواسع. وحيثما درست تأثيراتها كان واضحا أن الصين كان لها نفوذ وتأثير حاسم وأنها أدت سواء بصورة سلبية أو بصورة إيجابية إلى تحول فكرى جذرى. إذ أنها دفعت الأحزاب البورجوازية المهمة فى هذه الدول إلى البحث عن بديل لليبرالية التقليدية. كما دفعت الماركسيين إلى البحث عن شئ آخر عزل الماركسية المرتكزة على فكرة "الطبقة ضد الطبقة" أو الجبهة الوطنية، ولذلك فإنه من المفيد للغاية دراسة الماركسية الصينية والنظريات التى تمخضت عنها.

وفى استطاعتنا أن نحدد ثلاثة اتجاهات مختلفة فى فترة ما بعد ١٩٤٥ – ١٩٤٩ داخل إطار مرحلة التطور النظرى:

١ – ٣ (أ): اتجاه الماركسية الأوروبية للماركسية الكلاسيكية المؤسسة، وهو الاتجاه الذى أعقب فرضية الكومينترن بأن "الثورة الأوروبية تحمل معها العالم" كما اتضح تماما فى العلاقات بين الأحزاب الشيوعية الإنجليزية والهندية وداخل حركات التحرر الوطنى فى شمال أفريقيا... إلخ. وفى الواقع فإنه كان من المتوقع أن تأتى الثورة من الغرب، بينما ينمو الكفاح المسلح فى الشرق. ورغم أن هذه النظرة تنطوى على تناقض إلا أنها لم تكن تمثل مشكلة أساسية بالنسبة للماركسية الكلاسيكية.

١ – ٣ (ب) : أما الاتجاه الثانى الذى حدده بالميرو توجلياتى Balmiro Togliatt] فقد أثار ما يسمى بـ Polycentrism. أى التعرف على الواقع القومى والاجتماعى والسياسى المختلف فى كل دولة، وبالتالى التعرف على الخطوط السياسية التى سوف تختلف تباعا فى كل دولة. ومع أن هذه المعالجة كانت معالجة واقعية عميقة، إلا إنها لا تزال معالجة سياسية استراتيجية كانت نتيجتها عدم التعمق بشكل كاف فى الجوانب النظرية. وقد نتساءل: هل كان توجلياتى مستعدا للذهاب إلى أبعد من ذلك لو لم يتعلق بدولة واقعية، حيث قيدته ألوان السياسية الإيطالية المتعددة حتى وفاته؟

على أى الأحوال فإن فكر توجلياتى يمثل أحداث التعبيرات وأكثرها تطورا عما يمكن تسميته بالصيغة النظرية القومية للعلاقة بين الماركسية والمسألة القومية فى أوروبا. فقد كان اهتمامه الأساسى يتركز على العلاقة بين الماركسية المؤسسة من جهة والحركات الاشتراكية الراديكالية ذات التوجه الاشتراكى الكلاسيكى أو الديموقراطى المسيحى.. أى تلك التيارات المختلفة المتباينة التى من خلالها يتم التعبير عن تجدد الفكر الاشتراكى والأيديولوجى الاشتراكية للعالم الأوروبى والغربى.. أى الفكر المسيحى والعمل الفلسفى فى العالم المعاصر.

لقد وصلت الصياغة النظرية إلى أبعد ما يمكن حتى كل من إيطاليا وبولندا حيث دخلت إلى المجابهة بين الماركسية والفكر المسيحى المتجدد إطار التطبيق العملى، رغم أنها لا تزال غير كافية.

١ – ٣ (ج) : المعالجة القائمة على أساس تصور "العناصر المكونة".

ولقد أمكن التمييز بين نوعين من المكونات داخل إطار كل حركة من حركات التحرر الوطنى: المكونات الداخلية Endogenous التى تحدد أكثر من غيرها خصوصية الصيغ التى تمخضت عن وحدة قومية كاملة أو ارتبطت بها. أما النوع الآخر فهو المكونات الخارجية أو الإسهام الخارجى للماركسية الأوروبية على المستوى النظرى، ولسنا نملك فى الوقت الحالى أية دراسة متعمقة حول العلاقة بين الخصوصى والعالمى، رغم أن هناك العديد من المشروعات التى لا تزال خاضعة للبحث.

١ – ٤

١ – ٤ (أ) : إن تطوير هذا الاتجاه الثالث يحدث فى مناخ مشحون تسيطر عليه ثورات التحرر الوطنى. وأود أن أعود إلى مشاكل السيكولوجية السياسية التى فى تحدد رأيى الإطار الذى يتكشف داخله التطور النظرى.

فالقراءة فى بيان جيفارا خليقة بأن تثير الدهشة لتركيبة النص ذاته. فهو يبدأ بالعودة إلى السنوات الإحدى والعشرين التى مضت منذ نهاية الحرب العالمية

الأخيرة، وبينما يقول المؤرخ الكلاسيكى على سبيل المثال: "إن الحرب قد انتهت فى عام ١٩٤٥ بهزيمة اليابان" فإننا نجد عند چيفارا منظورا آخر ورؤية مختلفة للتاريخ من الضفة الأخرى للنهر (ادجارسنو). فبالنسبة لشعوب القارات الثلاث لم يكن هناك سلام عام. وبينما لم تكن الحرب بالنسبة للمجتمعات الصناعية - فيما عدا اليابان - سوى حدث جاء وانتهى، إلا أن الحرب قد استمرت فى كل مكان. فهى مشتعلة فى ڤيتنام. كما كانت مشتعلة فى كوريا منذ سنوات قليلة مضت وفى اتجاه آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا والكونجو وأنجولا وموزمبيق وأرجاء أمريكا اللاتينية منذ انتصار الثورة الكوبية. الأمر الذى يفسر: لماذا يبدو مفهوم "السلام العالمى" بعد عام ١٩٤٥ بعيدا أو حتى غريبا بالنسبة لشعوب القارات الثلاث. فالسلام مع من؟ أو السلام إلى أى مدى؟ أو السلام بأى هدف؟

لقد استمرت وتصاعدت الهيمنة الإمبريالية فى مناخ من العنف الشامل الذى ساد العالم من أوله إلى آخره.

١ - ٤ (ب) : هناك عنصر ثان من عناصر هذا المناخ أو هذه السيكولوچية السياسية التى أعود إليها وهو يتعلق بالإحساس المتزايد بالخصوصية. ومن الطبيعى أن يكون هذا الشعور مؤكدا بين الجماعات القومية الراديكالية غير الماركسية أكثر منه بين الجماعات القومية الماركسية. غير أنه من الممكن الإشارة أيضا إلى أن معامل الخصوصية يكون أضعف فى التكوينات القومية الصغيرة أو المتوسطة الحجم، فچيفارا وكاسترو يفكران على مستوى أمريكا اللاتينية وأحيانا على مستوى قارى ثلاثى. ولكن من جهة أخرى عندما تكون الدولة التى تندلع فيها الثورة تتمتع بإمكانية عميقة فى المجال التاريخى الثقافى القومى، وخصوصا فى دولة مثل صين ماوتسى تونج، أو ڤيتنام فإننا نجد أنفسنا أمام تركيبة من الإحساس العميق بالخصوصية والإحساس الذى لا يقل عمقا بالحاجة إلى التحول الثورى الراديكالى، فهنا لم تعد الخصوصية القومية تحال إلى مرتبة ثانية، بل على العكس يتم التأكيد عليها باستمرار كما يتضح من خلال هذا النص لليوتشاوتش فى عام ١٩٤٥، أى قبل ١١ عاما من الثورة الثقافية والذى يقول فيه:

"إن النضال الفعلى للشعب الصينى مضافا إليه التجربة التى اكتسبها الشعب فى هذا النضال، سوف تؤدى حتما إلى تكوين نظريات عظيمة خاصة بنا تجعل من الأمة الصينية ليس فقط أمة قادرة على الاستمرار فى الحرب، ولكن أيضا أمة لها نظريتها الثورية العالمية الحديثة. إن فكر ماوتسى تونج هو النظرية التى تجمع بين الفكر الماركسى اللينينى العملى للثورة الصينية وبين الشيوعية أو الماركسية الصينية. أن فكر ماوتسى تونج ما هو إلا تطور جديد، أو نموذج لقومية الماركسية يثير الإعجاب. فهو صينى ولكنه فى نفس الوقت ماركسى تماما، إنه أقوى تعبير وأعلى مستوى نظرى للحكمة الصينية".

إننى أود بالفعل أن أؤكد على هذه النقاط وذلك بسبب اللبس الذى يعتمل فى عقول الكثيرين حول مكونات الماركسية الصينية. فهى ليست عالمية Cosmopoltanism وليست قومية، ولكنها تعد تحولا فى فرضيات الماركسية الكلاسيكية على أساس الإطار القومى الخصوصى لأمة الصين الشاسعة بهدف التوجه إلى المزيج المناسب بين التحرر الوطنى والاشتراكية. وليس خافيا على أحد أن الماركسية التى نشأت فى الصين لم تظل محبوسة داخل الحدود الصينية، ولكنها انتشرت واكتسبت تأثيرا ونفوذا من العديد من الدول، وخاصة فى القارات الثلاث. وهذا هو السبب فى أننا نجد فى الأمم الاشتراكية الصغيرة والمتوسطة مثل (كوريا وڤيتنام وكوبا الخ) إصرارا أساسيا دائبا على الحاجة على الاحتفاظ بذاتية وخصوصية الخط السياسى والقيادة الثورية وعملية التطور التاريخى ككل. ولا يتعلق الأمر هنا باستبدال هيمنة بأخرى، ولكنه على العكس من ذلك يتعلق بكفاح لا يتوقف مهما كانت العوائق من أجل الوحدة والتعاون ضد الانقسام لتوحيد القوى الاشتراكية على مستوى العالم. وفى الوقت الذى كان فيه العديد من "العالميين" يتخذون موقفا عنيفا يستهدف تعميق الانقسام الصينى السوڤيتى كان يبدو أن هناك فى ڤيتنام عددا متزايد من القوى الاشتراكية التى عملت بشكل ملموس من أجل تحقيق وحدة هذه القوى الاشتراكية.

٢ – جذور المشكلات وطبيعتها

إن جذور المشكلات الخطيرة جدا التى تنشأ عند دراسة العلاقات بين الماركسية وحركات التحرر الوطنى فى الغرب وفى القارات الثلاث لا يمكن اكتشافها إلا من خلال تحليل عاملين: أولا: الظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية التى نشأت فيها الماركسية فى دول القارات الثلاث. وهاتان المجموعتان من الظواهر متباينتان تماما من الناحية التاريخية.

٢ – ١ الظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية التى ظهرت فيها الماركسية فى أوروبا

٢ – ١ (أ) كانت نقطة البداية هى ظهور "الدول القومية المستقلة" ذات التاريخ الطويل وراءها من الاكتفاء الذاتى (شارل ديجول). تلك الدول التى كانت "بطبقتها السياسية" الخاصة كما قال جرامش Gramsci مؤسس وفيلسوف الحزب الشيوعى الإيطالى قادرة على التقدم والتراجع أو التوقف. وفى ذلك الوقت كانت فرنسا وإنجلترا وإسبانيا والبرتغال هى تلك الدول. غير أنه فيما بعد وفى ظروف تاريخية مختلفة أنضمت كل من ألمانيا وإيطاليا والسويد إلى قائمة تلك الدول، وأخيرا انضمت الإمبراطوريات الروسية والنمساوية والمجرية.

٢ – ١ (ب)

أما على المستوى الاقتصادى الاجتماعى: فقد حدث هناك هذا التحول من الإقطاع إلى الرأسمالية قبل تأسيس الرأسمالية من خلال الثورة الصناعية وفيما بعدها وقبل الهيمنة المتزايدة للجناح الصناعى للرأسمالية على الاقتصاد ككل، وقد أدت هذه العملية إلى ظهور المعارضة الأساسية فورا أو الإشكالية الرئيسية أمام الماركسية الكلاسيكية – أى البورجوازية فى مواجهة الطبقة العاملة، والرأسمالية فى مواجهة البروليتارية، هذا هو ما يمكن أن نسميه بالماركسية الكلاسيكية فى القرن التاسع عشر.

أما على المستوى الأيديولوچى فقد كانت الماركسية تمثل تركيبة من الاقتصاد السياسى الإنجليزى والفلسفة الماركسية الألمانية والفلسفة الإنسانية اليوتوبية

الفرنسية (لينين) أى أنها كانت تركيبة دقيقة ضمت أكثر الأفكار ديناميكية وراديكالية فى الفكر الأوروبى الحديث. وبهذا المعنى أيضا تبدو الماركسية بالنسبة لغير الأوروبيين حركة توفيقية بين أكثر الأفكار تقدما وإيجابية وراديكالية فى فترة التوسع الأوروبى التى كانت أيضا فترة الاستعمار.

لذا فقد كانت المهمة التاريخية المنوطة بالماركسيين الأوروبيين والتى تتضح من خلال هذا العرض للإشكالية هى إزاحة الهيمنة التى تمارسها طبقة على طبقة أخرى أو هيمنة جبهة طبقية على جبهة أخرى، وإن كان ذلك يحدث دائما داخل التكوين القومى الواحد. وبمعنى أدق لم تكن مشكلة التحرر الوطنى موجودة عندما كان ماركس يطور نظرية الاشتراكية العلمية: فقد كان ماركس يعنى أساسا بالصراع الطبقى داخل الدول القومية، سواء تلك التى كانت وحدة الدولة قد اكتمل بناؤها معا فيها أو تلك التى كانت لا تزال فى طور البناء.

٢ – ٢ الظروف التاريخية والبيئة الاجتماعية لظهور الماركسية فى القارات الثلاث:

على الضفة الأخرى من النهر يختلف الموقف تماما.

٢ – ٢ (أ) موقف التبعية: نشأت الماركسية وتطورت هنا ليس من خلال فترة الرأسمالية الكلاسيكية، ولكن فى فترة الرأسمالية الاستعمارية والإمبريالية – وهى ليست شيئا واحدا على الإطلاق. فلم يكن الإطار الذى نشأت فيه الماركسية إطارا لنظام رأسمالى يعمل داخل حدود قومية موجودة، ولكنها نشأت فى عالم تسيطر عليه الرأسمالية وهى فى أوج انتشارها وتحركها تجاه إخضاع بقية العالم أو عالم المتخلفين للنموذج الغربى.

هكذا يمكن عرض الإشكالية الأساسية بوضوح تام. فكيف لهذه المناطق أن تنسلخ عن السيطرة الأجنبية، أن تحرر نفسها كأمة، وأن تعتبر نفسها دولة قومية مستقلة، ثم تناضل داخل حدود هذه الدولة من أجل وجود توجه شعبى ديمقراطى يكون هدفه فى النهاية الثورة الاشتراكية؟

لقد كان البيان الشيوعى لعام ١٨٤٨ موجها إلى جمهور معين، وهنا لابد من القول إن مسألة الجمهور مسألة أساسية بصورة مطلقة لفهم أى نص نظرى، وفى هذه الحالة كان الجمهور هو الطبقة العاملة الأوروبية التى "لم تكن تملك شيئا تفقده غير سلاسل قيودها وعالم تفوز به". (مانيفستو چيفارا).

هذه وثيقة على جانب كبير من الأهمية رغم أنها خلت من آثار وثيقة ماركس إذ أنها تتحدث عن "نحن" المستغلين فى هذا العالم وليس "نحن" الطبقة العاملة فى القارات الثلاث. فهذا النص قد وجه إليه الجماهير العامة ككل وليس فقط إلى الطبقة العاملة. وهناك البعض ممن يعتقد أن هذا التوجه غريب على الماركسية. ولكن المسألة فى واقع الأمر هى ليست مسألة التاريخ المختلف اختلافا بالمعنى المؤقت رغم أنه ليس اختلافا بالمعنى التاريخى الطويل.

إن موقف التبعية ومستلزمات التحرر القومى من الهيمنة الإمبريالية على المستوى السياسى والاقتصادى والعسكرى والثقافى يتم التعبير عنه من خلال مستلزمات العمل الشعبى أحيانا أو النضال الثورى المسلح الذى يشكل فيه الفلاحون الجماهير الفعالة، بينما تتولى القيادة الطبقة العاملة وطبقة المثقفين الثوريين.

٢ – ٢ (ب) أما على المستوى الاقتصادى الاجتماعى فنحن نتعامل مع تكوينات اقتصادية اجتماعية غير كلاسيكية.

١ – **البناءات التحتية**: كانت عبارة عن نظم رأسمالية ونظم مشوهة سابقة على الرأسمالية، وهو هذا القطاع المتطور الذى اضطرته حقبة الاستعمار إلى التعامل مع العالم، ولكنه تعامل أيضا مع الدول القديمة التى كانت تسيطر على الريف وجماهير الفلاحين وأنواع أيديولوچياتهم الظاهرية والباطنية.

ولقد كانت هناك إشارة إلى "نماذج آسيوية من الإنتاج" وإلى "مجتمعات هيدروليكية" أو إلى ما يطلق عليه سلطان جالييف اسم "البيروقراطية الإقطاعية" و "الإقطاع الشرقى" ... كانت تلك تكوينات اجتماعية مبهرة أعطاها علم الاجتماع المعاصر اهتماما كبيرا.

ومع ذلك فإن هناك شيئا وحيدا يبدو مؤكدا: فخلال القرنين التاسع عشر والعشرين لم تكن هناك دولة من دول القارات الثلاث تتمتع بنظام رأسمالي متجانس مثل هذا النظام فى أوروبا.

ومن جهة أخرى كانت هناك عدة دول تتمتع بنظام اقتصادى اجتماعى رأسمالى، رغم أنه اختلف تماما عن الرأسمالية الغربية. فقد كان يتكون فى معظم الحالات من قطاعين: الموانئ والمدن الحدودية المعرضة للتأثير الغربى المباشر والمناطق النائية التى تأوى جموع الفلاحين، أما فى غير ذلك فقد نشأ ما يسمى باقتصاد المقاطعات وسط الشعوب الأصلية أو المهاجرة حديثا، وفى حقيقة الأمر فإنه لا يمكن القول أن هذه الدول كان لها بناء إقطاعى، ولكنها كانت دول ذات بناء ما قبل رأسمالى. أو بمعنى أكثر دقة فإنها بناءات رأسمالية متخلفة من النمط الاستعمارى ويسيطر عليها القطاع الزراعى. وأنا أشير هنا بالطبع إلى وحدات كلية مهمة مثل الصين ومصر والهند وتركيا والمكسيك وإيران. فهى دول ذات كثافة ديموجرافية عالية ولها تميزاتها الاجتماعية. أما فى تلك الدول التى أوجدها الاستعمار فقد سمحت الكثافة الديموجرافية المنخفضة بالانتشار السريع جدا للتجانس. ولم تكن هناك سوى منافذ قليلة للمقاومة حتى على المستوى الاقتصادى.

٢ – **البناءات الفوقية:** لقد تحدثنا عن العناصر المكونة للماركسية. غير أننا فى دول القارات الثلاث نواجه تجمعا متباينا للغاية من العناصر والمكونات الأيديولوچية التى يلعب فيها الدين دورا مهما للغاية. وخصوصا عندما يكون المعنى ديانات سياسية أكثر منها ديانات تتعدى الزمان in temporal مثل الإسلام.

وهنا ينبغى علينا أن نقول إن هذا هو السبب فى أن الدراسات النقدية لأيديولوچية الدول المستقلة عادة ما ترجع إلى إمكانيات الإسلام وقدراته، وليس إلى البوذية أو الكونفوشية أو اليابانية.. الأيديولوچيات الظاهرة سياسية ودينية فى ذات الوقت والأيديولوچيات الضمنية، أى العادات والتقاليد التى تدفع جموع الفلاحين إلى التعلق بجوهرها العميق ورفض كافة البدائل.

وباستطاعتنا أن نسميها الأيديولوجيات القومية التى يرتكز تأثيرها فى أنها تجعل مجموعة معينة من الشعوب تتعلق بهويتها ووجودها فتحقق الدوام لنفسها وتشكل ذاتها كتكوين قومى مستقل، غير أن القضية هنا بالطبع هى قضية تلك الإشكالية التى لا تزال موضع جدل ساخن بين الماركسيين، أو هذا الشك العظيم تجاه كل ما يشم فيه رائحة "القومية".

لقد اتسعت أصداء فكر ماوتسى تونج إلى الحد الذى أظهرت فيه بوضوح أن الماركسية فى القارات الثلاث تستلزم إحساسا عميقا بالقومية التى تكون قادرة، ولهذا السبب بالتحديد، على إحداث التحول المجموع الذى ينتمى إليه هذا الماركسى.

وهناك نصان من مصدرين مختلفين يوضحان هذا الأسلوب فى رؤية الأشياء.

أولهما: ماوتسى تونج حيث يقول:

"إن أى فرد يريد أن يعرف شيئا لن يكون باستطاعته أن يعرفه دون الاتصال بهذا الشئ، أى دون أن يعيش ويعرض نفسه للممارسة العملية فى البيئة الفعلية للظاهرة، وعندما يستطيع المرء أن يكتسب المعرفة النظرية من خلال الممارسة فعليه أن يعود مرة أخرى إلى الممارسة.. فليس هناك فى العالم أكثر راحة من هذا الموقف المثالى أو الميتافيزيقى الذى يسمح لك بكتابة أية فكرة تطرأ على ذهنك دون الاطلاع على الواقع الموضوعى ودون إخضاع نفسك لضرورات هذا الواقع".

ثانيهما: فيدل كاسترو يتحدث عن لينين فى جامعة هافانا: يقول:

"وماذا عن لينين؟ فلنفترض مثلا أن لينين كان قد ولد فى أواخر القرن الثامن عشر.. حسنا. كان من الممكن ألا يكون فى استطاعته وقتئذ أن يطور النظريات التى توصل إليها وهو يقود البروليتاريا الروسية ويقوم بدور المترجم الروسى للماركسية، وذلك لأن الماركسية ذاتها لم تكن موجودة فى ذلك الوقت، وبالتالى إذا افترضنا أن ماركس ولد فى منتصف القرن الثامن عشر، فربما كان قد فعل ما فعله ڤولتير وديديروت وجميع المثقفين الآخرين لأنه لم يكن باستطاعته أن يكون مفكرا

لطبقة ليس لها وجود ولا مخترعا لمذهب ثورة ليس بالإمكان تحقيقها. وهكذا فإن الثورات لا تخلق فى أرواح البشر..."

هذان النصان ليسا متشابهين بأى حال، ومع ذلك فإن نقطة اختلافهما هى ذات الإشكالية، كما أنهما يتحركان فى الاتجاه نفسه.

إننا نعيش الآن فى مرحلة وصلت فيها الظروف التاريخية والأيديولوجية فى القارات الثلاث إلى مستوى الخطر. إنها مرحلة الأزمة الثورية، ولقد كان العديد من ماركسيى القارات الثلاث يعتقدون حتى اتخاذ قرار تدمير فيتنام منذ ثلاث سنوات بالقصف الشامل أن "القومية التقدمية" (إذا جاز تسميتها كذلك) – أى إنشاء الدولة المستقلة وتحولها نحو الجذرية وانعطافها فى الاتجاه الشعبى واستعادة هويتها – هو احتمال حقيقي. ومع ذلك فقد رأوا دائما أن الوضع الأمثل هو ذلك الذى تنغمس فيه الثورات الوطنية في الاشتراكية كما حدث فى الصين وفيتنام ومنغوليا وكوبا. ولقد اتخذت هذه النظرية القومية للمستقبل الاشتراكى من المبدأ الماركسى الخاص بالخصوصية التاريخية أساسا لها.

لقد تغير كل شئ منذ أن أصبحت الولايات المتحدة القوة المهيمنة الأساسية فى العالم. ولسنا بحاجة إلى الإسهاب فى تفصيلات هذه النقطة. ولكننا نقول إنه فى مواجهة هذا التطور لم يكن باستطاعة جناح الاحتمالية فى ماركسية القارات الثلاث ببساطة أن يتمسك بمواقف قومية راديكالية بعد ذلك خاصة إذا أخذنا فى الاعتبار ظاهرة تصعيد العنف.

وسواء أردنا أو لم نرد فإن القوى تتجمع وتحتشد حول نضال المقاومة والثورة الشعبية... حول الفكر الاشتراكى والعمل الاشتراكى.

ومع ذلك فلن يحدث فى وقت من الأوقات أن تركت المبادرة أو القيادة للثورات الرومانسيين وذلك لأنه عندما يكون الأمر متعلقا بالثورة تكون الأولوية دائما للبعد السياسى. وإذا كان باستطاعتنا أن نرفض النهاية التاريخية للاحتمالية فى القارات الثلاث... تلك الاحتمالية التى كلن لديها من الوقت ما مكنها من التبلور فى نظريات إلا أنه فات أوان العودة بحياتنا إلى الوراء.

٢ – ٣ جدلية الإشكاليتين وانعكاساتهما المنظورة:

بإمكاننا أن نلاحظ على المستوى السياسي صعود "الدولية الذاتية "internationalism subjective" ولكننا نستطيع أيضا أن نلاحظ نشوء دولية ذاتية شرقية جديدة ذات توجه صيني، وذلك رغم أنه من الحقيقي أيضا أن الدوافع القومية تعد من العناصر العميقة المستمرة فى تكوين ماركسية القارات الثلاث. وهناك رفض مبدئى بقبول أى اتجاه جديد يمكنه أن يحل محل الاتجاه التاريخى الذى كان دائما اتجاها أوروبيا – أوروبيا وسطيا. وفيما يتعلق بمستقبل الثورة فإن الفرضية الاستراتيجية قريبة جدا من بعضها البعض، إن لم تكن متشابهة تماما. ومع ذلك فإن تطوير هذه الفرضيات الاستراتيجية العظيمة وتوجهاتها وتطبيقاتها المتكاثرة فى الجماعات القومية الإقليمية المقاربة لا يزال متباينا أشد التباين. حيث أن مستلزمات الوحدة السياسية في مواجهة الإمبريالية تعد عاملا رئيسيا يدفع الزعماء السياسيين الماركسيين فى هذه الدول إلى رفع شعار النضال الثورى القومي. إن الخط الاستراتيجى المركزى لماركسية القارات الثلاث ليس على المستوى النظرى هو نفسه فى كل حالة.. فهو يتحول على مستوى العمل السياسى وعلى مستوى النضال ضد الإمبريالية... هذه هى الحقيقة الأساسية اليوم.

٢ – ٣ (ب) : أما على المستوى النظرى فإنه إذا كانت الماركسية توفر الإطار العام للأيديولوجية السياسية والفكر الاشتراكى للحركات الراديكالية فى القارات الثلاث فإن الماركسيين فى هذه الدول كانوا يدركون تماما عدم كفاية الجهاز المفاهيمى الذى طورته الماركسية فى القرن التاسع عشر بشكل جوهرى وجذرى، فقد فضل العديد منهم أن ينظروا إلى الماركسية على ما هى عليه... أى على أنها منهج التطور التاريخى والتحولات التاريخية أو على أنها فرضية علمية تمثل نقطة تحول. Appoint of departure. أما المشكلات والحقائق فهى شئ آخر.

وهكذا فإن المنظرين الماركسيين للقارات الثلاث لا يستطيعون الاعتراف بالفرضيات النظرية العلمية التى أقرها الماركسيون الغربيون. فهم مدينون لأنفسهم أولا : خبراتهم فى تطبيق أسلوب ومنهج الماركسية على واقع دولهم الخاصة.

٣ – وظيفة الماركسية فى القارات الثلاث

٣ – ١ متطلبات أيديولوچية معينة

قام العديد من المفكرين فى الآونة الأخيرة بمحاولات لتحديد وظائف الماركسية. وطبقا لهذه المحاولات فإن الماركسية بالنسبة للحركات الوطنية فى القارات الثلاث يمكنها أن تتصدى لثلاث مهام:

١ – الأهمية الحاسمة للصراع من أجل السلطة.

٢ – الطابع الأساسى للبناء الاقتصادى (وبقدر ما تعد كل من "التنمية" و "النمو" مفهومين مختلفين تماما، فإن بناء موقف سيارات فى دولة متخلفة ليس له علاقة بالتنمية فى هذه الدولة... الخ).

٣ – إظهار حقيقة أن مصالح وآمال الطبقات والمجموعات الاجتماعية الموجودة فعلا هى التى تشكل الأفكار.

الماركسية إذن فى القارات الثلاث تتصدى لهذه القضايا الثلاث وتقدم الصياغات لها.

وفى رأيى أن هذا التحليل يفتقد للبعد القومى، وهو ما يعنى مساهمة مصالح وآمال الأمم والدول القومية فى تشكيل الأفكار القومية، وأعتقد أن هذا الأمر له أهميته الخاصة جدا. ففى العديد من دول القارات الثلاث يلحظ المرء اهتماما بالطابع القومى للماركسية، فهو دائما يكون أول ما يؤخذ فى الاعتبار على الأقل بين المفكرين الماركسيين فى هذه الدول، وليس بوسع المرء أن يجده على الإطلاق محالا إلى المرتبة الثانية.

وهناك نقطة ثانية تزيد من طمأنة ماركسيى الغرب. فمن خلال نفس العملية التى يصل من خلالها زملاؤهم من ماركسيى القارات الثلاث إلى إدراك عدم كفاية الجهاز المفاهيمى للماركسية الكلاسيكية، يصلون أيضا إلى نتيجة مؤداها أن الماركسية الكلاسيكية هى فى الوقت ذاته حجر الزاوية فى الفكر الغربى، أو

الوسيط الوحيد الممكن الذى يستطيع أن يفتح الطريق إلى ما يعتبرونه مشروعا طويل الأمد وهو مشروع إعادة صياغة الفكر الاشتراكى بلغة علمية حقيقية، وهكذا فهم ينظرون إلى الماركسية على أنها نقطة البداية الوحيدة للعالمية الإنسانية والعلمية. لماذا هذا إذن؟

٣ - ٢ أوجه قصور الأيديولوچيات غير الماركسية وعدم كفايتها

٣ - ٢ (أ)

إن الفلسفات الذاتية والروحانية (بما فى ذلك كافة الأديان وخصوصا أديان دول القارات الثلاث) هى فى حقيقة الأمر أيديولوچيات جامدة غير دنيوية (غير زمنية) لا تتضمن حلولا لمشكلات البناء الاقتصادى والسلطوى ولا توحى بتأثير البناء التحتى على تشكيل الأيديولوچية.

٣ - ٢ (ب) الفلسفات والأيديولوچيات التى تتمخض عما اقترح تسميته بالفكر الديموقراطى الليبرالى المحافظ (فى الدول الأنجلوساكسونية وألمانيا والدول الإسكندناڤية الخ) على عكس الدول الراديكالية الليبرالية (أساسا فرنسا فى عهد الموسوعيين والدول الدائرة فى فلكها). ولا يبدو محتملا على الإطلاق إلا فى القليل النادر أن تكون الإيجابية والإمبيريقية قادرة على حل المشكلات الرئيسية للحركات الثورية القومية فى دول القارات الثلاث، ثم ألم يكن قبول التجربة المعطاة دون نظرية سببا فى هزائم لا تحصى؟ !

٣ - ٢ (ج) وأخيرا الفلسفات التى سوف أطلق عليها اسم السينكريتية الحديثة وخصوصا البنائية والدوجماتية الماركسية... إلخ، هذه النظريات أصبحت "موضة" بين بعض الطبقات الراقية فى القارات الثلاث. ولكنها ليست أكثر من موضة... فالماركسيون فى هذه الدول يدركون بوضوح أن مشكلة الصراع من أجل السلطة وهى مشكلة حركة أولا وقبل كل شئ ليست لها علاقة بأى من تلك الأشياء التى تقلل من شأن الديناميكية الاشتراكية وتسعى إلى تجميد الواقع فى قوالب بنائية هى - إذا جاز القول - غير زمانية temporal وتاريخية.

هذه الأنماط الثلاثة من الفلسفة والأيديولوچية تشترك فى طابعها الجامد. فالبعد التاريخى أو هذا العمل الهادف فى التاريخ – ولا نقصد الإرادية العاطفية، بل نقصد تلك الإرادية القائمة على تحليل موضوعى للأوضاع الأولية (المبدئية) وإطار التحرك التاريخى ليست موجودة، فنحن لا نجد دائما سوى تحليل مفصل، ولكنه تحليل لا يؤدى مطلقا إلى العمل الفعال، ولهذا السبب الذى يعد سببا أساسيا تظل الماركسية الكلاسيكية هى الأداة المفضلة كوسيط نظرى بين ضفتى النهر.

٣ – ٣ قوة تأثير الماركسية

تبدو الماركسية بالنسبة للماركسيين فى دول القارات الثلاث، ومن خلال تنوعها الطيفى الواسع على أنها الأداة المميزة المؤهلة للوساطة، فضلا عن فعاليتها المؤثرة لأسباب عديدة.

٣ – ٣ (أ) فهى قبل أى شئ منهج تحليلى ثاقب له القدرة على كشف التكيف المتبادل بين البناءات التحتية والبناءات الفوقية، وهى كذلك منهج مرن؛ بمعنى أن الماركسيين لا يشعرون بأنهم مقيدون بفرضيات هذا الحزب أو الدولة أو ذاك.

ولقد مكن هذا المنهج ماركسى هذه الدول من الدخول فى علاقة قوية جدا مع التراث الثقافى التقليدى. ولذلك فهم يجدون فى الماركسية إمكانيات للمناورة الفعالة وللاستجابة المفيدة لمقتضيات العمل من جهة قدرة الإمبريالية المهيمنة على الحركة والاختراق.

٣ – ٣ (ب) وثانيا: إن الماركسية تزودهم بأغنى وأوفر بداية نظرية ممكنة عن طريق البنائية الوراثية، التى وصفها لوسيان جولدمان بصورة مفصلة لدراسة الواقع الخصوصى للوحدة القومية كبناء. ولكن فى إطار منظور ديناميكى يعتمد على المبدأ الماركسى للخصوصية التاريخية، ولقد تم تطوير كل ذلك بصورة نموذجية فى الخيال الاجتماعى لرايت ميل.

٣ – ٣ (ج): كذلك فإن الماركسية توفر ما سوف أطلق عليه اسم الفلسفة الإنسانية الإيجابية، وليست تلك الإنسانية المتحررة، فالعديد من النصوص التى

كتبت فى ظل التأثير المادى الملموس تتحدث عن اشتراكية الذرة والفقر، ومن خلال هذه النصوص نستطيع أن نرى بوضوح أخلاقيات الماركسيين فى دول مختلفة ومتباينة مثل الصين وكوبا وفيتنام وأفريقيا... إلخ إنها هنا أسلوب لمعالجة عملية التحول الاجتماعى ليس من خلال الإنتاجية وأخلاقيات المجتمع الاستهلاكى (اشتراكية الفريچدير) ولكن من خلال الإنسان الذى يعد هنا أثمن وأغلى رأسمال (نقطة التحول). إن مانيفستو القارات الثلاث الذى نشر فى هافانا فى عام ١٩٦٦ بالإضافة إلى العديد من النصوص المهمة من فيتنام وتنزانيا وغيرهما) يعطى لنا البرهان الذى يؤيد وجهة النظر هذه.

٣ – ٣ (د) وأخيرا فإن الماركسية لا تبدو فى هذا المجال على أنها المذاهب أو اللاهوت الأسمى للماركسيين الأوروبيين والتى تعرضت فيما بعد للنقد. ولكن على العكس من ذلك تبدو على أنها إسهام يثرى ميدانا من التجربة المتنوعة العميقة الثرية المثيرة للجدل. أو كمجموعة من الأفكار التى يتعين نقدها دائما من خلال المنهج الماركسى. إنها توفر إمكانية الحركة الذاتية الاستقلالية والمرونة العاملة التى تعد أعظم بكثير مما تستطيع أن تقدمه أية فلسفة صورية.

ولكن ماذا تصبح الماركسية من خلال كل ذلك؟

٤ – تطور مفهوم الماركسية

يستطيع المرء أن ينظر على الماركسية من زاويتين: إما على أنها مذهب كلى متجانس ولذلك فهى مذهب موحد. أو على أنها أسلوب يمكن أن نجد فيه عناصر علم الاجتماع والعقيدة والفلسفة، وأضيف أيضا علم المنهج.

٤ – ١ نقد مكونات الماركسية

٤ – ١ (أ) علم الاجتماع وعلم المنهج

إن أهم ما يتضح أمام ماركسيى القارات الثلاث هو علم الاجتماع وعلم المنهج. فهم يدركون أن ماركس لم يضع نظرية لأساليب الإنتاج ولا هو قدم صورة عالمية، ولكنه درس تكوينا اقتصاديا اجتماعيا واحدا (الرأسمالية الأوروبية)

إلى جانب التحول من الإقطاعية إلى الرأسمالية بأسلوب نموذجي. وفى دراسة هذا العمل يستطيع المرء أن يجد مبادئ علم المنهج بتطبيقاته العالمية. إننا ننظر إلى هؤلاء المفكرين والمنظرين الذين قدموا عملا نموذجيا حول نقطة معينة سمحت لهؤلاء الذين يعيشون مشكلات أخرى أن يستمدوا منها طريقة ومنهجا للعمل، أو أن يضعوها وجها لوجه أمام واقع آخر.

ولذلك فإن إسهام الماركسيين الكلاسيكيين لا غنى عنه على مستوى علم الاجتماع والمنهج بالنسبة للماركسيين فى دول القارات الثلاث. وذلك رغم أن المشكلة بالنسبة إليهم تختلف تماما فى طبيعتها. وبهذا المعنى لا تكون الماركسية (آخر) إنها هى ذاتها طالما أنها لا ينظر إليها أساسا على أنها مذهب ولكن كأداة للتحقيق أو كعقل مستكشف باحث.

ولننظر بدقة إلى بعض المشكلات، مشكلة تصور "البورجوازية الوطنية". على سبيل المثال التى أدى نقدها إلى تخطى هذا التصور بتصور الطبقة وجهاز الدولة... دور ووظيفة طبقة الفلاحين الذين يختلف تماما دورهم فى القارات الثلاث عنه فى أوروبا ماركس. نقد دور طبقة البروليتاريا كفئة اجتماعية فى علاقتها بالجماهير الشعبية المعدمة تماما. ثم المحاولة الأكثر عمقا وتفصيلا للتمييز بين أساليب الإنتاج من تلك التى قدمت إلينا على أنها جاءت من عند ماركس. وهو تصور طبقة المتعلمين. وإنه لمن المدهش حقا أن نرى التأثير الضمنى لفكر جرامش على نظرية الحزب. فلم تعد طليعة الطبقة العاملة وحدها هى التى يقدر لها أن تفتش فى هذا الواقع وتبحث فى تحولاته.. ولكن كانت هناك أيضا العقلية الجماعية لجبهة القوى الشعبية تحت قيادة الطبقة العاملة.

٤ – ١ (ب) الأيديولوچية

ليست هناك أيديولوچية لا تكون ملكا لجهاز أو دولة. رغم أن وظيفتها فى الوقت نفسه هى حشد الجماهير حول هذه القوى. والماركسيون فى دول القارات الثلاث يمتلكون على المستوى الأيديولوچى ما اعتبره اتجاها صحيحا للغاية للإفراط فى الاهتمام بعامل الثقافة والثقافة القومية وليس فقط بالعامل الأيديولوچى.

أما بالنسبة للتيارات اليمينية فإن البورجوازيين الأصليين يؤكدون على العامل الثقافى من وجهة نظر التقاليد الثقافية المحافظة. فى حين يرفض الماركسيون من جانبهم التركيز على الجانب الأيديولوچى فى الخصوصية الثقافية القومية مثلما يفعل "الثقافيون" عندما يعطون الأولوية للعوامل الجامدة.

ولكنهم يركزون على الخصوصية التاريخية لكل أمة كوحدة اجتماعية. فمصر مثلا على المستوى التاريخى الاجتماعى ليست ڤيتنام. وبالتالى فإن احتمالات التطور والثورة وإيقاعها سوف يكون مختلفا تماما.

٤ – ١ (ج) الفلسفة

هنا نواجه مصاعب جادة. فالمشكلة هى أن المادية الفلسفية الأوروبية التى استمدت منها الماركسية إلهامها الفلسفى لا تتفق مع التقاليد الفلسفية لكافة الوحدات الثقافية فى القارات الثلاث. ورغم أن هناك بكل تأكيد تقاليد مادية فى الصين وفى البوذية وأيضا إلى حد ما فى الفلسفة الإسلامية إلا أننا نجد هنا وحدات ذات أيديولوچية وطابع دينى يختلف عن المادية الصارمة. وفى حين أن الأيديولوچية الكامنة لجماهير الفلاحين لا تزال أيديولوچية دينية، إلا أن العامل الإمبريالى هنا لا يزال عاملا مسيطرا فى أوقات الأزمات.

وأعود إلى تان مالاكا وتعليقه على الوحدة الإسلامية حيث يقول: "إن العديد من قادة الماركسيين فى دول القارات الثلاث قد اعتبروا أن أحد العوامل الرئيسية لهزيمتهم يكمن فى حقيقة أنهم لن يستطيعوا تكوين أحزاب اشتراكية ثورية تكون قادرة على الجمع بين الجذور الثقافية القومية والبعد الدينى فى صيغة وإطار عام وأسلوب عمل ومنهج ماركسى. ولا تزال هذه القضية مثارة بكل جديد، فى إندونيسيا إلى جانب العالم الإسلامى والعربى بأكمله، وفى أفريقيا والهند وأمريكا اللاتينية.

متناقضات ومشكلات:

٤ – ٢ (أ) الوسطية الأوروبية

لقد ناقشنا هذه القضية بالفعل وبصورة مفصلة فى مكان آخر. وعندما سأل بعض الزعماء الماركسيين أنفسهم فى عام ١٩٦٠ عما تبقى من المبادئ العالمية

الليننية الماركسية بعد تفرغها إلى نصوص صينية وفرنسية وروسية كان عليهم أن يعكسوا السؤال ليكون: ماذا كان سيتبقى من الماركسية لو أنها فرضت كنموذج على واقع لا تتصل به؟.

إن الإجابة على هذا السؤال سوف تكون شهادة للفشل، غير أن هذا الخطر قد أصبح اليوم خطرا ثانويا بالنظر إلى الثورات على مدى القارات الثلاث التي إما أنها ثورات اشتراكية أو أن الأيديولوچية الاشتراكية هي القوة المحركة والفعالة لها.

٤ – ٢ (ب) الانحراف القومي

إن النظرة القومية هي بكل تأكيد نظرة أساسية حيوية لطرح بيان الإشكالية وتحقيق الكفاية التطبيقية، ولقد أوضحت كيف أن النظرة القومية يمكن أن تنقلب إلى اتجاه رجعي محافظ (تركيا – إندونيسيا). والواقع أنه لا يمكن اللجوء إلى العامل القومي إلا في لحظتين فقط: لحظة القوة على التأثير، ولحظة التنظير الإستراتيچي طويل المدى.

إن الكتابات الأمريكية عن الدول التابعة دائما ما تشير إلى العامل الديني القومي على أنه المنظور الوحيد للتنمية إلى جانب القروض الأمريكية وأسلوب الحياة الأمريكية، وهنا تكمن احتمالات عرقلة هذه العملية، خاصة في تلك الدول التي يكون للدين منها تدخلاته في السياسة كما هو الحال مثلا مع الإسلام، أو في المناطق التي يوجد بها هرم من طبقة رجال الدين كما هو الحال في أمريكا اللاتينية، ولهذا السبب أيضا يحلم العديد من الماركسيين في هذه الدول ربما أكثر من أي مكان آخر بالمزج بين هذين المكونين الرئيسيين ووضعهما تحت قيادة الماركسيين لأنهم هم القادرون على طرح إشكالية القاعدة وتقديم وسائل العمل الضرورية.

٤ – ٢ (ج) والعملية الراهنة

كيف إذن نستطيع أن نحقق العالمية التي يتمناها كل الماركسيين؟

يمكن القول إن التعايش السلمى بين أمم الغرب كما تحدد فى يالتا عام ١٩٤٤ فى ضوء أزمة التوازن الكلاسيكى للقوة قد أثار بدوره ظاهرة مقلقة وهى ظاهرة الاتجاه المتسرع نحو الجذرية للماركسية فى دول القارات الثلاث التى ظلت حتى عام ١٩٤٩ تعيش داخل حدود واقعية أكثر منها تطرفية.

ولا بد من القول إن هذا الاتجاه نحو الجذرية قد فرض نتيجة التغير السياسى الذى سعى لأن يفرض على العالم الضرورات والمشكلات التى نشأت عن الأوضاع التاريخية الملموسة للدول الأوروبية المتقدمة.. هذا التحول نحو الجذرية حدث بنفس القدر بين التكوينات الماركسية وغير الماركسية فى دول القارات الثلاث. وقد كان من شأنه أن أدى إلى انهيار ما يسمى بالدول الديموقراطية القومية التى اتبعت الطريق الثالث. بل كان من شأنه أيضا أن أدى إلى إعادة ظهور خطر الدوجماتية من جديد، ومع ذلك فإن الأوضاع كانت على قدر من الاختلاف والتباين إلى الحد الذى كانت الدوجماتية فيه ولحسن الحظ خاضعة لعمليات خلاقة أو للتطوعية الواقعية التى نشأت جذورها مع جمهور الأفراد والطبقات الوسطى وانتهت إلى نقطة لم يجربها الغرب مطلقا وهى تدمير جزء أساسى من جهاز الحزب والتدمير الكامل لجهاز الدولة القادر على عرقلة الاندفاع الثورى للجماهير الشعبية، إنها تلك التطوعية التى يمكن رؤيتها فى ثوب مختلف فى الثورة الكوبية والتى وصلت إلى ذروتها فى الثورة الفيتنامية العظيمة حيث تكمن مثاليتها فى قدرتها على رؤية العملية التاريخية ككل فى الحاضر وفى المستقبل. ولذلك فإننا نستطيع أن نتبين التحول من الدولية (العالمية) الذاتية، أى من طابعها العالمى الذى ينطوى على رغبة ذاتية للماركسية الأوروبية إلى العالمية الموضوعية.. هذه الأخيرة التى بدأت من الماركسية كفرضية عاملة تمزج بين العناصر الواقعية والإسهامات النظرية التى تدخل حاليا فى عملية تطوير فى نضال القارات الثلاث.. تمزج كل ذلك فى الهيكل العام للاشتراكية العلمية كما كانت وكما يمكن أن تصبح. ولكن لا يحدث ذلك إلا بشرط ألا تقصر نفسها على مناقشة "ماركس الشاب" أو أى ماركسى آخر، بل تأخذ ماركس كنقطة تحول فى التاريخ العالمى (عندما بدأت كتابة التاريخ) كما قال ف. بروديل.

والشئ المدهش حقا أن هذه الإمكانيات الثورية الضخمة لم تتمخض إلا عن القليل جدا على مستوى النظرية. والسبب الأول فى ذلك كما أعتقد هو أن القارات الثلاث تعيش فى حركة، فالماركسية فى النهاية لم تتطور خلال فترة الإصلاحات والثورة فى فرنسا ولكنها تطورت من داخل دول كان لها تاريخ من الوجود القومى يمتد إلى أربعة أو خمسة قرون.

أما على الجانب الآخر من النهر فإن ضعف الطبقة العاملة فى هذه الدول قد أدى بالفعل إلى محاصرة طبقة المثقفين ودفعهم إلى أن يتحولوا إلى مساعد على التقارب بين العمال والفلاحين. ومع ذلك فقد كان دور الوسيط الذى قام به المثقفون بصفة عامة يمنع المثقفين من تكريس أنفسهم للقيام بنشاط أكثر عمقا على المستوى النظرى، إلا إذا حافظوا على إبقاء أنفسهم على مسافة تاريخية وجغرافية معينة.

هل كان ذلك طريقا مسدودا أو مأزقا؟ لقد كان يمثل أزمة نمو كما كان الحال فى كل من إسبانيا واليونان خلال فترة الحرب الأهلية. فقد لاحت الفرصة أمام عدد قليل من المثقفين البارزين لتطوير أفكارهم، أما الآخرون فقد اختفوا. وقليل جدا منهم هم الذين يعاودون الظهور لأن اهتمامهم الأساسى كان ينحصر فى إعداد تجهيز الميدان حتى تستطيع الأجيال اللاحقة أن تضطلع بمهمة العمل التنظيرى. وعندما يتعلق الأمر بالحياة أو الموت فلا يوجد دائما سوى اختيار واحد ممكن هو أن يحيا الإنسان ليعيش بين شعب حر.

إننى أدرك هنا أنه ينبغى على أن أصل إلى خلاصات واضحة. ولكن الخلاصات النظرية سوف تطرح من خلال التطبيقات العملية المتنامية فى القارات الثلاث ككل، وبواسطة الاستجابة إلى المطالب الحيوية العديدة لمعرفة ماذا يمكن عمله. وهو ما سوف يرتفع من الأرض المكبوتة إلى سماء الأيديولوجية.

٥ – ملاحظات للمناقشة

لقد أوضحت فى نهاية العرض الذى قدمته أنه ليس بالإمكان تحقيق العالمية أو التفاهمية العلمية فى المرحلة الحالية. ولذلك فإننى لم أطرح فرضيات، ولذلك أيضا

فقد كان عنوان هذا الفصل الذى أختير بدقة يحمل عنوانا فرعيا هو "بيان بالإشكالية – النظرية".

ومن خلال المناقشة وجدت بعض الفرضيات التى يمكن الدفاع عنها، والبعض الآخر ليس كذلك، وعندما ننظر إلى الماركسية على أنها هيكل مذهبى وتكتشف أنها ليست مطبقة فى دول القارات الثلاث فإننى أعنى هنا أن أتحدى علاقاتها بكفاح التحرر الوطنى الذى يعد الملمح الأساسى لهذا القرن والذى يعد هدفى الوحيد من الدراسة.

واليوم يؤكد المراقبون غير الماركسيين وأحيانا هؤلاء الذين يعادون الماركسية ولكنهم على دراية بالدول الواقعة فى المجال التابع باستمرار كما فعلنا نحن، أن للماركسية وجودا فعالا فى تلك الدول لا تتمتع به فى غيرها. لماذا؟ هذه هى المشكلة برمتها. وهى مشكلة لن تجد حلا إذا نظرنا إلى عمل ماركس على أنه مشروع جامد لا بد من تطبيقه بشكل مباشر على كل حالة أو وضع. ومع ذلك فلم أجد فى كل ما قرأته أن ماركس أو لينين قد أوحيا بمثل هذا الأمر.

لقد تحدث ب كيند P. Kende عن إمكانية نقد التصور الماركسى للأمة، وهو لا شك على حق. ذلك لأن العديد من الماركسيين فى القارات الثلاث يرون أن هذه التصورات لا تتجاوب مع الواقع، وفى دراستى حول تصور الأمة قدمت تصورا للتكوين الاقتصادى الاجتماعى القومى بكل عناصر مكوناته المختلفة، ولا يزال هذا التصور مجرد شكل تمهيدى موجز... مجرد محاولة للخروج من الطريق المسدود الذى أوصلنا إليه التصور الماركسى للأمة. فالطريق لا يزال مفتوحا، وهناك بالفعل بعض الصيغ النظرية التى يتم وضعها الآن، وهى ليست صيغا يوتوبية بأى حال.

هناك سؤال آخر يتعلق بعناد الطريق الذى يقودنا عبر الأعراف الغربية. وإننى أعتقد أن مسار الأحداث ليس حتميا. ولكننى لا أستطيع أن أكون متأكدا، غير أننا إذا نظرنا إلى ما يحدث فى الصين (التى لم تكن موضع بحث فى أوروبا إلا

نادرا – وكان أهم الأعمال حولها هو ذلك العمل الذى نشره بيركلى فى الولايات المتحدة) فإننا سنرى أن الثورة الثقافية قد هددت هذه المجموعة التى سلمت نظريا وسياسيا بأن طريق التنمية يتطلب حتما الاتفاق مع الاتحاد السوڤيتى. وأنه من الضرورى بشكل عام أن يتم تبنى وتكييف نفس العملية التى نجحت فى الاتحاد السوڤيتى مع الواقع الصينى، وبما يضمن بناء الترسانة النووية ثم تحويل الاهتمام إلى ڤيتنام. والواقع أن ما حدث هو أن هذه المجموعة قد دمرت. فهل كان المؤيدون للثورة الثقافية على صواب أم خطأ؟

فيما يتعلق بى.. أعتقد أنهم سوف ينجحون، وذلك لأسباب ترجع إلى حقيقة أن الشعوب لم تعد ترغب نظرا لسيكولوچيتها السياسية العميقة فى تقليد نماذج الآخرين. إن النسخة الصينية من الماركسية ليست صيغة خاوية مفرغة، بل إنها تتجاوب مع آمال شعب يعيش فى أطر سياسية معينة. وعلى عكس ما يعتقد جوديليير Godelier فإننى لا أؤمن بأن الثورة عليها حتما أن تمر من خلال إطار الإنتاج الغربى على الرغم من أنها سوف تضطر إلى المرور عبر مطهرات ومعذبات أخرى كما حدث فى ڤيتنام.

الدين.. اغتراب الإنسان؟ هل باستطاعة المرء أن يرتبط بأيديولوچية دينية عالمية إذا كان ماركسيا؟ ليست هذه هى القضية. فقد أوضحت انه فى مقابل أوروبا الرأسمالية الليبرالية أو البورجوازية أو العلمانية أو حتى الملحدة هناك واقع آخر يتحكم فيه جهازان ضخمان: الكنيسة الكاثوليكية فى أمريكا الجنوبية والإسلام فى جزء ليس صغيرا فى آسيا التى يوجد بها مساحة كافية للمناورة، حيث لا يوجد مثل هذا الجهاز وخاصة فى الدول البوذية. هذا واقع وليس افتراضا.. واقع لا يرضى الماركسى ولكن لا بد من الاعتراف به. غير أنه من الممكن بكل تأكيد إضعاف مكانة الجهاز الدينى للإسلام الذى يعد أضعف بكثير من الكنيسة الكاثوليكية. وفى بعض الدول المعنية يمكن دون معارضة مباشرة لديانة الدولة تقليص دور هذا الجهاز ليصبح مجرد عنصر آخر من عناصر اللعبة السياسية. وبذلك يمكن إبعاده عن العملية. وهناك دائما فى كل الحالات طريقان للمعالجة..

كذلك هناك طريق ثالث يتنامى الآن فى أمريكا اللاتينية فى اتجاه أعتقد أنه ينطوى على أهمية قصوى: فهو لا يسعى إلى محاربة الكنيسة، ولا إلى التقليل من أهميتها ولكنه يعمل على دمجها فى جبهة سياسية تحركها ضرورات اجتماعية وقومية. والواقع أن طبقة رجال الدين السفلى والفقراء الذين يتبعونهم يشتركون فى تزايد مستمر فى حرب الفلاحين الثورية كل بطريقته (البعض بالسلاح والآخرون بالصلاة، وغيرهم بتوفير المأوى). أما طبقة رجال الدين العليا والمرتبطة لدواع طبقية بالدولة القومية أيا كانت طبيعتها فإنها تتعاطف مع حركات التحرر الوطنى البورجوازية إلى الحد الذى يجعلنا نقول إنه بقدر ما تعانى هذه الدولة من النفوذ الأمريكى بقدر ما تعتزم ألا تتحمل هذه المعاناة بعد ذلك.

هناك إذن هامش واسع للمناورة. ومع ذلك فإننى لا أدرى ماذا ستكون النتيجة. ولكن علينا على الأقل أن نطرح التساؤل، حتى لو لم يكن التساؤل نفسه الذى طرحه ماركس فى عام ١٨٤٨. فالأمر لا يتعلق بالبحث عن نموذج بقدر ما يتعلق بتحليل الواقع الديناميكى.

وعلى حد علمى فإن الأبحاث الفيتنامية لم تنشر شيئا عن النموذج الماركسى ولكنها تفضل الدراسات التى تتناول وسائل حشد البوذيين حول القضية الثورية... إلخ.

لقد استشهد أ. روبينيه A.. Robinet بجواريه Jaures. ولكننى أعتقد أن جواريه وإن كان يتمتع بكثير من الاحترام كمؤرخ ومفكر تقدمى ليبرالى إنسانى، إلا أنه كمنظر ثورى لا يقدم إلا القليل جدا إذا قورن بلينين أو حتى بسانت جوست Saint Just.

ما هى الماركسية الصينية؟ هل هى قراءة ماركس أو ماو من خلال الشبكة الثقافية للحضارة الصينية؟ أم أنها انبعاث لما يسمى بالتروتسكية؟

وبعيدا عن التشبيهات السطحية ليس هناك شئ مشترك بين رجال السياسة الذين يتولون القيادة فى الصين أيا كانت مواقعهم بالنسبة لبعضهم البعض. وبين عمل مفكر عالمى مثل تروتسكى.

ومن جهة أخرى فإن ماو يبدو لى قريبا جدا من ستالين فى فترة ما قبل ١٩٢٧.

- دور النقابات والماركسية؟

ربما أكون قد عبرت عن نفسى هنا بأسلوب مختصر. ولكن كما قال ك. بابياونو K. Papaionnou فإن الماركسية لا يمكن فصلها عن ثلاثة مفاهيم: الثورة الاشتراكية، البروليتاريا، والبورجوازية.

ومع ذلك فإنه فى الوقت الذى احتشد فيه بعض زعماء البورجوازية حول الموقف الطبقى للبروليتاريا بالمعنى الماركسى وربطوا أنفسهم بالثورة إلا إنهم كانوا عليهم أن يعترفوا بوجود بعد إضافى آخر وهو بعد التحرر الوطنى فى ضمير الشعب كان إذا لم يكن موجودا فى ضمير المثقفين الذين يتشدقون بالماركسية. كذلك كان عليهم أن يعترفوا من خلال العمل مع النقابات بأن الإستراتيجية التى يكون محورها التحول الجذرى للبروليتاريا وحدها تعزل الماركسيين عن الجماهير العريضة ككل وتفقدهم القدرة على تعبئة هذه القطاعات. ومن هنا فقد اضطروا إلى إعادة النظر بأسلوب نقدى فى الدور الثورى للبروليتاريا رغم أنهم يحيلونه إلى دور ثانوى. ومن ثم فقد استبدلت فكرة أن البروليتاريا الصناعية هى الطبقة الطليعية، الوحيدة بفكرة أن الجماهير العاملة هى الطليعة أو هى الجبهة الطبقية ذات الأغلبية الزراعية.

وأود أن أضيف هنا أنه على العكس مما يعتقد الكثيرون فإنه ليس أكثر الفلاحين جهلا وتخلفا هم الذين يتزعمون الكفاح المسلح. ولكن الذى يقود هذا الكفاح هم فئة الملاك الصغار والعمال الزراعيون باعتبارهم ينتمون إلى الثقافة الريفية، والآخرون باعتبارهم ينتمون إلى ثقافة الحضر. هذا هو القطاع الأكثر تطورا من الفلاحين، الذى يرتبط بالبروليتاريا الصناعية والذى يشكل جوهر النضال الاشتراكى فى دول القارات الثلاث.

أما فيما يتعلق بروح باندونج ومصيره أو بواقع القارات الثلاث فهناك تصوران متداخلان. وهنا أيضا يسهل علينا أن نأخذ موقفا سلبيا فى ضوء التنوع

والاختلاف الضخم الذى أكدت عليه مرارا فى كل مـــا كتبــت. غيــر أن الشـــئ المشترك بين كافة دول القارات الثلاث ليس فقط حقيقة أن هذه الدول ليســت دولا مهيمنة اقتصاديا وسياسيا وثقافيا. ولكنها فوق ذلك عرضة للاستقلال مـــن جانـــب الدول العظمى المهيمنة التى بدأت عملية تحويل الدول العظمى السابقة بدورها إلى حالة شبه المستعمرات.

لقد كان باندونج على المستوى السياسى أول مشروع للتضـــامن بـــين الـــدول المستعمرة وفيما بين باندونج وهافانا حدث تحول واضح. ففى عام ١٩٥٥ كان هذا المشروع مجرد برنامج للتحرر الوطنى قدمته الديموقراطيات البورجوازية الأكثـــر جذرية. أما فى هافانا فقد اقترب المشروع من نظريات كاســـترو، رغـــم أن روح باندونج ظلت حية على أنها أوضح صيغة للتضامن بين شعوب ارتبطت مع بعضها البعض بواقع الهيمنة الاقتصادية الذى قصد به تحويلها جميعـــا إلـــى مســـتعمرات أمريكية.

وهناك مستويات متشابهة من النمو تجعل من الممكن لنا أن نتصـــور العمـــل المشترك، وسوف يكشف لنا المستقبل ما إذا كان هذا المصـــير المشـــترك ســـوف يتحول بسرعة إلى بناء، وإننى أعتقد أنه سيصل إلى ذلك ولكن على المدى الطويل جدا على أساس الاعتبارات الجغرافية. والسوسيولوچية أكثر منـــه علـــى أســـاس اعتبارات سياسية وتكتيكية مجردة.

لقد أثيرت حالة اليابان فى الاعتراض على هذا التصور. ولكن الأمر الأكيـــد أنها ستكون مشكلة بالفعل لو وجدت اليابان نفسها فى وقت من الأوقات فى وضـــع المستعمرات الإنجليزية والفرنسية السابقة، أى تحت الســـيطرة المباشـــرة لهيمنـــة الغرب خلال القرن التاسع عشر، فقد كانت الفرصة سانحة أمـــام اليابـــان لتعـــيش مستقلة فترة طويلة من الزمن، مغلقة على نفسها، ولكنها كانت تنمـــو إلـــى حـــد الأسنان إلى أن استطاعت أن تهزم روسيا القيصرية ثم تبدأ فى مرحلة التصنيع.

أما فيما يتعلق بمشكلة الأمم الصغيرة "والطريق الثالث" فإننى أعتقد فى الواقع أن الانعكاسات القومية تلعب دورا مهمـــا فى دول القارات الثلاث. وأن مـــا مـــن

دولة مهما كانت قريبة من الصين مثلا (أنا أفكر هنا فى ڤيتنام) ترغب بالفعل فى أن تسقط تحت سيطرة ونفوذ جار عظيم. ومن هنا نجد ضرورة تميز هذه الأمم الصغيرة بين نفسها عن طريق التنوع السياسى على مستويات عديدة حتى تستطيع أن تحتفظ بقدر من القدرة على المناورة. إن خط چيفارا ليس مختلفا إلى حد كبير عن الخط الڤيتنامى، فهو يرتكز أساسا على توحيد كافة القوى الاجتماعية. ورغم أن بعد الدولة يلعب دورا كما تلعب العناصر الأخرى أدوارها، إلا أن الأساس هنا هو المفهوم العام للمشروع الثورى. وهو مشروع متشابه فى كل الحالات إذا لم يكن متطابقا تماما، وفى كوبا ذاتها تلعب الفكرة القومية دورا مهما يتضح من خلال شعار الجمهورية: "**الوطن أو الموت**".

وحول هذا النموذج الأساسى كان من الممكن حشد وتعبئة الوطنيين الذين لم يفكروا فى الاشتراكية. وليس هناك أوضح من هذا الكشف عن التكيف القومى للوعى الماركسى فى الدول التى تبدو أقرب إلى النظرية الصينية.

لقد سئلت مرات عديدة عن الاغتراب الدينى. وفى الواقع ليس عندى إجابة محددة أقدمها، حيث أننى فى الوقت الحالى لا أرى سوى معالجة سياسية وليست نظرية للمشكلة. إذ أنه يبدو لى أن الدين فى القارات الثلاث لا يمارس على أنه اغتراب بنفس الدرجة. فهو يعد بكل تأكيد آلة كابحة، ولكنها آلة يمكن تسييسها.

الوسطية الأوروبية: لن أستطيع أن أتجاهل حتمية الإنجازات العقائدية والفلسفية والثقافية فى الغرب. بل علينا أن نستفيد منها أكبر استفادة ذكية ونقدية. ولكن إذا ارتضينا ببساطة أن نستعير من هنا ومن هناك كما فعل العديد من دول القارات الثلاث فلن نصل إلى شئ. ومع ذلك فلا يحلم احد بتحدى هذه الإنجازات التى سوف تستمر على مر الزمن لأنها نتاج تراكم ثقافى طويل: أما الخطر الحقيقى فيكمن فى أن نحاول أن نفرض فى كل مكان نماذج للتحول الثورى والاشتراكى التى رغم كونها صالحة لواقع معين لا يمكن أن تطبق فيه بأسلوب آخر، إلا أنها لا تكون كذلك فى مكان آخر.

لماذا يرغب ماركسيو القارات الثلاث فى أن يكونوا ماركسيين؟ .. لسبب سبق أن شرحته بقدر من السذاجة: فقد اقتربوا من النظرية الثورية بأسلوب علمى

واجروا عليها اختبارهم، واكتشفوا أن ما فعله ماركس من الناحية المنهجية لأوروبا كان أفضل من غيره من النماذج المنهجية التى طبقت على واقع مماثل. وذلك لأنه كان أكثر قابلية لمزيد من التطبيقات. ولكن هناك طبعا أسباب عاطفية وأيديولوچية وسياسية أيضا إلى جانب البعد الدولى (ولا أعنى هنا العالمى) حتى بين أكثر الماركسيين قومية.

إنهم يعتقدون أن هذا المنهج سوف يسمح لهم بالدعوة للقيام بعملية يكون بمقدورها أن تؤدى إلى بناء اشتراكى مرتبط بالتحرر الوطنى بدلا من أن تتعثر عند الحواجز التى أنشأتها الماركسية الأوروبية. هذا هو السبب فى أنهم يعتبرون ماركسيين، إذا لم يكن من قبل ماركسيى أوروبا المعادين للشيوعية فعلى الأقل من قبل الإمبريالية الغربية التى تعرف كيف تعترف بعدوها الحقيقى. فهى عندما تواجه الجبهات القومية تعرف من هم الذين يسهل قمعهم، ومن هم الذين سيقاومون الاستعباد، أو الاشتراكيين الثوريين (الماركسيين).

وإذا اعترض البعض على ما أقوله وأصروا على أن الماركسية ليست منفصلة عن البروليتاريا أو البورجوازية أو الرأسمالية أو الثورة الاشتراكية، فإن ردى هنا سوف يتلخص فى أن هذه هى رؤية ماركسيى القارات الثلاث أيضا. غير أن هذه الصيغة تحمل بالنسبة لهم معنى جديدا تماما. ففى بعض دول القارات الثلاث المتقدمة توجد رأسمالية مختلفة تماما عن رأسمالية الغرب. وهى نوع من الرأسمالية الذى قد يسمح باختراع عملية تدميرية أكثر جذرية – رغم ما ينطوى عليه ذلك من تناقض – من تلك التى وجدت فى الغرب بعد أكتوبر رغم فشلها.

أما بالنسبة لبرنامج هاڤانا فإن الاشتراكية تعنى أولا وأخيرا التخلص من مجموعات الرأسمالية الخاصة المرتبطة بالإمبريالية والتى تسيطر على موارد البلاد والتى تعمل بالتالى على تهديد الاستقلال القومى. وهى كذلك تعنى أن القوى الشعبية من عمال وفلاحين ومثقفين ثوريين لا بد أن يسيطروا على هذه الثورة من خلال أكثر الوسائل الشعبية والجماعية المختلفة للاشتراكية السوڤيتية فى الوقت نفسه الذى يتم فيه إنشاء جهاز مركزى للتخطيط يكون قادرا على التحكم فى

الاقتصاد ككل. وبدون مثل هذا الجهاز لن تكون هناك دولة حديثة. وليس أمامنا خيار آخر سوى الدولة الحديثة. إلى جانب ذلك لا بد من إضافة شئ يبدو أن الغرب لا يتحمس للاحتفاظ به؛ ألا وهو المضمون الأخلاقي للاشتراكية. إنني أعرف جيدا أنه لم يعد من الموضة في باريس أن نتحدث عن مبادئ إنسانية الاشتراكية. ومع ذلك فقد وجدت هذه المدينة بيان جيفارا جميلا جدا رغم أن خلاصاته أخلاقية واضحة تماما.

أما فيما يتعلق "بالاحتمالية" Possibilism التي يلام عليها ماركسيو القارات ثلاث فإنها ترجع إلى إدراكهم بأنهم لا يزالون بعيدين للغاية عن الوصول إلى الظروف والأوضاع التي تتطلبها الماركسية كما حددها ماركس.

وفي الوقت نفسه فعلى المرء أن يستمر في العمل، لذلك فهم يبدأون بتحديد وضعهم في إطار الحركة الوطنية على أنهم جناحها الراديكالي، محاولين دائما إعادة توجيهها وجعلها قادرة على تحقيق تصنيع حقيقي بمعنى التنمية وليس النمو. إنهم يناضلون مهما كلفهم ذلك من أجل التعددية السياسية. وعندما يجدون أنفسهم محاصرين في إطار الحزب الواحد يحاولون تضخيمه وتحويله إلى جبهة. ولكنهم يفشلون في معظم الحالات، لأن القوى الولية في عصرنا هي قوى خارجية أقل منها قوى داخلية، فالولايات المتحدة تتحكم في اللعبة كلها، وهامش الخطأ هامش صغير، وكلما تعاظم التأثير الأمريكي كلما تعاظم الاتجاه نحو التطرف، وهو – إذا جاز لي أن أقول – "الاحتمال" الوحيد المتاح في محيط القارات الثلاث. ففي الصين مثلا كان جناح ماو هو أقوى الاحتمالات حتى عام ١٩٤٥. أما اليوم فإن تكوينات هذا الجناح ذاته قد أصبحت تكوينات متطرفة. ونفس الشئ ينطبق على كاسترو في كوبا، فقد أصبحت الماركسية بالنسبة للجناح الراديكالي للحركات الوطنية أداة لا غنى عنها.

وطالما أنه لم يحدث أن صنعت البروليتاريا الغربية ثورة، فمن كان يتصور منذ عشر سنوات أن بلدا مثل ڤيتنام في فقرها الصناعي وفي موقعها الجغرافي السئ تستطيع من خلال هذه الإرادة الخارقة أن تقوم بعمل جعل اليوم ثلاثة أرباع

آلة الحرب فى أعظم دولة فى التاريخ تتخبط؟ من كان يستطيع أن يتخيل ذلك غير نخبة صغيرة جدا من المثاليين فى قيادة الحزب الشيوعى الفيتنامى الذين تلقوا تعليمهم السياسى فى أوروبا، ثم استطاعوا أن يجدوا هذا التعليم بنظرة نقدية، ومع ذلك فقد وجدوا طريقا لتطبيق المنهج الماركسى بأسلوب جعل منه أداة للعمل فى بلادهم؟

ربما لا يكون هناك فى تاريخ الإنسانية ككل مثل يحتذى به لهذه الدولة التى بدأت اليوم عملية تغيير ليس فى التوازن الإستراتيجى العالمى فحسب، ولكن فى إدراك ووعى العالم كله.

وبعيدا عن الخلط، فلابد من القول أن نجاح فيتنام لا علاقة له بهويتها الآسيوية، ولكن يرجع إلى القدرة تكييف الماركسية للظروف القومية، مما مكن قادتها من حشد الجماهير العريضة حولها من فلاحين وعمال وغيرهم.

وهكذا وجدت القارات الثلاث أمامها نموذجا لكل الثورات فى المستقبل. ولذلك فإن الماركسية أصبحت اليوم فى دول القارات الثلاث التى تتصدر جبهة النضال، أبعد ما تكون عن مواجهة التحدى ومحاولات التفوق، بل تجد أقوى تأكيد وضمان لها.

لقد حاولت أن أوضح رؤية الماركسيين فى حركات التحرر الوطنى للعلاقات بين الاشتراكية والتحرر الوطنى. وعندما وضعت لهذا الغرض عنوانا فرعيا ساخرا "الماركسية بين الأهالى الأصليين" كنت موقنا أن الانتقادات سوف تنهال على رأسى. وأن هذه الماركسية سوف ينظر إليها على أنها تنوع راديكالى على لحن قومى. ومع ذلك فإننى أقول إن التاريخ سوف تكون له كلمته.

إننى آمل أن يجد الماركسيون الغربيون فى تجربة القارات الثلاث عونا على فهم أفضل لمبررات ترددهم، فالمواجهة بين التجربتين على المستوى التاريخى ينبغى أن تحقق فهما عالميا وعلميا حقيقيا لفئات الماركسية الثورية، ولكن الطريق لا يزال طويلا.

أما بالنسبة للصراعات القومية التى تنشأ داخل حركات التحرير فهى بلا جدال صراعات حتمية طالما كانت هناك دول قومية مستقلة تشكلت أو أعيد تشكيلها فــى إطار النضال ضد الإمبريالية، أى طالما وجدت دول راديكالية متشـددة يحـدوها اهتمام عميق بسيادتها. إنه لأمر حتمى أن تحدث صراعات عنيفة أو خفيفة تكـون قابلة للحل بشكل أو بآخر. وهذه الصراعات تظل صراعات ثانوية قابلـة للتسـوية بين دول أوروبا الشرقية. ولكنها أكثر حدة بين الصين والاتحاد السـوفيتى حـول منطقة سيبيريا الخلفية. ورغم أنه قد يكون بإمكان تكتل مـن الـدول الصـغيرة أو المتوسطة فى القارات الثلاث أن تنجح فى القيام بدور الوسيط إلا أن القوة والقرار فى الوقت الحالى لا يزالا فى أيدى الدول العظمى. ولا أسـتطيع أن أجـد وسـيلة يمكن من خلالها تحقيق التحول الجذرى الحاسـم للطبقـة السياسـية فـى الـدول الاشتراكية التى تظل متمسكة بمفهوم جامد عن التعايش قد يكون الطريق الوحيـد لإعادة إنشاء جبهة الدول الاشتراكية التى تطلع إليها هوشى منـه. وإذا اسـتمرت الأمور كما هى عليه الآن فإن صراعات ما بعد الرأسمالية بين الدول سوف تنمـو لتصبح أكثر حدة.

أما فيما يتعلق بالصراعات القومية وبالقمع الذى يمارسه شعب ضد آخر وهو واقع عالمى كما يشير ك. بابا يوانو K. Papaioannou فـإن الإجابـة الوحيـدة الممكنة هى إجابة من ذلك النوع الترجيحى. وباستطاعتنا أن نتصور أنه حتـى إذا انتهى شكل من أشكال الاستغلال داخل دولة معينة فإن التوترات الداخليـة سـوف تستمر طالما وجدت دولة قومية، فسوف تمر بمراحـل انتقاليـة يصـعب التنبـؤ بأشكالها ولكن اختفاء الدولة يبدو هنا إشكالية أصعب من أى وقت سـابق، فأنـا لا أستطيع أن أرى كيف يمكن قيادة بلد مثل الصين مـن خـلال اقتصـاد الفلاحـين السوفييت.

وهنا ربما يكون للأيديولوجية الماركسية دور تلعبه إلى الحد الذى يمكنها مـن أن تستعيد فى طريقها الروح العالمية لغيرها من الأيديولوجيات القومية سواء كانت من النمط الدينى أو من النمط المشابه.

أما فيما يتعلق بالعلاقات بين الإسلام والعالم العربى فهى لا تثير من المشكلات ما يختلف كثيرا عما تثيره العلاقة بين المسيحية وأوروبا.

إن الأيديولوچية المسيطرة فى إطار الثقافة العربية هى أيديولوچية دينية، حتى أن المنتمين لديانات أخرى يشتركون فى ذات النوع من الحضارة.

هل تقولون إن أوروبا تتمتع بوحدة ثقافية حقيقية؟ ربما كان ذلك فى أيام كنيسة العصور الوسطى عندما كانت اللاتينية، لغة مشتركة، ولكن اليوم يعطى العالم العربى انطباعا أقوى بالوحدة.

سوف تقولون لى إن أوروبا موحدة على مستوى التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وأن ذلك يمكن أن يصبح أساسا للوحدة السياسية الحقيقية. ولكن المهم هو تطوير مشروع ثقافى قومى أوروبى يتجاوز فكرة "السوق" البسيطة. ونفس الشئ ينطبق علينا، على الرغم من الإسلام والثقافة العربية.

صدقونى إذا كانت هناك مصاعب أمام تحقيق الوحدة الأوروبية فى المستقبل القريب فإننى لا أشك مطلقا فى أنها مرغوبة، بل على العكس إننى آمل فى أن تتحقق.

بل سوف أقول أيضا إنها ضرورية، وأكثر ضرورة وإلحاحا من إشكالية العلاقة بين الماركسية والتحرر الوطنى بالنسبة للقارات الثلاث أكثر منها للاشتراكيين الأوروبيين. أما فيما يتعلق بنا فسوف يكون من الأهم أن تتشكل أوروبا فى وحدة واحدة بحيث تعيش فى تحالف مع الاتحاد السوفيتى فى مواجهة أمريكا.

لقد كان لينين ومن قبله ستالين يهتمان أشد الاهتمام بالمسألة القومية. وقد أثبت التاريخ دائما أنهما كانا على حق. وفى أوروبا ظهرت أهمية هذا العامل فى فترة تشكيل الدول القومية المستقلة بعد الإصلاح وفى أوقات الثورات البورجوازية الأولى وفى فترة النضال من أجل الوحدة الألمانية والإيطالية. أو فى القارات الثلاث فإن هذه المشكلة تعد مشكلة عصرية.. مشكلة اليوم وهى مرتبطة بالنضال

ضد الإمبريالية ومن أجل تحقيق التحرر الوطنى. وهى موجودة على مستوى ٢ مليار شخص.

إن الأيديولوچية القومية تعيش دائما فى خطر اكتساب هوية محافظة قديمة، ولذلك فإنه بمجرد أن تثبت هذه الدول الصغيرة جذورها يصبح من الضرورى أن تتجاوز العامل القومى. ولكن علينا ألا ننسى الواقع الذى تعيشه هذه القضية.. فليست هناك دول قومية قادرة اليوم على مساندة نفسها، سواء انتمت إلى الأمم المتحدة أم لا. ولذلك فإن العنصر القومى الذى يعد فى رأينا النسيج الذى ستنمو حوله إشكالية الطبقة يفرض نفسه دائما على الماركسيين بسبب الهيمنة الأمريكية التى تجعل من غير الممكن الفصل بين هذين العنصريين فى أية ثورة ممكنة فى القارات الثلاث.. العنصر الاجتماعى والعنصر القومى.

أما فيما يتعلق بچيفارا فإننى أقول إنه من خلال دراستى لحالة أمريكا اللاتينية وحدها كما دفعنى اهتمامى بالقارات الثلاث فقد استطعت أن أميز بين ثلاث مجموعات من الدول: أمريكا اللاتينية الأطلنطية؛ وهى الأرچنتين وأورجواى، وأمريكا اللاتينية الإنديانية، وأمريكا اللاتينية الأفروبرزيلية.

هذا التقسيم يتجاوب ليس فقط مع التباينات الثقافية القومية، ولكن أيضا مع المستويات المختلفة لاستعداد للتنمية الاقتصادية والاجتماعية. لذلك فإن چيفارا ليس له تأثير فى الأرجنتين أو فى شيلى حيث لا توجد أية فرصة للنجاح سوى أمام استراتيچية جبهة قومية احتمالية، وعلى شرط أن تشن جميع الدول الإنديانية حربا ثورية.

هذا هو تصور العديد من أصدقائنا فى أمريكا اللاتينية الذين يعتقدون فى الواقع أن دور شيلى وأورجواى والأرجنتين ينحصر فى توفير الاحتياطات الاستراتيچية للثورة الحقيقة التى سوف تنفجر فى الأنديز. ومع ذلك فإن چيفارا يرى الأمور بشكل مختلف تماما. وبنفس الأسلوب فإننى مع اعترافى بالمضمون الحيوى الديناميكى والخلاق للماركسية لا أتمسك بأسلوب عقائدى جامد بأية عقيدة معينة، إننى أؤمن أيضا بأن الحالة الڤيتنامية تجمع أفضل عناصر البحث فى العلاقة بين الماركسية والتحرر الوطنى.

الهوامش:

(١) ورقة مقدمة إلى الاجتماع الذى عقد فى المركز الثقافى الدولى د (سيريزى لاسال) بمناسبة (مائة عام على صدور رأس المال) (يوليو ١٩٦٧).

(٢) وخاصة Solomon F. Bloom the world of nations: a study of the national implication of the work of kart marx (New York ١٩٤١)

والأحدث نسبيا :

Horad B. Davis, Nationalism and socialism marxist theories of nationalism to ١٩١٧ (New York London ١٩٦٧).

والبيبلوجرافيا pp. ٢٣٧–٤٣

(٣) إن كلمة (مسلم) هنا لا أهمية لها، فالكاتب يشير إلى كافة الشعوب غير الأوروبية.

الجزء الخامس

الشــــرق
فى قلب جدلية الحضارات

(١٤)

الاستشراق فى أزمة

لا غنى عن أن نرى أوروبا من الخارج.. عن أن نرى تاريخ أوروبا ونرى إخفاقها مثلما نرى نجاحها بعيون ذلك الجزء من الإنسانية الذى تكونه شعوب آسيا وأفريقيا.

چوزيف نيدهام

إذا كان لنا أن نسترجع ما أسماه كلود روى "بالستار الحديدى من الأحاجى الزائفة" فإننا يجب على الفور أن نشرع فى مراجعة نقدية، وفى عملية إعادة تقويم للمفهوم العام وللمناهج والأدوات التى أعطت الغرب معرفته بالشرق على كل المستويات وفى كل الميادين.. وتلك عملية بدأت فى السنوات الأولى من القرن المنصرم.

وينبغى لأى علم مدقق ويطمح إلى الفهم أن يكون هو نفسه موضوعا لمثل هذه المراجعة، ومع ذلك فإن انبعاث أمم وشعوب أسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية من جديد فى الجيلين الأخيرين هو الذى خلق تلك الأزمة المتأخرة كثيرا عن وقتها والتى لاتزال تتململ فى الضمائر، وقد أصبحت الضرورة العملية التى لا يمكن تجنبها مطلبا مستندا إلى المبادئ نتيجة للتأثير الحاسم للعامل السياسى الذى هو انتصارات حركات التحرير القومى المتنوعة على النطاق العالمى.

ولقد كان الاستشراق – حتى تلك اللحظة – هو الذى مارس أعظم الأثر، ولكن منذ عام ١٩٤٥ لم يكن "حقل الدراسة" وحده هو الذى سقط من أيدى الاستشراق، ولكن "الرجال" أيضا سقطوا من يديه، أولئك الرجال الذين ظلوا حتى الأمس "موضوع – الدراسة" والذين أصبحوا اليوم هم "الذات" صاحبة السيادة فى تلك الدراسة.

كذلك بدأت العلوم الإنسانية والاجتماعية تعترف بالحاجة إلى إعادة صياغة نفسها وإلى توسيع نطاقها وإحداث تحول بها، فهى لم تعد فحسب تعترف بالحاجة

إلى إعادة صياغة وتوسيع ميدان تطبيقها وإحداث تحول فيه، ومع ذلك فلا توجد أزمة من هذا القبيل، والذى حدث هو أن عوامل متباينة ولاسيما الأهمية المتزايدة لعالمية (شمولية) وتاريخية المنهجية الماركسية إلى جانب مناهج العلم الحديث والعقلانية الحديثة التى تتصل بالمنهجية الماركسية فى نقاط معينة جعلت التوصل إلى قدر أكبر من المرونة والتوفيقية ليسا كافيين إلى حد كبير.

ولدراسة المشكلة بتفصيل أكثر فمن الطبيعى أن تتركز دراستنا على العالم العربى وعلى مصر بصفة خاصة، وذلك برغم أن الصين وجنوب شرق آسيا سوف يكونان أيضا موضع دراسة فى هذا الشأن.

ولسوف يجد الباحثون على صعيد تاريخ الاستشراق التقليدى بدءا من قرار مجلس ڤينا عام ١٢٤٥ بإنشاء "الكراسى الأولى" للغات الشرقية فى Universitas magiotum et scalaium parisiensim. وحتى حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ عددا من الأعمال المتوفرة، ولكن هذه الأعمال عبارة عن تجميعات متفرقة ذات فائدة، ولكنها نادرا ما تكون ذات منهج مدقق[1]، ومن المفيد أن نلاحظ أن الدراسات الشرقية فى القطاعين الرئيسيين – العالم العربى والشرق الأقصى – نشطت – مع ذلك – وبفاعلية فى فترة التدخل الاستعمارى، وعلى الأخص فى اللحظة التى بدأت فيها الإمبرياليات الأوروبية فى بسط سيرتها على القارات المنسية (من منتصف القرن التاسع حتى الثلث الأخير منه، وتميزت الموجة الأولى بتأسيس جمعيات المستشرقين (بتافيا فى سنة ١٨٧١، والجمعية الآسيوية الملكية فى لندن ١٨٣٤، والجمعية الآسيوية فى باريس ١٨٢٢، والجمعية الشرقية الأمريكية فى سنة ١٨٤٢... الخ). وشهدت المرحلة الثانية تنظيم مؤتمرات المستشرقين التى عقد أولها فى باريس فى سنة ١٨٧٣، وقد انعقد ستة عشر مؤتمرا فيما قبل الحرب العالمية الأولى (كان آخرها فى ڤينا وعقد عام ١٩١٢، ومنذ ذلك الحين لم تنعقد إلا أربعة مؤتمرات.

ولكن أى نوع من الدراسة ذلك الذى نناقشه؟ وأى نوع من الرجال والدراسين ذلك المستشرق "أى الباحث الضليع فى شئون الشرق لغاته وآدابه... الخ؟ ما هى دوافعه وما هى اهتماماته؟ وما هى الأهداف التى يعمل من أجل تحقيقها؟

يقف ميشيلينجلو جويدى (١٨٨٦ – ١٩٤٦) داخل منظور من تاريخ الفلسفة متعارضا مع التمركز حول الهلينية "Helleno Centrism" لفارنر جامر بوجه خاص[٣] إذ يقول:

إننى أفهم المستشرقين على أنهم أولئك المهتمون بالشرق الأدنى، وذلك لأن الفكرين الهندى والصينى بالرغم من أنهما بالقطع ذاتا أهمية عظمى فى فهم أساليب الروح، إلا أنهما لا يملكان اتصالا حيويا بنا... فنحن الآخرون.. نحن المستشرقون ننظر فى الواقع إلى تلك الثقافات التى يظهر العنصر الشرقى فيها فى أكمل صورة، أى الثقافات القومية الخالصة مثل الإسلام على سبيل المثال، ومأربنا هنا ليس فقط خلق عالم غريب (رغم أن هذا العالم يمثل ثقافة عظمى جديرة بالاهتمام العلمى) ولكن أيضا لأن هذه هى الطريقة الوحيدة التى نستطيع بها التوصل إلى الفهم الكامل لطبيعة عناصر ذلك الانصهار المثمر والجدير بالإعجاب الذى حدث فى المحيط الثقافى للهيلينية[٤]. إن المستشرق الكامل يجب أن يبدأ بالعالم الكلاسيكى، ولكن سوف يكون أمرا مضاد للتاريخ أن يحول هذا المستشرق نظرته بعيدا عن كل الفترة الواقعة بيننا وبين تلك الفترة الكلاسيكية، فلقد أصبح الإنسان الكلاسيكى والإنسان الإسلامى فى نقطة معينة بالنسبة لنا ليسا أكثر من ذكرى أو تجريد مطلق.

(إن إنسان الهيلينية الجديد هو وحده المنتج الحى للحركات الحية بدلا من أن يكون منتج للحركات المخلوقة اصطناعيا من جانب الدارسين.. وعلى أية حال فلقد خلق الجميع قوة تاريخية أصلية)، وهكذا:

"فنحن لا ندرس هذه العوامل لكى نرسم سلاسل جديدة من الظواهر توضع فى متحف للإنسانية لإلقاء نظرة عليها، ولا لوصف صور عجيبة ودخيلة على عالمنا ولا لمعرفة lavtasan Soyia، ولكننا بالأحرى ندرس تلك العوالم من أجل إحياء أحقاب الاتحاد الوثيق بين الثقافات المتباينة فى أكمل وجوهه، وللبحث عن تمييز لأشكال ووظائف كل واحدة من هذه الثقافات، لقد أصبحت رؤيتنا أكثر حدة وتدقيقا نتيجة لدراسة تجليات الثقافة الشرقية فى أكثر تعبيراتها كمالا. ومن الممكن أننا بذلك قد نقدم تقويما أكثر دقة ومن ثم نصبح أكثر حساسية[٥].

أليست المبالغة هنا أن نتحدث عن الرومانسية المتمركـزة حـول أوروبـا[٦] متذكرين أن ريمون سشواب يتحدث بمفردات مماثلة[٧] وأن الصور الإقليمية السبع الأخيرة لـ أ، ج. آربيرى عن المستشرقين الإنجليز[٨] (س. أوكلى، و. جونز، أ. هـ. بالمر، أ. ج. براون، ر. أ. ينكولسون، وآربيرى نفسه... الخ) تسير فى نفس الاتجاه؟ ومع ذلك فمن المهم أن نعترف أننا – مع ملاحظـة أننـا نتحـدث بلغـة تاريخية – فى عصر الهيمنة الأوروبية، ومن ثم فأى نقد بالنظر إلى الخلف يجـب أن يأخذ ذلك فى حسبانه.

إن الأعمال الكبرى للمدارس الرئيسية فى الاستشراق فى الغـرب (فرنسـا – بريطانيا العظمى – هولندا – إسبانيا – إيطاليـا – روسـيا – الولايـات المتحـدة الأمريكية) تقف داخل هذا التيار من الفكر وهذه الرؤية للاستشراق، وقد كان إسهام هذه المدارس مثمرا ومتباينا، ويميز يوسف أسعد داغر واضع الفهـارس اللبنـانى كثيرا من العناصر الإيجابية فى الدراسـات العربيـة والإسـلامية هـى دراسـة الحضارات القديمة وتجميع المخطوطات العربية فى المكتبات الأوروبية وتصـنيف فهارس للمخطوطات، ونشر عدد من الأعمال المهمة، ودروس المنهج التى تلقـى على دارس الشرق وتحقيق الدراسات، ولكن هذا التحقيق غالبا ما يكـون ناقصـا ويحتوى على أخطاء من الوجهة اللغوية، ومع ذلك فسبب صلابة ودقـة المـنهج "أسهمت هذه الحركات فى النهاية فى إيقاظ الوعى القومى فـى دول متعـددة فـى الشرق معطية إياها قوة دفع إلى التحرك نحو النهضة العلمية واكتشاف المثـل[٩]" وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد.

وعلى أية حال فلم تكن هذه الرؤية المسيطرة فى الاستشراق التقليدى، كمـا أنها لا تمثل الاتجاه الجوهرى للعمل الذى تم فى الجامعات والجمعيـات العلميـة، رغم أنها لا تغطى السلم النغمى الكامل للعمل الذى نفذ هنا وهناك، ومـن ناحيـة أخرى فقد اصطبغ هذا العمل نفسه بعمق بالمسلمات والعادات المنهجية والمفـاهيم التاريخية الفلسفية التى غالبا ما تعرض نتائج العمل الشاق وقيمته العلمية للشـبهة، ولقد قادت المسلمات والعادات والمفاهيم عددا من المستشرقين الموثوق فى أمانتهم

نحو المواقع السياسية الفلسفية للمجموعة الأخرى من الدارسين العاملين في الميدان.

وتألفت المجموعة الثانية من مزيج من الأكاديميين ورجال الأعمال والعسكريين، وكذلك من الموظفين والمبعوثين والخبراء والمغامرين الاستعماريين، وكان هدفهم الوحيد هو اكتشاف وزيارة الأراضي التي سيحتلونها، واختراق وعي الشعوب، وكذلك ضمان أفضل وسيلة لإخضاعهم بواسطة القوى الأوروبية، فكما أشار جاك بيرك بحق، فقد ضمنت رؤية المكتب العربي أن دراسات جمعيات شمال أفريقيا التي سوندت وازدهرت ولكن حدد نطاق عملها – قد تحركت في اتجاه بعينه(١٠)، وليس من العسير تخمين هذا الاتجاه وهذه الظاهرة عامة، فهي عنصر تكوين في كل العلوم الاجتماعية في الدول الأوروبية في فترة الاختراق الإمبريالي والاستعمار مثل الاستشراق الإيطالي في عهد موسوليني والاختراق النفسي السياسي الذي مثله لورنس ومدرسته، وقبل ذلك كانت العلاقات الوثيقة قائمة بين دوائر الإرساليات التبشيرية ورجال المؤسسات العسكرية من ناحية، وبين المستشرقين من ناحية أخرى (وخصوصا وقت انعقاد المؤتمر الإقليمي الثالث للمستشرقين في ليون سنة ١٨٧٨.. الخ، وقد تزايدت الأمثلة وكررت نفسها لأننا كنا لا نزال في حقبة الاحتقار والاحتلال.. أي كان ذلك قبل الثورات التحريرية الكبرى.(١١) ولكن هل لا يزال من الممكن – رغم تلك الاختلافات الحقيقية – أن نتحدث عن وجه تشابه معين في المفهوم العام وفي المناهج والأدوات التي شاع استخدامها لدى هاتين المجموعتين في الاستشراق التقليدي؟

إجابتنا هي أن بوسع المرء أن يفعل ذلك: إن وحدة المصالح (والوحدة هنا ليست فقط وحدة مصالح) شئ جوهري في مواجهة هذا العالم الآخر الذي سوف يعرف فيما بعد بالعالم "الثالث" في علاقته بالتاريخ في طور الصنع.

١ – الاستشراق التقليدي:

ونعني رؤية الاستشراق التقليدي للشرق والشرقيين:–

(أ) على مستوى موقع المشكلة أى الإشكالية

تدرس المجموعتان الشرق والشرقيين بوصفهما "موضوعا" للدراسة يتميز "بآخريته" أى بكونه شيئا آخر (مثل كل شئ يعتبر شئيا آخر، سواء أكان ذاتيا أو موضوعا ولكن الآخرية هنا هى آخرية تكوينية وجوهرية كما سنرى توا، فهنا يعتبر "موضوع الدراسة" (أو ينبغى أن يعتبر) سلبيا وغير مشارك وأنه قد منح ذاتية "تاريخية" هى فوق أى اعتبار آخر ذاتية غير نشطة وغير مستقلة ليست لها أية سيادة على نفسها فالشرق الوحيد أو الشرقى (الموضوع) الذى يمكن الاعتراف به وحده وبطريقة هامشية هو الكائن التابع فلسفيا، فهو آخر فى علاقته بنفسه، والذى يعرفه ويحركه للعمل شخص غيره.

(ب)على مستوى الفكرة الرئيسية (على مستوى الأبحاث المكتوبة):

تتبنى كلا المجموعتين مفهوما جوهريا لدول وأمم وشعوب الشرق يترجم نفسه إلى سلم أنماط عرقى ذى خصائص مميزة، وسوف تحول المجموعة الثانية هذا المفهوم حالا إلى العنصرية.

وطبقا للمستشرقين التقليديين فهنا يوجد الجوهر الذى يكون الجذر (الأصل) الشائع وغير القابل للتحول لكل الكائنات التى توضع تحت الدراسة، وفى بعض الأحيان يوصف هذا الجوهر بمصطلحات ميتافيزيقة مباشرة، وقد كان الجوهر تاريخيا ذات مرة مادام يرجع إلى أعماق التاريخ، كما أنه تاريخى بشكل أصولى مادام أنه يثبت الكائن أو الشئ موضع الدراسة فى إطار خصوصيته غير القابلة للتحول وغير التطورية بدلا من جعله مثل كل الكائنات الأخرى سواء أكانت دولا أم أمما أم شعوبا أم ثقافات.. منتجا ونتيجة لمزيج من القوى التى تعمل طوال التطور التاريخى.

إننا بهذا نصل إلى سلم للأنماط قائم على خصوصية حقيقية، ولكنه منفك الصلة بالتاريخ، ولذلك يتصور هذا النمط على أنه غير ملموس وجوهرى، فهو يحول الشئ المدروس إلى شئ آخر بالارتباط بذلك الذى تصعد إليه الذات الدراسة،

وهكذا فبينما يكون الإنسان العادى هو الإنسان الأوروبى فى الحقبة البادئة منذ العصور الإغريقية القديمة سوف نسمع عن الإنسان الصينى والإنسان الأفريقى والإنسان العربى (ولماذا لا يكون هناك إنسان مصرى أيضا[١٢]؟). هكذا إذن نستطيع أن نرى بوضوح كيف أن هيمنة الأقليات المالكة التى عراها ماركس وإنجلز، وكيف أن نظرية مركزية الكون حول الإنسان التى وصفها فرويد – وذلك فى الفترة من القرن الثامن عشر إلى القرن العشرين – قد سارتا يدا فى يد مع المركزية الأوروبية فى العلوم الإنسانية والاجتماعية، لا سيما تلك العلوم التى كان لها علاقة مباشرة مع الشعوب غير الأوروبية.

ولم يطور هذه المقولة بين كبار رجال الاستشراق التقليدى أحد بأفضل مما طورها به الباحث العظيم لويس ماسينيون (١٨٨٣ – ١٩٦٢) عندما كان يتحدث عن العرب الذين كانوا قريبين للغاية من وجدانه الصوفى، ففى أحد مقالاته الأخيرة التى كتبت قبل وفاته مباشرة كتب يقول: "إننى أعتقد أنه يتعين ربط مشكلة مستقبل العرب بمسألة السامية، وذلك أن عند جذور الصعوبات التى يواجها العرب تكمن المشكلة الدرامية الخاصة بالكراهية الأخوية بين إسرائيل وإسماعيل، وأعتقد أن هذه المشكلة يجب أن تقهر، ولكن هل يمكن ذلك؟ إنه لا يتعين حل المسألة على مستوى الظهور الميكانيكى للتكنولوجيا المعاصرة حيث تتفوق إسرائيل على كل هذا العالم العربى، ولكن على مستوى سيادة إسرائيل فى الفكر وفى طريقة عرض (وضع المشكلات) فإسرائيل لم تتوقف قط عن وضع المشكلات لنفسها، وهذه هى قوتها.. قوة الأمل... أو المراهنة الذهنية (المضاربة) فى أنقى صورها، وبهذا وجد العرب أنفسهم وقد سرقت منهم دعواهم فى النقاء السامى.. أى فى كونهم هم الساميون بالحق والامتياز، وعلى النقيض تماما فقد أصبحوا هم المحرومون من هذا الحق بل والمنبوذون، ولأسباب عديدة أثبت العرب أنهم أدنياء بالنسبة للمهمة التى تعرف إسرائيل كيف تواجهها، ولكن يبدو لى أنه لا بد من وجود مصالحة بين الأخوين، لأن إسرائيل مثلها فى ذلك مثل العرب تستطيع أن تقدم دليلا داخليا.. هو دليل لغتها التى هى لغة مقدسة كما أنها أداة للبحث العلمى المجرد، فلقد فكرت النخبة

اليهودية وكتبت بالعربية طوال العصور الوسطى وتلك هى المشكلة الجوهرية[١٣]. إلا أن سخاء الأحاسيس لا يستطيع أن يلغى الطبيعة المضللة لهذا المنهج فى التفكير المفتوح على اتساعه للأفكار التاريخية الضارة (الخبيثة)، وسوف يكون ذلك المنهج متشابها سواء قل التشابه به أو كثر للنظر إلى تاريخ أوروبا من منشـور الآريـة المشوه.

١ – ٢: مناهج الدراسة والبحث:

من المحتم أن المفاهيم العامة المستترة هى التى سوف تقرر هذه المناهج:

أ) من الطبيعى أن ماضى الأمم الشرقية سـوف يكـون هـو الميـدان الخصـب للدراسة[١٤]، فالمرء باعترافه ضمنيا أن الفترات الأكثر تألقا للـدول الشـرقية تنتمى إلى الماضى يعترف وفقا لنفس الأمارة بأن تدهورها كان حتميـا، ولقـد أشار چين تشينو بحق إلى أن مسار الدراسات الإغريقية الرومانية اعتبارا مـن منتصف القرن التاسع عشر فصاعدا، وعودة ظهور هذه الدراسـات بوصـفها دراسات لحضارات ميتة ومنفصلة كلية عـن ورثتهـا المعاصـرين قـد زود المستشرقين بنموذج بارز.[١٥]

ب) سوف يدرس الماضى فى جوانبه الثقافية اللغوية والدينية منفصلا عن قضـايا التطور الاجتماعى والذى يفسر التشديد على دراسة الظواهر الدينية وأقسـامها الباراسيكولوچية والغامضة هو هجوم اللاعقلانية فى أوروبا قبل هيجل وبعـده، وبنفس الطريقة فإن إحياء الدراسات الكلاسيكية فى ضـوء المـنهج التـاريخى وبدقة أكثر فى ضوء فقه اللغة التاريخى المقارن فى نهاية القرن الماضى هو ما يفسر الأولوية التى أعطاها المستشرقون التقليديون للدراسات اللغوية ولدراسات فقه اللغة التاريخية المقارنة، إلا أن دراسة اللغات الشرقية الحية مثـل العربيـة كما لو كانت لغات ميتة قد أنتجت بالضـرورة عـددا كبيـرا مـن الأخطـاء والتعارضات والتناقضات، فالأمر هنا يشبه شخصا يشرع فى كتابة تعليق عـن اللغة الفرنسية (لغة مارتين دى جار وسارتر (آراجون) على أساس من قراءته

للـ (chansens de gestte) أو عن إنجليزية برنارد شو وراسل بالرجوع إلى الأنجلوساكسون، أو عن إيطالية جروشى وجرامشى أو مورافيا عـن طريـق قراءة اللاتينية الكنسية.[٦٦]

ج) إن دراسة التاريخ "كبنية" سوف تلقى – فى أفضل الأحـوال – ضـوءا علـى الماضى القريب، إذ أن التاريخ الذى سوف يبعث سيظهر كاسـتمرار لتـاريخ عظيم ولكنه محدود، ومن ثم فسوف يتوقف التاريخ عـن أن يكـون تأريخيـا ويصبح شيئا دخيلا.

د) أما العمل العلمى الذى قام به الباحثون فى الدول الشرقية المختلفة فسوف يستقبل فى صمت، بل وسيكون موضع تجاهل كلى أكثر الوقت باستثناء تلك الأعمـال النادرة التى تشارك الاستشراق (الرسمى) نفس التوجه، أما بقية الأعمال فسوف يحكم عليها بأنها عديمة القيمة، وسوف تشوه سمعتها كما أن التخلف المنسـوب إلى الظروف التاريخية – ولا سيما إلى الاستعمار – سوف يحول إلى خصيصة تكوينية مميزة للعقلية الشرقية.

١ – ٣: أدوات الدراسة والبحث:

هذه الأدوات مؤلفة من ثروة من المواد القادمة من آسـيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينية تراكمت وتركزت فى المدن الأوروبية الكبرى: إذ يسير تـاريخ متحفـى جوميه وسيرنوششنى فى باريس وكذلك تاريخ المجموعات الكبرى فـى المتحـف البريطانى فى نفس الطريق الذى سارت فيه هجرة الكنوز والعقول العلمية (طوعـا أو كرها) من أوروبا إلى الولايات المتحدة بعد عام ١٩١٩، ولكن بما أن الدراسات العربية هى موضع الاهتمام فإن الموقف يصبح خطيرا بصورة خاصة، إذ توجـد عشرات الآلاف من المخطوطات حاليـا خـارج العـالم العربـى (اقتـبس رقـم ١٤٠,٠٠٠) وهذا العدد خارج تناول الباحثين العرب من الناحية العلميـة، ولهـذا السبب فإن الجزء الأكبر من هؤلاء الباحثين مضطر للاقتراب من قلـب تاريخـه القومى والثقافى مستخدما مصادر غير مباشرة فقط، وقد بدأت الجامعـة العربيـة

وعدد من الدول كل على حدة – ومن بينها مصر – في وضع عدد من المشروعات والأنظمة – وبناء دور النشر بهدف إعادة هذه المصادر التي لا يمكن إيجاد بديل لها(١٧) إلى العالم العربي.

(ب) طالما أن التاريخ الحديث والمعاصر هو موضع الاهتمام، فإن الجزء الأكبر والأهم من المواد المعنية بالدول المستعمرة والتابعة خصوصا الهند، ومصر والشرق العربي الأدنى والمغرب وأفريقيا السوداء.. الخ..) قد جمعت في دور المحفوظات الرسمية للقوى الاستعمارية الكبيرة السابقة، وغالبا ما يكون من الصعب الحصول على هذه المصادر، إذ أنها مطوقة بموانع من هذا النوع أو ذلك، وهي موانع أقلها قاعدة الخمسين عاما الشهيرة (أي عدم إذاعة الوثائق قبل انقضاء خمسين عاما) وهكذا تصبح معرفة الماضي عن قرب بمثابة بحث عن الذات وهو مطلب حافل بمآزق خطيرة.

(ج) أما المصادر الثانوية التي استخدمها المستشرقون التقليديون في الغرب(١٨) مثل تقارير المديرين الاستعماريين وتقارير الإرساليات الدينية(١٩) سواء كانت كاثوليكية أو بروتستانتية، وكذلك شروح وتقارير مجلس إدارات الجمعيات وكتب الرحلات... الخ فقد صبغت بدرجة عميقة بالعرقية والعنصرية بكل تنويعاتها التي تعد فكرة الشيء الغريب (الدخيل) وفكرة الوصاية الأبوية أقلها تطرفا، وإذن يتضح جليا أن مثل هذه المصادر الثانوية تلغي العديد من العناصر البحثية ولا تستطيع على أي حال من الأحوال أن تدعم بحثا علميا سليما رغم أنها يمكن أن تمد ببعض عناصر البحث.

تلك هي الخصائص الرئيسية للجزء الأعظم من الاستشراق التقليدي الذي مثل الاستشراق ككل حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، والذي لا يزال يحتل حتى اليوم مكانا مهما بصورة غير عادلة، ومع ذلك فقد هزت نهضة شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية منذ نهاية القرن التاسع عشر وتسارع هذه العملية نتيجة لانتصارات حركات التحرر الوطني في العالم الذي كان مستعمرا، وكذلك هز ظهور مجموعة من الدول الاشتراكية مع ما تبع ذلك من انقسام أوروبا إلى

"أوروبتين"[٢٠].. كل ذلك هز صرح الاستشراق التقليدى من أساسه، وأصبح المتخصصون والعامة على السواء وبصورة مفاجئة واعين بالهوة الواسعة بين العلم الاستشراقى وبين موضوع بحث، بل وأصبحوا واعين – وهذا أمر حاسم – بالهوة الواسعة بين مفاهيم وأدوات ومناهج العمل فى العلوم الاجتماعية وبين مفاهيم وأدوات ومناهج الاستشراق، وهكذا فقد وجد الاستشراق التقليدى المرفوض من التاريخ ومن النهضة القومية للشرق نفسه خارج المرحلة مع التقدم فى البحث العلمى، ومن ثم فمن الواضح أن الجسد الكلى للفكر الاستشراقى فى حاجة إلى إعادة النظر فيه.

٢ – وجها الاستشراق الجديد:

تقوم الأوروبتان حاليا بإعادة النظر فى جسد الفكر، وأوروبا الأولى هنا هى أوروبا القوى الاستعمارية بما فيها أمريكا الأوروبية، وأوروبا الثانية هى أوروبا الدول والحركات الاشتراكية التى سرعان ما انضمت إليها ثورات "القارات الثلاث المنسية (الصين الشعبية وكوبا)، والفجوة بين هاتين الأوروبتين فجوة سحيقة لاسيما إذا كانت المفاهيم العامة هى موضع الاهتمام.

٣ – الاستشراق الجديد فى أوروبا الغربية:

توجد وثيقتان أساسيتان هما المقرر الدراسى الافتتاحى الذى ألقاه جاك بيرك فى الكوليج دى فرانس فى ديسمبر ١٩٥٦ وتقرير هايتر فى عام ١٩٦١ إلى جانب عدد من الأعمال المنهجية سوف يسمحان لنا بتحليل هذا التجديد فى الاستشراق التقليدى داخل القوى الاستعمارية الغربية.

أ) المفهوم العام:

يلاحظ بيرك:

تبدو شخصية عالم الإسلام شخصية قابلة للشرح والنقل بوضوح، فهى توقظ لدى أى شخص يقترب منها الصورة الخالصة للكهف والـ daealus. إنها تدافع عن نفسها ضد الخارج.. ضد العالم الضال، ولكونها مراوغة ومهدده وساحرة فهى

تكشف عن نفسها شيئا فشيئا من خلال الغمـوض والازدراء أو الغوايـة، وهـذه الشخصية تقاتل من أجل إخفاء نقطة دخولها الحقيقية، إنها تخفـى حقيقتهـا، ولـذا يتراجع كثيرون أمام هذه العقبة الأولى سواء أغواهم المنظر الخلاب، أو أسرتهم – أوردتهم على أعقابهم – الروح القتالية، إلا أنه يتعين أنه يواصل البحـث تقدمـه، وينبغى أن نغدو أكثر فأكثر حساسية نحو الغير.. أى نحو الوجه العربى للأشياء.".

لقد أفضى العمل الذى تعهد به بيرك والذى يقوم لنا عرضه الأول هنا به إلـى الاعتقاد فى أن الدول العربية ولدت فى تاريخها الحديث بعد الحرب العالمية الأولى وبعد الحرب العالمية الثانية بوجه خاص، وكانت النتيجة من وجهـة نظـره هـى "سنوات من المراجعة المأسوية". وبالرغم من ذلك يقول بيرك "يجب أن نـتعلم أن نعترف بأن الدليل (إذا استخدمنا المصطلح العزيز لدى لويس ماسينيون) يقع تحـت المظهر" أنه يوجد خلط واضطراب فى كل مكان. إن التوتر يشوه هذه الدول، وقـد أصبحت "أبنيتها" تسير بسرعة كبيرة، كما أرادتها غامشة، فالشىء الملموس بالنسبة لهم يغمره المؤثر العاطفى دائما، هذا المؤثر الذى هو فعل الرمز، وكل الظـواهر عندهم تتحطم منكسرة إلى مراحل متعددة، وكل سلوك يتعين فهمه بأكثر من طريقة one negster وهنا توجد الصعوبات البالغة التى تواجه التعبير الذى خبروه كمـا تواجه مشكلات التفسير الذى تؤثر علينا.

ومن الطبيعى أن تكون الأبنية محاطة بالطلاسـم إذا عزلـت عـن سـياقها التاريخى وعن علم النفس الاجتماعى ككل، ولكن هذا الرأى ليس أقل حسـما،[٢١] وقد رابطت عملية المد والجزر الواسعة فى الأفكار، والتى بدأت حينذاك بين البنية والوجود وبين السببية (صادقة كانت أو زائفة) واحتياجات القلب وانتشار الانـدفاع الملحمى (البطولى) لتلك الدول، وإن كل هذه المحاولات تبدو لى استجابة للبحـث عن الدقة فوق كل اعتبار، وغالبا ما يكون البحث غير واف بـالغرض وملخصـا ومشوها، بل وفى أحيان أخرى غير أمين وغير خبير ومتسرعا إذا جاز لصـديق أن يقول ذلك من مسافة بعيدة، فتحليله (تحليل بيرك) للأشكال السياسية الحالية فـى الشرق لا يذهب إلى بعيد does not go very far either ففى كثير من الجوانب يستعيد هذا التحليل ما قاله رينان"[٢٢] ... إذ يمضى بيرك قائلا:

"إن هذا التاريخ ليس مستقلا بذاته، فحتى الآن ترفض هذه الإنسانية ما يسمى "بمساوئ الأشياء" pejedice gthings لأن التاريخ يأخذ من هذه المساوئ مذاقه كما يأخذ منها قوام الأشياء ذاتها، وهذه الدول سوف تقع تحت إغراء البحث عن الإثبات خارج الاستمرارية والمنطق، وربما خارج التاريخ متأثرة في ذلك بما وصفه كاتب مصرى "بالتاريخ شديد الوطأة" ولكن هل يستطيع المرء محاربة الحقائق بالشعارات حتى لو كانت الشعارات جليلة مثل الحرية؟"

ويمضى بيرك بعد أن أرسى حقيقة عدم الاستقلال وعجز الشعوب العربية والإسلامية على النحو الذى رأيناه عن التفكير فى شئونهم وتكوين أدوات المعرفة التى يمكنها وحدها إرساء الأساس العميق للعمل والتقدم... يمضى ليملأ هذا الفراغ خصوصا فى كتابه les nales d'heis é de main (العرب بين الأمس واليوم) المنشور سنة ١٩٦٠ قائلا:

"ويحتفظ العرب اليوم أو اليوم أنهم يستعيدون الرجوع إلى ذاتهم.. بمعنى الاستقلال فى الشعور والتعبير الذى ينبغى إبعاد أى نظام خارجى عنه مهما كان سيثرى هذا الاستقلال.. فألا يعد ذلك دافعا كافيا لأى باحث أجنبى لكى يمتنع عن جعل نظريته تتقدم إلى الأمام لأنه أولا موضع شك، ولأنه ثانيا مشدود إلى الخلف بآلاف من المحاذير خوفا من أن يجرح الأحاسيس الحية لآخرين؟ ولكن الأمر على النقيض من ذلك، لأن إسهام الباحث الأجنبى سوف ينمى تلقائية العرب، إذا أنه إذ جرؤ على أن يقدم لهم نظاما لتفسير تاريخهم المعاصر فسوف يكون ذلك على أمل أنهم سوف يحكمون على هذا التاريخ، وكلما استثار قدرا أكبر من النقد من الداخل كلما ساعدهم هذا النظام أكثر على السير نحو التقدم الذى يسعى نظام تفسير التاريخ" إلى الإسهام به، ومن الطبيعى أن ذلك النظام سيكون فى وضع غير مناسب لأنه ببساطة يأتى من أجنبى ولكن يحتمل أن يكون له ميزة ثانوية من ناحية أخرى، لأن – نجاحه أو فشله سيكون فشلا أو نجاحا للاستشراق الجديد بنوعيه النزيه والملتزم."(٢٣)

وقد أدت ردود الفعل التى استثارتها هذه الرؤية للعمل الذى يجب عمله إلى تحريك بيرك بعد ذلك بعامين إلى تحديث أفكاره، فكتب يقول: "ارتأى كاتب

مصرى بالنسبة لكتابى الأخير أننى أوجه نفسى إلى القارئ الشرقى مثلما أوجه نفسى للقارئ الغربى، أى كما لو كان هناك شئ جديد، أليس هذا طموحا مبالغا فيه؟ إن أية دراسة تتصور بهذه الطريقة تتطلب من موضوعها أن يصبح ناقدا ومحاورا ومشاركا،[٢٤] ولكن أداة – هذا التمحيص سوف تكون هى الثقافة الفرنسية، لأننى أستطيع أن أؤكد بجرأة أن الفرنسيين أخذوا الهلينستية من الشعوب العربية."[٢٥]

لقد وضع كتابا المؤلف – وأحدهما عن العرب والآخر عن المغرب – إطار هذا السلم الجديد للأنماط، ونحن هنا مهتمون بالمنهجية، لذا فلن نبحث مسلمات هذا السلم ولا مقولاته ولا نتائجه، ومع ذلك فينبغى أن نلاحظ أن سلم الأنماط الجديد يتبنى "فروقا" جديدة بأخذ العامل الاقتصادى فى الحسبان رغم أنه يبقى "جوهريا" فى قلبه.[٢٦]

أما فى العالم الأنجلوساكسونى فإن أسلوب تناول المشكلة مختلف... ففى سنة ١٩٤٦ أنشئ معهد الشرق الأوسط فى واشنطن، وتبعه فى عام ١٩٤٩ إنشاء مجلس شئون الشرق الأوسط فى نيويورك، وفى بريطانيا العظمى بدأت لجنة سكاربورد سنة ١٩٤٧ – وبمشورة من أ. ج. آربرى تجديد الاستشراق، إذ تطلبت نهاية الحرب "منا أن نضطلع بالمسئوليات التى لا نزال نلتزم بها فى المستعمرات، وأن نعالج علاقاتنا بدول الدومين وجيراننا الأقربين من شعوب آسيا وأفريقيا وكذلك علاقاتنا الجديدة بالهند وبورما وسيلان"، وقد صاغ هذا التقرير نقدا علنيا للمركزية الأوروبية، وأشار إلى تخلف الدراسات الشرقية فى بريطانيا العظمى إذ ما قورنت بمثيلتها فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا وهولندا والاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة، وفى هذا السياق فإن هذا الداء (التخلف) لا يليق بموقفنا كقوة عظمى ويخفق فى مجاراة مسئوليات الإمبريالية، " إن الشئ المطلوب هو تنظيم الدراسات الحديثة لكى تساعد على نحو متخصص العلماء والأطباء والمهندسين والاقتصاديين الذين يرغبون فى احتراف الدراسة والعمل فى الشرق ولتمكينهم من إيجاد مكان ثابت هناك."[٢٧]

وبعد سنوات أربع استجابت لجنة هايتر بلغة سياسية قوية لموقف ظل ضعيفا، فقد تحرك مركز الجاذبية العالمية بعيدا عن أوروبا، ولم يكن الوقت وقـت علمـاء اللغة، ولكنه كان وقت "الفائض من المؤرخين وفقهاء القانون والاقتصاديين وسائر المتخصصين فى العلوم الاجتماعية". وكانت الأهداف المتصورة هناك كمـا يلـى: تزويد الدولة باحتياطى كبير وأكثر توازنا من البحوث والمواد المنشورة عن تلـك الدول "والمساهمة فى تكوين كتلة من الرأى عنهـا" "وتنشـيط الاهتمـام باللغـات الشرقية بطريقة غير مباشرة، وأخيرا زيادة نسبة الدراسات الحديثة ودراسة اللغات الحديثة إلى الدراسات الكلاسيكية"[٢٨] وقد حللت اللجنة جهود الولايات المتحدة وإن يكن ذلك قد تم بطريقة أفضل بعد ظهور نتائج لجنة سكاربورو، ولاحظت اللجنـة التأثير القوى على هذه النتائج من الجهود المبذولة ومن نمط المنظمات التى أنشئت وكذلك من جراء الاهتمام المعطى للدراسات الحديثة". وقد استرعت اللجنة انتبـاه الحكومة البريطانية إلى النقاط التالية:

المساندة القوية من جانب حكومـة الولايـات المتحـدة للدراسـات الشـرقية والسلافية بالنظر إلى أهميتها القومية، والاهتمام المعطى من خلال مراكز دراسات المناطق لتحطيم الحواجز بين الفروع الدراسية المختلفة بغية ترويج ودعم الدراسة المتوازنة لتلك المناطق والأثر المنشط للتأكيد على الدراسات الحديثة، ودور المـنح المخصصة للخريجين بهدف توجيههم نحو مجالات جديدة للعمل، وقيمـة البـرامج المكثفة لدراسة اللغات وتنمية المساعدات الآلية المصممة للتغلب على مشكلة تعلـم اللغات التى لا يمكن تعلمها فى المدارس ولتخفيض فترة التعلم.

هل يعنى ذلك إذن أن على المرء أن يتبع نموذج الولايات المتحدة؟ إن تقاليـد الدراسة الهيلينيتية والشرقية الكلاسيكية أقل عمقا فى التربة الأمريكيـة منهـا فـى أوروبا، ولذا فإن البحوث البريطانية فى هذا الميدان وبصفة خاصة فى الدراسـات الشرقية تقع داخل التقاليد الكلاسيكية واللغوية الجامدة لأوروبا الغربية، بينما تحدث معظم التطورات الحديثة – مع التركيز على العلوم الاجتماعية فى أمريكا،[٢٩] إنـه يجب ضمان الحوار ومصالح الدولة عن طريق مد نطـاق وتحـديث مثـل هـذه الدراسات على الحال التى تتم عليها وعن طريق تحسين مؤهلات الباحثين.

بدلا من "اختراق الاستشراق الأوروبى للشئ" الذى سيدرس.. ذلك الشئ الذى لا يتمتع باستقلال ذاتى.

ولن يكون بوسع أحد أن ينكر أن هذه المسلمة الأساسية التى توجد فى القلب من كل مدارس الاستشراق الأوروبى سواء أكان تقليديا أم مجددا مستمرة فى الكمون تحت أعمال كل الدراسين الغربيين غير الاشتراكيين، وعلى هذا النحو اتخذ السير هاميلتون أ. جيب لدى مراجعته لتاريخ الإسلام من أصوله الأولى حتى عصرنا من مؤلفى القرن التاسع عشر قاعدة انطلاقه، ولايقف بين هؤلاء سوى مؤلف شرقى واحد هو أ. ف. عفيفى،(٣٠) وقد استمعت الحلقة الدراسية الخيرة حول علم اجتماع المسلمين والتى انعقدت فى بروكسل فى الفترة الأخيرة من ١١ إلى ١٤ سبتمبر سنة ١٩٦١، إلى عشرين متحدثا لم يكن بينهم شخص واحد من الشرق ،وكان ذلك بالضبط هنا ما استنكره چاك بيرك،(٣١) وكانت المسألة الجوهرية فى الحلقة هى تطور المجتمعات العربية الإسلامية فى القرن العشرين، ويحتل المؤرخ المصرى حسين مؤنس مكانة مناسبة تتيح له أن يظهر كيف أن الكثير من الكتابات التى قدمت فى حلقة بروكسل بعيدة بعدا سحيقا عن الطور التاريخى الذى هو تحت الصنع،(٣٢) وتشارك كتابات ج. أ ڤون جرونيبوم الأخيرة فى هذا المنطق، وأكثر من ذلك فإن الخلفية الفلسفية الجادة لواضع هذه الكتابات سمحت له بتقديم تحليل بنيوى يكشف عن جهد يتجاوز العادات القديمة،(٣٣) وأما مقولة فينسنيت مونتيل الأخيرة عن العرب المحدثون فهى حافلة بالأخطاء – على عكس كتاب هانز فهير – وهذه الأخطاء نتيجة لرغبة فى التنظير دون معرفة حقل الدراسة من داخله.(٣٤)

ب – مناهج الدراسة والبحث:

يواصل الماضى احتلال الخط الأمامى للدراسات الشرقية ولكن لم يعد هناك وحده، فقد أسهمت متطلبات السياسة وانتقال مركز الجاذبية إلى ما وراء الشواطئ الأوروبية، والعواطف التى استثارها الظهور القوى لشعوب الشرق التى كانت حتى عهد قريب خاضعة ولينة العريكة، وكذلك أسهمت الحاجة إلى جعل العادات القديمة

صالحة للعمل فى الوقت الحاضر أو حاجة هذه العادات إلى محاذاة العلوم الاجتماعية الأخرى.. نقول أسهمت كل تلك العوامل وبطريقة حاسمة فى دفع الاستشراق الجديد إلى الحقيقة الحديثة المعاصرة.

فالحاضر الذى اعترف به أخيرا كموضوع للدراسة (ولكن بتكلفة باهظة غالبا) لا يستطيع التهرب من مطلب الحاجة إلى سلالم أنماط مناسبة لشعوب الشرق المختلفة عن شعوب الغرب، وسوف تكون الفلسفة الشرقية المختلفة هى الوسيط بين الطلب الاجتماعى والسياسى على هذه الأنماط وبين النزعة التحديثية، وهذه الفلسفة ترى أن مهمتها كما نعرف هى دراسة أجزاء (قطاعات) الواقع بوصفها أبنية، ليس كنتاج أو مجموع أو نقطة التقاء لعملية تطور تاريخى، وبتصور الأمور بهذه الطريقة تظهر البنائية فى العلوم الاجتماعية بوصفها التعبير الأكثر مقبولية والأكثر موضوعية عن الفينومينولوجيا (الشكل المهيمين من الفلسفة اللاعقلية فى عصرنا). فالمنهج البنائى يتحرك فى ميدان الاستشراق على أرض مشابهة ولكن مع التسليم، وإذا جاز التعبير، أنه يتخذ من الدراسات اللغوية لوسير فى كتابة (والمكتوب خلال الفترة من ١٩٠٦ إلى ١٩١١) نقطة بداية وقد تعود المستشرقون التقليديون – وغالبيتهم إما لغويون وإما متخصصون فى الأديان – على البنائية، وهم على وفاق مع زملائهم المحدثين (المستشرقين الجدد) الذين عددهم المنهج البنائى بأكثر الوسائل قطعية وحداثه لتنمية سلالم أنماطهم فى سياق التجديد.

ولسوف يستمر الوضع على أن ينتقض من قيمة العمل العلمى الذى يتم فى الدول الشرقية، سواء من خلال التجاهل إلا أنه سوف يصبح من الصعب وأكثر فأكثر إن لم يكن سيصبح مستحيلا وضع نظرية عن قطاع بأكمله سواء أكان عربيا أم صينيا أسيويا أم أمريكيا لاتينيا أو إسلاميا على قاعدة من محدودية الوثائق والبيانات، بينما ينمو الإنتاج المحلى فيها كل يوم، أو من أجل الاحتفاظ بالأولوية (النظرية) للمعرفة.[٣٥]

ويظهر المنهج المرتكز على المشاركة والاختيار الذى اقترحه وبدأ العمل به جاك بيرك على أنه أكثر المناهج استحقاقا للاهتمام، فى موضوع حى ومستمر

وملئ بالمعاناة مثل "الشرق" لا تعد الأدوات المعتادة للعلوم كافية بالرغم من أنها في ذاتها قيمة ضخمة، ومن ثم يجب على المرء أن يحيا متصلا بالناس وأن يلاحظ حياتهم اليومية، بل وأن يشاركهم حياتهم، ولكن هل الممكن عمل ذلك بطريقة خالية من العاطفة؟ كتب بيرك وهو محق تماما لدى إشارته إلى هذا "البحث القائم على المشاركة بتزايد يقول إن التأثيرية ليست هى موطن قومى، قدرنا هو أن نفهم، ولكن إذا كان من شأن التحليل أن يكون مؤثرا وأن يتعمق بالقدر الكافى فيجب ألا يفك الارتباط الحقائق بسياقها العاطفى، ولا بالمعنى الذى تعطيه التجربة والمعيشة لهذه الحقائق.[٣٦]

وتعتمد قيمة تلك المشاركة عند و. كانتويل سميث – ذى الخلفية الكندية غير الإمبريالية – على رأى الناس المحليين. فالعمل سوف يخفق إذا كان المثقفون والمسلمون المخلصون غير قادرين على الاعتراف بأن الملاحظات التى بدأ منها العمل دقيقة أو على إدراك أن فى تفسيرات هذا العمل وتحليلاته إسهام رغم حقيقة فى التوضيح.[٣٧]

جـ - أدوات الدراسة والبحث:

تطمح القوى الغربية – لاسيما الولايات المتحدة – إلى إضافة مراكز جديدة لتراكم الثروة الثقافية والمادة والبحث إلى مخزونها الموجود بالفعل، ووسائل هذه القوى أعظم بصورة غير منصفة من أية أدوات يملكها الشرق بمؤسساته الدراسية، وباحثيه فى حوزته.[٣٨]

ولقد اعترف بأن التعاون فيما بين الدارسين والباحثين فى دول الشرق هو ضرورة موضوعية، ومع ذلك فسوف نلاحظ أن الولايات المتحدة لديها كراس جامعية ووسائل نشر كافية تماما،[٣٩] بينما ينظر إلى هذا التعاون فى أوروبا بوصفه أمرا قانونيا.[٤٠]

ومع ذلك فقد أدت الواقعية بـ هـ. أ. ر. جيب إلى أن يدافع فى نهاية عرضه لإخفاقات الدراسات التاريخية للشرق الحديث عن تقسيم العمل على النحو التالى:

المهمة الأولى للأكاديميين الأوروبيين هى بحث وتنسيق وتقويم المصادر الغربية بطريقة نقدية، أما الميدان الخاص للأكاديميين المحليين فسوف يكون بحث وتنظيم ودور المحفوظات المحلية وإعداد الوثائقيين لديهم، وسوف نلاحظ أنه لا يوجد فى حالة الأخيرة تقويم نقدى للمواد المجمعة، وفى الوقت نفسه "فلا بد أن يستقر فى الأذهان وبلا مجال لأى سوء فهم أن الأكاديمى الغربى سوف لا يقوم بأى عمل على المستوى الأكاديمى فى ميدانه الخاص ما لم تكن لديه معرفة كافية بالعربية أو الفارسية أو التركية حسب الحالة المدروسة، وبالخلفية التاريخية والثقافية ويعنى ذلك – بالطبع – أن الدارس الناضج لتاريخ الشرق الأوسط يجب أن يكون مستشرقا بمعنى من المعانى، ولكن ذلك لن يكون إلا إذا حصل المؤرخ على مؤهلات فنية فى ميدان أكثر اتساعا من مجرد احتياجه ببساطة إلى أن يكون مؤرخا جيدا للشرق الأوسط.(٤١) ولهذا السبب يتعين أن تكون الأولوية هى التعليم العلمى المتخصص يضاف إليه إعداد لغوى ثقافى.

تأملنا حتى الآن وبشكل مناسب تماما فى المدرسة الاستشراقية الجديدة فى الغرب... ومع ذلك وفى الوقت نفسه كان استمرار تعاون المركزية الأوروبية فى (تجليات) ما بعد الحرب العالمية الثانية إلى جانب بروز الصراع المباشر بين الدول المستعمرة (الشرق) والقوى الاستعمارية (الغرب) وقد جند تكوين مجموعة فرعية جديدة من الناشرين والصحفيين المتخصصين فى الشئون الآسيوية والإفريقية، وفى مناسبات معينة يصل هذا إلى الجامعات، ولكن الجهل بلغات الشعوب الشرقية عادة ما يكون مقرونا بالتعليم العلمى المهلهل، إلا أن المهارات البلاغية والأسلوبية بالإضافة إلى موهبة الصحفى الكبير يمكن أن تحترم كضمانة ككتابات عقلانية ومقبولة، وهى كتابات تقدم نفسها كمصادر للمعلومات المباشرة "والمتخصصة" لمثقفى الشرق وللعامة فى الغرب.(٤٢)

٢ – ٢ – الاستشراق الجديد فى القطاع الاشتراكى من العالم:

نحن هنا مهتمون بصفة مبدئية بالقطاع الاشتراكى من أوروبا (الحركات والدول)، ذلك أن الأعمال الصادرة عن الصين تبدو أكثر ألفة مع مفاهيم الدول

المستقلة غير الاشتراكية والحركات الاشتراكية فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية على الرغم من المحيط المشترك فيما بين الصين وهذه الدول والحركات.

وقد بدأ البحث فى القطاع الاشتراكى يشكل نفسه بالدراسة المتعمقة لدول الشرق فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وقد أشرنا بالفعل إلى الدور الرائد لأعمال جاك بيرك فى المحيطين العربى والإسلامى، وقد بسط بيرك نظريته الشاملة فى كتابه ١٩٦٤ "ومصر بين الإمبريالية إلى الثورة" ١٩٦٧ و"الشرق الثانى" ١٩٧٠ إلى جانب الدراسات المساندة لهذه الكتب وهذه الدراسات متداخلة التخصصات المعرفية، كما مكسيم رودينسون تفكيره فى الاستشراق التقليدى من ١٩٥٠ فصاعدا استجابة للظهور القوى لحركات التحرر القوى فى الدول العربية والإسلامية،[٤٣] وبالتزامية مع رودينسون بدأ حين شيسنو تطوير أفكاره فى كتابه وفى سنة ١٩٤٥ بدأ چوزيف نيدهام عالم البيولوچيا البارز فى جامعة (كمبردچ) وذلك بعد ٢٥ عام من الإعداد نشر كتابه الموسوعى الضخم "العلوم والحضارة فى الصين" بقصد أن يستعيد لحضارة وثقافة عصرنا بعدها الصينى الذى سقط فى غياهب النسيان ابتداء من القرن الثامن عشر الأوروبى فصاعدا، وهذا الكتاب نموذج للمعرفة الموسوعية والدقة العلمية والعمق النظرى، فهو كما وصف بحق أعظم عمل فى التركيب التاريخى والاتصال فيما بين القطاعات يمكن لأى كائن بشرى أن يضطلع به (ل. بيكن).[٤٥] وفى الدول الاشتراكية كانت المسألة هى اختيار التقليد القديم مرة أخرى: هذا التقليد الذى اضطرب الآن مع الاهتمامات الجديدة للمنهجية الماركسية والظهور السياسى للشرق.[٤٦]

ولقد أعطى مؤتمر باندونج لتضامن الشعوب الأفروآسيوية (أبريل١٩٥٥) قوة دفع حاسمة للتجديد الثقافى، ولاسيما فى ميادين التاريخ والعلوم الاجتماعية والأدب فى القارتين، وسرعان ما أعقب مؤتمر باندونج المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى (١٩٥٦) وقد عالج المؤتمر الأول للمستشرقين السوفيتى والذى عقد فى طشقند سنة ١٩٥٧ الأفكار العامة التالية:

١ – إعادة فتح ملف النظام الإمبريالى.

٢ – مهام الاستشراق السوفيتى بعد المؤتمر العشرين.

٣ – الأهمية العالمية لباندونج، وقد أعطى المؤتمر الحادى والعشرون للحزب الشيوعى السوفيتى قدرا أكبر لهذا التوجه، الذى سيصل إلى مرحلة الإثمار مع المؤتمر الدولى الخامس والعشرين للمستشرقين الذى عقد فى موسكو فى أغسطس سنة ١٩٦٠.

ولسوف تسمح لنا هذه المقدمة التاريخية الوجيزة بتقديم تحليل للاستشراق الجديد فى القطاع الاشتراكى.

أ – المفهوم العام: على مستوى الإشكالية: يجب أن يرافق نهاية الهيمنة الأوروبية السياسية التى شهدت مؤتمر باندونج وقيام اليونسكو وتقريرها المواقع الأيديولوجية للزعماء الصينيين بنقد أصولى "للمركزية الأوروبية" ورفضها النهائى الحاسم بعبارات تصبح بمثابة مبادئ، إذ أن الحضارة الغربية مستمرة فى المعاناة من تفاخر ثقافى ليس له ما يبرره بزيف اتصالاتها بشعوب العالم الأخرى، ويمكن وصف هذا التفاخر الثقافى باطمئنان إلى سلامة هذا الوصف بأنه ازدراء روحى من أعلى أو أنه أيضا أمر روح الشر فى المسائل المقدسة". أو كما يقول نيدهام فى استنكاره "الأيديولوجية السيطرة على الحاضر الدائم". إن إدراك حقيقة أن شعوب آسيا تستطيع أيضا أن تشارك فى كل فوائد العلم الحديث، وأنها تستطيع أن تكتب وتقرأ وتدرس وتستوعب من الداخل (مجلة الطبيعة الحيوية) على سبيل المثال، وأن تستعيد احترامها لذاتها لتصل إلى مستوى من الحياة عاليا وسامقا مثل أى جزء آخر من العالم، مدركة أن كل ذلك هو الأفضل فى معتقداتها الدينية وتقاليدها الثقافية إن هذا الإدراك يحدث ببطء شديد.[٤٧]

والخطأ الأصلى فى المركزية الأوروبية هو المسلمة الضخمة بأن العلم والتكنولوجيا الحديثين اللذين ترجع جذورهما إلى النهضة الأوروبية عالميان، وأن يستتبع ذلك أن كل ما هو أوروبى هو عالمى بنفس الدرجة "ويوضح نيدهام أن ذلك خطأ فى العلم والتاريخ معا، ويشدد على دور الدين كأداة للاختراق والتكامل مع أوروبا.[٤٨]

ولقد كانت نغمة مختلفة كل الاختلاف تلك التى تبناها أنستاس ميكويان النائب الأول لرئيس مجلس وزراء اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية فى خطابه المهم إلى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الخامس والعشرين للمستشرقين "غنى عن القول أن الانتفاضة الثورية فى حياة شعوب آسيا وإفريقيا قد بذلت بصورة جذرية لطابع يحتوى الاستشراق، وبوسعنا أن نقول إن الجانب النظرى الخاص الجديد والمبدئى فى الاستشراق هو أن شعوب الشرق تخلق بنفسها ولنفسها الآن علمها الخاص وتصور تاريخها وثقافتها واقتصادها، وهكذا فقد ارتقت شعوب الشرق من كونها مجرد موضوع للثقافة إلى مصاف الخالقين، وهذا هو ما يميز هذا المؤتمر عن كل ما سبقه من مؤتمرات".

ولهذا الإعلان بالمبادئ الذى يرتبط بالجوهر الأصلى لفكر شعوب آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ومثقفى القارات الثلاث رؤية سياسية مطابقة – الجبهة العمالية للنضال ضد الإمبريالية: فيمضى ميكويان قائلا:

"إن واجب المستشرقين أن يعلوا فى أعمالهم وبطريقة فعالة (التفاعلات) العمليات الأكثر أهمية فى دول آسيا وأفريقيا، وأن ينقسموا بطريقة خلاقة فى صياغة المشكلات الرئيسية للشعوب الشرقية فى نضالها من أجل التحرر القومى والاجتماعى ووضع نهاية لتخلفها الاقتصادى، إن لنا الحق فى أن نقول إن الاستشراق حينئذ، وحينئذ فقط، سيكون جديرا بأن يؤخذ بجدية وأن يعد ناجحا من اللحظة التى يخدم فيها مصالح شعوب الشرق".[٤٩]

وكانت هذه هى الأفكار التى عبر عنها الأكاديمى ب. ج. جانورث مدير معهد موسكو للدراسات الشرقية فى خطابه الختامى للمؤتمر:

"نحن الآخرون.. أى المستشرقون السوفيت نعتبر أن واجبنا العلمى وواجبنا الذى يمليه ضميرنا هو مساعدة شعوب الشرق بلا توقف فى نضالها من أجل مستقبل أفضل، ونحن مقتنعون بأن اكتشافاتنا ونتائجنا العلمية وإن منهجنا العلمى العميق المنهج الماركسى وكذلك التجربة المرتكزة على النظرية العلمية التقدمية..

أقول نحن مقتنعون بأن كل ذلك سوف يساعد شعوب آسيا وإفريقيا على حياة أفضل و إيجاد أكثر الطرق فعالية لتحقيق التقدم".[٥٠]

وسوف نلاحظ هنا أن تقويم الاستشراق علميا يتم على أساس موضوعيته والإسهام الذى يمكن أن يقدمه لأعمال التحرير والبناء والقوميين، وبالمعنى أن – يشارك مع "الذات أى الخالقين".

ومع ذلك فعلى مستوى الفكرة الرئيسية فإن العديد من المستشرقين الأوروبيين الاشتراكيين مثل شينو مستمرون فى الاعتقاد أن:

وضع الدراسة العلمية لدول آسيا وأفريقيا ببساطة وبصورة خالصة على قاعدة عمومية علوم اللغة والتاريخ سوف يؤدى عند المستوى الحالى بين التنمية العالمية إلى الارتداء خلفا إلى المركزية الأوروبية، وليس الحاجز اللغوى وحده هو ما يبرر التنظيم الخاص للعمل، ولكننا لا نستطيع تجاهل الملامح الكثيرة التى لا تزال شائعة ومشتركة حتى اليوم بين كل تلك الدول الآسيوية والأفريقية وهى الملامح التى تميزهم بموضوع عن أوروبا، إن الاستشراق مفهوم قديم ولكن الدراسات الآسيوية والإفريقية هى التى تواصل اللحاق بمشاكلهم الخاصة مثل التخلف وتاريخ التوسع الاستعمارى والحركات القومية وتقاليدهم الخاصة الباقية من العصور الوسطى... الخ.[٥١]

ويشير المؤلف وهو على صواب تام فى ذلك إلى "إثراء النظرية الماركسية العامة فى تاريخ العالم" بعناصر تالية برزت من خلال دراسات الخصوصيات القومية المتميزة لآسيا وأفريقيا: أهمية "النمط الشرقى فى الإنتاج" فى الإطار العام للتقسيم الدورى للتاريخ الإنسانى إلى خمسة أنماط أصولية للإنتاج[٥٢] وشرح الإمبريالية الاستعمارية الذى يصف تناقضاتها الداخلية والتى تعد السيطرة الوحشية والقمع والجمود اللذين يصاحبان هذه السيطرة هم ملمحها الأول الرئيسى وذلك دون تجاهل ملمحها الثانوى الذى يعد فى الوقت نفسه ملتمحا واقعيا بنفس الدرجة، وهو بالتحديد ظهور عناصر جديدة فى المجتمع وهذه العناصر هى ما أشار إليه ماركس عندما يحدث عن الشخصية المزدوجة للإمبريالية البريطانية فى الهند"[٥٣]

ثم ظهور حركات التحرر القومى فى المستعمرات بوصفها حركات أكثر تقدما، من حركات العمال فى أوروبا – ونحن هنا نتكلم بموضوعية – ثم أهمية مـا يسـمى بالروح القومية،[٥٤] وكذلك ظهور نمط ثالث للأمة (بعد النمطين اللـذين حـددهما ستالين، فأدخل المجموعة الأفروآسيوية طبقا لدرجة تماسكها عبر التاريخ وعالميـة الفكر الماركسى[٥٥] والدور المختلف لعنصر العمالية الذى يميل إلـى أن يصـبح عنصرا مركزيا للقوى الشعبية والشعب وليس فقط مركزيا لطبقة مهيمنة.[٥٦]

ولكن الصيغة السوفيتية الرسمية بعد المؤتمر الحـادى والعشـرين للحـزب الشيوعى كانت أكثر تقليدية، وقد برزت مجموعة المشكلات والظـواهر الكثيـرة عندما أخذت الدول الكبيرة فى الشرق تضرب فى طريق التنمية السيادية وخاصـة كفاح الطبقة العمالية لرفع مستويات معيشتها، ودور هذه الطبقة فى عملية التصنيع فى الدول المتخلفة من وجهة النظر الاقتصادية ومشاركتها فى الحياة الاجتماعيـة والدولة ككل، ودراسة المشكلات المرتبطة بالتمييز الطبقى بين الفلاحين وبالتطور الرأسمالى المتسارع وللزراعة ونتائجه، ومشكلات صراع الطبقة العمالية من أجل الهيمنة فى قلب الحركات الفلاحية، وكل هذه العناصر مثيرة ومهمة بصفة وخاصة ولسوف يسدد البحث الجاد فى ميدان خلق وتنمية الآداب القومية لدول أفريقيا وآسيا ضربة مميتة لنظريات المركزية الأوروبية، ومن أجل هذه الغاية تعتبـر دراسـة مشكلات التفاعل بين كتابات الشرق وكتابات الغرب ذات أهمية فائقة.[٥٧]

ب – مناهج الدراسة والبحث:

ينبغى قبل كل شئ أن نحدد "اتجاها جديـدا نحـو مشـكلة العلاقـات بـين الاستشراق وكل علم من علوم الإنسانية، على أن يتم تصور كل منها داخل طابعه العالمى الشامل لكوكبنا الأرضى، وسواء كان هذا العلم هو التاريخ أو الاقتصاد أو علم الاجتماع أو الآداب أو علوم اللغة، فإن المنظور يجب أن يكون هو الدراسـات لاسيما وذلك توجه هذه الدراسات نحو ما يمكن أن نسميه (القانون العام) فـى كـل فرع من فروع المعرفة. ويستمر شينو قائلا:

إننا لا نستطيع التهرب من عقبة اللغة، ولا مـن الميـراث الاجتمـاعى مـن العادات والتقاليد، ولكن بمجرد أن تذلل هاتان الصعوبتان يجب أن نكـون قـادرين

على الاقتراب لمنهج واحد وبإشكالية مشتركة من البورجوازية الإيطالية أو البورجوازية الإندونيسية أو من تحليل الـ (أو نهضة الأدب الصينى سنة ١٩٢٠) ومن دراسة الاقتصاد البريطاني في سياقه القارى أو الاقتصاد الهندى منذ الاستقلال، ولن يفيد هذا التوجه الدراسات الآسيوية فحسب، ولكن سوف يسمح أيضا بوضع أساس عالمى حقيقى لكل علم من علومنا الإنسانية التى اشتق جهازها المفاهيمى وعناصرها الأساسية فيما سبق، وبصورة خالصة من دراسة أوروبا الغربية مع استثناءات نادرة للغاية.

ومع ذلك فإن فكرة وجود خصوصية عامة معينة نسبتها إلى كل المحيط الأفروآسيوى لا تزال تقاوم.

وعلى أية حال فإن منظور العالمية وتطبيع الدراسات الآسيوية تستبعد حاليا إمكانية أن هناك مقاومة اليوم للعلاقات الفعلية الوثيقة والصلات الموضوعية بين دول آسيا.[٥٨] ويكفى اسم باندونج لتأكيد هذه النقطة، ولكننا يجب أن نذكر دائما وبعناية أوجه التشابه التى لا تزال حتى اليوم فى التطور المعاصر لدول آسيا (وأفريقيا) وهى أوجه تشابه لا تزال حتى اليوم تميز هذه الدول بوضوح عن أوروبا، ومع ذلك فهذا شئ يختلف تماما من وجهة النظر المنهجية عن منظور الأفكار والمصطلحات التقليدية للاستشراق، لأن هذا شئ يتناسب تماما مع الوحدة المنهجية فى دراسة مجتمعات الشرق والغرب.[٥٩]

ولقد كان تجاهل الشرق موضع استنكار مفكرين لاسيما من جانب نيدهام واتيابل،[٦٠] فالفلسفة التى تدرس فى الجامعات الأوروبية حتى مستوى التخرج والدكتوراه هى فلسفة أوروبية بصفة جوهرية، ومع أن الفلسفة الصينية تمثل ما يقرب من ثلاثة آلاف من التطور المستمر،[٦١] ورغم أن الفلسفة الدينية والأساطير المصرية هى التى مهدت ويعمق للفلسفة اليونانية، فإن الفلسفة الشرقية فى العصور الوسطى كانت مختلفة للغاية عن مجرد "الانتقال البسيط للتراث اليونانى".[٦٢] وقد أثمرت مثالية الفكر الهندى حضارة واسعة متعددة الأبعاد والألوان، وبوسع المرء أن يقول نقل ذلك عن تاريخ العلوم لاسيما الرياضيات والبيولوجيا والطب والفلك،

ولقد بدأت أوروبا الآن فقط تكتشف الأدب التقليدى لآسيا وإفريقيا وذلك بفضل أعمال اللجان القومية المختلفة لليونسكو بوجه خاص، ومع ذلك فإن آداب الفترة الحديثة لا تزال فى الغالب مجهولة كلية.

وإذن فسوف يوضع التركيز على أولوية دراسة الحاضر، أى على عملية تطور المجتمعات الشرقية فى الحقيقة الحديثة والمعاصرة(٦٣) ويجب أن تصبح الدراسة الأكثر تعمقا للمشكلات الجارية للفترة المعاصرة ودراسة مركزية وأصلية ويضيف المؤلف السوفيتى على الفور قائلا: "إن هذا سوف يساعد على إيجاد حلول خلاقة فى المستقبل لمشكلات السياسة الخارجية السوفيتية بالنسبة إلى دول الشرق وهى ما يجب أن يكون مسألة شرف بالنسبة للمستشرقين(٦٤) ويوضح المؤتمر الخامس والعشرون للمستشرقين فى موسكو النحو النمو السريع للدراسات الحديثة بين المستشرقين التقليديين كما أن ازدهار الأجزاء القومية، كان دليلا لا يمكن حضه على الظهور أمم ودول لم يعد فى المقدور تصفيفها تحت عناوين "نمطية".(٦٥)

وعلى أية حال فلا يتأتى إحداث هذا التغير الحاسم والمصمم فى الوزن النسبى لكل من القطاعين "الكلاسيكى" "والحديث" فى الدراسات الشرقية على حساب الماضى.

إن نيدهام كتب يقول إننى لا أنوى مطلقا التقليل على أى وجه من الوحدة من التحسن غير العادى الذى أحدثته الحكومة الصينية الحالية تحت قيادة الحزب الشيوعى فى أصول الصينين، ومن ناحية أخرى فسوف يكون من الصعب على الغرب فهم هذا العمل إذ فقد الغربيون رؤيتهم لبعض الخصائص السلفية للحضارة الصينية التى يقفون إزاءها فى حالة جهل مؤسف، وفى الواقع فإن الكتاب المعاصرين أنفسهم يميلون أحيانا فى سياق رغبتهم فى إبراز التجديد العميق والنهضة اللذين تمر بهما بلادهم إلى فصل واستبعاد ماضيهم إما بالتشديد على أكثر جوانبه اعتبارا مثل خضوع المرأة أو جشع كبار ملاك الأرض أو بالمبالغة فى تقدير فلسفة الفن فى الفترات الماضية، ويشبه ذلك قطع فرع الشجرة الذى يجلسون فوقه.

إن بقية العالم فى حاجة – وهذه حقيقة – إلى أن تعلم وبكل تواضع عن الصين فى كل عصورها – وليس عن الصين المعاصرة فحسب، لأن العالم سوف يجد فى الحكمة والتجربة الصينيين أطباء للعديد من أمراض الروح، كما سيجد عناصر لا يمكن الاستغناء عنها لصالح مستقبل فلسفة البشرية كلها.(٦٦)

وبطبيعة الحال فإن المفهوم الماركسى للتاريخ والمنهجية المصاحبة لهذا المفهوم هما اللذان ألهما الجزء الكبر من تلك الأعمال، ومع ذلك فمن الواضح أن باحثى الجزء (القطاع) الاشتراكى قد تفهموا أيضا البارزين من الماركسيين مثل نيدهام – الذى يقف ضمن التيار المعارض للعقلانية الفلسفية.

وعلى أية حال فقد استدعت متطلبات العمل الإجرائى – ولاسيما إعادة التجميع من المستشرقين الجدد فى الجزء (القطاع) الاشتراكى وخصوصا فى أوروبا الغربية – أن يكيفوا أنفسهم مع مناهج غير عقلانية إذ أنهم يستدرجون بصفة خاصة نحو نوع من الفلسفة الظاهرية (الفينومينولوچيا) التى تفصح عن نفسها من خلال التركيز على سلم الأنماط القريب مباشرة من البنائية الذائعة حاليا، ولقد شوه ذلك الدقة العلمية والاتجاه العام للعمل الأصولى، التى يجب أن تنقب عند بير مثقفى دول الشرق فى سياق نضالها من أجل حريتها وتقدمها.(٦٧)

جـ – أدوات الدراسة والبحث:

لا تمتلك الدول الاشتراكية والاتحاد السوفيتى بصفة رئيسية فى حوزتها ما تملكه القوى الاستعمارية من مصادر المادة البحثية سواء كانت هذه المصادر مباشرة أم وسيطة، ولكن العلاقات التى توثق بازدياد بين الاتحاد السوفيتى والحركات والدول الأفرآسيوية بعد مؤتمر باندونج بصفة خاصة أدت به – من ناحية أخرى – إلى مباشرة جهد هائل وصادق فى ميدان الاستشراق الحديث، ويعد معهد الشعوب الآسيوية هو أكبر معهد من نوعه فى العالم بعد أكاديمية العلوم، كما أن كل الجامعات تدخل الدراسات الآسيوية والإفريقية والأمريكية اللاتينية فى برامجها الدراسية، كذلك أسست صحف ومجلات علمية مهمة جديدة،(٦٨) وتضم كل أكاديميات العلوم فى كل جمهوريات الاتحاد السوفيتى كل على حده أقسام أو

مجموعات مخصصة لهذه الدراسات، ويتراوح عدد الأفراد العاملين فى هذا الميدان اليوم (١٩٦٢) بين ١٨ ألف و٢٠ ألف شخص بينهم المحاضرون والباحثون والمساعدون الفنيون والمترجمون وأمناء المكتبات الخ. كما تصدر واحدة من دور النشر المتخصصة فى الدراسات الشرقية كتابا كل يومين أو كل ثلاثة أيام وتسير الدراسات الحديثة بالتوازى مع الاستشراق الكلاسيكى الذى أوفى به فى روسيا الأمس، وفى ١٩٥٩ تأسس المعهد الأفريقى فى نهاية المطاف تحت إشراف الأكاديمى أ. بوتيكين.[٦٩] لقد تغيرت الوضعية العلمية للدراسات المعنية بالشرق الحديث والمعاصر فى غضون بضع سنوات، وقد تحقق التغير بسرعة، وهكذا لم يعد من الممكن أن يصبح المرء منغمسا فى هذه الدراسات دون معرفة باللغة الروسية واللغات الأوروبية التقليدية وواحدة من اللغات الشرقية العديدة.

إن ما على الباحثين الدارسين العلمى فى دول الشرق المختلفة ليس فقط معروفا ولا مقدرا ولا أخلاقيا فى المقررات الدراسية – وهى كلها أمور لا تحتاج إلى الإشارة إليها – ولكن أيضا اكتساب مكانة ممتازة كما يجب أن تكون، ويشير شيسنوبين آخرين إلى مشكلة أهلية الأجنبى لدراسة الوقائع الاجتماعية المعاصرة بنفس فرص النجاح المتاحة للوطنيين، ثم يمضى قائلاً إنه من الواضح أن الوطنيين فى الواقع لديهم ميزة بسبب معرفتهم باللغة وألفتهم لكل عادات وتراث الشعوب الآسيوية، وإذا ما أخذ هذه الحجة إلى نهايتها يجرى تساؤل حول ما إذا كان من المعقول أن تعتبر دراسة المشكلات المعاصرة وبحق دائرة اختصاص الوطنين ومن أنه كلما كان موضوع الدراسة راجعا أكثر فأكثر إلى الماضى كلما سهل على غير الآسيويين أن يقدموا إسهامهم، ويبدو شيسنو فى هذه الغنيمة ملتقيا مع وجهة نظر هـ. أ. ر. جيب التى أوردناها آنفا: يقول جيب:

"إذا كان بوسع المرء هنا أن يتحدث عن ميزة وطنية لا يستطيع الحديث عن احتكار وطنى ما دام الاهتمام منصبا على دراسات العالم المعاصر إذ يستطيع الغرباء القادمون من بعيد من خلفية اجتماعية وثقافية مغايرة غالبا أن يدلفوا وبسرعة وبوضوح فكر أصيل إلى حياة الشعوب الأخرى، وعلى سبيل المثال فإن

الدراسات الأنجلو ساكسون تعد من أفضل الأعمال عن الحياة السياسية فى السنوات الخمس الأخيرة".[٧٠]

ولكن السياسة الثقافية لصين اليوم أقل انفتاحا أمام الباحثين الأجانب، وأول شئ يتعين ملاحظته هو أن البحث الأكاديمى بواسطة الأجانب بالغ الندرة، والسبب هو أنه من الصعب تمييزه عن التجسس، والفكرة المركزية هى أن الأجانب ليسوا قادرين على فهمى، فالدراسات الصينية تخص الصينيين، مع ذلك فإذا كان من الممكن أن تجرى الدراسات من خلال استخدام مواد بحثية ووثائق رسمية وبمساعدة الفحص عن كثب فإنه ربما يكون من الممكن إذن تناول موضوعات أكثر حساسية، ولكن إذا تضمنت الدراسة الملاحظة المباشرة فى الميدان دون خطر واضح وإذا تطلبت وصولا مفتوحا إلى الناس وتطلبت عملا مستقلا فإن العقبات حينذاك سوف تنشأ فى مواجهة أى باحث خلال الأجانب الأكثر ضمانا من الناحية الأمنية.

ولربما يظهر للوهلة الأولى أن علم الآثار على سبيل المثال ليس ميدانا سياسيا دقيقا، ومع ذلك يراجع على ص كجزء من دراسة كنوزهم القومية ومتضمنا كما هو حادث فعلا التفسير المأذون به رسميا لتاريخهم الخاص... وهنا سوف يستعيد المتخصص اليابانى الطبيعة الرهيفة للغاية لعلم الآثار فى يابان ما قبل الحرب.

على أية حال يشير مؤلف هذه الدراسة الأمريكى[٧١] إلى المساعدة الكبيرة والذكية التى قدمت لنيدهام، وقد حظى كل من ج. شيسنو و ر. دامونت وجيدز وك. ب. فيتزجيرالد (من نيوزيلندا) وس. شاندرا سيكار (من الهند) بفروض اتصال مفتوح ولكن مع درجة رفض أكبر نوعا من حالة نيدهام. وقد كان اتجاه الزعماء الشيوعيين وجمهورية الصين الشعبية هنا أكثر اقترابا من اتجاهات الدول القومية المستقلة فى آسيا وأفريقيا منه إلى اتجاهات الدول والحركات الاشتراكية فى أوروبا.

كذلك يجب أن تتغير طبيعة الباحث العلمى نفسها تغيرا جذريا، إذا أن دراسة الغرب الكلاسيكيين فى العصور الوسطى أو دراسة أسرار الإسلام لا تنهض عادة لمواجهة قضية الاختلافات فيما بين قطاعات البرجوازية فى هذه الدولة العربية أو

تلك، ولا لمواجهة مشكلات الأدب الواقعي العربي منذ ١٩٤٥ أو أيديولوجيا الحركات القومية أو الديموقراطية، ذات المكونات المختلفة.[٧٢]

وقد دفع تطبيع الدراسات الشرقية الحديثة قضية تماسك وعمق التعليم التخصصي في قطاع وآخر من العلوم الاجتماعية: الاقتصاد – القانون – التاريخ – علم الاجتماع – علم السياسة، الفلسفة، علم الجمال... الخ. إلى الخط الأول، على أن ذلك يجب أن يكون مقرونا بدراسة سريعة، ولكن كافية بدرجة معقولة، للغة الدولة أو القطاع كل الدراسة، ويجب دراسة اللغة كما هي في الحقيقة الحديثة في شكلها الذي تكتب به والذي يحدث به الناطقون بها في حياتهم اليومية، ولهذه الدراسة اللغوية هدفان؛ فمن ناحية هي تستهدف جعل الحصول المباشر على المادة البحثية الأولية ممكنا، ومن ناحية أخرى تستهدف تسهيل المنهج النفسي والاجتماعي للحياة اليومية في تلك الدولة، وقد استغرق هذا التكوين المزدوج في الاتحاد السوفيتي ثماني سنوات، بينما يتم التزويد بتدريب لغوي مكثف في الولايات المتحدة عندما تكتمل الدراسات التخصصية،[٧٣] وفي هذه النقطة تماثل الاهتمامات الأنجلو ساكسونية اهتمامات القطاع الاشتراكي الأوروبي، كما أنها في جوهر الأمر تماثل رؤية دول الشرق نفسها واقعيا.

لقد حان الوقت إذن لإحداث عملية إعادة القومية الضرورية، وفي وسعنا أن نرى وبموضوعية أن القطاعات العديدة في الاستشراق المعاصر قد بدأت هي نفسها في السنوات الأخيرة تعترف بهذه الحقيقة الحتمية.

الهوامش:

(١) حول التاريخ العام الاستشراق التقليدى حتى عام ١٩٦٢، وحــول العــالم العربـــى والإسلامى خاصة، هناك مصادر كثيرة، انظر منها

V.V. Barthold, la de'couverte de l'Asie hisroire dc l'Drientalisme en Europe et en Rusie (Paris, 1947)

ولا نجد أية إشارات فى كل من :

Enaydopedia de l'Islam:

Enaydopedia dia Britannica: "Drientalistika" encyclopidic sovietique vol (Moscow, 1951) pp. 193 – 202:

G. Vacca. "Drientalismo", Enciclope dia italiana di sciense lettere ed arti (Rome, 1935) XXV p. 537; G. levi della vida, per gli studi arabi in Italia, Nuova Antologia (Dec. 1912) pp. 1.10; A. BAUSANI Islamic studiec in itely in the XIX – XX tc. Centuries' East and west, vol, VIII (1957) pp 145-155. Z.M. Holt The origin of Arab studies in England, Al-Kulliyya (khartoum, 1952) no1, pp. 20-27.; A.J. Arberry, Drientel essays (London, 1960); M. Horten, Die probleme des Orientalistik; Bratage sur kenntnis des orient, vol XIII (1916) pp. 143-61. G. German us, "Hungarian Orientalism- past and present, in do – Asian culture, ol VI (1957) pp. 291-288; L. Bouuar, les hongrois et les etudes musulmanes resue du monde musulman, vol I (1807) no 3 pp. 350-324.

نجيب العقيقى. "المستشرقون" (القاهرة ١٩٤٧) أ . داغر. دليل الأعارب إلـــى المكتـــوب وفـــن المكاتب" (بيروت ١٩٤٧) فهارس المكتبة العربية فى الخافقين (بيـــروت ١٩٤٧) صـــ ١٠٥ – ١١٢.

مصادر الدراسة الأدبية الجزء ٢ ١٨٠٠ – ١٩٥٥ (بيروت ١٩٥٥) صـ ٧٧١ – ١١٨

Y. Fueck, Die arabischen Studien in Europa (leipseig, 1955)

وغيرها من المصادر

(٢) "Drientalist" in Grand Larousse ency dopedigue (Paris 1963) Vu 1003-1004.

(٣) نشير هنا إلى العمل الشهير الذى تم الاحتفاء به .

Paideia, Die formung des gries chischen mens chen, val

والذى لخصه H, Guidi على النحو التالى :

(Berlin , leipzig, 1934),

إن أى توسيع للأفق التاريخى، لا يغير فى حقيقة أن تاريخنا يبدأ مع اليونان .. ومثل هذا التـاريخ لا يمكن بالضرورة أن يتخذ من كوكبنا بأكمله مجالا له، ولكنه يقتصر على الشعوب المتمركـزة حول الهيلينية طالما أن تلك الشعوب هى التى ورثت عن اليونان، مبدأ الثقافة الحقة .. وليس مـن الصعب أن نستخلص النتائج العلمية لهذه الصيغة النظرية : وهـى القمـة المطلقـة والمركزيـة للحضارة اليونانية كمصدر أبدى ووحيد لعوامل تشكيل ثقافتنا وللتنشـئة والتربيـة ... أى أنهـا هيومانية شاملة

Guidi, trois conferences sur quelques prohlemes generaux de l'orientalisme in Annuaire de l'institut de philologie er d'hisroire orientales – volume offert a Jean capart (Brussels, 1933) pp. 171 – 172

(٤) التشديد لنا .. والمقصود بالإحالة التى الذات، أى الذات الأوروبية

(٥) M. Guidi Trais conferences pp 131-180

فى عام ١٩٥٤ عرف الاستشراق على النحو التالى . ليس المستشرق هو ذلك الباحث الذى يقصر مهمته على إجادة بعض اللغات غير المعروفة، أو وصف العادات الغربية لبعض الشعوب : لكنه القادر على الجمع بين معرفة بعض جوانب الشرق، ومعرفة القوى الروحية والأخلاقية التى أثرت فى تكوين الثقافة البشرية، إنه الشخص الذى استفاد بتعاليم الحضارات القديمة ، والقادر على تقييم دور العوامل المختلفة التى أسهمت فى تشكيل حضارة القرون الوسطى أو النهضة (علم الشـرق وتاريخ العمران) الزهراء ربيع أول ١٣٤٧ هجرية (أغسطس / سبتمبر ميلاديـة ١٩٢٨) أورده داغر فى المصادر م.س ذ صـ ٧٧١.

(٦) حول تعريف التمركز حول الذات الأوروبية انظر على سبيل المثال

J. Needham le dialogue entre l'europe at l'asie: comprendre no 12 (1954) pp1-8

ومقدمة مؤلفنا

Egypte societe mipiraire (Paris 1962) pp. 9-13.

---

(٧) R. Schwab, l'Drietalisme dans la cuprure et les litteratures de l'ocuident moderne, Driente moderno, vol XXXII, no 1-2 (1952) p 136.

(٨) A. J. Arberry Driental Essays.

(٩) Dagher م س ذ مصادر ص ٧٧٩ – ٧٨٠

(١٠) J. Bersue, "Cent vingt – cing ans de sociolosie meghrcbine" Annales, Vol XI, no 3 (1956) pp 299-321.

(١١) أو ليست الدراسات العليا والاستشراقية والفيلولوجية والتاريخية هى من أثمن المساهمات فى سياسة إيطاليا للتوسع الاستعمارى ؟

(A. Caboton, l'Drien talisme musulman et l'Italie moderne, Revue du monde musulman, vol. no 27 "1914" p. 24)

لا شك أننا نذكر جميعا المقدمة التى أوردها لورنس فى أعمده الحكمة السبعة والتى كشف بها عن كشف فيها عن لعبته حينما كتب يقول " إن دمشق لم تكن جرابا لسيفى حينما حللت فى الجزيرة العربية : ولكن أخذها كشف عن تبدد الدوافع الرئيسية لعملى . كان الدافع الأساسى شخصيا، وإن لم اكشف عنه هنا، إلا انه كان واضحا أمامى طوال هاتين السنتين .. قد تتصاعد الأحزان والمسرات ولكن الحاجة الضرورية سرعان مما تتجد وتفرض نفسها وتبقى هى العامل الأساس فى الحياة حتى النهاية . وقد ماتت قبل أن تصل إلى دمشق " وقد زاد على هذا ما قامت به الإدارة الفرنسية . فمن القناصلة المغامرين، إلى القيادات الطوبوية التى أقامت السكك الحديدية، مرورا بالرحالة الرومانسيين لامارتين وبارس، أقامت فرنسا فى الشرق صرحا، على أساس المعارف العلمية لكل من شامبليون وساسى وريتان . وقد تجاهل العرب فى هذا الوقت ماضيهم، وتنكروا للغتهم الراقية وولد الاستشراق المعاصر من قلب هذا الفراغ .. كان من الممكن أن يؤدى كشف وإحياء هذه الثروة الروحية إلى إثراء موارد المسيحية وخزائنها الخاوية . انظر مثلا إلى القبائل العربية وإلى البدو عموما فقد أدخلهم الاستشراق قسرا تحت ثلاثة أشكال من السيطرة السياسية مرحلة (المكتب العربى) فى الجزائر حتى حوالى ١٨٧٠ وهى مرحلة فرنسية، ومرحلة (ثورة الصحراء) التى شهدت انتصار علماء بريطانيا فى الشرق الأدنى، ثم التوسع الحالى المرتبط بالنفط .

(Y. Bergue, "Perspectires de l'Drientelisme contemporain". Lbla, vol. xx (1957) pp. 220 – 221.)

فى عام ١٨٢٢ اقترح مؤسسو "الجمعية الآسيوية" الفرنسية أن تتاح للمؤرخين الفرصة لشرح حضارات شعوب الشرق القديمة وجمع الوثائق الثمينة حول العمليات الدبلوماسية فى المشرق والتجارة عبر آسيا . وقد طرحت على المستشرقين أسئلة من بينها هل للأوروبيين مصلحة فى أن تنص اتفاقاتهم على إعطاءهم الحق فى الإقامة بداخل الصين، بغية الشراء مباشرة من منتجى الحرير، وإقامة الفروع والتجارة ؟ وما هى مصالح ومضارب جلب الحرير الصينى إلى بلدان أجنبية ؟

نص أورده J. Chesnau فى

"La recherche morxiste et le rereil contemporain de l' Asie et L' Afvigue" La pensee no. 95 (jon – feb. 1961) pp. 4-5.

(١٢) حول التصنيف العرقى انظر

M. Rodinson "L' Egypte naserienne au miroir de marxiste." Le temps modernes, no. 203 (apvil 1963) p. 1828-65.

(٣) J. Belgue a L. massignon, dilaogue sur les Arabes" Esprit vol XXVIII no 280 (1960) p.106.

وحو العلاقات بين الاستشراق والاستعمار انظر لوى ماسينيون لقد كنت أنا نفسى من المستعمرين المتحمسين فى ذلك الوقت، وقد كتبت إليه معبرا عن أملى فى فتح مسلح سريع للمغرب، وقد رد بالإيجاب (خطاب رقم ١ من أن صلاح ٢٠ أكتوبر ١٩٠٦) صحيح أن المغرب فى ذلك الوقت كان فى حالة بالغه الصعوبة . ولكن خمسين عاما من الاحتلال بدون ليوتيه ومثله الفرنسية / المسلمة العليا ، لم تكن لتترك الكثير الذى يستحق الذكر .

L. Mossignon. "Foucaulat au desert, deront le Dieu d'abraham, Agar et Iesma' "Les mardis de Dar- es – salam (1929) p. 58

(١٤) وردت انتقادات محددة فى

UGC Report of the sub – committee on Driental, Sleronic, East European and Atrican studies (London, 1961) تحت رئاسة سير William Haytcr إن دراسات الشرق الأقصى الحديث هى كتاب مغلق فى معظم كليات التاريخ أو العلوم الاجتماعية (٣٨) وقد أدى انغلاق أقسام اللغات وعدم اهتمامها بالدراسات واللغات الحديثة إلى نتائج غير موفقة .. وفى كتاب حديث هو

Etudes d'Dnentalisme didiees a la memoire de l'evi-provensal

(Paris, 1962, 2 rels)

يضم ٦١ مقالا، تتعرض ثمانية منها فقط للفترة الحديثة، فضلا عن ثـلاث مقـالات ذات طـابع بيبليوجرافى .

(١٥) Chesnaux la recherche p5.

(١٦) عمر الدسوقى (فى الأدب الحديث) الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٥٤ صـ ٣٢٥ - ٣٢٦ داغر، مصادر .. صـ ٧٧٩ ، ن. العقيقى المستشرقون صـ ٢٠٧ - ٢٠٩، محمد حسين هيكل، حيـاة محمد مقدمة الطبعة الثانية، والطبعة السادسة القاهرة، ٦٠-٦١، أنور الجنـدى. (الأدب العربـى الحديث فى حركة المقاومة والتجمع من المحيط إلى الخليج) (القاهرة ١٩٥٩ صـ ٤٠٦ - ٤٠٦ و(الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية) (القـاهرة ١٩٦٢) صـ ٢٧١ - ٢٨٥ :

(١٧) وخاصة معهد المخطوطات العربية الذى أسسه الأستاذ صلاح الدين المنيجد فـى الجامعـة العربية، ومجلة المخطوطات العربية التى صدرت فى القاهرة منذ عام ١٩٥٥، وتأسـيس معهـد البحوث الإسلامية فى جامعة الأزهر الذى يرأسه الأستاذ عبد الله العربى (الأهـرام ٢٣ نـوفمبر ١٩٦١) كما يشار أيضا إلى جهود الترقيم فى وزارة الثقافة والإرشاد القومى وخاصة علـى يـد فتحى رضوان وحسين فوزى و ثروت عكاشة وقد بذلت جهود مماثلة فى سوريا والعراق خاصة . وفى مصر، بذل الفيلسوف الوجودى عبد الرحمن بدوى جهدا خارقا فى تجديد ودفع العديد مـن الأعمال حول الفكر الإسلامى، فى حين انصبت جهود باحث الفيلولوجيا مراد كامل على تمحيص المجالات القبطية والأثيوبية والسامية .

(١٨) تبلورت على يد J. Berpue رؤية نقدية شاملة فى كل من

Le meghreb entre les deuxguerres

وفى محاضراته بالكوليج دى فرانس . انظر أيضا

J. P. Alaish "The connection of Driental studies with commerce art and litcrature during the XVIII th and XIXI centuries, jovrnel of the manchester Egypt and Drient society, vol XV (1930) pp. 33-39, J. Chesneaux, "French Historiosraphy and the cvolution of colonial victnam in D.G.E. Hell, Historical Writing or the peoples of Asia – Historians of South East Asia (Oxford – London, 1961) pp. 235-244.

(١٩) انظر م. خالدى وع. فاروق (التبشير والاستعمار فى البلاد العربية) (بيروت ١٩٥٣)

(٢٠) حول هذا المفهوم انظر

R. Malarious le jeunesse intellectuelle d' Egypte au lendemain de la deuxieme guerre mondiale (Paris 1960) la risien du prableme colonial par le monde afro- asiatigue

(٢١) جاك بيدك فى أصدقاء النهضة العربية، وقد لعب دور الوسيط بين الثقافتين وأشاد بكثيـر من مثقفينا. وإنى لأشكره لإشارته إلى أعمال عده مرات (خاصة المؤلف المشترك مـع محمـود أمين العالم) كما اشد بكتاب مدرسة الواقعية المصرية فى كل من محاضـراته فـى الكـوليج دى فرانس ومقاله.

"L'inguietude arabe des temps modernes," Revue des etudes islomigues vol XXVI no 1 (1958) pp 87-107

إضافة إلى كتابة les Arabes p 102

(٢٢) على الرغم فى من E. Renan هو الذى نظر فى فرنسا للاختلاف بين السامية والآرية، إلا أن الفئة الأولى أدنى من الثانية على كافة المستويات

Histoire generale et systeme compare des langues semitigues pt. 1 (Paris 1855)

وقد استمد D. Kimson آراء رنيان فى كتابة :

Pothologie de l' Islam et les moyens de le detruire (Paris 1897)

وقد واصل الكتاب العرب احتجاجهم على هذه النظرية

(٢٣) الصفحات ١٠–١١ وليس هدفنا هنا هو تقديم تحليل نقدى لهذا الكتاب

(٢٤) Le meghred p. 8.

(٢٥) Perspectires p. 237

(٢٦) عرض النتائج النظرية فى "Expression et significe lion dans lane orabe" L' homme, vol 1 no 1 (1961) pp 50-67.

(٢٧) Report of the interdepartmental commission of enguiry on driental, slavonic, east european and African Studies (London, 1947), commentary by A. J. Arbetry, Driental Essays, pp. 240-24 P. analysis in Hayter Report p.6-40.

(٢٨) Hayter pp. 45-52

(٢٩) المصدر السابق صـــ ٥٣-٦٢ . وقد تعرض الجنرال P. Rondot لموقن الولايات المتحدة من الشرق المعاصر فى orient no 1967) p 18-52 x n3 p 31-80 مشيرا إلى الدور الـــذى لعبه تأسيس ، المؤسسات ومدارس اللغات والمدارس الدينية في الشرق الأدنـــى ، فـــى السـفارة الأمريكية ببيروت والجامعة الأمريكية بكل من بيروت والقاهرة (والأخيرة هى المؤسسة التعليمية الأجنبية الوحيدة فى مصر) وتقدم جامعة ميتشجان أن ابرز الهدف من وراء نشر برامجها البحثية حول الشرق الأوسط على النحو التالى (١) تعريف أكبر قدر ممكن من الأمريكيين بالشرق الأدنى (٢) الترويج لفكرة أن للولايات المتحدة مصالح وثيقة الارتباط بماضى ومســتقبل المنطقـــة (٣) تشكيل جماعة متميزة من الخبراء الأمريكيين حول الشرق الأوســط علـــى أن الكاتـــب يـــرفض استكمال جوانب الصورة . انظر

R. Beyly windsor, Arobic and Islamic studies in the U.S. Middle East forum, no 31 (June 1856) pp. 19-22

(٣٠) An Interpretation of Islamic history, cahiers d'hisreire morrdiele vel (1951) pp. 39-52.

(٣١)

bur l'etude des socictes orienteles contemporaines" collopue sur la sociologie musulmane, actes. 11-14. Sept 1961 brussels, 1962)

من غير الطبيعى أن نجتمع للبحث فى أمر مجتمعات الشرق فى غياب زملاءنا الشرقيين . وهـــذا الأمر يستوجب وقفه .. إذ أن التفسير يتجاوز الظروف السياسية، ويرتبط بمناهج وأهداف دراساتنا (٨٥) أن غياب زملاءنا الذى يؤسف له، لا يعود إلى الظرف السياسى كما قد يظـــن الـــبعض ، ولكنه مرتبط بالضيق والحرج فى طبيعة العلاقات بين المجتمعات التى ندرسها حاليا ومجتمعاتنا، إلا أننا لا نخطئ بوصف أنفسنا كذلك .

(٣٢) تشير بشـــكل خـــاص إلـــى – le probleme des echanges culturels etudes levi provencar vol I pp 41-151

والذى يقدم ملخصا لأعمال الكاتب خاصة

unity and veriety in moslem linilisation (chicago, 1955) W. Hartner. Klassizismus und kulturverfell (frenkfurt, 1960); An analysis of Islamic ciriliation and cultural onthropology, in actes, op cit pp. 21-27.

(٣٤) ويكتب المؤلف فى هذا الصدد أن الفوضى السيميائية أمر غير حقيقى والهروب من الحقائق للالتجاء إلى الألفاظ هو الأمر المتكرر . ويمكن عد الأخطاء التالية بعد ١٩٥٩ لستخدم لفظ (عدم الانحياز) بدلا من (الحياد الإيجابى) ولم يكن ذلك تعبيرا عن أن أحد الألفاظ عفا عليه الزمن أو أن الآخر أكثر ملائمة، وإنما لتوجهات السياسة المصرية عقب باندونج وفى فترة القمع فى ١٩٥١ . (انظر مؤلفنا (مصر مجتمع عسكرى) صـ ٢١٩ – ٢٤٢) وعلى حين يقال (إطارات) فى شمال أفريقيا، يقال فى الشرق (كوادر) وتترجم structure إلى تركيب فى الدراسات الفلسفية ولا تترجم أبدا إلى هيكل أو جهاز أو نظام . ومن المستغرب أن يدعو السيد عبد الله إبراهيم فى خطاب لـه فى أبريل ١٩٥٩ (إلى فتح الطريق أمام لغة عربية عصرية تعبر فيها الألفاظ عن الحقائق) (فكيف كان الأمر من قبل؟) فقد استخدم لفظ النقابات فى القـاهرة منـذ ١٩٠٨و (الجهـاز الأساسـى) والتركيب الأساسى فى حيث أن (التركيب الأولى) تستخدم للإشارة إلى البنية العلوية، وقـد تـم إدخال هذه المصطلحات فى فترة (١٩٣٩-١٩٤٩)، انتشرت بين الماركسيين المصريين إبان فترة التحرر الوطن وإعادة البناء .

L'Arabe moderne (Paris 1860 p 360).

انظر أيضا

M. Rodinsen (ahiels de l'drient contemporain (1950, 1962)

(٣٥) يقول بيرك إن تلك الأمم التى تسعى إلى التاريخ وإلى الحق فى ضعة، غالبا مـا لا تكـون لديها أقساما للتاريخ فى جامعاتها (Dialogue p. 1508) ويمكن الإشارة فى هذا الصـدر إلـى الجهود التى بذلت فى العقود الماضية فى جامعات القاهرة ودمشق وبغداد والإسكندرية . ففى عدد واحد من

proceedings of he royal socidy of historical studies

خصصت ٧٧ صفحة مـن ١٩٢صـفحة لدراسـات (Vol, I. Cairo Art (publishedlp52 تاريخية بقلم م. صفوت، وجمال الدين الشيال .

كما يوجد كرسى للتاريخ الحديث والمعاصر فى كليات الآداب والعلوم السياسية . صحيح أن هـذا ليس بكاف. انظر نقد التاريخ العرب فى

The uses of history by modern Arab writers Middle East journal vol XIV, No 4 (1960) pp. 382-386.

ونشير هنا إلى أن ثمة محاولات كبيرة للفهم، فى البلدان التى لم يكن لها ماضى استعمارى تقليدى مباشر، حول ألمانيا انظر

L. Rothman, zur widerspiege lung des antiimperia listischon befreiguns be wegung des arabischen volker in der burgerlichen deutschen historiogrephie, Zeitschrift fur Geschi chtswissen scheft berlin, vol. x no 3 (1962) pp. 564-74.

وحول أسبانيا

F. Cantera Burgos, los estudios orientales en la espana actual, in Oriente moderno, vol XXXV no 1 (1955) pp 236-247.

(٣٦) Perspectives de l'Drientalisme p 218-232.

وقد طرحت الفكرة نفسها في ندوه بروكسل أن علم الاجتماع الاستشراقي ، يجب أن يسعى إلى الاندماج مع المجتمعات الشرقية ، ليس من خلال المعرفة المرتبطة بالتوسع الاستعماري ، وإنما بالمساهمة بالتحليل، ومن ثم في البناء الداخلي .

Actes, pp 458-459, H. Jraus – Eblbes hausen, Lslamic studies in post. War Germony. Lslami culture, vol XXXVI, no 1 (1952) pp 51-56

وفي إسبانيا

Cantera burgos, los estudios orientales.

وفي بلچيكا

G. Ryckmans, L'Drientalime en Belgipue Revue generale belge no 23 (947) pp. 724-738

وفي إيطاليا

E. Rossi. "Near Eastern Studies In Italy" Meddle Eastern Affairs, vol VIII no (1957) pp 57-60.

وفي فنلندا

P. Aelto, "Les etudes orientales en Finlande" Archir orientalny. No 19 (1951) pp. 79 – 84. Aable. Approches critigues d'une etude sociologipue du monde musulmen contemporein Etudes, Brussels, vol I, no 1-2 (1962) pp 3-10.

Lslam and modern hitory (princeton 1860)

(٣٧) وفى الاتجاه نفسه وسوف يسعد كثير من المسيحيين، إضافة إلى الكاتب، إذا ما أقدم كاتب مسلم على إجراء دراسة مشابهة حول المسيحية المعاصرة ويضم هذا الكتاب تحليلات بالغة الأهمية، ويعطى فكرة عامة عن الواقع الإسلامى فى أفريقيا وآسيا .

(٣٨) أن ميزانية مؤسسة أمريكية واحده – مركز الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا – لوس أنجلوس – تبلغ ستة أضعاف الميزانية السنوية لدولة أوروبية صغيرة .

(٣٩) يقوم عدد من الأساتذة العرب بالتدريس فى عدة جامعات أمريكية ويدير بعضهم الأقسام البحثية .

(٤٠) إن تحليل (المقالات والدراسات) الخاصة بالمقالات فى السنوات ١٩٥٢-١٩٦٢ فى مجلة Drient الحديثة، بالغ الدلالة، حيث لا يتجاوز عدد الكتاب من الشرق، أربعة من ٧٥ اسمها ويتعلق قسم كبير بنصوص حول الآداب والفكر والدين والسياسة فى بلادنا . لكنها مجرد "مواد للبحث" ويفترض أنها تتجاوز الانتماءات .

(٤١) Problems of middle eastern history (weshington, 1956) in srudies on the cirilisetion of islem (London, 1962) pp. 342-343

وقد اختار الكاتب، تجاهل الدراسات التاريخية والسوسيولوجية فى الشرق الأوسط خلافا لـ

V. Heyworth – Dune introduction to the History of Educahon in Modern Egypt (London 1938)

W. Hontgomery watt Islam and the integration of society (London, 1861)

الذى استقبل بالصمت فى العالم العربى، رغم تطبيقة لمفاهيم منهاجهم

M. Rodinson Bilon des etudes mohomodiennes.

Revue historipue fesc. 461 (janmorch 1963) pp 169 –220.

(٤٢) على المستوى الأكاديمى مؤلفان لـ J. Austruy الذى بنى الطريقة عن جوهر المسلم على أساس من الجهل التام باللغة والثقافة العربية Structure economipue et cirilisation (1960) l'Islem face ou dereloppement economipue (Paris 1961)

وعلى المستوى الصحفى يصدر J. s. lasouture أحكامهما على الثقافة والدين: "هل يغمر للكاتب تناوله للموضوع مع جهله بقراءة العربية ؟ وفى إشارة أخرى إلى بعض النواقص أنها لا تتعلق (بالثقافة القومية L'egypte en movvement (Paris, 1969 pp. 306-4) والكتاب يحفل بالعثرات . وقد نشرت S. Lacauture فى ذات الوقت، وتقدم فيه أحكاما قاطعة حول الأدب والفكر Egypte (Paris, 1962) والجماليات، وتعطى الصدارة لآراء الكتاب الأجانب المقيمين

فى مصر والمجهولين تماما من الجمهور .. وهناك عدة أمثله على ذلك (ولنتناول مــثلا قضــية الأدب: إن غير الأوروبى الذى يجد نفسه فى قاعة القراءة بالمتحف البريطانى أو بالمكتبة الوطنية الفرنسية والذى يسأل فى النهاية عن قيمة كل هذه الكتب، سوف ينظر إليه كمتوحش : ولكن هناك عوالم كاملة من الأدب كالأدب أيضا على سبيل المثال – لا يعرف عنها المتعلم الأوروبى العادى أى شئ . ألا يصبح هو الآخر متوحشا؟

وفى دراسة قصيرة عن

(Needhom. Le dialogue)

الاتصال فى الدولة النامية أدوات

C. Bremend. (communications vol (1962) pp. 56-67)

يعتمد الكاتب على تقارير الخبراء الأوروبيين، دون أى إشارة إلى أى أعمال من هذه البلدان

(٤٣) وقد صدرت المرحلة الأولى من هذا العمل فى

Islam et capitelisme (Paris 1966)

(٤٤) عندما قررت فى ذلك الوقت (١٩٥٠) أن أوجه أبحاثى إلى تــاريخ البروليتاريــا الصــينية والطبقة العاملة بعد ثورة أكتوبر، والحرب العالمية الثانية، كان ذلك بمثابة رهان، وتعبيــر عــن قناعتى بأنه من الممكن – ومن الضرورى – دراسة تاريخ الصين المعاصرة إذا ما أردنا وضــع الأسس لمنهاجية علمية حقيقية .

Recherches sur l'histoire du mouuement ouurier chinois movvement social, no 41. (oct 1962) p 1-12.

ويعكس موضوع الدراسة – الحركة العمالية – وليس الحركــة القوميــة، اســتجابة لإشــكالية الماركسية الأوروبية.

(٤٥) يمتلك الكاتب مكتبة فريدة من المؤلفات والكتب المرتبطة بالعلم والتكنولوجيا كما يتعاون مع عدد من المتخصصين فى الموضوع فى caius college وهـــم Wane ching – ning, lu gwei – djen. Ho ping – yu, kenneth robinson, rslao taien chin.

(٤٦) يشير W.Z. lagueur إلى أن مجلة الاستشراق السوفيتية sovetskae vostokevdenea قد ظهرت فى أبريل ١٩٥٥ إبان عقد مؤتمر باندونج . ويشير إلى الدور المحورى الذى لعبه كل من B. G. Gafurov, A.I. Mikoyan (وكلاها عضو فى أكاديمية العلوم واللجنــة المركزيــة للحزب الشيوعى و N.A.Mukhtidinov و A.F. Sultanov وهم من القادة ذوى الأصول غير الأوروبية . كما يشير إلى بعض الكتابات ذات الأهمية، وخاصة كتاب

E. A. Lebedev عن الأردن Contemporary perisa, contempo
عن الثورة العراقية Rary syria (1956) A.N. Kotlov (1958)
L.P. Belqev, American imperialism in saudi Arabia (1957)
M. F. Gatarlin, Agrerian Relations in syria (1917) and the soviet vnion and the middle east (London 1989) pp. 168-186.

وتتمثل أهم الكتابات عن الاستشراق الجديد فى الدول الاشتراكية (فى ١٩٦٢) فى

M. Perrmen: The study of the Islamic middle east in the soriet vnion 1945 – 1956, Report on current reasearkh (1947) p.p. 17-28, B.g. Gafurov Immediate tasks of soviet oriental studies, vestnik akademit neuke, vol, 9 (1957):

N.A. Mukhtidinor, Knorym uspekham sovetskogo vostokvedenea (moscou 1957); M. Guboglu "lio ans d'erudes orientelesen uess 1917 – 1967 studia et acta Drientalire vol (1958) pp 281-316

والذى يتحدث فيه عن انهيار (المقولة التروتسكية) حول نمط الإنتاج الأسيوى فى ١٩٣٤ (صـ٢٩٥)

La prima conferenza ponsovictica degli Drientalist, Teashent, l- 11 juin 1957, Driente moderno, vol, 38 (Feb. 1958) p 202.

W.Z. Kagueur the shifthing line in soriet orientolgy, Problems of communis, vol. 5 (1956) pp. 20-16.

R. Lowental, Russian meterials on islem and Islamic institutions selectire bibliography, Der islam, vol XXXII no 1-2 (1958) pp. 208-309, and "Russian marerials on arabs and Arab countries, a select bibl, Der Islam, vol. XXXIV (1959) p 174- 87; Dix and d'etudes orientales en pologne, Roesnik orjectal Istucziny, vol, 20 (1956) pp 7-14; Dix annees d'orientalime hongrois journal Asiehpue: vol 239 (1971) pp 211 – 27 les actes des journees scientifieues d'drientalime (prahe – Dobris) (20-15 June 1948); J. Reychman les etudes orientales (islamigues) en pologne Studia et acta Drientalia. II 1959 pp. 161 – 87 J. Kabrde, les etudes orientales en yougoslarive" Archir

Drientalny, vol 25 (1957) pp 146-555, J Blaskovici les buts, l'organisabon et l'actinte de l'ecole orientalistipue tcheoos lovapuie", Studia et acta, vo II (1978) pp. 61-9. K. Petracek. Les etudes arabes er is lemipues et le semirologie en tchecolrequie Archir Drientalny vol 19 (1951) pp 98 – 107, J. Rypka, L'Drientalis me en tchecos love quie ibid, pp 15 – 26; M. Guboglu, contributions romaines aux etudes orienteles: ibid, vol, 24 (1956) pp 459 – 75 D. 2 baritel Die orientalistik in der tchehoslowakei (pregue, 1979)

(٤٧) Christianity and the Asian cultures Theology vol lxv (1862) pp. 1-8.

(٤٨) لقد مضت عده قرون من الاستعداد، تعرفت أوروبا خلالها على التربية العربيـة، والفكـر الهندى والتكنولوچيا الصينية: وأوروبا لا تهتم بالاختراعات التى سمحت بالاستكشاف، فالبرجل و لطاحونة الحلفية من الصينى والشراعات المتعددة من الهند وإندونيسيا، والشراع المتحـرك مـن الملاحين العرب، كثيرا ما نسمع أن الأوروبيين قد اكتشفوا سائر أنحاء العـالم . وهـذه الرؤيـة محدودة وليست صحيحة تماما حتى بداية عصر النهضة . فاليونان لم يكتشـفوا الصـين، ولكـن العكس هو الذى حدث على يد تشابنج تشين فى ١٢٥ قبل الميلاد وبعدها بقرنين، بلغ كـان يـنج الخليج الفارسى وتوغل بهذا غربا أكثر مما توغل أى رومانى فى الشرق ومع نهاية سلالة المينج ، رفرفت الأعلام الصينية فى بقاع شتى فى المحيط الهادى والهندى من زنزبار إلى بورنيو ومنها إلى شمتكا . والقول بأن معنى التاريخ هو نتيجة للحضارة الأوروبية وحدها خاطئ تمامـا . بـل يعود هذا الشرف بالأحرى للحضارة الصينية، التى تتابع عليها تاريخ ٢٤ أسـره منـذ ٩٠ قبـل الميلاد وكان لديها فى ذلك الوقت كتابات تاريخية، حتى وإن كانت لا تحمل عبارة (بقلـم كـذا) وحتى إذا اعتبر البعض أن (مضى التاريخ) هو مرادف لفلسفة التاريخ فإن أوروبا لم تكن لها أول المساهمات فى هذا المجال، فقد عاش ابن خلدون قبل فيكو بقرون ثلاثة. كما أننا لا يمكن أن نقبل فكرة أن أوروبا كانت سباقة فى طرح فكرة مجتمع بشرى موحد. فالمقولة الكونفوشية التى تقـول بأن (كل البشر إخوة عبر البحار السبعة) تعود إلى القرن السادس قبل الميلاد. وفى الهند كان كبير واحدا ضمن مجموعة كبيرة من الشعراء والأنبياء الذين يدعون إلى التضامن البشـرى. ويـرى بعض الأكاديميين الأوروبيين أن مسيره التقدم العلمى والتكنولوچى عبر العالم، قد صاحبا انتقـال الحضارة الأوروبية بشكل جزئى . وهم يعلمون جيدا بكل الأسف أن نظام القيم الأوروبـى، ثـم رفضه من قبل كافة حركات التحرر فى آسيا وأفريقيا . ويرى هؤلاء المفكرون أن المسـيحية لا تنفصل عن روح العلم الحديث وأنها كانت السياق الثقافى لتطور هذا العلم . وقبـول مثـل هـذه

النظريات يعنى أننا بصدد حروب صليبية جديدة تهدف إلى فرض المعتقدات الدينيـة الأوروبيـة على سائر الشعوب، وهى أن حملت شارة الصليب إلا أنها قد تحمل معها الرأسمالية والإمبريالية . ولم يستطع أحدا بعد أن يحدد ما هى الشـروط الثقافيـة الضـرورية للعلـم والتكنولوجيـا (le dialogue) وقد أظهرت فيما بعد وثيقة البابا چون الثالث والعشرين ذات البعد الإنسانى العميـق أن ينبغى أن تضع هذا المثل هذه الأفكار .

(٤٩) A. I. Mikoyan, Speech to the 25th congress of Orientalists problemi Vostokvedenca. No 5 (1950) pp 3-6

إن الهدف (غير المفرض) للاستشراق يماثل هدف المهندسين العسكريين عند فحصهم لاستعدادات الخصم الدفاعية والهجومية : وقد تحدث Goguyer عن (التدمير) فى تقديمه لترجمة ألفيـه بـن مالك (أورده L. massignon les mardis, vol IX 1978 p 79.2

(٥٠) K. Mueller, "Des Ostblock und die Entwicklungslander" Das parlament (12 July 1961) pp. 397-411

(٥١) كما طرحت فى collogue sur les recherches des institurs franais de sciences humaines en asie, singer – polignec foundation. (23 – 31 October 1979) (Paris 1960) pp. 39-41

(٥٢) وجه نقد مرير للآراء التى وردت فى كتاب (الاستبداد الشرقى) انظر
E.E. leach "Hydraulic society in ceylon", past and present no 15 (1959) pp . 2-29. J. Needham, "The past in chine present", Centennial Riview vol 17 no 2. (1960) pp. 164 – 165
J. Chesneaux, les recherches, vol 12 no 5:
CERM. بالإضافة إلى محاضرة ألقاها الباحث المجرى F. Tokei حول نمط الإنتاج الأسيوى Paris 1862, June واعتمد فيها على نص ماركس
Formen die der kapitelistischen produktion vohergehen
ويفتح مؤلف ماركس Grundrisse أفقا جديدا للأبحاث الماركسية حول الموضوع.

(٥٣)Marx. Enels. The first indian war of independence (mosrow 1960) . مؤخرا أنطولوچيا مفيدة حول S. avineri وقد أصدر
Korl Mork on (colonialism and modernisation (new York 969)

(٥٤) تم عرض آراءنا حول هذا الموضوع تفصيلاً فى

Ideologie er rehaissance (Paris 1969)

(٥٥) إن الأساس (النظرى) للخلاف الصينى السوفيتى، يرجع فى رأينا إلى رفض القادة الصينيين لاستمرار التمركز حول الذات الأوروبية فى النظرية الماركسية حول الإستراتيچية الثورية . وكان لوكاش قد كتب فى عام ١٩٥٥ : أن بلدانا مثل الهند فى سعيها نحو الحضارة الحديثة ونحو تجاوز مواريث عصورها الوسطى، تتبع مسارا يحل محل الاشتراكية، جزئيا على الأقل . ومن الواضح تماما أن الطبيعة المتميزة لهذه التغيرات الاجتماعية سوف تعبر عن نفسها من خلال أشكال جديدة يصعب اختزالها فى مخططات مجردة

Die gegenwart bedeutung des kritischen Realismus (ltamburg, 1955).

(٥٦) Chesneaux. Le recherche .. p 11-16

(٥٧) "The slst congress of the CPSU and the task of orientology" problem vosto kredenea, pp 18 – 25.

M. Mancall, the slst party congress and soviet orientology, journal of Asian studies, Vol, XIX, n' 2 (1960) pp. 16-25.

(٥٩) Enrica (lollotti- pischell, China, lndiaed egitto e la tese. Di transizione cproblemi del socialismo, vol vl n. 2 (1963) pp. 193 – 213

تشير المؤلفة على حق إلى الصلات التاريخية والجغرافية بين الباحثين العرب والمسلمين وأقرانهم الأوروبيين، وإلى أنه بالنسبة للصين، فإن الهوة لا تزال سحيقة. ويعد كتابها

le riroluzione interrota (turin 1962)

فى أفضل الاجتهادات الماركسية فى مجال فهم الرؤية الصينية للتاريخ

(٥٩) انظر رقم ٥١

collopue

وفى عام ١٩٦٦ أضيف إلى خاتمة

l'asie orientals aux XIX et XX sicles (Paris 1966)

ما يلى: إن خصوصية تاريخ آسيا الحديث لا يعنى بأى حال سقوط إمكانية المقارنة التاريخية بين المجتمعات البشرية، بل العكس هو الصحيح . إن تاريخ آسيا ليس منعزلا ولكن له إيقاعه الخاص، وهذا لا يعنى أنه لا يرقى إلى التاريخ الأوروبى، من حيث المفردات النظرية . إن دراسة تاريخ آسيا المتحررة من أوروبا، هى الأساس الصلب الذى يمكن أن تتبنى عليه مقوله الوحدة الأساسية للتاريخ البشرى .

(٦٠) جاء ذلك فى محاضرته القيمة فى السوربون حول
L'Drient philosophigue (Paris 1960-2)

(٦١) Fung yeou lon, history of chinese philosophy (peking, 1937 and princeton, 1952-3) 2 vols, and.
J. Needham science and cinilisation vol 2.

(٦٢) تجدد تاريخ الفلسفة الإسلامية على يد الشيخ مصطفى عبد الرازق (١٨٨٢ – ١٩٤٧) خاصة فى كتابه (تمهيد إلى تاريخ الفلسفة الإسلامية) (القاهرة ١٩٤٤) انظر أعمال كل من عبد الرحمن بدوى، عباس العقاد، عثمان أمين، محمد يوسف موسى، إبراهيم مدكور، إسماعيل مظهر، محمد عبد الهادى أبو الرضا، عمر فاروق، صادق جلال العظم، حسن صعب. انظر الفكر الفلسفى فى مائة عام (بيروت ١٩٦٢) الأعداد ٩ – ٧٠، ١٠٢ – ٢٤١، ٢٩٨ – ٣٩٢ رعرضنا لـ How breeds science passed to the arabs by delecy D'leary (London 1951)
in Al-Hejellah. Voll n 4 (1957) pp. 125 – 7.

(٦٣) P. Sweezy the present asttstory (N. 4 1953

(٦٤) تقرير ندوة Problems des neorolonialesmus und die politik des betide deuts chen staten gegenuber dem rationales befreivungs rampt der volker (s-8 April 1861 leipzig) 2 rols. H.
وقد وردت العبارة فى نص M. Mancall

(٦٥) يقدم chesneaux فى Recherches هذا الجدول التقريبى للمؤتمر العشرين للمستشرقين (باريس ١٩٤٨) مقارنة بمؤتمر موسكو الخامس والعشرين .

عدد الأوراق	المجموع	الموضوعات الحديثة	باحثون من آسيا وأفريقيا
باريس	٢٩٩	٢٣	٣٧
اسطنبول	١٨٥	١٧	٥١
كامبريدج	٤٠٤	٥٥	٦٢
ميونخ	٤٣٨	٨٠	٨٦
موسكو	٧٦٧	٥٨٧	١٩٧

(٦٦) The past in China'spresent Centennial Reriew. Vol, iv, no 3 (1960) . p
308

(٦٧) Reuue d' histoire eeonomigue er sociale de l'drient

التى يصدرها C. cahen، تهتم أساس (.. leiden 1957) بـــالفترات الكلاســيكية. ومـــن بـــين المجلات التاريخية الماركسية والماركسية الجديدة فى أوروبا الغربية

Past and present (oxford)

Recherches internationales (Paris) studi storici (Rome).

ولا يشغل الشرق إلا مكانة ثانوية محددة . وهو يحظى باهتمام أكبر بين الماركســيين الإنجليــز، خاصة الناشرون lawrence x wishart

إضافة إلى R. dutt. The crisis of britain and the British empire (London, 1957)

problems of contemporary history (1963)

إضافة إلى كتاب J. Waddis عن أفريقيا ..

(٦٨) أشير إليه عدة مرات

(٦٩) حول هذا المعهد ، انظر

Problemi blstorvedenea n.6 (1960) p. 221 ff.

(٧٠) انظر ٥١ Collopue..

(٧١) H. Passin, China's cultural Diplomaey (London 1962) pp. 107-115.

(٧٢) يشار ضمن الأعمال الحديثة للاستشــراق العـــالمى إلـــى Andre hipuel l'Islam ersa cirilisation (Paris 1968) ، خاصة الكتاب الرابع صـــ 401 – 315، والذى يتبع هذا الاتجاه، أما D. x j SOURDEL. La cirilisation de l' Islam classigue, (Paris 1968) فهو يواصل الاتجاه ما قبل السوسيولوجى

(٧٣) تجدر الإشارة إلى أنه فى الولايات المتحدة، يتم التشديد على ٦ لغات حساسة هى العربيـــة، الصينية، الهندية، اليابانية، البرتغالية والروسية وفق لـــ Hayter Reports الـــذى يســـتخلص النتائج أيضا بالنسبة لبريطانيا، فقد تم فى الولايات المتحدة (رفع الدعم) عن ١٨ لغـــة ســـلافيـــة وآسيوية.

(١٥)

الماركسية وعلم اجتماع الحضارات

١ – حول الرحلة الطويلة لمفهوم "الحضارة" الاجتماعى marginalized

جاءت الذكرى الـ ١٥٠ لمولد كارل ماركس وسط خلفية مختلفة اختلافا أصليا من الخلفية التى طورت وسطها أفكاره النقدية، فلقد غيرت هذه الأفكار مصير العالم، ابتداء من أعماله "الشابة" إلى كتابة رأس المال (الذى احتفل بذكراه المئوية) وإلى جانب تأسيس "الدولية" فهذه الأعمال غيرت مصير شعوب العالم ودولة وأممه، ومن الواضح أننا واعون بالتعديلات التى حدثت فى الشروط التاريخية والاقتصادية والسياسية تحت وطأة هجوم الثورات والمجابهات، ومع ذلك فإن المتخصصين سواء فى النظرية أو فى التطبيق لا يأخذون فى حسبانهم الأبعاد الأخرى للاختلاف إلا بصعوبة، وهو اختلاف نعتبره نحن من جانبنا أساسى وتكوينى فى صياغة المشكلة النظرية التى هى هدف هذه المقالة، وبرغم ذلك فالظاهرة القومية تؤكد نفسها بتزايد مع كل يوم يمر بوصفها وبموضوعية – العامل المركزى فى الجدلية متعددة الوجوه للثورة والتطور والثورة المضادة والركود الماثل للعيان، ولقيد أضيف بعد جغرافى إلى البعد التاريخى، ولكن ليس كما قد يفهم البعض مسألة طبوغرافيا، وليس هدف هذا البعد الجغرافى – أو بالأحرى هذه الجغرافيا التاريخية – هو "تكييف" التحليل الجيوسياسى للعالم المعاصر، ولكن الهدف هو بالرغم من ذلك هو التزويد بإطار الظهور للمستوى الاجتماعى للعامل الرئيسى فى الحضارة والمفهوم الرئيسى للخصوصية، ويبدو لنا هذا المفهوم مفهوما لايمكن الاستغناء عنه فى تقرير النسق النظرى العام للعملية التطورية للمجتمعات الإنسانية فى هذا النصف الثانى من القرن العشرين.

وإذا ما نظر إلى الماركسية من "المحيط"، أى من القارات الثلاث التى تضم اليوم أكثر من ثلاثة أرباع الجنس البشرى، فإنها تبدو وجهة نظر عالمية أو تبدو

نظرية فلسفية أيديولوجية ومنهجية فى آن واحد، تمثل أو تقدم أكثر التركيبات النقدية للحضارة والثقافات الغربية تقدما، بل إنها وبصفة خاصة تقدم أكثر التركيبات النقدية لأوروبا عصر التنوير والثورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الكبرى تقدما، وتضع رؤية الماركسية – التى هى رؤى ماركس وإنجلز ولينين – "تقدها" بلغة (بمصطلحات) الحضارة، كما أنها تسمح لنا بتحديد خصائصها وعلاقاتها مع جسد المشكلات المفاهيمية والتطبيقية التى تنشأ فى العالم غير الأوروبى وغير الغربى.

ما هى المشكلة المركزية التى كانت تواجه الحضارة الأوروبية والغربية فى منتصف القرن التاسع عشر؟ لقد كان يوجد فى ذلك الوقت تركيب معقد من الدول القومية التى كانت كل منها تختلف عن الأخرى اختلافا كبيرا والتى كانت قد "تأكدت" بالفعل بمر قرون عديدة، والتى كانت أيضا إذ ذاك داخلة فى مرحلة حاسمة إنها مرحلة الوحدة القومية والنظم الاقتصادية المرتكزة على الثورة الصناعية وعلى تكنولوجية العلم الحديث، ومرحلة النظم الاجتماعية المنبثقة عن التقاليد الطويلة للإقطاع الذى فككت أوصاله البرجوازيات، والتى كانت فى ذلك الوقت حاملة رسالة الحرية والعقلانية الاجتماعية، وكانت تلك المرحلة كذلك مرحلة النطاق الكامل للثقافات القومية والمخزون المشترك للثقافة المتراكمة والجهاز المفاهيمى المتجانس ومرحلة الهيمنة السياسية على العالم الواقع فى نطاق المحيط الخارجى – أى مرحلة الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى – نتيجة لذلك التركز الفريد لوسائل القوة والتى تدعمها شبكة من نظم التمويل مثل السيادة على البحار وإعمال الوسائل الحربية القومية المنتشرة طبقا للإستراتيجية التى صاغها نابليون وكلاوزفيتز فى حقبة الثورة الصناعية، وقد كان يبدو أنه لا شئ فى ذلك الحين أوفى المستقبل المنظور يستطيع تحدى الحضارات المهيمنة، أو على الأقل كانت تلك هى الكيفية التى تظهر بها هذه الحضارة من الخارج.

وبرغم ذلك فقد كثرت التناقضات والصراعات وأسباب عدم التماسك فى قلب النظام، وألهبت هذه الأشياء الصراعات الطبقية بين الأثرياء وبين المعدين وبصفة

رئيسية البروليتاريا التى كانت حاملة لواء المستقبل، وقد أدت هذه الصراعات فى تحولاتها من (حروب الفلاحين مرورا بكميونة باريس وحتى مارس ١٩١٧) إلى العصيان المسلح والثورات المسلحة ضد هيمنة البرجوازية فى الجبهة الداخلية، لقد تحدت شعوب الغرب نفسها "عقلانية" نظام يدعى أنه عقلانى وإنسانى من خلال نفس "Citiqe e jams" الذى يحدث الآن فى أنحاء القارات الثلاث.

لقد أصبحت المراجعة الأليمة التى لم تكن من قبل قابلة للتفكير فيها شيئا قدريا، هل كان أحد يجرؤ على أن يتساءل حول الإنجازات الضخمة الباهرة لتلك المنسوبة لنابليون أو هيجل أو أوروبا العصر الفيكتورى؟ وباسم أى شئ يحدث ذلك؟ ولحساب ولمصلحة من؟ ولأية غاية؟ إن الجدارة التى لا يمكن دحضها ولا يمكن إلغاءها لكارل ماركس وفريدريك إنجلز فى ميدان المشروعات "ptene" النظرية والتاريخية هى أنهما أو كما يوضح ضرورة هذا النقد على أساس أكثر عناصر حضارة وثقافة أوروبا تقدما (الفلسفة الألمانية والاقتصاد السياسى الإنجليزى والاشتراكية الفرنسية)، وكان ماركس وإنجلز هما اللذان فهما وحددا الدور المركزى للتطبيق، وهما اللذان فهما الدور الثورى لتلك المجموعة الاجتماعية التى كانت فى ذلك الوقت الأفضل استعدادا أو الأكثر تعرضا للإفقار والبؤس.. وقد كانت هذه المجموعة هى الأفضل بالمقارنة مع الفلاحين والبرجوازية الصغيرة فى أوروبا، وقد أعلنا أن رسالة وهدف الاشتراكية والمجتمع الشيوعى اللاطبقى هو إعادة الإنسان إلى نفسه وقهر اغترابه لكى يصبح سيد مصيره ليس بالمصطلحات اليوتوبية – وهو ما يجب تذكره – ولكن على أسس دافئة وإنسانية محددة، إن الطريقة الوحيدة لحل أزمة حضارة متميزة أو حضارة هى كما كانت فى ذلك الحين هو تسديد الضربات إلى قلب النظام الاجتماعى الاقتصادى الذى يجرد الإنسان من إنسانيته، وكانت تلك خصائص المشكلة النظرية المركزية لماركسية ماركس، بمعنى أن تلك كانت فى الواقع هى أصل طبيعتها، وبعبارة أخرى كان ذلك هو النقد المستتر المتشدد النظرى المرتكز على الزعامة الأيديولوجية والسياسية للتفاعل المستتر بالدرجة نفسها فى الصراع فيما بين الطبقات الاجتماعية.

ومع ذلك فبالرغم من أن المشكلة النظرية الأصلية فى الماركسية مستترة حقا فإننا سوف نرى أنه لا يمكن وصفها بأنها ذات قوة جذب مركزى، ذلك أن النزعة الإنسانية الماركسية التى اكتشفتها وأعجبت بها أوروبا التى تمسكت طويلا بالعالمية وحدها كانت دائما هى الهدف الأصيل للثورات الاشتراكية كما وصـفها مـاركس وإنجلز، ولم يتحقق هذا الهدف أبدا فى أن يسطع وسط تحليل اجتمـاعى اقتصـادى دافئ ومتوهج فى دول آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، تلك الدول التى عرف الناس فيها الحاجة إلى البقاء على قيد الحياة بالشروط المادية، بأكثر الوسائل سرعة، وهذا النمو من التفكير لا يسعى الآن بتصور إشباع حاجة تمسه بشروط إنسانية إذا جاز لنا التعبير،[1] إن الخبز هناك يصطبغ بلون الاستقلال والحرية والكرامة والإخـاء والسعادة.. وهذه فكرة جديدة تماما..

وقد توافقت بدايات علم الاجتماع وعلم السلالات البشـرية (الأنثروبولوچيـا) فيما بعد زمنيـا مع أعمال مؤسس الاشتراكية العلمية، وكانت التقنية فى المرحلـة الأولى هى كيفية وصف الشعوب غير المتحضرة، فالـــ exaticisn تسـعى لأن تكون قليلة القياس، بمعنى التوصل إلى ابتكار وصفى يعود إليه المناخ الإنسـانى. إن المقولة التهكمية اللاذعة لمونتسكيو حول "كيف يمكن لأى شـخص أن يكـون فارسيـا" تقود بصورة طبيعية إلى البحث عن الاختلافات، وإلـى تقسـيم أشـكال وأنواع الواقع وتصنيفها فى فئات، ولكن طبقا لأى معيار سوف يتم ذلك؟

أولا التطور التاريخ[2] ، ثم التاريخية مع ظهـور كـل مـن إ. ب. تـايلور (١٨٧١) ول. هـ. مورجان (١٨٧٧) وقد تبنـى الأنثروبولوچيـون الماركسـيون الأصليون أعمال الأخير واستبقاها المعاصرون (إنجلز ون جوردون تشـايلد ول. مكاريوس،[3] والنموذج هنا هو الحضارة التى هى أوروبا وأمريكا الشـمالية فـى عصر الإمبراطورية والإمبريالية، ونحن نجد فى أعمال تايلور تبشـيرا حضـاريا لازال ممتدا إلى إسبانيا الحالية فى شكل الأيديولوچية الاجتماعية الأمريكية، علـى أن هذا المنهج ظل فى محطه منهجا أخلاقيا، وقد انتهى مع إدخال مفهوم التماسـك والفاعلية الداخلية وخصوصا فى أعمال جـوردون تشـايلد ١٩٥١ الـذى حـدد الخصائص المحددة للحضارة بلغة هى فى وقت واحد اجتماعية علمية وماركسية:

كتب تشايلد يقول:

" إن تجميع أعداد كبيرة من السكان فى المدن: المنتجون عند المصدر (الصيادون، والمزارعون... الخ) والحرفيون العاملون وقتا كاملا والتجار والموظفون ورجال الدين والعلم وكذلك التركيز المؤثر للقوة الاقتصادية والسياسية واستخدام الرموز التقليديون فى تكوين ونقل المعلومات (الكتابة) وأيضا وبالدرجة نفسها استخدام المعايير التقليدية فى الموازين والمقاييس للمكان والزمان.. كل ذلك يؤدى إلى علم رياضى وبيانى معين".(٤)

ويسيطر البعد الأخلاقى والأدبى المعنوى إذا تكلمنا على نحو مناسب على أعمال أ. كروبر (١٩٤٩) ور. ريدفيلد (١٩٥٣) بوجه خاص، وقد لخص المنهج الكلاسيكى بطريقة مؤثرة ج. هـ روبنسون فى مادة الحضارة فى الإنسكلوبيديا البريطانية فى ١٩٢٨(٥) ، وبلغت عملية التمايز أوجها على المستوى المفاهيمى مع تمييز ألفريد ثير المشهور بين "البنية الاجتماعية" والحضارة" "والثقافة".

فالحضارة تمثل الجهد الإنسانى لقهر عالم الطبيعة بوسائل الذكاء الذهنى فى مجالات العلوم والتكنولوجيا والتخطيط أما الثقافة كشئ متميز من الحضارة ترتكز على إدراك العقل والذات الفلسفية والعاطفية.(٦)

ومن الطبيعى أن الذى بذل هذا الجهد "تجمع حيوى" تجمع أوروبى وغربى.

ولم تشخص نقطة التحول فى هذا القرن من وجهة نظر العلاقات فيما بين أوروبا والغرب وبين العالم المستعمر بوصفها أزمة أو أنها لم تشخص بعد بوصفها أزمة، فقد بقيت أوروبا وأمريكا اللاتينية الشمالية متفوقتين ومهيمنتين، ولكن العالم الآخر دخل إلى الحلبة، وقد تلقت الثورات والحروب ضد الاستعمار (فى الهند ومصر والجزائر والصين وإيران بصفة خاصة) والإمبرياليين زادا مفاجئا بانتصار اليابان على روسيا القيصرية سنة ١٩٠٥(٧) ، إن العالم "الآخر" يؤكد نفسه، وفى الحالة الأخيرة يثبت نفسه بقوة السلاح. ولهذا فهو موجود.

وكان ميدان الدراسة الاجتماعية المهتمة بصفة جوهرية بعلم اجتماع المعرفة وعلم الاجتماع التاريخى والفلسفة الاجتماعية فى تلك الوقت فرعا من فروع

المعرفة فى مراحله التكوينية وكان فرعا دراسيا ينظر – وهذا طبيعى تماما – إلى الظواهر غير التقليدية فى ضوء جديد بينما ظل المؤرخ الرسمى وضعيا فى أفضل أحواله، ولكن الصلة كانت من خلال دراسة المجتمعات الأدنى مرتبة (إ. دوركايم، وم. موسى بصفة خاصة) بالاتصال مع الأنثروبولوچيا الاجتماعية والثقافية التى ظهرت حوالى ذلك الوقت، وإذا شئنا الدقة فقد ظهر عام ١٩٢٢، قطاع جديد فى علم الاجتماع تحت اسم "علم الاجتماع الاستعمارى" (ر. مونيير).

فهل يستطيع المرء لذلك أن يتحدث عن إسهام نظرى جديد أو عن إشكالية جديدة ؟ إن الأعمال الكبرى فى تلك الفترة والتى ليست ماركسية، بل ولم تلهمها الماركسية فقيرة للغاية فى المحتوى النظرى، ومع ذلك فقد ظهر سنة ١٨٨٠ مفهوم جديد فى الولايات المتحدة هو التثاقف[٨] ، وقد حظى هذا المفهوم بشئ من النجاح مادام أنه كان يعبر عن نواة الفكر الغربى العميق، وهى نواة كانت ظاهرة بصراحة فى ذلك الوقت وهى الآن مضمرة دائما كما يبين نقد مالينوسكى للمفهوم وعلى الرغم من أن هذا النقد لم يقدم فى الواقع إلا فى سنة ١٩٤٠: فى ذلك العام كتب مالينوسكى يقول:

"إن مصطلح التثاقف مصطلح متمركز حول العرقية وله مغزى معنوى.. إنه يتضمن بسبب حرف الجر al الذى يبدأ به مفهوم الـ terminus ad Quem، والرجل غير المثقف لا بد إذن أن يحصل على فوائد ثقافتنا.. وهو الذى يجب أن يتغير ويحول نفسه إلى واحد منا".[٩]

ولا يمكن وضع هذا المفهوم بطريقة أفضل من ذلك.

ولا يوجد هنا أثر للماركسية، ففى أعمال لينين عن الإمبريالية والمسألة القومية يبقى البعد الفوق بنائى بعدا، ولكن الماركسية النمساوية تعطى هذا البعد اهتماما أكثر على أساس التقاليد الألمانية الخاصة بالتاريخ الثقافى للفلسفة، ومع ذلك فإن مشكلة القوميات فى أوروبا هى ما يهم هذا البعد دائما،[١٠] وقد ذهبت إنسانية جير الاشتراكية السخية دون أن تدرك، ولكن المسألة الجنوبية فى إيطاليا الموحدة "حديثا" وفرت أسباب الظهور لعملية صياغة نظرية مكثفة ولكن غير كاملة من

جانب جرامتشى،[١١] بل إن الماركسية الأوروبية أدركت مشكلة جدلية الحضارات من خلال وسطية الازدواجية الثقافية الإيطالية لأنها رأت عدم إنسانية الشمال الصناعى الزراعى مع الجنوب الذى تمتد جذوره إلى الصدارة الإنسانية لحوض البحر المتوسط الأوروبى، ومع ذلك فإن المفكرين المنظرين وعلماء الاجتماع فى الدول الإمبريالية هم وحدهم المهتمون مباشرة بالاعتراف بوجود المشكلة، وإن كان هذا الاعتراف بالمعنى المقيد الذى ذكرناه آنفا. لقد أصبح "الآخر" مدركا بالقطع ولكن بوصفه "بربريا" "وغير متحضر"، والغرض هو تقليل شأن هؤلاء الآخرين على المستويين الواقعى والنظرى.

وتزودنا الإشكالية المركزية للماركسية بأدوات التحليل وبالوسائل المناسبة للعمل التى يمكن بواسطتها مواجهة وحل ما حددناه بأنه المشكلة المركزية - الأزمة - فى الحضارة الغربية في هذه المرحلة من تطورها التاريخى، وسيكون المفتاح هو تنمية الماركسية داخل "جسد" العلوم الاجتماعية وعلم الاجتماع، وذلك فى الوقت الذى هزت فيه الدولة التى ولدتها ثورة أكتوبر ١٩١٧ العالم كله وليس العالم المتمدين (المتحضر) فحسب.

٢ - حقبة الثورات العالمية: علم الاجتماع والحضارات:

لقد أخذ تاريخ العالم - سواء كان العالم "المتحضر" أو العالم البعيد عن مركز الحضارة" - ينمو فى الفترة التى أعقبت أكتوبر عام ١٩١٧ فى رعاية الظاهرة الثورية، وكانت هناك ثورات اشتراكية وثورات لحركات التحرير الوطنية، (وهنا لا نستطيع أن نعرض نموذجا لسلم أنماط) إذ كان هناك أيضا بطبيعة الحال الثورات المضادة وحروب الاستئصال والإبادة، إن العالم أخذ فى إعادة اكتشاف وحدته، وفى الوقت نفسه إعادة اكتشاف تنوعه أيضا، ومن الممكن بالطبع أن يقال إن كل عصر من عصور التاريخ عرف العنف، إلا أن العنف فى القرن العشرين يقدم نفسه بوصفه أداة يتحقق عن طريقها هدف إنسانى "سار" يوتوبى - إرادى - ثورى - رومانتيكى.. أو فلنقل إنه هدف حتمى من الوجهة التاريخية وبصورة أكثر تحديدا وبساطة بالنظر إلى الواقع القائم، والصياغة الدقيقة لهذا الهدف

ولإشكاليته الجوهرية مثلها فى ذلك مثل صياغة الهدف المضاد الشامل للإمبريالية والرجعية تتخذ نقطة بدايتها من أيديولوجية هى الماركسية تسعى إما للتحقق أو لكبح جماح الهيمنة الإمبريالية، وبطبيعة الأمور ينبغى أن يفهم أننا لسنا مشغولين هنا فقط بتأثير الثورة الاشتراكية الكبرى الأولى ولكننا مشغولون أيضا بتأثير كل تلك الثورات الاجتماعية والوطنية التى حركتها وألهمتها الماركسية ابتداء من كوميونة باريس وحتى فيتنام.

ويوجد على مستوى مضمون علم الاجتماع نفسه وعلاقات جدلية الحضارات - أى على المستوى الذى يهمنا هنا - عدد من عوامل التغير التى تستحق الاهتمام.

ولأول هذه العوامل قاطبة هو أن انقسام علم الاجتماع إلى قطاعات يؤثر فى كل من البحوث والنظرية كما يؤثر فى برامج التدريس، وهكذا فالصدع الحالى بين علم الاجتماع النظرى وعلم الاجتماع التطبيقى (الإجرائى) ليس فحسب نتيجة، لأن كليهما يستخدم أدوات منهجية مختلفة من تلك التى يستخدمها الآخر (مثل الرياضيات، التاريخ، البحوث الميدانية، المسلمات الأيديولوجية.. الخ) ولكن هذا الصدع هو نتيجة للأهداف المتباينة التى يضعها كل من هذين الاتجاهين الرئيسيين فى علم الاجتماع الحديث لنفسه، إذ توجد اختلافات كبيرة فى الطريقة التى تتحدد بها طبيعة العمل، كما أن الـ EQIGANES الخاصة بكل جانب هى التى تشرح الأهداف الاجتماعية له، وفى رأينا أنه يمكن إرجاع هذا الصدع إلى سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية العظمى من ١٩٢٩ إلى ١٩٣٢.

ففى ذلك الوقت كانت الوضعية الأوروبية قد انتهت من أداء دورها فى حقل العلوم الإنسانية والاجتماعية، كما كانت البراجماتية والتجريبية بوصفهما أيديولوجية عميقة الجذور للدولة والثقافة - لاسيما فى الولايات المتحدة - قد بدأت تدخل طور التهلهل، وكان إذن من المتعين اختيار شكلين أساسيين، فمن ناحية كرس علماء الاجتماع الذين تعلموا داخل المدارس الأوروبية فى الفلسفة والتاريخ ويمصطلحاتها للبنائية التاريخية أو المضادة للبنائية التاريخية كرسوا أنفسهم لسرد "أنماط" "ونماذج" "وخطط" و"هياكل"، كما كرسوا أنفسهم لتفكيك العلاقات التى

نسجت وتداخلت بطريقة لا يمكن فكها، ولتنقيح شروح وتحليلات سوف توظف بعد ذلك لتعزيز معيار صلب يتم تبريره بمصطلحات مقتضيات "المنهج"، والسبب فـــى ذلك هو أن هذا "المنهج" مكرس لوصف وقياس ما هو كائن تحت الإحساس بصدق مقولة إن التأريخية يمكن أن تفضى فقط إلى التفسيرات العلمية والتطبيق العلمـــى، وبالطبع يوجد تفسير هذا الاتجاه فى أعمال تالكون بارسونز، أما مناقسوه ومحاكوه العديدون فينقصهم الإلهام الذى وجه بارسونز.

والشكل الثانى من الناحية الأخرى يتألف من علم اجتماعى انبثق من "العلمية" الدارجة فى أواخر القرن التاسع عشر، والذى لم يمكن ليشـــوهه علـــم الاجتمـــاع الآخر.. (علم الاجتماع البنائى). إننا هنا ندخل الحقل الخصيب للمسوح الاجتماعية والتجميعات الإحصائية بكل أنواعها، وهى مسوح وتجميعـــات تعطـــى طبيعتهـــا المضادة للتاريخية والنظرية فرصة الظهور لجداول وسلالم أنمـــاط وإحصـــاءات قيمتها التأويلية تساوى صفرا من الناحية العلمية، وإن علماء الاجتماع المحترفـــون هؤلاء هم الذين تدين لهم بالتقويم التجارى[١٢] لاتجاه علمى من علم الاجتماع اليوم، كما ندين لهم برفض تبنى هذا الاتجاه.

حقا لقد أرسلت الأزمة عددا من علماء الاجتماع الناشئين فى الطريق الخطـــأ، ويلوح أن الوصول إلى نقطة الذروة فى هذا الاتجاه قد تم فى الفترة بـــين عـــامى ١٩٣٠، ١٩٥٢ عندما بدا أن الحرب العالمية الثانية ثم الحـــرب الكوريـــة بعـــدها يثبتان أن مركز الهيمنة الغربية قد قهر التهديـــد النـــابع مـــن داخلـــه: "فـــالمجتمع العظيم"[١٣] الذى تأسس أثناء الحرب الباردة قـــد أكـــد ســـطوته، فيمـــا ظهـــر أن الاختلافات الإنتاجية والطريقة الإنتاجية فى الحياة قد أصبحا هما النمـــوذج للـــذى يستهديه كل فرد فى العالم، ولكن علم الاجتماع النظرى سار فى طريقه الخاص فى ظلال مؤسسيه العظام الذين يحتل ماركس وڤابير بينهم مكانة بـــارزة، إن نوعيـــة تلاميذ ڤابير وعدد الأعمال التى وضعت بإلهامه من الأشياء المعروفة للكافة علـــى الرغم من كتاباته هو شخصيا تتعرض الآن وبقوة للتحديات، فريمون آرون يصـــفه "بمعاصرنا" ذلك المفكر الذى يجعل من رفض "الدوجماتية" مذهبا دوجماتيـــا هـــو

نفسه، والذى يضفى صفة الصدق المطلق على تعارض القيم والذى يعتـرف فـى نهاية المطاف بعلم جزئى وإلى جانبه اختيار تحكمى جامد، إنه مفكر معذب أكثـر من كونه فيلسوف المجتمع الصناعى، أما إ. فيلشمان فيصف ڤايبر بأنـه مـاركس البورجوازية،[١٤] لقد أفضت فلسفة ڤايبر المثالية فى التاريخ به إلى تخويل الثقافـة دورا مركزيا فى الجدلية التى تعمل فى إطار مؤسسة الدولة، كما أن منهجه تميـز بصورية عصره.. أى صورية التعبيريين الألمان، ومن ثم جاء على علم الاجتماع البنائى الأمريكى.

وتميز ڤايبر من ماركس نقطة انطلاقه تماما مثلما تفعل كل الاتجاهات الفكرية والعلوم الإنسانية والاجتماعية فى القرن العشرين، وتأثير ماركس يعبر عن نفسـه بعدة أشكال وطرق، فيعبر هذا التأثير عن نفسه مباشرة فى فكر وبحـوث علمـاء الاجتماع الماركسيين المعتنقين للماركسية والذين ينغمس بعضهم مباشرة فى النشاط السياسى الثورى، كما يعبر تأثير ماركس عن نفسه بصورة غير مباشرة فى أعمال أولئك الذين يعترفون صراحة بإسهام مقولات وأفكـار مـاركس دون أن يصـفوا أنفسهم بأنهم ماركسيون، كذلك فإن تأثير ماركس الضمنى موجـود فـى أعمـال الغالبية العظمى من علماء الاجتماع، لاسيما النظريون، بل وفى أعمال عدد مهـم من علماء الاجتماع التطبيقيين (الإجرائيين) وسبب ذلك يعزى إلـى أن المقـولات المركزية للماركسية تؤخذ كأمر مسلم به – إذا شئنا استخدام هذا التعبير – فى كـل مكان، ويستوى فى ذلك الأعمال المعنيـة بأهميـة البنيـة التحتيـة: الاجتماعيـة الاقتصادية وأساليب الاقتراب النظرية من العلاقات بين البنيـة التحتيـة والبنيـة الفوقية، وكذلك – ولكن بطريقة أكثر تعقيدا – الأعمال التى تتناول جدلية الطبقـات والمجموعات الاجتماعية أو التطور التاريخى للمجتمعات، وعلى أية حال فإن دور التطبيق فى كل هذه الأعمال وضع فى مرتبة ثانوية.

عند هذه النقطة ينبغى أن نلفت الانتباه إلى مجموعة رابعة من علماء الاجتماع فى القارات الثلاث، إذ إن نظرة غالبية علماء الاجتماع هناك ماركسـية بصـورة صريحة، كما أن الماركسية هى التى تلهم البحوث النظرية والتجريبية فى عدد من

بلدان تلك القارات (البرازيل، المكسيك، مصر، تونس، الهند.. الخ) ولقد أدت تلك البحوث فى المقابل إلى وضع صياغات نظرية جديدة تتميز بدرجة عليا من الأصالة.

إن هذه الاعتبارات ينبغى أن تلقى الضوء على المشكلات الناشئة عن تقسيم علم الاجتماع إلى قطاعات مختلفة، كما ينبغى أن تلقى الضوء على الصعوبات المرتبطة بعلم اجتماع الحضارات، فقد بقيت بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية أربعة أنماط من التصنيف جديرة بالاهتمام، أولها هو مدرسة دوركايم فى تطويرها النقدى الاشتراكى الذى أحدثه جورفيتش، وثانيها التصنيفات الأنجلو أمريكية التى تم تحديثها مؤخرا فى رعاية اليونسكو، ثم التصنيف الذى قدمه ت. ب بوتومور عالم الاجتماع الماركسى الذى ينتمى لمجموعة علماء الاجتماع الماركسيين الجدد، وأخيرا قائمة البحوث التى أصدرتها الرابطة الدولية لعلماء الاجتماع فى ختام مؤتمرها السابع فى إيفيان عام ١٩٦٦(١٦) ، ويلفت الانتباه هنا عاملان، الأول هو أن عدد التخصصات والفروع المهتمة بعلم اجتماع البنية الفوقية كان أكبر وبشكل ملحوظ فى الفئات ١، ٢، ٤ منه فيه التصنيفات الأنجلو أمريكية، والعامل الثانى هو أنه على الرغم من الأهمية المتزايدة لعلم اجتماع البنية الفوقية فإنه يوجد عدم ارتياح ملحوظ – على مستوى الصياغة – حول إمكانية وجود علم اجتماع للحضارات، ولقد كان أمكن بالفعل فى ١٩٥٠ لكتيب اجتماعى مختصر لكنه مفيد وكان اتجاه دوركايم هو مصدر إلهامه.. أمكن لهذا الكتيب أن يعزل "علم اجتماع الحضارات" فى إطار تخصصى عرف باسم علم الاجتماع السياسى (الدولة والأمة والحضارة)، وفى هذا التخصص كانت المشكلات تدرس فى ضوء جدلية الحضارات غير الغربية "مع الحضارة" داخل منظور إنسانى فى حالة تحرك للأمام.(١٧)

ولكن نشر مجلد (Tnaite de Sociolgie) سنة ١٩٦٠ بتوجيه من ج. جورفيتش هو الذى يميز بداية تكريس المفهوم الاجتماعى للحضارة (وقد استأثر هذا المفهوم بجزئين من الأجزاء العشرة التى تؤلف المجلدين)، ومع ذلك فقد كان

الانشغال الحقيقى لهذا المؤلف بالمشكلات المتعددة التى طرحها "علم اجتماع عمل الحضارات".. (الأديان، المعرفة، الأخلاق، القانون، الجريمة والإجرام، الطفولة، اللغة، الفنون، الموسيقى، الأدب)، كما تضمن الكتاب دراسة لباستيد عن "مشكلة العلاقات الداخلية بين الحضارات وأعمالها"،[١٨] ويوجد المنهج المقارن فى الجزء العاشر من الكتاب، وهو الجزء الذى يتناول "مشكلات العلاقة بين ما يسمى بالمجتمعات القديمة البائدة" والمجتمعات التاريخية (٣ فصول)، كما يوجد هذا المنهج فى الفصل الذى يتناول "علم اجتماع الأقاليم المتخلفة، ولكن الحضارة موضع الدراسة الرئيسية هنا هى حضارة أوروبا وأمريكا الشمالية الحديثة، أما الآخرون فتطلق عليهم صفات مثل "المجتمعات والأقاليم" وهم - أى هؤلاء الآخرون - يكونون موضوعات لعلم الأنثروبولوجيا السياسية الوليد، لقد طرحت مشكلة جدلية للحضارات على هذا النحو، وكانت ثمانية تخصصات (بالإضافة إلى علم الاجتماع السياسى) من أصل ثلاثة عشر تخصصا أساسيا اعترفت بها رسميا الرابطة الاجتماعية الدولية تنتمى إلى علم اجتماع البنية الفوقية وبصفة خاصة التخصصات الجديدة مثل الاتصال الجماهيرى، والتعليم والـ leisne والثقافة الشعبية وعلم اجتماع الطب والطب النفسى وعلم اجتماع العلوم، وبعد ذلك بقليل أنشئت لجنة بحوث لعلم اجتماع الأمم الجديدة سوف تركز أعمالها فى بحوث التكوينات القومية (بينها بعض التكوينات الأقدم فى العالم) وبحوث المجتمعات المتخلفة المعاصرة، وهكذا يبقى علم اجتماع الحضارات دون اعتراف دولى.

ويدفعنا كتيب ت. ب بوتومور إلى قلب المشكلة، لأنه الكتيب الأول والوحيد حتى الآن الذى يدرس كل جانب من التخصص بشروط الإشكالية المزدوجة لعلم الاجتماع الغربى (علم اجتماع الدول ذات النظم الاجتماعية الاقتصادية الرأسمالية والاشتراكية) وعلم اجتماع العالم المتخلف ممثلا فى هذه الحالة فى الهند،[١٩] إن هذا العمل لا يتضمن فحسب فصلا عن "الأبنية الاجتماعية والمجتمعات والحضارات" (فصل ٣ ص ٧) ولكن ينظر أيضا فى المشكلة الكلاسيكية على أساس من الإشكالية الجدلية فى علم الاجتماع، وعلى هذا النحو يقدم العالم الذى

كان مستعمرا فيما سبق كحالة للدراسة، أى كمؤثر يمكن بالرجوع إليه قياس درجة الصدق العلمى (أو العالمى بعبارة أخرى) للاتجاهين الكبيرين فى علم الاجتماع التقليدى، ومما له مغزى أن المؤلف هو أحد رعايا واحدة من القوى الاستعمارية السابقة (بريطانيا العظمى) ومدافعا عن الماركسية التى سوف تأتى وتحتضن مشكلات القارات الثلاث.

إن هذه المشكلات ليست مشكلات التنمية ولكنها مشكلات الحضارة بصورة جوهرية، ولكن قبل التطرق إلى لب هذا المقال قد يكون من المناسب دراسة تاريخ عملية وضع المفهوم أو المفاهيم، فقد صاغ أرنولد توينبى استرشادا بوجهات نظر دوركايم وموسى الثاقبة[٢٠] ابتداء من سنة ١٩٣٤ فصاعدا سلم أنماط للحضارات، (عدد توينبى ٢١ حضارة ولكن وبطريقة غامضة يصفها بأنها مجتمعات)، واستبقى توينبى أحد "آرائه" الرئيسية وهو أن المجتمعات المختلفة تحتفظ بعلاقات بعضها بالآخر إلى حد أنها تتشارك فى ثقافة وتقاليد ثقافية مشتركة[٢١] وبهذه الطريقة تصبح البنية الفوقية عند المؤرخ وعالم الاجتماع على السواء هى مفتاح الفهم لعالم مختلف، أى لحضارات أخرى نظر إليها فيما سلف بوصفها بعيدة عن مركز الحضارة وبوصفها بربرية أو مستعمرة، ومع ذلك تظل هناك حاجة لشئ أكثر من الفرض المنهجى، ولنقل مرة أخرى إن دراسة الحالة بعمق يجب أن تسفر عن تجديد نظرى، إن هدف موسوعة جوزيف نيدهام المهمة "العلم والحضارة فى الصين" التى بدأت فى الظهور عام ١٩٥٤[٢٢] كان هو على وجه الدقة استكشاف الآخر.. استكشاف الحضارة الرئيسية فى الشرق المعاصر بتقاليدها العريقة.. أى حضارة الصين، وإذا كان هدف موسوعة نيدهام هو حقا إقامة "عالمية" جديدة من أجل "تبديد الظلال وتحطيم التجاهل والجمع فيما بين الروافد المتباعدة للتجربة الإنسانية ومن أجل اكتشاف أن هذه الروافد ربما لا تكون متباعدة على النحو الذى كان يعتقد فيه، فإن منهج هذه الموسوعة كان اجتماعيا وكان ماركسيا، "إن تحليل الأبنية الاجتماعية والاقتصادية للثقافات الشرقية والغربية هو فقط – ومع عدم نسيان الدور الكبير لنظام الأفكار – الذى سيقدم فى النهاية تفسير الشيئين".

إنه لم يسبق أن قدم عمل عن العالم غير الغربى بهذا الحجم ويمزج، كما تفعل موسوعة نيدهام، بين الدقة العالمية الصارمة ونفاذ البصيرة، وبين صوت العقل والمشاعر، فهذا العالم الآخر يظهر فى الموسوعة مجلدا بعد مجلد بكل جلاله وشموخه، كما يظهر هذا الآخر بوصفه عالما ذا خصائص مميزة وذا طبيعة عالمية، إنه حضارة تتطور وفقا لمفهومها الخاص للإنسان ولنظام القيم وطبقا لفلسفتها وأيديولوچيتها الخاصة، وقد فسر كل ذلك على أساس التاريخ ذى الخصائص المميزة لهذه الدولة التى تؤيد التحليل فيها أبنيتها الاجتماعية والاقتصادية، وعلى هذا النحو فإن كلا من التحليل والبناء الاجتماعى والاقتصادى تجعل من الظاهرة الصينية ظاهرة مفهومة وظاهرة تفسر المناظرة العظمى الجارية فى هذا العصر، إن ذلك العمل – موسوعة نيدهام – هو عمل ذو أهمية مركزية، ومع ذلك فهناك حضارة أخرى – هى الإسلام – كانت موضوعا لدراسات مستفيضة ومتعمقة قام بها كل من س. كاهن وم. رودينسون فى إطار ماركسى[٢٣] كما ألقت أعمال أخرى تتميز بالأصالة فى أغلب الأحوال (مثل أعمال چاك بيرك ون. بركيز.. الخ) أضواء جديدة على جوانب من هذه الحضارة وعلى مسألة العلاقة بين التراث الكلاسيكى والعالمين العربى والإسلامى المعاصرين،[٢٤] وذلك على الرغم من أن هذه الأعمال لم تؤد بأصحابها إلى وضع تفسير لهذا العالم أو هذين العالمين داخل الإطار العام لعلم آخر فى الهند واليابان وفيتنام وإيران، كما استكشفت جزئيا كذلك العلاقة بين الحضارات الكبرى لأمريكا الهنود الحمر وأمريكا اللاتينية الحديثة، والعلاقات المماثلة فى أفريقيا السوداء، ولكن ليس لدينا رغم ذلك تفسيرا شاملا وذى مغزى لكل هذه الحالات.

إلا أن تلك الأعمال – سواء كانت تاريخية أو كتبت من وجهة نظر علم الاجتماع – قد ساعدتنا فى التوصل إلى تعريفات سوف تكون ذات قيمة وكبيرة فى المستقبل، فبواسطة "الثقافة" فهمنا الجوانب المثالية فى الحياة الاجتماعية بوصفها شيئا مغايرا ومتميزا عن علاقات وأشكال الارتباط القائم فى الواقع بين الأفراد، كما أننا بواسطة "ثقافة ما" فهمنا الجوانب المثالية لمجتمع بعينه، وبهذا المعنى تنتمى

الثقافات إلى حقل علم اجتماع المعرفة وعلم اجتماع الثقافة فى أوسع معانيه، أى تنتمى إلى علم اجتماع الأبنية الفوقية.

كيف إذن ندرس "ثقافة ما" فى هذه الحالة؟ وبأية مبادئ أو بأى معيار سوف نميز بين ثقافة وأخرى، إن الكاتب نفسه يزودنا فى تعريفه للحضارة بنموذج الإجابة، فيقول "إننا نعنى" "بحضارة ما" المركب الثقافى المكون من الخصائص الرئيسية المتطابقة لعدد من المجتمعات، الذى يشكل كل مجتمع منها مجتمعا قائما بذاته،[٢٥] ولكن المؤلف ينبذ عن عمد هذا المنهج "الثقافى" ويتمسك بالعلاقة العضوية داخل كل مجتمع بين العناصر المادية والعناصر غير المادية للثقافة".

هذه إذن هى نقطة التحول، وإذا أخذنا التاريخ فى الاعتبار فإن هذه الأعمال ظهرت كلها بعد عام ١٩٥٠، أى بعد انتصار الثورة الاشتراكية فى الصين (أكبر دولة فى القارات الثلاث وأكبر دولة فى الشرق بصفة خاصة) وفى غمرة حركات التحرر الوطنى القومية والثورات الوطنية والاجتماعية التى حطمت هيمنة الإمبرياليات التقليدية وتحدت الإمبريالية الجديدة للولايات المتحدة تحديا منتصرا، وإذا تكلمنا من وجهة نظر تاريخية فسوف يكون علم الاجتماع هو آخر علم ولد فى أسرة العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهذا العلم ينسب لنفسه بطريقة ضمنية عادة دور التخصص الوسيط بين العلوم المختلفة، ولذا فإنه منظريه يكافحون فى مواجهة مشكلات غير تقليدية، ولهذا السبب لا يستطيع هذا العلم أن يتهرب من المشكلات العميقة التى تطرحها الممارسات الملموسة للمجتمعات الإنسانية، والممارسات ليست مهتمة "بالتنمية" بالمعنى التكنولوجى أو بالتخلف الثقافى (المتبقى من مذهب الأبوية)، ولا هى مهتمة "بالتحديث" (الذى هو التعبير عن الأيديولوجية التكنوقراطية فى الحقل "الاستعمارى"). ولكن اهتمام الممارسات هو جدلية الحضارات المختلفة التى تتصادم الآن على المستوى السياسى، والتى تطرح جميعها مع ذلك وعند الجذور مشكلة الإنسان.. مشكلة الوجه الجديد للإنسان والقيم التى ينبغى إدخالها على الحياة فى الوقت الحاضر، القيم التى يرغب الإنسان فى الحياة والموت من أجلها.. أى مشكلة السعادة على نطاق كوكبنا الأرضى من أقصاه إلى أقصاه.

لقد أشرنا إلى ضرورة علم لجتماع للحضارات هذا، فما هـي إذن إشـكاليته الأساسية؟ وكيف يرى الماركسيون دورهم وإسهامهم في صياغته؟

٣ – جدلية الخاص والعام (العالمي).

ليس هناك توضيحا لفشل المنهج العالمي الزائف في تناول ظاهرة الحضـارة التي هي حقـا ظاهرة عالمية ومهيمنة، أفضل من انهيار نظرية والت روستو التي ولدت ميتة عما يسمى "مراحل التنمية"،[٢٦] لقد اندفع كبير مستشاري البيت الأبيض لشئون سياسة الشرق الأقصى بمنطق الفكر الاجتماعي الذي يعبر هو عنـه إلـى المأزق المأساوي الذي تتخبط فيه الآن أكبر قوة عرفها التاريخ، ذلـك أن النزعـة الإمبريالية الاستيعابية للآخرين، والأبنية التي يجب أن يتتابع معهـا فـوق بعـض بصورة حتمية (أي التنمية) وجدت نفسها وجها لوجه مع الشعوب والظاهرة القومية والأيديولوجية الماركسية.. أي مع الحضارة في كلمة واحدة.

٣ – ١ موقع المشكلة النظرية:

أسس المنهج الذي يمكن للمرء أن يصفه بأنه تكيفي أو تنموي علـى مسـلمة مركزية هي: أنه لا توجد حضارة غير الحضارة الغربيـة التـي هـي أوروبيـة بالأساس، على الرغم من أن محور قوتها قد اتجه الآن إلى أمريكا الشمالية، ومـن ثم فعلى الشعوب والدول والأقاليم والثقافات التي ليست جزءا من هذه الحضارة أن تتكيف "معَ الحضارة" إذا كان ذلك في مقدورها، أي أن تتكيف مع طريقـة الحيـاة الغربية في شكلها الأمريكي، وقد يكون من الممكن في أفضـل الأحـوال وعنـد التعامل مع الاستواءات الأكثر تماسكا – وبالتالي الأكثر استعصـاء – الاعتـراف بوجود "مناطق ثقافية"، ولكن شبح وجود حضارات مختلفة يجب أن ينحـى جانبـا بأي ثمن لأن هنا يوجد التحدي المركزي في التاريخ، أي عندما تسـلح الثـورات الوطنية والاجتماعية نفسها بالفكر العلمي والتكنولوجيا الحديثة.

ب – سمحت النزعة التحديثية بعمق الحقل التـاريخي أي للعامـل الحضـاري أن يدرك قوته الكامنة، سواء كانت هذه القوة مستترة أو خامدة، وسواء كانـت

قوة متحركة.. لم جددت من طبيعتها أثناء حقبة انحطاط الحضارات غير الغربية فيما بين النهضة (الأوروبية) ومنتصف القرن التاسع عشر.

إنه من المستحيل إمكان تعايش حضارات مختلفة في زمن واحد، وعودة ظهور أو انبعاث هذه الحضارات بالشروط المعاصرة هو عملية تخفي المخاطر والصعوبات قوتها التي لا تقاوم في اللحظة الحالية، ففي اللحظة التي يتحقق فيها الاستقلال يصبح واضحا أن الهدف التاريخي للظاهرة القومية هو جعل خلق وتوطيد تفاعل جدلي مع الحضارة المهيمنة أمرا ممكنا للأمم والوحدات القومية [الثقافات والحضارات] وكذلك تمكين هذه الأمم والوحدات القومية من تقديم إسهامها الخاص والمميز في تلك الحضارة المهيمنة، ولن تكون أداة تحقيق هذه المهمة الجماعية المتعلقة بمصير الإنسان سوى الدولة القومية المستقلة التي تعتمد فاعلية عملها ورؤيتها للمستقبل على محتواها السياسي الشعبي، إن هذه العوامل هي التي تميز الظهور الكامل للحضارات "الهامشية" في الحياة المعاصرة، وليس ما يميز هذه الحضارات هو حالتها كأعضاء في عالم "ثالث" ثري في عدد أعضائه، ولكنه عقيم في العمل والحركة وليس له تأثيرا في مجال الحضارة.

ج – وبسبب ما تقدم فإن المشكلة المبدئية هي الجدلية بين الخاص (العناصر القومية والثقافية المستقبلية والحضارية) وبين العالمي أو "العام" (الحضارة التوفيقية المستقبلية التي سوف تحتضن كل الناس عن طريق وساطة العلم والتكنولوجيا).

ولا يقع الخطر في المثال الأول في التأكيد المتكرر على الظاهرة القومية ولكن في فرض القوالب المهيمنة المسماة "عالمية"، لأن فرض هذه القوالب سوف يؤكد الآن أكثر من أي وقت مضى مسخ حضارة العالم غير الغربي وحصرها في وضع المنتجات الثانوية (الفرعية) للنزعة التقنية والنزعة الإنتاجية لجيوش الاحتياطي الاقتصادية والديموجرافية (السكانية) والعرقية (الإثنولوجية) في ظل عالم تابع.

تلك هى نقطة التلاقى بين ثورات (التحرر الوطنى والاجتماعى) وعملية إعادة توضيح دور الحضارة الغربية بالشروط الديالكتيكية، وهذه عملية لا يمكن التهرب منها، وسيكون الهدف هو خلق حضارة إنسانية أصيلة تعمل من خلالها الوحدات الثقافية القومية والحضارات الرئيسية على رد الكمال لناس وعلى رد سيادتهم على حيواتهم إليهم من خلال المواجهة والزمن التاريخى.

د- ويعقب ذلك التصنيفات (الفئات) الرئيسية، وسيكون الطابع العام لعلم اجتماع الحضارات ديناميكيا وجدليا: "الثورة و"التغير" "والتقلب" "والتحول" "والانتقال المفاجئ" "والتحرر" "والتصنيع" "والثقافة القومية" "وإعادة اكتساب الهوية" والبعث القومى" و"التحديث".. الخ. إن الدخل القومى الاجمالى أو الصافى والإنتاجية ومعونات التنمية (ثنائية أو جماعية... على أية صورة كانت) وتكوين الفنيين كلها عناصر مهمة، ولكنها ليست ولن تكون حاسمة، إن المرء يجب أن يبحث عن الأساس داخله وداخل الجماعية القومية الشعبية حيث توجد المصادر الجوهرية للنهضة والبعث.

إن الصياغة التاريخية المحددة للمشكلة تسمح لنا الآن بالانتقال إلى المستوى النقدى.

٣ – ٢ : نقد المناهج غير الماركسية المختلفة:

يمكن تقسيم هذه المناهج إلى مجموعتين رئيسيتين، على الرغم من أنه يمكن تصنيفها بطريقة أكثر مفاضلة:

أ) الفلسفيات والمنهجيات المثالية متضمنة فى تحولاتها المجموعات الفرعية التالية:

١ – **فلسفات التاريخ:** فلقد ظلت الهيجيلية تلهم الكثير من الأعمال، لاسيما تلك الأعمال التى تسعى إلى اعتماد العوامل الفوق بنيوية التى اختفت بعض الوقت بسبب التفسير المخطئ للماركسية على أنها مادية اقتصادية، إن مصطلح الدائرة الجدلية (الديالكلتيكية)، أى دائرة التحليل والتركيب ليست منبتة الصلة بمشروع

توينبى الطموح، وقد تكررت نفس الأفكار فى الأعمال المذهبية التى تتحدث عن "الرسالة القومية" أو الظهور القومى موضوعين داخل إطار روحانى فى الشرق والغرب على السواء.

ولهذه الرواية للمشكلة قيمتها: فلقد أشرت بالفعل إلى الإلهام الإيجابى لعمل توينبى فى بعض الميادين، ويستطيع آخرون - وإن كانوا أقل امتيازا - أن يقدموا رؤى ثاقبة لعناصر علم النفس الاجتماعى والقومى التى يمكنها خلق دراسة فى العمق، ومع ذلك تبقى القيمة التفسيرية لمثل هذه الأعمال محدودة، إن فلسفات التاريخ تفترض فى واقع الأمر وكمعنى عام، وإن كان متباينا جدا، أن التاريخ المحدد للمجتمعات التى تدرسها قائم على أساس المبادئ الواقعية (الحقيقية) مقدمة كما لو كانت كيانات متمايزة، وتقترب الاستثنائية الناتجة عن ذلك من سلم الأنماط العرقى العنصرى والجمود البنائى، إنه يعترف بأن التاريخ يتطور، ولكنه يتطور فقط داخل هذا البناء الضارب بجذوره بعمق فى التجريد.

٢ - الفلسفات الروحية التى هى وثيقة الجوهر فى إلهامها:

ومصدر هذه الفلسفات مختلف ولكن خصائصها تشبه النمط السابق، فالرسالة التمدينية للمسيحية تشير إلى مفهوم مشابه فى الإسلام الأصولى واليهودية الكفاحية، ومع ذلك فإن الإطار الفلسفى هنا هو إطار عالمى بصورة قديمة وربما كانت العالمية فى الإسلام أكبر منها فى الديانتين التوحيديتين الكبيرتين الأخريين، نظرا للظروف الخاصة بظهور كل من هذه الديانات الثلاث، ويتخذ تفسير كل واحدة من هذه الديانات للحضارة، كما يتخذ تطور كل منها جذوره من البيئة التى نشأت الديانة فيها، ويتضمن الطموح العالمى للفلسفات الروحية إدماج العناصر والبيئات والثقافات والمجتمعات - التى يعد كل منها قابلا للحصر إلى حد أنها تنتمى لنفس الحضارات أو لحضارات متشابهة - فى نموذج ينظر إليه على أنه هو السائد أو أنه هو النموذج الأصيل فى تمثيله لقيم الدين، سواء كان هذا النموذج هو مسيحية الغرب (على الرغم من محاولات تحديثها) أو كان هذا النموذج هو الإسلام العربى (على الرغم من المجال الأفروآسيوى).[٢٧] كذلك لا يمكن تحليل الوساطة

فى اتجاه التحديث ونمو تطور الحضارات بمصطلحات الفلسفات الدينية إذا أنها فى أفضل الأحوال تقدم مناسب.

٢ – المنهج البنائى الذى بدأ يسرق الضوء من الماركسية:

ليست لدى أية نية لتقديم نقد عام لهذه المدرسة فى هذه المناسبة، فالأعمال الأخيرة لكل من هـ. ليفبفر، و إ. هوبسبوم، ول. جولدمان بين أعمال أخرى تزودنا بأساس علمي كاف لهذا النقد، وما أرغب فيه هنا هو تحديد وتعريف المنهج البنائى فى تناول علم اجتماع الحضارات وتقويم إسهامه.

إن الهدف الأساسى لهذا المنهج يبدو أنه هو دحض التاريخية نفسها بأى ثمن لأجل نزع صفة التاريخية عن العالم، وهكذا فقد تمت أبحاثه فى المجتمعات الهامشية، أى المجتمعات "التى ليس لها تاريخ"، وقد عمم منهجه صراحة أو ضمنا فى كل مجالات علم الاجتماع، ويبقى أن نرى ما إذا كان هناك العديد من المجتمعات البشرية دون تاريخ، إن المؤكد هو أن وضع مجموعات إنسانية على الهامش التاريخي وكذلك إبعاد مجتمعات معنية من التيار المتدفق للتغيير والحركة فى العالم هو فى ذاته ظاهرة تاريخية، لأن التاريخ هو وحده الذى يمكننا من فهم أسباب ذلك، وقد قدمت "خلاصات" توينبى المنشورة حديثا[٢٩] والتى تردد صدى خلاصات رايت ويلز وإ. جيلز وج بالانديير[٣٠] بطريقة تبدو حاسمة.. يقول توينبى إن مجرد اختيار مجموعات ومجتمعات تسمى تاريخية هو فى ذاته اختيار أيديولوچى أملته الرغبة فى تثبيت "اللحظة الحاضرة للكائن" بوصفها بنية، وبالطبع فإن البنائيين أنفسهم سوف يدحضون هذا التوصيف لهم، ولكن حقيقة أنهم يعطون اهتماما خالصا للمجتمعات المشهورة بأنها بدون تاريخ (الهامشية).. هذه الحقيقة وحدها تعنى أنهم لا يستطيعون تقديم منهجية تستخدم فى ميدان الحركة الجدلية للتاريخ، إن البنائية تضع نفسها على هامش "الاندفاع العظيم للتاريخ" بحصر نفسها عن قصد فى دراسة المجموعات البشرية الهامشية.

٣ – ٣: نقد المنهج الماركسى:

المفهوم الماركسى المركزى لأغراضنا هو مفهوم "الخصوصية التاريخية" وهو مفهوم اختاره عدد من المؤلفين بينهم رايت كيلز، وف. برويل وآخرين، ولكن

غالبية علماء الاجتماع والمنظرين فى القارات الثلاث يتبنون هذا المفهوم اليوم، ولنبدأ بتطوير ميلز لمفهوم الخصوصية التاريخية:

"إن ما أسماه ماركس" بمبدأ الخصوصية التاريخية" يشير أولا إلى خط إرشادى: إذ ينبغى فهم مجتمع بعينه فى ضوء شروط الفترة الخاصة التى يوجد فيها، أما فيما يختص بدراسة مجتمع معاصر فإننى أعتقد أن القاعدة الصالحة فى أغلب الأحوال هى محاولة تفسير الملامح المعاصرة لهذا المجتمع وفقا لوظيفتها المعاصرة، وهذا يعنى وضع تلك الملامح ورؤيتها بوصفها أجزاء، بل وبوصفها راجعة إلى ملامح أخرى لإطارها المعاصر، فإذا كان الغرض هو أن نعرف تلك الملامح ونحددها بوضوح فحسب، وأن نجعل مكوناتها أكثر تخصصا فمن الأفضل أن نبدأ بمسألة تاريخية أكثر أو أقل ضيقا، ولكنها تبقى بالطبع مسافة تاريخية.[٣١]

ب) هذا المبدأ يعنى فى المرتبة الثانية أن الميكانيزمات المختلفة للتغير تتقاطع بطريقة خاصة فى إطار هذا النمط التاريخى، ولكن لماذا نستخدم لفظ خاصة إذا كانت كل العلوم عامة؟

ج) بادئ ذى بدأ لماذا يكون النمط تاريخيا "بالضرورة ؟ لأن التاريخ هو المركز العصبى للعلوم الاجتماعية، ولأن كل علم اجتماعى أو كل دراسة اجتماعية فكر فيها جيدا بتعبير أفضل تقتضى بعدا تاريخيا للمفهوم، واستخدام كامل للمواد التاريخية، والقضية هنا فى الحقيقة هى أن الدراسات التاريخية تميل عادة لأن تكون استاتيكية أو لأن تكون دراسات قصيرة الأجل لبينات محدودة، وعلى أية حال فإنه يجب توقع ذلك، لأننا أصبحنا جاهزين أكثر من ذى قبل للوعى بالأبنية الكبرى عندما تأخذ فى التغير، ومن المحتمل أن نصبح واعين بمثل هذه التغيرات عندما نوسع فقط رؤيتنا لتتضمن مسافة تاريخية مناسبة.

حقا إن مشكلات المجتمعات الغربية فى عصرنا هى فى معظمها وحتما مشكلات العالم، ولكن البعد التاريخى يصير عاملا مهما فى تفسير العالم غير الغربى، إن هذه المعرفة لتاريخ مجتمع ما هى غالبا أمر لاغنى عنه لكى يصبح فهمه واضحا بما فيه الكفاية لأى اقتصادى أو لأى عالم سياسة أو عالم اجتماع فى

اللحظة التى يغادر فيها مجتمعه الصناعى لدراسة المؤسسات فى بنيـة اجتماعيـة مختلفة فى الشرق الأوسط، فى آسيا، فى أفريقيا، لأن معامـل القيمـة التفسـيرية العلمية للعامل التاريخى ليست هى نفسها دائما وليست هى نفسها فى كل مكان.

إننى أعتقد أن الفترات والمجتمعات تتباين فيما يتعلق بكون فهمها يقتضـى أو لا يقتضى الإشارة المباشرة إلى "للعوامل التاريخية"، وبطبيعة الحال فمن الواضـح تماما أن فهم مجتمع بطئ الحركة واقع عبر القرون فى أحبولة دائرة الفقر والتقاليد والمرض والجهل يتطلب منا دراسة الأرضية التاريخية والميكانيزمات التاريخيـة الصلبة لعلمية وقوعه الرهيبة فى أحبولة تاريخه الخاص، ويستلزم تغير تلك الدائرة وتفسير آلياتها فى كل حقبة من أحقابهـا تحلـيلا حضـاريا بعمـق فـى أغـوار التاريخ.[٣٢]

إنه يبدو واضحا على هذا النحو كيف يقود العامل التاريخى إلى الخصوصـية فى المقام الأول، كما أن المبدأ الاجتماعى الخاص بالخصوصية التاريخيـة مبـدأ صالح لدراسة أمريكا مثلما هو صالح لدراسة المجتمعات غير الغربية.

"فنحن نصبح واعين بغياب مرحلة تاريخية معينة فى مجتمـع عـن طريـق الدراسات المقارنة فحسب،" ولكن لأية ظاهرة تكون هذه الدراسات المقارنة؟

إن الدولة القومية الديناميكية بوصفها وحدة صنع التاريخ هى أيضـا الوحـدة التى فى داخلها يتم اختيار جمع متنوع من الرجال والنساء وتشكيلهم كما يـتم فـى داخلها، إما تحرير هؤلاء أو كبتهم.. إنها وحدة صنع الإنسان. وهـذا هـو أحـد الأسباب التى من أجلها تكون الصراعات فيما بين الأمم أو فيما بين الكتل الدوليـة هى أيضا صراعات حول أنماط الكائنات الإنسانية التى سوف تسود فى النهاية فى الشرق الأوسط والهند والصين والولايات المتحدة، وهذا أيضا هـو السـبب فـى الارتباط الحميم الحالى بين الثقافة والسياسة، وهو أيضا سبب الحاجة إلى الخيـال الاجتماعى والطلب عليه".[٣٣]

إن استخدام مبدأ الخصوصية التاريخية يقود مباشرة إلى مفهوم "الحضارة" كما هو محدد فيما يلى:

د) هل من الممكن أن نفكر إذن فى جدلية الخاص والعام؟ إنه لن يتأتى وجود "عام" أو "عالمى" فى إطار المركزية الأوروبية، ونحن نحتاج فيما يتعلق بتوضيحنا لما ينبغى تفسيره إلى أشمل نطاق دراسى، وهذا النطاق الدراسى الأشمل لن تزودنا به إلا معرفة التقسيمات التاريخية للمجتمع الإنسانى"، وعلى هذا النحو يصبح الاقتصادى أو عالم السياسية أو عالم الاجتماع أكثر وعيا بالتاريخ بوصفه جزءا عضويا مما يريد فهمه، وليس فقط بوصفه "خلفية عامة" وذلك عندما يختار النطاق الأشمل للدراسة وعندما يقارن، وهذا هو السبب فى أن أفضل الدراسات الاجتماعية التى نمت هذه الأيام هى الدراسات التى أجريت فى مناطق وأقاليم "عالمية"، وينبثق عن هذه الرؤى" المبدأ الأولى للمنهج"، فالدراسة المقارنة والدراسة التاريخية متشابكتان معا بعمق، والعقل لايستطيع أن يصوغ مشكلات هذا البناء الاجتماعى المفرد (القومى) دون أن يفهمها فى إطار تناقض هذا المجتمع ومقارنته بالمجتمعات الأخرى".(٣٤)

هنا تكمن أهمية التاريخ طويل المدى وهو تاريخ غير بنيوى، ولكن بنائى (بروديل) "فالرؤية طويلة المدى هى دائما رؤية ضرورية، حتى لو كانت فحسب من أجل قهر الإقليمية التاريخية وقهر الافتراض القائل بأن الحاضر هو نوع من الخلق الذاتى"، وذلك لأن التغير التاريخى هو تغير فى الأبنية الاجتماعية، وفى العلاقات المتغيرة بين أجزائها التكوينية"، ثم يضيف بروديل" إنه لمجرد أن هناك تنوعا فى الأبنية الاجتماعية فإنه لذلك يوجد تنوع فى مبادئ التغير التاريخى"، ولكن ألا يدعو ذلك إلى التساؤل حول عمومين (عالمية) المعايير العلمية ذاتها؟.

هـ) يستحق هذا السؤال دراسة أكثر عمقا، فإذا أخذنا العبارة بحرفيتها فإننا نستطيع العثور هناك على أصداء نمط ماركس فايبر المثالى، لأن كما يبين أسابريجز يشجع القالب القومى لتواصل التاريخ استخدام الـ stereotypes، بما فيها تلك التى تتعامل مع طابع الشخصية القومى.(٣٥)

٣ - ٤: عناصر التفسير:

يجب على المرء أن يميز بين مجموعتين من عناصر التفسير داخل هذا الميدان:

١) العناصر التقليدية، وخصوصا ثنائية "البنية التحتية – البنية الفوقية" التى لا تزال غالبية البحوث المعاصرة توظفها، فهذان العنصران يصبحان بوضـــوح أكثـــر أهمية فى فترات الثورة والتغيرات العميقة، وكذلك فى سياق الفترات (الأبنيـــة) التى تكون من نوع منتظم أو "عادى".

٢) يوجد فى إطار الديالكتيك الاجتماعى العام والديالكتيك التاريخى (الذى أعتبـــره الجوهرى المركزى للمادية التاريخية) مكان الاهتمام أوسع مدى يمكن إعطـــاؤه إلى كل العناصر الفوق بنيوية وإلى الجدليات الجديدة موضوعة فى قلب الثنائية التقليدية، وهو اهتمام يقود إلى المحصلة التركيبية التى تسمى "مبدأ الخصوصية التاريخية"، والإطار الحضارى الذى ظهرت فيه الماركســية وتطـــورت فـــى الفترة من (١٩٣٠) إلى (١٩٤٩) هو الذى يفرض عملية إعادة النظر هذه.

إن العناصر الفوق بنيوية التى يظهر أنها "الفاصـــلة" over detemiming أو "الحاسمة" (طبقا لألتوسير) هى الأيديولوجيات القومية سواء كانـــت "صـــريحة أو ضمنية"(م. رودنسون، ف. لانتيرنارى) وعلم النفس الاجتماعى خصوصا فى إطار الأمم أو التكوينات القومية القديمة (مصر والصين وإيران والمكســيك.. الـــخ)[٣٦] وهى عناصر فاصلة لأنها تكون غالبا أقـــوى مـــن العناصـــر التحـــت – بنيويـــة الاقتصادية أو الاجتماعية. (ومع ذلك فإننا يجب أن نعترف – وهـــذا هـــو الجـــزء الثانى من إجابتنا – بأن الطبيعة الفاعلة لتلك العناصر وقوتها إنما هما نتيجة لعمق الحقل التاريخى للاستمرارية القومية ذاتها)، من هنا وكما أوضـــحت يـــأتى هـــذا التكامل المدهش الذى هيمن على تاريخ مصر عبر ٧ آلاف سنة بـــين الاقتصـــاد (السيادة أو السيطرة على الماء والأرض)، والسياسة (الســـلطة الأوتوقراطيـــة ذات الدرجة العليا من التمركز بقيادة الجيش) والأيديولوجية (سواء كانـــت سياســـية أم دينية)، ومبدأ الخصوصية التاريخية هذا هو مصرى بمصطلحات سياقه الخـــاص، ولكنه أيضا عالمى (وبذلك يمكن فهمه باللغة الماركسية) أى بلغـــة الجدليـــة التـــى تفسره.. إنه بعبارة أخرى سوســـيوجغرافية مصـــر، أى أنـــه التوليفـــة الذائعـــة للمجتمعات المائية (ويتوفوجيل) التى تقع – كما هو حادث – فى مفترق الطرق بين

الشرق والغرب والمحاطة بالصحراوات وأسراب المهاجمين وشبكات التجارة والحضارة التى تتنازع وتتنافس فيما بينها.

لقد أصبح ممكنا الآن "دراسة التاريخ بغية التخلص منه".. أى بهدف تعديل عمل العناصر الخاصة وتعديل جدلياتها بصورة رشيدة وصبورة ومقصودة، على الرغم من أن ذلك يتم دائما داخل الإطار العام لهذه الخصوصية التاريخية نفسها، ففى حالة مصر مثلا يجب أن نضع العناصر الأيديولوچية والسياسية – بشكل انتقائى – وهى فى حالة ترابط جدلى فى إطار جماعية منسقة، وسيكون الهدف هو الجمع بين عامل التحول الأكثر راديكالية، وإن كان مهملا وهو العمل الجماهيرى (بالمعنى الحرفى) للشعب فى الدولة وفى المدينة وبين النطاق الشامل (الجماعى) الموجود أو الكامن من العناصر من العناصر الأيديولوچية والسياسية، وبهذا وحده سوف يمكن تحطيم لعنة المركزية (أو التمركز) بوطأة إستاتيكيتها وبيروقراطيتها الرجعية. وعلى أية حال فإن هذا العمل ذاته مستحيل إذا افتقدنا رؤية الإطار العام وإذا أنكرنا دور الدولة و"التوليفة" الاجتماعية فى مصر.

إن جعل الخصوصية التاريخية جدلية ليس هو أن يعطيها المرء ظهره، بل إنه على النقيض من ذلك هنا، كما كانت فى كل مكان آخر "فإن الحرية هى الاعتراف بالضرورة".. إنها ضرورة قاسية ومذهب صعب، ولكن هذا هو المستقبل.

ولكن هل هى صدفة أن الإنتيليچنسيا فى القارات الثلاث قد وجدت سندها النظرى الرئيسى فى الماركسية التى أنكرت المركزية الأوروبية فى العمق وفى المبدأ؟

وهل تخلب الكتابات الاجتماعية والأنشطة السياسية التى تلهمها الماركسية أنظار المراقب بحذقها وأصالتها بالصدفة؟[٣٧]

إن الماركسية التى نتحدث عنها هى مفهوم اجتماعى عام ومنهج اجتماعى عام.. المادية التاريخية، ولكن تطبيق هذا المنهج على المجتمعات الصناعية المتقدمة سوف لا ينتج أى إسهام دائم يفيد المجتمعات غير الغربية فى لحظة

انبعاثها، ومع ذلك فإن الرؤية والمنهج الصادقين فى علميتهما إذا ما طبقا على العناصر الأخرى على أساس الخصوصية التاريخية يجعل الماركسية فى أيامنا الحالية هى أكثر أدوات البحث التحليلي في الحضارات تبصرا وإدراكا كما يجعلها الوسيط الممتاز بين هذه الحضارات، لأنه من المفهوم أن "الإنسان يجب أن يثبت الحقيقة التى هى الواقع والقوة (السلطة).. أى الـ His – Sidnes فى تفكيره فى طور الممارسة.(٣٨)

ولا شك أنه بالنسبة لماركس سنة ١٨٤٥ الذى نحيى أثره الإنسانى العظيم اليوم من أقصى كوكبنا الأرضى إلى أقصاه فإن الـ His – Sidnes الذى نتحدث عنه لم يكن فى القارات الثلاث ولكن فى كل مكان، ومع ذلك ففى هذه اللحظة وبعد ١٥٠ سنة فإن الأفكار والروح التى ألهمت الماركسية هى العناصر الجوهرية التى تجعل الثورة هى الأداة الممتازة لإعادة بعث الحضارات، وهذا أكثر من أى شئ آخر هو ما يشهد للحقيقة الفاعلة والنظرية للعمل الذى يجرى الآن فقط فى سياقه التاريخى العام أو العالمى.

الهوامش:

(١) وهو ما يفسر ازدهار عدد كبير من الكتابات غير المعروفة أو المفهومة، حـــول الاشـــتراكية الإنسانية وخاصة الهيومانية الماركسية، فى عده بلدان (المكسيك، الأرجنتين، الهند، إندونيسيا) وقد أدرج واحد منهم فقط هو ليوبولد سنجور، فى بين ٣٥ كاتبا تم رصدهم فى الكتاب الهـــام Eric Fromm Socialist Humenism (London67) وحول الصلات بين الحـــرب والحضـــارة، انظر المقارنة الهامة التى طرحها B.H. Liddell-HART بين صن تزو (فى القرن الرابع قبل الميلاد) وكلوز يوتز، والتى كانت فى صالح الأول.

Strotegy, the indireer opproech (London 1963),

Sun tsu the art of war, trans. S.B Griggith (London, 1963):

الأمر البالغ الأهمية فى الحرب هو مهاجمة إستراتيجية العدو. ومن ثم كان المتمكنين فى فن الحرب، بوسعهم إخضاع جيش العدو دون معركة . واخذ مدنه دون حصار وقلب دولته دون عمليات مطولة.

(٢) انظر "الأبواب" إثنولوجى (G. Beettie) وأنثروبولوجيا اجتماعية

فـــى (J. L. Fisher) Gould and kolb (eds), A Dictionary of the secial seiences (londn 1956) p 245-7 / 644-646

وانظر أيضا Paul Mercier, Historie de l'anthropolosie (Paris 1963)

(٣) حول هذه الكتابات انظر

Les origines de l'exogamie et du totemisme (Paris 1963)

والتى تشكل تجديدا فى الإثنولوجيا الماركسية المعاصرة .

(٤) Social Fvolution (London, 1951) p161

(٥) أحتفظ بها فى الطبعة الأخيرة (١٩٦٣) الجزء ٥ صـــ ٨٢٤-٨٣١

(٦) انظر Kulturgeschichte als kultursoziologie munich, 1950

(٧) هذا البعد الذى لا يتوقع ظهوره بالنسبة للنظرة الأوروبية يتضح بجلاء فى الأعمال الحديثـــة حول تاريخ الحركات الوطنية وثقافة البلدان الأفروآسيوية الرئيسية

(٨) قد له J. W. Powell مدير مكتب الإثنولوجيا الأمريكية فى

Introduction to the study of indian lengueges (Washinpton 1880) p.80

(٩) فى مقدمته لـ

F. Drtiz, con trapun to cubano del tabecoy del a zucar (Havana 1940).

(١٠) حول الماركسية والقضية النظرية للأمة، انظر آراء كل من

S. F. Bloom, the world of Netions (New York, 1960)

Horace B. Daris Netiolism and socielism (New York, 1967).

وقد تناولت إحدى دورات مركز الدراسات والأبحاث الماركسية فى باريس ١٩٦٥ مدرك الحضارة وكانت نقطة البداية هى أن فكرة الحضارة لم تتبلور فى الأعمال الكلاسيكية للفكر الماركسى .. وقد حل محلها مفهوم الأمة (Jean Bovier Fraissinet) ولم يتم الربط بين هذا النقص وبين الإطار الحضارى الذى ظهرت فيه الماركسية .

(١١) خاصة فى

A. Glamsci, letteratura evita nozionole (turin, 1954)

وفى الإصدار الهام من

Critice Merxista, puaderho N 3.

(Rome, 1967) (Prassi riroluzionaria e storicismonin qramsci)

(١٢) كما أشار إلى أمثلتها كل من Paul H. Lazarsfeld

William H. Sewell, Harold l. Wilensky (eds), the Uses of socioloy (New York, 1967)

(١٣) بالإضافة إلى (النظرية الكبرى) لتالكوت بارسونز

(١٤) R. Aron, les etopes de la pensee sociologique (Paris, 1967) pp. 497 - 583, E. Fleischmann (De Weber a Nietzcche) Archives europ eennes de sociologie. Vol 5 n.o. 2 (1964) pp. 190-238

(١٥) بالنسبة لحالة البرازيل ، نشير بشكل الخاص الإصدار المتميز من

les temps modernes, vol XXIII no 257 (octobre 1967) pp. 577-760, ed. Celso Furtado

(١٦) G. Gurvitch, traite de sociologie (Paris, PUF, 1960) svols. T. Bottomore, sociology a suide to to prohlems and litereture (London, 1964); L.S.A annual report 1966 (geneve, 1967) Gould and Kelb, A discrionnery of the social sciences (London, 1966)

(١٧) Armand Curillicr, Manuel de sociolosie, l. ed.

(Pearis, (1960) pp 666-86

(١٨) تؤكد دارسه هامة فى Traire vol II, pp 3/5 –30

وهى تربط بين كافة مكونات عمل Bastide كشكل ، انظرانها

contributiens a la sociologie de le connaissance (Paris 1963)

المنشور تحت إشرافه

(١٩) الهند هى الدولة الوحيدة فى العالم المستعمر التى أشار إليها ماركس ثم ڤيبر فـى إشـارات متفرقة . وقد صدر كتاب واحد فى الولايات المتحدة لتحديد إشكالياتها السوسيولوجية .

H. T. Huzumdar, the grammar of sociology, man in sociery (London, 1966).

(٢٠) Note sur la notion de cirilisation, L'Annee sociologipue, vol. 12 (909 – 12) pp 46-50

(٢١) A study of history, 12 vols (condon, 1934-1956)

وفى مؤلفه الحديث

Chenge and habit, the challenge of our time (London, 1966)

يسرد المؤلف ما يتراوح بين ١٥ و ٣٠ حضارة ، وفقا للمحددات المستخدمة (ص ٦٩)

(٢٢) يوضح الكاتب الأسس النظرية لبحثه فى

(The Past in china's present(, The Centeniel rereiw, vol 5 no s (1960) pp. 145-78

انظر أيضا

Ragharan lyer (ed.), the Gless Curtain between Asia and Europe (London, 1965)

كذلك المقال الرائد

Chang Jung – sun "A chinese philosophers theory of Knowledge", yen ching journal of social studies, vol I no. 2 (1939)

إن ميل اليمين نحو الاندماج ، قد تم التعبير عنه صراحة، على يد الجنرال Golberti de couto o silve أحد المنظرين الرئيسية لمعهد البرازيل العسكرى، الذى يستند إلى مقولة ت. إس. إليوت (أذا تحولت آسيا غدا إلى المسيحية، فإن ذلك لا يعنى أنها سوف تصبح قطعة من أوروبا) ويعتمد أيضا على إيديولوچية كويمبرا (الغرب كمثال وكهدف وكبرنامج، هذا التيار من الأفكار الذى يدفعه التاريخ ، منبع الطاقة الخلاقه ، العلم كأداة للحركة والديمقراطية كضحية للتنظيم السياسى والمسيحية كأسمى النماذج الأخلاقية للحياة الاجتماعية) .

بعد ظهور الإسلام، ثم عرب الأندلس، ثم الأتراك ثم ستالينى فى روسيا، وها هى الصين فى ظل ماو، تعتمد من جانب أول على درجة مفاجئة من التكنولوچيا والتقدم العلمى ، ومن جانب ثان على ثقل ديوموجرافى مهم ، وترتبط بينهما فى ظل نظام شمولى وقد جعل منها ماو سلاحا فى مواجهه الغرب، الذى اهتزت فيه المعتقدات الأساسية للماركسية .

Geopolirica do brasil ed. Jose olympio (Rio de janeiro, 1967) pp. 226-34

ويصعب أن نجد مثالا أكثر تعبيرا عن الفكر الأوروبى فى عمقه ، من يمينه إلى يساره .

(٢٣) انظر بشكل خاص مقالات C. CAHEN فى

Wiltfred cantweel simth, Islam in the modern world.

التى تضم بعض الجوانب الماركسية (Hontreal, 1960)

وانظر أيضا

Rodinson, islam er capitalisme (Paris, 1967).

(٢٤) وخاصة كتابات

Niazi berkes, the development of secularism in turkey (Hontreal, 1963): Jecpues Berpue paul charnay er al (Paris, 1867);

محى الدين صابر (التغير الحضرى وتنمية المجتمع) سرس الليان (١٩٦٢)

Abdallah laraoui, l'idelolgie arabe ontemporaine (Paris, 1967)

وقد أدت حرب يونيو ١٩٦٧ إلى صدور عده أعمال نقدية جديدة

(٢٥) T.B. Bottomore, Sociology pp. 125-16

بالإضافة إلى أعمال أخرى وخاصة

H. Hauss le mot et.

Semaine du centre de la synthe'se (Paris, 1930) pp. 31-106.

A.L. Kroeber and C. Kluckholn (culture: a critical review of concepts and definitins (popers of the peabody museum of American archeology and ethnology, rol 47 (952, 1952)

(٢٦) يقترح W.W Rostow فى بيانه (غير الشيوعى)

The sreges of growth, (1960)

خمس مراحل ليست إلا النقيض الموضوعى للمراحل الماركسية، وهى خلافا للمراحل الماركسية تعتمد على عملية انتقالية واحدة .

(E. Gellner, Though and change (London, 1964) pp. 179-130)

(٢٧) M. Rodinson, Mahomet, and ed. (Paris, 1968).

(٢٨) A. Lelande. Vocabulaire technique et critique de la philosophie, 8th ean. (Paris 1960) pp. 768-30.

(٢٩) إن الاقتراب من دراسة الأحوال البشرية فى بعدها الزمنى، هو بالضرورة اقتراب توليدى، ويكون نمط التعبير السائد فيه سردى بالضرورة . إن عملية تحليل ومقارنه عدد من المســارات

الحياتية المتوازية، يجب أن تعنى بالحافظ على عامل الحركة . إذا افترضنا ذهنيا، أن ثمة سكون، فسوف يؤدى ذلك إلى تشويه موضوع البحث ووجهه نظر الباحث . إذا ينبغى أن تتم الدراسة فى إطار الحركة)

كلمات عميقة المعنى ترتبط بصميم الماركسية

(change and habit, pp 88-89)

(٣٠) فى كتابه الحديث .Anthropologie politigue (Paris, 1968)

إن كافة المجتمعات البشرية تنتج السياسة وتتعرض لتأثيرات مجرى التاريخ، (صـــ ٢٣٠)

(٣١) C.W.Mills, the socilolgical lmoginetion (harmonds worth, 1931) pp. 166-171.

(٣٢) المصدر السابق صـــ ١٧٢ . وانظر حول المثال الأفريقى .

G. Balandier, so ciologie actuelle de l'afrige noire (Paris 1977)

M. J. Hers kovits, The humen fector in chenging Africe (London, 1962)

(٣٣) C. W. Mills, The sociological Imagination P. 175

(٣٤) المصدر السابق صـــ ١٦٣ – ١٦٧ – ١٦٨

(٣٥) "History and society" in C. Meckenzie (ed.) A Guide to the social sciences (London, 1966) p49

(٣٦) انظر مؤلفنا

"Nahonal formerions .." Social dialectics, vol II (London, 1981)

(٣٧) M. Rodinson "L'egypte nosserienne au miroir marxiste", les temps modernes no 203 (April 1963) pp. 1859-87

وتظهر الملاحظة نفسها على المستوى النظرى فى كتابات

beorges lukacs, C.W. hills, Maurice de Gandillac ...

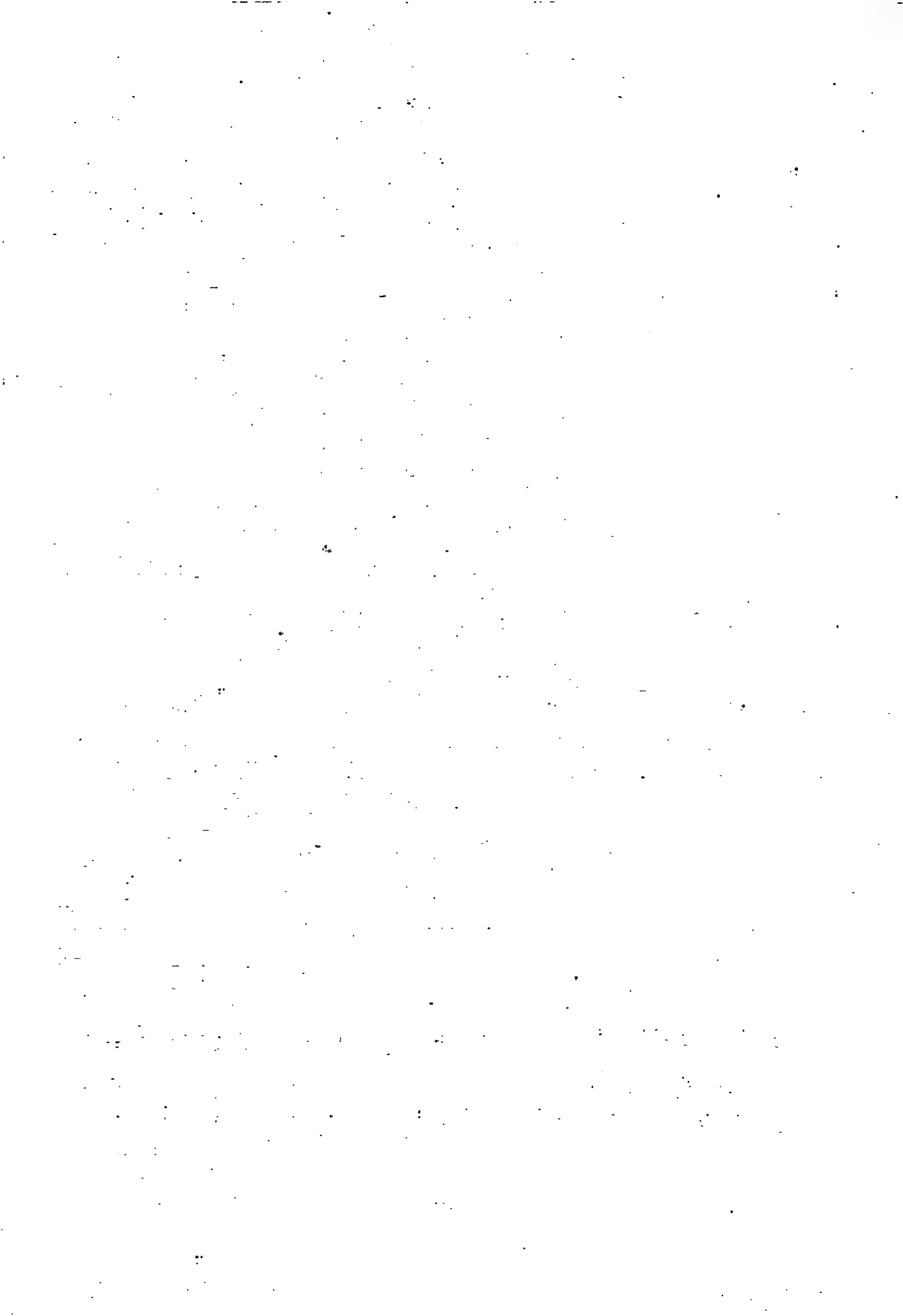
(٣٨) Theses on feuer bach in herx Engels the German Ideology (London, 1965) p 652.

يشير هذا (الانحياز) إلى جذور الفكر وارتباطه بمحددات الزمان والمكان . ويشار في هذا العـــدد إلى المقال المهم:

J.J. Goblot pour une appreche theoripue des fairs de cirilisations. La pensee, no. 133 (June 1967) p 3-24; no 134 – p 3-34; no 136 No 136 (Dec. 1967) pp. 65-88.

الجزء السادس

التوجه الحضارى
فى صياغة العالم البديل



(١٦)

چوزيف نيدهام - عالم الحضارات الموسوعى

لقد حان أخيرا الوقت الذى ينبغى فيه على الغرب أن يدرك أن الشرق الذى تحدث عنه المستشرقون لم يكن له وجود، كما حان الوقت الذى ينبغى على الغرب فيه أن يتغلب عن تحفظه وتحامله على الشرق ويتغلب أيضا على الجهل الذى أورثه عدم الاعتراف بالشرق، إن على الغرب اليوم أن يستمع إلى الأصوات وأن يعترف بالأساليب الجديدة الناشئة فى ذلك القوس الأعظم من الحضارات والثقافات أى الشرق المنبعث بدءا من المغرب وحتى الصين، والواقع أنه كانت هناك مقاومة ورفض طويلين لاتخاذ هذه الخطوة، ولكن تطور الأفكار فتح الطريق هذه المرة، مستبقا أى تمهيدات سياسية، وقد بدأ هذا التطور يفعل فعله بظهور كتابات آرنولد توينبى وچاك بيرك وفوقهما چوزيف نيدهام العالم الموسوعى البارز بجدليات الحضارات فى أيامنا.

إن سيرة الرجل وأعماله سيرة غريبة وعجيبة، كما أن الاعتراف الكامل بالإسهام العلمى والثقافى الذى قدمه بحثه العظيم المعنون "العلم والحضارة فى الصين" وما صاحبه من مجلدات تحتوى على العديد من المقالات قد اتخذ مسارا غريبا بنفس الدرجة، لقد ولد نيدهام فى بداية هذا القرن، وكان والده طبيبا، وكانت أمه موسيقية، ودرس نيدهام الطب فى كلية كايوس بكمبردج، لكنه أصبح مهتما بشغف بالنزعة التاريخية من خلال دراسته لتاريخ العلوم والفلسفة والدراسات المقارنة للأديان والتصوف، وكانت الكتب التى ساعدته هى أعمال لأنسلوت أندروز، وچيريمى تايلور، وأنجليوس سيليسيوس وهربرت أوف كمبردج وبجويل دى مولينوس والـ Fiaretti للقديس فرانسيس أوف آسيس، كما أنه تأثر بعمق بشرح إدوارد براون للطب العربى الفارسى وبتناول س. بروكيت للعقيدة المانوية فى رمال صحراء جوبى، "لقد كان هؤلاء الباحثين" طبقا لما قاله صديق عمره هنرى لورنشاو "الذين ألهموه معنى الإثارة والرومانسية فى الدراسة الإنسانية خصوصا عندما تمتزج بتاريخ العلوم الطبيعية.

لقد كانت تلك هى مصادر موهبته الموسوعية، وهى موهبة لم تكن مقصورة على الإحصاء ولا على تقديم ابتكارات أو تحليل صورى، ولكنها موهبة ملتزمة بمنهج عالمى توفيقى، أى برؤية يتشابك فيها العقل والعاطفة معا تشابك النسيج المحكم، وبعد أن أتم نيدهام دراساته الطبية عام ١٩٢١ بدأ يباشر البحث فى الكيمياء الحيوية فى جامعة كمبردج، وبعد أن حصل على الدكتوراه عام ١٩٢٤ أصبح زميلا فى الكلية التى تخرج فيها (وانتخب عميدا لها عام ١٩٦٦) وقد تزوج نيدهام من دوروثى ماى مويل وهى بدورها متخصصة موهوبة فى الكيمياء الحيوية ولكنها درست على حسابها الخاص، وفيما بعد انتخبت هى وزوجها لدرجة الزمالة فى الأكاديمية الملكية، وكانت تلك الفترة هى فترة بداية التحرر الفكرى الواسع، وهى الفترة التى ظهرت فيها أعمال ر. ج. كولينجوود وثايهانيمر وفوقهما رودولف أوتو الذى قرب كتابه "فكرة المقدس" نيدهام إلى فهم القيمة الجمالية الإيجازية للرمزية فى الطقوس الدينية، أما كتابات ويليام بلاك ود. هـ. لورانس، وإدوارد كاربنتر وهافيلوك إيليس فكانت تشير إلى الطريق إلى التحرر الجنسى، وقد جمع عدد من مقالات نيدهام جنبا إلى جنب فى بعض الأحيان مع مقالات زملائه المرموقين مثل دين إنج، ومالينوسكى وإيدينجتون فى عدة مجلدات، هى "العلم"، "الدين والواقع"، البيولوچى المتشكك"، "البرمائى العظيم" وفوق كل ذلك، "الزمان... ذلك النهر المتجدد العذوبة" بمقدمته المحتوية على ترجمات الكتاب، وبتشجيع نت ف. ج. هوبكينز والد عالم الكيمياء الحيوية البريطانى المعروف بهذا الاسم انضم نيدهام إلى معمل جامعة كمبردج للكيمياء الحيوية، وخلال السنوات من ١٩٢٩ إلى ١٩٤٢ قدم الدليل الدامغ على كفاءته فى الميدان العلمى، وكان هذا الدليل هو: ثلاثة أسفار أولها بعنوان "علم الأرض الكيماوى" وثانيها بعنوان "الكيمياء الحيوية والتكون الشكلى" أما الثالث بعنوان "تاريخ علم الأجنة" ثم محاضراته فى جامعة ييل تحت عنوان "النظام والحياة" وهى المحاضرات التى طرح فيها مفهوما رائدا عن دور "الأبنية الجزئية" داخل الخلية الحية قبل عصر الميكرسكوب الإلكترونى، وعمل نيدهام أستاذا زائرا فى جامعات ييل وستانفورد وكورنيل ولندن وأكسفورد ووارسو وكراكا وليون وكيوتو، كما قام بعدد من

الرحلات الدراسية وجولات لإلقاء محاضرات، وتوجت كل هذه الأعمال بإهدائه عددا من الأوسمة بينها ميدالية چورچ سارتون الذهبية التى حصل عليها من مؤتمر باريس الدولى للتاريخ العلمى فى سنة ١٩٦٨.

ولسوف تتجمع الخيوط كلها فى كنيسة ثاكستيد بمقاطعة إيكس، حيث امتزجت الاشتراكية ذات الإسهام المسيحى بالتقاليد الموسيقية العظيمة وبالبحث عن جمال الطقوس الدينية تحت رعاية كاهن هذه الكنيسة كونراد نويل.

لقد كان لهذا المذهب.. مذهب [مملكة الله] أهمية خاصة.. هكذا كتب هولورينشاو، وفى ذلك الوقت كون نيدهام قناعته التى لم يتخل عنها قط فيما بعد وهذه القناعة هى أنه ينبغى النظر إلى مملكة الله بوصفها ساحة العدالة والرفقة على الأرض.. إنها مملكة يجب أن تتحقق بجهود بنى الإنسان عبر القرون، وليست كيانا غامضا موجودا بالفعل أو دولة روحانية يتوقع وجودها فى وقت ما فى المستقبل، ولقد أصبح هذا "التصور" مرتبطا بالتدريج فى عقل نيدهام باعتقاده فى الوحدة الجوهرية للتطور الكونى والعضوى والاجتماعى، هذا التطور الذى تجد فكرة التقدم الإنسانى - بكل التحفظات الواردة حولها - مكانها فيه، ويوازى ذلك فى فكر نيدهام اقتناعه بأن المسيحية ينبغى أن تأخذ الماركسية مأخذا بالغ الجد، فمبادئ مثل المادية التاريخية وصراع الطبقات يمكن أن تكون تعرفا إلى الطرق التى "يعمل بها الله" أثناء تطور المجتمع.

وهكذا أعطى نيدهام كتابه (التاريخ من جانبنا) الصادر سنة ١٩٤٥ عنوانا فرعيا هو "مقالات فى الدين السياسى والإيمان العلمى" وكان هذا الكتاب هو ثمرة لقائه بعد الحرب مع تيلهارد دى شادين، وذلك فى الفترة التى كان فيها نيدهام يمر فيها بالمرحلة الثانية، أى المرحلة الصينية من عمله، وكان يمثل إلى حد ما تنويعا بالتطور نحو "المثل" الذى عمل نيدهام من أجله مع شارلز رافين وچون لويس فى ١٩٣٥ وهو "المسيحية والتطور الاجتماعى" وفى ١٩٢٥ وفى محطة مارين للأبحاث البيولوجية قادة لويس رابكين إلى أعمال سبينوزا أو إلى النظرية الماركسية، وهكذا فى عشية الحرب العالمية الثانية كانت حياة چوزيف نيدهام كلها تتجه إلى تنمية رؤية موسوعية.

ثم جاءت الصين، لقد جاء دارسون صينيون كثيرون إلى كمبردج قبل عام ١٩٣٨، كان منهم وانج وينج - لى الذى أصبح مدير معهد شنغهاى الوطنى للكيمياء والبيولوجيا وشين شيه - تشانج، ثم، وبصفة خاصة لوچى دجى، الذى أخذ بيد نيدهام إلى لغة وحضارة الصين وأصبح صديقا حميما لنيدهام وزوجته "المعلق.. الفكرة - الحضارة - البرْهان - تأكيد العلاقة التى لا يمكن لأى انفصال أن يقوضها". وفى سنة (١٩٣٨) وضع نيدهام خطة لكتابة رسالة منهجية وموضوعية عن تاريخ العلم والتفكير العلمى والتكنولوچيا فى المحيط الثقافى الصينى، ولكن الحرب فرقت بين الرفاق، ومع ذلك فإنها قدمت لنيدهام "حجر الارتكاز للوثوب إلى أعلى" الذى مكن لهذا المشروع التاريخى أن يظهر إلى الوجود، وقد غادر چوزيف نيدهام بريطانيا إلى الصين عام (١٩٤٢) ليعمل فى البداية مديرا للبعثة العلمية البريطانية، ثم مستشارا علميا للسفارة البريطانية فى شونج كينج فيما بعد، وقد تولى نيدهام إدارة مكتب التعاون العلمى البريطانى الصينى وكان الهدف المقرر لهذا المكتب هو إقامة روابط بين العلماء الصينيين والغربيين، ثم أصبح فيما بعد مستشارا للإدارة الطبية فى الجيش الصينى ومستشارا للجنة القومية الصينية للموارد الطبيعية، وقد ساح نيدهام فى كل أنحاء الصين دون كلل إما على ظهر الجمال والجياد وإما راكبا "الطوف" النهرى البدائى، وبذلك اكتسب معرفة دقيقة بأعماق الريف الصينى وبالناس العاديين والعلماء والتاريخ المتداول بالرواية الشفهية وكذلك بالأقاليم والبيئة، وهى معرفة ليس لها نظير حتى يومنا هذا، وأعاد نيدهام تدوين يومياته وملاحظاته التى تشمل تلك الفترة فى كتابيه "العلم الصينى" (١٩٤٥) "والقاعدة العلمية الأمامية" Science ontpest (١٩٤٧)، واختير الرجل عضوا فى الأكاديمية القومية الصينية - وهى الآن الأكاديمية الصينية - ثم منح وسام النجم اللامع، وقام نيدهام سنة ١٩٥٨ بمهمة مماثلة لحكومة سيلان (سريلانكا حاليا)، وكان نيدهام قد بدأ فى سنة ١٩٤٤ يدعو إلى إقامة وكالة دولية للتعاون العلمى، ونتيجة للحملة التى تزعمها أضافت اليونسكو العلوم إلى ميادين اهتمامنا التى كانت التعليم والثقافة، وأصبحت اليونسكو بدلا من اليونكو، وقد أدار نيدهام قسمها المتخصص فى العلوم الطبيعية فيما بين عامى (١٩٤٦)، (١٩٤٨).

وفي الوقت نفسه بدأ مشروعه الذى كان قد وضعه عام (١٩٣٨) يأخذ شكله ويكشف من ثم عن أبعاد لم تكن متوقعة، فقد أوضح المجلد الأول من "العلم والحضارة فى الصين" الذى نشر عام (١٩٤٩) أن المشروع لا يمكن أن يوضع داخل حدود معينة، وتكلفت مجموعة ضخمة من الدارسين والباحثين يزيد عددهم على ١٢ دارسا وباحثا بإشراف لوچى - ديجن، ووانج لونج، وهونج يو، ولوچانج بانج وك. روبنسون، ود. دى سولابرايس وج. هـ. كمبردج ون. سيفين بنشر أربعة أجزاء فى ستة مجلدات هى كل ما نشر حتى الآن، ويتألف كل مجلد من عدد من الصفحات يتراوح بين ٢٠٠٠، ٣٠٠٠ صفحة، وقد اتخذ العمل شكل وبنية الموسوعة، وسيبلغ العمل كاملا سبعة أجزاء تسع أحد عشر مجلدا بالإضافة إلى فهرس تجميعى، واضطلع نيدهام نفسه بمسئولية عرض المادة العلمية وتركيبها وصياغة الأفكار والإشكالية فى كل مجلد وفى كل مادة من المواد التى يحتوى عليها المجلد الواحد، كما قام بنشر سلسلة من المواد التى يحتوى عليها المجلد الواحد، كما قام بنشر سلسلة من المجلدات بالتزامن مع مجلدات الموسوعة، وترقى سلسلة المجلدات الجديدة هذه إلى مستوى الفكر وتحتوى على دراسات أكثر استفاضة للميادين المشار إليها فى العمل الموسوعى نفسه، ومن بين هذه الميادين "Healy clo cknak"، وتطور تكنولوچيا الحديد والصلب فى الصين، وتغطى المجلدات الثلاثة الصادرة عام ١٩٧٠ بوجه خاص ميادين الكتبة والحرفيين فى الصين والغرب، والـ Grand titatian "والعلم والمجتمع فى الشرق والغرب"، أما آخر الأعمال المنشورة فكان "التقاليد العلمية الصينية" وصدر بالفرنسية.

ويظهر الإسهام العلمى المميز لهذا العمل الموسوعى فى ميدانين كبيرين من ميادين الإنجاز، فهو قد جعل خصمه الأساسى المستوى الثقافى والحضارى للبعث الصينى للنهضة الصينية، تحت قيادة ماوتسى تونج والحزب الشيوعى ممكنا، كما أنه أقنع مؤرخى العلوم وكذلك مؤرخى الثقافات والحضارات - وإن كان إقناع هؤلاء تم مؤخرا مع تحفظات أكثر - بأنه لم يعد من الممكن تناول تاريخ العالم فى أى ميدان من ميادين بالشروط والمصطلحات التى طبقت من قبل، أى على أساس

المسلمات الحصرية المتمركزة حول الغرب، المصطبغة بالعنصرية الثقافية، وبطبيعة الحال فإنه صحيح أن الأعمال التقليدية استمرت فى افتراض "العالمية" أو التسليم بها على أساس تقاليد الغرب، وباعتبار أن هذه العالمية هى وظيفة للغرب الذى كانت هيمنته فيما بين القرن السادس عشر وتوقيع اتفاقية يالتا. ونحن بلا شك لا نزال بعيدين عن الوقت الذى سوف تندمج فيه المعرفة العلمية النموذجية المجمعة فى عمل نيدهام الموسوعى بالكامل فى الجسد العام للمعرفة الإنسانية، ولكن ألم يصدق الشئ نفسه على موسوعة ديدرو ودالبير ورفاقهما وهى الموسوعة التى صاحبت الثورة الفرنسية وانتصار البرجوازيات الأوروبية؟

على أية حال إن الأمر يستحق تكوين مخزون من خبرات ودروس عمل نيدهام الذى قد يكون قد اكتمل، أو أنه ما يزال يتوالى صدوره وخاصة عن طريق تفحص مجلدات المقالات التى صاحبت الموسوعة نفسها.

وينبغى أن يبدأ المرء بمصدر هذه الموهبة وتلك المهمة الجليلة التى قام بها نيدهام، أى بتوجيه حياة بأكملها لهدف مختار، فإصرار نيدهام على اندماجه الكامل فى تقاليده الخاصة وفى العقيدة الدينية لحضارته – أى المسيحية – جعلته حاسما بصورة خاصة فى محاولته لفهم الكونفوشوسية والبوذية والتاوية والإسلام، وقد لخص هولينشاو تأثير كنيسة ثاكستيد الذى سبق أن أشرنا إليه على نيدهام فى العبارة التالية التى أصابت هدفها: "إن العنصر الأساسى الأول هنا هو إدراك وجوب الفصل بين "الروح المقدس" وبين "نظرية الإله الخالق"، ومن هنا يأتى الاعتراف بتعاليمهم الحكيم (الساج) كونفوشيوس (٥٥٢ – ٤٧٩ قبل الميلاد) معلم المائة ألف من الأجيال بوصفه النموذج المعنوى الأعلى للحضارة الصينية والإمبراطور غير المتوج الذى لا يزال نفوذه حيا فى منازل سنغافورة، مثلما هو حى فى كوميونات شانج دونج، إنه الأساس الصلب للروح الصينية سواء كانت تقليدية أو تكنيكية أو ماركسية. وقد كانت حياة كونفوشيوس حياة تاريخية، مثلها فى ذلك مثل حياة المسيح على الأقل، ومع أنه مبادئ الفضيلة التى دعا إليها الساج لم توضع موضع التطبيق فى الحقبة التى عاش فيها، إلا أنه أكد أن الرجال والنساء

يمكن أن يعيشوا فى سلام، وانسجام حيثما طبقوا هذه المبادئ وفى أى زمان يطبقونها فيه، وقد ارتبطت معتقدات فضيلة كونفوشيوس التى كانت أقل اهتماما بالأجزاء الأخرى من العالم من المسيحية بالأفكار الثورية المتضمنة فى جذور التاوية، وبالأحلام الرؤيوية لكل من دانونج وتابينج.. وهى أحلام ناضل الناس وحاربوا من أجلها، وبدأت تمارس تأثيرا مهما.

وقد اتجه إدراك نيدهام داخل نطاق اللاهوت المسيحى نفسه ناحية الأرثوذوكسية.

ويرجع ذلك بالمرء إذا كان مهتما بالأساليب المسيحية ليس فقط إلى ما وراء مبالغات وإفراط الجانبين أثناء فترة الإصلاح الدينى، ولكن أيضا ما قبل فترة الفلاسفة السكولائيين أنفسهم الذين شعر نيدهام أنهم كانوا يسيرون إلى حد كبير فى الطريق الخاطئ فى محاولة إلباسهم العقيدة الدينية "الروحية" ثوب الفلسفة الأرسطية الضيق، وكانت الأعمال السياسية بالنسبة لنيدهام شيئا مفعم بالرمزية، أى بالدراسات الخاصة بالطقوس الدينية التى تحمل هى نفسها المعانى والصلوات مثلها مثل أى شئ يعد عقليا تماما، ومن الواضح أن ذلك يصدق بنفس الدرجة على العبادة فى كل الديانات الكبرى فى آسيا والصين.

وإذا ما اعترفنا بالآخر - وهو فى هذه الحالة الحضارات والثقافات الأخرى فى الشرق الفسيح - فإن ذلك يجب أن يقود بالضرورة إلى التطبيق، ويتمثل هذا التطبيق فى دفع حركة الزمن فى وقت تعصف فيه ريح الشرق، وليس بالتالى فى عمليات الوعظ باسم المشروعات الأيديولوچية العميقة، وقد أشرنا إلى موقف نيدهام من الثورة الروسية ومن الماركسية (ابتداء من عام ١٩٣٨ فى قلب عملية النهضة العظمى التى تمت بقوة دفع الثورة الصينية، وقد أصبح نيدهام فى سنة ١٩٥٢ بوصفه عضوا فى اللجنة الدولية التى كانت تحقق فى تهم استخدام الأسلحة البكتريولوچية فى غرب الصين وفى كوريا مقتنعا بأن المعتدين الإمبرياليين مذنبون، وبهذا المعنى فقد ظل الرجل مخلصا لروح جماعة علماء كمبردج المناهضين للحرب (والتى تأسست عام ١٩٣٥ بفضل جهود ج. د. برنال وج .ب.

س. هالدان و و. أ. ووستر ونيدهام وآخرين، وكانت هذه الجماعة هى القوة المحركة خلف دراسة "العلم والمجتمع" فى العالم.

أما الدرس الثالث فيتعلق بالمنهج، وهو منهج لا يمكن إلا أن يكون مقارنا بشرط أن لا يكون هناك عالم واحد متميز، إن هذا المنهج المقارن سوف يقلب الترتيب القائم حاليا للمشكلات رأسا على عقب، وتفضى بنا "مسألة التعرف إلى الأسباب التى جعلت العلم الحديث ينمو فى العالم الغربى فحسب إلى تساؤل ثان هو: لماذا أثبتت الحضارة الصينية خلال الفترة بين القرنين الأول والخامس عشر من حقبتنا التاريخية أنها أكثر فاعلية من الحضارة الغربية ما دام الاهتمام ينصب على تطبيق المعرفة بالطبيعة فى تلبية الاحتياجات العلمية للإنسان؟ هل يتعين على المرء أن يتطلع إلى نمط فايبر المثالى عن الصين والهند ومصر وبلاد الرافدين؟ إننى أعتقد أن الإجابة عن هذين السؤالين يمكن العثور عليها فى الأبنية الاجتماعية والفكرية والاقتصادية للحضارات المختلفة، وأعتقد أن الاختلافات التاريخية العظمى بين الثقافات إنما يمكن تفسيرها على أحسن وجه من خلال الدراسات الاجتماعية. وأعتقد أن هذا سوف يحدث يوما ما"، ثم يضيف نيدهام: "إن هذا هو السبب فى أننى لم أشعر قط بانجذابى إلى التيار الماركسى الذى يسعى إلى اكتشاف صيغ جامدة موحدة لمراحل التطور الاجتماعى ينبغى أن تمر بها كل الحضارات".

إن الدراسة المقارنة المتزامنة للظاهرة "المعينة" فى كل الحضارات والثقافات فى العالم هى التى تجعل صياغة التفسيرات النظرية الشاملة فى كل ميدان باطراد أمرا ممكنا، وقد انبثقت نماذج لهذا المنهج "الدولة" عن أعمال نيدهام، خصوصا عن أعماله التى درس فيها "الزمن" وعن مقارنتين بين دور وتكونين الطبقة السياسية فى الشرق ومثيلتها فى الغرب حيث أظهر الشرق قدرته على إعداد "مثقفيه العضويين" بصبر ودأب" وذلك قبل عدة قرون من تطوير جرامشى لنظريته فيما بين عامى (١٩٢٠)، (١٩٣٠).

إننا هنا شهود لرسالة حياة انطوت بروعة بالغة على التجرد لخدمة عمل عظيم جعل من نيدهام أبرز عالم موسوعى فى عصرنا، وأوقفه حيث يقف الآن فى

نقطة التقاء العلاقات بين الثقافات والحضارات، "فأوروبا بفشلها ونجاحها يجب النظر إليها بأعين ذلك الجزء الكبير من البشرية الذى تكونه شعوب آسيا وإفريقيا"، وفى الوقت نفسه يتعين علينا أن ندرس إسهام الشرق، "وربما ترجع القضية كلها إلى الممارسة النشطة للتواضع والحب الأخوى، فنحن فى حاجة إلى اقتناع صادق تؤكد عناصره أن كل صور العنصرية وكل المعتقدات المزهوة بنفسها فى التفوق الثقافى إنما تشكل نفيا للجماعة العالمية".

هذا هو الطريق الذى سار فيه ذلك المعلم الأكبر الذى وصف نفسه بأنه "تاوى أمين" فقد وجد نيدهام لدى كونفوشيوس توضيحا لقول أناكليتيس المأثور:

"تصرف مع كل إنسان كما لو كنت تستقبل ضيفا كبيرا، فإن الذى يحترم كرامة الإنسان ويمارس الحب والمودة واللياقة سوف يجعل من كل إنسان أخا له".

(١٧)

ديجول وجدلية الحضارات

رغم أنه يتعذر على من تناول سيرة شخص غير عادى مثل شارل ديجول، أن يتجنب كيل المديح له والانغماس فى جدال عنيف حول شخصه، فقد آن الأوان لدراسة فكره وأعماله دراسة انتقاديه. إن علينا أن نحاول تقييم حدود تلك الشخصية وإمكانياتها، وليس الاقتصار على النتائج المباشرة المترتبة على مواقفه أو الاكتفاء بالوقوف عند صلاحيتها التكتيكية.

علينا أن نبدأ بحقيقة ثابتة هى أنه رجل ينتمى إلى طبقة اجتماعية، إلى أسرة روحية، إلى وسط درج على خدمة البرجوازية. إنه كاثوليكى، من القوات المسلحة، تلك الهيئة التى حافظت على الأمة الفرنسية طوال الحقبة التالية للثورة. وسبق لتلك الطبقة أن أدارت ظهرها ثلاث مرات لمصالح الأمة – بالقضاء على نابليون، وإطلاق الرصاص على رجال الكوميون، والاستسلام لهتلر – ونحن نعلم أنه فى المناسبتين الأخريين على الأقل كان الباعث على موقفها هو الخوف من الشعب الكادح وكراهيتها له. وإذا شئنا إجراء تقييم فإننا نلاحظ أن تواصل هذا السلوك المبنى على أولوية المصالح الطبقية المطلقة لا مثيل له لدى سائر البرجوازيات الحاكمة، فلو أن القيادة السياسية للمحافظين وأنصار الملكية لم تفضل خوض معركة لندن وترك مدينة كوفنترى تحترق على اتباع نمط إنجليزى من سياسة بيتان، لانهارت إرادة المحافظة على الاستقلال والديموقراطية فى مواجهة الفاشية الهتلرية قبل ستالينجراد بعشر سنوات.

لقد رفض شارل ديجول، ابن تلك الطبقة وتلك الأوساط، أن يسير على درب تقاليدهم. فوضع الولاء للأمة وحب البلد والتصميم على الحفاظ على الشرف الوطنى فوق وقبل مركزه الطبقى.

وكل ما عدا ذلك جاء نتيجة لهذا الموقف السياسى، وبصفة خاصة ذلك الجانب من البعد الجدلى للعلاقات الدولية التى كان لديجول البصيرة والفضل والشجاعة لتحديد معالمها وبنيتها.

إننا لا ننوى هنا النظر فى توجه تلك السياسة فى الداخل، أو جوانبها الدولية المعروفة بصورة أفضل – مثل موقفه من الاستقطاب العالمى الذى تمخض عنه مؤتمر يالتا، أو من الأسلحة الذرية، وهى موضوعات سيناقشها غيرى ولا ريب. إن مقصدنا هنا هو إبراز حقيقة مبنية على مواقفه الأساسية كما تجلت بكثير من التنميق يوم ١٨ يونيو ١٩٤٠ – وهذه الحقيقة تفهم ديجول لجدلية المشرق والمغرب، أو بالأحرى جدلية العلاقات بين ضروب شتى من دول الشرق وأنماط مختلفة عنها من دول الغرب.

وواقع الأمر أنه لم يكن هناك شئ هيأ رجل الثامن عشر من يونيو لتجاوز ميثاق برازافيل. لقد كان هذا الميثاق، فى وقته، خطوة كبيرة إلى الأمام، إذا ما قورن بالمواقف الاستعمارية التقليدية. ومع ذلك كان مضمون أطروحات برازافيل محدود جدا، إلا وهو تشجيع التنمية الذاتية للأقاليم المستعمرة فى إفريقيا، والتطور حسب الاستقلال الذاتى فى إطار الاتحاد مع الدولة الاستعمارية السابقة، المحتفظة بهيمنتها؛ ولكن إيلاء الغلبة للخيارات الكبرى التى يحددها المركز، مع التصميم على أن تكون ثقافة المركز هى السائدة لدى الجميع. لقد كان ذلك إعادة لترتيب أمور الإمبراطورية الاستعمارية، وليس تحركا حقيقيا صوب "الحكم الذاتى". ومع ذلك كان التاريخ الذى وقع فيه ذلك ذا دلالة ويبرر اهتمامنا بهذا التصدى الأول للمشكلة.

ومن ميثاق برازافيل إلى خطاب بنوم – بنه لم يكد يمر أكثر من ربع قرن، ومع ذلك فإن هذه الفترة تمثل تحولا كبيرا عن النزعة الأبوية الليبرالية صوب إدانة الإمبريالية ودعم نضال التحرر الوطنى الثورية الكبرى فى الشرق. فكيف ولماذا حدث ذلك؟

فيما بين ١٩٤٠ و١٩٦٨، رغم وجود النازية، ورغم إقامة توازن قوى عالمى اتفق عليه فى يالتا، كانت هناك حقيقة أساسية فرضت نفسها، وهى أن الحركات الاجتماعية والسياسية الكبرى التى شهدها عصرنا تتجلى عبر منظومة من الأمم. ويصدق هذا على جبهات المقاومة الوطنية ضد الاحتلال النازى، وعلى جبهات

التحرر الوطنى ضد الإمبريالية. وانطبق هذا على القوى الجديدة التى تشكلت، سواء فى إطار الشكل الرأسمالى أو كجزء من الكيان الاشتراكى حامل لواء الماركسية، والذى نما بصورة ملحوظة بعد حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥. وهذا الواقع الذى أنكره بعناد قطاع مهم من المثقفين فى الغرب (وإن لم تنكره طبقة رجال السياسة التى كانت على اتصال بعالم الواقع). قدمت دليلا ساطعا - لو كان ثمة حاجة إليه - على حماقة وقصور وفساد الحسابات والتطلعات التى راودت مراكز الهيمنة دون غيرها. وكان مآل انقسام العالم بين القوتين العظميين أن يواجه صعابا متزايدة وغير متوقعة فى كل أنحاء العالم. وقد رأى شارل ديجول فى ذلك حليفا قويا، كان قد توقع أن يلعب دوره - من وجهة نظر فرنسا - فيما يتعلق بأوروبا المحتلة. وفى الوقت ذاته، بدأ غيره يدركون الدور الذى لا مناص من أن يؤديه ما كان يطلق عليه آنذاك "إزالة الاستعمار" (بدلا من التحرر الوطنى، أو الاستقلال، أو استعادة الهوية، الخ).

ولكن كان مآل ظاهرة التشيع للوطن أن تصيب - هذه المرة - أوروبا فى الصميم. وبدأت المشكلة تتخذ أبعاد الثورة فى الصين ومصر والهند وإندونسيا وماليزيا وإيران وكوبا وفيتنام والجزائر والمغرب، والعالم العربى بأسره.

وبمنتهى العنف كشفت هذه الحركات النقاب - بحكم تنوعها - عن لب المشكلة، وهو وجود أمم، تشكل أجزاء من ثقافات مختلفة تنتظم بدورها فى حضارتين كبيرتين تشكل وترسم صراعاتهما وصداماتهما إطار جدلية الثقافات والحضارات التى كان يظن أنها انقسمت، أنها اختفت تحت التأثير المشترك للثورة الصناعية والنزعة العالمية التى انطوت عليها عقلانية الفكر الذى تبناه أصحاب الإنسكلوبيديا فى الغرب المهيمن.

ورأى شارل ديجول أن قد حان بالنسبة له وقت الابتعاد عن الساحة. فلم تكن القضية المطروحة هى تولى سلطة الدولة، بل الموقف من طرح مشكلة سلطة الدولة، من مشكلة سلطة الدولة فى أى شكل يمكن أن تبتدى فى زماننا هذا، مشكلة الهدف الذى يسعى الشخص من أجله إلى تولى السلطة. هل تكون مهمة تلك الدولة هى الحفاظ على أمة لديها ما يكفى من العمق التاريخى وإعادة تشكيل تلك الأمة؟

فى ذلك الوقت (١٩٤٠ - ١٩٦٨) لم يكن هناك سوى رد واحد ممكن، ذى صور مختلفة: إن هدف الدولة هو الحفاظ على نظام اجتماعى معين فى خدمة مشروع سياسى محدد. ومن ثم تكون الأولوية - فى هذا المستوى - لـ "العلاقات الدولية"، لـ "الشئون الخارجية"، ومن هنا جاء ميثاق برازافيل.

ومع ذلك فإن ديجول، بحكم جذوره وتربيته وخبرته كزعيم مرموق للأمة الفرنسية، استطاع أن يذهب إلى مدى أبعد. ذلك أن الأزمة التى كان واحدا من أهم رءوسها كانت أزمة الغرب، أزمة كل دول الغرب. لقد أصابت الاستعمار الأوروبى التقليدى والإمبريالية الأوروبية المعهودة (البريطانيا العظمى وفرنسا وهولندا وبلچيكا.. الخ)، كما أصابت الإمبريالية الأمريكية والإمبريالية الجديدة من هيروشيما إلى ڤيتنام، وكان مضمون هذه الأزمة هو المواجهة بين دول الغرب المهيمنة حتى ذلك الحين، وشتى الدول الشرقية؛ ذلك أن الشرق فى مجموعه بلغ فى وقتنا هذا مستوى النهوض الوطنى والثورة الاجتماعية عبر نضالات واسعة ومتشابكة ضد الإمبريالية.

ولو أن هذه النضالات تركت وشأنها لعمقت بالتأكيد الهوة الفاصلة بين الأمم المتقدمة النمو والأمم الفقيرة، بين دول الهيمنة والأمم المناضلة - من أجل تحررها - بين الشرق والغرب. هذا بالطبع ما لم يظهر وسيط، أو أداة للوساطة؛ وقد ظهر ديجول على الساحة، انطلاقا من كونه غربيا وأوروبيا بالتحديد، كأول رجل تميز بالذكاء والتعقل. فتوجه أولا إلى الدائرتين الكبيرتين الحبليين بالحركة: وهما الصين ودائرة آسيا، ومصر والعالم العربى.

لماذا اتخذ هذا القرار؟ لأن ديجول، رجل الدولة، كان يستطيع أيضا أن يستدعى ديجول المؤرخ وديجول المفكر السياسى. لقد ساعدته ثقافته التاريخية والسياسية والعسكرية الواسعة، وتفهمه لحقائق الأديان والأيديولوچيات، وإدراكه غير العادى للعلاقات بين السياسة والثقافة على أن يفهم أن الشرق يتمحور فى الواقع حول دائرتين كبيرتين للتحرك (وليس مجرد دائرتين "ثقافيتين") على هدى الحضارة الصينية وثقافة عربية تقتدى بوحى الإسلام. ومن ثم فإن السبيل الوحيد

الممكن للتوصل إلى تسوية هو بالضرورة مخاطبة قطبى الجذب الرئيسيين الكامنين فى قلب كل من تينك الدائرتين. وقاده وعيه بحركة التاريخ إلى فهم اتجاه الحركة السياسية فى زمننا وفى المستقبل، دون الاكتفاء بمجرد واقعية سياسية.

ذلك هو مصدر الانفتاحين الرئيسيين. فكانت أول وفادة بمعنى الكلمة أوفدتها أوروبا الغربية إلى الصين آتية من فرنسا. وكانت أول دولة من دول أوروبا الغربية على استعداد لبذل جهد للتغلب على الحركة الفكرية والنفسية الثقيلة التى خلفتها الحروب الصليبية فى النفوس فى العالمين العربى والإسلامى - هذه الدولة كانت أيضا فرنسا، بموافقتها على استقلال الجزائر، وباعترافها بالطابع الإيجابى لمصر عبد الناصر. والنصوص الناطقة بذلك وفيرة، وإن قل من يعرفها. ويشير پول بلطة مثلا إلى نص منها يعلق فيه ديجول على السياسة الفرنسية تجاه العرب كما يلى:

"إن التجارة والاقتصاد والثقافة كلها ذات أهمية كبيرة. وعلينا أن ننظر إلى ما يجرى، فهناك يجرى صنع المستقبل، وعلينا أن نتطلع جيدا إلى المستقبل. على الشاطئ الآخر من البحر المتوسط توجد بلدان نامية. ولكنها هى أيضا لها حضارة وثقافة ونزعة إنسانية خاصة بها، إن لديها إحساسا بالعلاقات الإنسانية نميل إلى فقدانه فى مجتمعاتنا الصناعية، وسوف نسعد فى يوم من الأيام بإعادة اكتشافه من خلالهم. إننا وإياهم، كل بوتيرته الخاصة، وتبعا لإمكانياتنا وقدراتنا، نسير قدما صوب الحضارة الصناعية. ومع ذلك، إذا أردنا أن نشيد حضارة صناعية حول البحر المتوسط، الذى ولد على ضفافه حضارات عظيمة، حضارة لا تقوم على النسق الأمريكى ويكون الإنسان فيها غاية وليس وسيلة، فإن ثقافاتنا يجب أن تكون أكثر انفتاحا على بعضها البعض. ("العالم العربى وفرنسا" فى صحيفة "لوموند" بتاريخ ٢٠ يوليو ١٩٧٢، ص ١ إلى ص ٤).

وكان يلزم حدوث الإبادة الجماعية فى ڤيتنام كما يدرك البعض حق الإدراك (بعد فوات الأوان) مغزى خطاب ديجول عام ١٩٦٦ فى پنوم - پنه. فكم من الوقت ومن الأدلة الكثيرة سيحتاج الرأى العام الغربى حتى يعى الأخطاء الآخذة

فى التنامى فى العالمين العربى والإسلامى – من المغرب إلـى آسـيا الوسـطى والجنوبية – وهى أخطار سوف تصيبهم مباشرة إذا مضوا سـويا فـى محاربـة نهضتهم؟

ففى الشرق، فى حقبة نهضته وثوراته، على خطى ماو وعبد الناصر، كانـت الجماهير الشعبية – هى التى تبينت أكثر مخاطبة السياسيين – أن ديجول وسـيطا مرموقا بين الشرق والغرب على غرار الإسكندر الأكبر ونابليون بونابرت. وأملها الجياش أن يفتح مثاله عيون الغرب وأن يشق طريق مستقبلنا المشترك.

(١٨)

المشروع الحضارى

١ - ١ يمكن أن نبدأ بطرح تاريخية مفهوم الاستقلال الوطنى. ثم يأتى بعد ذلك التساؤل حول الظواهر الجديدة وما تسعى إليه وما تطرحه من علامات الاستفهام. والملاحظ أن معظم نزعات الاستقلال القومى تنبثق من البلدان والدول الليبرالية الرأسمالية فى الغرب وخاصة فى أوروبا، وذلك خلافا للتوقعات السائدة والتى كانت تعتبر أن هذه المجتمعات بعزلة عن قضية الاستقلال الوطنى.

وقد تمثل الطرح الكلاسيكى لإشكالية الاستقلال الوطنى فى صياغتين متتاليتين.

أ - وأولاهما هى الصياغة التقليدية والتى يمكن أيضا اعتبارها ليبرالية محافظة، وهى تشدد على مفهوم "الاستقلال" بذاته معتمدة على المعايير القانونية والسياسية. وهنا فإن الاستقلال ينظر إليه كأحد الأشكال المتقدمة للنزعات التى تصاعدت داخل المراكز المهيمنة الرئيسية أو الإمبراطوريات، والتى واكبت صعود البرجوازيات الغربية. وفحوى هذه الحركات هو التوصل إلى المساواة القانونية فى الحلبة الدبلوماسية حتى يتسنى "اللحاق بركب القوى العظمى".

ذلك هو بشكل عام منظور أهم الحركات فى تاريخ الغرب الحديث من الحرب الأهلية الأمريكية إلى تفسخ الإمبراطوريات النمسوية المجرية والعثمانية.

ب - وقد تلت ذلك صياغة ثورية راديكالية ظهرت بشكل أساسى فى المناطق التى تأثرت بصعود الهيمنة الأوروبية. وتشدد هذه الصياغة على عملية "التحرر الوطنى" وليس الاستقلال فحسب، وهو ما يعكس طرحها جدليا للإشكالية، يستند على الصراع ويستهدف تأسيس كيان قومى مستقل وذو سيادة فى مواجهة الهيمنة السياسية لكيان أوسع. ذلك هو تاريخ الحركات الوطنية فى

الشرق خاصة فى آسيا والعالم العربى والذى لحقته إفريقيا ثم تبعته أمريكا اللاتينية مؤخرا. ومن الواضح أن هذه الحركات المستندة على القطيعة والتمايز أكثر حدة من التى سبقتها سواء سلبا أو إيجابا، حتى وإن كانت بينهما ملامح مشتركة.

٢ – ٢ كيف يمكن بناء على هذه المقدمات أن نتناول مسألة التساؤلات الجديدة الصاعدة من داخل القطاعات الأكثر ديناميكية فى الغرب ذاته؟

إن الظاهرة التى نحن بصددها ظاهرة حديثة. ففى أثناء الحرب العالمية وبعد أعوام ١٩٣٠ – ١٩٤٥، وفى إطار صراع الأمم الأوروبية مع المحور الهتلرى الفاشى ظهرت حركات المقاومة الوطنية بهدف تحرير الأوطان من خلال المقاومة الوطنية فهدف تحرير الأوطان من خلال الكفاح المسلح. وانتهت مرحلة الكفاح المسلح بحلول عام ١٩٤٥ ومؤتمر يالتا، ضمن سلسلة محاولات الهيمنة العسكرية من مختلف الدول الأوروبية على مجمل الغرب. إن تراجع الإمبرياليات التقليدية فى مواجهة الإمبريالية الاقتصادية الأمريكية، تكون كتلة من الدول الاشتراكية الملتفة حول الاتحاد السوفيتى ثم ظهور موجه ثورات التحرر الوطنى فى الشرق – من حول الصين وتحت أعلام الاشتراكية، كل هذه الظواهر قد قللت من أهمية الاقتراب التقليدى.

أما على الجانب الآخر وفى كل من آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية، فإن عملية التحرر الوطنى لم تعد مطروحة كمشكلة محتملة وإنما كحقيقة واقعة مقبولة أو مرفوضة ولا سبيل إلى الرجوع عنها، وإلا كان معنى ذلك مقبول الخضوع والتنازل عن المستقبل، ولكن ماذا عن أوروبا؟

إن ظهور مفهوم الاستقلال – وليس التحرر الوطنى – غداة عام ١٩٤٥ هو برنامج عمل يتم السعى بمقتضاه نحو الاستقلال الضرورى إزاء الهيمنة الأمريكية وإزاء التوازن بين القوتين العظميين وذلك فى ذات الوقت الذى تحولت فيه "الحرب الباردة" إلى "انفراج" بمرحلة "التعايش السلمى".

تلك هى ملامح اللحظة التاريخية التى شهدت انبثاق الظاهرة.

ومن ثم فإنه يتعين على قطاعات العالم الغربى المعنية بقضية الاستقلال أن تأخذ فى الاعتبار بخبرة البحث فى الشرق.

٢ – ١ هناك أولا على المستوى المباشر تلك الصلة العضوية – المتفاوتة الأهمية حسب الحالات – بين الاستقلال القومى أو التحرر القومى بوصفه كذلك وبين الثورة الاجتماعية وتلازم البعدين. والجديد فى هذا الصدد هو أن هذه العلاقة قد أصبحت علامة "عضوية" لا تقتصر على التكتيك المؤقت. وقد أوضحت التجربة بما لا يدع مجالا للشك أن الجبهات الوطنية الواسعة التى كونتها بشكل أساسى البرجوازيات المحلية المسماة "بالوطنية" تواجه مشكلات متزايدة فى بناء وتثبيت هذه الجبهات والحفاظ على خطها السياسى، نظرا لأن هذه التيارات البرجوازية تبدو أكثر تمسكا بمصالحها الطبقية عنها بمقتضيات حركة التحرر الوطنى ذاتها. وعلى الرغم من ذلك فإن مرحلة الراديكالية تفرض نفسها حيث تقرر الجماعات البرجوازية الحاكمة المبدأ فى عملية تغيير اقتصادى واجتماعى عميق التوجه إلى الشعب للحفاظ على الأمة فى مواجهة المحتل وهو ما تعكسه خبرات مصر الناصرية والجزائر فى ظل جبهة التحرير وسوكارنو والهند وبيرو وتنزانيا وسريلانكا ومعظم الأنظمة الجمهورية فى العالم العربى. أما فى بعض المناطق الأخرى وخاصة فى آسيا فى كل من الصين وفيتنام وكامبوشيا وكوريا ولاوس، فقد سمحت المحددات الجغرافية التاريخية بظروف أفضل، حيث واكبت الثورة الاشتراكية حركة التحرر القومى وكرستها. إن ما يترتب على ذلك هو نتائج بالنسبة للقطاعات الأوروبية المعنية بالاستقلال بالغ الأهمية. ذلك أنه من الواضح أن هناك استحالة طالما أن القطاعات الأكثر أهمية فى الشعب لا ترضى عن القيادات السياسية التى لا تعبر عنها، وذلك باستثناء اللحظات النادرة التى عبرت فيها عن إجماع الأمة شخصيات مثل تشرشل وديجول وروزفلت. وإذا لم تقدم القطاعات البرجوازية الأوروبية المعنية بالاستقلال الوطنى على إعادة النظر فى توجهاتها الاجتماعية الاقتصادية، فإنها تصطدم بالجدلية الاجتماعية التى تعطى الأولوية للصراعات الاجتماعية الداخلية، بحيث يتغلب الصراع الطبقى على الوحدة الوطنية التى تفتقد الكثير من مبرراتها النظرية والعملية.

٢ – ٢ إن حركات التحرر الوطنى قد تحركت دوما – أو فرض عليها التحرك بمعنى أدق – فى الإطار الحديدى لتوازن القوى العالمى الذى يفرض محددات الحركة المحلية. إن الخبرة الأساسية التى يمكن استخلاصها من تجربة جناحى الشرق اللذان خفقا فيما مضى للسيطرة تتمثل فيما يلى: إذا كانت حركة التحرر فى آسيا قد ذهبت إلى حد بعيد – والصين خير دليل على ذلك – فإن العالم الإسلامى، وفى القلب منه المركز العربى، قد واجه دوما وبشكل مباشر جبهات الدول الغربية المهيمنة بداية بالحروب الصليبية وانتهاء بالدولة الصهيونية. وبشكل عام فإن معطيات اليوم لا تختلف كثيرا عن معطيات الأمس من زاويتين:

أ – وجود ثلاثة أقطاب رئيسية للقوة فى العالم: الغرب حول الولايات المتحدة، والاشتراكيات الأوروبية حول الاتحاد السوفيتى، ثم آسيا ملتفة حول الصين. وإذا كانت ملامح الأقطاب الجديدة قد بدأت تتضح، إلا أن المستبعد أن تسعى للتساوى مع هذه المراكز الرئيسية الثلاث التى تدور حولها الديناميكية التاريخية المعاصرة. والمقصود بالأقطاب الجديدة: أوروبا والعالم العربى واليابان وفيتنام والبرازيل على وجه الخصوص.

ب – وجود إمكانيات للديناميكية فى طور الكمون، لم تلق حتى الآن التقدير الكافى وخاصة البعث فى مختلف المناطق القومية الثقافية فى الشرق من جانب أول، ثم التنافس فى إطار التشاور بين كل من المركزين الرأسمالى والاشتراكى من جانب ثان.

٢ – ٣ على أن هناك صعوبة مزدوجة تطرح نفسها إذا ما شرعنا فى مقارنة إمكانيات الديناميكية فى مختلف القطاعات المهتمة بالاستقلال الوطنى فى كل من الشرق وفى القطاعات الغربية المعنية، خاصة فى أوروبا الغربية. ففى الحالة الأولى، ينظر إلى الاستقلال بوصفه هدف تاريخى لمعركة التحرر الوطنى ومرتبط عضويا بالثورات الاجتماعية فى مختلف أشكالها. ومن ثم فإن الاستقلال يعد فى هذا الإطار شرط البقاء بكل ما تحمله الكلمة من معان.. ولنا عودة إلى هذه الفكرة، أما فى القطاعات الأخرى فإن الأمر يختلف حيث أن ما يبدو ممكنا ومطلوبا هو

مجرد الحفاظ على السيادة فى مواجهة إمبريالية الهيمنة الأمريكية، وعلى الوفاق فى إطار الاسترخاء بين القوميين. ذلك هو المقصود بالاستقلال فى القطاعات الغربية. أما فى الشرق فإن أعلام الاستقلال الوطنى ترتفع كل يوم إلى أعلى، ليس بدافع أيديولوچى وإنما استجابة للظروف الخاصة المحيطة التى تحكم الحياة اليومية للبشر والمجتمعات.

***

وإذا ما واصلنا التفكير فى هذا الموضوع يتضح لنا الآتى:

٣ – ١ إن عملية "رفض التبعية" المطلوبة فى كل من القطاعين – كل بأساليبه المتميزة – لا تصل إلى مرحلة "التأثير التعبوى" إلا إذا ذهبت إلى ما هو أبعد من مجرد حماية السوق الوطنى، بحيث تتبنى مسألة الحفاظ على الهوية القومية كاملة. صحيح أن صراعات النفوذ قد ظهرت فى أوضح صورها فى مجال السوق أى الاقتصاد القومى. على أن الصراعات فى المجال الاقتصادى فى دول الشرق هى عملية مستمرة، وأحد المعطيات المكونة لاقتصاد هذه البلدان. أما فى بلدان الغرب الرأسمالى فهى تعكس تراجعا فى الآراء أو اختناق عسير مؤقت فى عملية النمو الاقتصادى للرأسمالية الغربية.

٣ – ٢ إن مسألة الحفاظ على الهوية القومية لا تطرح نفسها كمشكلة إلا فى مجتمعات القطاع التابع حيث يمتد تأثير الإمبريالية إلى ما هو أبعد من المجال الاقتصادى والسوق المحدود الاندماج المفروض فرضا فى السوق الرأسمالى العالمى. إن التأثير الإمبريالى يمتد إلى كافة المجالات من تشويه العملية التعليمية إلى محاولة تحريف الثقافة الوطنية مرورا بخلق الهوة بين النخبة المستغربة والجماهير الشعبية، مرورا بإبقاء هذه البلدان فى حالة التخلف التقنى والعلمى وإضعاف السلطة الوطنية... بالمؤامرات الداخلية والاعتداءات الخارجية المتكررة.

٣ – ٣ وفى مواجهة كل ذلك، فما هى العناصر التى تسمح بالحفاظ على تماسك الجبهة التى تهدف إلى الحفاظ على الهوية الوطنية فى مواجهة الإمبريالية

والهيمنة، وبحيث تستمر هذه الجبهة لأطول فترة ممكنة؟ هنا فإن مفهوم الحضـــارة يطرح نفسه على تناولنا للقضية.

أ – أ إن طرح المشكلة باستخدام المفردات السياسية، أو باستخدام مفردات الحركة السياسية بمعنى أدق، أمر ضرورى فى المدى القصير والمتوسط. وســواء تعلق الأمر بمستوى التكتيك أو بالمستوى الإستراتيجى فإن هناك من العديـــد من المتغيرات ما يسمح للتشكيلات السياســـية المختلفـــة، بشـــكل مختلـــف القطاعات السياسية والأيديولوچية للحياة السياسية.

ب – وعلى مستوى أكثر عمقا تبقى ضرورة إبراز أولوية الإرادة أو بمعنى آخـــر أولوية العمل والبعد السياسى. والمقصود بذلك هو أن تتحول أولوية السياسى فى ذاتها إلى مشروع، يتجاوز برامج الحد الأدنى والإســـتراتيچية والتقنيـــة رغم ما لهذه المستويات من أهمية وفعالية، وهنا فإن المشروع يصبح قوميا ثقافيا بحق. ومثل هذا المشروع هو وحده القادر على ضـــمان اســـتمرارية المجتمعات القومية المختلفة والأمم والحضارات التى تكون عالمنا المعاصر.

٤ – إن المشروع الحضارى للغرب – بكافة مجتمعاته – هو ذاته ذلك المشـــروع الذى كان محورا لصعود أوروبا إلى مستوى الهيمنة على العالم فى القـــرن الخامس عشر وحتى القرن الثامن عشر. وتتمثل مقوماته فـــى أيديولوچيـــة إنتاجيه تستهدف التوسع دون حد، ورفع مستوى المعيشـــة بشـــكل مســـتمر وزيادة استهلاك الخدمات الاجتماعية وإخضاع مختلف قطاعـــات الشـــرق لتأكيد الهيمنة الغربية، وذلك باستخدام الحديد والنار تارة وأساليب الإمبريالية الثقافية والفكرية تارة أخرى. وقد كانت الفلسفة المصاحبة لهذا المشروع فى البدايات هى العقلانية الكلاسيكية ثم تنويعاتها الليبرالية أو المادية أو المثالية ثم تلتها فلسفات الاشتراكية والهيومانية الاشتراكية.. وقد نظر إلى العالم كله باعتباره أوروبا – أو الغرب بمصطلحات اليوم، وانتقل مركز الثقل فيما بعد إلى أمريكا الشمالية. إن النموذج العام ومقاييس القيم والتصور السائد عـــن صورة الإنسان لا تختلف كثيرا بـــاختلاف النمـــاذج الغربيـــة. إذ ينحصـــر

الخلاف الأساسى بين النظامين الاقتصاديين الاجتماعيين اللذان يقتسمان الغرب على تعيين ذلك القطاع من السكان الأحق بالاستفادة من الرؤية الغربية للعالم ومن فائض القيمة الاستراتيچى الأساسى الناتج عن إخضاع مجتمعات مجتمعات وأمم وشعوب القارات الثلاث - وفى القلب منها الشرق - من قبل مراكز الهيمنة فى الغرب.

٤ - ٢ وهنا تتضح ملامح الأزمة: ذلك أن محاولة تدعيم الاستقلال الوطنى فى مواجهة المركز المهيمن الذى تمثله الولايات المتحدة اليوم، لا تتجاوز إلا ضمان هامش أوسع للاستقلالية الإقليمية. إن الكيانات القومية الغربية، لم تقدم حتى اليوم على طرح أى مشروع حضارى، يختلف عن ذلك المشروع المطروح على العالم كله بصورة واضحة، بل وفجة، والمتمثل فى نمط الحياة الأمريكى.

٤ - ٣ أن المقاومة العنيفة والدعوبة تظهر إذا ما تناول مشكلة المشروعات الحضارة البديلة.. فقد اعتبرت أوروبا طول عدة قرون أن "الحضارة" هى نتاج أوروبى صرف. وإن هذا الناتج الأوروبى يصلح بالضرورة للعالم كله، والواقع أن كل ما يصدر عن الغرب حاليا يترك أثاره على المناطق الهامشية. والواقع أن هذا لا يرجع إلى محدودية نظرة المراكز المهيمنة والإمبريالية فحسب، ولكنه يعود أيضا بالطريقة نفسها، بل وبدرجة أكبر، إلى مواقف المنظرين لصالح الثورية العالمية المعارضة للقوميات والذين أبرزوا على التوالى مناهج المركز والهامش، ثم الشمال والجنوب والتى كانت تعكس الانتقال من "الأنوار" الأوروبية بالأمس إلى الحركة الدولية الاشتراكية إزاء عوالم وصفت بأنها الثالثة. إن التمحور حول الذات الغربية والذى يحل محل التمحور الكلاسيكى حول الذات الأوروبية، يمثل اليوم العائق الأساسى الذى يواجه الغرب فى محاولة طرح مشكلة المشروع الحضارى البديل، والواقع أنه رغم الإحجام عن طرح هذه المشكلة بشكل عام، فإن ثمة محاولات ومبادرات جزئية تتيح إمكانية للتفكير فيها. ومنها إحياء الأيديولوچيات الدينية وتأكيد الطابع القومى، سواء على مستوى الطبقة السياسية القومية الحاكمة أو من قبل البديل الشيوعى، كما يشار أيضا إلى وعى الشباب وإدراكهم للأزمة،

والذى يؤثر مباشرة على النخب السياسية والثقافية الحضرية وإلى التحديات الموجهة ضد النموذج الغربى والصادرة عن الهوامش. على أن أحدا لم ينظر إلى هذه العوامل، باعتبارها مصدرا محتملا للتجديد. ذلك أن قدرة النموذج الغربى للحياة – أى الأمريكى – على النفاذ والتكييف قد تغلغلت فى أعماق الجسد الاجتماعى والفكر والحساسيات فى مجمل المجتمعات الغربية.. إن الوقت قد حان، كى تقدم الطلائع الغربية الراغبة فى صنع مستقبل الغرب، على طرح قضية إمكانية الاستقلال الوطنى، وذلك باستخدام مفردات الثورة الثقافية.. وبغير القطيعة وإعادة الهيكلة فإن المستقبل سوف يكون بالضرورة، ذلك الذى يقرره المركز الأمريكى على أطراف إمبراطوريته، حتى وإن كان ذلك مصحوبا بهامش متسع وليبرالى الطابع للاستقلال.

٤ – ٤ وهنا فإنه يمكن طرح مفهوم "مرحلات المبادرة التاريخية"، تلك المبادرة التى امتلكتها أوروبا من القرن الخامس عشر وحتى يالتا والتى يبدو أنها فى سبيلها للانتقال إلى أيدى الشرق والذى يتأثر مباشرة بالتغيرات التى أسفر عنها الحكم الاشتراكى فى الغرب. إن طرح قضية "الثورة الثقافية" كجوهر للأولوية السياسى قد انبثق من آسيا. ومن المنطقة الإسلامية العربية ظهرت الدول القومية الراديكالية حيث اجتمع الجيش والشعب حول البترول. وفى هذه المجموعة المتسعة التى تشكلها القارات الثلاث فإن ثمة مقتضيات للتوفيق تفرض نفسها: بين الثقافات الوطنية التقليدية التى كثيرا ما تأخذ صورة الولاءات الدينية، وبين اتجاه الحركات الوطنية والثورية بحيث يمكن أن يتم عن قريب تجاوز تلك التناقضات بين العقل والإيمان، وبين العالمية والأمة، وبين السلطة والفلسفة، إلا إن ذلك هو بعد آخر لن نتعرض له تفصيلا.

٤ – ٥ وهنا فإنه يتضح أن إقامة علاقات جدلية – أى علاقات مواجهة ليست بالضرورة ذات طابع صراعى – بين القطاعات الغربية الساعية نحو الاستقلال وبين جبهة القارات الثلاث الملتفة نحو الشرق، هو السبيل الوحيد لخلق إمكانية التجديد وطرح التساؤلات المفضية إلى بلورة المشروعات الحضارية الكبرى فى عالمنا المعاصر.

وقد آن الأوان أيضا لرد اعتبار الفلسفة ومكانتها فى تسيير شئون المدنيـــة، إلا إذا أصر البعض على مواصلة السير بلا مشروع.

وقد يرى البعض أننا نعيش فترة عجيبة تشهد عودة "الأشباح": الأمة والفكـــر الفلسفى و الظاهرة الحضارية. على أنه يبدو أن الوقت قــد حـــان لكـــى تـــتمكن المجتمعات البشرية من التشاور والنضال من أجل صياغة وإعمال أنمـــاط حياتيـــة قائمة على التفاعل الخلاق إما على مستوى العناصـــر الذاتيـــة أو علـــى مســـتوى العالمية.. وانطلاقا من دور الفلسفة فى خدمة المشروعات الحضارية المختلفة. فإن أدوات التحرك باتجاه هذا المشروع هى القالب الذى يسمح بصهر الحقيقة القومية.

(١٩)

في جدلية الزمان

إلى أستاذنا الأجل چوزيف نيدهام

"لا يبدأ الفكر إلا عندما ندرك أن هذا الشئ الذى هو العقل المؤله خلال القرون هو العدو الأكثر شراسة للفكر".

مارتن هيدجر

(الطريق المسدود الذى لا يقود إلى أى مكان)

هل يمكن للفكر الغربى بما له من تأثير عالمى أن يوفر إمكانية حوار حقيقى بين الحضارات؟

١ – يقول الافتراض للمشكلة التى ندرسها بشكل مشترك إن جميع اتجاهات التطور الاجتماعى وسلبنا ومفاهيمنا للدخول فى مشكلة هذا التطور فى العالم يعتورها الخلل أساسا، أو أنها الآن على الأقل موضع تساؤل من قبل الأغلبية الواسعة من المفكرين فى العالم وخاصة فى الشرق.

باختصار وكما سيظهر فيما أن السؤال المطروح أمامنا هو:

كيف تطرح مسألة التطور الاجتماعى ضمن إطار التحول فى العالم فى هذا العصر؟ نقصد بذلك أن التركيبة والإطار التقليديين للافتراضات الاقتصادية الاجتماعية لمشكلة التطور والعلاقات المتبادلة بين الحضارات والثقافات والأمم فى عالمنا هذا ينظر إليهما كإطار مقيد ومدان بالتهميش، ويقود إلى مزالق مجهولة وغير ملائمة لمستقبل الجنس البشرى، وهناك اقتراح آخر وفى نفس الوقت يقول بإمكانية اعتماد بديل آخر لطرح المشكلة قد يقود إلى إيجاد سبل أفضل للعلاقات المتبادلة بين الحضارات والثقافات، وتسمى هذه الطريقة بالعملية الجدلية.

- ١ -

الحصر النمطى: البحث عن البديل

يمكن تلخيص الطرح التقليدى للمشكلة بما يلى:

أ) اعتبار التطور وسيلة اقتراب للمجتمعات الهامشية وخاصة فى الشرق (آسيا وأفريقيا) كما فى أمريكا اللاتينية فيما بعد، ولكن بطريقة مختلفة من أجل اللحاق بالمجتمعات المتطورة فى الغرب، وقد تعادلت اليابان مع الأخيرة بحكم الحالة نفسها من أجل حاجات ومتطلبات تلك المجتمعات.

الآن ما الذى نريد التوصل إليه؟ بكلمة واحدة يبدو أن الهدف المنظور الذى نسعى لتحقيقه يتكون من اتحاد حى لنمو الناتج الوطنى الإجمالى مع مستوى من الحريات المدنية والشخصية من خلال تحقيق ازدهار الثقافة ونمو تبادل الأفكار، وفوق ذلك كله تحقيق متع الحياة فى مجتمع تقدمى بتحول اجتماعى مترابط.

إن النموذج المقترح هو ما يمكن ملاحظته فى الأمم المتقدمة فى العالم الغربى (أوروبا وأمريكا الشمالية) حيث بلغت متع الحياة والسعادة الاجتماعية والفردية قمتها فى التاريخ البشرى.

ومن المناسب هنا الإشارة إلى أن المحللين الشرقيين والغربيين على حد سواء أكدوا القوة الجبارة الهائلة والتأثير المتمادى للأسس العلمية والتقنية والاقتصادية على الفكر الغربى العالمى والمؤسسات الاجتماعية، هذا التأثير العالمى لم يعد ناتجا فوق – عدمى لتفوق المفروض أن يكون عليه الفكر الغربى وحسب بل، وأكثر من ذلك فى لغة مجموعة التقدم المادى والإبداع الثقافى.

هذه الرؤية العالمية لمشكلة تفوق الغرب فيما يتعلق بتأثيره العالمى بحد ذاتها تعبير عن الاتجاه الجديد السائد فى علوم الإنسان والمجتمع هذه الأيام فى الشرق والغرب على حد سواء وكما أشير إليه فى معرض بحثنا هذا.

ب) وبما أن هذا التفوق جلى وغير قابل للمناقشة، فماذا سيكون الغرض؟ وما هى السبل لتحقيق شئ آخر له صفاته الثقافية الوطنية والحضارية؟ وباسم ماذا؟ إنه

بالتأكيد حقل الخصوصيات وعالمه، ولكن لوجود حضارات مختلفة ومجـالات ثقافية وطنية متعددة، كيف يمكن تحقيق إدامة اجتماعية واستمرارية تاريخيـة؟ ولأى غرض؟ كيف السبيل للتخلص من الهامشية؟

ج) الجواب التقليدى هو أن التحول الاجتماعى الاقتصادى، أى الثورة الاجتماعية ، سبيل لتحقيق هذا الإصرار على الخصوصية، والحفاظ على الهوية الحضـارية والثقافية وهو بكلمة واحدة ما يعرف تاريخيا بخصوصية المجتمعات المختلفـة التى تكون حضارات اليوم وثقافاته كما نعرفها نحن، ويمكن القول أيضا بأنـك إذا أردت تحقيق ذاتك وتجنب طريق الغرب والتخلص من التهميش، فـالطريق الوحيد لذلك هو تحويل مجتمعك الوطنى.

ويمكن رؤية هذه العملية على أنها تحوى جانبين متضاربين:

أولا: من الجانب الإيجابى فإنه مما لا شك فيه، أن التحـول الاجتمـاعى لأى مجتمع وطنى وأية أمة يقود عادة إلى زيادة الناتج الوطنى الإجمالى وإلى توزيـع عادل لمنافع التطور فى المجتمع، وفى أفضل الحالات يقود إلى إصلاح اجتمـاعى متقدم كما نعرفه فى أكثر من دولة.

ثانيا: ولكن إلى أين يقود فيما بعد؟ يطرح السؤال نفسه من ارتبـاط اتجـاهين رئيسيين فى التطور:

– فى الغرب توصف مشكلة الإيمان بالمنافع الحضارية لمظاهر التطور على أنها أزمة الشباب والفوارق بين الأجيـال ومرحلـة اليوطوبيـة الجديـدة (Neo-Utopianism) وإلخ.

– أما فى الشرق فيبرز اتجاه التطور فى نهوض الشـرق، والانفتـاح علـى العصرنة وبروز القارات الثلاث (آسيا وأفريقيـا وأمريكـا اللاتينيـة)، وانتهـاء الإمبراطوريات التقليدية، وفشل الهيمنة الإمبريالية فى ڤيتنام وطريقهـا المسـدود، وحرب أكتوبر الأول ١٩٧٣ وما يسمى (بأزمة الطاقة).... الخ.

إن هذين الاتجاهين يمثلان تناقضا على صعيد عال، ومع هذا ففى ١٦ سبتمبر ١٩٧٧ نشرت اللجنة الأمريكية للصحة العقلية برئاسة الـدكتور تومـاس براينـت

تقريرها المذهل والذى جاء فيه: "إن حوالى ٢٠ – ٣٢ مليون أمريكى يحتاجون إلى نوع من الرعاية العقلية". بينما تذكر الأرقام الحقيقية بموجب تقديرات أكثرية اللجنة بأن الرقم بلغ الأربعين مليونا.

د) من المناسب هنا أن نتأمل الإطار السياسى الشامل الذى تحقق من خلاله هذا التجانس الدولى تحت تأثير تعميم قيم الثقافة والحضارة الغربيين.

منذ عام ١٩٤٥، والعالم الذى انتقل من الحرب الباردة باتجاه التعايش السلمى الذى يسير الآن إلى الانفراج السياسى، يعيش فى الوقت الحاضر أزمة حقيقية. فالانفراج السياسى هو أكثر من تدبير دولى عابر، واستراتيجية ملائمة متفق عليها جماعيا. وقد قصد فى الحقيقة بكلمة التعايش من قبل نظامى الغرب "الغرب الليبرالى إلى الرأسمالى الاحتكارى. والنظام الاشتراكى الأوتوقراطى". أنه لا مفر من أن يرى ويقبل الجميع بأن هيمنة الغرب وأسبقيته التاريخية هما نقطة البداية والأساس الحقيقى نحو التحول الاجتماعى والإنسانى فى جميع المجتمعات فى عصرنا. وأنه لا يمكن قبول أية أزمة قد تقود إلى تمزق أو تفجير الوضع الدولى إلا بمقدار ما تناسب متطلبات تلك القوى العظمى. إنه طريق مسدود من غير ريب بالنسبة للقارات الثلاث، وفوق كل ذلك للطراز الحضارى الشرقى للمواصلة بالتكيف، والتكيف بغرض البقاء. والإخفاقات والأزمات والطرق المسدودة التى لا مفر للشرق من مواجهتها، والتى عاشت ضمن مجتمعاته لحين النهاية المضادة المحتومة، هى نتيجة لقلة الموارد الأساسية فى الشرق وفى القارات الثلاث بشكل عام.

٣ – من هنا نلتمس الحلول البديلة. كيف نواجه هذا الأمر؟ وأين نبحث عن البدائل؟

(أ) لقد جرى البحث على مجال واسع النطاق وبمستوى نظرى ضمن مفهوم التصور الحضارى واستراتيجيته الحضارية المرافقة له، فالتصور الحضارى وليس فقط التصور الاجتماعى هو اقتصادى واجتماعى جوهريا، برداء شعبى ظاهرى هنا وهناك، وقد تناولنا فى مكان آخر هذا المفهوم وسنعود إليه لاحقا.

(ب) على المستوى الجزئى أو على المستوى الأدائى البنيوى فإن البحث يجرى عن أداة وموقع للأبعاد الضرورية، وعن الموقع الأساسى لتطوير وتشكيل وبدء عملية تنفيذ النماذج البديلة للتنمية الحضارية، وفى الوقت نفسه وبسبب الضرورات التاريخية فالبحث لم يتخل دقيقة واحدة عن العمل من أجل التنمية الوطنية بكل ما تعنى هذه الكلمة من مفهوم تقليدى.

- ٢ -

الزمن: "النهر الذى لا ينتهى"

إن مفتاح الحل لهذه المشكلة يجب أن ينظر إليه بمقياس الزمن. حيث نتعامل هنا فى عمق المجال التاريخى وفى البقاء والاستمرارية الاجتماعية عبر التاريخ مع ما تواجهه الحضارات والثقافات وبالذات مسألة هويتها واستمراريتها وتطورها. وبكلمة أخرى جدليات الخصوصية ضمن الإطار الشامل للجنس البشرى.

الزمن هو حقل التقدم الإنسانى، النهر المتجدد الجارى، إنه محتوى ومضمون التطور نفسه.

نحن بالطبع نستطيع أن نختار عوامل شكلية ذات مغزى فى جدليات الحضارات والثقافات كالقوة السياسية ونوعية وقدرة مقاومة البنى الاجتماعية الاقتصادية وتطورها. أو قدرة مختلف الحضارت والثقافات علة مواجهة التأثيرات الخارجية الأجنبية، أو قدرة الحضارات والثقافات وبالذات مسألة هويتها واستمراريتها وتطورها. وبكلمة أخرى مسألة جدليات الخصوصية ضمن الإطار الشامل للجنس البشرى.

الزمن: هل هو رؤية موحدة؟

إنه يبدو كذلك، فكلتا الموسوعتين البريطانية والفرنسية العالمية Encyclopaedia Britannoca & Encyclopaedia Universalis لا تختلفان فى ذلك. حيث تتحدث كل واحدة تحت عنوان "الزمن" عن هذا الموضوع بنفس غربى كامل موحد فلسفيا وفيزيائيا، مع التأكيد على التقاليد الأرسطوطاليسية

الكنتية. ولم نجد فى المصادر الغربية ما يوحى بأن هناك اهتماما قد يكون مكرسا للبنية التاريخية لمفهوم "الزمن"، مع إهمال المفاهيم والرؤى المختلفة له فى عدد من الثقافات الرفيعة والحضارات البشرية.

هنا أيضا نواجه الفرضية التعميمية باعتبارها مدخلا يمثل أمرا واقعا للفلسفة والنظريات ومجموع حقائق الأعمال الفكرية. إننا مدركون للرؤية الغربية للزمن. إنها فوق كل شئ رؤية تنمو لبلوغ الحالة العلمانية، أى للتحديد والإشارة، وللتمكن من التحليل والعمل الذى يكشف من خلال البرمجة مع التهيؤ لاتخاذ إجراء ما، وفى الواقع، فإن أرسطو طاليس هو الذى قام بتوجيه دفة الفلسفة والمنطق فى الغرب ولعب الدور الرئيسى فى ذلك، ولسنا هنا فى معرض تفسير الخلفية التاريخية للدوافع الأرسطوطالسية، ولعله من الضرورى أن نشير إلى أن بروز المنطق الشكلى وتكون مجمل نظامه المرتبط بالأرسطوطاليسية، وهيمنة التفكير التحليلى كان يقصد منها مرافقة التوحيد المؤقت لدويلات المدن اليونانية المتهاوية حين ذاك فى دولة واحدة تحت حكم مقدونيا والإسكندر.

إن العملياتية والكفاءة والعمل كانت كلها من متطلبات الفكر فى ذلك الزمن، ولتحقيق هذه المتطلبات جاءت النظرة الأوروبية للزمن بشكل أداة عمل، وليس بمحتوى مكانة الإنسان ضمن المسيرة التاريخية، أو بمحتوى المظهر البشرى فى الكون ومكان وجوده فى منطقة واحدة موحدة "الكرة الأرضية" فى هذا الكون المجهول. ومنذ ذلك الوقت، تقدمت الرؤية الغربية للزمن عبر هذه الخطوط التحليلية العملية التاريخية لتحدى الغرب، وذلك خلال الفترة بين الإسكندر والفتح الإسلامى كما حدث ابتداء من القرن التاسع. وليس عرضا أن التفكير النقدى حول الزمن بدأ بالتحديد بعد موجه الفتوحات الإسلامية حوالى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، مع جاليليو والموقف النقدى من النهضة الأوروبية، وتصاعد السيطرة الغربية ونهوض الغرب إلى المواقع المركزية فى المبادرات التاريخية فى تاريخ العالم ذلك الوقت وفرا استمرارية تقاليد التحليل العملياتى الأرسطوطاليسى. كما تمثلت فى كل اتجاه الفلسفة الأوروبية منذ القرن الثامن عشر وإلى يومنا هذا، من كنت وحتى أينشتين.

هنا ثانية، لم تقدم العمليات الملموسة الفاعلة فى التاريخ تحديات قادرة على تنمية رؤية بديلة للزمن. بهذا أصبح الزمن واحدا من أمثلة المفاهيم التحليلية العملياتية التى تتضمن التقليد الرئيسى للفلسفة الغربية منذ أرسطو وحتى اليوم، ومع هذا فالزمن لا يكن إلا مثالا واحدا للوجود فى العالم الملموس. وقد اعتبر الإنسان، أو بالأحرى اعتبر نفسه، سلطة حاسمة وسيد الكون وخالقه، مواجها لما كان يسمى باغتراب أيديولوچيات الأديان ومؤسسيها عبر طرق العقلانية والتفكير العلمى، الإنسان كسلطة حاسمة يمكن أن يكون إنسانا فقط بصفته سيدا ومستخدما للزمن. وهكذا بالتدريج وبلغة كل يوم أخذ الإنسان يبدو وكأنه "يحصل" على الزمن و"يحتاج" الزمن و"لا يحصل" على الزمن وكفايته منه كأنما هو مثل للممتلكات الخاصة، عربة أو ورق كتابة، أو ماكينة غسل ملابس أو لحم بقر أو كأنه شئ ملموس.

Man appeared to "Lack" time "Not to Have" ime or Enough) time) كيف تستخدم الزمن وليس كيف استخدم الإنسان من قبل البعد الزمنى. كيف تستخدم الزمن للمنجزات بدلا من تأمل مغزى العمل والمنجزات خلال الزمن. وبالطبع يمكن المناقشة بالحجة بأننا نعرف جميعا أن الأفضل أن نفعل ما بوسعنا للاستفادة من الزمن، وهذا هو المناخ الأساسى للسيكولوچيا الثقافية والتى تكونت منها تاريخيا بالتدريج للمفاهيم الوصفية للعلم والعقلانية وقوة الزمن فى العالم الغربى.

إن المنجزات والقوة الدافعة كانت هناك لغرض المواجهة والتأكد وكانت تبدو غير قليلة للتوقف. لاشئ كان بإمكانه أن يحتل الرؤية السائدة لحين بدء التاريخ بالتحول.

٦ – على الجانب الثانى من النهر كانت الرؤية والمفاهيم الشرقية قد تكونت عبر عمليات مختلفة تجرى فى مجتمع كلى.

(أ) عند الاهتمام بدراسة التركيبة الجغرافية التاريخية للأمم والمجتمعات فى الشرق، فى آسيا وحول الصين. فى المنطقة الإسلامية، فى الدول الأفرآسيوية،

سنرى حالا أننا نواجه أقدم المجتمعات المستوطنة والمستقرة وأقدم التشكيلات الاجتماعية والاقتصادية فى تاريخ الجنس البشرى، وهى مجموعة من المجتمعات قامت بالاستيطان حول الأنهار الرئيسية وأمام مداخل المحيطات والبحار، وبذلك تمكنت المجموعات الرعوية من التطور نحو نمط للإنتاج والوجود الاجتماعى الزراعى المستوطن والأكثر ثباتا.

إن المقدمات الموضوعية لتكون أقدم الأمم فى عالمنا أعيد تجميعها بالتدريج فى المناطق الحضارية من خلال إطارين حضاريين للشرق.

حدث هذا الاستقرار عبر خليط مصدر وافر للمياه، ينظم عادة من قبل المجتمعات المائية معتدلة المناخ، وبين منافذ واسعة نحو المحيطات. من الأهمية بمكان أن نستوحى الصلة بين متانة الديمومة الاجتماعية عبر القرون وآلاف السنين وبين هذه المقاسات لئلا نسقط فى التفاسير الروحانية المثالية من النوع الذى أتى به "ماكس فيبر" فى تقديم للنمط المثالى "Cdealtypus".

(ب) وجاء العامل الثانى ذو الأهمية الكبيرة ليؤكد وبعمق أبعاد هذه الاستمرارية فى الديمومة الاجتماعية والتماسك الاجتماعى لنقطة اللقاء المركزية فى الشرق. وهنا يجب علينا أن نضمن التاريخ الجغرافى السياسى فى تحليلاتنا، إن شعوب الشرق عامة كانت تقيم فى تقاطع الطرق بين القارات وتملك مفاتيح شبكة الانتقال التجارى والاقتصادى والبشرى، مواجهة دوائر كبيرة تقطنها مجاميع وثنية غير مستوطنة، رعوية وذات طبيعة قبلية على الأغلب، وبطبيعة الحال فإن هذه المناطق أخذت تنسحب نحو الأقاليم المتميزة الموسرة، حيث عاشت شعوب الشرق وانتعشت.

وهنا بدأ تاريخ الموجات المبتكرة للغزو والنهب والاحتلال، من العصور القديمة إلى الاستعمار والإمبريالية. وحتى عصرنا هذا، تركز بشكل رئيسى على مناطق البحر البيض المتوسط وغرب آسيا والتى وصفت من قبل رجال الچيوبوليتيك فى الفترة بين ١٩١٤ – ١٩١٨ بأنها منطقة الشرق الأوسط. وبالطبع فهذا التسلسل الطويل للصراعات التاريخية له تأثير واحد فقط كونه يشكل تهديدا

لوجود الشعوب الغنية فى الشرق، وبكلمة أخرى يعنى أنه أخذ يقوى ويعمق النزوع نحو الاستمرارية والديمومة الاجتماعية والاتحاد المركزى والوحدة الشعبية لتلك الأمم.

(ج) من هنا جاء أن النسيج التاريخى الموضوعى للشرق نفسه يعظم إلى أقصى الدرجات الزمن، من حيث كونه إطارا أعرض للوجود الوطنى ذاته، ولهذا فإن الزمن بالتدريج أصبح مدخلا لرؤية العالم "Weltanschauung" للشرق.

الزمن، هذا البعد الشامل، صانع التاريخ البشرى نفسه، الجو الذى كان عليه أن يقيم نهضة ثلاثة أديان إضافة إلى التقاليد الفلسفية والصوفية فى آسيا وأفريقيا. وهكذا، فرؤية الزمن كسيد تسمح للقول بتطور الزمن ضمن رؤيا غير تحليلية وكمفهوم متكامل متواصل موحد موحد.. وعليه لن يمكن للمرء فيما بعد أن "يحصل" على الزمن أو لا "يحصل" عليه.. إلخ.

بالواقع.. لا يمكن فهم الزمن بصفته صانع الحياة والوجود وكأنه سلعة.. وعلى العكس من ذلك، فالإنسان قد أخضع وحدد من قبل الزمن. إن وجوده وفهمه لوجوده فى العالم كانا يمران عبر الزمن بتصور توفيقى بين المعتقدات، أو تعميمى للمفاهيم والمعتقدات. وقد أصبح الزمن فى وقت قصير رؤية موحدة من وجهة نظر الشرق، وهكذا يبدو أكثر من أى وقت آخر كنسيج رقيق للفروق الحضارية بين نماذج الأفكار والأعمال عبر العالم على جانبى نهرنا الاعتيادى.. ولكن أين نذهب من هنا؟!

– ٤ –

عناصر من أجل تحديد الإستراتيجية

إن الرؤية والتصور الشرقيين للزمن يقودان مباشرة نحو جدلية الزمن.

(أ) ما إن وجدت أولوية الزمن حتى تبين أنه لا بد من التفكير باحتمال وجود طريق آخر للإنسان لمعالجة البعد الزمنى ما عدا قبوله بهيمنة الزمن المطلقة والتى تعتبر إطارا تشكيليا حاسما للحياة والعمل الإنسانى. وقد استتبع ذلك أنه

ليس هناك من سبيل لرفض منح الزمن الموضوعي. الزمن ذى الأمد التاريخى، الأولوية على الزمن الذاتى، الزمن ذى الحس الفردى أو زمن الإنسان. ولهذا فمن الممكن جعل الزمن عاملا إيجابيا فى حالة ممارسة لعبة الزمن أى "بتحرير الزمن". وبكلمة أخرى أن تصبح الحرية ضرورة مفهومة، ويمكن اعتبار ذلك لحظة سلبية وعنصرا أساسيا فى جدلية الزمن.

(ب) وتتمثل الإيجابية ونفى النفى فى إمكانية أمم الشرق فى عبور الزمن اعتمادا على إمكانياتها ومصادر ثروتها. كما تم شرحه سابقا لتجد قدرتها على التمايز الذى بدونه لا يكون لها أى أمل فى النجاة لمدة طويلة من التهميش والهيمنة الغربية.

لقد وصلنا الآن إلى مستوى الفعل ووسائل وسبل العمل. بكلمة أخرى إلى عالم السياسة.

يهدف التصور الذى نريد أن نقدمه هنا باختصار إلى تمكين أمم الشرق من البدء بالفعل بعد عملية التمايز الضرورية، ذلك إذا كانوا يريدون أن يخاطبوا أنفسهم لأجل تطوير مشروع حضارتهم الخاصة، وللتعاون بطريقة هادفة مع الشعوب الأخرى وحضاراتها وثقافتها فى العالم المقبل.

تعنى أولوية السياسى: primacy of the Political هنا وجوب دراسة المشاكل التالية:

(أ) هناك أولا مستويان من العمل الوطنى هما:

(١) القطاع المكيف خارجيا من المؤسسة الوطنية. ونؤكد هنا أننا لا نعنى "بالجزء الخارجى المكيف" تلك المجاميع والقطاعات التى لها اتصال عضوى بالعالم الغربى المتواجد فى الأمم الشرقية أو تمثل مصالحه ومراكز قواه "الكومبورادور". ما نعنيه هنا هو تلك المجموعات والقطاعات فى المؤسسة الوطنية والتى تكون عرفيا أو بحكم المهنة والظروف مشبعة الأفكار بالمساهمات والإشكاليات الداخلية والمواصفات التاريخية وحدود المشاكل والمنجزات والطرق المسدودة للتقاليد الثقافية والرئيسية فى الغرب.

(٢) المؤسسة الوطنية المكيفة داخليا. هذا هو الجزء المهم على مستوى اتخاذ القرارات بمقدار ما يمثله من العوائل والمجموعات الروحية المثابرة في الشعب.

ومن المهم هنا أيضا أن نذكر أن هذا الجزء لا يمثل القطاع القديم ذا النظرة الرجعية في الواقع وكما ظهر مكررا عبر القرنين الماضيين وأكثر وبطريقة معاصرة لأهمية إعادة بناء الوجود الوطني وصولا إلى مجابهة التحديات المتصاعدة والصراعات والتوتر الموجه مباشرة من قبل هيمنة العالم الغربي.

(ب) المجال الرئيسي الثاني هو الدولة بصفتها عامل توحيد وتكييف. ونعني بهذا أهمية تقويم تغير الدولة في وقتنا هذا والتي تلعب أكثر فأكثر دور المنظمة والهيكل المنظم للسلطة لأي مجتمع حديث. إن يكن ذلك الدور يمثل هيمنة الجبهة السياسية من ناحية القوة بطبيعة الحال وهذا متماثل في جميع أنواع الدول، ولكنه قد يكون أكثر وضوحا في الدول الآسيوية والأفريقية وأمريكا اللاتينية.

ولهذا يقترح أهمية إجراء إعادة نظر لغرض التمكن من الاستفادة من القوى الكامنة والتي تنبثق إلى الأمام في طريقة جدلية معقدة.

(ج) ما هو وما يمكن أن يكون دور كل قطاع من هذه القطاعات في المؤسسة الوطنية؟

١ - دور القطاع المكيف خارجيا في المؤسسة الوطنية هو العمل قبل كل شيء كجسر بين أمم الشرق والغرب. وبقدر ما يجب أن يكون هذا الجسر قادرا على تزويد المؤسسة الوطنية ككل برؤية متنوعة لوقع تأثير "impact" العالم الخارجي يجب أن يعمل كوسيط يوصل بين المؤسسات المكيفة داخليا من جهة والعالم الغربي من جهة أخرى في الوقت نفسه. ومع هذا فهذا القطاع ليس ولا يمكن أن يكون القطاع التكويني في اتخاذ القرارات على المستوى الوطني.

إن الدور المركزى سيكون هو دور القطاع المكيف داخليا فى المؤسسة الوطنية. ويمكن معرفة دوره التاريخى بأنه الانتقاع من جدلية الزمن لأجل تطوير المشروع الحضارى.

وتعريف الإسترلتيجية الحضارية من وجهة نظر فصلها عن معالجة مشكلة المستقبل، ومن الموقف الغربى من المشكلة، مع الأخذ بنظر الاعتبار الطرق المسدودة والوضع المتأزم من جهة وإمكانيات ودلائل المستقبل فى الشرق من جهة ثانية.

٢ - لذلك سوف يركز القطاع المتكيف داخليا فى المؤسسة الوطنية على ما يلى من الحقول:

السلطة والثقافة.

شكل الإنتاج والاستهلاك.

الحفاظ على الطاقات والقدرات الوطنية.

إن هذه النواة ستأخذ بالاعتبار التعريف العلمى لخصوصية الثقافة الوطنية كما حددت خلال مجرى تطور وتكون الأمة موضوع البحث. وبعد ذلك فقط سيمكن لهذه المجموعة المشكلة أن تجابه مشكلة القوة والثقافة والاستهلاك والإنتاج والانتفاع بالإمكانيات.. إلخ، ومن الانتفاع من الماضى لأجل المستقبل بحيث لا يكون هامشيا بشكل قاطع، والذى سيدفع إلى المقدمة صفوفا عريضة من الإبداع الفكرى للأغلبية الكبيرة من سكان الأمة الموحدة كما يظهر فى الحالات المثلى فى الجبهة الوطنية المتحدة للتحرر والديمقراطية والتقدم الاجتماعى. إن دور المركز فى القوة السياسية - أى الدولة - سيكون هنا حاسما. ولكن الدولة لكى تلعب هذا الدور الحاسم يجب أن تكون بالتحديد شيئا مختلفا عن الاستعمالات العقلانية للإكراه من أجل الحفاظ على أى نظام اجتماعى معين. على الدولة أن تؤكد أولوية السياسة والفكر. أى أهمية التفكير والعمل للصالح العام لعموم المجتمع من أجل صنع المستقبل فى مفهوم الإيجابية التاريخية.

هذا هو بالضبط موقع ودور الفلسفة في المدينة. فمنذ عصر النهضة الأوروبية، ومنذ نهاية الإمبراطورية الإسلامية وأفول الصين في نهاية القرن الرابع عشر إلى بداية القرن السادس عشر، آن للفلسفة أن تلعب دورها المركزى فى صقل العقول وبث الحماس وتنظيم عمل كل من النخبة القائدة والجماهير الواسعة من السكان فى كل واحد ووقت واحد. إن الأمر الذى يحتمل النقاش ليس العلم السياسى ولكنه أهمية الفلسفة السياسية فى المدينة وفى مجالى الدولة المركزية والمستويات الشعبية. وهكذا فإن الرؤية الشرقية للزمن المحددة هنا يمكن أن تبرهن على كونها الأداة المركزية التى يستطيع بها الشرق مواجهة مشاكله فى التنمية مستقبلا فى مفهوم الرياضة ومفهوم التطور الهادف. ويجب أن يتحقق ذلك فى الوقت الملائم أى قبل تأثيرات التهديدات المضادة المحتومة للعالم الغربى والخطط الشاملة للهجوم المضاد التى هى الآن فى أوج انتشارها بعد عام ١٩٧٣، والتى أصبحت فى الوقت الحاضر أكثر حدة وتسللا باتجاه تصفية النهضة فى الشرق.

فى الخلاصة يمكن للمرء أن يتساءل: لماذا يكون ذلك تطورا سياسيا فى تاريخ العالم؟

يجب علينا هنا أن نعزو الشعور بالأزمة فى الحضارة الغربية كما فى الآمال المتصاعدة فى الشرق لأجل أن نعرف لماذا وكيف يجب أن تكون آمال مستقبل الجنس البشرى فى عالمنا هذا، وكيف يمكن أن يعالج من خلال التأثيرات المتبادلة الهادفة بين الحضارات والثقافات الشرقية والغربية. ومع ذلك فمن المهم رؤية كون هذا التأثير المتبادل الهادف لا يعمل فى الفراغ أو فى عالم أسطورى، ولكن فى عالمنا الحقيقى، فى عالم الصراعات والتوتر والتنافس. فى عصر إعادة تشكيل أنماط القوى فى العالم منذ عام ١٩٧٣. هذا هو السبب فى ضرورة دراسة هذا التأثير المتبادل بصفة عملية جدلية كما فى المفهوم الجدلى للحضارة بدلا من الحوار. وتفهم هذه الجدليات على أن هدفها وتسقها هما الأمل فى تحقيق تأثير متبادل هادف متصارع عدائى بين جانبى نهرنا المشترك.

إذا رغب الشرق فى أن يكون سيد مصيره، كان لزاما عليه أن يتمثـــل المثـــل القائل فى مجال الفنون العسكرية فى اليابان:

"لا تنس أن الذى يعرف الجديد والقديم من الأمور هو الذى يمكـــن أن يكـــون قائدا بحق".

اتجاهات فى المراجع

هذا البحث المقتضب وضع فى ١٩٧٧ – لكنه خلاصة لتاريخ. ذلك أنــه بــدأ على صورة مخطوط لكتاب فى فلسفة التاريخ وضعناه بالعربية أصلا، فى القاهرة، فى أوائل عام ١٩٥٥ تحت عنوان "جدلية الزمان" فى نحو ٢٣٠ صفحة مخطوطة.

جاءت أيام الظلام، فى أبى زعبل، من أبريل ١٩٥٥ إلى مــايو ١٩٥٦، بــين باندونج والسويس، وكانت استفزازات لها تاريخ آخر – وفى إطارها ومن خلالهــا تم تدمير المخطوط، وضياع الكتاب الأعز نهائيا.

ومرت السنوات ومعانيه فى القلب والعقل والوجدان تتعمق وتتأكد وتصــقلها التجارب.

من هذه المسيرة إذن لكتاب مفقود – فيه رؤية الشباب، قيام الثــورة، نبــرات التصوف الفلسفى نبعث هذه الصفحات القلائل، بها خلاصة لبعض معــانى كتابنــا الأول، والأعز.

ربما لنا إليه عودة، بإذن الله

(٢٠)

وجهة تحرك الفكر الاشتراكى

رغم أن المفكرين السياسيين قد بدأوا يدركون الآن فقط كيف تحول العالم بعد يالتا، إلا أن التحول قد أصاب جوهر صراع السلطة الفعلى على المستويات العالمية والإقليمية والوطنية. ومن هنا كانت هذه المحاولة التمهيدية للنفاذ من خلال الستار الدخانى الأيديولوچى للوصول إلى طبيعة العلاقة بين السلطة والثقافة، بين الفكر والعمل فى العملية التاريخية التى تتكشف اليوم.

١ -

إن ملحمة القرن الأول من الفكر الاشتراكى المعاصر.. هذا الفكر الاشتراكى الذى تطور فى القرن التاسع عشر، ثم فى أوائل القرن العشرين فى أوروبا يكشف عن النمط التالى:

١ - ١

لقد كانت أعمال ماركس وإنجلز وخصوصا جميع كتابات ماركس والتى تعد أهم إضافة أساسية للفكر الاشتراكى، تعنى أساسا بتحليل الجدليات الاجتماعية للرأسمالية المعاصرة فى مراحلها الأولى الصناعية.

ولقد كان أهم إنجاز حققته هذه الأعمال الرئيسية هو النفاذ إلى أعماق عالم النظرية السياسية والاجتماعية التى عرفت فيما بعد باسم "الاشتراكية العلمية". ومع ذلك فقد حققت هذه الأعمال هذا الإنجاز استنادا إلى منهج التحليل المقارن والنقدى لمجموعة محدودة من التكوينات الاقتصادية الاجتماعية التى كانت تقع معظمها فى أوروبا الغربية ذاتها (خصوصا ألمانيا وإنجلترا وفرنسا).

ولقد رؤى أن فهم أهم مجموعة من الدول المتقدمة اقتصاديا والتى تحكمت فى دفة الهيمنة الغربية فيما بين مؤتمر ڤينا (١٨١٥) ومؤتمر يالتا (١٩٤٥) سوف

يكون الخطوة الأولى على طريق فهم غيرها من المجتمعات، وذلك طالما اعتمد تحليل الجدليات الاجتماعية على أسس مادية وموضوعية مما يجعله يكتسب وضع العلوم الصالحة للتطبيق عالميا.

وفى استطاعتنا أن نتبين الخصائص التالية فى إطار هذا الاتجاه الأولى والأساسى:

١ - ١ (أ)

أولا وأساسا نجد أن مفهوم التطوير النظرى على أساس تحليل قطاعى محدود قد تم تجميعه فى إطار العلوم العامة الخاصة بالتحول الاشتراكى للإنسانية. وفى هذا المضمار فإن حاملى إرث الماركسية كانوا يحملون معهم مشعل الإنسانية والعالمية للبرجوازية إلى مرحلة جديدة أعلى فى تاريخ البشرية. وباختصار فإن فقده كان حريا بالطبقة العاملة فى أوروبا والغرب أن تنجز هذه المهمة التى لم تكتمل والتى كانت البرجوازية الوطنية فى أوروبا قد تصدت لها بالفعل خلال عصر الثورات الديمقراطية البرجوازية.. عصر التنوير Aufklarung والموسوعية. لقد كان العالم فى ذلك الوقت عالما واحدا ينظر إليه من خلال المعايير التى حددها المركز المهيمن. بحيث أن ما كان مفيدا للمركز كان مفيدا بالضرورة للأطراف. ومن هنا تعد الاشتراكية مرحلة أكثر تطورا من مراحل الحصر فى إطار المركز الغربى.

لقد كان ذلك هو روح العصر. ولم يكن فى استطاعة أى مفكر أيا كان مستوى نبوغه أن يتجنب هذا الموقع الذى فرض على الإشكالية.

١ - ١ (ب)

وفى خلال مرحلة الانتقال من المثالية الفلسفية إلى المادية اتجه الاهتمام الأكبر إلى مستوى الإنتاج الاقتصادى والتطور التكنولوجى المصاحب له أكثر من اتجاهه إلى مستوى السلطة السياسية الرسمية ومفاهيمها الأخلاقية. وهذا هو مغزى التحول مما يسمى الآن "بكتابات ماركس الصغير" (المعالجة الإنسانية الأخلاقية)

إلى المعالجة الاقتصادية فى رأس المال Das Kapital. وفى الوقت نفسه فقد اهتمت كتابات ماركس السياسية التى اختصت أساسا بفرنسا ما بعد نابليون بالارتباط بين العوامل الاقتصادية الاجتماعية وصراع السلطة السياسى. وفى الواقع فقد كان ذلك أمرا لا مفر منه أيضا، ذلك لأن مشكلة السلطة الاجتماعية لم تكن قد طرحت مطلقا فى أوروبا حتى ثورة أكتوبر عام ١٩١٧ فى روسيا. ولذلك كان من الطبيعى أن يركز انتشار الفكر الاشتراكى على العمل على انعكاس التوازن والتحول من المفهوم المثالى إلى المفهوم المادى.

١ - ١ (ج)

هذا العامل الأخير يفسر لماذا استمر جو الشعبية اليوتوبية كما فى الطروحات التى تناولت ما يسمى "ذبول الدولة" والدور التاريخى للبروليتاريا الغربية، والدعوة إلى الوحدة الحتمية للعملاء الأجراء فى وجه الرأسمالية العالمية والرؤية "المسيحية" للمجتمع الإنسانى الذى يحقق المساواة، والذى سوف ينشأ بعد الاستيلاء على السلطة وتغيير النظام الاجتماعى الاقتصادى.

وفى حقيقة الأمر فإنه لم يكن من الممكن أن تسير الأمور عكس ذلك. ولابد لنا أن نعى جيدا التأثيرات الملحة للأيديولوجيات الاشتراكية غير الماركسية وخصوصا يوتوبيا فوريير Fourier والتأثير القوى للاتجاه الفوضوى الذى تزعمه باكونين Bakunin إلى جانب التأثير الأكثر واقعية المتعدد الجوانب لسانت سيمون.

ويمثل هذا الاتجاه الأساس الأول لكل من النظرية السياسية والاجتماعية للتحول العظيم وفلسفته المثالية إلى المادية قبل عصر الثورة الاجتماعية والتغلب على سلطة الدولة.

ومع ذلك علينا أن نتوقف هنا لننظر إلى جذور فكر فريدريك إنجلز التى لم تأخذ حقها فى التقييم حتى الآن وذلك لأنها تحتوى على بذور المرحلة اللينينية الثانية للنظرية الاشتراكية: الاهتمام بسلطة الدولة وأهمية العلم والتكنولوجيا

والقوات المسلحة والانتباه إلى البعد الثقافى القومى للتكوين الاقتصادى والاجتماعى ككل، وأخيرا الأهمية الحيوية للنشاط الجنسى.

١ - ٢

تدور المرحلة الثانية لهذه الفترة التاريخية الأولى حول الانتقال من الفكر إلى العمل ومن النظرية إلى الممارسة ومن الاشتراكية العملية إلى الاستحواذ على السلطة وخلق أول دولة اشتراكية فى التاريخ.

كانت هذه إذن الفترة العظيمة للينينية ولبلورة الأيديولوچية الشيوعية فى الوقت نفسه.

وفى غضون ذلك، أى فيما بين إصدار البيان الشيوعى وكتابات أكتوبر، طرأت على العالم المادى تغييرات هائلة شاملة. ورغم أن أوروبا كانت لا تزال تستحوذ على أكبر قسط من الاهتمام إلا أن القطاع الآخر من العالم الغربى.. الولايات المتحدة الأمريكية.. كان قد بدأ يصبح مركز السلطة العالمية كما برهن تدخله فى حرب ١٩١٧ والثورة البلشفية. وكانت الأراضى المستعمرة التابعة حتى ذلك الوقت تشتعل بحركات الاستقلال والتحرر القومى والوحدة الوطنية والمقاومة الثقافية والثورة الراديكالية، خصوصا فى الإطار الحضارى للشرق (آسيا حول الصين، العالم الإسلامى حول قلبه العربى).

وفى قلب الرأسمالية الأوروبية كانت قطاعات ضخمة من الطبقة العاملة قد بدأت تحتشد حول الديمقراطية الاشتراكية، فى الوقت نفسه الذى بدأت فيه شرائح اجتماعية أساسية من البرجوازية الصغيرة والمتوسطة تظهر بشكل أكثر وضوحا نزعتها لتأييد ومساندة الديكتاتورية المسلحة لرأس المال الاحتكارى الذى تخفى تحت عباءة الفاشية والنازية.

وباختصار فإن استيلاء البلشفية على السلطة فيما كان يعتبر آنذاك أضعف حلقة فى السلسلة الرأسمالية الغربية كان واحدا من سلسلة تحولات طرأت على المسرح السياسى العالمى فى إطار اختلف تماما عن ذلك الإطار الذى عاش فيه

مؤسسو الاشتراكية الأوائل. ومن هنا يمكن تمييز الملامح الرئيسية للفكر الاشتراكى كما صاغه لينين ومعاصروه:

١ – ٢ (أ)

هناك تحول واضح من المعالجة الاقتصادية التى ركزت عليها طروحات لينين الأولية إلى المعالجة السياسية السلطوية المباشرة التى اتسم بها فكره بمجرد أن واجهته المشكلة الحقيقية وهى مشكلة الاستحواذ على السلطة فى الدولة الاشتراكية الأولى، والتى كان يعد لينين فيها شخصية خلاقة بارزة.

ورغم أن العناصر اليوتوبية والشعبية ظلت باقية، إلا أن الانتباه تحول إلى مجال آخر.. مجال تحليل دور العنف فى التاريخ على أساس نظرية الدولة والحزب والسلطة.

١ – ٢ (ب)

كانت حقيقة السلطة تعنى الاستمرار على تأكيد أولوية السياسة. وبما أن "السياسة هى فن الممكن" فقد أصبح واضحا على الفور أن الاشتراكية إذا قدر لها أن تستمر وتحيا فلابد أن تعنى بالدولة التى استحوذت فيها على السلطة أولا.

لقد كان الشعار الأساسى للدولة البلشفية "الاشتراكية فى دولة واحدة" يعنى أن الوقت قد حان لتأكيد على أولوية المشكلات المتعلقة بالجدليات الاجتماعية داخل إطار كل دولة – أمة. ومنذ طرح هذه الإشكالية وحتى عودة ظهور القضية القومية كان الطريق مفتوحا أمام تطورات حاسمة ذلك لأن القضية القومية لم تكن تخص فقط جوهر وجود الاتحاد السوفيتى – رغم أن ذلك بالطبع كان أمرا حيويا – بل كان لها أيضا تأثيراتها المباشرة على السياسة الدولية التى ستتبعها أول دولة اشتراكية إزاء موجة الحركات الوطنية التى هبت بقوة ضد الإمبريالية والرأسمالية على نطاق العالم أجمع.

ومن هنا تأتى أهمية النظرية الاشتراكية بالنسبة للقضايا الوطنية والاستعمارية كما بلورها لينين ومن بعده ستالين إلى حد كبير.

ولم يكن الأمر يتعلق "بقضية القوميات" (أى مشكلة الأقليات العرقية فى جنوبى وجنوب شرقى أوروبا) ولكنه كان يتعلق بالمسألة القومية والاستعمارية التى كانت تعد الإطار العالمى الملموس الذى تتشكل فيه مشكلات الفكر والعمل الاشتراكى.

١ - ٢ (ج)

أما مسألة أولوية السياسة فقد كانت تعنى أن الفكر الاشتراكى ينبغى أن يعنى "بفن الممكن" أكثر من أى وقت مضى. وأنه لما له مغزى فعلا أن كافة كتابات لينين السياسية والإستراتيجية اهتمت باستئصال نفوذ الفوضوية والعالمية (الكوزموبوليتانية) التى تتنكر فى ثوب الدولية من فكر وممارسات الحزب البلشفى والدولية الثالثة التى كانت قد تكونت حديثا.

ولذلك فقد رفضت الشيوعية اليسارية على أنها فوضى طفولية وسحقت محاولات التمرد ضد الدولة الاشتراكية على أنها ثورة مضادة (الثورة هى النظام) وتم التخلى مؤقتا عن الأراضى الواقعة عند أطراف الاتحاد السوفيتى من أجل حماية قلب منظمة الاشتراكية.

١ - ٢ (د)

وكان على الدولة الاشتراكية الأولى أن تواجه أكثر من أى وقت مضى العالم الواقعى.. مشكلات العلاقات الدولية وتوازن القوة بين الدول والتحالفات المتصارعة والحفاظ على القاعدة والعمل على انتشارها.. كانت تلك هى التحديات التى تواجه أول دولة اشتراكية وليدة.

ولذلك فإن النظرية اللينينية حول الإمبريالية وتحديد السياسة الدولية السوفيتية وإستراتيجية وتكتيك الكومينترن وعلاقته بحركات التحرر الوطنى فى الشرق وأخيرا تحديد الجبهة الوطنية فى مواجهة الفاشية وتشكيل الجبهة الوطنية المتحدة فى مواجهة الإمبريالية.. كانت كلها مراحل مهمة فى الانتقال من التصور الأيديولوجى للفكر الاشتراكى إلى العرض السياسى لهذا الفكر والذى يعد القضية الأساسية فى هذا الفصل.

١ – ٣

بدأ التصادم بين التوجهات الأساسية فى الفكر الاشتراكى من ناحية وبين الاتجاهات الفوضوية والكوزموبوليتانية العنيفة من ناحية أخرى حول مسألة كرونستادت Kronstadt وبريست ليتوفسك Brest-Litovsk فى عام ١٩١٨ ثم فى مؤتمر شعوب الشرق فى باكو عام ١٩٢٠.

وكان ميدان المعركة هو مجال "الاشتراكية فى دولة واحدة" وكانت النتيجة المباشرة لهذه المعركة هى حل الجناح التروتسكى سواء فى الحزب الشيوعى السوفيتى أو فى الكومينترن، وهو الجناح الذى عرف بعد ذلك بأنه حامل لواء الصهيونية اليسارية فى حركة الدولية الاشتراكية.

وهكذا شهدت الفترة ما بين ١٩١٧ – ١٩٢٧ تلك السنوات العشر القصيرة القلقة – الانتقال المتبلور تماما من الاشتراكية العلمية إلى الفكر الاشتراكى فى ممارسته كما أوضحنا هنا باختصار. غير أن التطورات اللاحقة أثبتت أنها أكثر ضخامة.

٢ –

لقد تحددت المساحة المختارة لإحداث التحول فى الفكر الاشتراكى من خلال التحول فى العالم الواقعى ذاته.. أى بواسطة الجدل بين الطرق القومية المؤدية إلى الاشتراكية من جهة والتداخل بين الوحدات المختلفة للحركات الدولية من جهة أخرى، ذلك لأن كلتيهما قد تحركتا للاستجابة لمتغيرات التوازن فى القوة العالمية التى كانت نتاج الإمبريالية.

وفى استطاعتنا تحديد المراحل الجدلية للموقف القومى حول مسألة الاشتراكية فى إطار صراع السلطة العالمى كالآتى:

طالب التيار الأول والأساسى بالدولية. فأدى أولا إلى تعزيز وتقوية الدولة الثالثة، ثم أدى بعد ذلك إلى تحجرها فى وقت تصاعد الصراعات القومية المتنوعة التى بدأت تدريجيا تطرح أطيافا متباينة ومتنوعة من الخصوصيات القومية. وقد

كانت هذه الفترة هى التى أدت إلى المطالبة "بالدولية الذاتية".. وقت أن كان بورودان Boradin يسعى إلى احتواء الثورة الصينية، فى حين كان زملاؤه الصهاينة فى فلسطين يسعون إلى التأكيد على سيادة رؤيتهم وهيمنتها على الأحزاب الشيوعية فى الدول العربية خصوصا فى مصر.

وهكذا استبدلت بهدوء مبادئ صراع الطبقات بأطروحة الجبهة الوحدوية فى مواجهة الفاشية، مما أضاف وزنا للإستراتيجية العظيمة للجبهة القومية داخل كل دولة كجزء من الصراع العالمى ضد الفاشية.

٢ – ٢

عند هذه النقطة بدأت تسمع رؤيتان أقل شيوعا وإن كانتا أكثر أهمية. ومنذ البدايات الأولى كانت شعوب الشرق قد بدأت تشعر بالقلق وهى فى رحى الكومنترن المنحصر والمتمركز غربيا، خصوصا قبل حل الجهاز التروتسكى الصهيونى.

ولقد كان مؤتمر شعوب الشرق الذى عقد فى باكو فى عام ١٩٢٠ مثلا واضحا على هذا الموقف إزاء الحصر النمطى Reductionism والعالمية "الكوزموبوليتانية". وأظهر رواد الشيوعية الوطنية فى الشرق.. سلطان جاليف، وتان ملاكا، م. ب. روى، وهوشى منه والذين لحقهم بعد ذلك ماوتسى تونج و. س. بى. ايديت.. أظهروا بوضوح فى طروحاتهم انعكاس التحول العالمى.. حيث كانت الأداة الأساسية للثورة الاشتراكية العالمية هى ممارسات شعوب الشرق التى تناضل ضد الإمبريالية. ولذلك فقد أعطت طروحاتهم الأولية لحركات التحرر الوطنى لشعوب الشرق، والتى اعتقدوا أنها تنطوى على أهمية أكثر من تلك التى تتمتع بها حركة الطبقة العاملة العالمية. وفى هذه المحرمات التى ظهرت فى العشرينيات يجد المرء الجذور الأيديولوجية والسياسية لفكر ماوتسى تونج وأسباب اتساقها ومبررات المعالجة الشيوعية القومية المتزايدة للفكر والممارسة الاشتراكية فى آسيا والعالم العربى وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

ومع ذلك فقد ذهبت هذه الأصوات أدراج الرياح ورفض الرواد الأساسيون وتعرضوا للقمع ومحاولات التهميش والتسطيح. وكان المناخ لا يزال ملبدا بالمسلمات الغربية التى أضافت إلى قوتها قوة الدور الذى اضطلعت به الفاشية الأوروبية فى ذلك الوقت.

٢ - ٣

ومع ذلك فقد بدأت طروحات الوسطية التعددية الاشتراكية تدريجيا وتحت تأثير مجموعة مختارة من القادة الأوروبيين التفوا حول توجلياتى تلقى اهتماما إن لم تكن قد وجدت قبولا.

وقد احتاج الأمر حرب ١٩٣٩ - ١٩٤٥، وخصوصا الحرب اليوجوسلافية البطولية التى تزعمها تيتو من أجل التحرير حتى تكتسب التعددية الاشتراكية مصداقية فى الدوائر الاشتراكية الغربية وذلك على الرغم من ضراوة المعارضة من جانب الحرس القديم.

٢ - ٤

وفى الوقت نفسه فإنه لم يعد فى الإمكان تجاهل الأثر الثورى لحركات التحرر الوطنى لشعوب الشرق. ولقد برهن تأسيس جمهورية الصين الشعبية فى أول أكتوبر ١٩٤٩ بعد ثورة ممتدة وبعد المسيرة الطويلة على أنه كان نقطة تحول بالنسبة للعالم أجمع. حيث اتحدت حركة التحرر الوطنى أكثر من أى وقت مضى مع الثورة الاشتراكية خصوصا فى آسيا، فى حين بدأ طريق ثالث وطنى راديكالي يتبلور فى مصر الناصرية وفى الجزائر وفى كوبا المنشقة، ليرسم بذلك طريق الرومانسية الثورية فى العالم الغربى.

وفى واقع الأمر فسرعان ما اعترف ستالين نفسه بهذا التحول عندما حل الدولية الثالثة فى عام ١٩٤٣ الذى استبدل بالكومينفورم. ومع ذلك فقد كان الوقت قد حان لأن تفهم هذه المشكلة بأسلوب جديد تماما، ذلك لأنه لم يكن أمام القوى الاشتراكية التقدمية من وسيلة لأداء دورها المنوط بها فى عملية التحول التاريخية

الشاملة فى المسرح الدولى، سوى إحداث التحول فى مجتمعاتها كل فى إطاره الوطنى الخاص وبأسلوب جذرى له مغزى.

ولذلك فإن القوى الشعبية كان فى استطاعتها بوضوح أن تؤدى وظيفتها الدولية على أحسن وجه فى إطار فريد من الوطنية الراديكالية. هذا هو مغزى ومضمون ما نقترح تسميته بـ "الدولية الموضوعية" فى الستينيات. وإنه لمن المثير للاهتمام حقا أن نرى كيف أن العديد من الأحزاب الشيوعية الأوروبية الغربية الرائدة (خصوصا فى إسبانيا وإيطاليا) بدأت تتحرك الآن تجاه هذه الرؤية إلى جانب الأحزاب الشيوعية القومية فى كل من الهند واليابان وغيرهما.

إن هذا العرض التاريخى الموجز لا يتفق إلا فى القليل جدا مع الصورة التى تقدمها عادة المراكز الرئيسية لنشر الثقافة الاشتراكية والجدلية فى الغرب.

وهذا يقودنا بالتالى إلى ما يمكن أن يكون بداية فريدة لدراسة انتشار الفكر الاشتراكى.

٣ –

٣ – ١

إذا سلمنا بأن الحركة الواقعية للتاريخ تؤيد هذه المقدمات، فإنه سوف يكون من الحكمة أن نتوقع تطورا موازيا فى مجال الفكر الاشتراكى. أى التبلور الوطنى للفكر الاشتراكى النقدى التاريخى والجدلى التاريخى المرتبط مباشرة بالتحولات فى المجتمعات العقلية فى العالم الواقعى وفى وقتنا المعاصر.

إن ما يطرح الآن على أنه نظرية "ماركسية" يسير فى جزء كبير منه فى اتجاه مختلف. ولذلك فإنه من الممكن وصف طابعه الحقيقى بأنه انتشار مضاد وهجوم أيديولوچى مضاد يستهدف وقف تقدم اندماج الفكر والعمل، النظرية والتطبيق فى عالمنا الواقعى كما يمكن إدراكه من خلال سرد سريع لاتجاهاته الرئيسية.

٣ – ١ (أ)

كان الاتجاه الرئيسى أو التوجه الشامل لهذا الانتشار المضاد يتمثل فى إنكار الهجوم ضد الموقع القومى لإشكالية الاشتراكية. وباتخاذ هذا الموقف كان فى استطاعة رواد اليسار الجديد أن يعتمدوا على تقاليد المرحلة الأولية للفكر الشعبى الإنسانى الماركسى، وخصوصا على ترسانة التروتسكية العالمية التى حلت واستؤصلت جذورها بواسطة تضامن لينين وستالين فى الهجوم عليها خلال الدولة الثالثة وبواسطة التأثير القوى للثورة الصينية التى توافقت فى انتشار الشيوعية القومية فى الدول الاشتراكية الجديدة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

وفى كل ما نشر حول هذه النقطة المهمة نستطيع أن نجد الاهتمام بكافة الطروحات التى ارتبطت باسم روزا لوكسمبرج وتروتسكى.

٣ – ١ (ب)

أما الاتجاه الرئيسى الثانى فهو يتمثل فى رفضه الموقف السياسى حول السلطة الاشتراكية. ولم يكن ينظر إلى الدولة فقط باعتبارها أداة مؤقتة لا مفر منها وعائقا فى الوقت نفسه، ولكن على أنها العدو الأساسى للتقدم الاشتراكى. وكان عليها أن تتحمل وطأة الهجوم الذى شاع ضد "البيروقراطية"، و"الجهاز" و"القمع" و"المركزية"... الخ.

وهنا كان التأثير العالمى الأساسى للتروتسكية مصاحبا للتقليد الفوضوى لكل من باكونين وناروندنيكس.

٣ – ١ (ج)

يؤدى التأثير المشترك للاتجاهين السابق ذكرهما إلى تجريد الاشتراكية بشكل شامل من أهليتها عدا بعض الاستثناءات القليلة والمؤقتة. وبالتالى فقد أدين الاتحاد السوفيتى على أنه بيروقراطى ومحافظ، وأدينت الصين بسبب النزعة السوفيتية التى تحركها نغمات عنصرية، وأدينت الدول الاشتراكية الأوروبية على أنها دول بيروقراطية تابعة. فى حين اعتبرت يوجوسلافيا ورومانيا دولا انتهازية يمينية أو

يسارية، وكوريا دولة عقائدية، وكمبوديا على أنها شاذة غريبة، وفيتنام بعد الانتصار على أنها محافظة، وكوبا على أنها تابع بيروقراطى فى مرحلة الانهيار الرومانسى. وتصبح هذه القائمة أكثر حقدا عندما تتناول الدول التى فضلت طريق الاشتراكية، وهى لا تزال بعد فى فترة الانتقال الصعبة مثل أنجولا ومصر الناصرية وموزمبيق وبيرو والهند وسيرلانكا ولاوس.

ولنسأل أنفسنا بعد ذلك.. ماذا تبقى من الاشتراكية؟!

إذا تعرضت كل دولة لهذه المعاملة فإنه لا يتبقى سوى ملاذ وحيد هو "اليسار الجديد" المدافعين عن المنهج الماركسى الجديد وحاملى لواءه والرد المنطقى الاشتراكى الذى يمثل طهارة دوجماتية أخلاقية.

٣ – ٢

أما السؤال الوحيد الذى أثير والذى وجد إجابة واضحة هو:

كيف حدث أن أصبح مثل هذا الموقف يسيطر على النتاج الأيديولوجى الذى يستعرض عضلاته فى الدول الرأسمالية الغربية تحت لواء "الماركسية"؟

لقد حدث تطور أساسى ذو أهمية حيوية، ومع ذلك فقد مر دون انتباه كاف له، وهو ذلك الانتقاد الصحيح لعبادة الشخصية فى الاتحاد السوفيتى ولجوانب النظام السياسى بصفة عامة فى أول دولة اشتراكية فى التاريخ.. تلك الجوانب التى ظهرت فى المرحلة الأخيرة من نشاطات ستالين. ولقد كان هذا الانتقاد الذى لم يتطرق إلى موقف الهيمنة الذى اتخذه الحزب الشيوعى السوفيتى تجاه الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الأخرى حتى ظهور الماوية فى الصين تطورا مهما فى فترة ما بعد يالتا. لقد مكن الخط الستالينى الجهاز الصهيونى التروتسكى العالمى من نشر سمومه واستغلال الاستياء العام فى الحركة الشيوعية العالمية فى العديد من الدول التى أغلق فيها الطريق نحو الاشتراكية نتيجة الاستقطاب العالمى ابتداء من الحرب الباردة إلى الوفاق من خلال التعايش السلمى.

وفى الوقت الذى كان يتم فيه تحديد بناء النظرية الاشتراكية، نفسها (انظر الجزء الرابع) كان الحقل الأيديولوجى قد ترك مفتوحا أمام انبعاث العالمية. وفى

الوقت نفسه تعرضت المساهمة الجدلية للمفكرين فى الدول الاشتراكية بالإضافة إلى زملائهم فى الأحزاب الاشتراكية الرئيسية إلى الرفض والتشهير والظلم المنظم، أو باختصار إلى الإهمال والانحدار إلى زوايا النسيان. وأصبحت "الماركسية" حرفة، تماما كما حدث "للثورة". وفى الوقت نفسه أدت أيديولوچية الثورة إلى العديد من المهن اللامعة ذات العائد الوفير. وهنا وهناك ساعدت روح المغامرة على زعزعة استقرار النظم الشعبية ثم تدميرها. لقد كانت هى ذات العملية ولكن فى ثوب جديد.

ومع ذلك فلم يكن هناك إلا القليل الذى يمكن عمله عند هذه النقطة بكبح انطلاقة الفكر الاشتراكى.

٤ –

إننا نعتزم هنا أن نؤكد على ضرورة سد الفجوة بين التحولات العالمية – الهائلة فى مداها وفى نوعيتها – من جهة، وبين النظرية السياسية الاشتراكية والنظرية الاشتراكية من جهة أخرى. ولهذا السبب فإننا سوف نتحول الآن إلى محاولة حصر التوجهات الأساسية لهذه الانطلاقة المتزايدة التى هى فى النهاية تعد اهتمامنا والتزامنا الأساسى.

٤ – ١

عند هذه النقطة لابد أن يتطور الفكر الاشتراكى من خلال وضع جذور إشكاليته فى ذات الأرضية التى تبنى عليها الاشتراكية اليوم أو التى ينظر إليها من خلالها وليس فى عالم اليوتوبيا الأثيرى. (سوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد).

وهذا يعنى أن الفكر الاشتراكى يمكنه أن يتطور فقط على أساس موقف قومى بالنسبة للإشكالية وليس على أساس أى رؤية عالمية مسبقة تتخذ قناع الدولية.

إن ذلك لا يعد فى الواقع موقفا أيديولوچيا، ولكنه موقف سياسى حول إشكالية التبلور التنظيرى. إن الفارق بين القوتين الاشتراكيتين العظميين فى عصرنا هذا لم يكن نتاج الاختلاف فى أشكال الإنتاج. كما أنه لم يكن نتاج أى اختلاف له معنى

على مستوى البناء الاقتصادى. ولكنه يبدو أنه جاء أساسا نتيجة المزج بين عاملين أساسيين: بين الخصوصية التاريخية والقومية لكل من الصين والاتحاد السوفيتى من جهة والإستراتيجية السياسية فى دائرتى الجدليات الاجتماعية – الداخلية والخارجية – من جهة أخرى. هذا المثال الوحيد يمكن زيادته من خلال الدراسة المتمحصة للعالم الواقعى من حولنا: كان الوحى الأساسى للثورة الفيتنامية هو لقول هوشى منه المأثور "من أجل الخلاص الوطنى". أما فى كوبا فقد رسم القول بـ "الوطن أو الموت" المسار نفسه، وقد صدق ذلك حتما – ولا يزال يصدق – على كل دولة اشتراكية. وتأكدت مرارا أولوية فرض الموقف الوطنى على مشكلة الاشتراكية بأساليب وطرق عديدة، حى لو لم تكن واضحة بالقدر نفسه فى معظم الدول الاشتراكية فى أوروبا الشرقية باستثناء يوجوسلافيا.

ماذا نعنى تحديدا بالموقف الوطنى من إشكالية الفكر والعمل الاشتراكى؟

٤ – ١ (أ)

يعنى هذا الموقف الوطنى من إشكالية الاشتراكية فى المقام الأول أنه من الناحيتين السياسية والفكرية ينبغى أن تكون حقول التطوير الأساسى فى مجموعتين مؤتلفتين من التحليل: تحليل دقيق موضوعى ومفصل للمجتمع القومى المعنى على أساس التعريف الموضوعى لنمط خصوصيته المميز. ودراسة نقدية مقارنة لمجموعة مختارة من المجتمعات على أساس ثلاثة عوامل رئيسية: القوالب الحضارية، المجالات الثقافية، والأمم وهى العوامل التى يتشكل منها إطار أية دراسة مقارنة حقيقية.

٤ – ١ (جـ)

ويتبع ذلك بشكل موضوعى ألا تعتبر بعد ذلك تفسيرات النصوص الكلاسيكية للاشتراكية القاعدة الأساسية لتكوير الفكر الاشتراكى. فأية دراسة نقدية لهذه النصوص ينبغى أن تتم بالفروح الآتية: (أ) الكتابات المقبولة سواء كانت كتابات تقليدية أو غير تقليدية والتى ينبغى تناولها على أنها نتاج فكرى لمجموعة معينة فى

لإطار مجتمعات حقيقية وفى فترة زمنية محددة فى تاريخ البشرية وليس على أنها نصوص مباحة قابلة للتعليق. (أ) لا يزال من الأمور الأكثر أهمية أن نسعى لفهم الإطار المرجعى الثقافى القومى. فكتابات صن تزو Sun Tsu ليست أقل أهمية بالنسبة لفكر ماوتسى تونج والثورة الصينية من كتابات الموسوعيين من أجل فهم فكر سانت سيمون وبرودون وأتباعهم. كذلك فإن كتابات نجوين تراى Nguyen Trai تنطوى على ذات القدر من الأهمية فى محاولة فهم صناعة الاشتراكية الفيتنامية فى ظل قيادة هوشى منه، تماما كما كانت المبادئ الفلسفية الألمانية تمثل بالنسبة للفكر الفلسفى لكل من ماركس وإنجلز. ونفس الشئ يمكن قوله – وإن كان بمزيد من التأكيد – بالنسبة لتلك الأمم والمساحات الثقافية التى ورثت تقاليد تاريخية ممتدة، خصوصا فى دول الشرق. وإنه لمن العبث فعلا أن نحاول أن نفهم الماوية دون دراسة عميقة لتاريخ الفلسفة والحضارة الصينية، وطبيعة الشيوعية القومية والناصرية فى مصر دون دراسة تكوين الدولة والتماسك القومى فى مصر على مدى أكثر من ٧٠ قرنا. وبالتالى فإن أية دراسة مماثلة لفارس والهند وتركيا وكمبوديا والقارة الأفريقية وأمريكا اللاتينية سوف تكشف عن ثراء ضخم فى الموارد الداخلية القادرة على إثارة الإبداع الفكرى لدى المفكرين الاشتراكيين.

والنقطة الأساسية هنا هى أن هذا الثراء من الأفكار والفكر والتجربة لا ينبغى النظر إليه من زاوية استشراقية أو على أنه العامل المكون الخارجى للاشتراكية العلمية العالمية. ذلك لأنه باستطاعته أن يوفر (وإن كان ليس وحده) فكرا وعملا اشتراكيا ذات مؤهلات قومية وشرعية تاريخية – وكلاهما لا غنى عنه إذا اهتما بقضية السلطة فى دولهم.

هذه هى الرؤية التى تبناها رواد المفكرين الاشتراكيين فى الشرق، ومع ذلك فإنه حتى اليوم يعانى هؤلاء المفكرين من التجاهل والإهمال من جانب الخط الأساسى للفكر الاشتراكى العالمى.

٤ – ١ (ب)

أما الجانب الآخر فهو الحاجة إلى أن نتذكر أن أية قيادة اشتراكية تعمل فى بيئة ثقافية قومية مختلفة تكون عرضة لقيود وحدود يفرضها الشكل الجغرافي..

والسياسة الخارجية لا تتشكل أساسا وفقا للأيديولوجية ولكن وفقا لمصالح الدولة فى كل أمة أو مجموعة من الأمم.

إن الواقعية السياسية Real politik ليست شرا يختص به العدو ولكن هناك ومن الممكن أن توجد أنواع عديدة من الواقعية السياسية الاشتراكية.

٤ – ٢

وكما أن الفكر الاشتراكى يضرب بجذوره فى التربة القومية المتنوعة للجدليات الاشتراكية، فإنه خليق به أن يلبى احتياجات البناء العميق للتكوينات القومية والخصوصية التاريخية لكل مجتمع.

وهكذا فإن مشكلة الثقافة كما تطورت على مر التاريخ لابد أن تطرح نفسها فورا وتلقائيا.

ومع ذلك فسوف نترك الآن المشكلات المتعلقة بالخصوصية ذلك لأن الشئ المهم هنا واليوم هو أن نسعى إلى فهم ما نعنيه بالتحديد بالبعد الثقافى للفكر الاشتراكى فى مرحلة صياغته.

٤ – ٢ (أ)

عندما نقول الثقافة فإننا لا نعنى "التوجه الثقافى" Culturalism. كما أن الموقف الأساسى حول إشكالية الجدليات يظل قائما حيث لا يوجد أى مجال فى أى وقت من أجل معالجة على النمط المثالى العالمى.

٤ – ٢ (ب)

إن التحولات التى طرأت على عالمنا الواقعى – خصوصا انبعاث الشرق والقارات الثلاث بشكل أشمل – كانت تعنى أن العمليات المتباينة العاملة فى المجتمعات غير الغربية قد تكشفت. ولا يرجع ذلك فقط إلى وجود شخصيات واعدة تتمتع بتفكير محلى، ولكن أكثر من ذلك وأساسا لأن هذه الشخصيات قد اتبعت أساليب تاريخية متباينة للتطور الإنسانى والاجتماعى والفكرى. لقد تركزت

الاختلافات والتباينات الرئيسية حول الجوهر الذى تلتقى عنده السلطة والثقافة سعيا من أجل الاستمرارية الاجتماعية وإحداث التغيير والتحول والثورة الاشـتراكية. إن الاشتراكية الأوروبية، أى الماركسية بوصفها الوريث الشرعى للفكـر الاشـتراكى والبرجوازية المنتصرة افترضت على سبيل المثال أن الماوية الفلسفية يمكن الأخـذ بها على أنها الموقف العلمى الصالح عالميا إلى حد أنها ساهمت فى إزالة الموقـف الأيديولوچى حول الإقطاعية أو الأيديولوچية الفلسفية الروحانية المثالية للمسـيحية. وقد كان مفترضا أيضا أن الثورة الصناعية والتقدم على طريق الاشتراكية سـوف يعنى "نهاية الفلسفة". ولكن عند صياغة هذا الموقف يعترض وجود أحداث التاريخ الأخرى ببساطة تامة ولمرة ثانية للنسيان والحزب والإهمال. وفى الصين وأجـزاء كبيرة من آسيا لم يكن الدين على سبيل المثـال عـاملا أساسـيا إلا فـى شـكله كأيديولوچية قومية. (الصينية على سبيل المثال).

أما فى أراضى الإسلام من جهة أخرى فقد اتخذ الدين شـكل الإطـار العـام للتقاليد الثقافية القومية يحمى بانتصار الهوية القومية ضد هيمنة الغرب وغـزوات الإمبريالية، وفى الوقت نفسه كان الدين بالطبع أيديولوچية خصوصية مثل غيـره من الديانات. وهناك مشكلات أخرى أكثر تعقيدا فى شبه الصحراء الإفريقية وفـى أمريكا اللاتينية حيث شاهدنا الشعبية المسيحية. ولذلك فإنه يبدو أن التحليل النقـدى المقارن لدور الفلسفة والدين من مختلف الحضارات والثقافات أمـر لا مفـر منـه بهدف إدراك أن الموقف الذى اتخذ من هذه المشكلة فى الثقافة التاريخية الأوروبية الغربية لم يكن هو نفسه الذى اتخذ فى أجزاء أخرى من العالم. مما يؤدى بالتـالى إلى وضع نهاية للتحريمات والتبسيطات وعدم القدرة السخيفة على الفهـم وإنـارة الطريق تجاه "حل التاريخى" بين التراث الفكرى والثقـافى القـومى والروحـانى الحقيقى فى الأمم والمناطق فى مختلف أنحاء العالم. وهو الحل الوسـط الـذى لا يزال حتى اليوم غريبا تماما عن عادات الفكر الماركسى الغربى.

٤ – ٢ (ج)

ويبدو من الملائم عند هذه النقطة أن ننظر إلى الصلة بين الخطوط المختلفـة للفكر الاشتراكى فى كل من الشرق والغرب. ولقد أشرنا بالفعل إلى سلطان علـى

(جالييف) ورفاقه، وليس هناك من يحتاج أن نـذكره بالأهميـة التاريخيـة لفكـر ماوتسى تونج. ومع ذلك فقليل جدا من الاشتراكيين هم الذين لاحظوا التشابه بـين فكر جرامشى وفكر ماو.

فقد كانت الإشكالية الأساسية عند جرامشى متعلقة بالأسلوب الذى يمكن مـن خلاله تحقيق الاشتراكية فى إيطاليا ما بعد ريزوريجمنتو وهو ما كان يعنى أساسـا الاعتراف بأن الاشتراكية ليس فى وسعها أن تستحوذ على الأولوية من خلال حمل ومواصلة المهمة التى لم تكتمل للتوحيد الثقافى القومى فى إيطاليا. ومن هنا جـاء ظهور الماركسية الإيطالية فى إطار ثقافى ودورها الرائد فـى الحركـة الإقليميـة وانتقالها من التعددية المركزية إلى "الحل الوسط التاريخى". ولم يعد مـن الممكـن بعد ذلك النظر إلى كتلة السلطة التاريخية بلغة الحرب الأهلية الثانوية لأن المستقبل لا يمكن رسمه وتحديده إلا من خلال توحيد المفكرين العضويين فى التراث الثقافى القومى الأساس فى هذا البلد. ومنذ عام ١٩٤٠ كان هذا هو الطريق المرسوم أمـام الحركة الشيوعية المصرية تحت قيادة زعيمها المؤسس شهدى عطية الشافعى مما أدى إلى ظهور مفهوم الجبهة الوطنية المتحدة وإلـى الإسـتراتيجية الأساسـية – للحركة التقدمية العربية تحت زعامة جمال عبد الناصر.

٤ – ٣

وهنا نعود مرة أخرى إلى المنطقة الأساسية للسلطة السياسـية. ولـيس مـن الضرورى أن نستطرد الحديث عن التعزيزات الشاملة لسلطة الدولة ودور الجـيش فى السياسية المعاصرة. وعلى عكس ما تقدمه اليوتوبيا الشعبية فإن الثورة الهائلـة فى العلوم والتكنولوجيا وتطبيقاتها فى الصناعة والتسـليح وقـدوم الإلكترونيـات والعلوم الذرية إلى جانب وسائل الإعلام.. كل ذلك عهد إلى الدولة بوظيفة مختلفـة تماما فى استخدام القوة اليوم. ومع ذلك فإن الجوهر لا يزال هو الاستخدام الرشـيد للعنف من أجل الحفاظ على النظام الاجتماعى. وإن كانت العلاقة الميكانيكية بـين أشكال الإنتاج والتمثيلات الطبقية وسلطة الدولة قد أفضت إلى مجموعـات أكثـر تعقيدا من العلاقات. إن الدولة مستمرة فى القيام بدورها التقليدى فى كـل مكـان،

فى الوقت الذى تتحمل فيه وظائف ثقافية واقتصادية متزايدة. وهو ما يعنى فى واقع الأمر أن الدولة قد أصبحت أكثر من أى وقت مضى طبقة سياسية تؤدى وظائفها بدرجة أوسع من الاستقلال الذاتى فيما يتعلق بقاعدتها الاقتصادية والاجتماعية.

وفى الوقت نفسه فقد نما دور الجيش بصورة ضخمة على المستويين الداخلى والخارجى كما سوف يتضح للجميع (انظر الجزء ٤ – ٤). ويتبع ذلك أن الفكر الاشتراكى إذا كان له أن يفهم التحولات الحقيقية فى العالم الواقعى فإن عليه أن يعود إلى إشكالية السلطة السياسية من زاويتها الفلسفية والتنظيمية الموضوعية. أما المقالات الأيديولوجية والأخلاقية المطولة حول شرور السلطة – الدولة، والبيروقراطية، والعسكرية، فإنه لابد من النظر إليها باعتبارها نوعا من الملاحقات الصبيانية. فالشر لا يمكن ترويضه إلا من خلال الواقعية الموضوعية. وفى محيط السلطة تتضمن هذه الواقعية الموضوعية إعادة بناء السلطة على أساس فلسفة سياسية أكثر أهلية وأكثر تنوعا.

٤ – ٤

لقد أدت المرحلة الثانية من الثورة الصناعية – التى أطلق عليها خطأ الثورة التكنولوجية والعلمية – جنبا إلى جنب مع انبعاث الشرق فى قلب القارات الثلاث – إلى ظهور صراعات القوة العالمية فى شكل لم يعرف من قبل فى أى مرحلة من مراحل التاريخ الإنسانى. ولذلك أصبحت الظواهر الأساسية للممارسة السياسية فى عصرنا هذا تنحصر فى السيطرة على المحيطات وغزو الكواكب الأخرى واستخدام الطاقة والمواد الخام والغذاء كأسلحة إلى جانب الردع النووى والجيوبوليتيكى. وهو ما يعنى أن دور القوات المسلحة فى الدائرة العالمية الخارجية للجدليات الاجتماعية قد أصبح ينطوى على أهمية قصوى اليوم. إن حقلا مهما وحيويا وجديدا تاما ينفتح اليوم أمام جهود الفكر الاشتراكى ليقدم مجموعة من البدائل صالحة لإنتاج مراكز الأبحاث العسكرية السياسية فى الغرب. وعندما يبدأ المفكرون الاشتراكيون فى ذلك فيسوف يكون عليهم أن ينظروا باهتمام

إلى النظريات الجديدة الخاصة بالحروب الشعبية وحروب التحرر الوطنى والدفاع الشعبى العام الخ.. باعتبارها مكونات أساسية فى عملية إعادة التقييم الشاملة للبعد العسكرى فى السياسية من وجهة النظر الاشتراكية.

٤ - ٥

وقبل كل ذلك ينبغى تضمين بعد البحث الفلسفى. إن الإحساس المتزايد بالأزمة فى المجتمعات الغربية ينظر إليه دائما على أنه أزمة حضارة - السلوكيات والقيم وصورة الإنسان كمشروع حضارى - أكثر منها أزمة فى وظيفية النظام الاقتصادى الرأسمالى الذى أثبت أنه أكثر مرونة فى مواجهة المصاعب مما كان يعتقد. إن التحديات القادمة من الشرق لا تأخذ شكل "مزيد من الإنتاج فى مقابل مزيد من الاستهلاك" على طول الخط الذى حددته الاشتراكية الغربية. بل على العكس فقد ركزت على مفاهيم الثورة الثقافية والنهضة القومية والثقافية. وعلى العموم فإن أفضل طريقة لبحث القضايا المطروحة الآن هى أن يتم ذلك تحت حماية ما سميناه بالمشروع الحضارى وذلك من خلال بلورة إستراتيجية حضارية تتحدد وفقا لخصوصيات ثقافية تاريخية مختلفة ومتباينة.

وفى النهاية فإن القضايا المهمة فى الفكر الاشتراكى ليست الستافانوفيزم أو التنمية، كما أنها ليست التطبيقات الفنية للعلم فى الإنتاج أو اللامركزية الاقتصادية أو ترويض سلطة الدولة والعودة إلى الجذور.

وفيما عدا صراعات السلطة التى تتكشف الآن فى مختلف أرجاء العالم فإن الشئ الأساسى المهدد بالخطر هو المفهوم الجوهرى لملحمتنا الإنسانية، صورة الإنسان، نماذج العلاقات الاجتماعية والإنسانية، العلاقة بين الإنسان وبعد الزمن. باختصار الأشكال المختلفة للحياة الطيبة التى يمكن تطويرها فى عالم يتكون من حضارات وثقافات مختلفة. ولا نعنى بذلك الوسطية التعددية وحدها، ولكننا نعنى التعددية القومية الثقافية التى تعمل من خلال النطاق الواسع للتباينات القومية والفلسفية والسياسية الموجودة فى إطار عملية سياسية ونظرية سوف تتمخض كما نأمل عن مستقبل أكثر إنسانية.

ولذلك ينبغى الآن – إلا إذا كنا مستعدين للمصادرة علــى رســالتنا – إعــادة توجيه الفكر الاشتراكى إلى هذه الغايات والأهداف تاركين الاقتصــاد إلــى أهلــه والعالمية لتودع فى زوايا النسيان. وهذا هو الطريق إلى تأكيد أولوية السياسة فــى عالم الفكر والممارسة الاشتراكية.

١ – "الواقعية السياسية الاشتراكية

فى عملية صياغة العالم الجديد"

١٩٨٥ – عام الذكريات السنوية. وبهذه المناسبة التى تشهد الذكرى العاشــرة لاستهلال مائدتنا المستديرة حول "الاشتراكية فى العالم" فى كافتات، يمكن وينبغــى إثارة ذكرى مناسبات مهمة مثل الذكرى الأربعــين للحــرب العالميــة، الــذكرى الأربعين لإطلاق وأول استخدام للقنبلة الذرية ضد سكان هيروشــيما ونجــازاكى، والذكرى الثلاثين لأول مؤتمر آسيوى – أفريقى فى "بانــدونج" (نيســان/ أبريــل ١٩٥٥)، والذى أدى إلى انبعاث الشرق من جديد وتشكيل حركة "القارات الثلاث"، وانطلاق حركة عدم الانحياز (بلجراد ١٩٦١).

السلم والحرب – زيارة جديدة، أم بالأحرى بناء هيكل عالم جديــد؟ إن هــذا السؤال المتعلق بوضع المشكلة لا علاقة له حقا بالمنهجية. بل إنــه متأصــل فــى رؤيتنا لميزان القوى فى العالم، وكذلك فى تحول العالم فى أيامنا هذه. ومن الأهمية بمكان أن القوى الرئيسية التى شاركت فى تحالف الدول الذى أفضى إلى النصــر عام ١٩٤٥ – ذلك الحلف الذى ضم مجموعة من الدول والقوى المركبــة وغيــر المتكافئة لأقصى حد – قد اختارت التركيز علــى الاحتفــال بالــذكرى الأربعــين للانتصار على ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية والنظام العسكرى اليابانى.

وتكشف الدراسة المقارنة الدقيقة للاحتفالات التى أقيمت والخطب التى ألقيــت بهذه المناسبة، مدى عمق التناقضات القائمة فى صلب مجموعة الدول المنتصــرة. ولقد أثار المعلقون، وهم علــى صــواب فــى ذلــك، التصــوير غيــر المقبــول والكاريكاتيرى فى الواقع، لانتصار القوى المتحالفة عام ١٩٤٥، باعتباره إســهاما

أساسيا للمعدات العسكرية للولايات المتحدة ولاستخدامها الإجرامي ولأول مرة القنبلة الذرية ضد اليابان. كما تبين هذه الدراسة افتقار القيادات السياسية لأوروبا الغربية الأساس لفهم الدور الحيوى، بالمعنى الحرفى، الذى لعبه اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية إبان "الحرب الوطنية العظمى" - وكأن العشرين مليون قتيلا وقرابة الستة والثلاثين مليون جريحا، والتدمير الذى أصاب كل المدن الكبرى والمتوسطة فى الجزء الأوروبى من اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية، والذى لحق بصناعته ووسائل اتصالاته، وعمليات السلب والنهب التى تعرضت لها موارده وإمكانياته البشرية - والتى لا يوازيها إلا المقاومة البطولية ليوغسلافيا ومعاناتها فى حرب التحرير الوطنى التى خاضتها فى القارة الأوروبية - كانت مجرد مادة للإحصائيات، هل من الممكن لاحقا أن تكون الطبقة السياسية - بما فى ذلك الأغلبية الساحقة لليسار فى أوروبا الغربية - قد فشلت فعلا فى فهم أن الواجهات البراقة لعواصمهم ومدنهم الرئيسية التى أعيد بناؤها، وموجة الاستهلاك والملذات التى يتمتعون بها اليوم وبصورة لم يسبق لها مثيل، رغم ما يسمى، الأزمة المزعومة، إنما يرجع الفضل فيها فى المقام الأول إلى الثمن الذى دفعته الدولة الاشتراكية الأولى، فى مواجهتها للخطر المشترك الذى داهم الديمقراطية واجتاح القارة الأوروبية - بعد معاهدة فرساى الجائرة وأن النتائج الاقتصادية التى ترتبت على السلام (الإسهام الأساسى لجون مينارد كينز) أدت إلى خلق الأرضية لانبعاث الفاشية والنازية فى البلدان الرأسمالية التى وقع تهميشها، الأمر الذى أفضى مباشرة إلى الحرب العالمية ١٩٣٩/ ١٩٤٥؟

وكأن.....

وكأن الأمر برمته يكمن حقا فى تصفية الحسابات، مرة أخرى ومجددا، بين البلدان الرئيسية القارية فى العالم الغربى - أوروبا وأمريكا الشمالية - والمقسمة حاليا إلى أنظمة اجتماعية رئيسية، والتى سرعان ما انقسمت فيما بعد إلى التحالفين العسكريين - السياسيين لمنظمة معاهدة شمال الأطلسى (١٩٤٩)، التى لم يكن هنالك مفر من أن يواجهها حلف وارسو (١٩٥٥).

وحيثما كانت عبارة "وكأن....." أكثر وضوحا كان لها فى الحقيقة اليد العليا فى تفسير ما حدث إبان نصف القرن الأخير. من هم المنتصرون الحقيقيون؟ هنا يصبح المشهد أكثر تشوشا، ومع ذلك يبقى من الوضوح بحيث لا يمكن تجاهله. ففى العالم الغربى، نجد أن القوة المهزومة، جمهورية ألمانيا الاتحادية، هى التى تبرز الآن كقوة اقتصادية وصناعية وتكنولوجية كبرى، بازة كل منافسيها، خاصة منذ أن وفرت سياسة الاتجاه نحو الشرق لإمكاناتها الصناعية الكامنة المتضخمة، الأسواق الهائلة الحجم فى كل من الاتحاد السوفيتى وأوروبا الشرقية رغم كل الصعوبات والمواجهات وما إلى ذلك، وفى آسيا أصبحت القوة الرئيسية الثانية المهزومة رغم ضرب هيروشيما ونجازاكى بالقنابل الذرية، والقصف العنيف بالقنابل المحرقة الذى لا هوادة فيه، والذى أدى إلى ما يقرب من الاستئصال الكلى لمنطقة طوكيو وأوزاكا – اليوم ثالث أكبر قوة اقتصادية عالمية. والواقع أنها، بفضل الفاعلية الصارمة للتنظيم المجتمعى بها والمرونة الفريدة للإبداعية الصناعية والتقنيات التسويقية الخاصة بها، أصبحت هى القوة الاقتصادية الأكثر فاعلية فى العالم – والعامل الأهم فى "تعصير" الصين التى تمثل ربع البشرية – وغدت شريكا للدول السريعة التطور فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية فى الغد، وربما تتحول بعد إعادة توحيد كوريا إلى عامل مهم فى فتح سيبيريا.

ولا حجة بنا هنا للتمعن فى الوضع الاجتماعى – الاقتصادى للدول الأوروبية المنتصرة. والواقع، أن أحد الأبعاد المهمة كان يتمثل فى بروز كل من إيطاليا وإسبانيا كعاملين اقتصاديين رئيسيين، رغم أن كلا منهما كان ينتمى، كما حدث ذلك حاصلا فعلا، إلى الجانب المهزوم إبان الحرب العالمية، وهذا سؤال آخر ينبغى على المؤرخين فى وقتنا الحاضر أن يواجهوه.

وفى الآن نفسه، فإن طابع الضخامة الفريد الذى اتسم به الدمار الذى لحق بالاتحاد السوفيتى إبان الحرب، لم يضعف عزمه على أن يصبح كما هو الآن، القوة العسكرية الإستراتيجية الأولى والقوة الاقتصادية الثانية فى العالم، فى حين أن كل الدول الاشتراكية الأوروبية، باستثناء بولندا إلى حين، تعكس صورة من التقدم

الاجتماعي والاقتصادى والثقافى الدينامى الكبير التى لم تشهد هذه الدول مثيلا له فى تاريخها السابق قبل الاشتراكية.

ومع ذلك فإن التحولات الرئيسية تحققت، أولا وقبل كل شئ خارج العالم الغربى، فى القارات الثلاث، آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، وفى آسيا بصورة أساسية حيث يعيش أكثر من ٦٠% من البشر، ففى الصين يعيش ربع سكان الأرض، أدت خمسون عاما فى ثورة التحرر الوطنى التى قادها على التوالى كل من الكومنتانج، ثم وبشكل حاسم الحزب الشيوعى الصينى بقيادة ماوتسى تونج وشوتيه، وشو إن لاى ورفاقهم، إلى وضع نهاية لأربعة قرون من الانحلال منذ أفول أسرة "منج" وقصمت ظهر القوة العسكرية الكلاسيكية لليابان، ونجحت فى وضع حد للفيضانات والأوبئة القاتلة التى كانت تحدث سنويا، ووضع حد لتعاسة فلاحى الصين، مطلقة فى الآن نفسه عملية تصنيع صبورة واسعة النطاق مرتكزة على زراعة تزداد ازدهارا باستمرار، رغم الضرر الكبير الذى أحدثته "الثورة الثقافية" التى تمكن وجهها المعادى للبيروقراطية إلى حين، من حجب طبيعتها الخطرة الموجهة إلى الاستيلاء العنيف على السلطة من أيدى القيادة الشرعية للثورة الصينية، وممثلى الجماهير المسحوقة عبر المسيرة الطويلة للتاريخ الصينى.

ففى عام ١٩٨٤، وهنا أقتبس الأرقام والتحليلات الرسمية كما أوردها البروفسور دونج فورين، بلغ نمو الناتج القومى الإجمالى ١٢% فى حين ارتفعت الإنتاجية الزراعية بمعدل ١٤,٢% – وتجدر مقارنة هذه الأرقام بتلك التى تم تحقيقها فى الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا الغربية مثلا، وهذا مع الأخذ فى الاعتبار أن هذه الأرقام تحققت على نطاق يشمل ربع سكان الأرض. وفى الوقت نفسه، نجحت الهند رغم طبيعتها الشديدة التعقيد ومجموعة المشاكل التى تشكل تحديا لها، فى الحفاظ على وحدتها وديمقراطيتها وبناء اقتصاد قوى وعصرى، وكان هذا بدوره، يستند أيضا إلى فهم واضح للأهمية الحيوية للزراعة، جنبا إلى جنب مع العلم والتكنولوجيا والصناعة المتقدمة مما، يؤمن فى الوقت الحاضر حاجة سكان الهند فى الغذاء لمدة ٥ أو ٦ سنوات قادمة. وسيأتى ذكر أمثلة أخرى

خلال هذا البحث وتكفى هنا كما أعتقد، الإشارة إلى أهم العمليات التى تكشف سترها أمام أعيننا، لتقديم وضع المشكلة، كما نراها، فى مكان ومحل الموقف الفيكتورى الذى ظهر فى بعض الخطب السياسية لبعض منتصرى الأمس.

فى عام ١٩٨٥ عام الاحتفال بالذكريات هذا، فإن وضع المشكلة بالنسبة على الفكر والممارسة الاشتراكيين لابد أن يرى بوضوح على أنه يتعلق بتغيير العالم، وفى نطاق هذا التحول، تحديد خصوصية ومكان المبادرة التاريخية، وفى وقتنا الحاضر وبالنسبة للمستقبل على المدى المتوسط، مما يؤدى إلى فهم الخصوصية الدقيقة لعملية صياغة العالم الجديد، الذى تلعب فيه الاشتراكية – وسوف تلعب – الدور الحاسم، بالأساليب والنماذج التى يجب أن تدرس بواقعية إذا أردنا تقليل الخسائر واختصار المسافة الطويلة وزيادة القدرة على تحقيق أهدافها الحضارية.

٢ – السلطة الاجتماعية: الدولة، الجبهة، والشعب العامل

تتركز مجموعة أولى من المشاكل حول مجال "السلطة الاجتماعية" فى وقتنا الحاضر، فى وقت تحول العالم، وبالأخص ففى وقت صياغة العالم الجديد، وهنا تبدو المفاهيم والصيغ الكلاسيكية فى حاجة حقيقية وملحة لإعادة النظر فيها، وهى التى يعود تاريخها إلى قرابة قرن ونصف قرن مضى من الزمن، سواء فى ذلك تلك التى توجد فى شكل اقتصاد سياسى ونظرية سياسية كلاسيكية أم نقدهما الماركسى.

٢ – ١: إن الفحص الدقيق للأنظمة الاجتماعية والعمليات المجتمعية فى كل أنماط البلدان السائدة فى الوقت الحاضر، يكشف عن اتجاه لم يكن ملحوظا فى الواقع حتى الآن، ألا وهو انبعاث الدولة واعتبارها أهم وأكفأ أداة للسلطة الاجتماعية.

أ) هذا هو الحال فيما يسمى أمم العالم الثالث الجديدة التى تضم إلى جانب بلدان أخرى، أقدم ثلاثة تشكيلات قومية مستمرة عرفتها البشرية – مصر والصين وفارس – جنبا إلى جنب مع مجموعة كبيرة من أقدم الأمم، والتى تبدو أوروبا

إذا ما قورنت بها وافدا جديدا: كوريا واليابان وفيتنام وأثيوبيا والهند وتركيا والمكسيك وبيرو من بين أمم عديدة أخرى. إن مقولة اتباع مدرسة "الاستثنائية" أى مدرسة المنظرين أنصار الاختزال وعلماء المناهج الذين لا يستطيعون إلا أن يروا كل شئ يتعلق بالبلدان المهيمنة، والتى ليست فى المركز إلا بمثابة "استثناء للقاعدة" (قاعدة من؟ ومنذ متى؟ ونحو أى أغراض؟ وإلى متى؟ وحسب معايير من؟ وأى معايير؟ الخ).

وطرح هؤلاء المنظرون - وهم فى غالبيتهم من القطاعات الليبرالية واليسارية من العلوم الاجتماعية بعد الثلاثينيات وخاصة منذ ١٩٤٥ - مقولة أن الدولة كانت بارزة بشكل حتمى فى البلدان حديثة الاستقلال، والتى صنفوها بأسلوبهم الاختزالى المتصف بالازدراء "كأمم جديدة" بقدر ما كانت السلطة المركزية ضرورية للتعامل مع تعقيد التحول من مجتمعات تابعة إلى مجتمعات مستقلة، والذى كان غالبا ما يوصف بأنه عملية تحول من "التقليدية" إلى "العصرية" ويدعى بعملية "التحديث". وعند هذه النقطة ليس هنالك سوى القليل يمكن قوله لدحض هذه المقولة. ومع ذلك قد يكفى ذكر أن الحاجة الحقيقية لدولة قومية مستقلة، جاءت نتيجة مباشرة للتفكيك أو الضعف الذى أصاب فى العمق البؤرة المركزية للسلطة الاجتماعية، وتآكل الإدارة والمشاريع الثقافية - الاجتماعية القومية، والذى طالما رافقه زوال ما كان يمثل من قبل مجموعة ديموغرافية، شكلت قلب الأمم فى القارات الثلاث، وبدء عملية تفاعل فيها معا خليط من الحركات السياسية وعناصر الدولة بطريقة عضوية متداخلة جعلت من عملية الفصل التحليلى فى أيامنا هذه شيئا أقرب من المستحيل. فالعمليات التى تنطلق من حروب التايبية والبوكسرز والأفيون إلى تشكيل جمهورية الصين الشعبية، حركات العصيات المسلح التى قادها العلماء والمماليك فى مصر القرن الثامن عشر والتى أفضت مباشرة إلى ميلاد أول دولة قومية حديثة فى الشرق تحت قيادة محمد على فى عام ١٨٠٥ وفيما بعد إلى الدور البارز للجيش فى الحركة الوطنية والثورات اللاحقة، وانتفاضات جنود السيباى الهنود فى الجيش الإنجليزى بالهند والبناء

التدريجى "للمؤتمر القومى الهندى" الذى أدى إلى بروز مجموعة الدول الموجودة حاليا فى الهند والباكستان وبنجلاديش، والثورات المسلحة التى دامت عقودا من الزمن فى المغرب والجزائر بقيادة عبد الكريم وعبد القادر والتى أدت إلى عودة الملكية الأصلية فى المغرب وانتصار "جبهة التحرير الوطنية" فى الجزائر بعد حرب التحرير المأساوية والبطولية (١٩٥٤ - ١٩٦٢) هى تلك العمليات التى نجد صداها يتردد بدرجات متفاوتة فى الحدة، على المسار نفسه المشار إليه هنا أعلاه فى ڤيتنام والمكسيك وغانا وأثيوبيا والبرازيل وبيرو وإيران - ولا نذكر هنا إلا أكثر الأمثلة وضوحا على ما هو عملية عامة حقا.

ب) هل ينبغى لنا إذن أن نقبل نظرية "الاستثنائية"؟ خاصة عندما تكون متعلقة ببروز القوات المسلحة بصفتها عنصرا أو العنصر المكون الرئيسى المركزى،، فى الحركات الوطنية والدول القومية المنبعثة فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية.

إن إلقاء نظرة على حالة الأوضاع فى أوروبا تكفى لإظهار أننا جميعا فى قارب واحد بالتأكيد. وكما مر ذكره وبيانه تفصيليا، لعبت الجيوش القومية دورا مركزيا فى كل من بناء الهيكل القومى، وبناء هيكل الدولة فى أوروبا، وفى الثورات الديمقراطية والبرجوازية فى هذه القارة.

أما بالنسبة إلى الدور المتنامى للدولة فى أوروبا، فلا يستطيع المرء إلا أن يلاحظ أن معاهدة فرساى أدت مباشرة إلى الأزمة الاقتصادية العالمية فى ١٩٢٩ - ١٩٣٢، ونمو الكينزية بما تتضمنه من تركيز على القطاع العام، ومشروعات الدولة، مما أفضى لفكرة العبقرية للشعوب الخاصة بالأمن الجماعى لفترة بفردج فيما بعد ١٩٤٥، الأمر الذى نجد صداه فى سياسة الإصلاح الاجتماعى التى تشكل اليوم علاقة لكل الدول الأوروبية أيا كان ولاؤها السياسى أو أيديولوجيتها، ومع ذلك فإنه من الصحيح أن دور القوات المسلحة أصبح أقل وضوحا - ونورد المزيد عنه فيما بعد.

ج) فى القطاع الآخر من العالم الغربى، أى فى الولايات المتحدة الأمريكية، نجد أن الانتقال السريع فى مفهوم الاتحاد الفيدرالى للمستوطنين إلى الدولة الاتحادية منذ فترة "روزفلت" حتى فترة رئاسة ريجان المشرفة على الأفول هو حقيقة رئيسية من حقائق المواجهات والتوترات السياسية فى وقتنا الحاضر، ولولا المجمع الصناعى – العسكرى وهيمنة هذه الثورة المركزية للسلطة الاجتماعية على الشئون الأمريكية، لما كان لدينا الآن هذا التكدس النووى العدوانى، الذى بدأته واشنطن وقادته منذ هيروشيما ثم ١٩٤٧ – وهى عملية لم تجعل بأى شكل من الأشكال علماء الاجتماع الأمريكيين يعدلون عن اعتبار قيام الدولة فى مناطق أخرى من العالم "ظاهرة استثنائية"، بوليسية التوجه..

د) فى عالم الاشتراكية، عالم الأنظمة والمجتمعات الاشتراكية الحقيقية، نجد أن التحرك نحو الأهمية المتزايدة للدولة، باعتبارها البؤرة الرئيسية للسلطة الاجتماعية، وصيانتها وتحولها هو الأمر الأكثر وضوحا والذى يستحق الانتباه له، إنها حقيقة أن المجتمعات الاشتراكية قد بدأتها وأوجدتها وقادتها أساسا مجموعة من الكوادر انبعثت من حزب الطبقة العاملة، والشعب العامل، والشعب بما كان عليه، وبدرجات متفاوتة من التمثيل الاجتماعى، واتخذ هذا فى كل حالة وفى جميع الحالات شكل حزب، الحزب الشيوعى أو حزب العمال القائم على النظرية الاشتراكية، أو الماركسية أو الماركسية – اللينينية، أو الماوية أو الإصلاح الأوسع استخداما وهو الاشتراكية العلمية. وإنها لحقيقة أيضا أن هذه الأحزاب لا تمثل "وحدات تحليل وعمل" متطابقة: فالحزب باعتباره "وحدة تحليل" هو حزب، أما الحزب باعتباره "وحدة عمل" فإن له صفة مختلفة جدا للتصرف، ليس فقط حسب قدراته الذاتية، وإنما أيضا، وحتى ربما بدرجة أكثر من ذلك، حسب موقعه النسبى فى المجتمع الأعرض، وقدرة هذا المجتمع على القيام بعمل مجد معتمدا فى ذلك أساسا على كونه أمة أو خليطا من التجمعات السكانية تعيش ضمن حدود دولة قومية.

وعندما نتمعن فى الفاعلية النسبية لهذه الأحزاب الثورية فى مجتمعاتها الاشتراكية عبر مساراتها التاريخية المختلفة، فإننا نرى أن هذه الأحزاب تصل إلى

أقصى مستوى لها من الفاعلية فى الأوقات التى تشـــهد ذروة الأزمـــات القوميـــة والحرية الوطنية وحروب التحرير كما كان الحال مثلا فى الاتحاد السوفيتي ما بين (١٩١٧) و (١٩٢٧)، ثم من (١٩٤١ - ١٩٤٥)، وفى الصين ما بين ١٩١٩ إلـــى (١٩٤٩)، وفى يوغوسلافيا ما بين (١٩٤١ - ١٩٤٥)، وفى فيتنام، وكوبا وكوريا إبان حروب التحرير فيها. ففى تلك الأوقات، ظهر أن الأحزاب الاشتراكية قـــادرة على التصرف حقا باعتبارها البؤرة المركزية للسطة الاجتماعية، واتخاذ القرارات التى كان لها فاعلية سياسية على المستوى القومى، وتمكنت من أن تصبح مقبولـــة باعتبارها التعبير الشرعى والحرفى للضرورات الحيوية لوجود وبقاء مجموعـــات كبيرة من السكان، للغالبية العظمى للسكان بالتأكيد، فى الدول المعنية.

وعندما تم تحقيق السلام بعد تضحيات جسام، فإن أداة الســـلطة نفســـها - أى أحزاب الاشتراكية، ووجهت بدرجات أقل من التوتر والحاجات، رغـــم أن عمليـــة التعمير وعمليات التحول الاجتماعى التى أصبحت أمرا مفروضا بسبب الخســـائر الجسيمة التى نزلت بها خلال فترات التوتر الأقصى، قد تطلبت درجة عالية جـــدا من القدرة التنظيمية. وعلى كل فإنه خلال هذه الفترات أظهرت أحزاب الاشتراكية تراجعا فى قدرتها على الالتزام الجماهيرى المطلوب: والأمثلة الرئيسية على هـــذا الازدياد فى عدم قدرة أحزاب الاشتراكية على لعب الدور الحاسم مركزيا المطلوب فى السلطة الاجتماعية تتمثل فى مصاعب الظاهرة التى أطلق عليها بصورة واسعة اسم "البيروقراطية" بسبب عدم وجود كلمات أفضل؛ والمشاكل المستعصية بصورة واضحة للتخطيط المركزى من خلال الحاجة إلى الاقتصـــاد المتعـــدد القطاعـــات والمركزة، والجدلية بين المركزية والمشـــاركة الشـــعبية المركزيـــة، علـــى فهـــم المسارات المختلفة إلى حد كبير، وخصائص قوى الاشتراكية فى بلدان تختلف عن بعضها البعض اختلافا هائلا من حيث الخلفية الحضارية والثقافية والتاريخية.

ولقد تم رد ذلك لبعض الوقت، إلى عوامل ذاتية مثل نوعية القـــادة فـــرادى، والمسلك التآمرى لمجموعات مختارة داخل القيادات الوطنية، لـــذلك جـــاء الحشـــد المتسرع للأحزاب الشعبية حول الحزب الشيوعى الرئيسى الحاكم، فى العديد مـــن

البلدان الاشتراكية، لسد أوجه النقص التى أصبحت واضحة أكثر من أى وقت مضى فى الحزب الحاكم للاشتراكية.

ومع ذلك، هنالك حدود تفرضها الحقائق الموضوعية للعمليات المجتمعية فى أيامنا الحاضرة، وبشكل خاص تلك التى مر وصفها أعلاه. فرغم كل شئ، كانت الأحزاب الاشتراكية مهيأة أساسا لتولى السلطة من الأحزاب السياسية للطبقات الحاكمة المعارضة، معطية بذلك الأولوية لأساليب التعبئة الجماهيرية، والإثارة والدعاية والفاعلية التنظيمية فى عمليات جماهيرية، وكذلك سرية، فى عالم يراد استبداله، ووضع حد للحيف التاريخى وللظروف غير المتكافئة التى كان مفروضا على أغلبية السكان فى المجتمعات الصناعية، خاصة فى الغرب، أن يعيشوا فى ظلها منذ أيام الثورة الصناعية.

هـ) ماذا بعد ذلك؟

ما بعد ذلك يقف عالم تنظيم تشكيل مجتمعى بأكمله، مجتمع بأكمله، أى أمة، وليس طبقة فحسب من أجل البقاء والتطور، نحو تحقيق تقدم مادى وثقافى وروحى، فى عالم أصبحت تحكمه أكثر من أى وقت مضى أبعاد يكاد يكون الآباء المؤسسون للنظرية الاشتراكية قد أهملوها، ربما أكثر مما تحكمه الرموز الأساسية فى صنع النظرية السياسية والاجتماعية والاقتصادية: البعد القومى، الثقافة والحضارة، علاقات القوة الدولية وعلم السياسة الطبيعية.

وسرعان ما أصبح واضحا أن هيئات سلطة المجتمع الأكثر استقرارا فى المجتمعات الاشتراكية أيضا كانت من نوع جهاز الدولة: الجيش، الخارجية، الأمن الداخلى، التخطيط الاقتصادى، التعليم والثقافة. واتخذ ذلك تدريجيا شكل "لجان حكومية" تجمع بين مختلف الوزارات أطلق عليها اسم "لجنة الدولة" للاقتصاد، والتخطيط، والثقافة، والتعليم، والعلم والتكنولوجيا.. الخ. ومن خلال هذا الانحراف أصبح واضحا أكثر فأكثر أن الدول الاشتراكية الحالية التى تواجه مشاكل شديدة التعقيد فى إدارة المجتمعات الحديثة، وتتنافس مع منافسيها الرأسماليين، وتتعاون مع الدول والقوى المعادية للإمبريالية، مضطرة إلى الاعتماد على الهيئات ذات

الكفاءات العالية، من الأخصائيين العلميين والتكنولوچيين والثقافيين، وتكنـوقراطيى الإدارة، وإن كان ذلك فى نطاق إطار الخط العام الذى يحـدده التوجـه السياسـى للحزب القائد.

ومعنى هذا التطور لمركز جاذبية السلطة الاجتماعية، من الحزب إلى الدولـة هو: أنه ليس علميا أن يتم توجيه العمليات الاجتماعية لمجتمع ما فى شكله العـام، أى كدونة متعددة القوميات، من خلال القيادة السياسية لطبقة واحدة فقط من طبقاته، حتى ولو كانت تشكل فرضا الجزء الرئيسى من السكان – علما بأن الطبقة العاملة فى وقتنا هذا أصبحت أقل اتصافا بهذه الصفة عما كانت عليه منـذ قـرن مضـى بكلمات أخرى: فإنه فقط بقبول تآلف الطبقات والمجموعات الاجتماعية المختلفـة، ناهيك عن مدارس الفكر والعمل التكوينية البديلة الرئيسية، والاتجاهات التكوينيـة التاريخية، للوحدات الأكبر، والذى هو فى الحقيقة "الوحدة الأساسية للتحليل والعمل" – أى الأمة – يصبح ممكنا عند ذلك فقط توجيه مثل هذه التوليفة الكبيرة نحو تنفيذ سياسة المشاريع الاشتراكية التقدمية – الديمقراطية، الاستقلالية، القومية فى تنوعها الهائل من حيث النماذج والقوالب والأشكال.

٢ – ٢: وقد أدى ذلك التطور الكبير – وهو فى الحقيقة التطور الرئيسى فـى هذه السلطة الاجتماعية فى هذا القرن – وهو كذلك بشـكل خـاص منـذ تكـوين مجموعة الدول الاشتراكية، مباشرة، إلى نتيجة ثانية لا تقل أهمية.

أ) خلال عملية الإدارة الفعلية للمجتمعات المعقدة الحديثة لم تعد مقولة "الطبقة" التى لازالت تحتفظ بأهميتها للتحليل والعمـل، تعتبـر الشـكل الأساسـى، أو الأداة الأساسية للسلطة الاجتماعية. ويمكن رؤية ذلك بوضوح فى الانتقال من مفهوم "البروليتاريا"، إلى المفهوم الأوسع، "للطبقة العاملة"، التى تشمل كلا من الطبقـة العاملة الصناعية (التى توصف تحديدا بكلمة بروليتاريا) والمجموعات العاملـة الأعراض التى تنتمى إلى الفلاحين والقطاع الثالث، وكذلك الإدارات والمصالح الإدارية والعسكرية والجيش، وهى عملية قادت فى النهاية إلى توسـيع مفهـوم "الشعب العامل" الذى قدمناه فى "كافتات" فى ١٩٧٨ – ١٩٨٠، والذى أخذ يحتل

مكانه تدريجيا بين المفردات المشتركة بين كل من العلماء الاشتراكيين والاجتماعيين المهتمين بالمجتمعات المعقدة الحديثة وبإشكالية السلطة الاجتماعية على حد سواء.

ب) وحتى بهذا، فإن الشعب العامل لا يكفى وحده، كما هو ظاهر بوضوح بالممارسة الفعلية، على إدارة العملية بكليتها. وهذا هو السبب وراء تنامى أهمية مفهوم "الجبهة"، مفهوم الجبهوية التى تشمل مجموعة من التشكيلات الاجتماعية أعرض من الطبقة المحددة التى يفترض أن تقوم بمهمة تاريخية. هذا هو معنى ظهور هذه العمليات المهمة مثل "الجبهة المتحدة" ضد الفاشية والنازية فى أوروبا، "والجبهة الوطنية المتحدة" ضد قوى الإمبريالية والرجعية المحلية والكمبرادور فى مناطق شاسعة فى آسيا وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، كما الحال فى المثال الساطع الذى ضربته فى الصين، وفى حالة مختلفة كليا مثل مصر فى عام ١٩٤٦ وتأثيرها على الثورات والحركات التحررية فى الجزائر، والعالم العربى، بأكمله وأجزاء كبيرة من أفريقيا. وهذا هو أيضا فى أوروبا فى المحل. معنى ودلالة الحل الوسط التاريخى أو "المهادنة التاريخية" الذى طرحه أنريكو بيرلنجوير ورفاقه فى إيطاليا. لأنه فقط بجمع مدارس الفكر والعمل التكوينية البديلة الرئيسية فى أمة ما، والممثلين الحقيقيين لمصالحها الأساسية الطويلة الأمد، تستطيع قيادة ما مهتمة بالرشد وتجنب نشوب حرب أهلية، وفى وقت تتصاعد فيه التوترات الدولية فى ظل التهديد النووى، أن تأمل فى اختصار الطريق نحو دولة ديمقراطية تستطيع فيها جماهير الشعب العامل أن تعمل بالتعاون مع الطبقات الوسطى والعناصر الوطنية المكونة للنسيج الاجتماعى، على تحقيق مشروع قومى يضم مكونا إصلاحيا اجتماعيا متقدما، والذى سوف يدعم موضوعيا أساس الاشتراكية الآن – دون أن ينفى فى الآن نفسه بأى شكل من الأشكال وأى وقت من الأوقات، المصالح المشروعة والمشاركة البناءة للقوى الاجتماعية الأخرى. إن عملية جدلية فى منتهى الدهاء تتم فى صميم الجدلية الاجتماعية تهدف إلى نقل مركز جاذبية السلطة

الاجتماعية بصورة متواصلة من قوى عين المركز المحافظة إلى القوى الشعبية الأكثر راديكالية النشطة فى جناحه التقدمى. ولا يتم هذا بحكم أنها "تقدمية"، ولكن لما تتمتع به أساسا من مقدرة على تشكيل السياسات القومية الطويلة الأمد التى تبدو على نحو واضح مجدية وعقلانية لغالبية السكان.

وهنا مرة أخرى، مرة أخرى فقط، تحل السياسة الواقعية بصور تدريجية وحاسمة محل مذهب الأيديولوچية الذاتية.

٢ – ٣ وهناك تطور رئيسى ثالث فى ميدان السلطة الاجتماعية يتعلق بميدان الديموقراطية.

أ) حتى جيل مضى كان من المألوف تصنيف الديمقراطية باعتبارها وهما مزعوما، بالتفريق أساسا بين نوعى الديمقراطية وهما "الديمقراطية الشكلية" كنقيض "للديموقراطية الشعبية". وهذا التفريق يظل مفيدا ولا شك ويكتسب درجة مهمة من الصحة. ولقد قام هذا على الافتراض الأيديولوچى بأن الديمقراطية فى البلدان الرأسمالية قد فهمت، وما كان لها إلا أن تفهم فى الحقيقة، على أنها الليبرالية. وبدلا من فهم الديمقراطية حرفيا على أنها سلطة الشعب، فقد تخيل المنظرون والمحللون التقدميون أن الطبيعة المقيدة للديمقراطية فى البلدان الرأسمالية لا يمكن أن تعنى إلا التعددية السياسية، واللعبة الانتخابية، فى حين يتم الاحتفاظ بالسلطة الاجتماعية من قبل جهاز دولة يكون بصورة كلية فى يد الطبقة أو مجموعة الطبقات الحاكمة، باعتبارها الأداة المباشرة لتحقيق مصالحهم وهيمنتهم.

ومن خلال بروز الإصلاحية الاجتماعية بعد الأزمة الاقتصادية العالمية الكبرى وحرب (١٩٣٩ – ١٩٤٥) – والتى لعبت فيها أول دولة اشتراكية وهى الاتحاد السوفيتى دورا حاسما، تبين تدريجيا أن هناك فى الديمقراطية الموجودة فى العديد من البلدان الرأسمالية المتقدمة وذات الثقافة العالية، ما هو أكثر من مجرد اللعبة الانتخابية لليبرالية.

ب) سرعان ما احتل عنصر السلطة فى الديمقراطية موقع الصدارة، وخاصة بعد عودة الجنرال ديجول للسلطة، وإقامة الجمهورية الخامسة، والتى سرعان ما أصبحت نموذجا لأنظمة رأسمالية أكثر أوتوقراطية، تم فيها توسيع المتغربين الأساسيين للإصلاحية الاجتماعية والحريات العامة، مقابل تضاؤل متزايد فى دور الأحزاب السياسية والمؤسسات البرلمانية النيابية. وقدم نهوض اليابان فى مركز السياسة العالمية، نموذجا رئيسيا لم يكن معروفا حتى الآن لدى الفكر الاجتماعى الغربى، استطاع به تنظيم "مجتمعى" أقرب إلى الإقطاعية العسكرية منه إلى الشكل الحديث للرأسمالية الليبرالية، أن يقدم أعلى درجة معروفة من التماسك الاجتماعى والقومى، ويضع فكر الدولة ومبادرتها فى صميم نهوضها الشديد الأهمية، ويعطى القطاع الخاص هامشا للنشاط والمبادرة الخلاقة والديناميات الخارجية التى لم يعرفها تاريخ الرأسمالية، دون أن يكون فى ذلك اعتداء بأى شكل من الأشكال على المظاهر الرسمية للديمقراطية، بل إنه فى الحقيقة يوسع، بشكل لم يعرف من قبل فى التاريخ اليابانى، الحريات الفردية والعامة، بطريقة توفر أساسا مؤسسيا ودستوريا للإجماع اليابانى الشهير فى الرأى.

ج) وهكذا لم يعد ممكنا بعد تصور الديمقراطية على أنها "شكلية" بطريقة أحادية الجانب. إذ يمكن أن تكون كذلك، بل هى كذلك، فى غالبية الحالات السائدة فى الدول الرأسمالية. ومع ذلك، فإن تحليل خصوصية الأنظمة الديمقراطية السائدة فى الدول الرأسمالية الصناعية المتقدمة الرئيسية، والسائدة أيضا فى الدول المتوسطة والإقليمية الرئيسية، يمكن أن يبين بل هو يبين بالتأكيد أننا ندخل الآن مرحلة يبرز فيها العديد من الأشكال الانتقالية، ومرة أخرى تحت شعار جبهات، يمكن أن تفتح الطريق نحو نمط من الديمقراطية يتصف بقدر أكبر من مشاركة، فى حالات محددة مختارة، الشعب فى السلطة وسط الطبقات الأعرض التى تلتف حول البرامج التى وضعت للمستقبل من خلال الحل الوسط التاريخى.

لقد أكدنا على الدائرة الداخلية للجدلية الاجتماعية، أى السلطة الاجتماعية فى المجتمعات الحديثة، الموجهة نحو السياسات التقدمية التى تفضى إلى الاشتراكية،

كما تبدو على أنها المكان المركزى حيث يجب أن تحتل السياسة الواقعية الأسبقية فى التفكير وصياغة السياسة على حد سواء، على الذاتية والنزعة الأيديولوچية وأحلام اليقظة.

٣ - انبعاث السياسات الجغرافية الطبيعية

عرفت الدائرة الخارجية للجدلية الاجتماعية، دائرة العلاقات الدولية، وعلاقات الدولة الدولية، والسياسة العالمية، عملية إحياء كانت محل ترحيب، ويرجع ذلك أساسا إلى الحاجة إلى وضع نقد جذرى لما يسمى بـ "العلم السياسى" كما يقول المتخصصون الأمريكيون، ومحاولة اختزال مشاكل السلطة الاجتماعية إلى مجرد سياسات انتخابية، وتعددية، ومفهوم فردانى للفلسفى القانونية، وفى الحقيقة الاستقراء الدولى للفردانية الاستثنائية المصحوبة فى أغلب الأحيان بنهج ازدرائى تجاه "باقى أنحاء العالم" والبشر الذين لا ينتمون إلى أرض الميعاد.

ومع ذلك، بقى الموقع المركزى للسياسة العالمية على حاله ولم تمسسه هذه الخطوة المتجددة، وكان المفهوم من عبارة السياسة الجغرافية الطبيعية أن تصبح عبارة قذرة، وكثيرا ما كان الاشتراكيون يقدمون على مساواتها بشرور الإمبريالية، ناهيك عن الفاشية والنازية. ألم يكن كل المتنافسين الرئيسيين على السلطة والتفوق العالمى طلابا حاذقين فى دراسة السياسة الجغرافية؟ ألم تكن السياسة الجغرافية ميدان الدراسة المفضل لقوى العدوان؟

ومن ثم، استبعدت السياسة الجغرافية من جانب أناس مثل ريتشارد واجنر والأفغانى، ومؤخرا يوكيو ميشيما.

وتسود فى داخل الدول والمجتمعات الاشتراكية الحقيقية، أوضاع مختلفة، بقدر ما كان يتحتم على القيادات الاشتراكية أن تتصارع مع حقائق الحياة الدولية. وأخذ المثقفون الماركسيون فى المحيط الخارجى للسلطة الاشتراكية الحقيقية فى التراجع إلى الخلف تدريجيا: ففى فيتنام قيل إن الجنرال "فو نجوينى جياب" كان الاستراتيچى العسكرى الرئيسى فى الحرب الفيتنامية، ولم يكن أمام المؤرخين

العسكريين فى العالم إلا أن يمجدوا، بإجماع متزايد، مواهب قادة هم علـــى جانـــب كبير من الاختلاف مثل ستالين. وتيتو، وقبل كل هؤلاء ماوتسى تونج. بل وكـــان هنالك ما هو أكثر من ذلك والذى جاء كصدمة: إذ ظهر أمر أثار الرعب فى نفوس العديد من المثقفين، وهو أن ذرى أكثر العقول تعقيدا فى قيادات السلطة فى البلدان الاشتراكية قد تشكلت داخل إطار الأكاديميات العســكرية العليـــا. وبـــدأت تبـــرز الأسماء، وكذلك مطبوعات: فقد تم اكتشاف أن "صن تزو" كان هو ملهم ماوتســـى تونج ورفاقه فى قيادة المسيرة الطويلة، وأن الأدميرال جورشكوف الذى جعل مـــن الأسطول الأحمر السوفيتى أقوى أداة عسكرية بحرية فى وقتنا هذا منـــذ أن تـــولى قيادته بعد ١٩٤٥، كان فى الوقت ذاته عقلا موسوعيا من مستوى شخصيات كـــان الناس يعتقدون أنها اختفت منذ زمن مثل كارنو وكلوزفتس ورروميل، ولكـــن كـــان أكثر فاعلية إلى حد كبير بمقدار ما استطاع الجمـــع بـــين المعطيـــات المشـــتركة للتغيرات التكنولوجية العلمية والسياسية المتطورة فى رؤية خلاقـــة فريـــدة للقـــوة العالمية. وجرى تجميع كتابات أخرى، أساسا من القارات الثلاث بأســـلوب غيـــر مألوف، وفى الأغلب من القطاعات المحافظة التقليديـــة للأكاديميـــات العســـكرية والحياة العامة، ولكنها أصبحت مقبولة تماما وبشكل مثير للدهشة فى الكثيـــر مـــن الأوساط التقدمية فى هذه القارات. لقد قبلها جوليبرى البرازيلـــى، وكـــذلك فيـــديل كاسترو ورفاقه، وعبد الناصر، وبومدين والكتابات الآخذة فى الظهور بغزارة الآن للسياسيين والجغرافيين والإستراتيجيين الجغرافيين من المنطقـــة المســـماه منطقـــة "المحيط الخارجى".

وأكثر اكتشاف إثارة للذهول هو ما أصاب التفكير السياسى الجغرافى من شبه انهيار فى منطقة المركز. فالدراسات التى قام بها مؤخرا الخبراء الرســـميون، قـــد أظهرت بوضوح مثلا أن الأسطول السابع الأمريكى العامل فى المحـــيط الهـــادى، غير قادر فى الحقيقة على العمل الإستراتيجى نظرا لانتشاره الواسع والتدنى الهائل فى درجة كفاءته بالمقارنة مع الأسطول السوفيتى فى المحيط الهادى. ومن جملـــة الأمور التى ينبغى أخذها فى الاعتبار الانبعاث السريع للأسطول الصينى الذى تـــم

تحديثه، والفعالية الخالية من الخطأ للبحرية اليابانية، والخبـرة المشـتركة الملفتـة للنظر التى تتمتع بها القوات المسلحة الهندية، والتخطـيط والتنفيـذ الإسـتراتيچى المذهل لحرب أكتوبر تشـرين الأول ١٩٧٣ قبـل الهجـوم المضـاد الأمريكـى الصهيونى المشترك، وطبيعة كوبا المنيعة، والقدرات الدفاعية القوية، التى تتمتـع بها البلدان الصغيرة مثل نيكاراجوا، ماذا لو كانت نظرية "صـن تـزو" الأساسـية صحيحة، بدلا من النهج الذى وضعه كلوزيفتس. ماذا لو أن "إحراز مائة انتصـار فى مائة معركة ليس قمة المهارة، وإنما إخضاع العـدو دون قتـال هـو منتهـى المهارة". وبالتالى، فإن ماله أسمى فى الحرب هو مهاجمة "إسـتراتيچية العـدو"؟ باختصار: ماذا لو طبق مبدأ أولوية السياسة على فن الحرب أيضا؟

وسرعان ما أدى هذا الكشف "المفاجئ" بعدد من العقول الجادة المؤهلـة فـى الماركسية والعلوم الاجتماعية، إلى إعطـاء السياسـة الجغرافيـة والإسـتراتيچية الجغرافية موقعها المركزى فى تحليل السياسة العالمية. وسرعان ما برزت علـى نحو مفاجئ مراكز لدراسات السياسة الجغرافية والإستراتيچية الجغرافية، وكثـرت الصحف والدوريات والكتب والأطالس وكان لها تأثير مـدهش ملفـت للانتبـاه لا يمكن إغفاله. وفى غضون بضع سنين، ومع نهاية ١٩٨٠ لم تعد السياسة الجغرافية كلمة قذرة – بل أصبحت بالأحرى بمثابة المركـز للـدائرة الخارجيـة للجدليـة الاجتماعية، للصراع على السلطة فى العالم. وجرى فى الوقت الذى بدا فيـه مـا يسمى بالتفوق النووى للإمبريالية الأمريكية عاجزا، من زاوية العمليات الحربيـة، عن وقف التدهور الحاصل بعد ڤيتنام، كما تجلى ذلك بشكل حاسـم فـى الهزيمـة اللبنانية الكاملة التى واجهتها بيروت، والعجز عن السيطرة على البحر المتوسـط، وأكثر من ذلك، فى الأخطار المتصاعدة فى وجه الولايـات المتحـدة إذا حاولـت السيطرة على أمريكا الوسطى وكبح مد التحرر والثورة فيها.

إن التقييم الميكانيكى لما يسمى بالنصر العسكرى فى جزر الفوكلانـد والـذى شن أساسا لحماية قواعد الناتو فى سيمونزتاون فى جنوب أفريقيا ولاستعراض قـوة حلف الأطلنطى قبالة القارة القبطية المتجمدة الجنوبية، سرعان ما أدى إلى نتيجـة

عكسية: فقدان المصداقية فى أمريكا اللاتينية الذى دفع بها خطوة بعد خطوة، نحو عدم الانحياز بعد مرحلة كاملة من شبه غياب.

وهنالك العديد من الأمثلة التى تظهر على نحو مضطرد درجة عجز الإمبريالية عن استخدام قوتها النووية لتحقيق نتائج سياسية، فى حين أنها محرومة من الناحية الفعلية من استخدامها فى حرب هجومية إستراتيجية مباشرة بسبب التوازن، بل وفى الحقيقة بسبب التفوق السياسى الإستراتيجى للقوى الاشتراكية على المستوى العالمى.

كما برزت إلى المقدمة أبعاد أخرى: النفط كسلاح، والبعد الخاص بالطعام والمجاعة، والتحكم بالموارد المعدنية، إن كل المتغيرات تقع فى إطار المعالم (الخصائص) الراسخة ومع ذلك فإن المعالم (الخصائص) المتحركة للسياسة الجغرافية، تتعرض للأمر نفسه إذا وعندما، تفهم بصورة جدية.

دعونا نبحث حالة ما يسمى "بسلاح الغذاء" فمن المعروف جيدا أن الاتحاد السوفيتى يستورد سنويا، فى جملة أمور كميات ضخمة من الحبوب والمواد الغذائية من البلدان الرأسمالية الغربية، ولقد اعتبر أن ذلك يشكل حتى الآن نقطة ضعف رئيسية للاتحاد السوفيتى فى حين أنه يثبت تفوق الرأسمالية الغربية. إلا أن الدراسات التى أجريت مؤخرا أظهرت أن جبال الفائض من المنتجات الزراعية فى البلدان الغربية الرأسمالية تفرض خفضا فى الأسعار وبلطف، بحيث يستطيع الاتحاد السوفيتى أن يشترى فى الوقت الذى اختاره هو وبأفضل الأسعار جزءا من الفوائض التى واصلت الضغط على منتجاتها – وفى هذه الأثناء، تستطيع المناطق التى تجتاحها المجاعة، كمنطقة الساحل ومنطقة القارات الثلاث أن تشهد كيف أن الأفعال لا تجارى الأقوال، وكيف أن الهيمنة السياسية قد بقيت فى الحقيقة فى يد الحكام السابقين، لقد ارتد سلاح الغذاء إلى نحر أصحابه كما حدث، فى حين يبقى الاكتفاء الذاتى فى الإنتاج الغذائى بالطبع هو الهدف الأعلى لأى اقتصاد رئيسى، وهو هدف تبقى إمكانية تحقيقه مرتبطة فى المقام الأول بالخصائص البيئية – المناخية السائدة فى المجتمعات المختلفة.

وهنا ومرة أخرى يبقى نهج السياسة الواقعية لمواجهة المشاكل الحقيقية المستعصية، أداة للتحليل والعمل الاشتراكى، ولقوى التحرر الوطنى، والقوى الديمقراطية التقدمية فى العالم.

٤ – الواقعية الاقتصادية: نهج تعدد القطاعات

إن البعد الخاص بالإنتاج، الاقتصاد فى المجتمع، أكثر طواعية للنهج الواقعية المحددة، لذا فإن مجموعة المقترحات التالية ربما تبدو أقل عرضة للرفض بقدر ما تتبدى أمام أعيننا بنجاح ظاهر.

٤ – ١ وهناك أولا وقبل كل شئ مشكلة المعالم "الخصائص" الموضوعية، فليس هناك معنى لدراسة التطور نحو الاشتراكية، ومشكلات التطور الاجتماعى الاقتصادى بمقاييس متطابقة، لنقل مثلا فى الصين وسيرى لانكا، فى الاتحاد السوفيتى وباراجواى، فى ألمانيا وتوجو. فتباين هذه السماء يتعدى التناقض الظاهر فى الحجم والإمكانات الكامنة، بل يرتبط بالطبقة الأعمق المتعلقة بالمعالم "الخصائص" الأيكولوجية والجغرافية التى تشكلت عبر التاريخ فى المجتمعات المختلفة، كما تشكلت فى عملية تطور طويلة متواصلة معروفة.

بعبارة أخرى إن البعد الجغرافى التاريخى يصبح ضروريا لفهم هذه الظروف الأيكولوجية المحدودة، والتى فى ظلها لابد أن تعيش وتتطور مجتمعات مختلفة. إن ما يسمى "المجتمعات الهيدروليكية" فى الشرق، ليس هناك إلا القليل الذى يربطها بالأقاليم الصحراوية الجرداء حيث تنتشر المجاعة. لقد استفادت مجموعة المجتمعات الصناعية المتقدمة فى وقتنا الحاضر والموجودة بصورة أساسية فى أوروبا وأمريكا الشمالية، من عدة قرون من الطقس المعتدل الذى يسمح بنمو أسهل كثيرا فى الإنتاج الزراعى، والتطور الحضرى تجاه التوسع البحرى، والذى قاد بدوره إلى الغزو والاستعمار والإمبريالية – وهو الذى شكل الأساس التاريخى الجغرافى لتكوين فائض القيمة التاريخى.

ليس من قبيل المصادفة أن تقرير وكالة الاستخبارات الأمريكية المركزية المعنونة "تقرير عن حالة الطقس" الذى حظى باهتمام قليل، قد ركز على الخطر

المتزايد الذى يتهدد العالم الغربى، والمتأتى من التغيرات الحاضرة فى مناخ العالم، إذا كان ما تحتويه هذه التقارير من تقديرات مستقبلية صحيحا، فقد يشهد العالم فترة جديدة من الطقس البارد تمتد إلى الأطراف الشمالية من أمريكا وأوروبا، فى حين أن المنطقة المعتدلة التى يسقط بها المطر وتحقق فوائد ضخمة فى المنتجات الزراعية سوف تنتقل تدريجيا نحو المناطق شبه المدارية ومنطقة التقاء القارات الثلاث. إن ما تعرضه تلك التقارير من تقديرات مستقبلية لم يلق حتى الآن الاهتمام الكافى من قبل المحللين الاشتراكيين – فى حين أنه معروف جدا لصانعى السياسة فى البلدان الاشتراكية. أما باقى الدول المتخلفة – فإن مثل هذا البعد يبدو وكأنه طوباوى، ولا يلقى منها اهتماما يذكر، باستثناء الهند والبرازيل. ومع ذلك، لابد من إجراء تقييم مدقق لها، من أجل تخطى حدود المدخل الأخلاقى النفسى للجماعة، والذى يجب أن يحل محله تقدير سليم لمنحنيات وتقديرات مستقبلية موضوعية موجهة نحو المستقبل، للاستفادة منها كأساس لقرارات سياسية نافعة ترتكز على التشقق والتعبئة الجماهيرية مع رؤية للتاريخ.

٤ – ٢ فى هذا الإطار، تبقى أولوية العمل السياسى أمرا مركزيا. والعمل السياسى يفهم بالتحديد على أنه فهم للخصوصية الثقافية القومية التى تشكلت خلال التطور التاريخى. إن حالة اليابان تظهر بوضوح كيف أن الغياب الكامل للموارد الطبيعية لم يكن بأى شكل من الأشكال عائقا للتعبئة الجماهيرية، من عصر الميجى التى جعلت من اليابان قوة التطوير والتحديث التكنولوچى والاقتصادى الحاسمة فى وقتنا الحاضر، وتبعتها فى ذلك كوريا. ومن ناحية أخرى، وفرة الأزمات الحيوية الداخلية والافتقار إليها قد جعل عدة بلدان صناعية، خاصة فى أمريكا الشمالية تبدو أكثر فأكثر على أنها الحلقة الضعيفة فى سلسلة التقدم الاقتصادى، رغم الإحصائيات والاحتياطات التى لازالت هائلة الحجم.

٤ – ٣ إن إعطاء الأولوية للعمل السياسى – وهو ما يفهم على أنه الاستخدام الهادف للخصوصية – يجب أن يجعل القوى التقدمية تدرس دراسة جدية مشكلة الوزن والوسيلة الضروريين لخلق كتلة حاسمة من الفكر الخلاق والعمل التحويلى

فى المجتمعات المعنية. وهنا مرة أخرى، تشير السياسة الواقعية إلى الطريق: لأنه فقط بقبول منطق الجبهة العريضة – المرتكزة على الحل الوسط التاريخى – حول المشروع القومى المعروف بوضوح وبشكل واسع، وليس مجرد مشروع "اجتماعى"، يصبح من الممكن خلق مثلا هذه الكتلة الحاسمة. وعندها فقط سوف تتوقف هجرة الأدمغة. وعند ذلك فقط تصبح القيادة الوطنية فى وضع يسمح لها بالاستفادة من العقول المفكرة حيث الحاجة إليها ماسة فى عدد كبير من دول أفريقيا، والعالم العربى، وأمريكا اللاتينية، وبدرجة أقل فى آسيا.

٤ – ٤ بالعمل على هذا النحو، سرعان ما يظهر أن الوضع الأيديولوچى لمشكلات الاقتصاد فى المجتمع لا يمكن إلا أن يفضى إلى التفوق المطلق لكتاب كتب النصوص المحترفين، النشطين عادة فى الأوساط الاشتراكية.

وتؤدى السياسة الواقعية الحقيقية الملموسة القائمة على أساس "التعلم من الحقائق" مباشرة لفهم أن إدارة مجتمع حديث على درجة عالية من التعقيد لا يمكن بأى شكل من الأشكال أن تتم بأسلوب أحادى الخط، أحادى الجانب.

بعبارة أخرى، أن النظم "الاقتصادية المتعددة القطاعات" هى وحدها القادرة اليوم على تحقيق التعبئة الواسعة لأوسع مدى من القوى الاجتماعية فى المجتمعات الاشتراكية الحديثة، مما يمكن قيادتها من اختصار الطريق إلى التحديث الوطنى المستقل، وتحقيق الزيادة السريعة فى قدرة على هذه القيادة على الفعل على المستويين الإقليمى والعالمى على حد سواء. وفى هذا السياق، تستحق العمليات الحاسمة الجارية الآن فى الصين، الفحص المتأنى الدقيق والتحليل النقدى الأخوى الصافى التفكير: فهناك اقتصاد مخطط مركزى، تخضع قطاعاته الأساسية بصورة حازمة لسيطرة الدول الاشتراكية؛ ومجموعة من الوحدات الإنتاجية فى الزراعة والتجارة الداخلية، من الطراز المجتمعى والمستندة إلى الأسر، وسلسلة محدودة من المناطق الحرة تخضع باستمرار للإشراف والرقابة المشددة للدول والحزب على حد سواء؛ وسياسة انفتاح على العالم بغية جعل " كل ما هو دولى يخدم كل ما هو صينى" مع ما يرافق ذلك بالطبع من صعوبات وتباينات فى نمو القطاعات

الاقتصادية المختلفة، والتناقض فى نسق النشاط بين المدينة والريف - ومصـــاعب ومشكلات المناطق المختلفة، والتى تتم معالجتها بطريقة جماعية حازمة، مما يجعل الصين فى الوقت الحاضر تضم أسرع اقتصاد فى النمو، ليس فى نطاق مجتمعات المنظومة الاشتراكية، بل فى العالم قاطبة. إن الصين هو المختبـــر الاجتمـــاعى - الاقتصادى المركزى فى عصرنا، ولها تأثير حاسم على ما سيصبح عليـــه عـــالم الغد، بقدر ما يمثل هذا المختبر ربع الإنسانية، ويرتبط بعمق بكل القـــوى والـــدول الاشتراكية، كما هو الشأن أيضا بالنسبة لحركة عدم الانحيـــاز الواســـعة، دون أن توصد بابها بأى شكل من الأشكال فى وجه التفاعل النافع مع كل أنماط المجتمعات (فى الحقيقة ما زال الشركاء الرئيسيون هم اليابان، والولايات المتحـــدة الأمريكيـــة وألمانيا الغربية).

يسعى أخصائيو "نظرية الأزمة العارمة" أو "يوم القيامة" إلى تأكيد حقيقـــة أن الاتحاد السوفيتى لا يمكنه أن يتبع طريق الصين. فخطأهم الحاسم هو أنهم يفسرون وضع الأمر الواقع هذا على أنه خيار أيديولوچى. وفى الحقيقة فإن التصرف بمثل هذا الأسلوب المنفتح، لا يمكن أن تقوم به أمة متلاحمة بدرجـــة عاليـــة ومندمجـــة بصورة محكمة - وهذا بالضبط هو حال الصين، فى حين أن دولة ذات قوميـــات متعددة وتتوزع أراضيها على قارتين، كالاتحاد السوفيتى، يتخذ بل ويجب أن تكون له نهج مختلفة تماما، معنية بالحفاظ على وحدة نسيجه القومى والاجتماعى وهو نسيج فى غاية التعقيد، الأمر الذى يحد إلى حد كبير من مقدرته على إعـــادة تشكيل النظام الاقتصادى الداخلى بسرعة. ومع ذلك، فمع كل ما قيل وعمل، فـــإن كلا من الدول الاشتراكية يتحرك فى وقتنا الحاضر نحـــو نمطـــه الخـــاص مـــن الإصلاح الاقتصادى، وسياسة اقتصادية جديدة، ليس لأسباب تكتيكية وإنما انطلاقا من تجربتها التاريخية الواقعية الطويلة.

وهنا أيضا، ومرة أخرى، تتقدم السياسة الواقعية على حساب النزعـــة الذاتيـــة والنزعة الأيديولوچية.

٥ – نحو حضارة اشتراكية روحية جديدة

إن كون الإنسان لا يعيش بالخبز وحده، وكونه بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك لكى يغذى عقله وروحه، هو حقيقة حياة، وليس مجرد عنوان كتاب.

ولكن إن لم يكن بالخبز وحده، فبماذا يعيش الإنسان إذن؟

أبمزيد من الخبز؟

أبمزيد من الانحراف، سواء كان ذلك بالكحول، أم بالمخدرات أم باحتراف المتعة؟

أيقتل الإنسان أخيه الإنسان فى المواجهات فيما بين المدن أو فيما بين الأمم؟

ومن هنا، جاء انبعاث التسامى فى وقتنا الحاضر، والذى يمكن تلخيصه بما أنه نتيجة عمل جماعى تم الاضطلاع به من (١٩٧٨) إلى (١٩٨٢) على النحو التالى:

١ – بعد أربعين عاما على يالتا وهيروشيما، حقبة الموجات العظيمة فى الثورات والتحولات الاجتماعية والوطنية فى وقتنا هذا، بما فى ذلك عقدى التنمية، فإننا نساق إلى الاعتقاد بأن المشاكل باقية دون حل، وأن جذورها وحلولها التى نوقشت باستفاضة من قبل مدارس الفكر والعمل الثقافية الرئيسية لازالت غامضة. إنه وقت للقلق واليأس – ذات النغمة الصادرة من عقلية سلبية تعمل فى أعماق نسيج قطاعات عريضة من الثقافات المهيمنة ووسائل الإعلام، هل يتجدد "سفر الرؤيا الآن".

وإزاء هذا السياق، الضارب بجذوره عميقا فى إنجازات طرق وأساليب مختلفة للسلوك السياسى والمجتمعى، وفى قدرة المجتمعات البشرية على التحديد الأفضل لإمكاناتها الكامنة وثرواتها المحلية، وفى مزاج الشعب وروحه أيضا، وفى الإحساس المتنامى بضرورة البحث عن مسارات إنسانية مختلفة للتطور الاجتماعى، وفى العلامات والرموز، ينبثق الموقف المبدئى لقطاعات عريضة،

تزداد اتساعا باضطراد، من المثقفين باعتبارهم مواطنين فى بلادهـم، وثقافـاتهم، وحضاراتهم والعالم – فى الآن نفسه – للبحث عن الجذور، والعلة الخفية، للأخطار المتصاعدة أو للمأزق على أفضل تقدير.

وبديهى طبعا أن تكون نقطة انطلاق مثل هذا الاندفاع – والمتعلقـة تحديـدا بعملية تغيير العالم – متجهة فقط نحو ما هو متغير، كنقيض لمجرد تكرار المعرفة المكتسبة والأفكار المسلم بها. وفى سياق هذا البحث، لا بد من التمييز بوضوح مـا هو جديد وما هو تجديدى، بين الجدة كعامل تأثير تكوينى فى النمط السـائد وبـين التجديد، بين الريادة الطليعية والإبداع، إنه تقسيم دقيق ولاشك، إن العيار المـألوف للكفاءة الاجتماعية، وهو معيار هو ذاته مكيف مع المزاج العام المتعلق بالإنتاجيـة والاستهلاكية، أو بشكل أعم مع الأسـاس المنطقـى للنزعـة العلميـة وأولويـة التكنولوچيا، يمكن أن يكون مجرد نقطة البدء. ومن الأهمية بمكان الذهاب إلى مـا بعد ذلك بحثا عن الأسباب الكامنة وراء كون الإمكانات الكامنة لمجتمع ما أو كيان ثقافى، توجد فى حالة سبات، أو أنها جعلت هكذا، أو لتبدو كذلك، وانطلاقا من تلك النقطة، يمكن لبحثنا النقدى المتقدم أن يمضى لاختيار أنماط الاستمرار المجتمعيـة – أو الاجتماعية الثقافية – من خلال التحول، الذى يبدو أنه وحده الكفيل بتعزيـز الهوية القومية / الثقافية والتى تعتبر الآن وبحق شرطا حيويا لنمط مقبـول لعـالم إنسانى جديد.

ويمكن "للنزعة العصرية" و"المعاصرة"، أن تقدم مساعدة حقيقيـة فـى هـذا الميدان، فالنزعة العصرية باعتبارها قمة مذهب الاختزال، التى يتسم بهـا نهـج المركز والمحيط الخارجى، قد أصبحت جـزءا مـن ذات المحيطـات الخارجيـة الطبيعية التى قبلتها، فى حين أن المعاصرة، تسعى تحديدا لضمان الحفـاظ علـى الخصوصية أثناء التحول، بل وأكثر من ذلك تسعى إلى تحديد وتسخير الإمكانـات الكامنة الخاصة بهذا التحول بالذات.

ويتطلب مثل هذا الموقف منا التركيز على أمثلة مختارة حيث تسود المعاصرة – جامعة الخصوصية الثقافية القومية والتحول الجذرى – بغية تحقيق فهم أفضـل

للعناصر المشتركة والفاعلة فى مجتمعات عرفت تاريخيا بكونها مختلفة كلية. ومع ذلك كانت قادرة على أن تتشابه – إن لم تتطابق – فى درجات من الفعالية والتحقيق الكفء. وعند ذلك يمكن لهذه الدراسة المقارنة أن تعكس من أجل إزالة أفضل للحواجز التى تعترض هذه العملية، مقدمة بذلك العون لكل من يهمه الأمر لتحديد السياسات القادرة على التغلب على التحولات المستترة التى تشوه وتحبط.

وعندما نضع فى أذهاننا الفوارق الهائلة بين المناطق الجغرافية / الثقافية، وكذلك النظم الاجتماعية / الاقتصادية والسياسية / الأيديولوجية المختلفة، لكل من تلك المناطق، بما فى ذلك نسق وإيقاع التسارع والمقاومة، يمكن الشروع فى المزيد من الدراسة الفاحصة للعمليات والاتجاهات "الجديدة"، بمعايير لا تعتمد على الثنائية. لذا فإن النزعة الأيكولوچية والنهج الجماهيرى، وإضفاء طابع أخضر على المجتمعات الغربية المتقدمة المصنعة، يمكن النظر إليها كمحاولة سخية للتغلب على عمليات الإفساد الناتج عن الإفراط فى التصنيع، وكأسلوب حياة أريب ومصقول متجذر بعمق فى الموقع الموضوعى المسيطر لتلك المجتمعات فى السوق العالمية والموقف الجغرافى / الإستراتيچى العالمى. ولكن، وقد قبل كل شئ، وعمل كل شئ، هل نعجز عن ربط المظاهر الإيجابية العديدة لهذا الموقف الجديد تجاه فائض القيمة التاريخى بالانبعاث القوى لهذا البحث الحضارى الذى غالبا ما يجمع الأصولية والراديكالية من خلال مسارات الجدلية الاجتماعية الثورية التى لم تتبع من قبل فى المجتمعات غير الغربية، والتى يطلق عليها أسم المجتمعات المتخلفة، والموجودة أساسا فى الشرق وأيضا على نطاق عالمى فى كل أرجاء المنطقة المهمشة حتى وقتنا هذا فى القارات الثلاث؟

وعلى الضفة الأخرى من النهر، يجب أن يسود نفس المنهج النقدى فى بحث هذا البعث الروحى فى الثقافات والمجتمعات غير الغربية على وجه التحديد، أليس من الممكن أن يشير ذلك إلى تردد قطاعات معينة فى مواجهة الحقائق القاسية للسياسة الواقعية وتراجعها من مذهب الواقعية إلى مذهب الجوهرية؟

باختصار، كيف يمكن للعصرية أن تنجو من مأزق النزعة الهروبية؟ وكيف يمكن لها أن تواجه الضغوط الحديدية للتحديات العصية لميزان القوى، وللسيطرة على الفضاء بواسطة الثورة العلمية والتكنولوچية؟

٢ - الأزمة العالمية: مركز الجاذبية المتحرك

يكشف الوصف والتحليل الأولى لمزاج "الأزمة" العام فى أيامنا - التى يطلق عليها اسم، "الأزمة العالمية" - تناقضا مفاجئا مع الطرح أو الوضع المعتادين للمشكلة. إنها ليست أزمة اقتصادية، رغم أن عوامل الأزمة الاقتصادية ذات جاذبية مستمرة: مثل الصدع الذى يزداد عمقا بين مجتمعات الشمال الصناعية المتقدمة والجنوب المتخلف أو النامي، ومشكلة مصادر الطاقة، والبعد الغذائى، وأزمات الديون التى تخفى جانبيها، وهوامش الفقر التى تزداد اتساعا بين الفئات المهملة فى المجتمعات الصناعية المقدمة من النمط الرأسمالى، وصعوبات الجمع بين التخطيط المركزى والتنمية والمبادرة الاقتصاديين الشاملين المرنين.. الخ.

منذ ١٩٤٥ ومنذ بدء المرحلة الأولى لعلاقات الاستقطاب الدولى الثنائى، وهى المرحلة المسماة. "بالحرب الباردة"، التى أدت إلى المرحلة الثانية "من التعايش السلمى" ونحو المرحلة الأولى من "الانفراج" - وحتى المواجهة الجغرافية/ الإستراتيچية والسياسية الجديدة التى غالبا ما تسمى "الحرب الباردة الجديدة" - كان للبعد السياسى/ الإستراتيچى للأزمة بصفة خاصة، صلة وثيقة بالموضوع. فمن ناحية، أدى الجو العام المتعلق "بالأمن" إلى النمو المخيف لترسانات الأسلحة الإستراتيچية والنووية المتقدمة، فى حين أنه فى الجانب الآخر من النهر، كانت هنالك حركات السلام التى حاول تيارها العام أن يجعل العقل يدرك الخطر القاتل لذلك النهج السياسى الإستراتيچى.

ومع تصاعد الأخطار انتقل التحقيق إلى معرفة أسباب أخطر وضع تمت مواجهته. وإذا كانت السيطرة على الفضاء، أى البعد السياسى لصراع القوة عبر التاريخ بين متنافسين رئيسيين مختلفين قد أمكن تحقيقه، وكما يمكن تحقيقه بالأسلحة الإستراتيچية الكلاسيكية، بما فى ذلك التكنولوچيا المتقدمة، فلماذا إذا نشهد

نهج "ما بعد شفا الهاوية"، وانتقال تكنولوچيا التسلح من الكلاسيكى إلـــى النـــووى؟ وهذا تساؤل مزعج بشكل خاص بقدر ما يكون هنالك إجمـــاع فريـــد بـــين كـــل المتخصصين وكذلك بين الجمهور العام، إلى حد أن النمط الحالى مـــن الســـلاح النووى، ناهيك عن كمياته المذهلة، لا يخدم أى أغراض سياسية مهما كان نوعها: فلم نعد نواجه أخطار الحرب النووية، نظرا لاستحالة تحقيق أى أهداف سياسية عن طريق هذا العنف المركز. وليس من المتوقع تحقيق أى سيطرة على الفضاء، فكل الفضاء ومكوناته وما يشغله ستتم إبادته عشرات، بل مئات المرات فى نفس لحظة بدء الهجوم النووى والهجوم المضاد الذى لا مفر منه. ومـــن ثـــم إذا كـــان مـــن المستحيل تحقيق أى هدف سياسى، فكيف لنا أن نفسر الأســـباب العميقـــة الكامنـــة وراء هـــذا الـــنهج الفريـــد فـــى لامنطقيـــة للتعامـــل مـــع مشـــكلات الميـــدان السياسى / الإستراتيچى؟ وكيف لنا أن نفسر الطبيعة الشـــيطانية لسياســـة "الـــردع المتبادل"؟ هل كنتيجة لبنية الاستقطاب الكامل الثنائى فى القوة العالمية كمـــا ســـبق الإشارة إليه؟ أو أن عدم كفاية النهج السياسى / الإستراتيچى، الذى أفسح له التحليل الاقتصادى المجال تدريجيا يبدو أكثر إزعاجا لأن الرأى العام قد قـــادوه تـــدريجيا للاعتقاد بأن هذا النهج سيكون كافيا، فى وقت سادت فيه "أولويـــة السياســـة" بعـــد أجيال عديدة من النزعة الاقتصادية. ولأول مرة فى تـــاريخ الجـــنس البشـــرى، لا يعالج بنو الإنسان القابضون على زمام السلطة الاجتماعية فى مركز المجتمعـــات البشرية، المشكلة بطريقة تمكن من إيجاد حلول مختلفة، وإنما بطريقة إذا ما طبقت ستؤدى ببساطة إلى إبادة الجنس البشرى ذاته.

ومن هنا بدأ البحث عن الجذور العميقة لأسباب الأزمة العالمية.

وتدريجيا، أصبح أكثر وضوحا عاما بعد عام، أن المزاج العام برمته، فلســـفة ونغمة المشروع الحضارى الذى تعيش فيه قد أصبحت فى خطر. وكما حدث فـــى القرن الخامس عشر، وعلى أساس "فائض القيمة التـــاريخى" المتـــراكم، نجحـــت أوروبا فى تركيز موارد هائلة أفضت إلى الثورة الصناعية وظهـــور البرجوازيـــة مترافقة مع الظهور الموازى للفلسفات العلمية والعقلانية وصـــولا إلـــى النزعـــة

العلمية. وبعد قرون من الإيمانية وتقبل أنماط العالم الواقعة خلف خبرة البشرية. شعرت أوروبا أن الوقت قد حان لتكوين رؤيتها البرومثيوسية عن الإنسان باعتباره خالق الكون المادى المصدر، والمالك، والسيد، وفى الحقيقة خالق كل شئ. وأدت هذه الفلسفة للمشروع الحضارى فى أوروبا – وفيما بعد فى العالم الغربى بأكمله – إلى اندفاع أهوج لغزو الفضاء والسيطرة عليه وامتلاك أجزائه المكونة – سواء كانت هذه موارد أم بشرا – من أجل تغيير العالم. وبدت النزعة الإنتاجية اللامحدودة التى أدت إلى نزعة استهلاكية لا محدودة، وأفضت فى المجتمعات الأكثر تقدما، إلى المتعة بلا حدود، باعتبارها المعالم (الخصائص) الجديدة للجنس البشرى.

ومع ذلك، فإن طبيعة هذا المشروع الحضارى لا يمكن إلا أن تفضى إلى تكرار المواجهات العنيفة، تحديدا من أجل السيطرة على الفضاء، وموارده وتحدياته وما يعد به. تلك كانت جذور التقاليد الفريدة لقتل الأخوة بعضهم بعضا الذى ميز الحروب الأوروبية، التى إلى أدت إلى تقسيم لا رحمة فيه للأمم والمناطق الإثنية والمجتمعات منذ نهاية عصور الظلام. وحتى ذروتها فى حرب (١٩١٤ – ١٩١٨) والحرب العالمية ما بين (١٩٣٩ – ١٩٤٥). وهو تطور وجد له صدى يضاهيه وحشية، فى الحروب الاستعمارية، وبناء الإمبراطوريات والإمبريالية والهيمنة.

ومما لاشك فيه، أن المناطق الحضارية والثقافية الجغرافية الأخرى، قد شهدت صراعات وحروبا وافرة، ومع ذلك، فإن القالب التكوينى للمشروعات الحضارية للشرق قد طرحت نهجا مجتمعيا وقدمت الوحدة والحل الوسط على الجدلية الطاردة مركزيا التى تؤدى إلى فرض الهيمنة. وكان ذلك باختصار، هو معنى الإجماع اليابانى، والتقاليد الصينية فى الجدلية المنطقية التكاملية، والأمة الإسلامية، والإجماع الإفريقى، وكلها تضاهى بعديد من الطرق منطق الثقافات المركبة فى الهند، وثقافات الفلاحين الهنود فى نصف الكرة الغربى.

فى الحقيقة، فإن رغم وجود تناظر مدهش بين الجانبين، فمما لا شك فيه أن الاندفاع الموضوعى الفريد لأوروبا نحو الهيمنة العالمية، منذ عهد الاكتشافات

البحرية حتى اليوم، هو الذى أعطى مشروعها الحضارى، وما رافقه لـديها مـن مزاج عام وفلسفة فردانية وبروميثيوسية، ومركزيتها فى تقرير المسار الذى يقـود العالم إلى الأخطار المميتة الحاضرة الحالية للمحرقة النووية. فرغم كل شئ، كـان المركز الرئيسى للهيمنة الغربية هو الذى قرر استخدام القنبلة الذرية الأولى – ضد دولة شرقية – مطلقة بذلك نغمة الكابوس التـى ازدادت حـدتها منـذ هيروشـيما وناجازاكى.

وهكذا فإن الأسباب الجذرية الكامنة وراء الأزمـة العالميـة الراهنـة (هـذا الاصطلاح يستخدم من أجل الاختصار ككلمة كودية) أخذت مرة أخرى فى الانتقال من البؤرة السياسية الإستراتيچية على القالب الحضارى، منـذ الفتـرة الانتقاليـة (١٩٤٩ – ١٩٧٣) حيث انطلقت عمليات كبيرة ومفاجئة "علـى الجانـب الآخـر للنهر"، أى فى المركزين الحضاريين فى الشرق، الثورة الصينية وما تبعهـا مـن عمليات تحديث وتحول ثقافى، والمنطقة العربية الإسلامية حـول مصـر، تواجـه هجمة الهيمنة الإمبريالية والنزعة العلمية من خلال سلسلة حروب ومواجهات أدت إلى أزمة النفط والإستراتيچية الحضارية المضادة للغرب فى وقت تحرير ڤيتنام.

وتحقيق هذا التحول فى مركز الجاذبية بسرعة غير عادية. ففى نهاية المطاف تحقق الانتقال من النزعة الاقتصادية إلى المجال السياسى الاستراتيجى فى منتصف الثلاثينيات وحتى هيروشيما، فى حين أن القالب الحضارى بدأ فى الظهور بعد ذلك مباشرة، فقد حدث تغيران رئيسيان فى جيلين – بعد قرن من النزعة الاقتصادية.

وتفسر هذه السرعة ذاتها ازدهار التوجهات السائدة الآن فى المنطقة التحليليـة والموجهة نحو العمل التى تعالج "الأزمة العالمية". وتتمثل هـذه التوجهـات فـى انبعاث السلم كضرورة حتمية، وباعتباره أعرض نقطة للالتقاء الأمثـل، وانبعـاث نزعات، سواء كانت فلسـفات أو أديانـا أو مراجعـة للأيـديولوچيات، والبحـث الحضارى النابع مباشرة من التحليل التاريخى لتشكيل مشروعات حضارية مختلفة، ومضامينها وأهدافها.

وتظهر تدريجيا فى مناطق الالتقاء التى تربط العناصر التكوينية المختلفة لتلك الاندفاعات المختلفة على نحو ظاهر. وعلى كل حال سرعان ما تبدو هذه جميعـا قادرة على بناء جسور، وضم الأيدى – فمن المؤكد بعمق أنه ما لم تقـم البشـرية بالتعامل مع مشروعاتها الحضارية ومقدماتها الفلسفية بشجاعة وبعد نظر، فإنه لـن يكون بالإمكان تجنب يوم القيامة.

٣ – التوجهات نحو المنظور

إن نظرة أدق على المدى التاريخى الأبعد، سوف تظهر أن جدليات العالم فـى مرحلتنا التاريخية الحاضرة، ليست جديدة بالمرة. إنها حقيقـة ثابتـة أن المرحلـة الانتقالية بين كل حقبتين تاريخيتين قد شهدت دائما ازدهار سمات سـلبية، مردهـا عدم قدرة وفساد وتفسخ واضح – مقترنا بمجموعة غير متماسـكة مـن العوامـل والسمات "الجديدة" – تدل على عملية غير متكررة، وتشكيل تاريخى جديد.

وفى كل مرة، كان هذا المشهد المتناقض يؤدى إلى موجة من الفكر السـلبى، واليأس، أو على الأقل، محاسبة عميقة للذات تصل على أبعاد مؤلمة. وحتى نعرف أيضا أنه فى هذه البوتقة، ظهرت التشكيلات التاريخية الحديثة، والأفكار وأنظمـة التفكير، والاتجاهات الفلسفية والدينية، وباختصار المزاج العام السائد، فـى العقـل والروح على حد سواء، وأهلية الجنس البشرى، التى انبعثت فى كل فتـرة جديـدة خلاقة.

لذا يصبح أمرا محتوما على كل المدارس التكوينية الرئيسـية البديلـة للفكـر والعمل فى كل المناطق الجغرافية / الثقافية أن تمضى لجعل القوالـب الحضـارية لعالمنا تجتمع على اتخاذ عمل لتبديد المزاج السائد للعقل السلبى السـائد، وقبـول تحديات الإبداعية، وفى المحل الأول رفض النهج الموحدة للحقيقة الأحادية الخـط والثنائية. وباختصار: فإنه لا بد من قبول التوسط نحو التكافل باعتبـاره الطريـق الذى قد يفضى إلى التغلب على الأزمات المتداخلة فى زمننا هذا، والذى يفسر على أنه الدوائر الجدلية لتغيير العالم، نحو البناء الهيكلى التدريجى لنماذج عالمية جديدة، مع الأمل فى أن يتم ذلك بنمط أقل عدوانية وأكثر تعاونا.

هذه هى الخلفية لدراسة ظهور الفكر الاجتماعى الجديد فى زمننا، زمن تحول العالم، الذى يواجه الجحيم النووى، بشجاعة وبعد نظر وأخوة.

إن هذه السلسلة من الميادين الإشكالية ترتبط مباشرة بالحاجة الأساسية التى تحس الآن لإعادة بناء الهيكل الأساسى للنظرية الاجتماعية والسياسة، القائمة على أساس المقارنة الهادفة حقا للوحدات المجتمعية الحقيقية الملموسة القابلة للمقارنة، التى تتم فى سياق المسار الجدلى. ولا شك أنه ليست هنالك ندرة فى الافتراضات المسبقة فى المجال النظرى. ومن المهم، فى هذا السياق، تعريف احتياجاتنا الحقيقية: ليس بالنسبة للنظرية الاجتماعية الهادفة فحسب، والتى ينظر إليها الآن باعتبارها حاجة ملحة ووثيقة الصلة بالموضوع من قبل مدارس فكر وعمل تكوينية مختلفة، بل ربما بدرجة أكثر من ذلك بالنسبة لتعريف مجالات فيها إشكاليات لم تجر معالجتها إلا قليلا حتى الآن وينبغى لدراسة الفكر الاجتماعى الجديد أن يشمل ما يلى:

أ) مفهوم التقدم الذى يرى على أنه تتابع "المراحل".

ب) تاريخية التقدم، مقارنة بالبعد العالمى للتطور الاجتماعى.

ج) تمايز المجموعات المجتمعية إلى طبقات، وفئات، ومجموعات مهنية، واتجاهات، إضافة إلى التنوع الإقليمى والمحلى.

د) تكوين الروح العامة الاجتماعية مقارنة بالفلسفات والأيديولوجيات الاجتماعية.

هـ) العوامل البيولوجية فى العمليات المجتمعية، وبشكل أساسى للجنس، والعمر، منظورا إليها بصفة خاصة فى ارتباط بالسلطة الاجتماعية ورؤى العالم، الخ.

و) مستلزمات النهج الواقعى، الحقيقى الملموس، الفلسفى للتعامل مع مشكلات الاقتصاد والمجتمع باعتبارها نسيج الدائرة الداخلية لتحويل العالم.

ز) الانتقال من العالم المتأصل ذى التوجه الأخلاقى، إلى النمط الجديد من العالم، والمثقف كمواطن مسئول: تدريبه المطلوب فى الاقتصاد، والإستراتيجية الجغرافية، والتخطيط الاجتماعى والسياسى والفلسفة.

ح) السؤال عن أنه، إذا كان "الإنسان لا يعيش بالخبز فقط"، فكيف يستطيع التخطيط الأكثر تبصرا للكوادر الاقتصادية والاجتماعية المسئولة عن المستقبل أن يؤخذ فى الاعتبار البعد غير الاقتصادى للحياة البشرية، والذى يعاد تجميعه بصفة عامة تحت اسم "البنية القومية" وإن كان فى الحقيقة مكونا من الفلسفة والدين والأيديولوجيا، والروحانيات بشكل عام.

ط) السؤال عن أنه، بعد الإخفاقات التى تدرك الآن بوضوح للنهج الاقتصادى – التقنى، ما هى آفاق الثقافة والروحانيات فى إعادة تشكيل النسيج الاجتماعى / الاقتصادى للمجتمعات البشرية فى زمن تحول العالم.

ى) السؤال حول مكان ودور الرؤيا، والخيال الفنى، والحلم والتصوف – فيما يتعلق بنهجنا الحقيقى – الصلب.

كيف يمكن أثناء الانتقال من التكنوقراطى الذى نحن فى أمس الحاجة إليه إلى الفيلسوف فى المدينة، ومن مراحل التطور إلى "الجمهورية"، ومن البيروقراطى – التكنوقراطى أو التكنوقراطى – البيروقراطى إلى الفيلسوف – الملك: معالجة أصعب المعادلات الصعبة بين الواقع والخيال؟!

٤ – المبادرة التاريخية

لم تحدث الأشياء التى كان من المفروض أن تحدث، وما حدث ليس هو ما كان مفروضا أن يحدث. ومن ثم، فإن المستقبل، لا يمكن بأى شكل من الأشكال، أن يكون استقراء تنبؤات فاشلة ونزعة استثنائية مدعاة، وأصبح ما يدعى بعلم استقراء المستقبل Futuretogy، قبل ارتباط بالواقع عن أى وقت مضى. رغم رداء الماركسية الذى يتمسح به.

فما العمل إذن؟ بلا ريب: أنه ينبغى التعلم من الحقائق.

وليس للتعلم من الحقائق علاقة من قريب أو بعيد بالتجريبية أو البراجماتية، وإنما يعنى العودة إلى القاعدة الذهبية للنهج العلمى، حيث يؤدى الاستقراء الذى تتبعه المقارنة الهادفة، من خلال الاستنتاج النقدى، إلى فهم أكثر ترابطا للحقيقة

التى تواجه المحللين والمنفذين، على حد سواء. وتكمن الصعوبة الرئيسية التى نواجهها فى هذا الميدان، فى أن المعلومات - التى تذاع من خلال وكالات الأنباء ووسائل الإعلام الرئيسية - أصبحت اليوم فى العالم الغربى خاضعة لسيطرة الدوائر الكوزموبوليتانية، وتحت الهيمنة المباشرة للمجتمع الصناعى - العسكرى الأمريكى، بل وأكثر من ذلك تحت هيمنة الجهاز الصهيونى الدولى. وأدى هذا الوضع غير الواقعى كلية إلى احتجاب العالم الحقيقى - الملموس، وإلى تقديرات مستقبلية أساسا تطلعات الهيمنة، والمركزية الشديدة لتلك الدوائر الكوزموبوليتانية، والتى قدمت عروضها تحت اسم "العالمية" - وهى الخلف المعاصر للسلف العظيم "الدولية" و "الكونية" ومن هنا تأتى أهمية النضال لإعادة صياغة النظام الإعلامى الدولى - ليس باتجاه "نظام" إعلام دولى جديد، بقدر ما أن النظام لا يكون إلا نظاما سياسيا عالميا ولكن بطريقة تمكن من تجسيد الضرورة الحتمية بالاعتماد على المعلومات التى يقدمها المثقفون الأساسيون المنغمسون فى العمل داخل ثقافاتهم ومجتمعاتهم القومية، والمسئولون عن شعوبهم والمطلعون اطلاعا أصيلا على الرؤى الجغرافية / الثقافية للعالم السائد فى المناطق الثقافية / الجغرافية المختلفة، كما هو الحال أيضا بالنسبة لمدارس الفكر والعمل الرئيسية البديلة الموجودة فى كل من تلك المناطق.

فعلى سبيل المثال، فإنه لمن السخف، وهذا أقل ما يقال، أن نرى كل ذلك القدر من الإعلام المشوه، وازدهار المعرفة العلمية المزعومة التى قادت إلى نتائج كارثية - فلم يكن فى مقدور أى من المعاهد المطلعة أو الصحفيين فى الصحافة الكوزموبوليتانية أن يتنبأ بالثورة الإيرانية وتأثيرها على الوضع العالمى، رغم حرب قتل الأشقاء لبعضهم البعض فى الخليج التى تصاعدت حدتها بشدة وسرعة بين العراق وإيران. ولم يتمكن أحد من التنبؤ بأن غالبية من يطلق عليهم جيل أحداث بيركلى فى ١٩٦٨، سيكونون اليوم فى خدمة المركب الصناعى - العسكرى وسياساته العدوانية، ولم يتمكن أحد من أن يقيم أو يفهم أن غالبية بلدان أمريكا اللاتينية، المشغولة بالديون المتصاعدة تستطيع مقاومة العاصفة ومواجهة البنك الدولى وصندوق النقد الدولى بأنفة وبطريقتها، ولم يكن أحد يتخيل أن أمريكا

الوسطى سوف ترفع عاليا رايات الاستقلال والاشتراكية، وعلى بعد بضعة كيلومترات من القواعد الحربية الرئيسية لجارتها الشمالية. إن قمة المعلومات التى يدعى أنها موضوعية والمعرفة العلمية، قد أمكن الوصول إليها فى الشرق الأوسط وبالتحديد بعد حرب أكتوبر / تشرين الأول ١٩٧٣، وفى لبنان، فالإذلال وتحطيم ما يسمى بالتفوق العسكرى وقدرة الجيش الإسرائيلى العنصرى المعتدى، ومسانديه من العسكريين الأمريكيين، بدعمهم الأسطول السادس سوف يسجل فى التاريخ السياسى العسكرى الحديث، باعتباره انهيارا أكثر أهمية من انهيار فيتنام، فهى تكشف وبطريقة فريدة، أمراض التحليل والعمل السياسى المستند على مثل تلك المعلومات الخاطئة التى اختلقتها وقدمتها تلك الأوساط الكوزموبوليتانية المسممة.

وإذا ما رغبت القوى الرئيسية فى الغرب أن تفهم العمليات الجارية فى العالم اليوم، فى هذه الفترة من التحول الراديكالى، فإنها حسنا تفعل لو عالجت أولا وقبل كل شئ هذه المشكلة الخطرة، والتى تقوض قدرتها على القيام بعمل هادف. ويمكن ذكر أمثلة أخرى من قبل العديد من المحللين. ويكفى هنا لهدفنا أن ننهى بهذه الملاحظة.

مما له عظيم الأهمية – بالنسبة لمستقبل الجنس البشرى – تلك العملية الخاصة بالتطبيع والتقارب هذه بين القوتين الاشتراكيتين الرئيسيتين فى عصرنا هذا، وهما اتحاد الجمهوريات السوفيتية الاشتراكية وجمهورية الصين الشعبية. وهنا أيضا، ومرة أخرى، يؤدى الإعلام المضلل والتحليل المحرف إلى طمس دفق وسرعة هذه العملية الكبرى وطبيعتها الحقيقية – الملموسة، لأنه بتقاربهما معا، سيغدو بمقدور هذين المركزين الهائلين للقوة والنفوذ اللذين يقفان تحت راية الاشتراكية، ميزان القوى العالمى وبالتالى المسار المستقبلى للبشر، تغييرا حاسما.

وبمقدورنا بالفعل أن نشاهد الآثار الأولى لهذه العملية الهائلة: ألا وهى بدء تمهيد الطريق نحو إعادة توحيد محتمل لدولتى كوريا فى ظل اتحاد كونفيدرالى كورى، وبداية علاقات واقعية، تفضى إلى التطبيع بين فيتنام والصين، بعد أن أصبح هنالك سعى تدريجى للوصول إلى حل للمأساة الكمبودية، فى الوقت الذى

بدأت فيه عملية مماثلة فى أفغانستان، والتقارب بين شبه القارة الهندية وكل من الصين والاتحاد السوفيتى؛ والدور المركزى الجديد الذى بدأت تلعبه اليابان كقوة عالمية، سواء باعتبارها عامل التحديث الأول للصين والمسهم فى تطوير مناطق هامة فى عالم القارات الثلاث، وربما سيبيريا غدا، يدا بيد مع الاتحاد الفيدرالى الكورى، والدور الفعال الذى لعبته مجموعة الكونتادورا لدول أمريكا اللاتينية والمدعومة حاليا من قبل عدد من دول أمريكا الجنوبية من أجل الحفاظ على السلام فى أمريكا الوسطى والتعاون الوثيق مع حركة عدم الانحياز؛ والتزايد التدريجى فى أهمية وفعالية حركة عدم الانحياز، كجسر وساطة، ضاربة جذورها بعمق فى الواقعية السياسية، رغم التناقضات والتباينات الهائلة؛ والكفاح التحريرى المندلع حاليا فى جنوب أفريقيا، المدعوم بكل قوة من قبل كل الدول الاشتراكية وحركة عدم الانحياز، وكل القوى المعادية للإمبريالية فى أفريقيا والمخروط الجنوبى، إضافة إلى تعاطف قطاعات واسعة فى أوروبا وأمريكا الجنوبية، إلى جانب غيرها.

إن هذه العملية، التى نعتبرها حاسمة بالنسبة لمستقبل الإنسانية، تدخل الآن طريق التلاقى مع حركة عدم الانحياز، وبشكل أساسى مع نواتها الصلبة - الراديكالية المؤلفة من الدول الوطنية المستقلة المعادية للإمبريالية فى آسيا، والعالم العربى، وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. وتسير هذه العملية، كما نستطيع أن نلاحظ، قدما بسرعة التقارب الصينى السوفيتى، وسوف تؤدى إلى اليوم الذى سيصبح فيه التحالف التاريخى بين مجموعة دول العالم الاشتراكية والجبهة الرئيسية للقوى والدول المعادية للإمبريالية واقعا أساسيا فى عصرنا، فى عالم ستصبح فيه الإستراتيجية النووية شيئا لا يجوز التفكير فيه. ما لم تبدأها بالطبع دولة عدوانية صغيرة، أو مجموعة دول، بحيث يصبح لها تأثير لا يمكن التنبؤ به على المسرح الدولى؛ كإسرائيل وجنوب أفريقيا.

وإذ ننظر من خلال تطور عالمنا فى عملية تحول راديكالية، لا يسعنا إلا أن نلاحظ الضعف التدريجى للنظام العالمى، سواء فى المؤسسات الرسمية لأنظمة الأمم المتحدة ذاتها، كما جاء مؤخرا على لسان أمينها العام، وتناقص أهمية ودور

المنظمات غير الحكومية، التى غالبا ما لعبت دور الشعار الذى يعمل من ورائه مجموعات العمل الكوزموبوليتانية عبر القومية. كما أصبحت مصالحها وأصبح ممثلوها الشرعيون فى مركز الفعل فى العالم أكثر من أى وقت مضى.

ومن ثم، دعونا نبتهج. ودعونا نقيم عملية التحول الهائل الجارية أمام أعيننا وخلال حياتنا. دعونا نمعن النظر فى التقدم الهائل لقوى الاشتراكية والتحرر الوطنى. ودعونا أيضا نلاحظ النمو الموازى لقوى العدوان والإمبريالية والعنصرية.

إن طريق السياسة الواقعية، ولا ريب، متداخل عضويا مع التفاؤل المأساوى، ورؤية للتاريخ التى تتيح لغالبية شعوب هذا العالم أن تأخذ المبادرة التاريخية بأيديها فى النهاية، رغم الأفكار السلبية والأخطاء والمعوقات والهجمات المضادة التى لا مفر منها.

إن العالم يتغير – الآن تحت سمعنا وبصرنا.

ولقد حان الوقت لدراسة إمكانية تطوير مجموعة متنوعة من الطرق والنماذج والقوالب للحضارة الروحية الاشتراكية الجديدة، فالحل الوسط التاريخى الممكن أمامنا وهو الآن يتحدى التزامنا وإيماننا ومواهبنا. وكذا، تصورنا ورؤيتنا للتاريخ.

(٢١)

لحظة "ريح الشرق" في صياغة المشروع الحضارى الجديد

هل يلتفت العرب والمسلمون إلى العالم؟

إلى العالم كما هو - لا عالم الماضى، سواء أكان ماضيهم، أم ماضينا، أو ماضى القوى الغازية المعادية؟ قد يبدو السؤال غريبا، أو مبالغا فيه بعض الشئ. ولكننا منظر الساحة العربية خاصة فى قلب دائرة الحضارة الإسلامية المعاصرة، يدفع المراقب، دعنا من المشارك: إلى ذهول وإحباط.

- ١ -

أقول هذا بمناسبة انسياق العرب والمسلمين - وخاصة شعوب عالمنا العربى - إلى ترديد السؤال - لنسأل: كيف نكون مثل الغرب؟ أين نحن من حضارة أوروبا وعنفوان أمريكا؟ حتى السؤال الساذج: كيف يمكن أن نقنع "الغير" - أى الغرب - بأننا على حسن النوايا وطهارة القلب، وكأننا نتمثل نمطه الرائد. الغريب هنا، أننا نتصور، أولا، أننا والغرب نمثل الكون كله - بينما ثلثى الإنسانية يعيشون فى آسيا، ومن بينهم الغالبية العظمى من المسلمين، من تركيا إلى إندونيسيا - بالإضافة إلى القارة الإفريقية وقطاعات مهمة من العالم المحيط. والغرابة أيضا، فى المقام الثانى تلك التى تنشأ من تصور غالبيتنا، وخاصة الطلائع السياسية والفكرية، بأن الغرب هو القدوة، بينما يؤكد أعلام الثقافة الغربية أنفسهم - من شبنجلر إلى توينبى - حتى أنصار البنيوية والتفكيكية وما بعد الحداثة العدمية أن الغرب دخل بخطى مهتزة إلى مرحلة الانحدار التدريجى بالنسبة لما كان عليه حتى بداية القرن العشرين، وهو قرن الحروب الإقليمية والعالمية الكبرى حتى مستوى إعمال السلاح الذرى لإبادة مئات الآلاف من اللا - غربيين عام ١٩٤٥، والملايين من الشعوب التواقة إلى تحررها فى كوريا وفيتنام والجزائر وإفريقيا السوداء.

يتم هذا فى الوقت الذى تتجه فيه أمريكا الوسطى والجنوبية (أمريكا اللاتينية) من المكسيك إلى آقاصى شيلى الجنوبية إلى التعامل مع آسيا، وخاصة آسيا الشرقية، من سيبيريا حتى إندونيسيا حول الصين مركزا، إدراكا منه أن صحوة هذا العالم تمثل جوهر نهضة الشرق فى عصرنا، وكذا مستقبل صياغة حضارة العالم الجديد. إن جامعات أمريكا اللاتينية ومراكز البحث فيها، وكذا القطاع الأوسع من المثقفين والعلماء ورواد الاقتصاد والتكنولوجيا يتعاملون اليوم فى المقام الأول مع آسيا الشرقية، إلى حد بدأ يتعدى العلاقات التقليدية بالولايات المتحدة - مما يجعلهم يتجهون تدريجيا وموضوعيا إلى طرح التساؤل الحضارى بعبارات لم نألفها مثل: أمريكا اللاتينية وصحوة آسيا، دورة الأفكار فى عالم الجنوب، دائرة المحيط الهادى بوتقة لبزوغ حضارة جديدة - جنبا إلى جنب مع التساؤل عن الغرب والتفاعل معه.

وبما أن العالم كما هو موضوعيا، وواقعيا، عمليا لا يقتصر على الدائرة الإسلامية. الغربية، فإنه يصبح لزاما علينا أن نتعامل مع هذا العالم الجديد بعقول صاغية وإرادة صادقة، دون إهمال الدائرة التقليدية التى مازالت مهيمنة. من هنا كان التساؤل عن عملية صياغة المشروعات الحضارية - الثقافية الجديدة فى مختلف دوائر الشرق وخاصة فى القارة الآسيوية - موضوعنا اليوم.

- ٢ -

كلمات قلائل عن الصياغة التاريخية للمجتمعات والأمم الشرقية.

لاحظ علماء الجغرافيا التاريخية أن أكبر الأنهار تخترق الآف الكيلومترات من سواحل المحيط والبحار حتى أعماق القارات بين الصحارى والهضاب والجبال فتتيح للتجمعات البشرية القاطنة فيها إمكانية الزراعة، بشرط أن يتم التحكم فى مجرى الأنهار، وهو دور مراكز السلطة الاجتماعية، أى الدولة. أصبحت هذه المناطق الخصبة مقاما للحضارات القديمة فاتحة التاريخ كما هو الحال فى حوض النيل ومنطقة ما بين النهرية ومساحة الجانج الحضرية ومساحات الأنهار الصينية الكبرى وخاصة النهر الأصفر ونهر يانج متسى كيانج. كانت هذه أرض

الحضارات الفرعونية والفارسية والصينية ومعها ومن حولها ومن التقاطع معها مساحات الثقافات القديمة المتعاملة مع الدائرة الحضارية الرئيسية.

كان الأمر فى أوروبا، ومازال، مغايرا: مساحات محدودة تحيط بها البحار وتتمتع بالأمطار للرى الطبيعى، مما أجل من ظهور وسطوة الدولة المركزية، وكذا ساعد على الاتجاه إلى البحار فكانت الاكتشافات، ومن بعدها موجات الاستعمار.

الصياغة التاريخية لمجتمعات الشرق الحضارى دفعت بالجماعة والجهد الجماعى إلى المقدمة، على علاقة دائمة وتفاعل جدلى مركب مع مراكز السلطة الاجتماعية. فى هذا المناخ التاريخى الجغرافى كان طبيعيا أن تظهر منظومات من الأفكار والرؤى تعكس هذا التضامن المجتمعى ومركزه السلطة، كانت هذه تربة الديانات الكبرى: الديانات التوحيدية الثلاث، كلها انبثق من الشرق – من سيناء ثم فلسطين وشبه الجزيرة العربية، وكذا الديانات الآسيوية الأخرى، وخاصة البوذية هذا جبنا إلى جنب مع منظومات فلسفية – حضارية قامت مقام الديانات فى القارة الصينية الكونفوشيسية خاصة، والتأويلية، وكذا فى اليابان وكوريا وفيتنام.

ليس من الغريب، ما دام الأمر كذلك أن تستمر هذه الفكرية والرؤى – الديانات والفلسفات الحضارية الكبرى، عبر الزمان، وكأن الزمان لا غلبة له إطار صياغة الأركان التكوينية الثابتة لمعظم سكان المعمورة. والملاحظ أيضا أن هذه الاستمرارية الفكرية والبرجوازية تثير ثائرة دوائر مؤثرة فى الغرب عبر التاريخ: من حروب الفرنجة (الحروب الصليبية) إلى فلسطين وأفغانستان، من اختراق وسحق القوى البشرية وابتزاز الثروات المعدنية فيما أصبح اليوم، عالم الجنوب، أى القارات الثلاث أفريقيا وأمريكا اللاتينية وآسيا.

العدوانية ضد القارات الثلاث، وخاصة مجتمعات الشرق الحضارى، لم تنقطع منذ البداية، وخاصة منذ ظهور بدايات الطبقات البرجوازية فى أوروبا حتى عصر هيمنة القطب الواحد التى نحياها، وقد بلغت عنفوانها فى عملية سحق الأمم والدول تحقيقا لمخطط الهيمنة العالمية الصهيونى – الأمريكى.

كان من الطبيعى، إذن، أن تسعى مجتمعات الشرق الحضارى إلى تطوير منظومات الأفكار والرؤى الكبرى إلى عدد من الدوائر التكوينية المؤثرة فى إقامة

صرح نظم اجتماعية وسياسية كبرى تجمع بين استمرارية الحضارات والثقافات التاريخية من ناحية وبينه التعامل مع تحديات العصور الحديثة إلى حد التفوق من ناحية أخرى.

كانت هذه هى القسمة المميزة من هبات وثورات مجتمعات الشرق الحضارى فى العصر الحديث والمعاصر منذ منتصف القرن الثامن عشر فى مصر والصين، فى اليابان والمغرب، من جنوب شرق آسيا إلى آسيا الوسطى. الكل يسعى إلى الإبقاء على العروة الوثقى بين التراث الحضارى / الحى - دون الطقوسيات - من ناحية والفعالية المتميزة بل والطليعية، وخاصة فى الانتقال بخطى متعجلة من عمليات تغيير العالم حتى بدايات صياغة عالم جديد.

كان هذا، على وجه التحديد، الجو مناسب والتربة خصبة لظهور بدايات منظومة رؤى مستقبلية بدأت تتخذ شكل المشروعات الحضارية الثقافية الجديد.

- ٣ -

يتساءل الشرق: لماذا الانحدار؟

وما هى مناهج النهضة؟ تساؤلات تجمع بين جميع دوائر الشرق الحضارى دون استثناء، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة من الحدة. الإيقاع أسرع بكثير فى الحضارات القديمة وكذا الدوائر الجيو - ثقافية العريقة فى إطار هذه الحضارات، بينما يضعف بشكل ملحوظ فى الدوائر المحدثة. ومن هنا كانت حدة التساؤل وسرعة إيقاع التحليل والإجابة أول ما كانت فى دائرتى الحضارة الصينية والإسلامية الآسيوية - الإفريقية حول محورها المصرى السنى وإيران الشيعة. وكذا لحقت بها - عمقا وإيقاعا - ثقافات كوريا - اليابان وفيتنام ثم ماليزيا والدائرتين البوذية والهندوسية.

كانت الإجابة على الشطر الأول من التساؤل - لما الانحدار؟ - تركز فى المقام الأول على الانعكاس التاريخى - الحضارى تحت ضربات الاستعمار والإمبريالية القادمة من الغرب. كان العرب والمسلمون همزة الوصل بين اليونان

وروما من ناحية وأوروبا فى عصورها السوداء من ناحية أخرى. ولولا نقل العلوم والمعارف والفلسفة، ولولا اقتباس أوروبا للتكنولوچيا العربية والإسلامية المتقدمة، من الطب إلى الفلك، لما كان لبوادر النهضة الأوروبية أن تتبدى بعد أجيال من الظلمات. وكذا الأمر بالنسبة لصدراة الصين فى مجال العلوم والتكنولوچيا بالوجه الأعم حتى بداية القرن السادس عشر، كما أثبته كبير العلماء الموسوعيين فى القرن العشرين، أستاذنا الأجل چوزيف نيدهام. والحق أن طلائع التجار والحرفيين الأوروبيين استطاعوا أن يركزوا هذه الترسانة المقاومة من الشرق فى موانيهم، وهى التى انطلقت منها قوافل الاكتشافات البحرية واقتحام أمريكا الوسطى والجنوبية، ثم أفريقيا وأخيرا آسيا بين القرن الخامس عشر والتاسع عشر.

وفى مواجهة هذا "الظلم التاريخى" اتجهت مجتمعات حضارات الشرق إلى الالتفاف حول الأركان الثابتة والإمساك بكوكبة من المعانى والقيم التى وفرت لها قدرا واسعا من الإمكانات والطاقات. كان الهدف، فى الأساس، هو التعبئة الداخلية لضمان قدر ممكن من القوة على الصمود والانطلاق. من هنا بدأت مسيرة صياغة مجموعة من المفاهيم والرؤى والمشاريع صاغت على مر الأجيال كوكبة المشروعات الحضارية للشرق منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم. التنوع فيما بين هذه المشاريع قائم، حسب نسبة مختلف العوامل التى صاغت خصوصيتها عبر التاريخ. ولكنما الساحة المشتركة – أى الجوهر – يكاد يكون واحدا.

أولا – أولوية الجماعة والروح الجماعية بدلا من الفرد والفردانية. الثبات والاستمرار، وكذا الوثبة والإبداع لا سبيل إليها إلا بالتعبئة الأوسع، ومن هنا أولوية معانى الحضارة والدين والثقافة والأمة والقومية والوطن والأسرة فى مواجهة ابتزاز الطاقة باسم أولوية الفرد الذى تصور مفكرو العلمانية الأوروبية بين القرنين السادس والثامن عشر أنه سيد أو مالك الكون، من حقه وفى استطاعته أن يستولى على طيبات الطبيعة وينتج منها كل ما يشاء من منتجات بدون قيد أو شرط أى بدون حدود، وكذا أن يمارس المتعة دون رقيب ولا حدود.

كانت هذه هى الفلسفة السائدة فى دول أوروبا الرأسمالية الحديثة منذ القرن الثامن عشر تحديدا. وقد نجحت فى تحقيق الكثير من الإنجازات، ولكنما بثمن

الباهظ وعدوانية لا حدود لها، إذ أصبحت الحرب والقتال والاختراق والاستبعاد والاستغلال سمات تاريخ استيلاء الرأسمالية الغربية على معظم العالم حتى بداية القرن العشرين، جوهر "فائض القيمة التاريخى" وإذا بدت أولوية الجماعة والروح الجماعية، أى المنهج الجماعى (Communitarian approach) فى بداية الأمر نوعا من الاتجاه المحافظ، فقد أدرك الجميع أن هذه الجماعية نجحت فى حماية معظم الجماعات الشرقية المستهدفة بادئ الأمر ذى بدء، إلى أن أتاحت لها معانى الامتياز فى مجالات التنمية والإنتاج. أى أن الصمود بفضل الإمساك بالروح الجماعية تحول فى القرن العشرين وخاصة منذ عام ١٩٤٥، إلى انفتاح الانطلاق الصاروخى فى مجالات الإنتاج المختلفة التى كانت حتى هذا الحين ملكا للغرب وحتى فى الأساس. من هنا كانت قصة "النمور الآسيوية"، من هنا كانت أعجوبة اليابان الذى استطاع فى ربع قرن أن ينطلق من التدمير الناتج من الضرب بالقنابل الذرية لكل من هيروشيما وناجازاكى إلى حريق طوكيو الكبير على أيدى القوات الأمريكية ليصبح ثانى أكبر قوة اقتصادية فى العالم فى السبعينيات. من هنا أيضا كانت وثبة الصين، بقيادة الحزب الشيوعى الصينى حول الرئيس ماوتسى تونج، منذ ١٩٤٩ – وقد فاقت عملية التنمية فى نحو ربع المعمورة جميع المعدلات التى يعرفها تاريخ البشرية حتى اليوم.

الروح الجماعية، المنهج الجماعى وقد اتخذ أشكالا متعددة: التأليف الوفاقى (consensus) فى اليابان "التناقض جوهر الوجود" (ماوتسى تونج) موحدا لظاهرتى (Yin and yang) فى الصين الكونفوشية والتاوية، الأمة فى عالمنا الإسلامى، الإجماع الذى نادى به رئيس تنزانيا منريرى شعارا لإفريقيا – هكذا أقامت شعوب الشرق لتلاقى الأوسع، فى مواجهة منظومة الصراع ضد الاضطهاد والسيطرة، حتى حلم الهيمنة الأحادية القطب التى بدأت تستنفر الغالبية العظمى من شعوب ودول العالم أجمع.

ثانيا – التنمية الإنسانية والاجتماعية بدلا من مجرد التنمية الاقتصادية. أى أن الهدف دوما من عملية زيادة قدرات الفرد والمجتمع فى مختلف مراحل التاريخ،

وخاصة التاريخ الحديث والمعاصر، يجب أن تكون تنمية شاملة تعنى بازدهار طاقات وقدرات الجماعات والأفراد ورفع مستوى علمهم ومعرفتهم وذوقهم الفنى، وذلك فى قلب مجتمعات تعنى بحقوق جميع أفرادها فى الحياة الكريمة والعدالة فى توزيع الأعباء والمنافع. التنمية إذن ليست عملية كمية تعبر عن إحصاءات الإنتاج ومعدلات الإنتاجية ومعدلات صعود (وكذا هبوط) الأسواق المالية.

مرة أخرى يشهد التاريخ الاجتماعى والاقتصادى المعاصر أن هذا النموذج هو خير تأمين الإنسانية الإنسان وازدهار المساحة الأوسع من المجتمعات البشرية - بدلا من الأرقام القياسية لإنجازات رجال المال المتلاعبين بالأسواق.

ثالثا - السلام بين الشعوب، على أن يكون سلاما قائما على العدل والإنصاف، وليس مجرد "عملية" سلام تكريس موازين القوى والمظالم القائمة. السلام ليس هدفا فى حد ذاته، خاصة لو قاد إلى الاستسلام. إن نضال الشعوب التحررى وجهادها فى سبيل الحفاظ على معانى حياتها الاجتماعية واستقلال أراضيها وكرامة شعوبها أمر مقدس. وكذا فإن السعى إلى العدالة بين المجتمعات والشعوب تفسح المجال لنظام دولى يؤلف بين المصالح الواقعية المشروعية وكرامة الأمم والشعوب، بحيث تفيد جميع الأطراف من ثمار الإنتاج والتبادل والتعاون العملى للسيطرة على الظواهر الطبيعية والأمراض المزمنة. أى أن العدالة لا تقتصر منافعها على المجتمعات والشعوب المضطهدة أو الأقل نموا، بل إنها الضمان الوحيد لاستمرار تقدم المجتمعات الطليعية فى جو من المقبولية والأمن.

رابعا - البعد الروحى على تنوع صوره: منظومة التراث والرؤى الحضارية، الدين، القيم الأخلاقية. أى البعد الذى يتعدى حياة الإنسان ونشاط المجتمعات ليتعامل مع الصيرورة. ومقولة الزمان. وإن كانت الشعوب لا تحيا بالخبز وحده، وإن كانت فى حاجة إلى مراجع فكرية وقيمية، فإنها أيضا لا تستطيع أن تدير ظهرها لما هو غائب، ويقيم.

وعلى الرغم من حملة قطاع واسع من قوى وأعلام الفكر والعمل فى المجتمعات الصناعية المتقدمة، وخاصة فى الغرب، لم تتمكن من استبعاد تطلع الإنسان إلى الما بعد

خامسا – السلطة المجتمعية تقدم على أساس مركز قوى قادر على الحفاظ على السيادة واستقلالية القرار فى تفاعل مثمر مع السواد الأعظم من الشعب. يتم ذلك فى عصرنا على حدة جبهة وطنية متحدة تجمع جميع القوى السياسية من ناحية، وكذا كافة المدارس الفكرية التقدمية – دون أدنى استثناء.

التساؤلات الفلسفية الكبرى ما زالت حية فى نفس الإنسان، بل وإنها ازدادت حدة بعد ارتفاع مستوى التهديدات. تساؤلات "الفلسفة الأزلية" " philosophia perennis": ما الحياة؟ ما الإنسان؟ ما العالم؟ ما الكون؟ ما المطلق؟ ما الله؟ ما العالم الآخر؟ من نحن؟ ولم نحن؟ وإلى أين؟ وأخيرا: ما الزمان؟

الإبهام يحاصر العقل والفكر التساؤلى. ومن هنا رأينا أن مكانة بعد التعالى، بعد مساحة الحياة الروحية تزداد أهمية باضطراد، يواسى القلوب ويغذى الأفئدة ويتيح الرضا – ما دام أن الإجابات العلمية المحددة لم ترد بعد، ولعلها لن ترد أبدا.

وإذا كان الأمر على هذا النحو، فإن هذا المستوى / العامل الروحى لحياة الإنسان والمجتمعات يتيح إقامة منظومات من القيم والمعايير الأخلاقية التى تهذب الحياة – ولا تحاصرها – وتتيح فسحة للأمل وتستبعد الناحية البهيمية فى العلاقات بين الناس وتقف فى وجه العدمية، طريق العنف والدمار. ولذا فإن البعد الروحى يواكب حياة الغالبية العظمى من المجتمعات والشعوب على تنوعها – وخاصة فى مختلف دوائر الشرق الحضارى. وليس غريبا أن تتجه قطاعات وتيارات من العالم الغربى إلى نهج الإحياء الدينى أو الجمع بين الإيمان والعمل (مثل لاهوت التحرر) وكلها خطوات على طريق ما يطلق عليه حوار الأديان، وعندنا أن جوهره هو تواكب الأديان وتلاقيها حول مساحة المعاملات الإنسانية المشتركة بعيدا عن المواجهات اللاهوتية.

– ٤ –

هذه، إذن، هى الوجهة التى يجب علينا أن ندير قلوبنا وأنظارنا إليها فى المقام الأول، بدلا من حصر عقولنا وأفئدتنا فى مجال التفاعل والصراع القائم منذ أجيال مع حضارة الغرب، لا بهدف إهمالها، وهو أمر غير معقول ولا مفيد، وإنما من

أجل دعم ما تصبو إليه الشعوب والمجتمعات العربية والإسلامية من نهضة صادقة واقعية شاملة يدا فى يد مع القوى الرئيسية فى الحضارات والثقافات الأخرى التى تعمل فى عصرنا على صياغة عالم جديد.

ريح الشرق، إذن تنير الطريق تستنير الهمم، تفتح لكل ذراعها تعمل ما هـــو إيجابى وريادى على أساس ثابت عاقل متسامح من الأركان والتوجيهـــات. أملنـــا وكذا دعوتنا.

المؤلف فى سطور

الدكتور أنور عبد الملك

دراسات فى الثقافة الوطنية – دار الطليعة، بيروت، ١٩٦٧ – الطبعة الثانية.

- الجيش والحركة الوطنية – دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٧٤ دار المروة، القاهرة، ٢٠٠٢.
- المجتمع المصرى والجيش (١٩٥٢ – ١٩٧٠) – الطبعة الثانية (المعتمدة من المؤلف) دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٤.
- الفكر العربى فى معركة النهضة – دار الآداب، بيروت، ١٩٧٤، الطبعة الثانية، ١٩٧٨.
- مدخل إلى الفلسفة، ترجمة وتقديم مؤلف د. چون لويس، الدار المصرية للكتب، القاهرة ١٩٥٧، الطبعة الثانية، دار الحقيقة بيروت، ١٩٧٣.
- نهضة مصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
- ريح الشرق – دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٨٣.
- تغيير العالم – عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٥.
- الشارع المصرى والفكر – الهيئة المسرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٩.
- القومية والاشتراكية (الكتاب الثانى من "الجدلية الاجتماعية") – دار المستقبل العربى، القاهرة، ١٩٩١.
- الإبداع والمشروع الحضارى، كتاب الهلال، ١٩٩١.
- فى اصول المسألة الحضارية. دار الهلال، القاهرة ٢٠٠٤.
- نحو استراتيجية حضارية. دار الشروق الدولية، القاهرة ٢٠٠٥.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	فيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديفيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف/ أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روجر ألن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	بول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحى ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوفاليس وس . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	چوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	جاك لاكان وإغواء التحليل النفسى	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاى	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقى شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتونى جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكى المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسبانى	أنطونيو بويرو باييخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرار چينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبييرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة الفدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

١١٣- راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤- مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥- غرفة تخص المرء وحده	فرچينيا وولف	سمية رمضان
١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨- النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	لميس النقاش
١١٩- النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	چوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنيثل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤- الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	چون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥- التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦- فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧- إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨- الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠- الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢- ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤- تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦- فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	چوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩- پارسيفال (مسرحية)	ريتشارد فاچنر	مصطفى ماهر
١٤٠- حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالروف البمبى
١٤٧- مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠- التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابى
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكى المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التلمسانى
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعى
١٥٩- الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحى
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسبانى	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوى	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
١٦٤- شامبوليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين فى إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- فى عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكرى محمد عياد
١٦٨- دراسات فى الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكرى محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابى
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون فى الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليونانى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدى إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبى الأمريكى من الثلاثينيات إلى الثمانينيات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحى العشرى
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إبندورفر	دسوقى سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم فى التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩-	العمى والبصيرة: مقالات فى بلاغة النقد المعاصر	پول دى مان	سعيد الغانمى
١٩٠-	محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجانى
١٩١-	الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازى السيد
١٩٢-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
١٩٣-	عامل المنجم (رواية)	پيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤-	مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥-	شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦-	المهلة الأخيرة (رواية)	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧-	سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلى النعمانى	جلال السعيد الحفناوى
١٩٨-	الاتصال الجماهيرى	إدوين إمرى وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩-	تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠-	ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمى سيبروك	فخرى لبيب
٢٠١-	الجانب الدينى للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٠٢-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣-	الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالى	جلال السعيد الحفناوى
٢٠٤-	تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدى
٢٠٥-	الجينات والشعوب واللغات	لويجى لوقا كافاللى- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦-	الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس جلايك	على يوسف على
٢٠٧-	ليل أفريقى (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨-	شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩-	السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠-	مثنويات حكيم سنائى (شعر)	سنائى الغزنوى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١-	فردينان دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدى عبد الغنى
٢١٢-	قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣-	مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد على الناصرى
٢١٤-	قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع	أنتونى جيدنز	محمد محيى الدين
٢١٥-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢١٦-	جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧-	مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوى
٢١٨-	لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	على إبراهيم منوفى
٢١٩-	بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠-	الهيولية فى الكون	بارى پاركر	على يوسف على
٢٢١-	شعرية كفافى	جريجورى جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢-	فرانز كافكا	روناك جراى	نسيم مجلى
٢٢٣-	العلم فى مجتمع حر	پاول فيرابند	السيد محمد نفادى
٢٢٤-	دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥-	حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦-	أرض المساء وقصائد أخرى	ديڤيد هربرت لورانس	طاهر محمد على البريرى

٢٢٧- المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨- علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩- مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠- عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١- الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢- ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣- فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤- الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥- ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦- الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧- مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨- العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩- العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠- الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١- فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢- سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤- الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥- نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦- مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧- الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨- حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩- لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠- علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١- موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢- رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣- تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوفا	حسن بيومى
٢٥٤- أقدم لك: الفلسفة	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥- أقدم لك: أفلاطون	ديف روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦- أقدم لك: ديكارت	ديف روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧- تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨- الغجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩- مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠- موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١- رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢- مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣- الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤- إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

٢٦٥-	روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦-	مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧-	فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عروبكى
٢٦٨-	ديوان شمس تبريزى (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦٩-	وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧٠-	وسط الجزير العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفور بالجريف	صبرى محمد حسن
٢٧١-	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سى. باترسون	شوقى جلال
٢٧٢-	الأديرة الأثرية فى مصر	سى. سى. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣-	الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابى فى مصر	چوان كول	عنان الشهاوى
٢٧٤-	السيدة باربارا (رواية)	رومولو جاييجوس	محمود على مكى
٢٧٥-	ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦-	فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمسانى
٢٧٧-	الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزى
٢٧٨-	البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩-	الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠-	الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١-	الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوى
٢٨٢-	طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣-	السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الروف اليمبى
٢٨٤-	هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥-	رحلة خواجة حسن نظامى الدهلوى	حسن نظامى الدهلوى	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦-	سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغى	محمود علاوى
٢٨٧-	الثقافة والعولمة والنظام العالمى	أنتونى كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨-	الفن الروائى	ديڤيد لودچ	ماهر البطوطى
٢٨٩-	ديوان منوچهرى الدامغانى	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠-	علم اللغة والترجمة	چورچ مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢-	تاريخ المسرح الإسبانى فى القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣-	مقدمة للأدب العربى	روچر ألن	مجدى توفيق وآخرون
٢٩٤-	فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥-	سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦-	مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٢٩٧-	فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	ماجدة محمد أنور
٢٩٨-	مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٩٩-	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مجـ١)	لويس عوض	جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١-	أسطورة بروميثيوس فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى (مجـ٢)	لويس عوض	جمال الجزيرى و محمد الجندى
٣٠٢-	أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وچودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣- أقدم لك: بوذا	چين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤- أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥- الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦- الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	چان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧- أقدم لك: الشعور	ديڤيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكى
٣٠٨- أقدم لك: علم الوراثة	ستيف چونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩- أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتى وأوسكار زاريت	جمال الجزيرى
٣١٠- أقدم لك: يونج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٣١١- مقال فى المنهج الفلسفى	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢- روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣- أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٣١٤- مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعى
٣١٥- جرامشى فى العالم العربى	ميشيل برونديـنو والطاهر لبيب	كاميليا صبحى
٣١٦- محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٣١٧- بلا غد	س. شير لايموڤا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨- الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩- صور دريدا	جايترى سبيڤاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠- لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليڤى برو ڤنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢- وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو بوچين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣- فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٣٢٤- اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٣٢٥- عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦- المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧- مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق على منصور
٣٢٨- يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٣٢٩- رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠- كل شىء عن التمثيل الصامت	مارڤن شبرد	سامى صلاح
٣٣١- عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٣٣٢- شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم منوفى
٣٣٣- الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤- لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣٥- عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٣٣٦- متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧- فلسفة الولاء	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٣٣٨- نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٣٣٩- تاريخ الأدب فى إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠- اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
-٣٤١	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمى
-٣٤٢	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
-٣٤٣	العالم البرجوازى الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
-٣٤٤	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
-٣٤٥	الركض خلف الزمان (شعر)	يونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
-٣٤٦	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
-٣٤٧	الصبية الطائشون (رواية)	چان كوكتو	بكر الحلو
-٣٤٨	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
-٣٤٩	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
-٣٥٠	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
-٣٥١	مبادئ المنطق	چوزايا رويس	أحمد الانصارى
-٣٥٢	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
-٣٥٣	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
-٣٥٤	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
-٣٥٥	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
-٣٥٦	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
-٣٥٧	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروق عمر
-٣٥٨	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
-٣٥٩	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
-٣٦٠	أنثروبولوچيا اللغة	أندريه چاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
-٣٦١	التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
-٣٦٢	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
-٣٦٣	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد چيبسون	صبرى محمد حسن
-٣٦٤	حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
-٣٦٥	سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
-٣٦٦	نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
-٣٦٧	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البرّاق عبدالهادى رضا
-٣٦٨	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	چيرالد برنس	عابد خزندار
-٣٦٩	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
-٣٧٠	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
-٣٧١	المتصوفة الأولون فى الأدب التركى (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
-٣٧٢	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
-٣٧٣	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
-٣٧٤	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
-٣٧٥	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
-٣٧٦	الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	چان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
-٣٧٧	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
-٣٧٨	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٢٧٩-	ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٢٨٠-	حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٢٨١-	أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢-	تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٢٨٣-	هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤-	القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٢٨٥-	مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦-	دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧-	أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٢٨٨-	مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٢٨٩-	تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠-	الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٢٩١-	الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٢٩٢-	مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣-	فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٢٩٤-	القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديفيز	هاشم أحمد محمد
٢٩٥-	آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٢٩٦-	السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٢٩٧-	أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨-	أقدم لك: سارتر	فيليب تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩-	أقدم لك: كامى	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠-	مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١-	أقدم لك: علم الرياضيات	زياودن ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢-	أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣-	ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤-	تعويذة الحسى	ديفيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥-	إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦-	المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧-	الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨-	معجم تاريخ مصر	جوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩-	انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠-	خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١-	همس من الماضى	جينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣-	أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤-	الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥-	صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦-	مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية	چين هاثواى	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبى للإسكندرية	چون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	ڤولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسرامات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سپنسر وأندزجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندزجى كليموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	پاتريك كيرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديڤيد نوريس وكارل فلنت	حمدى الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وچودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوپلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندى فى بلاد الشرق العربى	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عينى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروونداتى روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السِّيد	تراث شعبى إسبانى	الطاهر أحمد مكى
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محى الدين اللبان ووليم داوود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجيناتزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	چان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥- تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦- لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧- النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨- الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩- نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠- أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١- أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢- طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣- الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤- ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥- قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦- حكايات حب وبطولات فرعونية	ڤيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧- التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨- روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩- جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠- الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١- رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢- دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣- دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤- الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥- صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦- أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧- تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨- الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩- المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠- تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١- بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢- موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣- النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤- جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥- التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦- الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧- الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨- الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩- هُسرل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسرل	محمود رجب
٤٩٠- أسمار الببغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١- نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢- محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى ڤارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣-	خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع
٤٩٤-	كتاب الموتى: الخروج فى النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفى
٤٩٥-	اللوبى	إدوارد تيفان	حسن عبد ربه المصرى
٤٩٦-	الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ١)	إكوانو بانولى	مجموعة من المترجمين
٤٩٧-	العلمانية والنوع والدولة فى الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض
٤٩٨-	النساء والنوع فى الشرق الأوسط الحديث	جوديث تاكر ومارجريت مريودز	أحمد على بدوى
٤٩٩-	تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء
٥٠٠-	فى طفولتى: دراسة فى السيرة الذاتية العربية	تيتز رووكى	طلعت الشايب
٥٠١-	تاريخ النساء فى الغرب (جـ١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج
٥٠٢-	أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال
٥٠٣-	مختارات من الشعر الفارسى الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤-	كتابات أساسية (جـ١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٥-	كتابات أساسية (جـ٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق
٥٠٦-	ربما كان قديسًا (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥٠٧-	سيدة الماضى الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقى فهيم
٥٠٨-	المولوية بعد جلال الدين الرومى	عبدالباقى جلبنارلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٥٠٩-	الفقر والإحسان فى عصر سلاطين المماليك	آدم صبرة	قاسم عبده قاسم
٥١٠-	الأرملة الماكرة (مسرحية)	كارلو جولدونى	عبدالرازق عيد
٥١١-	كوكب مرقَّع (رواية)	آن تيلر	عبدالحميد فهمى الجمال
٥١٢-	كتابة النقد السينمائى	تيموثى كوريجان	جمال عبد الناصر
٥١٣-	العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمى
٥١٤-	مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومى عبد السلام
٥١٥-	من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى دوجلاس	فدوى مالطى دوجلاس
٥١٦-	إرادة الإنسان فى علاج الإدمان	أرنولد واشنطون ودونا باوندى	صبرى محمد حسن
٥١٧-	نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨-	استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد
٥١٩-	محاضرات فى المثالية الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٥٢٠-	الولع الفرنسى بمصر من الحلم إلى المشروع	أحمد يوسف	أمل الصبان
٥٢١-	قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر
٥٢٢-	إسبانيا فى تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى
٥٢٣-	الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٥٢٤-	الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٥٢٥-	موسم صيد فى بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت
٥٢٦-	أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كرول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد
٥٢٧-	أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى
٥٢٨-	أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وفلْ إيفانز	جمال الجزيرى
٥٢٩-	بدائع العلامة إقبال فى شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ
٥٣٠-	مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر

٥٣١-	ما الذى حدث فى «حدث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣-	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨-	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١-	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥-	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١-	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين ڤان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤-	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة	هومی بابا	ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسى	سير رويرت هاى	يوسف الشارونى
٥٧١- تاريخ النقد الإسبانى المعاصر	إيميليا دى ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى	جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو	كارلو كولودى	محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت	أيومى ميزوكوشى	محمد إبراهيم وعصام عبد الروف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى	چون ماهر وچودى جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١)	چون فيزر وبول سيترجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية)	محمود دولت آبادى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيرى	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية	ليزبيث مالكموس وروى أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتپ الثالث	أنييس كابرول	ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة	فيلكس ديبوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية	نخبة	محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١)	محمد صبرى السوربونى	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة	پول ڤاليرى	بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢)	إكواڤو بانولى	مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة	خوليو كاروباروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق	هرداد مهرين	محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة	ريان ڤوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية	چيمس وليامز	إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى	آرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكى (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيليس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد برادة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد يللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس براموِن	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥-	التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	ألكسياد	الأميرة أنّاكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلى ويوچين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية	سيهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر	چون نينيه	فتحى العشرى
٦٤٨- بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى	چى دى موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥- أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢- رحلة إلى الجذور	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣- امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤- الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥- عوالم أخرى	پول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦- تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧- الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨- ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩- ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠- أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١- قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢- مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣- ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤- ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥- أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦- أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨- تاريخ الأدب فى إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠- المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١- هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢- نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

-٦٨٣	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تى. م. ألوكو	صبرى محمد حسن
-٦٨٤	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كنتا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
-٦٨٥	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسى
-٦٨٦	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
-٦٨٧	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العنانى
-٦٨٨	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
-٦٨٩	الملف (مسرحية)	تادووش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
-٦٩٠	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
-٦٩١	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
-٦٩٢	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسى وأوسكار زاريت	حمدى الجابرى
-٦٩٣	أقدم لك: القتل الجماعى (المحرقة)	حاييم برشيت وآخرون	جمال الجزيرى
-٦٩٤	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدى الجابرى
-٦٩٥	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودى جروف	إمام عبدالفتاح إمام
-٦٩٦	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
-٦٩٧	أقدم لك: أرسطو	روبرت ويفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
-٦٩٨	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
-٦٩٩	أقدم لك: التحليل النفسى	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيرى
-٧٠٠	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
-٧٠١	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
-٧٠٢	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمى
-٧٠٣	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربى
-٧٠٤	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومى	محمد علاء الدين منصور وآخرون
-٧٠٥	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالى	عبدالحميد مدكور
-٧٠٦	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
-٧٠٧	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
-٧٠٨	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
-٧٠٩	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
-٧١٠	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
-٧١١	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
-٧١٢	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
-٧١٣	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستانى
-٧١٤	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
-٧١٥	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحى زغلول
-٧١٦	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
-٧١٧	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
-٧١٨	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
-٧١٩	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
-٧٢٠	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	الصفيحة وقصص أخرى	يشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثاليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باچين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس أليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: الذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى القرن العاشر	چيرار دى چورچ	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور دارويني	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	چوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريڤور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوچيا لغات العالم	ل.ج. كالڤيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروري
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنّا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديـيل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩- النثر الأردى	مولوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠- الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١- جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرچينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢- المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣- الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤- ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥- ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦- الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧- الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨- حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩- أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠- السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١- السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢- بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣- دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	چون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤- الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥- مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦- منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧- الانفجار الأعظم	چيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨- صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩- خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠- من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١- الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢- المسرح المسكون	مارڤن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣- العولمة والرعاية الإنسانية	ڤيك چورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤- الإساءة للطفل	ديڤيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥- تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦- المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧- العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨- سر الأهرامات	ميروسلاف ڤرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩- الانتظار (رواية)	هاچين	منى الدروبى
٧٩٠- الفرانكفونية العربية	مونيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢- دراسات حول القصص القصيرة لإدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣- ثلاث رؤى للمستقبل	چون جريڤيس	رءوف وصفى
٧٩٤- التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥- مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦- آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد وداڤيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩- سلم السنوات	آن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرڤيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديڤيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢- تمثل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	آنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	آمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	فيليب روجيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الصرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩- الصرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	داڤيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوركهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوركهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أهل مطروح البدو والمستوطنون والذين يقضون العطلات	دونالد پ.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوپولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	فرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	ذبيح الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥-	تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوريان	علاء عزمى
٨٣٦-	بين الإسلام والغرب	مرثيس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧-	عناكب فى المصيدة	ناتاليا فيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨-	فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩-	أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين ڤان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠-	الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١-	هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢-	منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣-	من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤-	دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥-	غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦-	الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧-	الحياة بعد الرأسمالية	مايكل أليرت	أحمد محمود
٨٤٨-	تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس ڤلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩-	سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠-	الخيال، الأسلوب، الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١-	الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢-	العلم والحقيقة	ريتشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣-	العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤-	العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥-	فهم الاستعارة فى الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦-	القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث يانو بياتوبا	عائشة سويلم
٨٥٧-	نادجا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨-	جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩-	السياسة فى الشرق القديم	إيڤ شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠-	مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١-	الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢-	ببغاء الكاكاتو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣-	لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤-	أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥-	فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦-	رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧-	المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨-	الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩-	تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠-	عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١-	عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢-	كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

٨٧٣-	معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤-	النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥-	النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦-	دراسات فى الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنرى جورج فارمر	أمانى المنياوى
٨٧٧-	أدب الجدل والدفاع فى العربية	موريتس شتيتنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١ ، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٧٩-	ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١ ، مجـ٢)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٨٨٠-	الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازى وأمير نبيه
٨٨١-	المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢-	أغانى شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٣-	أغانى شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازى	إبراهيم الشواربى
٨٨٤-	تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدى سالم
٨٨٥-	روح الإرهاب	چان بودريار	بدر عروبكى
٨٨٦-	الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧-	غزليات سعدى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨-	أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت
٨٨٩-	سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠-	منتخبات أشعار فراغى	مخدومقلى فراغى	الصفصافى أحمد القطورى
٨٩١-	مفاوضات مع الموتى	مارجريت أتوود	عزة مازن
٨٩٢-	تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣-	عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٨٩٤-	الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد على
٨٩٥-	وادى الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسرى خميس
٨٩٦-	شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧-	اختراق الجزيرة العربية	ديڤيد چورج هوجارث	صبرى محمد حسن
٨٩٨-	الإسلام والعلم	برويز أمير على	محمود خيال
٨٩٩-	الدبلوماسية الفاعلة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠-	تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١-	مختارات من شعر لى جاو شينج	لى جاو شينج	عبد العزيز حمدى
٩٠٢-	آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقى
٩٠٣-	أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٤-	أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومى
٩٠٥-	تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوى
٩٠٦-	أسس الحوار فى القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدى
٩٠٧-	أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز چيرو	فاطمة خليل
٩٠٨-	الحلقة النقدية	ديڤيد كوزنز هوى	خالدة حامد
٩٠٩-	الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	چوروست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠-	بروميثيوس بلا قيود	داڤيد س. ليندس	مى رفعت سلطان

٩١١- غبار النجوم — جون جريبين — عزت عامر

٩١٢- ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة) روايات مختارة — يحيى حقى

٩١٣- ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة) مسرحيات مختارة — يحيى حقى

٩١٤- ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة) ديزموند ستيوارت — يحيى حقى

٩١٥- المرأة فى أثينا: الواقع والقانون — روجر جست — منيرة كروان

٩١٦- الجدلية الاجتماعية — أنور عبد الملك — سامية الجندى وعبدالعظيم حماد

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٩٧٠/ ٢٠٠٦